THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

المرأة العربية

في جاهليتها وأسلامها

ألفه

عبد الله عفيفي

محرر عربي بدار الكتب المصرية

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة

(الطبعة الثانية) ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

يطلب من

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لمؤسسها نجيب مترى

893.791
Af 42
v.1-2

تقديمُ الكِتاب

إلَى حَضْرة صَاحِبَة العظمة الملكة نازلىٰ

مَوْلاَتى

زَادَكِ الله جَلالاً وأقبالاً ، تِلك صفحة منَ الحيَاةِ الخالدة ذهبت المرأة العربيَّة بوحى آيتهَا وَنهجُ سُنَّتهَا فتجلّت عَلى الدّهْر نُوراً رَائعاً وَجَمالاً وَضَّاحًا

تِلك هِىَ المرأة التى انحسَرَت عَن غُيوث الأرْض وَلُيوث الحِمىٰ ، وَتكشَّفَتْ عنْ حُرّ الخضَال وَغُرّ الخلاَل ، وَتَعالتْ عنْ منَازع الوَهَن وَنوازع الفِتَن ، وَضربَت الحجَّة البَالغة عَلى أنّ المرأة إذا اعْتَزمَتْ لا تُقصِّر عنْ مَدَى الرّجل فى مَضَاء الرأى ، وَذكاء القَلب ، وَسَنَاء العَمل ، وَابْتنَاء العظَائم

ذَلك يَا ذَات العظَمة حَديثُ الكمال المطلَق وَالخير الصَّريح ، أنشُرهُ بين يَدَىْ عصرك الأغَرّ ، وَأَرفعهُ إلى سُدَّتك الزّهرَاء ، فى وَقتٍ بَدَأتُ المرأة المصرية تكسُر أغلاَل الرِّق ، وَتخلعُ أسْمَال الخمول ، وتنزع أشرَاك العوائق ، وتجاذبُ الرّجَال حبَال الآمال ، وَلها من نفسكِ الزكيَّة وَرُوحِك العَليَّة ، وَحْىٌ وألهام وَقُدوَة و إمَام

فاليَك يَا رَبيبَة المجد الكريم ، وَرَبَّة البيتِ العَظيم ، أَسْتَشْرفُ بذَلك الكتابِ الذى أتوّجُه باسمك ، وَأجمّلُه بشرَف النسبَة إليك ، وَلى الفخر الأتم أنْ ينَال شَرف المثول ، وَفضْل القبُول

أجمَل اللهُ رعَايتَك ، وَأتمَّ نعمتَهُ عَليك ، وَأقرّ بالفارُوق عَينَيْك ، وَأمَدّ لكِ فى ظلّ صَاحب مصر أيّد الله دَوْلتَه ، وأعلَى كلِمتَهُ ، وَأعزَّ بسَعيه رَعيَّتَه ، آمين

العبد الخاضع

عبد الله عفيفى

7-6-64
MB

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّهُمَّ باسمك نَعتزِم وبِرُكْنِك نَعْتصِم وبِحَوْلك
نَستدفع الوَهَن ونَسْتعدِى على الزمن سبحانك
لا نحصى ثناءً عليك ، لك الحمد فى الأُولى والآخرة
انك أنت مُلْهِمُ القول ووَلِىُّ التوفيق

مقدمة

فى سبيل المرأة

(١)

ماضينا وحاضرنا

نحن ننزِع الى الكمال لأن لنا فيه نسباً عريقاً ، وطريقاً عميقاً[١] اذا انثنى عِطف[٢] الزمان ، فنحن مطلَع فجره ، ومبعَث نخره أو التبست عُقَد العظائم ، فنحن حُماة شِرْعتها[٣] ، وكُماة حَوْمتها[٤] بنا استحصفت مِرَّةُ المجد[٥] واستشرفت ذروته[٦] . ولنا عُقد لواؤه ، وتأثَّل بناؤه[٧] فاذا ابتغينا الحياة سنيَّةً ، وابتَعَثْنا الأمل جَنِيًّا ، فلسنا بُغاة نَصَفَة[٨] ، ولا عُفَاة معدِلَة[٩] ، وإنما هو ميراث سُلِبناه فى غَفْوة الليل[١٠] ، وغَلَس الظلام[١١] ، فنحن ننزِع عنه شَرَكَ العوائق ، ونرد دونه كيد الخطوب

---

(١) طريق عميق بعيد المدى (٢) عطف الرجل جانبه وثنى عطفه أعرض أو اختال
(٣) الشرعة السبيل (٤) الكمى البطل المدجج بالسلاح وحومة القتال أشد مواطنه
(٥) استحصف اشتد والمرة القوة (٦) استشرف رفع رأسه وبصره وذروة الشىء أعلاه
(٧) تمائل البناء تأصل (٨) النصفة الانصاف (٩) العفاة — جمع عاف — طلاب المعروف والمعدلة العدل (١٠) الغفوة النومة الخفيفة (١١) الغلس ظلام آخر الليل

تلك صفحة من صفحات تاريخنا الذى نعتزّ به ، ونطرب له ، ونستنشى الرجاء منه[١] ، ولعلها أحفل الصفحات بالعِظات ، وأجمعها للعظائم ، وآهَلها بنُبل الخُلُق ، وسناء الحياة

تلك هى حياة المرأة العربية فى جاهليتها واسلامها ، حياةُ العظمة الوادعة الرائعة ، والنفس الأبية النقية

تلك هى المرأة التى يحدّث عنها المؤرخ المُنقِّر[٢] الانجليزى العظيم (كلاى Clay) — مما استَشَفَّه من أطلال بابل — أنها كانت منذ أربعة وأربعين قرناً تجاذب الرجل سياسة الأمة ، وولاية الأمر ، وجِدَّ العمل ، وشُئُون الحياة

تلك هى المرأة التى وثب بها الإسلام ووثبت به ، وكان أثرها فى تكوين رجاله ، وتصريف حوادثه ، أشبهَ ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفياض فى زَهْر الرياض .

يريد نساؤنا أن ينهضْنَ ، فهن يبتغين الوسائل ويَتَلَمَّسْنَ الخطى . وما لهن لا ينهضن ؟ ومنذا يذودهن عما شرع الله لهن ؟ وهل هن إلا منابت مُحامَاتِنا ، واساةُ جراحنا ، وبُناةُ دولتنا ، ومَنَار دعوتنا ، ومَثَار قوتنا ؟ وهل نحن وايَّاهن الا كجناحى النَّسر الصاعد اذا هيض أحدهما خُفِض الآخر فيصبح لا يجد فى الأرض مَقعَداً ولا فى السماء مَصعَداً ؟

لينهض النساء ما شئن أن ينهضن ، ففى نهوضهن نهوضنا ، وبلوغ غايتنا ، ولكن ليحذر الآخذون بيدها والدعوان إلى نهوضها التواء القصد ، والتباس[٣] الطريق فينالها الزلل وتَلِجّ بهـا العثرات حتى يقول قوم لقد كان ما كانت فيه خيراً وأبقى

---

(١) استنشى الريح شمه (٢) المنقر الباحث المنقب (٣) التبس الطريق اختلط بعضه ببعض

ألا وان من الْتِوَاء القصد، وضلال الطريق، أن ندَع نساءنا يتخذن من المرأة الأوربية مثالاً يحتذينه، ويُمْعِنَّ فى التشبّه به

نحن قوم تحتكم بنا أمزجتنا، وأسلوب حياتنا، وجوَاء بلادنا[١]، وتكوين طبائعنا، ونُظُم شرائعنا، فمن الظلم أن نقول لنسائنا خُضنَ ثَبَجَ البحر[٢] واقتحمن شِعَاف الجبل[٣] وكُنَّ نساء أوربيات تَرَيْنَ ما يرين، وتَدَعْن ما يدعن. ذلك تكليف لا قدرة عليه ولا خير فيه

نعوذ بالله أن ننكر على المرأة الأوربية وفر فضلها، وسماحة عقلها، فذلك ما لا نجد السبيل إلى جحده والانكار له. ولكننا ننكر عليها أعراضاً قد لا تبتئس بها[٤]، ولا يأبه لها مَن حَوْلَها[٥]، على أنها مما يحز المفاصل، ويستثير الغوائل[٦] وهى اذا نقلت الينا كانت أشد وأفْتَك. ونخشى إذا حملنا نساءنا على الأسوة بنسائهم أن تكون تلك الأعراض هى الأولى والآخرة[٧]

لا أَكْذِبُ المرأة الأوربية فليست بالمثل الأعلى للمرأة العظيمة. فان قيل هى كاتبة حاسبة، وصانعة بارعة، قلنا لم تزد أن دَعَمت حياة المادة وزادتها نوطاً جديداً[٨]

ولو كان لها أثر نافذ فى الحياة لنُسِخت عبادة القوة[٩]، ودال سلطان الأَثَرَة ولأبصرت القوم يبادرون إلى عون الضعيف، وغوث اللهيف، ولما استمعت أنّةَ المظلوم تكاد تتفطر لها السموات وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هَدّا

أجلْ بصرك بين أعطاف هذا العالم وأطرافه ثم انظر هل ترى إلا رجلاً مَغْشِيًّا بالغلّ أَو مَحْنِيًّا على الضغينة؟ وهل تجد إلا امرأة مَطْوِيّةً على كبد حَرَّى أو مهجة

---

(١) الجواء جمع جو (٢) ثبج البحر وسطه (٣) الشعاف جمع شعفة وشعفة الجبل رأسه
(٤) ابتأس بالشىء كرهه (٥) أبه بالأمر أو للامر فطن له (٦) الغوائل جمع غائلة الدواهى
(٧) وسنبسط للقراء بيان ذلك وتعليله فى الجزء الرابع من كتابنا ان شاء الله
(٨) النوط الحمل فوق الحملين (٩) نسخت محيت

حَسْرَى ؟ وهل تبصر إلا واتراً وموتوراً[١] ، وقاهراً ومقهورا ؟ وهل تُحِسُّ بين الأُلفَاء والقُرَناء باخاء صاف ، ووُدّ غير مدخول ؟ وهل تعلم فى القوم إلا الخُلُق المضطرب ، والخَلة المموَّهة ، ويداً تمسح شَعَث الكلب[٢] ، وتدمى قلوب الشعوب ، وفما يَنْهَل من الدم ويشكو الأوام[٣] ؟ فأين يد المرأة وأين أثرها ؟ وهل لشىء غير تهذيب النفوس وتطهير القلوب خُلقت المرأة ؟

لكل ذلك أناشد نساءنا أن يَسْدِلن الحُجُب بينهن وبين نساء أوربا ففى أُمَّهاتنا الأُولَيات فضل وغَناء . أُولئك اللواتى نَسْتَنُّ عن طيب أعراقهن وكرم أخلاقهن ، وتلك دماؤهن تترقرق بين جوانحنا وأعطاف قلوبنا . فأما ما نحن فيه من مظاهر النَّوْء بالواجب[٤] والنُّكُول عن الجِدّ[٥] فانما هو صدأ عارض وغِشَاء مستحدث ألقاه علينا تطاول الزمن وتتابع الحادثات وما أصابنا فى سبيل ذلك من فَدَاحة الظلم وذل الإسار

ففى سبيل الكمال المُطْلَق ، والحياة الخالدة ، أسوق حديث المرأة العربية لا إلى النساء فحسبُ ، بل اليهن وإلى الرجال معهن فإن صلاح كل من الفريقين لا يقوم إلا على صلاح صاحبه ، والتجاوز له عن حقه الذى شُرِع له ، وسيعلم الناس مبلغ تلك المرأة فى عهد جاهليتها من قوة النفس ، وحُرْمة الرأى ، وعزة الجانب ، ونُبْل الخَليقة ، وكيف انتهى بها الإسلام إلى أبعد مدى من الحياة ونَهَج لها أوضح سُنَّة من الفضائل وألبسها أحسن لَبُوس من جلال الكمال وجمال الخلال

لذلك أنشأت كتابى مستعيناً بعناية الله ، مستهدياً بهداه ، فهو وحده ولىّ النُّجْح ، وهادى السبيل

---

(١) الموتور من قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه والقاتل هو الواتر (٢) الشعث غبرة الرأس
(٣) الأوام الظمأ (٤) ناء بالحمل نهض مثقلا (٥) النكول — مصدر نكل - النكوص والجبن

وقد فصلته على أربعة أجزاء : —

الجزء الأول المرأة العربية فى عهد جاهليَّتِها

الجزء الثانى المرأة العربية المسلمة فى عصورها الزاهية

الجزء الثالث الدور الثانى من أدوار المرأة العربية المسلمة عصر الهبوط

الجزء الرابع المرأة العربية الحديثة ، وفيه وصف المرأة فى أرجاء جزيرة العرب مما قاله أهلها وما كتبه المستشرقون الذين نزلوا بها ، ووصفها فى كل قطر من الأقطار المتعربة



(٢)

المرأة فى الحيـاة

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

ما كان الله لِيَدَع الرجل تحت أوقار الدهر[١]، وأثقال الحياة، حتى يخْلُق له من نظام نفسه، من يذود عنه هموم نفسه، ويحتمل دونه الكثير من شؤونه، ويضىء له ما بين يديه من شعاب العيش[٢]، وظلم الخطوب

تلك هى المرأة قَسِيمة حياته[٣]، ومَبَاءَة شَكَاته[٤]، وعِماد أمره، وعَتَاد بيته[٥]، ومهبِط نجواه، وتلك هى آية الله ومِنَّته ورحمته لقوم يتفكرون.

ينهض الرجل إلى الحياة بعزم وقوة يستمِدّان عقله ورأيه، وتستقبل المرأةُ الوجودَ بعواطفَ فيَّاضةٍ يتجلى بها قلبها الخفاق فتأسو بها ما جرحته القوة من قلب الفضيلة

فان ظهر الرجل بمضائه وذكائه فانّ للمرأة غايَتَهَا مِن صفاء القلب، ونَقَاء السريرة، وما ينبعث عنهما من وفاء وَوَلاء، وحَنان واحسان، وتسلية وتأسية، وغِيَاث مكروب، ونجدة منكوب، وما إلى ذلك مما يُقيم مائل الأرض، ويَلمّ صَدَعات الحوادث

من أجل ذلك كان قول المرأة أنفذَ فى قلب الرجل وأملك لنفسه من كل قول سواه. ولقد رِيع النبى صلى الله عليه وسلم لرؤية الروح الأمين أولَ عهده

---

(١) أوقار — جمع وقر — الأحمال الثقيلة (٢) الشعاب الطرق بين الجبال
(٣) القسيم المقاسم (٤) موطن شكواه (٥) العتاد العدة

به ومَلَكه الفزع منه فلم يَجِد — وهو صفيُّ الله وصفوته من خلقه — من يُسَرّى رَوْعه ويَشُدُّ قلبه إلاّ زوجَه خديجةَ إذ تقول له : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً أنك تحمل الكَلَّ[١]، وتَكْسِب المعدوم، وتُعين على نوائب الدهر »

ذلك قول المرأة التى آزرت نبيّ الله، وواسته بمالها وقلبها، وفَرَّجت عنه مواطن محدقةً مُطْبِقَة[٢]، واحتملت دونه خطوباً جَمَّة فوادح، وكان قولها أنفذ فى نشر دين الله من ألف سيف تُنْتَضَى فى سبيل الله[٣]

ذلك وحى الله والهامه أجراه على لسان المرأة فنزل برداً وسلاماً على قلب الرجل

أفبعد هذا القول من ذلك القلب غاية لمستمع أو سبيل لمستزيد ؟

ألا أن خشية الله ودينه وهما سبيل الكمال لا يَجِدَان مجالاً أهدى، ولا موطناً أخصب من قلب المرأة، لأن حاجة الدين إلى قلب صافٍ، وعواطف غالبةٍ، أشدُّ من حاجته إلى قلب ذكىّ، ورأى ألمَعِىّ

إلى كل ذلك تنتقل المرأة إلى طور آخر تبلغه، فتبلغ به غاية ما أُعِدَّت له من كمال النفس، وشرف العاطفة . ذلك طور الأمومة . فهناك تنزل المرأة عن حقها من الوجود لمن فُصِل عن لحمها ودمها تسهر لينام، وتظمأ ليروَى، وتحتمل الألم المُمِضَّ[٤] — راضية مغتبطة — لتذيقه طعم الدعة، وتُنْشِيَهُ نسيم النعيم

تلك هى التضحية بالنفس بلغت بها الأمومة غايتها

* والجود بالنفس أقصى غاية الجود *

ان من آيات التضحية فى المرأة ما يقف دونه الرجل عانِىَ الوجه نادِىَ الجبين ومن أمثال ذلك ما أنا سائقُهُ إليك، وقاصُّهُ عليك : —

---

(١) الكل العيال أو الثقل

(٢) مطبقة شديدة مرهقة

(٣) انتضى السيف سله

(٤) الممض الشديد الألم

فى صيف سنة ١٣٢٩ هـ كانت إحدى بواخر النيل تحمل العابرين غادية رائحة بين كفر الزيات ودسوق . ففى ذات مرة أحرج الرُّبان صدرها بمن احتملهم من قُصَّاد المولد الدسوقى ، فقذفها بضعفى ما تحتمل

سارت الباخرة متعثرة مترنحة تتحامل على نفسها وتضطرب فى خطاها فما كادت تنكشف إلى عُرض النيل قليلاً حتى آدها حِمْلها[١] ، فانبَتَّ عِقدها[٢] ، وانحلت عُقدتها ، ومالت على نفسها ، وتدفَّق الماء من منافذها . هنالك خرج الناس عن عقولهم ، وتملكهم الفزع الأكبر ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، فأخذوا يتدافعون على صدر النيل علَّهم يلقون يداً تدفعهم أو ترفعهم

بين هذا الحفل المتماوج المُتدافع المُتواقع تقطعت الأنساب ، فلا أب ولا أم ولا زوج ولا ولد . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وفى ذلك المَوطن الذى دارت عليه كؤوس الموت مُترَعة ظهرت امرأة لا تتلمس الشاطىء كما يتلمسون ، ولا تُلَوِّح بيدها كما يلوِّحون ، بل كان شُغُلُها والموج يرفعها ويخفضها ، والموت يقبضها ويبسطها ؛ أن نزعت خِمارها ، وأدرجت فيه ولدها ، ثم لوَّحت به إلى زوجها ، وقذفته على صفحة الماء مترفقة اليه وصاحت به متهدجة قائلة : —

خذ يا فلان فذلك وصيتى إليك . . . . .

قالت ذلك ثم غاصت بين طيات الماء بعد أن أسلمت وديعتها وأبرأت إلى الله نفسها[٣] . . .

الى تلك المنزلة السامية رفع الله المرأة ليكل اليها أشرف منازل الحياة ، منزلة

---

(١) آدها أثقلها (٢) انبت انقطع

(٣) وقعت هـذه الفاجعة فى منتصف الساعة الأولى من ١١ شعبان سنة ١٣٢٩ (٦ أغسطس سنة ١٩١١) ومن آلم ما حدث بها أن أخرجت من بين الغرقى امرأة حانية صدرها على رضيعها وبداها حافتان به . وكان جهد ما تحتمل الباخرة مائة وعشرين فأرهقها الربان بمائتين وعشرين

التربية والتعليم ، منزلة الأستاذ الذى لا يمحو علمَه ، ولا ينسخ آيتهُ أستاذ سواه ، بل كل سائر على سُنَّته ، ومستتبع طريقَه

لقد كان من سنن اليونان أيام سقراط وأفلاطون ومن لفَّ لفهما أن يقف الرجل خاشعاً حاسر الرأس إذا مرت به حامل وما كان ذلك لمظهر جثمانى فليس فى ذلك ما يدعو إلى الهيبة والخشوع ، بل كل ذلك لما مهد الله لها من عمل روحى ملكىّ مقدس .

« فيأيتها الأم الرؤوم[١] : ليس ذلك الذى بين يديك بالطفل الذى يبقى أمد »
« الحياة طفلاً ، بل هو سر الوجود يذاع عنك وصفحة الحياة تنشر عن أثرك »
« وهو أدَلُّ عليك من أسارير[٢] وجهك وبيان لسانك »

« ليست هـــذه البَضْعة[٣] المتحركة باللُعبة المُلْهِيَة بل هى العالَم الأكبر »
« يضطرب كاضطرابه ، ويتخايل فى مخايله . فانظرى على أى حالة تريدين أن »
« يكون الكون »

« ليس ذلك الدارج بين عينيك بالصبى الخَلِىّ بل هو خبيئة الدهر وعُدَّتُه »
« وربما ضم معاطف ثوبه على رجل الدنيا وواحدها . وما ينبئك لعل هناك مُلْكا »
« يترقب سيفه ، أو عرشاً يطمئن لقدميه ، أو أمة متعثرة تنتظر النَّصَفة من »
« وَضَح رأيه ، وفيْض بيانه »

« إن تلك المنزلة التى أعدك الله لها هى تلك التى وصفها بحقّ بطلُ التاريخ »
« الحديث « بونابرت » فقال : إن المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسراها »
« ولقد سئل ذات مرة : أى حصون فرنسا أمنع . فقال : المرأة الصالحة . . . »

---

(١) الرؤوم العطوف (٢) الأسارير — واحدها أسرار والأسرار واحدها سرر كعنب — خطوط الجبهة أو الكف (٣) البضعة القطعة من اللحم

ليست المرأة بالخَلْق الضعيف . فان من احتمل ما احتملته فى ظلمات التاريخ من عَنَت الدهر ، وعسف الأب ، وصَلَف الزوج ، إلى وَقْر الحَمل ، وألم المخاض وسُهد الأمومة — راضياً مطمئناً — لا يكون ضعيفاً

وليست بالخَلْق الحقير . فان من وكَّله الله بابتناء الكون وإنشاء الأمم لا يكون حقيراً

ألاَ إنما المرأة دِعامة الكون لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به . فان هى وهنت دونه ، وتخاذلت عنه ، تهاوت عَمَده ، وتصدعت جوانبه

ولقد فتح المعز لدين الله ما يلى إفريقية حتى البحر المحيط ، ثم أخذ يرنو إلى مصر واجماً متهيباً ، فلم يزل ذلك أمره حتى قال قائل إن نساء قصر الاخشيد أغرقن فى الترف واستهنَّ بالفضيلة . . . فما لبث أن قال : اليوم فتحت مصر . . .

وكذلك وهنت نفس المرأة وهى مصدر قوَّتهـــا وسبيل عملها فانبَتَّ نظام الملك وانفصمت عروة الأمة وكان حقاً على الله أن يبدلها ويُديل منها وما ربك بظلام للعبيد ؟

عبد الله عفيفى

المرأة العربيـة

فى عهد جاهليتها

(١)

نصيبها من الوجود

لم تُطْوَ صفحة التاريخ على امرأة بلغ من الضَّنِّ بها ، والإيثار لها ، وبذل المهج رخاصاً فى سبيلها ، ما بلغ بالمرأة العربية فى تلك الحِقَب[١] المتطاولة المترامية

نشأت المرأة العربية فى قوم غَلَبت عليهم دِقَّةُ الحِسِّ ، وسَوْرة النفس[٢] ، وخوضُ مناهل الدم خوفَ انثلام الشرف ، واستباحة الحىّ ، فكانت هى أدقَّ أوتار الحس من قلوبهم ، وأوضحَ مواطن الشرف فى نفوسهم . ولولا المرأة ما كان بالرجل نزوع إلى حِمَى ، ولا رَعْىٌ على وطن

لقد كان العرب رُوَّاد غارات ، وطُلَّاب ثارات . وكان الرجل منهم يغتمِر[٣] الموقعة لا يدرى أَوَقَعَ على الموت أم وقع الموت عليه . غير أن خيال ابنته وما عسى أن يصيبها بعده من حاجة وهَوَان كان يتغلغل فى نفسه فيهيج بها حبّ الحياة . فمَثَلُهُ فى ذلك مَثَلُ اسحاقَ بن خَلَف حيث يقول : —

لولا أُمَيمة لم أجزع من العدم ... ولم أَجُب فى الليالى حِنْدِس الظُّلَم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ... ذل اليتيمة يحفوها ذوو الرَّحِم
تهوى بقائى وأهوى موتها شَفَقاً ... والموت أكرم نَزَّال على الحُرَم
أحاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها ... فيكشفَ السِّتْرَ عن لحم على وَضَم[٤]
إذا تذكرت بنتى حين تندبنى ... فاضت لرحمة بنتى عَبرتى بدم

(١) جمع حقبة وهو من الدهر مدة لا وقت لها (٢) سورة النفس حدتها (٣) يغشى
(٤) الوضم الخوان يوضع عليه اللحم ليشوى و « لحم على وضم » مثل يضرب لكل ذليل لا يعتصم من مكروه

وفى سبيل ذلك يقول حِطَّانُ بن المُعلَّى :

لولا بُنَيَّات كزُغْب[١] القطا ... رُدِدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لى مُضْطَرَب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادُنا تمشى على الأرض
لو هبّت الريح على بعضهم ... لامتنعت عينى عن الغُمض

كذلك كانت المرأة تهتف بالرجل أو تلِمُّ به تحت ظلال السيوف ، وقد مَلَكَ الروعُ القلوبَ ، وعقد لهول الألسنة ، وانثغرت الأفواه ، وحارت النواظر فى المحاجر ؛ فيستمد عزمًا نبا ؛ ويسترد قوة عَزَبت . ومَثَلُ ذلك ما فعل ابنتا الفِنْد الزِّمَّانى يوم « تَحْلاَق اللمم » وهو يوم انتصاف بكر من تَغْلِب[٢] . فقد اشتجرت

(١) زغب جمع زغباء — ما لم يستتم ريشه من الطير

(٢) بكر وتغلب — ابنا وائل بن قاسط — أحوان انكشف كل منهما عن شعب عظيم من العرب . وبرغم ما بين الشعبين من صلة النسب وقرب الجوار دفعا الى النضال مجاذبة للسيادة وتدافعاً فى سبيل الحمية حمية الجاهلية فعانوا فى سبيل ذلك حروباً وأهوالا ثقالا . وأهول ما جد من حروبهم حرب البسوس وكانت بكر هى البادئة بالعدوان فيها — وسيمر بك حديثها — لذلك اعتزل الحرب نفر من سادات بكر حتى لا يعينوا ظالماً على مظلوم وانحازت اليهم عشائرهم . ومن هامات أولئك الفند الزمانى وكان — كما يقول ابن اسحاق — سيد بكر وفارسها وشاعرها . والحارث بن عباد فارس النعامة — وكان فارس ربيعة وشاعرها وما زال أولئك على اعتزالهم حتى عرض مهلهل بن ربيعة — سيد تغلب وقائدها — لجير بن الحارث بن عباد — وهو فتى لم يخط الى العشرين — فقتله ولم يعرف له حرمته وهو ابن أخته ولا عرف لأبيه سابقته وقد كف عن حربه لأنه مظلوم . هنالك غضب الحارث غضبته الرائعة وصاح فى قومه فلبته بشكر وعجل وبنو حنيفة وبنو قيس بن ثعلبة وساداتهم وفى القوم الفند الزمانى — وكان يقوم بألف رجل — فانحازوا جميعاً الى الحارث بن همام البكرى ولما تراءى الجيشان قال الحارث بن عباد للحارث بن همام هل أنت مطيعى فيما آمرك به ؟ قال ما أنا بتارك رأيك الى ما هو شر منه قال اعلم أن القوم مستقلون لقومك فى السلم فزادهم جرأة فى الحرب فقاتلوهم بالنساء فضلا عن الرجال قال وكيف قتال النساء ؟ قال تعمدون الى كل امرأة لها جلد ونفس فتعطى كل واحدة منهن أداوة وهراوة فاذا صفقت أصحابك فصفهن خلفهم فان ذلك مما يزيد الرجال جلداً وشدة ونشاطاً ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم فاذا جرح منكم انسان فى القتال أمرن بسقيه واذا مررن من عدوكم بانسان ضربنه بالخشب فقتلنه ففعل الحارث بن همام ما أمر به الحارث بن عباد — وهو أول من أشار بحشد النساء مع الرجال — فتحاشدوا لذلك وحلقوا رؤوسهم علامة بينهم وبين نسائهم — ومن أجل ذلك سمى ذلك اليوم بيوم تحلاق اللمم

وكان من أمر الموقعة ما أجملناه فى أصل الكتاب

الأسنة، واعتنقت الأبطال، ونفذت السيوف إلى أعماق القلوب وظهرت تَغْلِبُ كالجذوة المضطرمة، وبدأت بَكْرٌ تنكشف وترتد. وهنالك حسر الفتاتان البكريتان خِمَارَيهما ونفذتا بين صفوف قومهما وأخذتا تثيران بما تُنْشِدَان نفوسهم، وتذْكيان نار الحفيظة فيهم، وكان مطلع قولهما:

وغى وغى وغى وغى حَرَّ الحَرَار والْتَظَى[1]
ومُلِّئت منه الرُّبَى يا حَبَّذَا المُحَلّقون بالضحى

وأقبلت من ورائهما كَرْمة بنت ضِلَع، أمُّ مالك بن زيد، فارس بكر وواحدِها فتغنت بما يُحيل الجبان المستطار شهابا ثاقبا، وسعيراً مستطيراً، وكان مما تغنت به قولها:

نحن بنات طارق[2] نمشى على النمارق[3]
مَشْىَ القُطَىّ البارق[4] المسكُ فى المَفارق[5]
والدُّر فى المخانق[6] ان تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق فِرَاقَ غير وامِق[7]
عِرْسُ المُوَلِّى طالق[8] والعار منه لاحق

فلم يلبث القوم أن تدافعوا وراءهن على أعدائهم، واقتحموا صفوفهم، واستباحوا معاقلهم، وأعملوا السيوف فى رؤوسهم، وأنهلوا الأسنة من صدورهم فلم ينكشف

---

(١) حر حرار الشيء اشتد حره والتظى التهب تقولان دونكم الحرب فقد اشتد حرها والتهبت نارها
(٢) طارق كوكب من كواكب السحر ويسمى كوكب الصباح — وهو المعنىّ بقوله جلت آيته « والسماء والطارق » — تريد نحن بنات المجد والسمو (٣) النمارق « جمع نمرق ونمرقه » الوسائد — تريد أنهن يطأن بأقدامهن مواطن الوجوه من الناس
(٤) القطى صغار القطا ومن دأب القطا اذا مشى تثاقل وتباطأ حتى ضربوا به المثل فقالوا « أدل من قطاة » والبارق الحائر أو الفزع (٥) المفارق — جمع مفرق — وسط الرأس وهو الذى يفرق فيه الشعر
(٦) المخانق — جمع مخنقة — القلائد (٧) الوامق المحب (٨) العرس الزوجة والمولى المدبر الفار

الهول حتى كانت تغلب بين قتيل وأسير وشريد . وفى مثل هـذا الموقف يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيضٌ حِسَانٌ ... نُحاذر أن تُقَسَّم أو تهونا
أخَذْن على بعولتهن عهداً ... إذا لاقَوْا كتائب مُعلِمينا[1]
لَيَسْتَلِبُنَّ أفراسا وبيضا ... وأسرى فى الحديد مُقَرَّنينا
إذا ما رُحْن يمشين الهُوَينى ... كما اهتزَّت متون الشاربينا
يَقُتْنَ جيادنا ويقلن لستم ... بُعُولَتَنَا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا

كل ذلك ينبئك أن المرأة العربية مَثَار عاطفة الرجل ، ومَدَار وِجدانه ، هى سر حياته وموته ، هى مَهَاج غضبه ، ومَعقِد أُلفته ، هى مُجْتَلَى قريحته ، ومطلع قصيدته ، هى موطن غَنَائه[2] ، ومذهب غِنائه ، هى مَشْرِق وحيه ، ومنار إلهامه ، هى نور الوجود فى ناظريه ، هى كل شىء بين يديه .

لقد بلغ خيال العربى من السموّ بالمرأة أن جعل الملائكة أشباها لها ونظائر فقال : هُم بنات الله وصَفِيَّاته . . . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً
وإذا علمت أن العرب اتخذوا الملائكة آلهةً من دون الله فما ظنك بأشباههم يومئذ؟

بل ما ظنك بامرأة ملكت على الرجل قلبه ورأيه فلا يكاد يصيب معنى ، أو يطيف بموضوع ، حتى يُلِمَّ بذكْرها ، ويتغنى بمحاسنها ، ويتمدح بشمائلها ، ويتأثر بأطلالها ومَعَالمها[3] .

---

(١) البعولة — جمع بعل — الأزواج . والكتائب — جمع كتيبة — الجيوش . والمعلمون من أعلم الفارس اذا جعل لنفسه علامة الشجعان (٢) الغناء — بفتح الغين — الكفاية — وبكسرها توقيع الصوت (٣) الطلل ما شخص من آثار الديار . والمعالم — جمع معلم — ما يستدل به على الشىء

كذلك كان يفعل شعراء العرب ، وهم ألْسِنةُ القوم ، وحَفَظَةُ آدابهم وحُمَاة مجدهم ، وشُرَّاعُ فضائلهم . حتى لقد بكى مُهَلْهِلُ بن ربيعةَ كُليبا أخاه وهو مُحْرَق الكبِد ، موصول الكمَد ، فبدأ بالمرأة يذكُرها ويصف دارها ، قبل أن يذكُر أخاه ، وذلك حيث يقول[١] :

الدار قَفْرٌ عفاها بعـد ساكنها ... بالريح بعد ارتحال الحىّ عافيها[٢]
وغالهـا الدهر أن الدهر ذو غِيَلٌ ... فأصبحت بَلْقَعًا قَفْرًا مغانيها[٣]
إلا رَواكدَ سُفْعًا بين مُلتَبِد ... مثل الحمامـة منتوفًا خوافيها[٤]
دار لمهضومة الكَشْحَين خَرْعَبةٌ ... كالشمس حين بدا فى الضَّوْء باديها[٥]

فما زال يستتبع قوله فى وصف صاحبة الدار حتى قال :

كليبُ لاخير فى الدنيا ومن فيها ... إذ أنت خلّيتها فيمن يُخَلّيها

كَذلك فعل الحارث بن عُبَاد بعـد أن قتل مهلهلٌ ابنَهُ بجيراً واستَعَرَت جمرة الحفيظة[٦] والثأر فى صدره ، حتى صبها على آل مهلهل جحيماً وحميماً . فقال يصف فتكته ، ويذكُر ولده فى قصيدة ضافية ألَمَّ فى أولها بالمرأة فقال[٧] :

بانت سعاد وما وفّتك ما تعد ... فأنت فى إثرِها حَرَّانُ مُعتَمِدُ[٨]

---

(١) بكر وتغلب ص ٤٤ (٢) عفت الريح الديار محتها (٣) غالها أخذها من حيث لا تدرى والاسم الغيلة وجمعها غيل والبلقع الارض التى لا نبت فيها ولا شىء بها ومثلها القفر والمغانى جمع مغنى وهو المنزل الذى غنى به أهله (٤) الرواكد الثابتة . والسفع — جمع سفعاء — الاثافى وهى الحجارة توضع عليها القدر والخوافى من الطائر ريشات اذا ضم جناحيه خفيت يقول أن الدهر لم يبق من تلك الدار الا الأثافى الراكدة بين الدمن المتلبدة فمثلها فى خفائها مثل خوافى الحمامة المنتوفة أو كان الدمن المتلبدة وما خفى من بينها من الاثافى حمامة منتوفة الخوافى (٥) الخرعبة الشابة الحسنة الخلق الجسيمة اللينة الرقيقة والكشح ما بين الخاصرة الى الضلع ومهضومة الكشحين نحيلة الخصر (٦) الحفيظة الحمية والغضب (٧) بكر وتغلب ص ٧٦ (٨) بانت فارقت والمعتمد من اعتمد ليلته اذا قطعها ساريا

وما زال يمعن فى وصف سعاد حتى استكمل فيها عشرة أبيات كاملة، ثم عطف على موضوعه فقال :

سل حى تغلبَ عن بكر ووقعتهم بالحِنو إذ خَسِرُوا جهداً وما رَشَدوا[1]

لعمرك ما ترك الحزن لمهلهل ما يشغله عنه، وما أبقى الزمن للحارث ما يقوى على اللهو به . فما لهما يفعلان ذلك ؟ أما إنهما لم يفعلا ما فعلا إلا ليتألفا المعانى النافرة، ويستقيدا الألفاظ الشاردة . ولولا ذلك ما جاء قولهما كما جاء عذباً فراتاً .

ذلك طبع العرب . وتلك سُنَنهم .

ولقد كان الرجل منهم وما كاد يبتدر صالحة، أو يسبق إلى مَكْرُمة، حتى يسبق إلى المرأة، فيسوق اليها الشعر فياضاً بمأثرته، حفيلاً بمفخرته، وأكبر أمله أن تذكره بكلمة طيبة بين نظرائه، فيروحَ عنها بفخر لا ينفَد، ومجد لا يبيد . وفى مثل ذلك يقول شاعر قيس[2] :

إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلمى فَحَيِّينـــا وإن سَقَيْتِ كرام الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جُلَّى ومكْرُمة يوماً سَرَاة كرام الناس فادعينا[3]

ويقول شاعر ذُهل يوم ذى قار[4] :

إن كنت ساقية يوماً ذوى كرم فاسقى فوارس من ذهلِ بن شيبانا
واسقى فوارسَ حاموا عن ذِمارهم واعلى مفارقهم مسكاً وريحانا

بل لقد كان الرجل يأتى الأمر تسوّغه نفسه، ويحمله عليه موقفه، وربما كان الخير كله فيه، فلا تهدأ نفسه، ولا تطمئن سريرته، حتى يُفضِىَ اليها بعذره،

(١) الحنو موطن من مواطن العراق بذى قار نشبت فيه موقعة بين بكر وتغلب فعقد النصر بلواء بكر
(٢) هو بشامة بن حزن النهشلى (٣) الجلى الأمر العظيم (٤) هو الدهان بن جندل

ويكشف عن مكنون أمره . وفى مثل ذلك ما يقول أزهَرُ بن هِلَال التميمى يعتذر عن فراره :

أعاتِكَ ما ولّيتُ حتى تبددت ... رجالى وحتى لم أجد متقدَّما
وحتى رأيت الوَرد يَدْمَى لَبَانُهُ ... وقد هزه الأبطال وانتَعَلَ الدَّما[1]
أعاتك إنى لم أُلَم فى قتالهم ... وقد عَضَّ سيفى كبشَهم ثم صمَّما[2]
أعاتك أفنانى السلاح ومن يُطِلْ ... مقارعة الأبطال يرجعْ مُكلَّما[3]

وشبيه بذلك قول من يقول :

قالت سَلامَةُ ما أرى لك عادةً ... أن تترك الأعداء حتى تُعذِرا[4]
لو كان قتل يا سلامَ فراحةٌ ! ... لكن فررت مخافةً أن أوسَرا
وسبقت قبل المقرفين فوارساً ... لبنى فزارة دارعين وحُسَّرا[5]

ولعل أبلغ من هذين معذرة ، وأقوم سبيلاً ، ذلك الذى يعتذر عن قَراره فى داره ، ورضاه باليسير من عيشه ، فيقول :

قالت أما ترحل تبغى الغنى ... قلت فمَنْ للطارق المُعتِم ؟
قالت فهل عندك شىء له ... قلت نعم ، جُهْدُ الفتى المعْدِم
فكم وحقّ الله من ليلة ... قد أُطعِمُ الضيف ولم أَطعَم
إن الغِنَى بالنفس يا هذه ... ليس الغِنَى بالمال والدرهم

ومن أمثل ما جاء فى الاعتذار إلى المرأة قول عنترة العبسى :

بَكرَت تخَوّفنى الحتوف كأننى ... أصبحتُ عن غَرَض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنية منهل ... لا بدَّ أن أُسقى بكأس المنهل

---

(١) الورد من الخيل ما كان أحمر مائلا الى صفرة حسنة ويدمى يسيل دما واللبان الصدر
(٢) كبش القوم سيدهم وقائدهم وصمم السيف أصاب المفصل وقطعه (٣) المقارعة المضاربة والمكلم الكثير الجراح (٤) يعذر أى يصيب العذر (٥) المقرفون الذين ينتمون الى العرب بأمهاتهم لا بآبائهم والدارع الذى يتخذ الدرع للحرب وضده الحاسر

أما ضنُّ الرجل بها ، وإيثاره لها ، وحرصه عليها ، وتفديته إياها بنفسه وما ملكت يمينه ، فقد بلغ من أمره أن كسرى أَبْرَوِيزَ ملكَ الفُرس وسيد ملوك المشرق ، أرسل إلى النعمان يبغى مصاهرته — ولو أن ملكا من أقطاب العالم وأبطاله الفاتحين خَطَبَ اليه كسرى ابنته لوثب عن عرشه زهواً واختيالاً بتلك النعمة السابغة — على أن النعمان وهو مولاه ، وصنيعته ، والقائم بأمره ، والقارّ لسيفه ، والخاضع لسلطانه ، ردَّ رسوله مُقَنَّعاً بالخيبة ضِنًّا ببنات المنذر أن يكُنَّ قعائد بيت أعجمى أيًّا كان مكانه وسلطانه . حتى إذا عاود الرسول مولاه بما لا يرضاه ، اضطرمت فى صدره جذوة الغضب ، وثارت بين جنبيه سَوْرة الملك ، فأرسل يستقدم عاهل العرب !

هنالك أبصر النعمان وميض الموت يلمع من صَوْب المدائن ؛ فأودع ابنته حُرَقة وما يعتزُّ به من سيوف ودروع « هانئ بن قُبَيصة الشيبانى » وذهب إلى حيث طُرح تحت أقدام الفيلة ، فذهبت بلحمه وعظمه ودمه كل مذهب من ثَغَرَات الأرض ، وسَوَّت معالم جسمه بالتراب .

بذلك نقع كسرى غليل غضبه ، وأراد أن يعاود ما بدأ ، فأرسل الى هانئ يقتضيه ابنة النعمان ، فما كان نصيبه منه بأجمل من نصيبه من صاحبه . هاج كسرى هائجُ الحَنَق على هذه الأمّة التى استأسدت فى وجهه ، واحتجزت فَتاتَها دونه . فأرسل فيالقه يزحَم بعضُها بعضاً ليوقع الخسف بها ، ويَبسُط رواق الذل ضافياً عليها . وهنالك قام العرب يدفعون عن حوزتهم ، ويذودون عن أعراضهم فالتقوا بجحافل الفرس على بَطْحاء ذى قار ، فى موقعة احمرَّ لها وجه الأفق ، وارتفع النَّقْع[1] المُثار ، حتى مَحَا آية الشمس ، فظهرت الكواكب واضحة عند منتصف

(١) النقع . الغبار

النهار[١] . وقام من أبطال العرب من قطع وُضُن النساء[٢] حتى لا يجدن سبيلاً إلى الفرار إذا جاشت به نفوس ذويهن؛ فتأججت عند ذلك قلوب القوم، وأُرهِفَت أنيابُهُم ، واستحالوا إلى صواعق ساحقة . ثم انحسر القتال وقد ضربوا أعداءهم ضربة أطارت قلوبهم ، فنكصوا على أعقابهم ، وفَزِعوا إلى ديارهم ، وسيوفُ أولئك البواسل ، القلائل ، الأباة الضيم ، الحُماةِ الذِّمار، تَعمَل فى أقفيتهم حتى أرباض المدائن[٣] . وفى ذلك يقول العُدَيْل العِجْلى :

ما أوْقَدَ الناس من نار لمَكْرُمة ... إلا اصطَلَينا وكنا مُوقِدِى النار
وما يَعُدُّون من يوم سمعت به ... للناس أفضَلَ من يوم بذى قار
جئنا بأسلابهم والخيلُ عابسةٌ ... لما استلبنا لكسرى كل أُسوار[٤]

ذلك يوم ذى قار . ذلك يوم انتصاف العرب من الفرس ، وتحريرهم من رقهم[٥] .

ولم تكن المغالاة بالمرأة وقفاً على ذوات الثراء والسناء منهن . فقد كان يُغَالَى بها ، وتُغَالِى بنفسها ، مهما هان أمرها ، أو اتضعت عشيرتها ، ومَثَلُ ذلك ما حَدَّث ابن الأثير أن أحد دَهاقين[٦] الفرس جَهِدَ أن يتزوَّج امرأة من باهِلَة[٧] فأبت عليه ذلك . كلُّ ذلك رَغم ما لِدَهاقين الفُرْس من سعة العيش ، ونعومة الحال ، وما بلغته باهلة بين العرب ، من لؤم الحسب ، وانصداع النسب .

كذلك بلغ من غضب العربى للمرأة ، وحرصه على كرامتها ، ووَقف شرفه على شرفها : أن يعمِدَ الرجل منهم إلى الملك المُتَوَّج فيَقصِمَ هامته ، حِيَاطةً لهذا

(١) كذا يزعم العرب فيما يحدثون عن هذه الموقعة (٢) الوضن جمع وضين وهو بطان عريض للرحل منسوج من سيور أو شعر أو جلد فاذا قطع بقى الرحل لا يعتمد على شىء فيسقط (٣) أرباض المدينة — جمع ربض — ما حولها (٤) الاسوار — بضم الهمزة وكسرها — قائد الفرس والجيد الرمى بالسهام والثابت على ظهر الفرس وجمعه أساورة وأساور (٥) ابن جرير ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥٦ والعقد الفريد ج ٣ ص ١١٣ — ١١٤ وحروب بنى شيبان ص ٣ — ٦٩ (٦) الدهاقين واحده دهقان — التاجر وزعيم فلاحى الفرس ورئيس الاقليم (٧) باهلة قبيلة من أوضع قبائل العرب

الشرف ، وذياداً عنه أن يُبذَل أو يُذَال . فقد حَدَّثوا أن عمرو بن هند ملك العرب قال لجلسائه : هل تعلمون أحداً تأنف أمه أن تخدُم أُمّى ؟ فقالوا : نعم ! ليلى بنت مهلهل ، لأن أباها مُهَلْهِلُ بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعزُّ العرب ، وبعلها كُلْثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه ، وليث كتيبتهم . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يُزِيرَ أُمَّهُ أُمَّهُ . فأقبل عمرو من الجزيرة فى جماعة من بنى تَغْلب ، وأقبلت ليلى فى ظُعُنٍ[1] من قومها . وأمر عمرو بن هند برواقه فضربه فيما بين الجزيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا . ثم دخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رواقه ، ودخلت ليلى وهند فى قبّة واحدة . وقد كان الملك أمر أمه أن تُنَحِّى الخدم إذا دعا بالطُّرَف[2] وتستخدم ليلى ! . فدعا عمرو بمائدته ، ثم دعا بالطُّرَف . فقالت هند : ناوليني يا ليلى هذا الطبَق . فقالت ليلى : لِتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها ! فأعادت هند ما طلبت ، وألحّت فى ذلك وأكثرت . فصاحت ليلى : واذُلّاه ! يا لَتَغْلِب ! فسمعها عمرو ابنها فانتفض انتفاضة المحموم وقال : لا ذل لتغلب بعد اليوم ! ثم نظر إلى سيف معلق بالرواق ليس هناك غيره . فاخترطه[3] وصدع به رأس عمرو . ونادى بعد ذلك فى بنى تغلب فانتهبوا ما فى الرواق . واستاقوا نجائب[4] الملك . ففى ذلك يقول عمرو معلقته وفيها يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليقينا

بأنّا نُوردُ الرايات بيضاً ... ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قد رَوِينا

---

(١) جمع ظعينة وهى الهودج أو المرأة ما دامت فيه (٢) الطرف — جمع طرفة — ما تعطيه غيرك ما لم يعط أحد قبلك ويراد به هنا ما يتنقل به بعد الطعام (٣) اخترط السيف استله

(٤) النجائب جمع نجيب وهو الفاضل من كل حيوان وأكثر ما يريد بها العرب الابل

حتى يقول :

ألا لا يعلمِ الأقوام أنّا تضعضعنا وأنّا قد وَنينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأىّ مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأىّ مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلِكم فيها قَطِينا[1]
تَهَدَّدْنا وأوعدنا رويداً متى كنا لأمك مَقْتَوِينا[2]

وكأن ما فعل عمرو بن كلثوم لم يغن عن تغلبَ كثيراً . فقام مُرَّة بن كُلثوم وقتل ولد النعمان وأخاه ليطفئ جذوة من الغضب هاجها تعمد المهانة لأمه[3] .

ألا ان كلمة واحدة قَذَفت بها امرأة فأصابت موطن الحسّ من رجل فهاجت لها الحرب أربعين عامًا لم يدرَ فيها ضرع ، ولم يكتهل بين أثنائها فتى .

وحديث ذلك : ان البسوس ابنة مُنْقِذ — خالة جَسَّاس بن مُرَّة سيد بنى بكر نزل بها ضيف من ذويها يدعى سعداً ، فأفسحت دارها له ، وأناخت بحظيرتها ناقته ، فما كاد يطمئن بالرجل مُقامُهُ حتى انطلقت ناقته ترعى . وقادها حَيْنُها[4] إلى حِمَى[5] لكُلَيب بن ربيعة صهر جساس ، وفتى العرب ، وسيد تغلب — ولم يكن لأحد غير جساس أن يُرْعِىَ إبلَهُ حِمَى كليب — فلما بَصُرَ كليب بها غريبة بين إبله أنفذ سهمه فى ضرعها ، فانطلقت تعدو وهى تَشخُب[6] دمًا ولبناً حتى نزلت بِفناء البسوس . فلما استبانت مابها صاحت وأعولت واندفعت تقول :

---

(١) القيل الملك من ملوك حمير . وملوك الحيرة — الذين منهم عمرو بن هند — منهم . والقطينة قعيدة الدار (٢) المقتوى — بتشديد الياء وقد تخفف — الخادم ويجمع على مقاتيه ومقتوين

(٣) الأغانى ج ٩ ص ١٧٥ — ١٧٦

(٤) الحين الهلاك (٥) الحمى موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى وكان الشريف من العرب اذا نزل بلداً فى عشيرته استعوى كلباً فحمى له وحده مدى عواء الكلب وكان كليب أحمى العرب لحماه ولذلك ضربوا به المثل فقالوا : أحمى من كليب (٦) شخبت الناقة سال ضرعها

لَعَمْرُكَ لو أصبحت فى دار مُنقِذٍ ... لما ضِيمَ سعد وهو جارٌ لِأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار غُرْبَةٍ ... متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتى
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل ... فانك فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذْوَادِى[1] فانىَ عنهم ... لَرَاحلةٌ لا يفقدون بُنَيَّاتى

سمع جساس تلك الكلمة الأخيرة فأصابت الوتر الأرَنَّ مِن قلبه ، فأجفل اجفال الأخيذة من تلك الوَصمةِ المُنْدِية ؛ وصمةِ العجز عن حياطة بنيات خالته ! فقال : « اسكتى أيَّتُها المرأةُ فَلَيُقْتَلَنَّ غداً جمل هو أعظم عَقْراً[2] من ناقة جارك » ولم يزل يتوقع غِرَّة[3] كليب حتى أنبئ بانفراده ، فاعتقل[4] رُمحه ، وخرج للقائه . فلما أبصره طعنه ، وَدَقَّ صُلْبَهُ ، وأبى عليه الماء أن يُبَلِّغَهُ به . وعلى إثر ذلك ثارت حرب البسوس ، وفيها استحرَّ القتل بالحَيَّين أربعين عامًا حتى كاد يلحقهما الدثور فى أثَرها وما عصفت بها إلا كلمةٌ واحدة كان خليقاً بها أن تذهب لِحينها ، لولا أن نَسَجَتها امرأة ، وحاكَتها على امرأة .

ربما قلت أولئك سَرَوَات القوم وهاماتهم ، غَضِب بعضهم لبعض ، وهاج بعضهم على بعض ، فتدافع العرب فى مَسَاقهم طَوَاعيةً لهم ، وانسياقاً فى أثرهم . فمثلهم فى ذلك مثل عامّة الفرس والرومان وأمم القرون الوسطى من أشرافهم .

على أن ذلك ان قيل فيمن سوى العرب من الأمم ، فالعرب أجلّ وأعظم من أن يوصموا به ، أو يكونوا فى شىء منه .

ان شرف المرأة العربية حَلْقَةٌ مُفْرَغةٌ لا طَرَف لها . ولئن تدافعت عامّة العرب فى مَسَاق أشرافهم يوم البسوس ، لقد تدافع الأشراف فى مساق عامتهم

(١) الاذواد جمع ذود والذود الطائفة من الابل قيل من الثلاثة الى العشرة أو العشرين أو الثلاثين
(٢) العقر ضرب قوائم البعير أو الفرس بالسيف (٣) الغرة الغفلة
(٤) اعتقل الفارس رمحه جعله بين ركابه وساقيه

يوم الفِجَار[١] بين قريش وهوازن . وكان من أمر ذلك أن شباباً من كِنانة أطافوا بامرأة من عِمَار الناس فى سُوق عُكَاظ ، فأعجبهم ما رأوا من حسنها ، وسألوها أن تُسْفِرَ لهم عن وجهها . فأبت ذلك عليهم ، فأخذوا يُعنِتُونها[٢] ويسخرون بها ، وهنالك نادت : يا آل عامر ! فلَبَّتْها سيوف بنى عامر . ووقف بنو كنانة يدرأون عن فِتيانهم . وهاجت هَوَازن لعامر ، واغتمرت قريش فى كِنَانة[٣] ، وهنالك تفجرت الدماء ، وتناثرت الأشلاء[٤] . ولولا حكمة بدرت من حرب بن أمية يومئذ لكان الخطب أفدَح ، والمصاب أطَمّ . فقد وقف بين القوم فحسم ضغينتهم ، واحتمل ديات قتلاهم[٥]

لم تقف منزلة المرأة من الرجل عند حد حمايته لها ، وسفك دمه دون البلوغ اليها ، ففى ذلك ما عسى أن يُشعر بشىء من رعاية المالك لما يملك ، وما كذلك كان أمرهما . فلقد كانا جميعاً على سواء ؛ يتجاذبان الرأى ، ويتساجلان المعونة ، ويتآزران على نوائب الحياة . وأن من ضعف الأسلوب أن يقال أن العربى كان رفيقاً بالمرأة ، عطوفاً عليها . فان الرفق والعطف يُشعران بالضعف بين يدى القوة ، على حين كان نصيبها من الحياة على قدر نصيبه منها ، وقسطه من الاجلال والاحترام فى قلبها على قدر قسطها فى قلبه

فى العهد الذى كانت المرأة الرومانية تدين فيه بالعبادة للرجل ، وكانت تعتدُّه من دون الله إلهاً قهاراً ؛ كانت أختها العربية فى الذِّرْوَة والسَّنَام من الحرية والمساواة . لها ما للرجل وعليها ما عليه

---

(١) حروب الفجار حروب نشبت بين العرب فى سوق عكاظ وهى أربع . وانما دعيت بهذا الاسم لأن العرب أباحوا فيها حرمة الأشهر الحرم فقاتلوا فكان ذلك منهم فجاراً أى تفاجراً (٢) أعنته شق عليه

(٣) عامر بطن من بطون هوازن وقريش فرع من فروع كنانة

(٤) الأشلاء — جمع شلو — قطعة اللحم (٥) العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٩

وليس أمثلُ بذلك ولا أدلّ عليه من قولهم فيما سار من أمثالهم : —

إن النساء شقائق الأقوام[1] يريدون بذلك إن نساءهم فى سواء رجالهم فلا فضل فيهم لامرىء على امرأة . بل لقد كان للمرأة من فرط الكرامة ، وحرمة الكلمة ما لم يستشرف له الرجل على هول قوّته ، ومضاء عزيمته . ولقد عقدت فتاة من العرب أمانا لرجل فلم يستطع ملك العرب وجبارها أن ينقضه أو يبلغ منه

وبيان ذلك فيما حدّثوا أن مَرْوَان القَرَظ[2] بن زنباع غزا بكر بن وائل ، فقصّوا أثَرَ[3] جيشه فأسَرَه رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمّه فلما دخل عليها قالت له : إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرَظ . فقال لها مروان : وما ترتجين من مروان ؟ قالت عُظمَ فدائه . قال : وكم ترتجين من فدائه ؟ قالت : مائةَ بعير . قال مروان : ذاك لك على أن تؤدينى الى « خُمَاعَة » بنت عوف بن مُحَلِّم — وكان مروان قد أسدى اليها يداً فيما سلف من دهرها — فقالت المرأة : ومن لى بمائة من الإبل ؟ فأخذ عوداً من الأرض فقال : هذا لك بها . فمضت به الى عوف بن مُحلِّم فأجارته ابنته من كل مكروه . وكان مروان قد أساء الى عمرو ابن هند ملك العرب وطاغية الحيرة فأقسم عمرو لا يعفو عنه حتى يضعَ يده فى يده[4] . فلما علم بمستقره من عوف أرسل اليه ليأتيه به . فقال عوف : قد أجارته ابنتى وليس اليه من سبيل . فقال عمرو : قد آليت ألاّ أعفو عنه أو يضع يده فى يدى . قال عوف : يضع يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما . فأجابه عمرو

(١) مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٠ والأقوام جمع قوم ويراد بهم الرجال
قال القائل : وما أدرى ولست أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
(٢) لقب مروان بالقرظ لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القرظ (٣) قص أثره اتبعه
(٤) يريد بذلك أن يملكه نفسه وكان عمرو اذا ملك فتك

الى ما طلب وعفا عن مروان وما كان ليعفو عنه بعد أن ظفِرَ به لولا أن أجارته المرأة . ولو أن عوفا هو الذى أجاره لسامهُ الحرب أو يُسْلِمَه[١]

تجاوزت المرأة موطن الرعاية الى ما هو أسمى وأجل . فقد كان حَسْب الهارب المطلوب أن يعقِدَ رداءه بطُنُب[٢] خبائها فيعود آمناً ليس عليه من سبيل . وكذلك كانت ساحتها حرماً آمناً اليه يفزع الخائفون ، وببابه يتدافع العافون ، ويهتدى السارون[٣]

ومن أبدع مظاهر ذلك ما حدَّثوا أن سُبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف كانت زوجاً لمسعود بن مالك الثقفى[٤] ، فلما عصفت حرب الفِجَار الأكبر — بين كنانة وقيس — كانت سيادة الأولين لحرب بن أمية ابن أخيها ، وقيادة الآخرين لمسعود زوجها . وكان مسعود قد ضرب لها خباء وراء جنده ، فدخل عليها فأبصر بالدموع تجول بين خديها ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : أبكى لما عسى أن يصيب قومى . فقال لها : من دخل خباءك من قريش فهو آمن . فأخذت تصل به قطعاً حتى يسع الجمع العديد من قومها

فلما انكشفت قيس وغُلب على أمره مسعود ، قال لها ابن أخيها : من تمسك بأطناب خبائك فهو آمن ، ومن دار حول خبائك فهو آمن ، فلم يبق قيسىٌّ إلاَّ اعتصم بها ، ودار حول خبائها[٥]

وإنى لمفْضٍ اليك بحديث عن القوم يملأ قلبك روعة وإيماناً بما كان للمرأة يومذاك من سماحةٍ فى الرأى ، ووفور فى الحرية ، وسمو فى المنزلة :

---

(١) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ (٢) الطنب — بسكون النون وضمها — حبل الخباء والسرادق ونحوهما (٣) العافون — جمع عاف — القصاد . والسارون جمع سار — السائرون ليلا (٤) مسعود بن مالك الثقفى سيد ثقيف . وثقيف بطن من قيس . أما زوجه سبيعة فقرشية وقريش نبعة من كنانة وبين القومين ثارت الحرب (٥) الاغانى ج ١٩ ص ٧٩

ذلك أن سيد العرب الحارث بن عوف المرّى قال لمن حوله : أترَونى أخطُبُ إلى أحد فيردُّنى ؟ قيل : نعم . قال : ومن ذاك ؟ فقيل له : أوس بن حارثة الطائى . فقال الحارث لغلامه : إرحل بنا اليه . فركبا ومعهما خارجة بن سنَان حتى أتوا أوساً فى بلاده ، فألفَوه فى منزله . فلما رأى الحارث قال : مرحباً بك يا حارث . قال : وبك . قال : ما جاء بك ؟ قال : جئتك خاطباً . قال : لستَ هناك ! فانصرف الحارث ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته مُغْضَباً فقالت : من رجلٌ وقف عليك فلم تُطِلْ ولم تكلِّمْه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف المرّى . قالت : فما لك لا تستنزله ؟ قال : انه اسْتَحْمَق[1] ! قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطباً ! قالت : أفتريدَ أن تزوج بناتِك ؟ قال : نعم . قالت : فاذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما قد كان منك . قال : بماذا قالت : تلحقه فترُده . قال : وكيف وقد فرط ما فرط اليه ؟ قالت : تقول له « إنك لقيتنى مغضَباً بأمر لم تُقدِّم منى فيه قولاً[2] فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعتَ ، فانصرِف ولك عندى كل ما أحببت فانه سيُفعل » فركب فى أثرِهما

قال خارجةُ بنِ سنَان : فوالله إنى لأسير حانت منى التفاتةٌ فرأيته ، فأقبلت على الحارث وما يكلمنى غمًّا ، فقلت له : هذا أوس بن حارثةَ فى أثرِنا . قال : وما نصنع به ؟ إمْضِ . فلما رآنا لا نقف عليه قال : يا حارث إرْبَعْ عَلَىَّ[3] ساعة . فوقفنا له ، فكلمنا بذلك الكلام ، فرجع مسروراً

فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : إدعى لى فلانة — لكُبرَى بناته — فأتته ، فقال : يابنية ، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : وَلِمَه ؟ قالت :

---

(١) استحمق صار الى الحمق (٢) تريد أنك صارحتنى بالأمر من غير تمهيد له
(٣) أربع على قف بى

لأننى امرأة فى وجهى رَدَّة[١] وفى خُلُقى بعض العُهْدَة[٢] ولستَ بابن عمه فيرعَى رَحِمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحيِىَ منك ، ولا آمَنُ أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكونَ عَلَىَّ من ذلك ما فيه . قال : قُومى بارك الله عليك ، ادعى لى فلانة — لابنته الوُسْطَى — فدَعَتها ، ثم قال لها مقالتَهُ لأختها ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت : انى خَرْقاء[٣] ، وليست بيدى صناعة ، ولا آمَن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكون عَلَىَّ من ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمى فيرعَى حقى ، ولا جارَك فى البلد فيَسْتَحْيِيَك . قال : قومى بارك الله عليك ، ادعى لى « بُهَيْسَة » — يريد الصُّغْرَى — فأُتِىَ بها ، فقال لها ما قال لهما ، فقالت : أنت وذاك . قال : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتَاه . فقالت : — ولم يَذكر لها مقالتيهما — لكننى والله الجميلة وجهاً ، الصَّنَاع يداً[٤] ، الرفيعة خُلْقاً ، الحسيبة أباً ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير . فقال : بارك الله عليك . ثم خرج الينا فقال : قد زوَّجتك يا حارث « بُهَيْسَة » بنت أوس . قال : قد قبلت . فأمر أمها أن تهيئها وتُصْلح من شأنها . حتى إذا حُمِلت إلى زوجها ، وبلغ بها حِمَاه كانت حرب داحِسٍ والغَبْرَاء[٥] بين عَبْس

(١) الردة القبح (٢) العهدة — العيب (٣) الخرقاء التى لا تحسن ما تصنع
(٤) صناع اليدين وصف للرجل والمرأة وجمعه صنع — حاذق ماهر يعمل بيديه
(٥) داحس والغبراء فرسان أولهما لقيس بن زهير العبسى والثانية لحذيفه بن بدر الفزارى وكلا الرجلين سيد قومه . وكان من حديث الفرسين أن رجلا من عبس بارى آخر فزاريا فى أى الفرسين أعتق وأسبق وكلاهما يؤثر فرس صاحبه ثم افترقا متراهنين عليهما عشرا فى عشر « أى يبتدىء الرهان بعشر ثم يضاعف أضعافا اذا اجتمع الفريقان » قالوا وبلغت مقالة الرجلين قيسا وحذيفة فضاعفا فى الرهان حتى أبلغاه الى مائة وتواعدا على السباق بعد أربعين يوماً وأن يكون مداه مائة غلوة « والغلوة مدى السهم » وأودعا الابل رجلا من بنى ثعلبة يعطيها لمن حكم بالسبق له . فلما كانت الليلة التى سيستبقان فى صبيحتها أكمن حمل بن بدر — أخو حذيفة بن بدر — فتياناً من قومه فى شعب من الشعاب المشرفة على المضمار وأمرهم ان جاء داحس سابقاً أن يردوه عن غايته وقد أمضوا فى الصباح ما يبتوه فى المساء فبرز فتى منهم الى داحس — وكان قد جاء سابقاً — فلطمه فكبا فسبقت الغبراء ، فلما انتهى الفارسان الى الغاية تلاحيا وقال كل أنا أحق بالسبق ثم تراضيا على أن يكون الرهان لقيس وعلى أثر ذلك جاء رجال من فزارة فلاموا حذيفة على نزوله عن حقه وأشعروه الندم فأرسل ابنه إلى قيس يطلب منه حق أبيه فقتله قيس وقتل حذيفة مالكا أخا قيس فثارت لذلك حرب داحس والغبراء واجتمعت ذبيان بأسرها الى لواء حذيفة وجدت عبس لنصرة قيس ودامت الحرب ناشبة دهراً طويلا ثم انتهت بما أجملناه فى أصل مقالنا

وذُبْيَان قد عَصَفَت هَوْجَاؤُها بهم ، واشتدت نارها فيهم ، فلم تَذَرْ من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرَّمِيم[١] . وهَمَّ من يليهم من العرب بأن يَكْتَوُوا بِضِرَامِها ، ويَصْطَلوا بلظاها . فلما بَصُرت به مرتدياً مَطَارِف[٢] العُرْس قالت : والله لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك ! قال : وكيف ؟ قالت : أتَفْرُغ للنسَاء والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟ قال : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم . فخرج لساعته إلى صاحبه خارجةَ بن سِنَان وقَصَّ عليه حديث امرأته . فقال خارجة : والله انى لأرى همة وعقلاً ، ولقد قالت قولاً . قال : فاخرج بنا اليه . فخرج الرجلان فمشيا بين القوم بالصلح واحتملا حمائل[٣] القوم وَدِيَات قتلاهم فكان ما نزلا عنه ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين ! وهى لعمر أبيك ثروة للاعرابى لا تقوم بما مَلَكَ الحضرى من ضياع ، وما اختزن من أموال[٤]

ذاك شيء بلغته المرأة يومَذَاك من سموّ فى الوجود ، واكبار للرأى ، وبلوغ من النفس . بل لقد كانت وكان الرجل العربى — وهو مَن تَعْلَمُ من صلابة العود ، ورجاحة الرأى ، وفرط الإباء — ينزل تحت حكمها ، ويَفِيء الى ظلها ، ويطمئن لسلطانها . إذا آنَسَ منها القدرة على قيادته وسياسته

وقد نبغ من النساء مشيرات آزرن أزواجهن وذويهن من الملوك والأبطال فأحسَنَّ مؤازرتهم ، وملكات قمن بالأمر من دون الرجال فابتنين مجداً لا يُطَاوَل وبلغن غاية لا ترام

* * *

ونحن ملمون لك بحياة إمرأتين ملكتا فاختصمها التاريخ بصفحتين خالدتين واصطفاهما بآيتين بينتين . وهما : —

بِلْقِيسُ مَلِكة اليمن و زَيْنَبُ مَلِكة تَدْمُر

(١) الرميم العظم البالى (٢) المطارف جمع مطرف — بضم الميم وفتح الراء — أردية من الخز مربعة ذات أعلام (٣) الحمائل — جمع حمالة كسحابة — الديات يدفعها قوم عن قوم (٤) الاغانى ج٩ ص١٤٢-١٤٣

بِلْقِيس

ملكة اليمن

هنالك فوق مشارف الأرض[١]، وبين أفياء الثمر[٢]، وخمائل الزهر، وفسحات الأودية، ومسايل الماء، قامت مدينة مأرب عاصمة اليمن، وقبلة أقيالها، ومستقر عواهلها[٣]

بين يدى هذه المدينة الغانية امتدَّ سدُّ مأرب. مطلعُ الحضارة القديمة، وآيتها الناطقة. وأدنى ما يقال عنه أنه ثلاثون قنطرة ذرعها ثلاثة أميال فى مثلها[٤] قد انبسط على جانبيه جنتان، هما صُنع الله وآيته وحجته على تلك الأمة الوثّابة الطَّموح[٥]. ومن حول هاتين الجنتين، وبين أفيائهما، انتثرت قصور مأرب، تلك التى جاذبت دور مصر دقة الوضع، وجلال الصنع، والنزوع الى السماء، ونازعت قصور فارسَ حُسْنَ النسق، ورَوْعة المنظر، وجمال البناء

تلك هى مأرب دارةُ المُلك اليمنى فى عهد بِلْقِيس ابنة اليَشْرَح أنفذ ملوك اليمن رأياً، وأسناهم ذكراً، وأهداهم سبيلاً.

ورثت بِلقيس عرش زوجها وأبيها، وما كان لها بهما من حاجة. فقد اتخذت لنفسها عرشاً بلغ من ابداع صنعه، وجمال نسقه، أن وصفه الله جل ذكره بالعظمة فقال: « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ »

---

(١) مشارف الأرض أعاليها (٢) الأفياء — جمع فىء — الظلال (٣) أقيال اليمن — جمع قيل بفتح القاف — ملوك أقاليمها. والعاهل — وجمعه عواهل — الملك الأعظم (٤) معجم ياقوت ج ٧ ص ٣٥٤ (٥) وآية ذلك قوله تباركت آيته (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور)

وهو الذى يصفه تُبَّع بقوله :

عرشُها رافعٌ ثمانين باعا كَلَّلَته بجوهر وفريد[١]

وبِدُرٍّ قد قيَّدَته وياقو تٍ بالتِّبر أيَّما تقييد

أقامت بلقيس فى ملكها خمسة عشر عاماً بلغت فيها من جلال الصولة وكمال القوة أنها حين ركبت إلى سليمان صلوات الله عليه سار فى ركابها مائة ألف من أمراء اليمن[٢]

أما وفور عقلها ، ومضاء عزمها ، وسناء منزلتها ، واستمكانها من نفوس رعيَّتها ، فقد بلغ من أمره : أن سليمان حين أرسل إليها يُؤْذِنُها بدينه ، ويدعوها إلى سُنَّته ، كان كلُّ ما كتب إليها : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » . فأما هى فلم تأخذها العزة بالإثم ولم يَنَلْ من نفسها أن الكتاب لم يحو تَكْرِمةً وتبجيلًا ، ولم يذهب برُشْدِها أن صاحب الكتاب ليس له فى ذات نفسها من بسطة الملك وقوة السلطان ما لها ، بل جمعت كل من يلوذون بطاعتها من الملوك — وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر من أقيال اليمن[٣] — وبرغم كل ما أسلفنا من أمر الكتاب أحلته محلًّا كريماً فقالت : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ » ثم انثنت إليهم بعد ذلك فقالت : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » أما هم فوقفوا دون رأيها ، ونزلوا تحت أمرها ، فقالوا : « نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ »

---

(١) الفريد الدر المنظم يفصل بين حباته جوهر آخر (٢) الطبرى عن ابن عباس ج ١٨ ص ٨٧
(٣) الطبرى عن قتادة ج ١٨ ص ٨٦

هنالك بسطت لهم أمر الحرب ، وأنها مدعاة دمار الديار ، ومتلفة البلاد والعباد فقالت : « إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » ثم كشفت لهم عن وجه الرأى فقالت : « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ » كفيلة بأن تصرف ذوى المطامع وتجتذب بُغَاة الدنيا فإن صرفته عن قصده فهو ملك ولنا من بأسنا وقوتنا ما يَثُلّ عرشه ويَفُلّ غربه[1] وان ردَّها وصُرف عنها فعسى أن يكون نبيًّا يُبَصِّرُنا الحجة ، ويهدينا سواء السبيل

فلما جاءت رُسُلها سليمان بهديتها التى جمعت من كل شىء أسناه وأتمَّهُ قال : « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ »

حتى إذا استبانت بلقيس وضح الهدى من سليمان تبدَّلت بدين آبائها دينَ الله وكان ذلك سبيلاً إلى طمس آية المجوسية بين أرجاء اليمن

تلك آيات من الذكر الحكيم قامت بفضل المرأة ، ورجاحة عقلها ، وسماحة رأيها ، وان قوة الشوكة وعزة الملك لم تصرفاها عن ابتغاء الحق أيًّا كان سبيله ، ومن أى كان مَفِيضه

ولئن صح ما روى الفخر الرازى : أن بلقيس هى التى مَدَّت سدّ مأرب وجعلته طبقات ثلاثا بعضُها فوق بعض[2] ، لتكوننَّ تلك المرأة مهبط وحى العظمة ومشرق نور الحضارة فى العالم كله . فأما ما بُنى قبل ذلك فجبال تعترض سَرَوَات[3] الطرق ، وترهق مناسم الأرواح ، نُشرت على هاماتها ألوية الظلم ، ونُزِفت على أقطارها دماء الضعفاء

تلك هى بلقيس ربة القوم الذين راضوا الزمان ومدوا سد العَرِم وشادوا قصر غمدان .

---

(١) فل السيف ثلمه وغرب كل شىء حده

(٢) الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٦٠ (٣) سروات الطرق أواسطها أو ما ظهر منها

زينب

ملكة تَدْمُر

مدينة قاصية قامت بين نطاق من الصحراء، فتألقَ لألاؤها، وتبلّجَ[١] بهاؤها، وأخذت تبدو كما شق النجمُ رداء الظلماء، فى كبد السماء. نهضت بها امرأة من العرب، فبسطت سلطانها، ونشرت أعلامها، على ما بين مجاهل السودان، ومعالم أنقِرَة، من مسالك وممالك، وأمم وشعوب[٢]

تلك هى تَدْمُر، فى عهد ملكتها زينب.

تقع تدمر فى طرف بادية الشام إلى الشمال منها، على مَدَى مائة وخمسين ميلاً من دمشق، ومسيرة خمسة أيام من الفرات. وهى ملتقى الغادين والرائحين بين الشام والعراق. لذلك كان انتجاع أهل هذا البلد إلى ذينك القطرين لا ينقطع. ومن أجل ذلك جمعوا بين مدنيّتى الفرس والرومان، فأُرهِفَت لذلك طباعهم ورَقّت شمائلهم، ونَفَذَت أفهامهم، وطفقوا يقيمون الأبنية ترسخ أصولها فى أعماق الأرض، وتناغى[٣] مشارفها منازل الأفلاك. ومن أدل ذلك على ما نقول هيكل الشمس أو هيكل بعل. والقصر الأعظم الذى بلغ ذرعه ألفى ذراع فى مثلها. ولا تزال أطلالهما باقية تعنو لها الوجوه، وتخشع بين أيديها القلوب

تلك هى الأمة التى قامت بأمرها زينب فبلغت بها غاية ما أسلفنا لك

تَنَقّل الملك بزينب فى دورين: فكانت مشيرة لزوجها، ثم وصية على ولدها وفى كلا الدورين كانت الوحى المُلْهِم، واليد الطائلة

(١) تبلج أسفر (٢) العرب قبل الاسلام ص ٨٧ (٣) المناغاة من ناغت الأم صبيها إذا حدثته بما يسره

كانت زينب على فرط جمالها، وعذوبة منطقها، وسماحة أسلوبها، ونفاذ لبها، وعظمة قلبها؛ من أشد الناس بأساً، وأمضاهم عزماً، وأرسخهم فى الحروب قدما.

وكانت إذا وقفت الصفوف، وأُشرعت الرماح، والتمعَت الأسنة؛ تتقلد سيفها، وتعتقل رُمحها، وعلى رأسها خُوذَة[1] مُرَصَّعة بالدر والياقوت، وقد تَدَلَّت فوق غلالتها أهداب من الحرير الأُرجُوَانى، ثم تمر بين الصفوف مُجَرَّدة يُمنَى ذراعيها كما يفعل أبطال اليونان والرومان، فيُذهَل القوم عن نفوسهم، وتملك عليهم مشاعرهم، حتى تكون أبصارَهم التى بها يبصرون، وأيديَهم التى بها يبطشون، وقلوبهم التى بها يشعرون، ثم ينصَبُّون على أعدائهم كما تنصَبُّ النار على هشيم الكلأ. بذلك افتتح جندها ما افتتحوا من بلاد، واقتحموا ما اقتحموا من معاقل. ولذلك أشادت الأمم قديماً بذكرها، وأفسحوا لأخبارها وسِيَرها المكان الأوفى من صدور تاريخهم. وبطون صحائفهم

وكانت زينب تجيد لغات الفرس واليونان والرومان وأخلاط من يليها من شعوب وقبائل.

على أن هذه الجمرة المستطيرة نكبت فى آخر عهدها نكبة لم تجد لها من مُقيل. فقد فجأتها جنود الرومان معقودة اللواء بكف أورليان وكان فى جيشها جمع لا يُحصَوْن عدداً ممن انحسر عنهم ظل الروم فى عهدها، يولونها ظاهر الطاعة وزمام قلوبهم بأيدى سادتهم الأقدمين، فكانوا نواجم الفتنة والاضطراب فى جندها. وكان سبيل ذلك أن تراجعت جنودها مرة بعد مرة حتى آل أمرها إلى التسليم

(١) الخوذة المغفر وهو ما يلبسه الدارع فوق رأسه من الزرد

لعدوها سنة ٢٨٢ م . فأخذت أسيرة إلى رومة ثم أعيدت إلى موطنها لمكانها من نفوس قاهريها فعكفت على عزلتها ونسكها حتى ماتت

هذا وللعرب حديث عن ملكة تدمر يعزب لب الناقد عنه ، وتضل حقائق التاريخ دونه . وهم يَدْعونها الزَّبَّاء[1] ، وينسبون إلى عمرو بن عَدِيّ اللَّخْمى أنه قادها إلى الموت إنتقاماً لخاله جَذِيمة بن مالك ملك الحِيرة ، ويزعمون أن عمراً خبأ لها الرجال فى الغرائر

وتلك لعمرك أشبه بأساطير الأولين ، منها بحقائق المؤرخين ، والله بكل شىء عليم

(١) معنى الزباء الكثيرة شعر الحاجبين والعينين ولعل ذلك مما غلب على ملكة تدمر

السباء والوأد

أما بعد فانّا لا نخدع التاريخ فى ماضيه ، فنمثله زهراً لا شوك فيه . فلئن كان من الحب ما يُمِضُّ ويؤذى ، ومن الصداقة ما يضر ويؤلم ، لقد أصيبت المرأة العربية فى سبيل اعزازها والحرص عليها بلواذع بلغت فى بعض المواطن حبة قلبها ، ومستقر حياتها .

فمن ذلك السباء . وذلك أن العرب كانوا يُعْقِبُون صفوف القتال بنسائهم ، وذوات أرحامهم ، تثبيتاً لأنفسهم ، وتشديداً لعزائمهم . وربما أحيط بهم ، وغلبوا على أمرهم ، فيكون هَمُّ الظافر أن يتخذ نساء المقهور سبايا يسوقهن إلى بيته ، ويحتكم فيهن كما يحتكم فى ماله ، لا لحاجته إليهن ، بل ليقطع باستلابهن آخر عرق ينبض من قلب عدوه فيعيش ذليل الناصية ، مُقَنَّع الوجه أمَدَ الحياة .

على أنهم وان غلظت الى هـذا الحد أكبادهم على أعدائهم فهم يعرفون لسباياهم منازلهن بين قومهن فيخلطونهن بأنفسهم ، إلا قليلاً ممن أَرَّثَ[1] الحقد صدورهم ، وملكت الضغينة منازع الرحمة من قلوبهم . وفى أولى الحالتين يقول حاتم بن عبد الله الطائى :

فما أنكحونا طائعين بناتِهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينـا السباء مذلة ... ولا كُلِّفت خَبْزاً ولا طبخت قِدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضاً وجوهُهم زُهْرا
وكائن ترى فينا من ابن سَبِيَّةٍ ... إذا لقى الأبطال يطعنهم شَذْرا

(١) أرث النار أوقدها

ويأخذ رايات الطعان بكفه فيوردها بيضاً ويُصدِرُها حمرا
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله إذا ما سرى ليل الدجى قمراً بدرا

وهناك كثير من سادات العرب وذوى زعامتهم انكشفت عنهم السبايا فلم يضع ذلك من منازلهم أو يُهَجِّنْ من أحسابهم . ومن بين أولئك دُرَيدُ بن الصِّمَّة حكيم العرب وشاعر فرسانهم وفارس شعرائهم وأُمُّه رَيحانة بنت معد يكرب أسرها الصِّمَّة بن عبد الله ثم تزوجها فأنجبت دريداً واخوته . وهى التى يقول عمرو فى حديث إسَارِها

أمِن رَيحانةَ الداعى السَّميعُ يَؤَرِّقنى وأصحابى هُجُوع
سباها الصِّمَّةُ الجُشَمِىُّ غصبا كأنَّ بياض غُرَّتها صديع[1]
وحالت دونهـا فرسان قيس تَكَشَّفُ عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

وبرغم كل ذلك كان النساء يبذلن ما ملكن من جُهد وحيلة فى الخلاص من الأسر ولو إلى الموت أنفة واستحياء وابقاء على ذكر آلهن وذويهن . ومن أمثلتهن فى ذلك : « المنية ولا الدنية » كما حدثوا أن فاطمة بنت الخُرْشُب لما أسرها حَمَل بن بدر رمت بنفسها من الهودج منكسة فماتت[2] . ومن أمثال العرب : « شرُّ يوميها وأغواه لها » وأصل ذلك أن امرأة من طَسْم يقال لها عَنْز أُخذت سَبِيَّة فحملوها فى هودج وألطفوها بما ملكت ألستهم وأيديهم فقالت عند ذلك : « شرُّ يوميها وأغواه لها » تريدان شر أيامى حين صرت أكرم للسباء[3]

(١) الصديع ضوء الفجر (٢) الأغانى ج ١٦ ص ٢١
(٣) لسان العرب ج ٧ ص ٢٥٠ والميدانى ج ٢ ص ٤٢٣

بل ربما تزوج الرجل بسبيته وأقام بها أمداً طويلاً مقام العشير الكريم من عشيرته الوفية ، حتى إذا أتاح لها القدر معاودة أهلها أقامت بينهم وأنفت أن تعود سيرتها الأولى من زوجها و بنيها . ومن ذلك ما حدث به احمد بن معاوية الباهلى قال : أن رجلاً من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ثم قالت له : أَزِرْنى أهلى ليذهب اسم السباء عنى ، ففعل . فلما نزلت بقومها وتذاكروا ما فى السباء من ذل وعار قالت لزوجها : قد أبى القوم إلاّ أن ينتزعونى منك . فقال : لا أُفارقك حتى تثنى علىّ بما تعلمين . فقالت : العشية إذا اجتمع القوم . فاجتمعوا وحضر الرجل وزوجه فقال :

نشدتك هل خُبِّرْتِنِى أو علمْتِنِى كريماً إذا اسود الكراسيع أزهرا[1]

فقالت : نعم . فقال :

نشدتك هل خبرتنى أو علمتنى شجاعاً إذا هاب الجبان وقصرا

فقالت : نعم . فقال :

نشدتك هل خبرتنى أو علمتنى صبوراً إذا ما الشىء ولّى وأدبرا

قالت : نعم . فانصرف نادماً حزيناً وهو يقول :

تُبَكِّى على ليلى بحق بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدرا[2]

ومثل ذلك ما فعلت سَلْمَى الكنانية زوج عروة بن الورد

وكان عروة شاعراً بطلاً كريماً . وله فى صفاته تلك مواقف لا يستهان بها ، وكان قد أصاب سلمى فى غزاة غزاها لبنى كنانة ، فأعتقها وتزوجها وحلّت من نفسه وعشيرته محلاً كريماً ، فأقامت عنده بضع عشرة سنة . وولدت له أولاداً ،

(١) نشدتك حلفتك . والكراسيع — جمع كرسوع — وهو طرف الزند مما يلى الخنصر وسواد الكراسيع كناية يكنون بها عن البخل واللؤم (٢) بلاغات النساء

وهو لا يشك فى أنها أرغب الناس فيه . وكانت تقول له : لو حججت بى فأمرّ على أهلى وأراهم ؟ فحج بها، فأتى مكة ثم أتى المدينة فنزل فى بنى النَّضير — وكانت له بهم صلة وصداقة — وكان قومها يخالطون بنى النَّضِير فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى : أنه خارج بى قبل أن يخرج الشهرُ الحرام[1] فتعالوا إليه وأخبرُوه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحتُهُ سَبِيّةً وافتدونى منه فانه لا يرى أنى أفارقه ولا أختار عليه أحداً . فأتوه فسقوه الشراب . فلما ثمل قالوا له : فَادِنَا بصاحبتنا فانها وسيطة النسب فينا معروفته ، وان علينا سُبَّةً أن تكون سبية ، فاذا صارت إلينا وأردت معاودتها فعلنا . فقال لهم : ذلك لكم . ولكن لى الشرط فيها أن تخيروها ، فان اختارتنى انطلقت معى إلى ولدها ، وان اختارتكم انطلقتم بها ، قالوا : ذلك لك . فلما كان الغد جاؤوه فامتنع من فدائها . فقالوا له : قد فاديتنا بها منذ البارحة ، وشهد عليك بذلك جماعة ممن حضر . فلم يجد إلى الامتناع سبيلاً ، وفاداها . فلما فادوه بها خيروها ، فاختارت أهلها ، ثم أقبلت عليه فقالت : يا عروة أما أنى أقول فيك — وان فارقتك — الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سِترها على بعل خير منك . وأَغَضَّ طرفاً ، وأَقَلَّ فُحْشاً ، وأَجودَ يداً ، وأحمى لحقيقته ، وما مَرَّ علىَّ يوم منذ كنت عندك إلاّ والموت فيه أحب إلىَّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمَةُ عروة كذا وكذا — إلاّ سمعته ووالله لا أنظر فى وجه غَطَفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم .

فانصرف عنها حزيناً حسيراً . وفيها يقول قصيدته التى مطلعها :

أرِقت وصُحبتى بمضيق عُمْقٍ لبرق من تِهامةَ مُستطير
سقى سلمى وأين ديار سلمى إذا كانت مجاورة السَّدير[2]

---

(١) تريد قبل أن يظهر هلال الشهر الحرام (٢) الأغانى ج ٢ ص ١٨٥

أقول : ولم يكن غريباً عند العرب أن تفعل المرأة ما فعلته سلمى إذا استطاعت إلى الخلاص سبيلاً . ولكن الغريب ألّا تفعله وهى قادرة عليه . كما حدثوا أن ربيعة أُغير عليهم ، فسبيت ابنة لأمير لهم ، فجَهد الأمير فى استردادها . حتى إذا خُيِّرت بين أبيها وسابيها ، آثرت من هى عنده . فراعَ الأميرَ ذلك ، وغضب له قومه ، وسَنَّ لهم وأْد البنات ، وسنوه هم لمن سواهم ، ويروون شبيه ذلك عن قيس بن عاصم

* * *

أما الوأْد فأشد وأشنع ما اقترفته يد ظالمة آثمة ، فى نفس بريئة طاهرة . وذلك أن يعمد الرجل إلى وليدته وقد بدأت تستقبل الوجود وتستنشى نسيم الحياة ، فيقذفها فى حفرة من الأرض ، ويَهيل على جسمها التراب ، ثم يدعها فى غمرة الموت بين طِباق الأرض ! ! . ولو أننا افترضنا تلك الجريمة الموبقة بين جمهور العرب لما آمنا بتلك الجيوش الخضارم[1] التى وطئت نواصى الأرض ، وطوّقت أعناق الأمم ، وهم أبناؤهم وحَفَدَتهم . والحق أن الوأد لم يكن معروفاً إلّا فى فرائق من ربيعة وكِنْدة وتميم ، وأفذاذ[2] مغمورين لا يُعَدُّون قلةً من مختلف القبائل[3] وهم بين رجلين : رجل أملق من عقل ومال ، فهو يخشى أن يسىء الفقر الى أدب ابنته ، ويهتك من سترها ، ويبذل من عرضها . وذلك جبان لا عزم له ولا ثقة ولا إيمان . والعرب براء منه . وآخر من سَراة القوم ذهبت بعقله الغَيرة ، وهوى بنفسه الإشفاق من تبدل الحوادث ، وتداول المَثُلات[4] ، وما عسى أن يصيبها من ذل أو سباء . وذلك وأمثاله شرٌّ مكاناً وأقل عدداً

---

(١) الخضارم — جمع خضرم بكسر الخاء والراء — الكثير الوفير من كل شىء (٢) أفذاذ — جمع فذ — أفراد (٣) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٢ — ٤٣ (٤) المثلات — جمع مثلة — العبر

ذلك وقد نهض من سادات العرب من حال دون الوأد بما بذل من مال جم، وسعى حميد.

ومن بين هؤلاء صَعْصَعَة بن ناجية التميمى. فقد كان يتلمس مَن مسها المخاض فيغدو اليها ويستوهب الرجل حياة مولوده إن كان بتتاً على أن يبذل له فى سبيل ذلك بعيراً وناقتين عُشَرَاوَين[1]. فجاء الاسلام وقد افتدى أربعمائة وليدة[2].

ومنهم زيد بن عمرو بن نُفَيل القرشىّ. كان يضرب بين مضارب القوم فاذا بَصُر برجل يَهُم بوأد ابنته قال له: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها. فيأخذها ويلى أمرها حتى تشِبّ عن الطوق فيقول لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها[3].

وللعرب غير السباء والوأد هَنَوات ظلموا بها المرأة، وموعدنا بذكرها والوفاء بها عند الكلام عن المرأة العربية فى عهد إسلامها إن شاء الله.

ولعمرى اذا نحن أرخينا الستر على تلك المظالم وضربنا صفحاً عن أولئك الوائدين من القوم، فانا واجدو العرب من وراء ذلك يكادون يذوبون عطفاً وحناناً على بناتهم، فهم ينزلون عما ملكت أيمانهم اغلاء لهن، وايثاراً للعز والنعمة والدلال فيهن. وأذكر أن صعصعة بن معاوية خطب الى عامر بن الظَّرِب حكيم العرب ابنته عمرة فقال: يا صَعْصَعَة، إنك أتيتنى تشترى منى كَبِدى، فارحم ولدى قبلتك أو رددتك، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك، أفِرُّ من السر إلى العلانية. يا معشر عَدْوَان خرجَتْ من بين أظهركم كريمتكم، من غير رهبة ولا رغبة؛ أقسم لولا قَسْم الحظوظ على الجدود، ما ترك الأول للآخر ما يعيش به[4].

(١) الناقة العشراء التى أتى عليها من وقت حملها عشرة أشهر (٢) الأغانى ج ١٩ ص ٣
(٣) تيسير الوصول ج ٣ ص ١١٣ (٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٢

(٢)
سمو أدبها ونفاذ لُبّها

أن المرأة التى انحسرت عن أشد أمم الأرض بأساً ، وأسماها نفساً ، وأدقّها حِسًّا وأرسخها فى المكرُمات أقداماً ، وأرفعها فى الحادثات أعلاماً ، وأوفرها فى المشكلات أحلاماً ، وأمدّها فى الكرم باعاً ، وأرحبها فى المجد ذراعاً ؛ تلك المرأة التى انحسرت عن هـذه الأمة ، وأحَلَّها الرجل أسمى المواطن من نفسه ورأيه ومشورته ، لحرىٌّ بالقلم أن يقف دون وصفها خاشعاً متراجعاً

نشأت المرأة العربيـــة ونشأ معها نصيبها من عزة الجانب وحرمة الرأى . « وقد علمت مما أسلفنا لك وستعلم مما يمر بك أنها بلغت منهما غايتهما » فأنالها ذلك فضل ما وصلت إليه من شرف النفس ، ومضاء القلب ، ونفاذ الرأى ، وسموّ العاطفة .

أن المرأة التى سُلِبَتْ نفسَها ورأيَها ، وحُرمت نصيبَها من الوجود ، ووُسِمَتْ بوِسام[1] من الذل والهوان ، لا تـكون امرأة فاضلة ، ولا تنكشف عن أُمَّة فاضلة . ذلك لأن المرأة اذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها . وأحر بمن هانت عليه نفسه ألا يمتنع عن دِنيّة ، ولا يعتصم من منقصه .

كل ذلك أدركه العرب منذ التاريخ القديم . فقد ذكر كلاى (Clay)[2] — فيما وصل من مباحثه عن دولة بابل الأولى أو العمالقة الأقدمين (٢٤٦٠—٢٠٨١ق . م) — أن المرأة يومذاك كانت ممتعة بحرياتها كاملة غير منقوصة وانها كانت هى والرجل على سواء فى تصريف الرأى ، وتسنُّم المناصب

(١) الوسام ما وسم به الحيوان (٢) Clay 166 ويذكرنا قول كلاى هذا بما روى الميدانى أن أول مثل قالته العرب قولهم « المرأة من المرأة وكل أدماء من آدم » يريدون أن ليس هناك ما يفرق بين المرء والمرأة . واذا علمت أن الأمثال كلمات خلقت مع العرب وخلطت بماء نفوسهم فما ظنك بأول أمثالهم والى أين يصل الظن بعهده ويوم مقاله

كذلك كان نساء العرب منذ أربعة وأربعين قرناً لا فرق بينهن وبين أحدث نساء هذا العصر مدنية إلا أنهن فطرة الله وصِبْغته ، ونثار الطبيعة وأنوارها[1] ، لم تثقلهن كلفة ، ولم تحجب صفاءهن صناعة . قلب نقيّ ، ووجه غير مخضوب

ان الكذب والزور والخديعة والخيانة وأشباه تلك الدنايا لا تجد السبيل إلى قلب المرأة العربية ، لأنها جميعاً من فضول النفس الضعيفة ، وهى بمنجاة عن ذلك الضعف .

وأين للضعف من سبيل إلى المرأة التى تقول وقد استَحَرَّ القتل بقادتها والحُمَاةِ المدافعين عنها :

أبوا أن يفروا والقَنَا فى نحورهم ولم يبتغوا من رهبة الموت سُلَّما
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما

تلك هى المرأة العربية فى قَصِىّ عهدها ، وبعيد أمدها . قوة فى حياء ، ورقة فى مضاء ، وذكاء فى صفاء ، ورعى ووَفاء ، وصبر على اللأْوَاء ، وحَدَب على الأزواج والأبناء .

ونحن أولاء موفون لك الكلام على المرأة العربية فى حياتها الزوجية ، ثم فى عهد الأمومة ، ثم فى حياتها العامة .

حياتها الزوجية

ما أسبغ الله على امرئ نعمةً أعظم أثراً ، ولا أسنى خَطَراً ، ولا أجمع لشَتَات النعم ، ولا أجلَبَ لنعيم الحياة من المرأة الصالحة . هى عُدَّة فى الشدة ، وزينة فى الرخاء . هى منار أمل الرجل ، منها يستمده ، وبها يستفيده ، وإليها يعود به . تلك هى المرأة الصالحة . فأما أحفل مشاهدها ، وأخصب منابتها ، فبين تلك

(١) أنوار — جمع نور بفتح النون — وهو الزهر أو الأبيض منه

المهامه[١] القَفْرة ، والأطلال البالية من بلاد العرب . وإليك آية ما نقول :

يقوم صلاح الزوجة على دعائم ثلاث إذا تكاملت لها وتوافرت فيها صُرِفت عن كل شيء إلاّ الوفاء بواجبها

أُولاها : حسن اختيارها . الثانية : رعايتها وبذل الود والوفاء لها . الثالثة : شرف الرجل وعفته وبعد همته

اختيار الزوجة

كان مرجع العربى فى اختيار عشيرته إلى شرف الحسب وسناء الذكر ، وليس بضائره ما عسى أن ينال ذلك من فقر وإقتار . . بل قد يطلب السيد الكريم فى زوجه أن يخالط شرفَها فراغُ يدها حتى يدرأ بذلك ما عسى أن يحدثه الثراء من الصَّلَف والكبرياء ، فقد نزع قيس بن زهير سيد عبس وبطلها إلى النَّمِر بن قاسط[٢] بعد أن أسرف فى الدماء يوم الهبَاءة[٣] فقال :

---

(١) المهامه — جمع مهمه — المفاوز البعيدة (٢) بطن من بطون ربيعة (٣) الهباءة مستنقع بلاد غطفان وقعت دونه وقعة رائعة من وقائع « داحس والغبراء » فيها استحر القتل بالفريقين من عبس وذبيان حتى انتصف النهار وحجز الحر بينهم . فلما تحاجز الفريقان أقبل حذيفة ابن بدر ومن معه من سادات ذبيان الى جفر الهباءة — والجفر البئر الواسعة — ليتردوا فيه فعلم قيس ابن زهير بمسيرهم فتأثرهم هو وخاصة أصحابه ووقفوا بهم والسيوف مصلتة بأيديهم وأخذ قيس ينادى بملء فيه لبيكم لبيكم — يخاطب أطفالا من عبس كانوا رهائن عند حذيفة فغدر بهم حذيفة وأخذ ينصب الطفل غرضاً على مشهد من قومه ويقول ناد أباك فينادى أباه فلا يزال يرميه بالنبل حتى يموت — فقال حمل بن بدر نشدتك الرحم ياقيس فقال قيس لبيكم لبيكم وقال حذيفة خذ بنى حمل بابنائكم ونرد السبق فقال قيس لبيكم لبيكم ثم عمدوا الى القوم فزقوهم بالسيوف ومثلوا بجثمان حذيفة تمثيلا معيبا وأدركت قيسا الملامة مما فعل وساوره الحزن على حمل بن بدر فقال فيه :

تعلم ان خير الناس ميت ... على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظله ما زلت أبكى ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر ... بغى والبغى مرتعه وخيم
أظن الحلم دل علىّ قومى ... وقد يستجهل الرجل الحليم
ألاقى من رجال منكرات ... فأنكرها وما أنا بالظلوم
ومارست الرجال ومارسونى ... فعـــوج علىّ ومستقيم

يا معشر النَّمِر، نزعت اليكم غريباً حزيناً، فانظروا الى امرأة أتزوجها، قد أَذَلَّها الفقر، وأَدَّبها الغنى، لها حَسَب وَجَمال. فزوجوه على هيئة ما طلب فكانت آثر الناس عنده وأذهبهم لبلواه[١]

ومنهم من كان يخطب فى المرأة سعة الحيلة، ومضاء الذكاء. وما أرادوا بذلك إلا أن يكون ذكاؤها تراثا لبنيها. كما زعموا أن امرأ القيس الكندى آلى بأليَّة[٢] ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين. فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر. فبينا هو يسير فى جوف الليل إذا برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه، فأعجبته، فقال: يا جارية ما ثمانية وأربعة وثنتان. فقالت: أما ثمانية فأَطْباءُ الكلبة[٣]، وأما أربعة فأَخْلاف الناقة، وأما اثنتان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها، فارتضى خِطبَتَهُ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل. فلما بلغ الموعدُ استاق اليها الإبل ومولًى له معه، حتى إذا كانا ببعض الطريق وامرؤ القيس على شفير بئر يشرب رمى به مولاه، وذهب بالإبل حتى أتى الفتاة. فقالت: والله ما أدرى أزوجى هو أم لا؟ ولكن انحروا له جَزُوراً[٤] وأطعموه من كَرِشها وذنبها[٥]. ففعلوا. فقالت: اسقوه لبناً حاذراً[٦]. فسقوه فشرب. فقالت: افرشوا له بين الفَرْث والدم[٧]. ففرشوا له، فنام. فلما أصبح قالت: عليكم العبدَ فشدوا أيديكم به. ففعلوا. وما عرفت ذلك منه إلا لرضاه بالدنية وقراره على الهوان

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٣ (٢) آلى بأليَّة أقسم يمينا (٣) الأطباء — جمع طبى — بضم الطاء وكسرها — حلمات ضرع الحيوان ومثلها الاخلاف — جمع خلف بكسر الخاء — للبهائم. ومثلها الاثداء جمع ثدى للمرأة (٤) الجزور الناقة المجزورة وجمعها جزائر وجزر (٥) حتى تعرف ان كان لئيم الحسب فيأكل أو شريفاً فيمتنع (٦) حاذراً حامضاً (٧) الفرث الروث فى الكرش

قالوا : ومرَّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر فعاود حيّه واستاق مائة من الإبل وقصد إلى فتاته ، فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها . فلما أتوه بهما قال : وأين الكبد والسَّنام ؟ وأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً حاذراً . فأباه ، وقال : أين الصريف والرثيئة[١] ؟ فقالت : افرشوا له بين الفرث والدم . فأبى أن ينام ، وقال : افرشوا لى فوق التَّلْعَة[٢] الحمراء ، واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت اليه : هلم شريطتى اليك فى المسائل الثلاث . فأرسل اليها أن سلى عما شئت . فقالت : مم تختلج شَفَتَاك[٣] ؟ قال : لشربى المُشَعْشَعات[٤] . قالت : فم يختلج كشحاك[٥] ؟ قال : للبس الحُبَرات . قالت : فم يختلج فخذاك ؟ قال : لركض المطَهَّمات[٦] . قالت : هذا زوجى لعمرى فعليكم به ، ودونكم العبد فاقتلوه[٧] .

وهل أتاك حديث « شَنّ » — وكان رجلاً من دهاة العرب وعقلائهم — إذ قال : والله لأُطَوِّفَنَّ حتى أجد امرأة مثلى أتزوجها . فبينما هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق ، فسأله شَنٌّ : أين تريد ؟ فقال : موضع كذا — يريد القرية التى يقصدها شَنّ — فوافقه ، حتى إذا أخذا فى مسيرهما قال له شَنٌّ : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملنى ؟ ! فسكت عنه شَنٌّ . وسارا حتى إذا قَرُبا من القرية إذا بزرع قد استَحْصَد[٨] . فقال شَنٌّ : أترَى هذا الزرعَ أُكِل أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ترَى نبتاً مُسْتَحْصِداً فتقول أُكِل أم لا ؟ ! فسكت عنه شَنٌّ . حتى

---

(١) الصريف الخمر الطيبة أو اللبن لا يمزج بشىء والرثيئة أن تحلب حليباً على حامض فيروب ويغلظ
(٢) التلعة مجرى الماء من أعلى الوادى الى بطون الأرض (٣) الاختلاج الاضطراب أحياناً (٤) الخمر المشعشعة الممزوجة بالماء (٥) الكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف (٦) الركض الاسراع والمطهم من الخيل الحسن التام كل شىء منه على حدته (٧) الأغانى ج ٨ ص ٧١ — ٧٢
(٨) استحصد الزرع حان حصاده

إذا دخلا القرية لَقِيَتْهُما جِنازة ، فقال شَنٌّ : أترى صاحب هذا النعش حيًّا أو ميتاً ؟ فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ! ترى جِنازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حيٌّ ؟ ! فسكت شَنٌّ وأراد مفارقته ، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله ، فمضى معه . وكان للرجل بنت يقال لها «طَبَقَة» ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه . فأخبرها بمرافقته إياه ، وشكا اليها جهله ، وحدثها بحديثه . فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ! أما قوله : أتحملنى أم أحملك ؟ فأراد أتحدثنى أم أُحدثك ، حتى نقطع طريقنا . وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكِل أم لا ، فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا . وأما قوله فى الجِنازة ، فأراد هل ترك عقباً يحيا بهم ذِكْرُه أم لا . فخرج الرجل فجلس إلى شنّ ، فحادثه ساعة ، ثم قال : أتحب أن أُفسر لك ما سألتنى عنه ؟ قال : نعم . ففسره . فقال شن : ما هذا مِن كلامك ، فأخبرنى مَن صاحبه ؟ قال : ابنة لى . فخطبها اليه ، فزوجه إياها ، وحملها إلى أهله . فلما رأوها قالوا : وافق شَنٌّ طَبَقَة . فذهبت مثلاً لكل اثنين متوافقين[1] .

وكان مرجع الرأى فى الأمر كله إلى الفتاة . فقد كان لها — إذا ذُكِر عن خطيبها ما يُهَجِّنه ، أو وُصِف منه ما ينبو الطبع عنه ، أو نزلت من الأمر على ما يحول دون الزواج به — أن تَرُدَّ خِطْبَتَهُ ، وليس لأهلها أن يستاقوها قسراً اليه . بذلك تجمل أشرافهم واستَنَّ فى أثرهم مَن دونهم . وفى سبيل ذلك أبت الخَنْسَاء بنت عمرو بن الشَّريد أن تساق إلى دريد بن الصِّمة — وكان سيد قومه وفارسهم وشاعرهم — لأن بينهما من تفاوت السن ما يرنّق[2] صفو العيش ويسىء طبع العشير

ولما أقبل سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب على عتبة بن ربيعة يخطبان اليه ابنته هندا عرض عليها أمر كل منهما وحسر لها عن بَيِّنة أمره فى نفسه ،

(١) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢١١ (٢) يرنق يكدر

وأسرته ، وعشيرته ، فآثرت أبا سفيان فزُوِّجت منه .

وقالوا : ان الحارث بن سَلِيل الأسدى زار عَلْقَمة بن خَصَفة الطائى — وكانا حليفين ، وكلاهما سيد قومه — فأبصر ابنته الزباء — وكانت كأجمل أهل دهرها — فخطبها اليه ، فقال له علقمة : أنت كفء كريم يُقْبَل منك الصفو ويُؤْخَذ منك العفو ، فأقم ننظر فى أمرك — وأبى أن يَقْطَع القول له — ثم انكفأ إلى أمها فقال لها : ان الحارث بن سَلِيل سيد قومه حَسَباً ومَنْصِباً[٢] وبيتاً وقد خطب الينا الزباء فلا ينصرفن إلا بحاجته . فنهضت المرأة إلى ابنتها ، وأنشأت تؤامرها[٣] فى أمر الحارث — وكان الحارث شيخاً لا شباب فيه — فكان أول ما بدأتها أن سألتها : أىُّ الرجال أحب اليك الكهل الجَحْجاح[٤] ، الواصِلُ المَنَّاح[٥] ، أم الفتى الوضَّاح[٦] ؟ وهنالك تجاذبا الحِوَار[٧] فى أيهما أمثل بالفتاة وأولى لها . وكلٌّ يؤثر شكله ، ويضرب الأمثال فى نفاذ قوله . على أن الأمَّ كانت أدَلَّ بحجتها . فنزلت ابنتها دون رأيها . . . فهل رأيت مدى فى الحرية أبعد من هذا[٨] ؟

وشبيه ذلك ما حدثوا أن زَيْد الخيل[٩] ، وأوس بن حارثة ، وحاتم بن عبد الله الطائيين نزعوا إلى مارِيَّة ابنة عَفْزَر احدى ملكات الحِيرَة[١٠] يخطبونها ، فقالت : لِيَصِف كل إنسان منكم نفسه . فقال زيد : أنا زيد الخيل ، تفخر بى طَيِّئ على العرب ، ولى فى كل مِرْباع[١١] غنيمة ، وغزَوت ثلاثاً وسبعين غزاة ، لم تثكل طائية

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٤ (٢) المنصب الأصل (٣) آمره شاوره

(٤) الجحجاح السيد وجمعه جحاجح وجحاجحة وجحاجيح (٥) المناح الكثير العطاء

(٦) الوضاح الجميل (٧) الحوار المحاورة (٨) أمثال أبى هلال ص ١٨٣ — ١٨٤ والميدانى ج ١ ص ٨١ — ٨٢ (٩) زيد الخيل بطل من أبطال العرب وسيد من سادات طيء لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يديه أسلم وقال فيه صلى الله عليه وسلم : ما وصف لى أحد من العرب الا رأيته دون ما وصف لى الا زيد الخيل فقد رأيته فوق ما وصف . وسماه رسول الله زيد الخير

(١٠) كذا يقول صاحب الأغانى ويقول صاحب لسان العرب انها كانت قينة من قيان الحيرة وأظن ذلك بعيداً عن الحق فكيف لامرأة مبتذلة ان يسارع ثلاثة من هامات العرب الى زواجها

(١١) المرباع ربع الغنيمة الذى كان يتقاضاه الرئيس فى الجاهلية . يريد : ان له على كل رئيس سلطاناً

فيها ولداً ، ولم تُفْجَع فيها بحليل ، ولم أخب فى شىء منها ، ثم إنى لم أرُدَّ سائلاً ، ولم ألاحِ[١] جاهلاً ، ولم أنطق باطلاً ، ولم أبت على وَغَم[٢] . فقال أوس : أوَّلُ ما أخَذْتُ من لحيتى قامت سُعْدَى فالتقطت كل شعرة سقطت منها فأعتقت بها نسمة من معد . فقال حاتم : أنهبت مالى ثلاث عشرة مرة ، وأحَلَّتْ لى طيءٌ أموالها ، آخذ ما شئت وأدَع ما شئت . قالت : هاتوا بذلك شعراً . فتنازعوا ذلك القول شعراً . فلما انتهوا قالت : أما أنت يا زيد فقد وَتَرْت العرب ، فمقام الحرة معك قليل . وأما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر ، والدخول عليهن شديد . وأما أنت يا حاتم فرجل كريم المُنْتَسَبَ ، قريب المنصب ، وقد تزوجتك ، ورضيت بك . فتزوجها[٣]

وقد أسلفنا لك حديث أوس بن حارثة ، ومؤامرَتَه بناتهِ فى زواجهن ، وفيه بلاغ وقَلَّ أن غُلِبت امرأة من العرب فى أمر زواجها على أمرها . ومن حديثهم أن ملكاً من ملوك غَسَّان[٤] كان يَغْدِر النساء ، لا يبلغه عن امرأة جمال إلاّ أخذها ، غيرَ آبه برأيها ورضاها ، فأخذ بنت يزيد بن الْصَّعِق الكِلاَبى — وكان أبوها غائباً — فلما قَدِم اخبر ، فوفد إليه ، فصادفه مُنْتَدِياً[٥] — وكان الملك إذا انتدى لا يُحجَب عنه أحد — فوقف بين يديه فقال :

يأيها الملك المُقِيت[٦] أما ترى ليلاً وصبحاً كيف يختلفان
هل تستطيع الشمس أن تأتى بها ليلاً وهل لك بالمليك يدان
فأعلمْ وأيقن أن ملكك زائل وأعلم بأنَّ « كما تَدين تُدَان »

(١) الملاحاة المشادة فى القول والافراط فى الجدل فيه (٢) الوغم الثأر أو الحقد أو القهر
(٣) أمثال أبى هلال ص١٥٤ والأغانى ج ١١ ص ١٠٤ — ١٠٦ (٤) هم ملوك الشام وهم بقية من ملوك اليمن (٥) انتدى الرجل جلس فى نادى قومه (٦) المقيت المقتدر

فأجابه الملك فقال :

إن التى سَلَبت فؤادَك خُطَّةٌ مرفوضة مِلآنَ[1] يا ابن كلاب

فارجع بحاجتك التى طالبتها والحق بقومك فى هِضَاب إراب

ثم نادى أن هذه السُّنَّة مرفوضة[2]

وربما اختارت المرأة لنفسها وهى فى الشرف الصميم ، والمجد القديم ، من قومها ، فلا لوم ولا نكير ، وما كانت تخطب منه إلا صفو الخلق ، وكرم الضريبة . فقد وُصف لخديجة بنت خويلد محمدُ بن عبد الله — صلوات الله عليه — وما كمله الله به ، من أدب طاهر ، وخُلُق عظيم ، فخطبته لنفسها ، وكانت أكرم زوجاته عليه ، وأبقاهن أثراً عنده ، وأسناهن ذكراً فى الحياة .

وقد حدثوا أن بنى كنانة توقعت غارة يفجؤها بها بعض الضاربين حولها من القبائل ، فخرجت إحدى كرائم الحى ، وجلست بين صواحبَ لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها وقالت : ادْعى لى فلانا ، فدعت لها رجلاً من الحى ، فقالت له : أن نفسى تحدثنى أن خيلاً تُغير على الحى فكيف أنت ان زوجتك نفسى ؟ قال : أفعل وأفعل — وجعل يطنب فى وصف نفسه ويفيض — فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى ، وأقبلت على صواحبها فقالت : ليس عنده غَناء . ادعى لى فلانا فدعت آخر . فخاطبته بمثل ما خاطبت صاحبه ، وأجابها بمثل جوابه . فصرفته . ثم قالت للوليدة : ادعى لى رَبيعة بن مُكَدَّم . فقالت له مثل قولها للرجلين قبله . فقال لها : أن أعجز العجز أن يصف الرجل نفسه ، ولكنى ان لقيت أعْذَرت[3] ، وحسبُ المرءِ غَنَاءً أن يُعذِر . فقالت له : قد زوجتك نفسى ، فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك . فلما كان الغد تزوجها ، وخرج من عندها ، ودافع الخيل ، وردَّ كيد المعتدين .

(١) ملآن أصلها من الآن (٢) أمثال أبى هلال ١٥٤ — ١٥٥ (٣) أعذرت أى أصبت العذر

وكذلك كان حسن الاختيار مجاذبة بين المرء وزوجه ، هى تختار منه شرف الهمة ، وسناء القدر ، وهو يخطب فيها كرم المنبت ، وجلال الخلال

لقد نشأت الفتاة بين أم كريمة ، وأب كريم ، فليس عجيباً أن تبتغى العشير الكريم . لقد أحلَّها أبوها موطن الرعاية والإكرام ، وزودتها أمها بزاد من الأدب والفضائل ، وليس من الحق أن يضيع كل ذلك عند زوج مُضيع .

كذلك كانت المرأة العربيـة زهرة طيبة الغرس ، كريمة المجتنى ، خرجت من دارة العز ، إلى دارة الجد وصدق العمل .

ذلك وكان من حق النساء أن يجلسن إلى خطابهن من الرجال[١] ، ويجاذبنهم عقدة الأمر ، وشجون الحديث .

وأكثر ما كان يخطبُ الرجلُ إلى غير عشيرته . وحجتهم فى ذلك أن الغرائب من النساء أولَدُ للنجباء من الأبناء ، فأما بنات العم فلا يلدن فيما زعموا إلا ضعاف الأجسام ، والأحلام . قال قائلهم :

أُنْذِرُ مَن كان بعيد الهمِّ تزويجَ أولاد بنات العمِّ
فليس ناج من ضَوًى[٢] وسُقْم

وقال آخر :

أَلَا فَتًى نال العلى بِهِمَّه ليس أبوه بابن عم أُمّه
ترى الرجال تهتـــدى بأُمّه[٣]

وعلى هـذا النسق سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « اغْتَرِبوا لا تُضْوُوا » أى تزوجوا الغرائب ولا تتزوجوا بنات العمومة — حتى لا ينكشفن عن الضعاف[٤] —

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٢ (٢) الضوى دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو هزالا
(٣) الأم — بفتح الهمزة — القصد (٤) تاج العروس ج ١٠ ص ٢٢١

ومن حديثهم أن عمر بن الخطاب نظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قُرْبُ أمهاتنا من آبائنا . قال : صدقتم . فتزوجوا فى البعداء فأنجبوا[1] .

على أن من العرب من كان يُؤثِر بنات العم لأنهن أصبر على نَبْوَة[2] الخُلُق وريب الزمان . وكان بنو عبس يؤثرونهن ، وقد سئلوا أىَّ النساء وجدتم أصبر ؟ فقالوا بنات العم[3] .

ومن قول شَقِيق بن السُّلَيْك ، وقد خطب امرأة من قومه فردته :

ونُبِّئْتُهَا أَحْرَمَتْ قومها ... لِتَنْكِحَ فِى مَعْشَرٍ آخرينَا
فَإِمَّا نَكَحْتِ فلا بالرِّفاء ... إذا مَا نَكَحْتِ ولا بالبنينَا
وَزُوِّجْتِ أَشْمَطَ فى غُرْبَةٍ ... تَجُنُّ الْخَلِيلَةُ مِنْهُ جُنُونَا
خَلِيلَ إماءٍ يُرَاوِحْنَهُ ... وَلِلْمُحْصَنَاتِ ضَرُوباً مُهِينَا
إِذَا ما نُقِلْتِ إلى دارِهِ ... أعدّ لظهرك سوطاً مَتِينَا
وَقَلَّبْتِ طرفك فى ماردٍ ... تَظَلُّ الْحَمَامُ عليهِ رُكُونَا
يُشِمُّكِ أَخْبَثَ أضراسِهِ ... إذا ما دنوْتِ لتَسْتَنْشِقِينَا
كأنَّ المساويك فى شِدْقِهِ ... إذاهُنَّ أكرِهْنَ بَقْلَعْنَ طِينَا

* * *

وبعد فكل ما أسلفنا من حق المرأة فى الزواج لم يكن كل ما تملك المرأة منه ، بل كان لها فوق ذلك فصل القول فى فصمه . لقد كان من حق المرأة فى حاشية الجزيرة العربية ، وبين أعطاف الزمن السحيق العميق ، أن تطلق الرجل ، كما كان

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٥٩ (٢) نبوة الخلق ما يشوبه أحياناً من السوء
(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ١٩٧

لها الحق أن تختاره ! قال أبو الفرج « وكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال فى الجاهلية[١] .

ولم يكن النساء يومذاك فى حاجة إلى المصارحة بالطلاق ، بل كان حسب البدويات منهن أن يحولن أبواب أخبيتهن إن كانت إلى الشرق فالى الغرب ، أو كانت إلى الجنوب فالى الشمال[٢] .

كذلك طلقت ماوِيّة بنت عَفْزَر زوجها حاتماً حين أمعن به جنون الكرم فلم يُبْقِ لأبنائه ما يتبلغون به .

وفى سبيل ذلك أرسل إليها قصيدته التى استهلّها بقوله :

هل الدهرُ إلا اليومَ أو أمْسِ أو غَدُ ... كذاك الزمان بيننا يتردد

وفيها يقول :

فأقسمت لا أمشى على سر جارتى ... مَدَى الدهر ما دام الحمام يُغَرّد
ولا أشترى مالاً بغدر علمته ... ألا كلُّ مال خالط الغدر أنكدُ
إذا كان بعض المال ربًّا لأهله ... فانى بحمد الله مالى مَعْبَـــدُ
يُفَكُّ به العانى ويؤكل طيباً ... ويعطى اذا مَنَّ البخيل المُطَرَّدُ[٣]
اذا ما البخيل الخَبّ[٤] أخمد ناره ... أقول لمن يصلى بنارِىَ أوْقِدُوا

ولهن — اذا لم يكنَّ ذوات أخبية — أساليب يدللن بها الرجال على الطلاق ، فليس لهم عليهن من سبيل .

قال أبو هلال : وكانت عَمْرَة بنت سعد ، ومَارِيَة بنت الجُعَيد العَبْدِية ، وعاتِكة بنت مُرَّة السُّلَمِيَّة ، وفاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية ، والسَّوْاء العَنَزِيَّة

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٠٢ (٢) الأغانى ج ١٦ ص ١٠٢ (٣) المطرد العرجون شبه به البخيل لجمود نفسه وانقباض يده (٤) الخب — بفتح الخاء وقد تكسر — المخادع الكثير الخداع

وسَلْمَى بنت عمرو بن زيد النجارية وهى أم عبد المطلب بن هاشم ، اذا تزوجت الواحدة منهم رجلاً وأصبحت عنده كان أمرها اليها ، وتكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح .

على أن من النساء من تناسين هذا الحق فنزلن عنه حياء لأزواجهن . ولكنَّ الرجال بغوا فى ذلك وأسرفوا حتى أن الرجل ليموت فيقول وليّه — وربما كان أخاه أو ابن عمه : — أنا أحق بامرأته . فينقلها إلى داره ، ثم ان شاء استبقاها لنفسه ، وان شاء زوجها وذهب بمهرها ! ذلك ما نهى الإسلام عنه . وقطع أسباب الأخذ به[1]

كرامتها على زوجها

هنالك فيما أوردنا من حديث القوم . وأسلفنا من مساق أشعارهم ، وشتات آرائهم ، علمت مكان المرأة من زوجها ، واستمكانها من نفسه ، واحتكامها بذات يده ، واستئثارها بالصميم من قلبه ، ورأيت كيف حرصه عليها ، واحتفاظه بها ، ووفاؤه لها ، وتفديته إياها بالتالد والطريف من ماله ، والحر الشريف من دمه .

لقد كان العربى يعتد زوجه العشير الأدنى ، والمشير الأمين ، وكان يُطرق لقولها ، ويطمئن إلى رأيها ، ويسكن دون الصفيّ العذب من لفظها ، وكان عزيزاً عليه أن تطلب فلا تجاب ، أو تشفع فلا تُشَفَّع .

ولقد كان من أمر عمرو بن حُجْر يوم خطب الى عوف بن مُحَلِّم ابنته أن أمهرها ضيعة له فى كندة . وأضاف الى ذلك أن يمنحها حاجات قومها ، فلا تُرَدُّ لأحد منهم حاجة ، وكان ذلك شرطاً معقوداً .

---

(١) وانا لعائدون الى هذا الموضوع فنوفوه البيان فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ان شاء الله

أما لقد نَشِبَت الحرب بين أعظم شعوب العرب — عدنان وقحطان — حتى انقلب بها ميزان القوة ، واستحالت لها مقادة الملك للطمة أصابت امرأة من زوجها .

ذلك أن ملوك اليمن كانت لهم سيادة العرب جميعاً . وكانوا يرسلون ولاتهم وعمالهم يجمعون لهم الأتاوَى[١] ، ويرهقون العرب فى سبيلها ارهاقاً لا يطاق ، وكانت ربيعة قد انتقضت على اليمن فرماها الملك بوالٍ عتيد شديد هو لَبيد بن عَنْبَسَة الغَسَّانى فأقام فيهم وتزوج امرأة منهم يقال لها عَمْرَة بنت الحَبَاب التَّغْلَبية فبينا هو يحدثها ذات يوم قال لها : ما بال كليب — عظيم ربيعة — ينصر مُضَر ويتهدد الملوك ؟ قالت : لا أعلم فى ولد اسماعيل ذا لِبْدَة[٢] هو أشد منه ! فهاج ذلك القول لبيداً حتى عمد اليها فلطمها وقال لها : أترَين أنك حرة ؟ أنت أمَتى فاقبلى ما يأتيك منا معشر الملوك . قالت : أنا أكرم منك . ثم خرجت مُغْضَبة حتى انتهت إلى كليب وهى تقول :

ما كنت أحسب والحوادث جمة ... أنا عبيد الحى من غَسَّان
حتى علتنى من لبيـــد لطمة ... سُجِرَت لها من حَرها العينان[٣]
أن ترض تَغْلِب وائل بفعالهم ... تكن الأذلة عند كل رهان
لولا الوجيهة قطَّعتنى بَكْرَةٌ ... جرباء مُشْعَلة من القَطِرَان[٤]

فلما سمعها كليب خرج حتى هتك على لبيد قُبَّته ، وصدع بالسيف هامته ، وهنالك ساقت اليمن جحافلها ، وجمعت مضر وربيعة جموعها ، وقاد الأولين عمرو بن بابل اللَّخْمى ، ورَأَس الآخرين كليب بن ربيعة التغْلَبى ، واقتتل الفريقان

---

(١) الاتاوى — جمع أتاوة بكسر الهمزة — الخراج (٢) اللبدة الشعر المجتمع بين كتفى الأسد
(٣) سجرت عينه خالط بياضها حمرة (٤) الوجيهة أم عمرة وآباؤها من الأزد وهم بطن من اليمن فبينها وبين لبيد صلة النسب وكان لبيد قد قال لعمرة لولا أمك الوجيهة قرنتك الى ناقة مشعلة بالقطران ثم زجرتها بك حتى تقطعك

من صبيحة اليـــوم إلى أصيله فى موقعة بذلت فيها المهج ، و بيعت الأرواح بيع السماح ، ثم حمل كليب على عمرو فخال أصحابه دونه بالرماح . ويقولون أن أربعة آلاف سيف عرضت دونه فشقها كليب جميعاً حتى انتهى الى عمرو فطعنه فقصم صلبه ، وحملت ربيعه فى أثره ، ومضر من ورائها ، حتى أوقعوا بجيوش اليمن ، ومزقوها كل ممزق ، وحرروا العرب من وسم عارها ، وذل أسارها[1] .

ولعمر أبيك ما كان مثل الزوجين فى توادهما وتآلفهما وتجاذب الود والولاء بينهما إلا كما قالت صفية الباهلية فى رثاء زوجها :

عشنا جميعاً كغصنى بانة سمقا ... حيناً على خير ما تنمى له الشجر
حتى إذا قيل قد طابت فروعهما ... وطال قنواهما واستنضر الثمر
أخنى على واحدى ريب الزمان ولا ... يبقى الزمان على شىء ولا يذر
فاذهب وحيداً على ما كان من أثر ... فقد ذهبت فأنت السمع والبصر
وما رأيتك فى قوم أسر بهم ... ألا وأنت الذى فى القوم تشتهر
كنا كأنجم ليـــل بيننا قمر ... يجلو الدجى فهوى من بيننا القمر

وربما نادى الرجل امرأته فذكر اسمها مجرداً لأنه للود أوثق ، وبالقلب ألصق ، وقد يذكره مصغراً لأن ذلك أروح لنفسها وأبقى على الدلال فيها . وقد يكنى عنه بما هو من خاصة شأنها ، ولِزَام أمرها ، فيقول : ياربة البيت . كما يقول مُرَّة بن مَحْكان التميمى :

يا ربة البيت قومى غيرَ صاغرة ... ضمى إليك رِحَال القوم والقربا

أو يا ربة الخِدْر كقول من يقول :

ألم تعلمى يا ربة الخدر اننى ... أبىٌ اذا رام العدوّ تهضمى

(١) بكر وتغلب ص ١٥ — ٢٥

وربما سما بندائها فألطفه بأسنى مفاخرها ، كما يقول قيس بن عاصم المِنْقَرى يخاطب زوجه مَنْفُوسة بنت زيد الخيل — وكانت قد أتته بطعامه فى الليلة الثانية من بنائه بها فقال لها : أين أكيلى ؟ فلم تعلم ما يريد حتى قال :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذى البردين والفرس النَّهْدِ[1]
اذا ما صنعت الزاد فالتمسى له ... أكيلاً فانى لست آكله وحدى
قصيًّا كريماً أو قريباً فاننى ... أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وانى لعبد الضيف ما دام نازلاً ... وما فى صفاتى غيرَها شِيَمُ العبد

شرف الرجل وعفته

إذا رأيت الرجل يغشى مواطن السوء ، ويغتمر مكامِن الريب ، ويَعتَام خفيات الدنايا ، فاشفق على زوجه أن يصيبها ما أصابه . لأن القرين سُنَّة القرين ، والرجل مرآة أخيه . فكيف بزوجه وهى ألزم له ، وأعلم بخبيئة أمره ؟

إن سيرة الرجل فى نفسه هى الجزء الأكبر من عرضه . ومن فَرَّط فى النصيب الأوفر أوشك أن يتبعه بالأقل . ومن لا أمانة له فى نفسه ، لا أمانة له فيمن سواه .

وان تعجب فعجب ما يقول الرجل ، ان الله اصطفاه وفضله وآثره بوفر العقل ، ورياضة النفس ، وغلبة الهوى ، وان المرأة إنما هى حِسٌّ ثائر ، وعاطفة نَزَّاعة ،

---

(١) ذو البردين عامر بن احيمر بن بهدلة وانما لقب ذا البردين لأن وفود العرب اجتمعت بين يدى محرق ملك العرب فأخرج بردين من ثيابه وقال ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن احيمر فأخذهما فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر فقال محرق أنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال نعم لأن العز كله فى معد والعدد فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب فمن أنكر ذلك فليناظرنى فسكت الناس فقال له هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك فقال أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وخال عشرة وها أنا فى نفسى وشاهد العز شاهدى ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزالها من مكانها فله مائة من الابل فلم يقم اليه أحد فخرج بالبردين فضرب بعزه المثل

والفرس النهد الحسن الجميل الجسيم المشرف

يتضاءل العقل بينهما ، ويَتَفَيَّل[1] الرأى دونهما ، ثم هو يجرى فى اللهو مخلوع العذار ، لا عاصم له من عقل ودين ، حتى إذا آنس منها ما يكره ، أو نزل من أمرها على ما يريب ، طاش لبه ، وانخلع قلبه ، والْتَفَع بقناع العار وجهه ، وحَمَّلها من التَّبِعة ما لو حمّل نفسه اليسير الدنىّ منها لبلغ نظام الكون أقصى مداه من الكمال . ولكنه أساء إلى نفسه ، فأساء إلى عشيرته ، وتنكب الطريق السوىّ ، فعمت النكبة ، وتوالت المَثُلات ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

ذلك مثل ما يختلج بنفوس القوم الذين وهنت إرادتهم دون نزعات أهوائهم وناءت نفوسهم بعقبى جرائرهم ، والرجل العربى أبعد ما يكون عن هؤلاء .

ان الذى يَكْلِمُ العربى فى سيرته ، ويرميه فى عفته ، انما يطعنه فى أمَسِّ صفاته به ، وأبقاها أثراً فيه ؛ فى شجاعته التى أُرهِف عليها ، وشرفه الذى يموت دونه ، وهمته التى تضطرم بين جنبيه

ان الرجل الذى يتأثر النساء فى مسيرهن ، ويجعل همه ابتغاء المهينات منهن جَبان ، ساقط الهمة ، مغمور العرض ، وليس العربى فى شىء من ذلك .

لقد كان الرجل من هؤلاء القوم يزهيه ويهز عطفيه أن يمدح بعفة المئزر أكثر مما يكون لو مدح بشجاعته واعتزامه . وكان إلى ذلك مرجع فخره بنفسه وتمدحه بشمائله . لأن مغالبة النفس ، وقمع الهوى أدل على الشجاع ، وأمثل به من مغالبة الأسد فى غِيلها ، واقتياد العُصْم[2] من جَوها .

على أننا لا نَكْذِبُ التاريخ ، ولا نَتَبَغَّى المحال ، فنقول ان العرب سنيَّهم ودنيَّهم ، شريفهم ومشروفهم ، كانوا على سواء فى اطِّرَاح المآثم ، واجتناب المحارم ،

---

(١) يتفيل يخطىء

(٢) العصم — جمع أعصم — وهو الغراب الأبيض الجناحين الأحمر الرجلين والمنقار وذلك عزيز فى جنسه

فذاك سبيل أهل الخيال ، الذين يرون من كل شيء غايته ، ويأخذون من كل مورد أصفاه . فإن فى تنزيه العرب أنفسهم عن الدنايا دليلاً على وجودها . وكما افترضنا بين غمار العرب الجبان المستطار حق لنا أن نفترض الفاحش المريب . على أن هؤلاء أوزاع من صعاليك العرب وشرادهم كان مغداهم إلى اماء قَلَّ بينهن من تنتسب إلى العرب ، وكن يتوارين عن العيون بمنجاة عن المدائن والقرى ومضارب خيام البادية . وكان الرجل إذا غدا إليهن ادَّرع الظلام وأرخى ازاره على أثر خطاه فوق الرمال حتى لا يتعرف الناس أثره . وكان العرب يَدْعون المرأة المَهينة بالمُظْلِمة من أجل ذلك . ومن جوامع كلمهم فى المدح : فلانٌ لا يُرْخَى لمُظْلِمةٍ إزَارُه . قالت العَوْراء بنت سُبَيع :

أبكى لعبـــد الله إذ حُشَّتْ قُبَيل الصبح نارُه[1]
طَيَّانَ طاوِى الكَشْح لا يُرْخَى لمُظْلِمـةٍ إزارُه[2]

أما بغاة الشرف وأبناء سادات العرب فهم بنجوة عن كل ذلك . وقد أطرد امرأ القيس أبوه ، ووكل به من يقتله ، لأنه اشتَمَّ روح الفجور من شعره .

وقالوا : ليس سيداً من غلبته شهوته .

وكان من أكبر المآثم عند العرب أن يلتقى الرجل بالفتاة فيبدأها بالكلام أو يُلقى اليها السلام ، وربما هاج ذلك شراً عقاماً . وقد يكون من ذوى قرباها والراغبين فى خطبتها فتحول تحيته دون ما يبتغى . وفى ذلك يقول حُمَيد بن ثور :

وما لى من ذنب اليهم علمته سوى انى قد قلت يا سَرْحةُ اسلمى

---

(١) حشت ناره أوقدت . قال التبريزى « أرادت أنه قتل قبيل الصبح فضربت لقتله مثلاً لايقاد النار والعرب تقول أوقدت نار الحرب اذا هاجت »

(٢) الطيان صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع والعرب ترى من السيادة الا يشبع رجل وطاوى الكشح ضامر ليس بضخم الجنبين والأصل فى المظلمة المرأة التى أظلم عليها الليل ثم أطلقت على المهينة من النساء

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وان لم تكلمى

وقد كف عنترة عن طلب عبلة جارية أبيه وسام نفسه البعد عنها ، والحرمان من زواجها ، لأنه ذكرها فى شعره ، حتى لا يثلم سنة العرب ، ولا يحل حرامهم[1].

ومن أمثال العرب : « كل شىء مَهَهٌ ما خلا النساء وذكرهن » أى كل شىء يسير يحتمله الحر إلا أن يذكر النساء وتذاع أجبارهن .

* * *

لذلك كله ولفرط ما طبعت المرأة عليه منذ نشأتها الأولى من صفاء الفطرة وسماحة الخلق ، وكرم التأديب ، اشتملت الزوجة العربية على خير ما اشتمل عليه فضليات النساء ، من مواتاة الزوج ، والبر به ، والإخلاص له ، والحدب عليه

ولئن ذكر عن الرجال أنهم يموتون ذوداً عن حريمهم ، لقد أثر مثل ذلك عن النساء أنهن يمتن دون الدنية فى أحرج المواقف وأضيقها ، إيثاراً لشرف أزواجهن على غوالى حياتهن ، وان لك فيما أسلفنا من أمر فاطمة بنت الخُرْشُب وقتلها نفسها دون أن تتخذ سبية أسيرة ودون أن يوصم اسم زوجها وبنيها ما فيه غناء

ومن أمثلتهن فى ذلك : « المنية ولا الدنية »

لقد كانت الزوجة العربية من الزوج بحيث لا يملك أمر مادته ولا معناه إلا بها . فهى تعلم من أمر الحياة ما يعلم ، وتحسن من رياضة الكلام ما يحسن ، وتجيد من اجالة الرأى ، وتصريف الأمر ما يجيد . فهى عديل نفسه ، ومِلاك أمره ، وقوام نظامه . ان أعوزه السمر أطربته ، أو جدَّ به الأمر آزرته ، أو التبس عليه الرأى أوضحته ، أو ضاق به الصدر فرجته .

وحدثوا أن رجلاً من سَراة قريش — جمع بين ضيق الخلق وسماح اليد —

---

(١) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٤٢

خطب إحدى كرائم قومه وحسيباتهم ، فلما وفق إلى قبولها ذهب إليها فقال لها : يا هذه ان فىَّ سوء خلق يعود إلى احتمال وتكرُّم ، فان كان بك علىَّ صبر وإلا فلست أغُرُّك منى . فقالت له : أن أسوأ خلقاً منك لَمَن يحوجك إلى سوء الخلق . . . . فما جرت بينهما كلمة حتى فرق بينهما الموت

وليست تلك بالمتفردة فى خلقها ، فان آثر ما عرف عن نساء العرب جميعاً سعة الصدر ، وطول الأناة . وقد راضهن على ذلك كثرة ما رأينه من تبدل الحال بين عسر ويسار ، وطول ما أُلِفْنَهُ من نشوة الكرم ، وجنون السخاء فى أزواجهن ، حتى لا يبقون على ما يتبلغ به أطفالهم . كل ذلك إلى ما عهدنه من تتابع الخطوب ، وموالاة الحروب ، وما إليها من ثُكل وفجائع ، مما وطنهن على احتمال الأذى ، وجعل مدى الصبر فى صدورهن بعيداً مديدًا .

* * *

والصبر والوفاء توأمان متشابهان ، ورفيقان متلاحقان ، إذا اكتمل أحدهما استتم الآخر . ولئن كان حميداً من المرأة أن تعاشر زوجها على الوفاء له ، فان أحمد من ذلك أن تفى له بعد طلاقها منه ، فتذكر له ولآله خير ما عرفت عنهم . وليس ذلك بعزيز على امرأة أقامت كريمة وفارقت كريمة « إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ باحسان » وسأورد لك من أمرها فى ذلك ما يطمئن به قلبك ، ويسكن له ثائر نفسك .

حدث محمد بن زياد الأعرابى ، قال :

قامت امرأة عروة بن الورد العبسى فى نادى قومه بعد أن طلقها ، فقالت : أما والله انك لَمِضَحُوك مقبلاً ، السَّكُوت مدبراً ، خفيف على ظهر الفرس ، ثقيل على مَتْنِ العدو ، رفيع العماد ، كثير الرَّماد ، ترضى الأهل والأجانب . قال : فتزوجها رجل بعده فقال : أثنى علىَّ كما أثنيت عليه . قالت : لا تحوجنى الى ذلك فانى

ان قلت قلت حقاً . فأبى . فقالت : ان شِمْلَتَكَ الالتفاف[١] ، وان شِربتك الاشتفاف[٢] ، وانك لتنام ليلة تخاف[٣] ، وتشبع ليلة تضاف .

وحدث أبو عمرو بن العلاء قال : تزوج رجل من بنى غَدَانة بامرأة من جَعدة ثم وقع بين الحيين ما حمله على فراقها ، فمسه من ذلك غمٌّ وأحزان ، فلما اعتزمت الرحيل قال : استمعى ويستمع من حضر : أمَا لقد اعتمدتك برغبة ، وعاشرتك بمحبة ، ولم أجد عليك زَلَّة ، ولم تدخلنى لك مَلة ، وان كان ظاهِرُكِ لَسروراً ، وباطنك للهوى ، ولكن القدر غالب ، وليس له صارف . فقالت له المرأة مجيبة : أثنيتَ وأنا مثنية ، فجزيت من صاحب ومصحوب خيراً ، فما استربتُ خيرك ، ولا شكوت ضيرك ، ولا تمنت نفسى غيرك ، وما ازددت اليك إلاَّ شرهاً ، ولا أحسست فى الرجال لك شبهاً . ثم افترقا .

وحدث المدائنى قال : تزوج حِصْن بن خُلَيد بينت الورد بن الحارث ثم طلقها فجاء اخوتها ليحملوها فقالت : مُرُّوا بى على المجلس بالحى أسلم عليهم فنعم الأحماء كانوا . فأقبل هو وهى فى قبتها فقالت : جزاكم الله خيراً ، فما أكرم الجوار ، وأكف الأذى ! قالوا : ما الذى كان عن ملأمنا ولا هوى . فقالت : اللهم انى لم أُطَلق مِن بغض ولا قِلَى فعليكم السلام[٤]

---

(١) الشملة — بكسر الشين — هيئة الاشتمال بالشملة — بفتحها — وكانو يعيبون من الرجل أن يلتف بها ويعدون ذلك من اللؤم (٢) الاشتفاف أن يشرب الرجل جميع ما فى الاناء وذاك من اللؤم

(٣) ليلة تخاف أى ليلة تغدو الى الحرب (٤) بلاغات النساء ص ٨٧ — ٩٠

الأم العربية

هى مَنْبِتُ فتيان العرب ، ومَعقِدُ فخرهم ، ومَثَارُ حَمِيَّتهم ، ومُستَقَى أدبهم ، ومَلاذهم ان جَدَّبهم الدهر ، ومفزَعهم ان اشكل عليهم الأمر ، ومُعَوَّلهم ان فدح الخطب ، وعَزَّ المعين .

تلك هى الأم العربية موطن ثقة الأب ، وفخر الابن ، وعِزّ العشيرة .

لقد نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بفخره — وهو أكرم العالمين خليقة وأكملهم كمالاً — الى أمهاته فى الجاهلية فقال : « أنا ابن العواتك مِن سُلَيم[1] . وما كان ذلك إلاّ لأن الله قرن منزلته الملكية العلية بأسمى مراتب البشر ، وتلك التى هيأته لها منذ القدم أرحام أمهاته الطاهرة وأرواحهن الزكية .

وشبيه بذلك قول علىّ عليه السلام للأشعث بن قيس وقد خطب اليه ابنته : غَرَّك ابن أبى قحافة إذ أعطاك ابنته وليست من الفواطم من قريش ولا العواتك من سليم[2] .

---

(١) قال ذلك — صلى الله عليه وسلم — يوم حنين . وسليم قبيلة من أعز قبائل العرب نفرا وأكثرها فخاراً . اما العواتك اللاتى يفتخر عليه الصلاة والسلام بالنسبة اليهن فثلاث هن عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان ام عبد مناف بن قصى وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج أم هاشم بن عبد مناف وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم وهب بن عبد مناف جد رسول الله أبى أمه فالاولى عمة الثانية والثانية عمة الثالثة — لسان العرب ج ١٢ ص ٢٥١ (٢) أما العواتك فقد عرفتهن . وأما الفواطم فثلاث الاولى سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج علىّ عليه السلام والثانية فاطمة بنت أسد زوج أبى طالب ابن عبد المطلب . والثالثة فاطمة بنت عبد الله بن عمر بن عمران جدة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن والحسين عليهما السلام يدعيان بابنى الفواطم لذلك — لسان العرب ج ١٥ ص ٣٥٣ . وأما الأشعث فهو الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندى وكان من حديثه انه ارتد فى جملة أهل الردة فأتى به أبو بكر رضى الله عنه أسيراً ثم أطلقه وزوجه أخته فروة بنت أبى قحافة فخرج من أبى بكر ودخل السوق فاخترط سيفه ثم لم تلقه ذات أربع — من بعير وفرس وبقر — الا عقرها فريع الناس لذلك وظنوه ثائرا ففزعوا الى أبى بكر فقالوا هذا الأشعث قد ارتد ثانية فأما هو فقد أشرف من سطح بيت أبى بكر وقال ياأهل المدينة انى غريب ببلدكم وقد أولمت بما عرقبت فليأكل كل انسان ما وجد وليغد علىّ من كان له قبلى حق فلم تبق دار من دور المدينة الا دخلها اللحم ولا رئى يوم أشبه بيوم الاضحى من ذلك اليوم فضرب أهل المدينة به المثل فقالوا أولم من الأشعث بن قيس . . على ان ناسا من المسلمين لم ترضهم هذه المصاهرة لأن احدى كرائم قريش أصبحت قعيدة بيت رجل اسلم بعد ردة — الميدانى ج ٢ ص ١٣٤

واذا كان من القبائل من اتخذت آباءها منتهى أنسابها كمُضَرَ وربيعة فان منها من آثرت الانتساب الى أمهاتها كخِنْدِفَ وجَدِيلة[١]

واذا كان من الملوك من نسب الى أبيه كالنعمان بن المنذر ، فمنهم من نسب الى أمه كعمرو بن هند . على أن المناذرة جميعاً نسبوا الى أمهم « ماء السماء » وهى ماوِيَّة بنت عوف بن جُشم ملكة العراق وأم ملوكها . واليها ينتهى جلال الجمال وجمال الخلال ، وعنها ورث ملوك العراق سناء الشرف ، ومضاء الذكاء وبها كان العرب يعْتَزُّون ، وباسمها يقسمون ويعتزمون .

واذا كان شديداً على الرجل أن يقال له : لا أب لك ، فان أوجع من ذلك وأشد أن يقال له : لا أمَّ لك .

وليس عجيباً بعد ذلك أن يقوم لَبيد بن رَبيعة فى جماعة بنى عامر بين يدى النعمان بن المنذر فيقول : « نحن بنو أم البنين الأربعة » . وكذلك يجعل المرأة منزع القوم بأسرهم فى فخرهم .

وما كان لأحد من العرب أن يجاذب امرأته فخر تربية أبنائها ، وفضل تأديبهم فكل ذلك منها مفيضه ، واليها مرجعه . حتى لقد كانوا يلقبون المرأة اذا انحسرت عن ثلاثة بنين فنَبُه ذكرهم وذاعت بين الخافقين مآثرهم بالمُنْجِبة[٢] ، ويتخذونها لذلك مضرب أمثالهم ، ومسار أشعارهم ، ومساق مفاخرهم ، وما كان الرجل فى شىء من ذلك اللقب الكريم المجيد .

---

(١) خندف هى ليلى بنت حلوان بن عمران زوج الياس بن مضر بن نزار وعنها انشعب أكثر بطون العرب ومن هؤلاء هذيل وكنانة وأسد والهون وأما جديلة فهى ابنة مدركة بن الياس ومن بطونها العظيمة عدوان واليها ينزع ذو الاصبع العدوانى خطيب العرب وعامر ابن الظرب حكيمها . وهنالك عدد غير قليل من قبائل العرب وبطونها تنزع الى امه وآثر النسبة اليها ومن هؤلاء بجيلة ومزينة وعاملة وعفراء وباهلة وسلول وحبابة وتجيب وبنو رقاش وبنو طفاوة وبنو العبدية وبنو طهية وبنو حطى — على وزان حبلى —

(٢) الميدانى ج ٢ ص ٢٠٥

وقد حَلِى بذلك اللقب كثير من عقائل العرب نذكر منهن :

(١) فاطمة بنت الخُرْشُب وهى التى أنجبت الكَمَلة لزياد العبسى وهم : ربيعُ الكامل ، وقَيْسُ الحِفاظ ، وعِمارَة الوَهَّاب ، وأُنَس الفوارس . وقيل لها : أى بنيك أفضل ؟ فقالت الربيع ، لا بل قيس ، لا بل عمارة ، لا بل أنس ، ثَكِلْتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ، هم كالحَلْقة المُفْرَغة لا يُدْرَى أين طَرَفاها

(٢) أم البنين ابنة عامر بن عمرو زوج مالك بن جعفر ، وأبناؤها : مُلاَعب الأسنة ، وطُفَيل الخيل ، وربيع المُقْتِرين ، ونَزَّال المضيف ، ومُعَوِّذ الحكماء ، وهى التى أسلفنا فيها قول لبيد : «نحن بنو أم البنين الأربعة» وقد أثكلتها القافية ولداً ، وإلا فهم خمسة كما بيَّنا .

(٣) خَبِيثة بنت رياح الغَنَوية هتف بها هاتف فى منامها فقال : أعشرة هَدَرَةٌ[١] أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟ ثم هتف بمثل ذلك فى الليلة الثانية فقصت رؤياها على زوجها فقال : ان عاد ثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة . فولدت خالداً الأصبغ ، ومالكا الطيَّان ، وربيعة الأحْوَص .

(٤) عاتكة بنت هلال السُّلمية . أنجبت لعبد مناف بن قُصَىّ هاشما ، وعبد شمس ، والمُطَّلِب[٢] .

(٥) ريحانة بنت معديكرب . ولدت للصِّمة بن عبد الله دريداً ، وعبد الله وعبد يغوث ، وقيساً ، وخالداً[٣] .

ولولا خشية الإطالة ، وأن نخرج من حديث النساء الى حديث الرجال لعقدنا الفصول الطوال فى مآثر أولئك الرجال وآثارهم وما منهم إلا السيد الكريم ، والبطل العظيم .

(١) هدرة جمع هادر وهو الساقط (٢) الميدانى ج ٢ ص ٢٠٥ (٣) الاغانى ج ٩ ص ٢

كل ذلك وأمثاله ممـــا جعل نساء العرب يَشْخَصْن بأبصارهن ، ويرمين بأمانيهن الى أبنائهن .

إن حَسْب الطفل أن يضطرب فى أحشاء أمه حتى يدعوها إلى الإطراق الطويل ، والتفكير الكثير ، وربما هاج ذلك ضرباً من الخيال ينبعث من أعماق صدرها فيثير دمها ، ويرهف حِسَّها ، ويتمثل بين مسارب سمعها صوتاً واضح المنطق ، فياض المعانى ، يسوق لها البشرى ، ويضىء بين يديها مناهج الأمل ، ويهديها إلى خير العمل ، فتحسب ذلك هاتفاً يهتف بها . وما هو الا صوت القلب يشدو بايقاع الأمانى .

واكثر ما يستمع النساء الهواتف إذا هدأت عيونهن ، فيستيقظن على صوته . وقد يستمعنه وهن يقظات .

وممن سمعن الهاتف ووعينه ليلى بنت مُهَلهل أم عمرو بن كلثوم . هتف بها الهاتف حين حملت بابنها فقال لها :

يا لَكِ لَيلى من ولد يُقدِم إقدام الأسـد
من جُشَم فيه العـدد أقول قولاً لا فَنَد

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الآتى حين اشتمل عليها الليل فأشار إلى الطفل وقال :

إنى زعيم لك أمَّ عمـــرو بماجِدِ الجَدِّ كريم النَّجْرِ[1]
أشجعَ من ذى لِبَدٍ هِزَبْر وقَّاصِ آدابٍ شديد الأسر[2]

يسودهم فى خمسة وعشر

---

(١) الزعيم هنا الكفيل والنجر الأصل (٢) ذو اللبد الهزبر الأسد والوقاص القاطع وأكثر ما تستعمل فى قطع الاعناق ولا أحسب فى نسبة وقاص الى الآداب إلا تحريفاً من الرواة ولعل أصلها وقاص أعناق أو أقران

قيل فساد قومه ، ولم يجاوز الخامسة عشرة من سنيه[١] .

ومنهن عُتْبَة بنت عفيف أم حاتم الطائى سيد سُمَحاء العرب وامام أجوادهم هتف بها الهاتف فقال لها : أغلامٌ سمح يقال له حاتم أحب اليك أم عشرة غلمة كالناس ، ليوث ساعة الباس ، ليسو بأوغاد ولا أنكاس ، فقالت : حاتم[٢] .

وأمثال هاتين كثيرات لا يُحصين عددا

على أثر ذلك يولد الطفل فتبدأ تربيته بتسميته — وكانت تَشرك زوجها فى تسمية بنيها — فان كان وليداً تخيرت له كل صُلْبٍ شديد من الأسماء ، يَنمى به حِسُّه ، وتُنبت عليـــه شجاعته . فمن أسمائهم : صَخْر ، وحَرْب ، وحَنْظَلة ، وعَلْقَمة ، وأَسَد ، وذئب ، وأشباهها مما لا يشعر بوهى عند النداء ، ولا انثناء عن الأعداء

ومن طريف أمر التسمية وغريب أثرها ما حدَّث ابن حبيب أن اسماء بنت دُرَيْم كانت فى خباءٍ لها ، وكان بنوها يرعونَ بمنجاة عنها ، فمر بها وائل بن قاسط فنظر اليها نظرة مريبة . فقالت : لعلك أسررت فى نفسك منى شيئاً ؟ فقال : أجل . قالت : لئن لم تنته لأستصرخن عليك أسبُعِى . فقال : والله ما أرى بالوادى أحدا . قالت : لو دعوت سباعه لمنعتنى منك وأعانتنى عليك . فقال : أَوَ تَفْهَم السباع عنك ؟ ! قالت : نعم . ثم رفعت صوتها : يا كلب ، ياذئب ، يا فهد ، يا دب ، يا سِرْحان ، يا أسد . فجاء بنوها يتعاوَوْن ويقولون : ما خبرك يا أماه ؟ قالت : ضيفكم هذا أحسنوا قِراه . ولم تَرَ أن تفضح نفسها عند بنيها . فذبحوا له وأطعموه . فذهب وهو كالمأخوذ عجباً مما رأى . وسمى ذلك الوادى بوادى السباع فهو اسمه منذ ذلك اليوم[٣]

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٧٥ (٢) ديوان حاتم (٣) خزانة الأدب ج ٣ ص ٥٢٢

أما البنات فيختار لهن كل خفيف المسمع ، بديع الموقع من الأسماء . فمن أسمائهن : حُبَّى ، وحَبِيبة ، والنَّضِيرة ، وسُعْدَى ، ومَيَّة ، وأُمَيْمة ، ونظائرها .

الى ذلك يأتى دور الرضاع . وهنالك تمهد طفلها لما هو أهل له من عظمة الحياة ، فتَجْهَد ألا يصدع سمعَه شيء من دنيّ الألفاظ ورَذْلها . بل تردد له فى ارضاعه ومداعبته ألفاظ الشرف والسؤدد ، وتلقنه آيات المجد والكرم .

وللنساء فى سبيل ذلك ما لا يناله العد من الأناشيد القصار ، يُغَنِّين بها أولادهن ويرقصنهم بها ، وفيها من غُرّ المكارم ، وحُرّ العظائم ، ما هو خليق بأشبال أولئك الأبطال .

ومن قول منفوسة بنت زيد الخيل وهى ترقص ولدها :

أشبِهْ أخى أو أشْبِهَنْ أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا
تَقْصُرُ عن مَنَاله يداكا

ولقد يظن قصار النظر فى قولها شيئاً من تعجيز الطفل وتقصير همته . على أنه من ذلك بعيد . فهو مبالغة فى الإغراء ، وافتنان فى التشويق ، وخليق بالغلام أن يفكر حين يستمع ذلك الكلام فى منزلة جده قبل منزلة أبيه .

ومن قول فاطمة بنت أسد وهى ترقص ولدها عَقِيل بن أبى طالب :

أنت تكون ماجدٌ نبيل اذا تهب شمأل بَلِيل

ومن قول أم الفضل بنت الحارث وهى ترقص ابنها عبد الله بن عباس :

ثَكِلْتُ نفسى وثكلت بكرى ان لم يسد فِهْراً وغيرَ فِهْرِ
بالحسب الوافى وبذل الوفر

وليس بفائتنا ونحن فى أول عهد الأم بابنها أن نسوق اليك حديثين لاثنتين من نساء العرب . وستعلم من تناسق رأيها ووثوق الصلة بينهما الى أى

حد وصلت المرأة العربية من تربية طفلها واعداد نفسها له منذ الاشتمال عليه .

قالت أُمَيمة أم تأبط شرا — وقد سئلت عن أمر تربيتها لولدها : —

والله ما حملته تُضَعاً ولا وُضَعاً ولا ولدته يَتْناً ولا أرضعته غَيْلاً ولا أَبَتُّه مَئِقاً ولا أَنَمْتُه تَئِدًا ولا سَقَيْتُه هُدَبِداً ولا أطعمته قبل رِئَةٍ كَبِداً[1]

وقالت فاطمة بنت الخرشب — وقد سئلت أى بنيك أفضل : —

والله ما أدرى ، انى ما حملت واحداً منهم تُضَعاً ولا ولدته يَتْناً ولا أرضعته غَيْلاً ولا منعته قَيْلاً ولا أنمته تَئِداً ولا سقيته هُدَبِداً ولا أطعمته قبل رئة كبداً ولا أبتُّه على مَأْقة[2].

ونحن أولاء موفون لك القول فى شرح هذه الألفاظ ورأى الطب الحديث فى حالاتها .

فالحمل التُّضَع أن تحمل المرأة قبيل الحيض . والوُضَع أن تحمل فى أعقابه . وفى كلتا الحالتين ينضَحُ الرحم سائلاً يؤذى النطفة ويضعفها وهى فى أول منابتها ومُقْتَبَل عهدها بالحياة ولها ما لها من سوء نشأة الطفل وضعف تركيبه .

أما ولادة الطفل يَتْناً فَأَنْ يولد منكساً ، رجلاه قبل رأسه . وهنالك تصاب عظام الطفل اللدْنة الناعمة بتأثير من الضغط الذى ينالها وقَلَّ أن يتلافاه مهما تطاول به العمر وامتدت بأيامه الحياة .

وأما الإرضاع غَيْلاً فأن تُرضع وليدها وهى حامل وللبن حينذاك فاسد موبق يكاد يكون مسموماً وقد يكون قاتلاً .

وأما القَيل الذى لا تمنعه طفلها فتناول اللبن وقت اشتداد الهاجرة واتّقاد

---

(١) لسان العرب مرددا فى أجزاء متفرقة عند الكلام على كل من الفاظ الجملة والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ (٢) الميدانى ج ٢ ص ٢٠٥

الرمضاء وهو يطفئ الحر وينقع غُلَّة الجسم . فأما بلوغ ذلك بالماء فقد يعقبه كثير من الأذى .

وأما المبيت مئقاً فأن يقضى الطفل ليله مُغْضَباً أو حزيناً . وفى ذلك من التأثير على نوم الطفل وذات نفسه ما فيه وليس هنالك شىء أزكى لنفس الطفل وأنهض بعقله وأصفى لدمه وجسمه من أن يكون مبتهجاً فى نومه ويقظته .

وأما النوم تئداً فأن ينام على موضع نكِد لصلابته أو استقذاره ولكليهما تأثير قوىٌّ شديد فى عظام الطفل ونمائه واتجاه صحته .

وأما الهُدَبِد فاللبن المتكبِّد الذى لَانَ بعضه وجف بعضه وذلك إما لقرب انقطاعه وإما لحالة نفسية أو جثمانية أصابت الأم . وذلك لعمرك السم النقيع يتناوله الطفل فيَذْوِى عوده وينحَلُّ جسمه وليس وراء ذلك إلاّ الموت أو الحياة على شر من الموت .

وأما الرئة والكبد فكل منهما يحتاج فى هضمه الى لُعاب الاسنان فاذا لم يستوف طعامها ذلك اللعاب كان وَخِماً ثقيلاً لا تملك المعدة أن تتخذ منه نصيبها من الفائدة فيستحيل الى اسهال شديد يعقبه ضعف شديد[1]

لذلك كله لم يكن بدعا أن يمتدح أبو كبير الهذلى بعض رفاقه ببعض تلك الحالات ثم ينسب اليها قوته وصلابة عوده وبعد همته . فذلك حيث يقول :

ومُبَرَّإٍ من كل غُبَّر حَيْضَةٍ وفساد مرضعة وداءٍ مُغْيِلِ[2]

---

(١) مرجع الفضل فى تعليل هذه الحالات وتطبيقها على الطب الحديث الى الطبيبين الكريمين أحمد سعيد بك وسليم صبرى بك (٢) غبر الحيض بقاياه وفساد المرضعة يريد به ما يعترى لبنها من الفساد

ثم يقول فى وصفه :

واذا رميت به الفِجاج رأيته ... يهوى مَخارِمَها هُوِىَّ الأجدل[١]

واذا نظرت إلى أسِرّة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلّل[٢]

صعب الكريهة لا يرام جَنابه ... ماضى العزيمة كالحسام المِقْصَلِ[٣]

يحمى الصحابَ إذا تكون عظيمة ... واذا هُمُ نزلوا فمأوى العُيَّلِ[٤]

ولم يكن ذلك شأن من ذكرنا من النساء فحسب ، بل لقد كانت العرب تعيّر من قصّرت به أمه فى بعض ذلك وتسبه به[٥] .

وبعد فذلك ما تواصى به نساء العرب فى تربية أطفالهن وهن فى جاهليتهن الأولى وما يبتغى الأطباء بعد بضعة عشر قرناً من عهدهن أن يكون النساء أتم عناية بأبنائهن وأشد حرصاً عليهم من كل ذلك .

يدرج الطفل بعد ذلك فتجعل الأم مسلاته حديث الأبطال ، وآيات النزال ، وبذل النوال ، واصطناع الرجال . ثم يشب فتنشر بين يديه من جليل العظائم كتاباً ، وتقيم بين عينيه من جميل المكارم محراباً ، وتتعاهده كما يتعاهد الزارع الضَّنين منابت الغَرْس ، ومساقط الغَيْث . إن احتكمت به نزوة الشر ، وطاشت بلبه سورة الحقد ، بغير حق وفى غير حزم ، عطّفت صدره ، وألانت جانبه ، وأوضحت نَهْج الخير له . وان سكنت همته ، وفترت عزمته ، أذكت حميته ،

---

(١) الفج الطريق الواسع فى الجبل ونحوه وجمعه فجاج والهوى — بضم الهاء — القصد الى أعلى — وبفتحها — الى أسفل والمخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل والأجدل الصقر (٢) الأسرة الخطوط فى الجبهة والعارض من السحاب ما يعرض فى جانب السماء والمتهلل من تهلل الرجل اذا افتر عن أسنانه تبسما ، يقول : اذا نظرت فى وجهه رأيت أسارير تشرق اشراق السحاب المتشقق بالبرق يصفه بحسن البشر وطلاقة الوجه — التبريزى ج ١ ص ٤٥ (٣) المفصل القاطع (٤) العيل جمع عائل وهو الفقير (٥) عيون الاخبار ج ١ ص ٤٥٤

وأثارت حفيظته ، وهاجت غضبته . ونحن أولاء نضرب لك الأمثال ومنها تعلم إلى أى منزلة من نفاذ الرأى ، وقوة التأثير ، وحسن الهداية ، وَصَلَت الأم العربية فى ذلك العهد السحيق .

جعل قوم لبشر بن أبى حازم الأسدى — وكان عبداً — جُعلاً على أن يهجو أوس بن حارثة بن لام . فأخذ يتلقفه بلسانه فى كل مجتمع وناد حتى إذا ضاق بأوس أمره أرسل رسولاً من لدنه ليشترى الشاعر العبد من مولاه بالغاً ما بلغ . فلما اشتُرى له وجىء به اليه قال له : هجوتنى ظالماً لى ، أنت بين قطع لسانك ، وحبسك فى سرب حتى تموت ، أو قطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك ، ثم دخل على أمه سُعْدَى — وكانت قد سمعت كلامه — فقالت له : يا بنىَّ ، مات أبوك فرجوتك لقومك عامّة فأصبحت أرجوك لنفسك خاصة ، وزعمت أنك قاطع رَجُلاً هجاك فمن يمحو ما قاله غيره ؟ قال : فما أصنع ؟ قالت : تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة . ففعل ما قالت . فملأ بشرٌ عِراض الآفاق بمدائح أوس . وكان مما مدحه به قوله :

إلى أوس بن حارثة بن لام ... ليقضى حاجتى ولقد قضاها
فما وطئ الحصى مثل ابن سعدى ... ولا لبس النعال ولا احتذاها[1]

وشبيه بهذا ما حدث أبانُ بن تَغلِب قال : خرجت فى طلب الكلأ فانتهيت إلى ماء من مياه كلب ، واذا أعرابى على ذلك الماء ومعه كتاب منشور يضطرم وعيداً وتهديداً ، وجعل يقرأه على مَن بين يديه من القوم . فقالت له أمه وهى فى خبائها — وكانت مُقْعَدَة كِبَراً : — ويلك ! دعنى من أساطيرك ! لا تَحْمِل عقوبتك على من لم يحمل عليك ، ولا تتطاول على من لم يتطاول عليك ، فانك

(١) بلاغات النساء ص ١٤٠ — ١٤١

لا تدرى ما تُقَرِّبُكَ اليه حوادث الدهر، ولعل من صيرك إلى هذا اليوم أن يصير غيرك الى مثله غداً، فينتقم منك أكثر مما انتقمت منه، فاكفف عما أسمع منك، ألم تسمع الى قول الأول :

لا تعاد الفقير علَّك أن تر كع يوماً والدهر قد رفعه[1]

وأما ابتعاثها الهمم من مكامنها، وانتضاؤها العزائم من أغمادها، فذلك ما لا يكلفها جهد القول، ولا مُرّ الوعيد، فحسب الكلمة أن تخرج من فيها هادئة وادعة، فيكون لها ما بعدها. ومَثَلُ ذلك ما روى الراوون ان ذؤاب ابن أسماء العبسى قتل عبد الله بن الصِّمّة — وكان ذؤاب بطلاً أيّداً عتيداً — فلبث دريد يترقبه حتى أعياه. فلما انقضى الحول ولم يأخذ بثأر أخيه قالت له أمه ريحانة بنت معديكرب : يا بنى ان كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زَبيد. فأنف لذلك، وحلف لا يدَّهن ولا يكتحل، ولا يمس طيباً، ولا يأكل لحماً، ولا يشرب خمراً، حتى يدرك ثأره. ثم استجمع لعبس وفاجأهم وأوقع بهم واقتاد ذؤاباً أسيراً وذهب به الى فِناء أمه فقتله بمرقب منها ثم قال لها : هل بلغت ما فى نفسك ؟ قالت : نعم مُتِّعت بك[2].

ألا ان أشد ما يملك النفس من أمر أولئكم النساء، أن يدفعن بأبنائهن فى غمرة الواجب، ومن دونها رَصَد الموت، وبذل المهجات. لأن مِيتة العز أروح فى نفوسهن، وأمثل بأبنائهن، من حياة العجز. ودونك حديثاً، لولا ان تاريخ العرب حافل بالكثير من مثله، لكان أنشودة العظمة والفخار لتلك الأمة المجيدة الكريمة.

ذلك ان ظغائن من بنى كنانة خرجن فى ركبهن، وكان على خفارتهن ثلاثة

---

(١) ان هذه الحادثة وان كان مرجعها الى أول العهد الاسلامى فان بداوتها وذهاب الكبر بالمروءة فيها يسوغان رواياتها فى هذا الجزء من هذا الكتاب (٢) الأغانى ج ١٤ ص ٢٦

من رجال القوم أحدهم ربيعة بن مكدّم — وكان غلاماً فتيًّا له ذؤابتان — فبينما هم فى طريقهم أبصروا بجمع من بنى سُلَيم يملك عليهم عُرض الطريق ، وبين الحيَّين ثارات وأحقاد لا تلتئم جراحها ، ولا تخمد جذوتها . فقال ربيعة لِمَن معه : أنا آتيكم بخبر القوم . فلما همَّ بالسير قالت امرأة : هرب ربيعة ! فقالت أخته : أين تنتهى نَفرة الفتى ؟ ! فعطف عليهن وقد رجف جسمه بما سمع منهن وقال :

لقد علمت انى غير فَرِق لأطعننَّ طعنةً وأعتنق[1]
أصبحهم صاحى بمحمَرّ الحدق عَضْباً حساما وسنانا يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه ، فأصاب رجلاً من بنى سليم فقتله ، ورماه رجل منهم بسهمه فأصاب يده فنزف دمه ، فلحق بالظعائن يستدمى[2] حتى انتهى الى أمه ، فقال : اجعلى على يدى عصابة ، ثم أخذ يقول :

شُدِّى عَلَىَّ العصب أُمَّ سَيَّار فقد رُزِيت فارساً كالدينار
يَطعَنُ بالرُّمح أمام الأدبار

أما أمه فلم يذهب بلبها ما رأت ، ولم يلفتها ما سمعت من شطر قلبها عن السير به فى سبيل الواجب . فما كان جوابها إلا قولها :

إنا بنـو ثعلبة بن مالكْ مُرَزَّأُ أخيارُنا كذلكْ
من بين مقتول وبين هالكْ ولا يكون الرزء إلا ذلكْ

قالت ذلك بينما هى تشد العصابة على يده ، فاستسقاها ماء فقالت : ان شربت الماء مُتَّ ، ولكن كُرَّ على القوم . فكرَّ راجعاً يشتد على القوم وينزفه الدم ، وقال للظعائن أوضعْنَ[3] ركابكن حتى تنتهين الى أدنى البيوت من الحى فانى لمائت

(١) الفرق الجبان واعتنق يريد بها اعتناق الأبطال عند النزال (٢) استدمى الرجل طأطأ رأسه يقطر منه الدم (٣) الاقتضاع السير بين القوم

وسوف أقف دونكن لهم فأعتمد على رمحى فلا يقدمون عليكن لمكانى . ثم وقف على فرسه يعترض طريق القوم وركز رمحه فى الأرض واعتمد عليه، وهنالك فاضت رُوحه والقوم بمنجاة عنه، لا يقدمون هيبة له، ورعباً من بلائه واعتقاداً منهم بأنه رابض فى موقفه ربضة الأسد المستجمع المتحفز. فلما طال بهم موقفهم ورابهم مكان صاحبهم، رماه أحدهم بسهم فأصاب فرسه فوقع جثة هامدة، على حين اعتصم النساء بالحى فلم يكن اليهن من سبيل . فلُقِبَ ربيعة منذ يومئذ بحامى الظُّعُن، وهو الذى حماهن حيًّا وميتاً[1] .

كذلك تقذف الأم بولدها فى لهوة الموت وما به من هوان عليها، ولا بها من غَناء عنه . فهو عَرْف الحياة تتنسمه، ونور الوجود تتلمسه . ومن أجل ذلك آثرته بحياة الخلود، حياة المجد والحمد والذكر الكريم .

ألا أن الناس ليظلمون تاريخ العرب أن زعموا أن حاتماً مُسْتَنُّ الجود بين العرب فذلك ميراث أمه ائتمنته عليه، وسجيتها طبعته عليها ، فما كان له إلاّ أن يكون جواداً كريماً .

لقد كانت عُتْبة بنت عفيف أم حاتم الطائى موفورة الثروة ، فياضة اليد ، فكانت لا تبقى على شىء إذا قصدها سائل ، أو هبط بفنائها نزيل . فلما رَأى اخواتها اتلافها حجروا عليها مالها، حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها طائفة من أبلها ، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها فقالت لها : دونك هذه الإبل فخذيها ، فوالله لقد عضنى الجوع ما لا أضَيِّع معه سائلاً. وأنشأت تقول :

لَعَمرك قِدْماً عضنى الجوع عضة فآليت ألّا أمنع الدهرَ جائعا

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٢٦

فقولا لهذا اللائمى اليوم اعفنى ... وان أنت لم تفعل فعَضَّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أوعذل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم الا طبيعة ... فكيف بتركى يا ابن أمّ الطبائعا[1]

تلك أثارة من نفاذ المرأة العربية فى بنيها واحتكامها بنفوسهم ، واستثارتها روح الفضائل والمكارم فيهم . وما بلغت ذلك إلا بفرط حبهم لها ، ولياذهم بها ، وعكوفهم عليها . ومن أمثالهم : « الى أمه يَلهَفُ اللَّهْفان »

ولقد بلغ من كرامتها عليهم ، ووفور منزلتها بينهم ، أن السُّلَيك بن السُّلَكة السَّعْدِى — وأمه جارية حبشية — أطار نومه ، وأثار همه ، أن تشتمل بلاد العرب على خالاته ، ونظائر أمه ، جوارىَ قد ملكهن الرق ، وأزرى بهن التبذل ، وودَّ لو وجد من ذات يده ما يمكنه من افتدائهن جميعاً . فذلك حيث يقول[2] :

أشابَ الرأسَ انى كل يوم ... أرى لى خالة بين الرحال
يَشُقُّ عَلَىَّ أن يَلقين ضيما ... ويَعْجِزُ عن تخلُّصِهنَّ مالى

ذلك أمر المرأة فى بنيها . فأما بناتها فهن أتم بها ائتماماً ، وأطول معها مقاماً ، واكثر لها لزاماً . ومن أجل ذلك كن بها أشبه ، وكان أدبها بهن أمثل ، ولعمر أبيك انهن لزَهر الروض شبيه بعضه ببعض ، وهن لأمهاتهن أولى بقول من يقول :

فان يك سيار بن مكرم انقضى ... فانك ماء الوردان فقد الورد

ولا تزال الفتاة عاكفة على أدب أمهـا حتى تحمل الى زوجها فاذا احتملت طوقتها بوصية تجمع بين شتاتها أشد ما يحوجها فى دار زوجها .

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣
(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٥١

وأن لك فيما أنا سائقه اليك من الحديث لآية بالغة بما كان للمرأة يومذاك من تكرمة وتأديب .

ذلك أن الحارث بن عمرو ملك كندة خطب الى عوف بن مُحَلِّم الشيبانى ابنته . فلما كان يوم بنائه بها وأرادوا أن يحملوها اليه قالت لها أمها :

أى بنية ، أن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما اليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ... أى بنية انك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أَمَة ، يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشراً ، يكن لك ذخراً ، أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحسن الطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلاّ أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع مَلْهَبة ، وتنغيص النوم مَغْضَبة . وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، ومِلاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصينَّ له أمراً ، ولا تُفْشِنَّ له سراً ، فانك ان خالفت أمره ، أوغرت صدره ، وان أفشيت سره ، لم تأمنى غدره .

ثم إياك والفَرَحَ بين يديه ان كان تَرِحا ، والتَّرَحَ بين يديه إذا كان فرحا ، فان الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له اعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك اكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما يكون لك مرافقة .

واعلمى أنك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت ، والله يخيرُ لك .

ثم احتُملَت اليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن[١]

وقالوا ان النعمان بن المنذر تزوج أربعاً من أربع قبائل تأييداً لعرشه وتثبيتاً لملكه : واحدة أنمارية ، والثانية سُلَمية ، والثالثة نَمَرية ، والرابعة أسدية

فقال للأولى : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . عَطِّرِى جلدك ، وأطيعى زوجك ، واجعلى الماء آخر طيبك .

وقال للثانية : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . لا تجلسى بالفِناء ، ولا تكثرى المراء ، واعلمى أن أطيب الطيب الماء .

وقال للثالثة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . لا تطاوعى زوجك فتُمِلِّيه ، ولا تعاصيه فتُشْكِيه[٢] ، وأصْدُقِيه الصفاء . واجعلى آخر طيبك الماء .

وقال للرابعة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . أَدْنِى سِترَك ، واكرمى زوجك ، واجتنبى الإباء ، واستنظفى بالماء[٣]

---

(١) الميدانى ج ٢ ص ١٤٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٢

(٢) تشكيه تحمليه على الشكوى (٣) بلاغات النساء ص ٩٢

(٣)

المـــرأة العربيـــة

فى عامة حياتها

١ — عملها

الوَرَهُ والخُرق خَلتان ينبو عنهما طبع الحرة الشريفة، فلا تطيقهما ولا تحتمل أن توصم بهما

فأما الورهاء فالهَوجاء التى لا يتم لها عمل . وأما الخرقاء فالتى تدَّعى العمل ولا تحسنه . وهما بغيضتان الى العرب جميعاً . وقديماً تحامَوْهما وتواصَوْا باجتنابهما مهما أوتيتا من بسطة الثراء ، ودرجتا بين مهاد النعماء . لأن الفراغ مدعاة الملل ، والملل سبيل الفساد .

وفى سبيل ذلك يقول الحارث بن كعب المِذْحَجى لبنيه — وقد جمعهم بين يديه فى آخر عهده بالحياة : — أياكم والورهاء ، فانها أدوأ الداء ، وتجنبوا الخرقاء ، فان ولدها الى أفن يكون .

ان امرأة واحدة من قريش عرف عنها الخُرق فكانت تجتلب الصوف فتغزله ثم تنقض ما تغزله . وبرغم ما كان لها من سعة العيش ودعة الحياة اتخذها العرب مثلاً سائراً . كلما رأوا رجلاً رزق اليسار وحُرِم حسن التصرف فيه قالوا : خرقاء وجدت صوفاً[1] . واليها أشاروا ، وبها شبهوا . وهى التى جعلها الله جل ذكره مضرب المثل فى ذلك فقال : « وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً » .

---

(١) أمثال أبى هلال ص ٢٨٣

لذلك لم يكن بدعا أن تأبى ابنة أوس بن حارثة على نفسها أن تكون زوجا للحارث بن عوف ، لأنها لا عمل لها ، فهى لا كفاية لها ، وهى التى ستحتمل من دار سيد العرب إلى دار سيد العرب ! .

تلك أثارة من البيان بما كان للمرأة يومذاك من داعية إلى العمل

فأما ذلك العمل فعلى نوعين :

نوع شامل ينضوى تحته النساء جميعاً وفيهن الفتاة المدلَّلَةُ ، والسرية السنية ، قضاء للواجب ، ودفعاً للملل ، وتفادياً من سوء الأحدوثة . وآخر يتحذنه مَجْلَبَةً للرزق ، ومَعْدَاة على الحاجة ، وعونا على الزمن ، ودفعاً لسؤال اللئيم

فمن الأول :

١ — أُسْوُ الجراح ، وشد العظام ، وحياطة الدم دون النزيف . ونفاذهن فى ذلك شبيه بنفاذ الرجال فى أساليب القتال ، ومقارعة الأبطال ، لحاجتهن اليه إذا اتقدت الحرب ، واشتجرت السيوف ، ونفذت الرماح إلى أعطاف الصدور . فهنالك يغتمرن الموقعة حاملات أدَاوَى الماء[1] ، وإلى جانب كل منهن ما تحتاج اليه الجراح من لفائف وجبائر وما سوى ذلك

وهن يُسَمَّيْنَ لذلك بالأواسى . وفيهن يقول قَيْسُ بن الخَطيم وقد طعن عدوّه طعنة منفسحة الجوانب جمة الشعاب :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لها نَفَذٌ لولا الشُّعَاع أضاءها[2]

يهون علىّ أن تَرُدَّ جراحُها ... عيونَ الأواسى إذ حَمِدت بَلَاءها

فجعل أقصى طعنته القاتلة أن تردَّ جراحُها عيون الأواسى فلا يجدن إلى شفائها سبيلاً .

---

(١) الأداوى — بفتح الهمزة — جمع اداوة — بكسرها وهى وعاء من الجلد يتخذ للماء

(٢) النفـذ النافذة أو النفوذ والشعاع ما تطاير من الدم أراد أن طعنته ثغرت فى جسم عدوه ثغرة أضاءت ما وراءها لولا الدم المنفجر منها

وقد انبلج صبح الإسلام على كرائم حسيبات رافقن الغزاة الفاتحين مسعفات آسيات فكن فى المحل الأمكن من نفوس المسلمين جميعاً . ولنا إليهن عودة فى الكلام على المرأة المسلمة ان شاء الله .

ب — غزل أصواف الغنم وأوبار الإبل . وذلك مُسْلَاتُهُنَّ وأداة لهوهن . ومن أمثالهن فى ذلك : نِعْمَ لَهْوُ الْحُرَّةِ المِغْزَل .

ح — الضرب على المَعَازِف من دفوف وطبول وصنوج ومزاهر ومزامير وطنابير وأشباهها[1] . بذلك كن يلهون فى أفنيتهن أيام مواسمهن ومجامعهن وبذلك كن يخرجن مبتهجات لملاقاة بطل مظفَّر أو عند نبوغ شاعر مبين . وقد خرج نساء بنى النجار وولائِدهُنَّ للقاء النبى صلى الله عليه وسلم عازفات على المزاهر صادحات متغنيات[2]

وممن برع فى الغناء ماوِيّة ابنة عَفْزَر إحدى ملكات الحيرة وهى التى زوجت نفسها فيما بعد من حاتم الطائى . وكانت على سمو مكانها فتتلقى فتيان العرب فيفضون اليها باشعارهم فتوَقِّعه وتلقيه اليهم بصوت يميد بأجسامهم ويهزما ضُمِّنَت عليه صدورهم

ومما ذكروا أن الحارث بن ظالم أساء اليه خالد بن جعفر بين يدى النعمان فخرج يهدُر غضباً حتى انتهى الى ماوية فاقترح عليها أن تغنى هذه الأبيات[3] :

تعلَّم أَبَيْتَ اللَّعْنَ انى فاتك ... من اليوم أومِنْ بعدِهِ يا ابن جعفر

أَخَالِدُ قد نبهتنى غـــير نائم ... فلا تأْمَنَنْ فتكى يَدَ الدهر واحذرا

---

(١) المعازف جمع معزف ومعزفة — بكسر الميم فيهما — أدوات اللهو أخذت من العزف وهو اختلاط الصوت . والدفوف جمع دف قال ابن منظور . والدف الذى يضرب به النساء . والصنوج جمع صنج — بفتح الصاد — وهو على نوعين نوع لا وتر له وهو شبيه بالدف وآخر ذو أوتار وذلك مما نقله العرب عن الفرس قال ابن منظور ويقال امرأة صناجة ذات صنج . والمزاهر جمع مزهر — بكسر الميم — وهو العود والطنابير جمع طنبور وطنبار وهو من المعازف ذات الاوتار (٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٠ — ٧٨

(٣) الأغانى ج ١٠ ص ١٨

أَعَيَّرْتَنِي أَنْ نِلْتَ منا فوارساً غداة حُرَاضٍ مثلَ جنات عَبْقَرِ (١)
أَصابهُمُ الدهر الخَتُورُ بخَتْرِهِ ومن لا يقِ الله الحوادثَ يَعْثُرِ

فخرج من عندها ينتفض كالمحموم لفعل الصوت به ، ونفاذ الإيقاع فى نفسه ، حتى عثر بخالد فقتله .

على أن الغناء من حيث هو فَنٌّ ومرتزق لم يكن فى شىء من نساء العرب ، بل كان صناعة موقوفة على القِيَان ، وهن اللواتى يُجْتَلَبْنَ من أطراف بلاد الفرس والروم

وأول من شدا بالغناء فى زعم العرب قَيْنتان لمعاوية بن بكر أحد العماليق الأُوَل تدعيان بالجرادتين (٢) ثم ذاع الغناء على أثرهما بين القِيَان لأنهن كن يغنين الشعر العربى بالألحان الفارسية واليونانية فيكون له فى أسماع العرب تأثير لا يناله الوصف

وفى أولئك القِيَان ومجالس غِنائهن يقول عمرو بن الإطْنَابة ملك الحجاز :

عَلِّلانى وعللا صاحبيًّا واسقيانى من المُرَوَّق رَيَّا (٣)
ان فينا القيان يعزفن بالدَّ ف لفتياننـــا وعيشا رخيًّا
يتبارين فى النعيم ويصبُبـــن خِلالَ القرون مسكاً ذكيا
إنما هَمُّهُنَّ أن يتحليـــن سُموطا وَسُنْبُلاً فارسيا
من سُمُوطِ المَرْجَانِ فُصِّلَ بالدُّ ر فَأَحْسِنْ بِحَلْيِهِنَّ حُليًّا

٤ — إلى كل ذلك تقوم المرأة بأمر البيت ، وما اليه من إعداد المطاعم ، ورعاية الخيل ، وهنء الأبل (٤) .

---

(١) حراض واد قرب مكة أغار فيه خالد على عشيرة الحارث فقتل رجالهم واستبق نساءهم وأطفالهم وعبقر موطن يزعمه العرب من مواطن الجن فينسبون اليه كل غريب عندهم (٢) الميدانى ج ١ ص ٨٧
(٣) يريد بالمروق الشراب المصفى (٤) هنأت الجارية البعير طلته بالهناء — بكسر الهاء — وهو القطران ليبرأ من الجرب

ولا يفوتنا وقد ذكرنا حاجة المنزل أن نلمَّ بشيء من مطاعم العرب لأنها أمسُّ الأعمال بالمرأة ، وألزم لها ، فنقول :

قِوَام هـذه المطاعم اللبن والتمر والبر والشعير والعسل والسكر والأرُز والزُّبد واللحم والزيت والشحم والسَّمن .

وأشمل مطاعمهم الثريد والحَيْس وهو التمر يغلى مع اللبن والسمن ثم يدهك بعضه ببعض . وقد يضاف اليه بعد ذلك السَّويق .

ولهم فيما عدا هذين مطاعم مألوفة .

منها الفالوذج وكان عبد الله بن جَدعان القُرَشِيّ قد أكله على مائدة كسرى فلما بلغ من نفسه سأل عنه فقيل له هو لُبَاب البُرِّ يُلْبَكُ مع العسل فابتاع غلاماً فارسيًّا وقدم به مكة فصنع بهـا الفالوذج ومن هناك ذاع بين العرب .

والسَّخِينة وهى متخذة من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحَسَاء . وأكثر ما عرفت عند قريش . وأشد ما يألفونها عند جَهد الدهر وشدة الأزمات . وكانوا يعيَّرون بها حتى سميت قريش فى موطن التعريض والتنابز بالألقاب « بالسخينة » .

قال حسان بن ثابت يهجو قريشاً :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ولَيَغلبَنَّ مُغَالب الغُلاّب

والبَرِيك وهو الرطب يؤكل بالزبد أو السَّمن .

والحزيرة وهى أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فاذا نضج ذر عليه الدقيق فان لم يكن لحم فهو عصيدة .

والرَّبِيكة وهى التمر يعجن بالسمن والأَقِط فيؤكل وربما صب عليه الماء فشرب . وفى المثل : غَرْثَانُ فارْبُكوا له . وذلك أن رجلاً قدم على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بغلام وأتوه به فقال : والله ما أدرى أآكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته : غرثان فاربُكوا له . فلما طعم وشرب قال : كيف الطَّلا[1] وأمُّه ؟

والبسيسة وهى الدقيق أو السويق يُلَتُّ بالسمن أو الزُّبد

والفَريقة وهى شىء يعمل من البُرِّ ويخلط فيه أشياء للنُّفَسَاء

ومما يصنع للنفَسَاء أيضاً :

الفُوَارَه وهى الحُلْبَة تطبخ بالتمر .

والحَرِيرة الحَسَاء من الدَّسَم والدقيق .

والبَهَطّ وهو الأُرْز يطبخ باللبن والسَّمن .

والمتتبع لمعاجم اللغة يستوقفه كثير من هذه المطاعم . وهى على امتزاج موادها بسيطة هينة لا تُعْنِتُ صانعتها ولا تُثْقِلُ طاعمها .

وأما أعمال الارتزاق فالمرأة فيها قسيمة الرجل وشهرتها فيها تكاد تتمشى مع شهرته .

فهم يقولون عن رُدَيْنَة أنها صانعة رماح بالبحرين . واليها تنسب الرماح الرُّدَيْنِية[2] وهى أكرم الرماح جوهراً وأسرعها نفاذاً وأمنعها على اغتماز

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها على نُبْلها وسناء شرفها ذات متاجر واسعة يتنقل بها أتباعها بين الحجاز والشام . ومثلها فى معاناة التجارة هند بنت عُتْبَة زوج أبى سفيان بن حرب سَرِىُّ قريش وثريُّها

(١) الطلا ولد الغزال (٢) لسان العرب ج ١٧ ص ٣٧

وهنالك أعمال يتناولها ذوات الخَصاصة من النساء دفعاً للحاجة واستدفاعاً لذل السؤال .

ومن ذلك جمع الكَمْأَة[1] من الأدوية وبيعها ، ودبغ الجلود ، وتنميق الحصير وانتجاع الأسواق ، وارتياد مختلف الأحياء ، لابتياع التمر والعسل والسَّمن ، أو بيعها ، أو استبدالها بأمثالها ، واعتراض الركبان فى مغداهم ورواحهم بالقُدُور والأدَم يبِعْنها عليهم ، والطواف على الفتيان والفتيات بالعطر يُطَيِّبْنَهم به ، والنداء فى الأحياء بين النساء بالخرز لتحلية الثياب وبالعقود والدمالج والقِرَطَةِ وودعات الأطفال وهى عقودهم من الودع .

ومن النساء من اتخذن النياحة على الموتى عملاً ومهنة . ومن أمثال العرب فى ذلك : ليست النائحة الثَّكْلَى كالمستأجَرة .

ومنهن من هَمُّهن تَعَرُّفُ الغيب وكشف حجب المستقبل . ولهن فى ذلك وسائل منها زجر الطير . وذلك أن تضرب الطير بحصاة أو تصيح به فيطير فإن كان ما تراه منه مَيَامِنَه فهو سانح وإن أرَاها مياسره فهو بارح . وأكثر العرب يتفاءلون بالسانح ويتشاءمون بالبارح . قال ذو الرُّمَّة :

خَلِيلَيَّ لا لا قيتُمَا ما حييتما من الطير إلا السانحاتِ وأسعدا

ومنهم من يتفاءلون بالبارح ويتشاءمون بالسانح . قال الأعشى :

أجارَهما بِشْرٌ من الموت بعد ما جرى لهما طير السنيح بأَشأَم

وشبيه بالطير عند العرب الظباء فهى تزجر كما تزجر . غير أن لهذه قوماً ، ولتلك آخرين .

ومنها الطرق بالحصى . وذلك أن تضرب المرأة على الرمال بالحصى وتخط

(١) الكمأة — جمع كمء — نبت أبيض حلو

عليها خطوطاً متعارضة ، ثم تلقى على من بين يديها ما يَنِمُّ عنه ذلك النظام من كوامن السر وخفيات الأمور . وهاتان الصناعتان وإن آمن بهما دَهماءُ[1] العرب وعامّتهم فقد سخر بهما عقلاؤهم وذوو آرائهم . وفى ذلك يقول لَبيد بن ربيعة :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويقول ضابئ بن الحارث :

وما عاجلات الطَّير تدنى من الفتى نجاحًا ولا عن رَيْثِهِنَّ يَخِيبُ
ورب أمور لا تَضِيرُكَ ضَيرة وللقلب من مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ
ولا خَيْرَ فِيمَنْ لا يُوطِّنُ نفسه على نائبات الدهر حين تنوب

ويقول المرقِّش :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتِم
فإذا الأشائمُ كالايَا مِن والايامِنُ كالأَشَائِم
وكذاك لا خَيْرٌ ولا شَرٌّ على أحد بدائم

ويقول النابغة :

تَعَلَّمْ أَنَّه لا طَيْرَ إلا عَلَى مُتَطَيِّرٍ وَهُوَ الثُّبُورُ
بَلَى شىءٌ يوافق بعض شىء أَحَايِينًا وباطلُه كثيرُ

ويقول جَهم الهُذَلى :

يَظُنَّانِ ظنا مَرَّة يُخْطِئانِهِ وَأُخْرَى عَلَى بَعْضِ الَّذِى يَصِفَانِ
قَضَى اللهُ أن لا يَعْلَمَ الْغَيْبَ غيره فنى أى أمر الله يمْتَرِيَانِ

ومنها الكهانة والعرافة . وهما آثر علوم القوم ، وأنفذها فى نفوسهم ، وأجلبُها لتصديقهم واقرارهم ، ولهما القول الفصل فى حكومتهم وخصوماتهم . وهم يقولون

(١) دهماء القوم جماعتهم

أن مرجع هذين العلمين الى الملائكة لأن رفاق الكهان والعرافين من الجن يعلو بعضهم بعضاً حتى يقاربوا السماء فيسترقوا السمع مما يتحدث به سكانها . والكهانة والعرافة كلمتان تكادان تترادفان . إلا أن من اللغويين من فرّق بينهما بأن الكهانة علم إدراك الماضى ، والعرافة علم إدراك المستقبل .

وهذان العلمان وان ادعاهما الرجال والنساء على سواء فان جمهور العرب يرى أن النساء فيهما أعمق ، وأن أخبارهن أصدق ، ورفاقهن من الجن أدق وأوثق .

وفى الحديث الذى أورده عليك يتبين لك رأى العرب فى الكواهن ومبلغهن من علمهن :

حدث محمد بن ظفر فى كتابه خير البُشرَ بخير البَشَر فقال : رُوِى أن مَرْثَدَ بن عبد كُلاَل قفل[1] من غَزَاة غزاها بغنائم عظيمة . فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم . فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرته وأهالته وهو نائم ، فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتياعه فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساء به الوفود الظن . ثم انه حشر الكهان فجعل يخلو بكل كاهن كاهن ، ثم يقول له أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندى ، حتى لم يدع كاهناً عَلِمَهُ إلا كان اليه منه ذلك . فتضاعف قلقه ، وطال أرقه . وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له أبيت اللعْنَ أيها الملك ! أن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن اتباع الكواهن من الجان ألطف وأظرف من اتباع الكهان . فأمر بحشر الكواهن اليه وسألهن كما سأل الكهان . فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه . ولما يئس من طَلِبَتِهِ سلا عنها . ثم

(١) القفول العودة

إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفِعت له أبيات فى ذرى جبل ، وكان قد لفحه الهجير ، فعدل إلى الأبيات وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت اليه عجوز فقالت له : انزل بالرَّحْب والسَّعة ، والأَمن والدَّعة ، والجُفْنة المُدَعْدَعة[١] ، والعُلْبة المتْرَعة[٢] . فنزل عن جواده ودخل البيت . فلما احتجب عن الشمس ، وخفقت عليه الأرواح ، نام . فلم يستيقظ حتى تَصَرَّم الهَجير . فجلس يمسح عينيه ، فاذا بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاماً ، ولا جمالاً . فقالت : أبيتَ اللعْنَ أيها الملك الهمام ، هل لك فى الطعام ؟ فاشتد اشفاقه ، وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفته ، وتصامم عن كلمتها فقالت له : لا حذَرَ ، فَدَاكَ البَشَر ، فجَدُّك الأكبر ، وحظُّنا بك الأوفر . ثم قربت اليه ثَريداً وقَديداً[٣] وحَيْسًا . وقامت تَذُبُّ عنه ، حتى انتهى أكله . ثم سقته لبناً صَريفاً وضَريباً[٤] . فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلة مدبرة ، فملأت عينيه حسناً ، وقلبه هوى . فقال لها : ما اسمك ياجارية ؟ قالت : اسمى عُفَيْرَاء . فقال لها : يا عفيراء ، مَن الذى دعوته بالملك الهمام ؟ قالت مَرْثَدٌ عظيم الشان ، حاشرُ الكواهن والكهان لِمُعْضِلة بَعُدَ عنها الجان . فقال : يا عفيراء ، أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجَلْ أيها الملك ، أنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام . قال الملك : أصبت يا عفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصيرَ زَوَابع[٥] ، بعضها لبعض تابع ، فيها لَهَبٌ لامع ، ولها دخان ساطع ، يَقْفُوها نَهرٌ مُتَدَافع[٦] ، وسمعتَ فيما أنت سامع ، دعاءَ ذى جَرْسٍ صادع[٧] ،

(١) الجفنة أكبر القصاع والمدعدعة الملأى من الثريد واللحم (٢) العلبة قدح ضخم من الخشب أو من جلود الابل يحلب فيه اللبن ويستقى فيه الماء . والمترعة الملاى (٣) القديد اللحم المملوح المجفف فى الشمس (٤) الصريف اللبن الذى ينصرف من الضرع حاراً اذا حلب فاذا زالت رغوته فهو الصريح . والضريب اللبن يحلب من عدة نياق فيخلط بعضه ببعض

(٥) الاعاصير — جمع اعصار بكسر الهمزة — وهى الرياح التى تهب من الأرض فتثير الغبار فترتفع كالعمود الى نحو السماء ومثلها الزوابع (٦) يقفوها يتبعها والنهر المتدافع الفياض يدفع فيه الماء بعضه بعضا

(٧) الجرس الصوت خفياً كان أو شديداً والصادع الواضح المبين منه

هَلُمُّوا الى المَشَارع[١]، فرَوِىَ جارع[٢]، وغَرِق كارع[٣]. فقال الملك: أجَل، هذه رؤياى، فما تأويلها يا عفيراء؟ قالت: الأعاصيرُ الزوابع، ملوك تبابع[٤]، والنهر عِلْمٌ واسع، والداعى نبى شافع، والجارع وَلِىٌّ تابع، والكارع عدوٌّ مُنازع. فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبىُّ أم حرب؟ فقالت: أُقسم برافع السماء، ومنْزل الماء من العمَّاء[٥]، إنه لمُطِلّ الدِّماء[٦]، ومُنْطِق العقائل نطق الإماء[٧]. فقال الملك: الا مَ يدعو يا عفيراء؟ قالت: الى صلاة وصيام، وصِلَة أرحام، وكَسر أصنام، وتَعْطيل أَزْلام[٨]، واجتناب آثام. فقال الملك: يا عفيراء، اذا ذَبَحَ قومَهُ فمن أعضاده؟ قالت: أعضاده غَطاريفُ يَمانون[٩]، طائرُهم به ميمون، يُعْزِيهم فيَعْزُون، ويُدَمِّثُ[١٠] بهم الحُزُون[١١]، والى نصره يعنزون. فأطرق الملك يؤامر نفسه فى خِطْبَتها. فقالت: أبيتَ اللعنَ أيها الملك، أن تابعى غَيُور، ولأمرى صَبُور، وناكحى مَثْبور[١٢]، والكَلِفُ بى ثَبُور. فنهض الملك وجال فى صهوة جواده وانطلق. فبعث اليها بمائة ناقة كوماء[١٣].

ومن النساء من يَنْفُثُ العُقَد، وتلك احدى قواعد السحر. وذلك أن تأتى المرأة بخيط أو وتر وتقرأ عليه شيئاً من مبهم القول ومعجمه، وبينا هى تقرأ تنفث فى الخيط وتعقد عقدة منه ثم تدفنه فى مَعْطن من الأرض فلا تزال الجن موكلة بأذى المسحور به ما دام الخيط فى موطنه. وأولئك هن اللواتى أمر الله نبيه

---

(١) المشارع — جمع مشرعة — المواضع التى ينحدر الى الماء منها (٢) الجارع الشارب شيئاً فشيئاً (٣) الكارع الذى يخوض الماء (٤) التبابع والتبابعة ملوك اليمن سموا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعا له (٥) العماء السحاب (٦) مطل الدماء مهدرها (٧) عقائل النساء الحسيبات المخدرات منهن والأماء تريد أنه يسوى بين الناس جميعا (٨) الازلام جمع زلم — بضم الزاى وفتحها — السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها (٩) الغطاريف — جمع غطريف — سادة القوم وأشرافهم وتريد بهم الأنصار فهم الى اليمن ينسبون (١٠) دمث مهد (١١) الحزون — جمع حزن بفتح الحاء — ما صلب من الأرض (١٢) المثبور من الثبور وهو الهلاك
(١٣) للناقة الكوماء العظيمة السنام الطويلته

صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ منهن فقال : « وَمِنْ شَرِ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِى ٱلْعُقَدِ »

وهنالك المراضع . وكان نساء من البادية يأتين المدائن والقرى مِلاَء الأثداء فيؤْبْن بولدان الحَضَر يُرْضِعنهم ، ويتعهدن منابتهم ، بين ملاعب البدو ، ومضارب الخيام .

وكانوا يختارون المُرْضِع فى نفسها وعشيرتها فأيهن كانت أسمح خُلُقاً ، وأقوم خَلْقاً ، وأبْيَنَ بيانا ، وأعزَّ نفراً ، فهى الظافرة السابقة .

وكان من شيم العرب وأخلاقهم اذا ولد لهم ولد أن يلتمسوا له مرضعة فى غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له[١] . ومن أجل ذلك دفع النعمان بن المنذر بابنه الى بنى مرة ليُسْترضَع فيهم فأرضعته سلمى بنت الحارث بن ظالم[٢]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرْجِع فصاحته المُعْجِزَة الى منبَته فى قريش واسترضاعه فى بنى سعد وهو الذى يقول : « أنا أعْرَبُكُم[٣] وُلدت فى قريش واستُرْضِعت فى بنى سعد » . وقال له أبو بكر : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله . فقال له : ما يمنعنى ! وُلدت فى قريش وأُرضِعت فى بنى سعد[٤].

وفى حديث حليمة بنت أبى ذؤيب مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد خبر المراضع وخروجهن الى قرى العرب يبتغين المآب بأطفالهم .

قالت : خرجت فى نسوة من بنى سعد عشرة يطلُبْنَ الرُّضَعاء ، فى سنة شَهْباء[٥] ، على أتَان قمراء[٦] ، ومعنا شارِف ما تَبِضُّ[٧] ، وما كنا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا[٨] ، ما فى ثدىِ ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، حتى قدمنا مكة . فما منا امرأة إلاّ وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه

(١) انسان العيون ج ١ ص ٩٦ (٢) الأغانى ج ١٠ ص ٢١ (٣) افصحكم عربية
(٤) انسان العيون ج ١ ص ٩٦ (٥) شهباء جدباء (٦) قمراء شديدة البياض
(٧) الشارف الناقة المسنة وتبض ترشح بقطرة من اللبن (٨) تريد بالصبي ابنها

إذا قيل لها يتيم . وذلك أنّا إنما نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجدة ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة معى إلاّ أخذت رضيعاً غيرى . فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبي : ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن الى ذلك الرضيع فلآخذنه . قال : لا عليك ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت اليه فأخذته

وفى حديث آخر أن حليمة قالت : استقبلنى عبد المطلب فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا امرأة من بنى سعد ، قال : ما اسمك ؟ قلت : حليمة ، فتبسم عبد المطلب وقال : بَخٍ بَخٍ سعد وحلم ، خصلتان فيهما خير الدهر ، وعز الأبد ، يا حليمة أن عندى غلاماً يتيماً ، وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلنه ، وقلن ما عند اليتيم من الخير ؟ إنما نلتمس الكرامة من الآباء ، فهل لك أن ترضعيه ، فعسى أن تسعدى به؟ فقلت : ألا نذرنى حتى أشاور صاحبي ؟ فانصرفت الى صاحبي فأخبرته ، فكأن الله قذف فى قلبه فرحاً وسروراً . فقال لى : يا حليمة خذيه . فرجعت الى عبد المطلب فوجدته قاعداً ينتظرنى فقلت : هلم الصبيَّ . فاستهلَّ وجهه فرحاً . فأخذنى وأدخلنى الى بيت آمنة فقالت لى : أهلاً وسهلاً ، وأدخلتنى فى البيت الذى فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو مُدْرَج فى صوف أبيضَ من اللبن ، وتحته حريرة خضراء ، راقد على قفاه يغط ، تفوح منه رائحة المسك ، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله ، فوضعت يدى على صدره فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه إلىَّ ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر ، فقبّلته بين عينيه وأخذته[1] .

والعرب يأبون أن تؤجر الحسيبات منهن على الرضاع ، ويقولون فى ذلك : « تجوعُ الحُرَّة ولا تأكل بثَدْيَيْها »

(١) انسان العيون ج ١ ص ٩٦ — ٩٧

على أن هذه الصناعات وان آذن بعضها باتضاع فى منزلته، وهبوط فى مادته فليس منها ما يؤذن بضعَة فى الخُلق، ولا ثَلْمة فى العقل، ولا ذلة فى الحياة. وان كان شريفاتُ العرب وربات الحسب منهم يتعالين عن الارتزاق بالصناعة فلم يتجاوزن بذلك حد الإدلال بالعز، والمباهاة بالغنى. فأما شرف النفس ونقاء العرض وصدق القول، وفرط الإباء، فهن فيها على سواء. وبين يدينا حديث عن امرأة تبيع الخرز بالبادية. وتلك المرأة وان تأخر بها الزمن الى أول العهد الاسلامى فان فى عراقة بداوتها ما يلحقها بالجاهليات. وقَلَّ من نساء الاعراب من غيَّرَها الاسلام فى طبع أو عادة أو خُلق.

أما الحديث فقد رواه رُسْتَم العَبْدِىّ قال:

خرجت من مكة زائراً لقبر النبى صلى الله عليه وسلم اذا جُوَيرية تسوق بعيراً وتترنم بصوت حلو بهذا الشعر:

فيا أيها البيت الذى حِيلَ دونه ... بنا أنت مِن بيت وأهلُك من أهل

بنا أنت من بيت دخولك لذة ... وظلك لو يُسْطاع بالبارد السهل

ثلاثة أبيات فبيت أُحِبُّه ... وبيتان ليسا مِنْ هواى ولا شكلى

فقلت: لمن هذا الشعر يا جُوَيرية؟ قالت: أما ترى تلك الكَوَّة[1] التى عليها الحمراء؟ قلت: أراها. قالت: من هناك نَجم[2] الشعر. فقلت: أَحَىٌّ قائله؟ قالت: هيهات! لو أن لميت أن يرجع لطول غيبة كان ذلك!. فأعجبنى فصاحة لسانها، ورقة ألفاظها. فقلت: ألك أبوان؟ فقالت: فقدت أكبرهما وأكثرهما وأجلَّهما، ولى أم. قلت: فأين أمك؟ قالت: منك بمرأى ومسمع. واذا امرأة تبيع الخرز على ظهر الريق بالجُحْفَة. ثم قالت: يا أم، شأنك، فاستمعى من عمى

(١) الكوة — بفتح الكاف وقد تضم — النافذة فى الحائط (٢) نجم ظهر

ما يلقى اليك . فقالت : حيّاك الله هِيهِ ، هل من جائية بخير ؟ قلت : هذه بُنَيَّتك ؟ قالت : كذا كان أبوها يقول ! قلت : أتزوجينها ؟ قالت : لعلةٍ ما رغبتَ فيها ! فوالله ما لها جمال ، ولا لها مال . قلت : لحلاوة لسانها ، وحسن عقلها . قالت : أيُّنا أَمْلَك ، هى . أم أنا ؟ قلت : هى . قالت : إياها نخاطب ! قلت : تستحى أن تجيب إلى مثل هذا . قالت : ما هذا عندها ، أنا أخبرُ بها . فقلت : يا جارية ، أما تسمعين ما تقول أُمك . قالت أَسمع . قلت : ما عندك ؟ قالت : بحَسْبك أن قلتَ تستحى فى مثل هذا ! فاذا كنتُ أستحى من شىء فلِمَ أفعله ؟ ! . . . قالت ذلك ثم اعتزمت فى ابائها وانصرفت .

وشبيهٌ هذا الحديث وما ضمّ من صراحة فى الرأى ، ومجانبة للكُلفة ، وحسن نَسَق فى الكلام ، بما أسلفنا من أحاديث ذوات الشرف والسناء من النساء . وفى ذلك وأمثاله ما يدلك على أن الدم العربى يتدفق إلى تلك القلوب من مَعين واحد ، ويجرى إلى غاية واحدة .

﴿ وبعد ﴾ فان لأولئك النساء على ما بينهنّ من تباين فى العمل ، وتناءٍ فى الحالات ، عملاً عامًّا ، يجتمعن اليه ، ويشتركن فيه . ذلك هو اقتياد مشاعر الرجال وتصريف أزمّتها ، بما أوتين من نفاذ فى الرأى ، وسعة فى الحيلة . وقوة فى الأسلوب لا لرجالهن وأبنائهن فحَسْب . بل للقوم جميعاً : ان عصفت برؤوسهم عاصفة الشر واحتكمت بنفوسهم الحمية : حمية الجاهلية ، سكّنّ الثائرة وأطفأن النائرة . وان بردت دماؤهم ، وخمَدت عزائمهم ، وقرّوا على الذل ، وأغضَوْا على القذى ، هِجْن أشجانهم ، وابتعثن أضغانهم ، ورمينهم بكلمات دونها حَرّ الطعان ، ووخز السنان . فهن ركن الأمة ، وعماد البلاد ، ان رجفت بها الأرض ومادت بأطرافها الحادثات

ولقد أخذ الربيع بن زياد العامرى درع قيس بن زهير العبسى وغصبه اياها وأبى

أن يعيدها وكلاهما سيد قومه . وبرغم ما بينهما من المصاهرة استحكمت حلقات الخلاف بينهما ، وقام كل يستصرخ قومه . وكاد السيف يكون حكماً بين الحيَّين ، لولا كلمات من امرأتين حسمت الجرح ، ورأبت الصدع ، وردت إلى ذى الحق حقه

فأما أولاهما ففاطمة أم الربيع . عرض لها قيس فى طريقها وهى على راحلتها فى مسير لها . فأراد أن يتخذها رهينة بدرعه . فقالت له : أين عزب عنك عقلك يا قيس ؟ أترى بنى زياد مصالحيك وقد ذهبت بأُمهم يميناً وشمالاً وقال الناس ما قالوا وشاؤا ؟ وانَّ حَسْبك من شرٍّ سماعُه . فأخجل ذلك القول قيساً وتركها وهو يفكر فى أمره .

وأما الثانية فالجُمَانة بنت قيس ، قالت لأبيها لما شَرِق ما بينه وبين الربيع : دعنى أناظر جدى ، فان صلح الأمر بينكما والا كنت من وراء رأيك . فأذن لها فأتت الربيع فقالت[1]: اذا كان قيس أبى فانك يا ربيع جدى ، وما يجب له من حق الأبوة علىَّ الا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصريح تبعثه العناية ، وتجلى عن محضه النصيحة ، انك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجدُّ مكافأته اياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادى أظلم ، وليس قيس ممن يخوَّف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد . فلا تركنن إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ، والحرب مَتلفة للعباد ، ذهّابة بالطارف والتلاد ، والسِّلم أرخى للبال ، وأبقى لأنفس الرجال وبحقّ أقول لقد صدعت بحكم ، وما يدفع قولى الا غير ذى فهم . ثم أنشأت تقول:

أبى لا يرى أن يترك الدهرَ درعَه ... وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى
فرأى أبى رأى البخيـــل بماله ... وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

ولعمرى لقد صدع الرجل بقول ابنة ابنته ، وكان ذلك فصل الخطاب .

(١) الميدانى ج ١ ص ١٣١ (٢) بلاغات النساء ص ١٢٥ — ١٢٦

أما صيحتها بالقول ان طالت رقدتهم ، وهانت شوكتهم واطمأنت نخوتهم فأهون منها الوثوب على أنياب الأفاعى ، وركوب أطراف الأسنة

وأى جبان أمة يسمع قول عفيرة بنت عفان :

وان أنتمو لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكمو طيب العروس فانما ... خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعداً وسُحقاً للذى ليس دافعاً ... ويختال يمشى بيننا مِشْية الفحل

أو يسمع قولها بين مشتجر القنا وتحت ظلال السيوف : ألا أن خضاب النساء الحِنَّاء وخضاب الرجال الدماء .

ويسمع قول بنت حُكَيم بن عمرو العبدى العبدى :

فان لم تنالو نيلكم بسيوفكم ... فكونوا نساء فى المُلاء المُخَلَّق[1]

أى جبان أمة يستمع هذا القول وأشباهه من بين شفاه النساء فلا يترشف الدماء ، كما يترشف الظماء برد الماء .

ولما خرجت قريش الى أُحد لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معهم نساؤهم يحملن الدفوف ويبكين على أصواتها المشجيات قتلى بدر فيوقدن بذلك نار الثأر فى قلوب الرجال[2].

ثم لما التقى الجيشان خاض المسلمون فى أحشاء قريش ، فانخلعت شُعَب قلوبهم وانحلت عُقَد صفوفهم ، وطرح لواؤهم تحت أقدامهم ، فلم يقدم رجل على حمله ، حتى كانت عَمْرَة بنت علقمة هى التى أخذته فرفعته . فاجتمعت قريش حولها[3] وهنالك أخذت هند بنت عتبة ومن حولها من نساء قومها يتغنين بالمُقيم المُقْعِد من الشعر . وكان من غنائهن :

---

(١) المخلق المطيب بالطيب والزعفران (٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٦١
(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ٦٣

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

الى آخر الأبيات التى أسلفناها فى يوم تحلاق اللمم . ويقلن أيضاً :

وَيْهاً بنى عبد الدار وَيْهاً حُمَاة الديار

ضرباً بكل بَتَّار[1]

فكان ذلك أشد عليهم من فتكات السيوف . فانقلبوا يقاتلون المسلمين حتى ظفروا بهم .

لم يكن ذلك كله جهد ما بلغته المرأة فى مواطن القتال ، ومجالات النزال ، بل لقد اقتحمت الطريق الى أقصى مداه ، فقادت الجحافل ، وهتكت المعاقل ، ونالت من مهج الأبطال كل منال .

فقد عَبَرَت « طَيِّىء » دهراً طويلاً تنوء فى غزواتها الى امرأة منهم يقال لها « رَقَاش » يعتزون بقوتها ، ويستضيئون برأيها ، ويطالعون النجح من خفقة سيفها ، ووميض عزيمتها[2] .

تلك طيىء بيضة اليمن ، وعرين البواسل ، ومربض القادة الكماة ، والذادة الحماة ، ومثار الكرم والبيان ، والحرب العَوَان ، عقدت ألويتها على امرأة منهم فملكت بها رقاب أياد[3] ، وخعلت قلوب من سواهم .

﴿ أما بعد ﴾ فذلك عمل المرأة فى بيتها ، وبين عشيرتها ، وفى مادة الحياة ومعناها . أفلا تراها فى عامة ما تقصده وتعمد اليه مَفِيض الخير ، ومعين الأمل ، وعَتَاد البيت ، وَعِمَاد البلاد ؟ .

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٦٣ (٢) جمهرة أبى هلال ص ٢١٤

(٣) مجمع الأمثال ج ١ ص ١٩٤

٢ — محجبها وسفورها

إن المرأة التى تضرم جمرة الحرب ، وتخوض غمرتها ، وترسل الكلمة فتعنو لها الوجوه ، وتخلع من هولها القلوب ، لا يَضِيرها أن تخرج — سافرة — الى الرجال ، تحت ظلال السلم ، أو بين لوافح الحرب ، وليس بنافعها أن تتوارى عن العيون ، وتُسْدل من دونها الحجب ،

تلك كلمة نقدمها بين يدى موضوعنا لتعلم أن المرأة العربية إذا أرخت قناعها أو حسرته عن وجهها فليس ذلك فى شىء من حياطة الشرف أو ابتذاله .

ونحن إذا تكلمنا عن حجاب المرأة العربية فان حقاً علينا قبل ذلك أن نكشف عن معنى ذلك الحجاب حتى يكون حكم التاريخ فيه واضحاً لا عِوَج فيه .

يطلق الحجاب على واحد من اثنين :—

أولهما : قرار المرأة فى دارها والاحتجاب دون الرجال فلا تكون بمرأى ولا مسمع منهم .

الثانى : ارخاء القناع على وجهها إذا غادرت دارها لبعض شأنها .

أما الأول فما كان بالمرأة من حَرَج أن تغشى مجالس الرجال ، وتطرُق أنديتهم ، وتخطب فى محافلهم ومشاهدهم ، لا فى الخطب الملم ، والأمر المهم ، وكفى . بل فى القليل التافه من الشئون أيضاً . فقد فصلنا فيما أسلفنا حديث امرأتين قامت كل واحدة تثنى على زوجها فى نادى قومه بعد طلاقها منه من غير تحرُّج ولا استحياء .

وهنالك فى سوق عكاظ وهو أحفل مجامع العرب ، وأجمع مواسمهم ، كان النساء يأتين من كل صوب وحَدَب على اختلاف مقاماتهن ، وانشعاب ديارهن ، فيزاحمن الرجال بالمناكب فى كل ما قصدوا له ، واحتفلوا به . فبينا كنت ترى امرأة تناضل الرجل فى حومة القول ، إذا بأخرى تخطب الناس . وإلى جانب من هؤلاء امرأتان تتناشدان الشعر وقد اجتمع عليهما خلق كثير .

فلقد حدثوا أن هنـد ابنة عتبة ، والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، تلاقتا هنالك ، فتذاكرتا مصيبتيهما ، وكانت الأولى قد قتل عنها أبوها وعمها وأخوها يوم بدر . ومات عن الثانية أبوها وأخوها . وادَّعت كل واحدة أنها أوجع مصاباً ، وأحرُّ كبداً من أختها . ولكى تفِىَ كل بدليلها جاءت بأبرع الشعر وأروعه فى وصف مصابها ، وجُهد ما فَعل بها وبقومها . ثم انصرفتا وقد جاش بالناس الحزن ، وتملكهم الإعجاب[1] .

وما كانت الخنساء ولا صاحبتها بالتى ينكرها أحد من العرب ، فهما جميعاً فى المكان الأرفع من زكاء الحسب ، وسناء المنزلة .

تقول العرب فى أمثالها : ما يوم حليمةَ بسِرّ . فَمَنْ حليمة وما يومها ؟

---

(١) وذلك تفصيل ما أجملناه من هـذا الموقف مما حدث أبو الفرج عن ابن أبى الزناد قال : لما كانت وقعة بدر قتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم وبلغها تسويم الخنساء هودجها فى الموسم — رفع العلم فوقه — ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية . وأنها جعلت تشهد الموسم وقد سومت هودجها براية . وأنها تقول أنا أعظم العرب مصيبة ، وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك فلما أصيبت هند بما أصيبت وبلغها ذلك قالت أنا أعظم من الخنساء مصيبة . وأمرت بهودجها فسوم براية . وشهدت الموسم بعكاظ — وكانت سوقاً يجتمع فيها العرب — فقالت اقرنوا جملى بجمل الخنساء . ففعلوا . فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء من أنت يا أخية ؟ قالت أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ! وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم ؟ فقالت الخنساء بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابنى عمرو ! وبم تعاظمينهم أنت ؟ قالت بأبى عتبة بن ربيعة . وعمى شيبة بن ربيعة . وأخى الوليد ! قالت الخنساء أو سواء هم عندك ؟ ثم أنشأت تقول

أبكى أبى عمرا بعين غزيرة ... قليل إذا نام الخلى هجودها
وصنوىّ لا أنسى معاوية الذى ... له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً ومن ذا مثل صخر إذا غدا ... بسلهبة الابطال قبـا يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلمى ... ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها

أبكى عميـد الأبطحين كليهما ... وحاميها من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى ... وشيبة والحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب ... وفى العز منها حين ينمى عديدها

وقالت لها أيضاً

من حسّ لى الأخوين كالغصنين ... أو من راهما

— وهن بضعة أبيات أوردناهن فى مختار شعر النساء — الأغانى ج ٤ ص ٣٤ — ٣٥

أما حليمة فهى ابنة الحارث بن أبى شمِر ملك الشام . وكانت كأجمل أهل دهرها وأكملهم .

وأما يومها فذلك الذى أقصه عليك : —

استحكمت الجفوة بين المنذر بن ماء السماء ملك الحِيرَة ، والحارث بن أبى شمِر الغسانى ملك الشام ، وطمع كل منهما فى صاحبه ، فخرج اليه بما ملك من قوة وبأس شديد . وبينا الحارث فى طريقه الى العراق قدم عليه قادم من الحيرة له نسب فى الغساسنة فأخبره أن جيش المنذر لا يناله العد وأن لا طاقة له بقتاله ! فلما تراأى الجيشان على « عين أُباغ » اختار الحارث مائة من فتيانه كلهم شديد البأس ، قوى الشكيمة ، وأمرهم أن يأتوا المنذر فيفُضوا اليه بطاعتهم وطاعة أهل الشام جميعاً ، حتى إذا أنسوا منه هدوءا وغِرَّة فتكوا به . ثم أمر ابنته حليمة فطافت بهم فضَمَّختهم بالمسك جميعاً — وكان ذلك مما أفاض عليهم حميَّة وعزماً واقداماً — فذهبوا إلى حيث أمروا ، وقتلوا المنذر وهو فى العدد العديد من قومه حتى إذا سمع الحارث وجنده صيحة الظفر من فتيانهم زحفوا فتلاقوا بأعدائهم وأوقعوا بهم .

فراحوا فريق فى الإسار ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ذلك يوم حليمة وهو من أروع أيام العرب وأهولها وحسبه على مانريد دليلاً[1] .

وأما حجاب الانتقاب فلم يكن له بينهن نظام شامل ولا هيئة واحدة ، ففى القبيلة الواحدة ترى « البَرْزة » وهى التى تجلس إلى الرجال وتجاذبهم الحديث سافرة غير محجوبة و « المحتشمة » وهى التى ترخى قناعها إذا خرجت عن بيتها فلا تطرحه حتى تعود . وهذا وذلك شأن ذوات السن منهن .

(١) الميدانى ج ٢ ص ١٥٠ وخزانة الأدب ج ٢ ص ١١

وشبيه بذلك شأن الفتيات . فمنهن « سَقوط القناع » وهى التى لا تكاد تنتقب ثقة بنفسها وإدلالاً بحسنها أو سيراً على سجيتها، وفى مثلها يقول المسيَّب ابن عَلَس :

إذ تستبيك باصلتَيِّ ناعم قامت لتفتنه بغير قناع[1]

ويقول المرقِّش الأصغر :

أرتْك بذاتِ الضال منها معاصما وخدًّا أسيلًا كالوذيلة ناعما[2]

وإلى هذه يشير عمر بن أبى ربيعة فى قوله :

فلما تواقفنا وسَلَّمت أقبلت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا[3]

ويقول أبو النجم فى احدى أراجيزه :

من كل غرَّاء سَقُوط البرقع بَلْهاء لم تَحْفَظْ ولم تُضَيِّع[4]

ويقول الأصمعى : وقد تُلْقى المرأة خِمارَها لحسنها وهى على عفة . وأنشد فى ذلك بيت أبى النجم[5] :

ومنهن التى لا تكاد تفارق قناعها اذا انحسرت عن دارها : اما لاحتشامها واستحيائها وفى مثلها يقول الشَّنْفَرَى

فوا كبدى على أُمَيمة بعد ما طمعت فهَبْهَا نعمةَ العيش زلت

لقد أعجبتنى لا سَقوطا قناعها اذا ما مشت ولا بذات تلفُّتِ

وإما لكَلَف أصاب وجهها فهى تجهد أن تستره . وفى نحو ذلك ما نقلَ أبو زيد فى نوادره عن اعرابىّ قيل له : ما تقول فى نساء بنى فلان ؟ فقال : بَرْقِعْ وانظرْ . يريد بذلك أن عيونهن خير ما فيهن .

---

(١) تستبيك تغلبك على نفسك حتى تكون سبياً لها والأصلتى الخد الناعم الحسن

(٢) ذات الضال موضع والوذيلة المرآة ومعنى ذلك أنها لم تتحرج بما يخفى معاصمها أو يحجب وجهها

(٣) زهاها الحسن استخفها ، يقول : أن هذه الوجوه استخفها الحسن عن أن تتقنع

(٤) الغراء من الغرة وهى بياض الوجه والبلهاء الغافلة عن الشر الحسنة الظن بالناس ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله »

(٥) شرح المفضليات لابن الانبارى ج ١ ص ١٣٠

وشبيه ذلك ما حدث الراغب أن أسديًا قبيح الوجه خطب امرأة قبيحة فقيل لها : أنه قبيح وقد تعمم لك . فقالت : ان كان قد تعمم لنا فانا قد تبرقعنا له[١]

وبين أيدينا أمثال سائرة مما أرسله العرب تنبئنا أن كشف القناع أغلب حالات فتيات العرب وأمثلها بهن .

فمن ذلك قولهم : تَرَكَ الخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ القِناعَ ، يريدون أن الفتاة لا تستر وجهها إلا لشر تُؤثر أن تستره .

وقولهم فيمن لا يستر عيبه : « كَذاتِ الشيْبِ ليس لها خِمَارُ » فهم لا يرون الخِمَارَ لزاما إلا لذات الشيب فان خليقاً بها أن تواريه .

وقولهم : ان العَوَانَ لا تعَلَّمُ الخُمْرَةَ . فأما العوان فالنَّصَفُ التى ناهزت الأربعين . وأما الخمرة فهيئة الالتفاع بالخمار . ومعنى ذلك أن العوان جاوزت السن التى كانت تعانى فيها التقنع فلا تحسنه .

ومما جرى مجرى الأمثال ما روى ابن منظور أن امرأة قالت لبعلها : مُرَّ بى على بنى نَظَرَى ولا تمرَّ بى على بنات نَقَرَى . أى مرَّ بى على الرجال الذين ينظرون إلىَّ ولا تمرَّ بى على النساء اللواتى يعبنى ويُنَقِّرْن فى عرضى .

وشبيه بذلك ما روى صاحب التهذيب من أمثال العرب ان اعرابية قالت لصاحبة لها : مُرّى بى على النَّظَرَى ولا تمرى بى على النَّقَرَى[٢] .

لكل ذلك لا نتحرج أن نقول أن طرح النقاب كان أغلب حالات نساء العرب . حتى لقد غلا الرازى والطبرى فأطلقا الأمر على سُنّة وجهه فقالا : أن نساء العرب كن يخرجن مكشوفات مُتَبَذِّلات سواء فى ذلك حرائرهن أو اماؤهن فأمرن — أى فى الإسلام — بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس[٣] .

---

(١) محاضرات الأدباء ج ٢ ص٤٩ (٢) لسان العرب ج ٧ ص ٨٧

(٣) الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٤٩ والطبرى ج ٢٢ ص ٣٢

ذلك قول الإمامين المفسرين أرسلاه على اجماله وطَوَياه على بِلاله[١] ليخبرا به عن حالة شائعة وهيئة غالبة . والقول ما فصلناه فيما أسلفناه .

تلك الحالة الشائعة هى التى عالجها القرآن الكريم فى قوله جلت آيته : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا » .

على أن هناك حالات شاملة لم تكن المرأة أيًّا كانت لِتُعْنَى فيها بأمر نقابها . وأشملها حالة الرَّوع[٢] اذا اشتملت عليها الوقائع ، أو دارت على فريقها الدوائر ، وارتقبت من وراء ذلك ذل السباء ، وعار الإسار . وذلك اما لشغلها بالجليل المهم من الأمر ، وأما لخشيتها السباء ، فهى تظهر سافرة حاسرة حتى تلتبس بالإماء . وفى هذا الموطن يقول مُهَلهِل بن ربيعة :

قَــرِّبا مَرْبَطَ المشهَّرِ مــنى ... سوف تبدو لنا ذوات الحجَال[٣]

ويقول عوف بن عطية بن الخَرِع التَّيْمِيّ[٤] .

ولَنِعم فتيانُ الصباح لقيتهم ... واذا النساءُ حواسِرٌ كالعُنقَرِ[٥]

من كل واضعة الخِمارِ وأخْتُها ... تَسْعَى ومِنْطَقُهَا مكان المِئْزَرِ[٦]

وتكر أولاهم على أخراهم ... كر المُحَلَّأِ عن خِلاط المَصْدَرِ[٧]

أما مناحاتهنَّ ومواقف أحزانهنَّ فهن فيها سوافر الوجوه ، حواسر الرؤوس ، وفى مثل ذلك يقول مُهَلهِل بن ربيعة :

---

(١) يقال طويت الثوب على بلاله إذا طويته وهو ندىّ يضرب للشىء مثلا تحتمله على ما فيه

(٢) الروع — بفتح الراء الحرب (٣) المشهر فرس مهلهل والحجال — جمع حجلة — ستور العروس (٤) هو من شعراء المفضليات ج ٢ ص ٥٩ (٥) العنقر أصول القصب الأبيض

(٦) واضعة الخمار ملفيته والمنطق شقة تلبسها المرأة تحت الازار — شبيهة بما يدعونه المكوف — يقول أنها لفزعها أو شغلها بالعظيم من أمرها سقط ازارها فظهر منطقها

(٧) المحلأ الممنوع عن الماء والخلاط اختلاط الناس والابل والماشية

حتى تبيد قبيـــلة فقبيلة ويَعَضَّ كل مثقفٍ بالهام[١]
وتقوم ربات الخدور حواسراً يمسحن عُرض ذوائب الأيتام

ويقول :

كنا نغار على العواتق أن تُرى بالأمس خارجة عن الأوطان[٢]
نخرجن حين ثوى كليب حُسَّراً مستيقنات بعده بهوان
وترى الكواعب كالظباء عواطلا يبكين مصرعه فقد أبكانى

ويقول الربيع بن زياد :

من كان محزوناً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه يلطمن أوجههن بالأسحار
قد كن يخبأن الوجوه تَسَتُّرًا فاليوم حين برزن للنُّظَّار
يضربن حُرَّ وجوههن على فتى عف الشمائل طيب الأخبار

وهنالك فى أعياد القوم وأعراسهم وبين مظاهر زهوهم وأفراحهم اذا نبغ شاعر حكيم أو قدم قائد عظيم يخرج فتيات الحى سوافر الوجوه يعزفن على المعازف ويرقصن على المزاهر ، ويتغنَّين بمآثر قومهن ومفاخرهم ويتمدحن بعظائمهم ومكارمهم ويرسلن القول عذباً نديا فى وصف من اجتمعن له واحتفلن به . ولقد راب عنْتَرَةَ الفوارسِ ما رآه من انتقاب خدينته عبلة دونه وسكوتها عما شغُل به الناس من الإشادة به والثناء عليه بعد مآبه من حرب داحس والغبراء فقال :

ان تُغْدِفى دونى القِنَاعَ فاننى طَبٌّ بأخذ الفارس المُسْتَلئم[٣]
أُثنى علىّ بما علمت فاننى سمح مخالقتى اذا لم أُظلم

(١) المثقف السيف المصقول والهام — جمع هامة — الرؤوس (٢) العواتق جمع عاتق وهى الفتاة التى لم تزوج (٣) اغداف القناع ارخاؤه على الوجه يقول أن نبت عينك عنى فأرخيت قناعك دونى فأنا بصير بقتل الفرسان وأسر الأقران . التبريزى ج ١ ص ٩٨

فاذا ظُلِمْتُ فان ظلمى باسل مُرٌّ مذاقتـه كطعم العلقم[١]

وما زال يتمدح بحسن ضريبته ، ويُمن نقيبته ، وجهد عزيمته ، حتى استوفاهن نيّفاً وأربعين بيتاً

أفلا تراه كيف عد انتقابها دونه انكاراً لعظيم شأنه ، وسمو مكانه ؟ ثم ألا تراه كيف ساق اليها من مأثور مكارمه ما كان خليقاً أن تصوغه له ، وتُفْرِغَهُ عليه ؟

ذلك وربما اختمرت المرأة حتى اذا التقت بالجبان فى طريقها كشفت عن وجهها ازراء به ، وايماء له بأنه ليس بالذى يحتشم منه . وقد حدثوا عن نساء بنى الحارث ابن كعب أنهن لم يكنَّ يُقَنَّعْنَ دون جبنائهن . وذلك الذى عناه الحارث بن حِلِّزَةَ ٱلْيَشْكُرِىُّ فى قوله :

عيشى بجَدٍّ لا يضِرْ كِ النُّوكُ ما أوتيت جَدَّا[٢]

وضَعى قناعك ان رأيـ ـتِ الدهر قد أفنى مَعَدَّا

يقول اذا ذهب الدهر بمعد فضعى قناعك فليس هناك عظيم يأخذك الحياء منه[٣]

كل ذلك شأن الحجاب فى أمم العرب الطارئة وهم بنو اسماعيل وحَفَدَةُ قحْطان الذين خلفوا على جزيرة العرب بعد أن عصف الدهر بأهلها الأولين .

أما الأمم البائدة — وهن عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس والعمالقة وأُخر غيرهن لا يعلمهن إلا الله — فلم يكن الحجاب معروفاً عندهن بل لقد تبرج النساء فى تلكم الأيام تبرجا أخذه الله عليهم فنهى المسلمين عن مثله فى قوله تبارك اسمه : « وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَى » وفى تفسير هـذه الآية الكريمة يقول النيسابورى : كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ فتمشى به وسط الطريق بين

(١) الباسل الكريه (٢) الجد — بفتح الجيم — الحظ والحظوة والرزق . والنوك — بفتح النون وضمها — الحمق يقول أن هناوة الحياة ونعيمها مرجعها الى الحظ لا الى العقل

(٣) جمهرة الأمثال ص ٧٦

الرجال[١]. وفى كل ذلك ما ينبئنا أن طرح النقاب فى تلك الحقب المتناكرة لم يكن مرجعه الى بساطة البداوة وصفاء المَلَكات بل كان سبيله ما هم فيه من نعومة العيش وصفو الحياة .

على أننا لا نزال نَثنى القول ونكرره بأن حجاب المرأة العربية وسفورها لم يكونا فى شيء من خُلُقها ولا شرفها فقد تسفر الفتاة ترفعاً وكبرياء وقد تحتجب اجتناباً للريب ودفعا لسوآت الظنون . ومن ذلك ما كان يفعل الفواجر اذا مررن بديار الحرائر . فقد كن يرخين القناع حتى يسترن عامة وجوههن .

وفى مثل ذلك ما يقول الحارث بن كعب فى وصيته لبنيه : يا بَنِيَّ ! قد أتت علىّ ستون ومائة سنة ما صافحت يمينى يمين غادر ولا قنعت نفسى بخَلَّةِ فاجر ولا صبوت بابنة عم ولا كَنَّة[٢] . ولا طرحت عندى مومسة قناعها .

* * *

وكما كان الحجاب مختلفاً فى نظامه وسُنّته كذلك كان مختلفاً فى شكله وهيئته . فهنالك الخمار والقناع والبرقع والنصيف واللثام واللفام وأشباهها .

فأما الخمار والقناع فقريب بعضهما من بعض وكلاهما شُقَّة توضع على الرأس ثم تلاث على جزء من الوجه . ويظهر أن أصل كونهما على الرأس ثم تسدل المرأة شيئاً منها على جزء من الوجه اذا أحوجها ذلك . وشاهد ذلك قول البحترى يصف امرأة اضطرها الموقف فأرخت قناعها عَلَى فمها .

عَجِلَت الى فضل القناع فأثرت عَذَباته بمواضع التقبيل

وأما البرقع فغطاء سائر الوجه أو بعضه وله عينان نجلاوان عَلَى عينى المرأة وثقوب أخرى يظهر منها شيء من وجهها . ويسمى ذو الثقوب الضيقة بالوَصْواص .

(١) تفسير النيسابورى ج ٢٢ ص ١٠ (٢) الكنة امرأة الابن أو الأخ

ويغلب أن يكون ذلك للإماء . أما ذو الثقوب المنفسحة فهو المَنْجول كأن عيونه عيون الحسان النجل . وفى ذلك يقول الشاعر :

لهونا بمنجول البراقع حقبة فما بال دهر لزّنا بالوصاوص

وأما النصيف فثوب رقيق تتجلل به المرأة فوق ثيابها ، وربما قُنّعت ببعضه . وإنما سمى بالنصيف لأنه نصَفٌ بين الناس وبينها ، فهو يحجز أبصارهم عنها . وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف الحور العين : « ولَنصيف احداهن خير من الدنيا وما فيها » . ويقول النابغة فى وصف المتجردة امرأة النعمان بن المنذر :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتلقفته واتقتنا باليـــد

أما اللثام والنقاب فكلاهما قناع الوجه من طرف الأنف الى ما دونه فان نزل الى الفم فهو اللفام .

والآن وقد بلغنا غايتنا من حجاب المرأة ، فان حقًّا علينا أن نُلِمّ قليلاً بثيابها وزينتها وما احتواه بيتها فنقول :

٣ — ثيابها

لبست المرأة العربية ضروباً من الثياب مختلفاً فنونها وألوانها مما أخرجته مناسج اليمن وعُمان والبحرين والشام والعراق، وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند . ومنها ما رق نسجه ، ودق خيطه ، وذلك ما تسميه بالمهلهَل والمسلسَل والهَفّاف ، وما كثُف حَوْكُه وضوعفت حواشيه ، وذلك ما تدعوه بالصفيق ، والشبيع ، والحصيف . ومنها ما لم يخالِط لونه لون آخر . ولهن فى ذلك الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والمُدَمَّى — وهو ذو الحمرة القانية — والمُشْرَق — وهو ما كان وسطاً بين الحمرة والبياض — والمفروق — وهو

ما أشرب بالزعفران — وما اجتمع فيه لونان فما فوقهما ومن ذلك المُشْرَب — وهو الذى يتماوج بين لونين — والمخطَّط والمُسَهَّم — وهو ما أشبهت خطوطه أفاويق السهم — والمفرَّق — وهو ما اجتمع الى لونه خطوط بيض — والنَّمِيق، أو المنمَّق — وهو المنقوش — والمُوَشَّى وهو ما اجتمع عليه الزُّخْرُف — والمُعَيَّن — وهو ما أشبهت نقوشه عيون النرجس — والمُصَلَّب — وهو ما تقاطعت خطوطه كتقاطع الصلبان — والمُذْهَب — وهو ما حُبِك نسجه بخيوط من الذهب — وفيه يقول سلمى بن ربيعه :

والبيض يرفلن كالدمى فى الريط والمُذْهب المصون

وأما مادتها فالحرير . ومنه الدِّيباج ، والدِّمَقْس ، والسُّنْدُس ، والاستبرق[1] والخَزّ — وهو وبر دابة كالأرنب تدعى بذلك الاسم ويشبه الحرير فى ملاسته ونعومته — ووَبر الأرنب ، وليس كل الأرانب يتخذ وبرها ، وانما هو نوع خاص يجتلب من شمال العراق . والقطن ، والصوف ، والكتان ، وأشباهها ،

وأما أنواعها فجمة العدد ، مختلفة الهيئات . وأشملها وأعمها ما أنا سائقه اليك ومنه الشعار والدثار

أما شعارها — وهو ما يلى جسدها — فالصدار والمِجْول — وهما قميصان قصيران متقاربان لا أكمام لهما ودونهما السَّرَاويل .

وأما دثارها — وهو ما يلى الشعار — فالدرع — وهو جلباب شامل يحيط بدثارها — والنطاق ، ويلبس دون الدرع — وهو ثوب تشده المرأة الى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل — وإذا نحن قربناه إلى متناول العصر الحاضر قلنا أنه « ملكوف » مضاعف . ومن فوق هذين البَت — وهو ثوب

(١) الديباج الحرير عامة والسندس رقيقه والاستبرق صفيقه أو ما حيك بالذهب منه والدمقس القز

أخضر مهلهل يحيط بجسم المرأة ويُقَنِّع جزء منه رأسها ووجهها — فإن لم يكن البتّ فالحُلّة — وهى ثوب يُظاهره ثوب آخر ويغلب أن يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً ليظهر ما يليه . وقد تطلق الحلة على الثوب المبطَّن . وقد ترتدى فوق ذلك بصنف من الأردية ازديانا واختيالاً أو تصوُّناً واحتشاماً .

ومن هذه الأردية العِطاف ، أو المِعطَف — وهو رداء تلقيه على عطفيها وترسله على جسمها — والرَّيطَة — وهى مُلَاءة ذات لِفْق واحد أى شقة واحدة . — والحَبَرَة — وهى بُرْدٌ مُوَشّى من بُرُود اليمن — وليس هناك وصف أدق لها من قول صبي لحسان بن ثابت لسعه الزِّنبار ولم يكن قد عرف اسمه فقال لأبيه : يا أبت لسعنى طائر كأنه ملتف فى بُردى حَبَرَة يمانية . وهى أغلى وأبهج ما ارتداه النساء فى ذلك العهد . وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم الحواميم فى القرآن بالحبرات تنويهاً بها وإشادة بفضلها .

ومن أرديتهن المِرْط — وهى مُلاءة ذات شقتين — وليس بين أرديتهن ما هو أعم استعمالاً منه . ومنها اللِّفاع — وهو رداء تلتفع به وهو « بالشال » أشبه ولهن غير ذلك الوِشَاح — وهو شُقَّة مُرَصَّعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقيها وخصرها — والسَّرَق . واحدتُهُ سَرَقة — وهى شقاق من الحرير يلتفعن بها — والمِطْرَف — وهو رداء مربع من الخزّ موشِيٌّ بالأعلام — .

والعَمَرُ — وهو منديل الرأس — ولا يلبسه إلا الحرائر .

وهنالك المِيدع — وهو ثوب تضعه عند معاناة عملها فتصون به غوالى ثيابها من الإبتذال — وهو شبيه بما ندعوه « بالمريلة » قال الضَّبّيُّ :

اقَدِّمه قُدَّام نفسى وأتقى به الموت أن الصوف للخز ميدَع



المرأة العربية فى أكمل زينتها (ص ١١٣)

هل تَخْمِشَن ابلى على وجوهها أم تعصبنّ رؤوسها بسِلاب

ولهن فى هذه المواطن المِسْح — وجمعه مسوح — وفيه وفى السُّلُب — جمع سلاب — يقول لَبيد :

يَخْمُشْنَ حُرَّ أوجه صِحـاح فى السُّلُب السود وفى الأمساح

وأما ما تحتذيه فالخُفُّ — وهو ما طال من الأحذية — والقَفْش، أو الكَوْث وهو القصير المكشوف منها . والجورب — وهو شعار القدمين — والقُفَّاز ويتخذ للقدمين واليدين معاً، وهو أدق نسجاً، وأنضر لوناً من الجورب ، ولذلك شبهوا به الحناء فى اليدين والقدمين فقالوا : تقفزت الفتاة إذا خضبت بالحناء .

٤ — حليها

بلاد العرب محفوفة الجنبات بمغاوص اللؤلؤ والمرجان . وهى فوق ذلك مستورَد للذهب والفضة والزَّمُرُّد والزَّبَرْجَد والعقيق والياقوت وأشباهها مما يهبط به التجار من مختلف الأقطار ليبيعوه بلؤلؤ العرب ومرجانهم . فليس بدعا بعد ذلك أن يتخذ النساء تلك الجواهر معقد زينتهن ، ومُجْتَلَب الأبصار اليهن ، فلم يتجاف عنها إلا واحدة من اثنتين : امرأة غنيت بفرط جمالها ، وبديع محاسنها، فهى تتركها ثقة بذلك الجمال ، واستهانة بأمر الحلى، وتلك التى يدعونها العاطِل، وأخرى امرأة نكبها الدهر، واستلب منها عزيزاً عليها ، فهى تطرحها كراهية للزينة ، وإيذاناً بالحِدَاد ، وهى التى يسمونها المَرهاء . فأما مَن سواهن فهن جميعاً حاليات .

تقلد الصبية العربية صنوفاً من الحلىّ منذ بدء عهدها وأول نشأتها . وذلك حيث يقول الله جل ذكره حاكياً قول جهلة المشركين الذين إذا بُشِّرَ أحَدُهم بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيمٌ : « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وهو فى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » فجعلوا التنشئة فى الحلية شعار الإناث ، وموطن الكناية عنهن .

أما ما عقدت الخناصر عليه من صنوف حليهن ، وضروب زينتهن ، فذلك الذى أورده عليك :

فهنالك التاج أو الإكليل ، وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحوط جبين المرأة والقُرْط ، وهو ما علق فى أسفل الأذن . فأما ما علق فى أعلاها فالشَّنْف .

والحُبّ وهو القرط من حبة واحدة . ويسمى الخيط الذى يصل بين القرطين بالعُقَاب .

والخُرْص ، الحلْقة من الذهب أو الفضة فى أذن الصبى والصبية والمرأة .

هذا ، ويغلب على القرط أن تعلق به جوهرة أو لؤلؤة . وقد ضربوا المثل بقُرْطَى مارية ابنة ظالم بن وهب الكندى زوج الحارث الأكبر الغسانى ملك الشام، وفيهما درّتان كبيضتى الحمام لم ير الراؤون أعجب ولا أوضأ منهما، وقد توارثهما نساء الملوك من بعدها حتى كان مآلهما إلى فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجا لعمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة . فلما وليها قال لها : إن أحببت المقام عندى فضعى القرطين فى بيت مال المسلمين . فصدعت بأمره . فلم يزالا فى موطنهما من بيت المال حتى انتقض الملك الأموى فذهب خبرهما[1] .

ومن أمثالهم : أنفس من قرطى مارية . يضربونه فى كل غال وعزيز عليهم . وقولهم : آتيك بما شئت ولو بقرطى مارية . قال قائلهم[2] :

يأيها الملك الذى مَلَك الأنام علانية
المال آخِذه سوا ىَ وكنتُ عنه ناحية
انى أؤديه اليك ولو بقُرْطَى مارية

وهنالك القِلاَدة . وهى ما يجعل بالعنق . ويسمى موطنها بالمُقَلَّد ، وأنفسُها

(١) قطر الغيث المسجم ص ١٦٩ (٢) جمهرة الأمثال ص ٢٤٢

ما كان من اللؤلؤ وحده أو مفصّلاً مع غيره من الجواهر. ومنها الزمرد والزبرجد والياقوت والمرجان. وقد يضاف إلى ذلك الشَّذْر، وهو حبات من الذهب. والجُمَان وهى لآلئ من الفضة. وهم يسمون اللؤلؤة التى توسطت حبات العقد بالواسطة.

والتِّقْصَار أو المِخْنقة قلادة لاصقة بالعنق.

وتسمى الأهداب المتدلية من القلادة على الصدر بالسُّمُوط، وواحدها سِمْط. والسِّمط أيضاً الخيط ينظم فيه اللؤلؤ وغيره.

والطوق حَلْيٌ يحيط بالعنق، ويغلب أن يكون ذلك للأطفال.

والسِّخاب قلادة من قَرَنْفُل أو ما يشابهه، ويغلب أن تكون تلك للأطفال أيضاً.

والسَّلْسُ نظم ينظم من الخرز، وللخرز صنوف جمة، أجلها وأحبها الخرز اليمانى، وهو صنف من الخرز محلّى.

والوِشاح، وهو خيطان من الجوهر منظومان مخالَفٌ بينهما معطوف أحدهما على الآخر.

والسُّوَار أو الأَسْوِرة، وهو نطاق المِعصم. وهو من خصائص الحرائر، وفى أمثالهم: ✲ لو ذاتُ سِوَارٍ لطمتنى ✲

والمِعضَد أو الدُّملج طوق العضد. وهو شبيه بالسوار لليد.

والخاتم والفَتَخ، وأوّلهما ما له فص، والثانى ما لا فص له. وكلاهما يلبس فى أصابع اليدين والرجلين معاً.

والخَلْخال، وإنما يطلق على ما له رنين، فان لم يكن له رنين فهو الفَتَخ، فان غاص فى الساق فهو الخَدَمة. وعند العرب صنف من الحلى يصاغ مجوفاً ويحشى بالطيب ويسمى ذلك بالكبيس.

ويسمى صوت الحلىّ بالوَسواس أو النقنقة .

والتميمة خرزة تعلق فى عنق الصبى أو الصبية أو خيط تعلق فيه التعاويذ بزعم أنه يدفع عنهم الآفات .

ومن لواحق الزينة عندهن بل من أصولها ودعائمها الطيب، وهو زينة العرب جميعاً — رجالاً ونساءً وأطفالاً .

والطيب عندهن على صنفين: أعواد يُتَبَخَّرُ بها ، ودُهن يُدَّهَن به . فمن الأول الصندل ، والساج ، واللبنى — وهو شجر يسيل منه لبن كالعسل فى طعمه — والعود . والنَّد — وهو المسك يعجن بالعود — والرَّند وهو شجر زكى الرائحة .

ومن أزهارهن الآس، ومنه يعتصردهن يُدَّهن به . ومن الثانى العنبر والمسك والغالية وهى أزكى صنوف الطيب عندهن وتتخذ من المسك يعجن بالعنبر والبان . فأما البـــان فشجر يسمو ويطول فى استواء وورقه كورق الاثل وثمرته كقرن اللوبياء ولها حب يعتصر فيخرج منه ذلك الدهن .

على أن هنالك من العرب — وأخصهم أهل البادية — من يتواصون باطراح الطيب وترك التضَمخ به ويرون فى المـــاء غَناء عنه ومن ذلك ما يقول الحارث ابن كعب المَذْحِجِى فيما يوصى به بنيه: وتزوجوا الأكفاء وليستعملن فى طيبهن الماء

٥ — بيوتها

لم تكن بيوت العرب على سواء فى تكوينها ونظامها ومادتها . فهى تختلف باختلاف مواطنها واقدار ذويها . فأهل البادية لحاجتهم إلى النجعة ، واعتزامهم الرحيل ، وتأثرهم مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ ، كانت بيوتهم بحيث يسهل تقويضها ، ومتاعهم بحيث يُحْتَمل حمله ، فلم يجاوزوا به مواطن الحاجة ، وسِداد العوَز .

فأما بيوتهم فأكثرها خيام تضرب ثم تطوى ، وقلَّ أن كانت من الحجر أو اللَّبِن . وهى من حيث هذا وذلك على عشرة أنحاء : خِباء من صوف ، وبِجادٌ من وَبر ، وفُسطَاط من شَعَر ، وسُرَادِق من قطن ، وقَشْع من جلد ، وطِراف من أَدَم ، وحَظيرة من شَذَب[1] ، وخيمة من شجر ، وأُقْنة من حجر ، وكُبَّة من لَبِن . وهى بسائط التكوين . ومَثَلها فى ذلك كمَثَل ما أحاط بها من سهل ، وجبل ، وجو ، وأرض ، وسماء . غير أن أشرافهم لغدوهم على حواضر البلاد ، وغشيانهم مجالس الملوك ، كانوا يتأنَّقون بعض الأنَقة فى بيوتهم ، وينقلون اليها من تلك المظاهر ما لا تنبو عنه طباعهم ، ولا أسلوب حياتهم . وربما جمع الرجل بين هذه البيوت كلها أو بعضها ليتخذ منها مأوى لضيفانه ، ومثوى لعشيرته ، وحظيرة لماشيته ، ومجلساً لنسائه ، ومهبطا لسُمَّاره .

وكانت للنساء مجالس يجتمعن فيها فيتناقلن الحديث ، ويتجاذبن أطراف الكلام ، كما كانت للرجال أندية يتسامرون فيها ويتشاورون . وذلك ما يراد من قول عمرو بن كلثوم فى وصيته لأبنائه حيث يقول : وأبعدوا بيوت النساء عن بيوت الرجال ، فانه أغض للبصر .

أما المدن فمستقر الدور والقصور . وهى لا تقل فى شىء عما سواها فى مختلف الأقطار والأمصار ، وبينها أبدع ما وضعَته الأيدى ، وأثمرته العقول . ففى اليمن غُمدان وظَفَار وأشباههما . وفى العراق الخَوَرْنَقُ والسَّدير وأضرابهما . وفى الشام السُّوَيداء وقصر الغَدير ونظائرهما . وفى تدمر وتيْماء الرواق الأعظم ، والابلق الفرد وأمثالهما . وفى كل مدينة من القصور الشم ما لا تناله العُصْم ، ومِن دونها قصور لا تدانيها سناء ولا بناء . على أن لها نصيبها من جلال وجمال . ومن ذلك تعلم أن

(١) الشذب قطع الشجر

بلاد العرب لا تقل فى بيوتها عن كل بلد مُشرق العهد، عريق المجد، بعيد الأمد.

أما أثاثها ومتاعها فانى ناقل لك أعمه وأهمه. ففيها من الفُرُش الحُصير، ومنه المنمق المنقوش. وفى النساء صوانع خصصن بتنميق الحصير. قال النابغة:

كان مَجَرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَها عليه حصيرٌ نمَّقَتْه الصوانع[1]

والبِسَاط وهو كل شىء بسط ليجلس عليه. ومن البسط الرَّفرف، وهى بسط خضر — واحدتها رفْرَفة — والزرابى — جمع زَربى — وهى بسط بديعة الرُّواء، لها خَمْل — هُدب — ناعم دقيق؛ وانما سميت بذلك تشبيهاً بالزَّرْبى من الزهر، وهو نبت يجمع بين الصفرة والبياض. والطنافس — جَمْع طُنْفُسَة — ومثلها كمثل الزرابى فى خملها، وان كانت دونها فى رقة نسجها، ورُواء منظرها. والعَبْقَرِىّ — جمع عبقرية — وهى الطنافس الثخان، أو البسط الموشيَّة من الديباج، أو أبدع الزرابى والنمارق — جمع نُمْرُقَة — ومنها وسائد وبسط وهى جميعاً ذات وشى مرقوم وقد ذكر الله جل ذِكْرُه تلك الصنوف من البسط فى القرآن فى سياق وصف الجنة ليصورها بذلك العرب على أبدع ما يفهمون، وأحبِّ ما يعلمون.

أما ما على الفراش من المقاعد فمنه الحشايا — واحدته حَشِيَّة — وهى مقاعد محشوة تبسط على الأرض للجلوس وفوق السرر للنوم. وقد يبالغون فى حشوها فيتخذونه ريش النعام. فاذا ازداد حشوها وارتفع سَمكها فهى الوشائز.

وعندهن الحَجَلة وهى غرفة العروس تزين بالفُرُش والأسرة والستور. وبها الأرائك — واحدتها أريكة — وهى شبيهة بالوشائز. غير أنها أرفع وأرق وأبهج. ومن أجل ذلك اختصوا بها غرفة العروس.

---

(١) الرامسات الرياح سميت بذلك لأنها تدفن الأثر وذيول الريح أواخرها أو أوائلها ومرجع الضمير فى عليه النؤى فى البيت قبله:

رماد كـكحل العين لأيا أبينه ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

والنؤى حفير حول الخيمة

وأما الأسِرَّة فصنوف شتى . وأوضعُها ما اتُّخذ من سَعَف النخل . وأعزها ما كان من العاج . وذلك الذى يقول فيه القائل :

والله لَلنَّوْمُ على الديباج على الحشايا وسرير العاج
أهون يا عمرو من الادلاج وزفرات البازل العَجْعاج

ولهن غير ذلك الكِلل — واحدتها كِلة — وهى ستور رقيقة تقى من البعوض . وموطنها فوق السرر ودونها .

وهنالك الحِلْس وكن يضعنه تحت الفراش بينه وبين الأرض . ويقابله النَمَط وهو ظِهارة الفراش .

أما جدران الغرف وحيطانها فكن يشددن عليها النجود ، وهى ستور منمَّقة ذات صور وأشكال تشد على جدران الغرف لتزدان بها .

ولهن ما يحفظن به حُرَّ المتاع . ومن ذلك الصندوق ، والخزانة ، والجُوالق . وبعضها قريب من بعض . فأما صندوق الثياب خاصة فهو الصُّوان . وفى الغرفة المرآة والمِسرَجة وموضعها فوق المِنارة . وما يشتعل فيها هو السراج ، والقنديل وتصله بسماء الغرفة سلسلة تدخل فى عراه . وكلا المسرجة والقنديل تضىء فيه الذُّبالة ، وهى فتيلة تستقى من الدهن . وأكثر ما يكون دهن المصباح من الزيت . وقد يتخذ من السمن . وشاهد ذلك الحديث فى الفأر يقع فى السمن : إذا كان جامداً قوِّر ما حوله وارم به . وان كان مائعاً فاستصبح به .

تلك هى غرفة المرأة العربية ، أتينا على خير ما حوت من زينة ، وضمت من متاع ، حتى تترا أى بذلك صورة ما عليها وما حولها ، وحتى تعلم من كل ذلك أن المرأة العربية وان أبرَّت على كثير ممن سواها فى فضلها فلم تُقَصر عنهن فى شىء من مادتها وزينتها .

وان من أمتع ما قيل فى وصف نواعم العيش من فتيات البادية قول المَرَّار ابن المُنقِذ التَّميمىّ يصف فتاة من سَنِيَّات قومه[١] :

ناعَمَتْها أمُّ صِدقٍ بَرَّةٌ ... وأبٌ بِرٌّ بها غيرُ حَكِر[٢]

فهى خَذواء بعيش ناعم ... بَرَدَ العَيشُ عليها وقَصُر[٣]

لا تَمَسُّ الأرض الا دونَها ... عن بلاط الأرض ثوب منْعَفر[٤]

تطأ الخَزَّ ولا تكْرِمُه ... وتُطيل الذيل فيه وتجُر[٥]

وترى الرَّيطَ مَواديعَ لها ... شُعُراً تلبسها بعد شُعُر[٦]

عَبِق العنبر والمسك بها ... فهى صفراء كعرجون العُمُر[٧]

وهى لو يُعصر من أردانها ... عَبِق المسك لكادت تنعصر

٦ — دينها وعقائدها

إذا استثنيت فصائل منْبَثة فى تفاريق بلاد العرب ، من اليهود والنصارى ، وآحاداً من الموحدين ، فلست بواجد للقوم ديناً قِيَماً يعتدّون به ويعتمدون عليه .

فهم يعتقدون أن هناك إلهاً فاطر السموات والأرض ، وأنه أودع سره وأفاض من روحه على ما شاء من خَلْقه . لذلك عبدوا الملائكة والكواكب ، ولذلك اتخذوا الأصنام من الشجر والحجر . كل يختار أفضل ما يراه وأولاه — فيما يزعمون — بقوة الله ، حتى لقد حلا لبنى حنيفة أن يتخذوا إلههم من الحَيْس فعبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ! فقال قائل من تميم :

---

(١) المفضليات ج ١ ص ٣٣ (٢) غير حكر أى لا يحبس عنها شيئاً

(٣) الخذواء الناعمة وبرد العيش طيبه ونعومته (٤) بلاط الأرض ما استوى منها وثوب منعفر أصابته غبرة يقول أنها لا تسير على الأرض وانما تفرش لها أنماط تقيها التراب (٥) يقول أن بساط بيتها من الخز وثيابها التى تطيل ذيولها من الخز كذلك (٦) الشعر جمع شعار والريط والمواديع — جمع ميدع — سبق بيانها (٧) العرجون قنو النخلة والعمر نخلة السكر

أكلتْ ربَّها حنيفة من جو ع قديم بها ومن أعواز

وغيره يقول :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحُّم والمجاعه
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتّباعه

وقد بلغ من اضطراب هذا الدين أن تعبد العشيرة الحجر ، فان وجدوا غيره آنق منه تبدلوه به ، وتركوا معبودهم القديم .

وفى حديث أبى رجاء العُطاردى : كنا نعبد الحجر فى الجاهلية . فاذا وجدنا حجراً أحسن منه نلْقِ ذلك ونأخذه ، فاذا لم نجد حجراً جمعنا حَفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به[١] .

وربما اتخذت الأُسرة لعبادتها صنما خالصاً لها ، بل ربما اتخذ الرجل لعبادته صنما خالصاً له[٢] .

وآثر ما يعبدون من أصنامهم ثلاثة لثلاث من الأناث : اللاتُ ، والعُزَّى ، ومنَاةُ الثالثة الأخرى . جعلوهن رموزاً للملائكة لأنهم — فيما خُيِّل لهم — بنات الله ، وأنثوا للأُوليَين منهن اسمين من أسماء الله جل ثناؤه ، فاتخذوا من الله اللات ومن الأعزّ العزَّى ! سبحان الله وتعالى عما يصفون[٣] .

مثل ذلك الدين الواهن المضطرب لا أثر فى تكوين المرأة العربية ، وليس فى شىء مما طبعت عليه من سُموّ النفس . وجلال الخُلُق ، لانه لا مظاهر له من كتب منشورة ، وقواعد منثورة ، وما آثر مأثورة .

على أن وَهَن هذا الدين اسلم دَهماء النساء الى صنف من العقائد والهواجس رسخ فى ذوات نفوسهن رسوخ الدين . وانى مُجمل لك القول فى أعمق هذه العقائد

---

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ (٢) طبقات ابن سعد ج ٧ ص
(٣) تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٣١

فى قلوبهن ، وأعلقها بنفوسهن ، لا كشف لك عن صورة غير مخضوبة ، وصحيفة غير مكذوبة .

﴿ الخرزات والتمائم والرُّقَى ﴾

ان اختمار الوثنية فى المرأة العربية خيّل لها أن فى بعض الحجر مآثر وأسراراً تكشف عنها العزائم والرُّقَى .

فهنالك بين ثنايا الجبال ، وبين أعطاف المغاور ، صنوف من الخرز مما فُصِل من شُعَب الصخور . وتناولته يدُ القِدم ، فأبدعت أشكاله ، ونوعت ألوانه ، بما سلطت عليه من وَهَجَ الشمس ، وتسكاب المطر .

أُلقى فى رُوع المرأة العربية أن لكل طائفة من هذا الخرز أثراً فى اصلاح أمرها من اجتلاب خير ، أو دفع مكروه ، وأعدَّ لها السواحر كلمات تلقيها على كل فريق لتستثير ما يطويه ، من أثر صالح ، وسر كمين .

وذلك الذى أورده عليك مختار خرزهن ، ومأثور عزائمهن ورقاهن .

فمن خرزاتهن :

الهِنَّمة وهى خرزة يجتلب بها النساء قلوب أزواجهن . وهن يقُلْن عليها أَخَذْتُه[1] بالهِنَّمة ، بالليل زوج وبالنهار أَمَة[2] .

والدَّرْدَبِيس وهى خرزة سوداء ، كأن سوادها لون الكبد ، اذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف كلون العنبة الحمراء . تتحبب بها المرأة الى زوجها . وموطنها قبور عاد[3] . قال قائلهم :

قطعت القيد والخرزات عنى فمن لى من علاج الدَّرْدَبِيس

(١) التأخيذ حبس المرأة زوجها على نفسها (٢) لسان العرب ح ١٦ ص ١٠٧
(٣) لسان العرب ج ٧ ص ٣٨٤

وقال

جَمَّعْن من قَبَلٍ لهن وفَطْسَةٍ والدردبيس مقابلاً فى المِنْظَم[١]
فانقاد كل مُشَذَّبٍ مَرِسِ القُوَى لحبالهن وكل جَلد شَيْظَم[٢]

وهن يقلن فى رقاهن عليها : أَخَذْتُهُ بالدردبيس ، تُدِرُّ العِرْق اليَبِيس ، وتَذَرُ الجديد كالدَّرِيس[٣] .

وكَرَارِ وهى خرزة يؤلف بها نساء البادية قلوب رجالهن . ومن مقالهن عليها : يا كَرَارِ كُرِّيه ، يا هَمْرَة اهمريه ، أن أقبل فسُرِّيه ، وان أدبر فضُرِّيه[٤] .

والقَبَلة وهى من خرز نساء الاعراب . يتخذنها لاقبال أزواجهن عليهن ورُقيتها : ياقَبَلة اقبليه ، ويا كَرَارِ كُرِّيه .

والصَّرْفة وهى خرزة يصرفن بها الرجال عن مذاهبهم ، وشتات أغراضهم

والعَطْفة وهى خرزة يُعَطِّفن بها الرجال اذا قَسَت قلوبهم .

والينْجَلِب وهى خرزة يتخذنها للرضا بعد الغضب ، والأوبة بعد النِّفار . ورُقيتها : أَخَذْتُه بالينْجَلِب ، فلا يَرِم ولا يَغِب ، ولا يَزَل عند الطُّنُب[٥] .

والسُّلْوَانة وهى خرزة شفّافة اذا دفنت فى الرمل اسودّ لونها فاذا أُخرجت سحقت وصب عليها ماء المطر فان شربها من ابْتُلِيَ بحب انسان سلا عمن أحبه . ويسمى ماؤها السُّلوان . قال قائلهم :

---

(١) القبل والفطسة خرزتان سيمران بك والمنظم الخيط ينظم الخرز فيه (٢) المشذب الشارد والمرس الشديد الراس والشيظم الطويل الجسيم الفتى من الناس (٣) الدريس القديم البالى من الثياب تريد بالجديد زوجه الجديدة (٤) الهمرة خرزة من خرازتهم وهمر الفرس الأرض اذا ضربها بحافره ومنها قالت يا همره اهمريه — لسان العرب ج ٦ ص ٤٥٢ (٥) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٦

شربت على سُلْوانة ماء مُزْنة فلا وجديد العيش يامىَّ ما أسلو[1]

وقال :

يا ليت ان لقلبي ما يُعَلِّله أو ساقياً فسقانى عنك سُلوانا

وقال الراجز :

لو أشرب السلوان ما سَلِيتُ ما لى غنى عنكم وان غَنِيتُ

والسَّلْوَة وهى خرزة يشف ظاهرها عما وراءه ، اذا استشففتها رأيتها كزُلال البيض يُسقى نقيعها الحزين فيسلو والكَلِف فينصرف[2]

قال الشمَرْدَل :

ولقد سُقِيتُ بسلوَةٍ فكأنما قال المُدَاوِى للخيال بها ازدد

وقال عُروَة بن حِزَام :

جعلت لِعَرّاف اليمامة حُكْمَه وعراف نجد ان هما شفيانى
فقالا نعم نشفى من الداء كله وظلا مع العُوّاد يبتدرانى
فما تركا من رُقية يعرفانها ولا سَلوَة الا وقد سقيَانى

والقِرْزَحْلَة وهى من خرز الضرائر ، اذا لبستها المرأة مال اليها بعلها دون سواها[3]. قال قائلهم :

لا تنفع القِرزحلة العجائزا اذا قطعنا دونها المفاوزا

والكَحْلَة وهى خرزة تجعل على الصبيان فتقيهم أذى العين وللنفس من الجن والإنس . ولها لونان بياض فى سواد كالرُّب[4] والسمن اذا اختلطا . وربما اتخذها النساء لتأليف قلوب الرجال .

(١) المزنة السحابة البيضاء (٢) المخصص ج ٤ ص ٤٢ (٣) لسان العرب ج ١٤ ص ٧٢ (٤) الرب عصارة الثمر

والفَطْسَة وهى خرزة يُسقَم بها العدوّ حتى يموت . ومن مقالهم عليها : أخَذْتُه بالفَطاسَة ، بالثُوبا والعَطسَة ، فلا يزل فى تَعسَة ، من أمرِه ونكْسَة ، حتى يزور رَمسَه .

ومن رُقاهن لتأليف القلوب : هَوّابَة هَوّابة[١] ، البرقُ والسحابة ، أخّذته بمركَن[٢] ، فحُبُّهُ تمكّن ، أخّذته بإبرَة ، فلا يزل فى عَبرَة ، جَلَبَتُه بإشفَى[٣] ، فقلبه لا يهدا . جلبته بمبرَد ، فقلبه لا يَبرُد[٤]

وهنالك التمائم . والتميمة خرزة رقطاء ، أو طائفة من الخرز والعُوَذ ، تنظم فى سير ثم تعلق فى عنق المولود حين يولد .

ومما يفعلن ليقين أبناءهن أذى العين ، وشرور الجن ، أن يعمدن الى الوليد حين يولد فيخططن عليه من صمغ السَّمُر — وهو شجر من أشجار البادية يزعم العرب أن الجن يرهبون منه — ثم يعلق عليه سن ثعلب أو هرة . ومن حديثهن أن جنية أرادت صبيًا فلم تقدر عليه . فلما رجعت قيل لها فى ذلك . فقالت : كانت عليه نُفرَة ، ثعالب وهِرَرَة ، والحيض حيض السَّمُرَة[٥] .

وربما علقن عليه كعب أرنب ، لأن الأرنب لا يعلوها الجن ولا يقربونها قال ابن الأعرابى : قلت لأعرابى من علّق على نفسه كعب أرنب لم يصبه جِنّان الحى ، ولا عُمّار الديار . فقال : إى والله ، ولا شيطان الحُمّاطة ولا غُول القفر وتُطأ عنه نِيران السَّعالِى[٦] .

---

(١) الهوابة النار الملتهبة والشمس المتوهجة (٢) المركن الاجانة التى تغسل فيها الثياب ونحوها
(٣) الأشفى المثقب الذى يثقبون به الجلود ليتخذوا منها المزاود والقرب (٤) بلوغ الارب ج ٣ ص ٦
(٥) حيض السمرة صمغها (٦) الجنان — جمع جن — والجن ولد الجان وعمار الديار الذين يساكنون الناس من الجن وشيطان الحماطة صنف من الحيات والسعالى اناث الغيلان أو سواحر الجن — محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٣

التفاؤل والتطير

المرأة العربية كمن سواها من الناس ، إذا اعتزمت أمراً ، أو صَبَت الى مطلوب كان أكبر همها أن تعرف مآله من الخير والشر ، وتكشف عن نصيبه من العسر واليسر . لذلك عُنِيَت فى عامة أمرها أن تطالع ما تستقبله من مظاهر الكون . فان كان ممن خُيِّلَ لها أنه بادرة الخير ، وطليعة التوفيق ، مضت فى عملها آمنة مؤمنة مطمئنة ، وان مُنِيت بما راعت نَبْأَتُه ، وساءت طَلْعته ، رجف قلبها ، وانبعثت ريبتها ، واستشعرت الهيبة من الخيبة .

وهى فى ذلك قسيمة الرجل ، لِمَا اجتمع عليهما من غلبة المشاعر ، وانفساح مدى الخيـــال .

والعرب أمة لغة وبيان ، يَكْلَفون باللفظ ويستأسرون لديباجة الكلام . لذلك كان أول ما يأخذهم من الشىء اسمه ، وما ينبىء عنه اشتقاقه من خير أو شر ، ثم ما ينم عنه صوته ومنظره ، ثم مواطنه التى يهبط اليها ، ويغلب عليها ان كان مما يألف الرياض الحالية ، أو الطلول البالية ، والرسوم العافية .

ومما ينبئك عن موقع الأسماء من نفوسهم ، ومبلغ أثرها فى مشاعرهم ، قول بَشَّار بن المُضَرَّب :

تغنى الطائران بِبَين ليـــلَى ... على غصنين من غَرَب وبان[1]
فكان البانُ أن بانت سُلَيمى ... وفى الغَرَب اغتراب غير دان

فانظر كيف أخذ الغربة من الغرب ، والبين من البان ؟

---

(١) الغرب شجرة ضخمة شاكة من شجر الحجاز ومنه الحديث الكريم : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق . يريد بأهل الغرب أهل الحجاز والبان شجر شديد الخضرة يسمو ويطول فى استواء وثمرته تشبه قرون اللوبياء الا أن خضرتها أشد ولها حب ومن ذلك الحب يستخرج دهن البان ولاستواء البان ونعومة أنفاسه شبهوا به نواعم النساء

ومثله قول من يقول :

أقول يوم تلاقينا وقد سجعت حمامتان على غصنين من بان
الآن أعلمُ أن الغُصْن لى غَصَن وإنما البان بين عاجل دان[1]
فقمت تخفضنى أرض وترفعنى حتى ونَيْت وهد السير أركانى

ومثل ذلك ما يقول جِرَان العَوْد :

جرى يوم رحنا بالجمال يَزُفُّها عُقَاب وشَحَّاج من البين يبرح[2]
فأما العُقاب فهو منها عقوبة وأما الغراب فالغريب المُطَوَّح

فلم يجد فى العُقاب الا العقوبة ، وجعل الشَّحَاج — وهو غراب البين — دليل الغريب المطوّح .

ولئن أشفق جِرَان العَوْد من العقاب ، وارتقب منه العقوبة ، لقد تيمّن به غيره ، وتنظّر منه العقبى ، مما هو فيه من نار الشوق ، فقال :

وهاب رجال أن يقولوا وجَمْجَموا فقلت لهم جار الىّ رييح
عُقاب بأعقاب من النار بعدما مضت نِيَّةٌ لا تُستطاع طَرُوح
وقالوا دَمٌ دامت مودة بيننا وعاد لنا غصن الشباب قريح[3]
وقال صِحابى هدهد فوق بانة هدى وبيان فى الطريق يَلوح
وقالوا حَمامات فحمّ لقاؤها وطَلْحٌ فزِيرت والمَطىّ طَليح[4]

قالوا : فهو اذا شاء جعل الحَمام من الحِمام والحميم والحِمَى . وان شاء قال : وقالوا حمامات فحمّ لقاؤها . واذا شاء اشتق البين من البان . واذا شاء اشتق منه البيان

(١) غصنت الغصن غصناً قطعته من ذلك أخذ الشاعر الغصن — بفتح الغين — من الغصن — بضمها
(٢) العقاب أحد عتاق الطير وسباعها ويطلق على الذكر والأنثى . والشحاج الغراب واشتقاقه من الشحيج وهو أشد حوته (٣) الغصن القريح ذو النوار الأبيض
(٤) الطلح شجر عظام ترعاه الابل وناقة طليح متعبة

وشبيه بذلك قول من يقول :

وقالوا عُقاب قلت عقبى من الهوى ... دنت بعد هجر منهم ونُزُوح
وقالوا حمامات فُحُمّ لقاؤها ... وعاد لنا حلو الشباب ربيح
وقالوا تغنى هدهد فوق بانة ... فقلت هدى نغدو به ونروح

لكل ذلك كان الغراب أشد ما يروعهم ، وتُطرف به أعينهم ، لما ينبئ عنه اسمه من الغربة ، ولروعة سواده ان كان أسود ، ولاختلاف لونه ان كان أبقع ، ولأنه غريب لا يقطع اليهم ، ولأنه لا يوجد فى موضع خيامهم يَتَقَمَّم[١] الا عند معايشتهم لمساكنهم ، ومزايلتهم لدورهم . ولأنه ليس شىء من الطير أشد على ذوات الدَّبْر[٢] من ابلهم من الغربان . لأنه ينقب عن الدَّبر حتى يبلغ الى دايات[٣] العنق ، وما اتصل بها خرزات الصلب ، وفقار الظهر[٤] . قال عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى بينهم الغراب الأبقع
ان الذين نعبت لى بفراقهم ... هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا

وأشد ما يتشاءمون بالغراب اذا ولاهم ظهره[٥] أو شماله — وذلك البارح عندهم — أو أبصروه يتفلى وينتتف ، أو صاح بهم صيحة واحدة . أما اذا استقبلهم بوجهه أو ثنّى فى صوته ، فهم به يتيمنون

ومَثَلُ الصُّرَد[٦] عندهم كمثل الغراب . فهو طليعة الشؤم ، وسبيل الخراب . وهم اذا رأوه ذكروا التصريد ، وهو القلة ، وانزعجوا مما عسى أن يصيبهم من نقص فى الأهل والمال . قال قائلهم :

دعا صُرَد يوماً على غصن بانة ... وصاح بذات البين فيها غرابها

---

(١) القمامة — بضم القاف — الكناسة وتقمم تتبع بالقمامة (٢) الدبر القرحة فى الدابة
(٣) الداية الفقرة فى الكاهل أو الظهر (٤) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٥ — ١٣٨
(٥) المخصص ج ١٣ ص ٢٤ (٦) الصرد طائر كبير الهامة يشبه البوم ويغتذى بالعصافير

فقلت أتصريد وشَحْطٌ وغربة فهذا لعمرى نأيُها واغترابها[١]

وحكم الرَّخَم والبُوم كحكم الصُّرَد والغراب . وهم يقولون : أن لئام الطير ثلاثة ، الغربان والرخم والبوم .

كذلك أمر الجراد عندهم لأنهم تنظروا منه الجرد ولأنه مختلف الألوان[٢] فهو عندهم كحوادث الزمان .

أما الهدهد فأمره من أولئك بعيد ، فهو عندهم غرة النُّجح ، وآية اليُمن ، وسبيل الهداية . ويزعمون أنه الذى كان يدل سليمان صلوات الله عليه على مواضع الماء فى أعماق الأرض . ويقولون أن القُنْزُعَة[٣] التى على رأسه ثواب من الله على ما كان من بره بأمه ، لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه[٤] .

وشعارهم اذا استمعوا من الطير ما يروعهم أن يقولوا طائر الله لا طائرك[٥]

أما ما سوى الطير من الحيوان فهم يتشاءمون منه بالأعضب ، والأعور ، والأبتر ، والقعيد ، والنطيح .

فالأعضب المكسور القرن ، أو المشقوق الأذن . والأبتر المقطوع الذنَب . والقعيد ما أتاك من ورائك من ظبى أو طائر . والنطيح ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبى أو وحش[٦]

أما النبات فهم يتشاءمون منه بالغرب والبان كما علمت ، وبالخلاف لأنه سبيل القطيعة . ويتيمنون بالريحان لأنهم أخذوا منه الروح . وربما نظروا الى مرارة طعمه فتشاءموا به[٧] .

---

(١) الشحط البعد والاضطراب (٢) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٦ (٣) قنزعة الهدهد — بضم القاف والزاى وفتحهما وكسرهما — عرفه (٤) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٦٠ — ١٦١
(٥) المخصص ج ١٣ ص ٢٤ (٦) لسان العرب في الكلام على هذه الكلمات
(٧) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٤٢

وللعرب فيما عدا الطير والوحش والنبات ، بوادر يتشاءمون بها ، ويعوذون منها . ومنها العُطاس . قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العُطاس بهيكل شديدٍ منيع الجنب فَعْمِ المُنَطَّق

يقول : انه يغتدى قبل أن يستيقظ الناس لئلا يستمع عطاسهم فيخيب . وكان قولهم إذا عطَس من يحبونه : عمراً وشباباً . واذا عطَس من يبغضونه : وَرْياً وقُحَاباً[١] . واذا استمع أحدهم العاطس ممن لا يعرف قال : بِكلاَ بى أسأل الله أن يجعل شُؤمك بك لابى[٢] .

وكانت المرأة تتطير اذا انكفأ الإناء وصب ما فيه . وتقول فى العيـــاذ من ذلك : دافق خير .

وكانوا اذا اشتروا الدار ، أو بنوها ، أو فجَّرُوا العين ، ذبحوا عندها ذبيحة ودعوها ذبيحة الجن ، حتى لا ينالها من الشؤم شىء[٣] .

﴿ وبعد ﴾ فان كان التطير مما أسلفنا لزام العرب ، وسبيل قصدهم ، فلقد جحده كثير من رجالهم ، وأخَصُّهم أولو العزم والإقدام منهم .

قال الحارث بن حِلِّزَة :

يأيهـــا المزمع ثم انثنى لا يثنك الحادى ولا الشاحِج
ولا قعيـــد أعضب قرنه هاج له من مربع هائج
بينا الفتى يَسْعَى ويُسعَى له تاح له من أمره خالج[٤]
يترك ما رَقَّحَ من عيشه يعيش منه هَمَجٌ هامِج[٥]

(١) القحاب كالسعال وزنا ومعنى (٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٦٦ (٣) المخصص ج ١٣ ص ٢٥
(٤) الخالج المنتزع يريد به الموت (٥) رقح ماله ترقيحاً أصلحه وأحسن القيام عليه

وقال حاتم بن عدى :

وليس بهياب اذا شد رحله يقول عدانى اليوم واق وحاتم[١]

ولكنه يمضى على ذاك مقدماً اذا صد عن تلك الهناة الخُثارِم[٢]

وقال علقمة الفحل :

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته لا بد مشئوم

﴿ سفر الرجل وطول غيبته ﴾

إذا اقتعد الرجل راحلته ، وابتدأ ارتحاله ، فان كان بغيضاً إلى المرأة عمدت إلى النار فأوقدتها ، حتى تحول دون مآبه اليها . وان كان عزيزاً عليها قبضت قبضة من مواطئ قدمه واحتفظت بها ، فذلك أسرع لعودته[٣] . قال قائل :

قالت له واقتبصت من أثره يا ربِّ أنت جاره فى سفره

وقالت امرأة :

أخذت تراباً من مواطئ رجله غداة غدا حتى يؤوب مُسَلَّما

فان طالت غيبته ، وخَفِى عليها خبره ، جاءت الى بئر عادية مظلمة ، بعيدة الغور ، فنادت فيها : يا فلان ، أو يا أبا فلان . فان سمعت بعد ذلك صوتاً علمته حيًّا والا فهو مائت . وللرجال نصيبهم من هذا الخيال . قال قائلهم :

دعوت أبا المغوار فى الحفر دعوة فما آض صوتى بالذى كنت داعيا[٤]

أظن أبا المغوار فى قعر مظلم تُمِرُّ عليه الذاريات السوافيا[٥]

---

(١) الواق الصرد . والحاتم الغراب (٢) الهناة الشىء . والخثارم الرجل الكثير التطير

(٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٢ (٤) آض رجع

(٥) يريد بالمظلم القبر والذاريات الرياح الهائجة والسوافى جمع سافية وهى التراب أو الريح الحاملة لها

وقال آخر وقد سمع رجع صوته :

ألم تعامى أنى دعوت مجاشعاً ... من الحفر والظلماء بادٍ كُسورُها
فجاوبنى حتى ظننت بأنه ... سيطلع من جَوْفاءَ صعب حدورها
لقد سكنت نفسى وأيقنت أنه ... سيقدم والدنيا مُجابٌ أمورها

﴿ خَدَر الرجل واختلاج العين ﴾

مما يزعم العرب — رجالهم ونساؤهم — أن الرَّجل إذا خدرت فذكر ربَّها غائباً حبيباً ذهب خدرها[1] .

فان اختلجت العين تنظَّرُوا من وراء اختلاجها قرب لقاء الغائب الحبيب .

قال قائلهم :

إذا اختلجت عينى تيقنت أننى ... أراكِ وان كان المزار بعيـــدا

﴿ رأيها فى مصير موتاها ﴾

مما يزعم العرب ، أن الميت إذا حال عليه الحول تحسرت عظام رأسه عن طائر على سُنّة البوم يجثم على شفير قبره . فان كان صاحبه قتيلاً لم يؤخذ بثأره أقبل يصيح : اسقونى اسقونى . فلا يزال على صياحه حتى يؤخذ بثأره . وهم يسمون الطائر بالهامة ، وعظام الرأس بالصدى .

قال ذو الأصبع العدوانى :

يا عمرو ان لا تدع شتمى ومنقصتى ... أضربك حتى تقول الهامة أسقونى

وقال حاتم :

أماوىَّ أن يصبح صداى بقفرة ... من الأرض لا ماء لدىَّ ولا خمر
ترىْ أن ما أنفقت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلت به صفر

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢ و ج ٢ ص ٣٥٢

وقال أبو دؤاد :

سُلِّط الموت والمنون عليهم ... فلهم فى صدى المقابر هام

وقال شدّاد بن الأسود الليثى :

يخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف لقاء أصداء وهام

وقال مَعْلَس الفقعسى :

وأن أخاكم قد عامتم مكانه ... بسفح قنا تسفى عليه الاعاصر

له هامة تدعو إذا الليل جَنّها ... بنى عامر هل للهلالىّ ثائر

ومن العرب من يزعم أن النفس طائر يتبسط فى الجسم ، فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً على قبره . ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم . وهو أبداً مستوحش يألف الديار المعطّلة ، ومصارع القتلى ، والقبور ، وأنها لا تزال عند ولد الموتى ، ومُخلَّفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره[١] .

والعرب يدينون بيوم القيامة ويرتقبونه . ومما يتخذون من العدة له أن يحفروا على جانب من قبر صاحبهم حفيرة ، ويقيموا بها بعيراً ، يعقلونه ، لا يعلفونه ، ولا يسقونه ، حتى يموت . فذلك مركبه يوم القيامة . فان لم يفعلوا له ذلك خرج يوم البعث يسعى حافياً متسكعاً . وهم يسمون هذا البعير بليّة[٢] .

قال قائلهم يوصى ولده :

احمل أباك على بعير صالح ... يوم القيامة ان ذلك أصوب

لا تتركن أباك يسعى خلفهم ... تَعِباً يَخِرُّ على يديه وَيَنْكُب

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢ (٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٤

﴿ ضمان القلوب ﴾

تشق المرأة رداء زوجها ، ويشق برقعها ، ذلك عندهم ضمان الحب ، ووثاق القلوب ! وحُجَّتهم فى ذلك أن ترى المرأة صنيع زوجها ، وهو يرى صنيعها ، فلا تزال تذكره ، ولا يزال يذكرها . وربما تبادلا ثيابهما فلبس كلٌّ بُرد صاحبه ثم لا يزال يعبث بتمزيقه حتى يُبليه[١] . قال سُحَيم بن معبد الأسدى :

فكم قد شققنا من رداء مُحَبَّرٍ ... ومن برقع عن طَفْلَةٍ[٢] غير عانس

إذا شق برد شق بالبرد مثله ... دَوَالَيك حتى كُلُّنا غيرُ لابس

نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى ... وإلْفُ الهوى يغرى بهذى الوساوس

وقال آخر يصف ثوبه مما فعلت به امرأته :

كأن ثيابى نازعت شوك عُرْفُط ... ترى الثوب لم يَخْلَق وقد شُقّ جانبه[٣]

﴿ صنيع المِقْلات ﴾

المقلات المرأة التى اهتصر الموت أبناءها فلم يبق منهم على أحد . تلك المرأة إذا وطئت القتيل الشريف عاش فى زعمهم أبناؤها[٤] . قال قائلهم :

تظل مقاليت النساء يطأنه ... يَقُلْنَ ألا يُلْقَى على المرء مئزر

ولا أحسب ذلك إلا وسيلة مما ابتدعه العرب لإذلال أعدائهم ، فألقوا فى رُوع النساء أن فى ذلك حياطة من الموت فلا يعود إلى انتزاع أكبادهن من بين جوانحهن .

والى تلك السنة أشار الكَميْت بن زيد الأسدى فى مدحه الحسين بن علىّ عليهما السلام[٥] :

---

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢ (٢) الطفلة الفتاة الناعمة والعانس التى طال مكثها فى أهلها دون أن تتزوج (٣) العرفط شجر شائك يقول أن ثيابه مزقت وهى جديدة فى مواطن مختلفة منها كما يمزقها الشوك حين يعلق بها (٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٣ (٥) لسان العرب ج ١٦ ص ١٣٢

وتُطيـــل المرزّآت المقاليـــت اليه القعود بعـــد القيام
يتعرفن حُرَّ وجه عليـــه عِقْبَةُ السَّرْوِ ظاهراً والوِسام[١]

﴿ البثر[٢] فى شفة الصبى ﴾

مما يعمل النساء إذا بُثِرت شفة صبيهن ، أن يُحمّلنه مُنخُلاً فيطوف على بيوت الحى ينادى : الحَلاَ الحَلاَ[٣] الطعام الطعام . فتلقى له النساء كِسَر الخبز وأقطاع التمر واللحم فى المنخل ، فينثر ذلك للكلاب . فأيما كلب أو طفل تناول منه بثرت شفته وبرأ الصبى . قالت امرأة[٤] :

ألا حَلاَ فى شفة مشقوقه فقد قضى منخلنـــا حقوقه

﴿ عمل الشمس فى الأسنان ﴾

كان عمل الصبى والصبية إذا سقطت لأحدهما سنّ ، أن يأخذها بين السبابة والإبهام ، ويستقبل بها الشمس ، ويقول : يا شمس أبدلينى بسنّ أحسن منها ولْتَجْرِ فى ظَلِمها إياتك[٥] . فهنالك تستقى من ضوء الشمس ، فلا يكون سنٌّ أوضأ ولا أدق منها . وذلك المعنىُ بقول طَرَفة :

شادن يجلو إذا ما ابتسمت عن أقاحٍ كأقاح الرمل غُرّ[٦]
بدلته الشمس من منبته بَرَداً أبيض مصقول الأثر

وقوله :

سقته إياة الشمس الا لثاته أُسِفَّ ولم تَكْدُمْ عليه بإثمِدِ[٧]

(١) السرو الشرف والوسام الجمال (٢) البثر خراج صغير (٣) الحلا البثر
(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٤ وبلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٥٧ — ٣٥٨
(٥) شرح ديوان طرفة للشنقيطى . والظلم بفتح الظاء ماء الأسنان وبريقها واياة الشمس ضوءها
(٦) الشادن الظبى والأقاح جمع أقحوان وهو البابونج ولزهره وضح وبهاء وحسن نظام
(٧) اللثات منابت الأسنان وأسف ذر عليه ولم تكدم أى لم تعض والأثمد الكحل يقول أن ثغرها وضاء براق الا لثاتها فهى حواء وذلك ما يتجمل به العرب

٧ — بعض شأنها

﴿ عُرْسُهـــا ﴾

للزواج عند العرب يومان : يوم الإملاك — وهو يوم العَقْد — ويوم البناء — وهو يوم الدخول — . ذلك بعد أن يُقَدِّم القوم بين يدى الأمر ما يروضه ويمهده .

﴿ يوم الاملاك ﴾

فى ذلك اليوم يأخذ ذوو الفتاة زينتهم ، ويجمعون قاصيتهم ، ويَنْتَدُون فى ساحة دارهم ، أو نَدِىِّ عشيرتهم ، وفى صدرهم وَلِىّ صاحبتهم ، مرتديا بُرْدَى حَبَرَة متخَلِّقاً بالخلوق[1] . وهنالك يَقْدُم رجال الفتى ، فيهبطون من أكفائهم ونظرائهم مَهْبِطاً كريماً . حتى إذا اطمأنّ بالقوم المكان ، أنشأ ولىّ الزوج يخطب القوم خطبة رَيِّقة مُونِقَة ، يكشف فيها عما تناجوا به ، وقَدِموا له ، ويقدر فيها المهر عاجله وآجله . ثم يجيبه ولىّ مخطوبتهم بمثلهـــا ، يُضَمِّنها الرضا بالقوم أخدانا ، وبصاحبهم صهرا . حتى إذا انتهيا نُحِرَت الجُزُر ، ومُدَّت المطاعم ، وسُمع الغِناء من مجالس النساء .

وتسمى وليمة ذلك اليوم بالنقيعة .

وصيغة العقد عندهم ، أن يقول الزوج : خِطْبٌ : فيقول ولىّ الزوجة : نِكْحٌ[2]

وذلك حديث ذلك اليوم فى أسرتين من سادات أسر العرب وهاماتهم .

أرسلت خديجة بنت خويلد الى أمين قريش ومأمونها محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليـه — تخطبه وتقول له : انى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحُسْن خُلُقك ، وصدق حديثك . فرجع محمد ، صلى الله عليه وسلم ،

(١) انسان العيون ج ١ ص ١٤٨ — ١٤٩ (٢) تاج العروس ج ١ ص ٢٥١

بالقول الى عمه العظيم الكريم أبى طالب بن عبد المطلب ، فرضيه له ، وأقرّه عليه، لِمَا استقر لخديجة من نُبْل الخُلُق ، وسناء الحياة .

غدا الرسول على خديجة بالرضا ، وبأن القوم غادون فى أثره . فأرسلت فى آلها ، ورجال أسرتها ، واستأذنت عمها ، فأذن لها ، وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه . ثم نهضت اليه ، فخلّقته بالعبير ، وكسته بردى حبرة حمراء . وأقبل القوم من بنى هاشم ، وفيهم كريم فتيانهم ، ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبد الله ، فنزلوا من بنى عمهم أكرم منزل وأسناه . وهنالك تداول الخطابة أبو طالب بن عبد الله سيد قريش وامامها ، وورقة بن نوفل — ابن عمّ خديجة — حَبْر قريش وعالمها . ولما انتهى القائلان نحر محمد — صلوات الله عليه — جَزُورين . وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنّين . واليك نص الخطبتين : —

﴿ خطبة أبى طالب ﴾

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضِئْضِىء[1] مَعَدّ ، وعنصر مُضَر . وجعلنا حَضَنَة بيته ، وسُوَّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجا ، وحرماً آمنا ، وجعلنا حكام الناس . ثم ان ابن أخى هذا ، محمد بن عبد الله ، لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونُبلا ، وفضلاً وعقلا . وان كان فى المال قُلٌّ ، فان المال ظل زائل ، وأمر حائل . وعاريّةٌ مسترجعة . وهو والله بَعْدُ له نبأ عظيم ، وخطر جليل . وقد رغب اليكم ، رغبة فى كريمتكم خديجة . وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونَشا[2] .

---

(١) ضئضىء الشىء معدنه (٢) النش عشرون درهما وهو نصف الأوقية

﴿ خطبة ورقة بن نوفل ﴾

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت . فنحن سادة العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله . لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم . فاشهدوا علىّ معاشر قريش ، أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد ، من محمد بن عبد الله .

وكان ورقة فى موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن أسد عم خديجة ، الذى نهض فقال : اشهدوا علىّ معاشر قريش . أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله ، خديجة بنت خويلد[١] .

وكان من سنة العرب ، اذا خطب الرجل قومه ، أن ينهض واقفاً ، أو يعتلى شَرَفاً من الأرض ؟ أو يتبوأ ظهر راحلته ، إلاّ فى خطبة الأملاك فان شأنه أن يخطبها وهو جالس مطمئن . ذلك لأن المقام مقام دعة وتبسط لا حاجة فيه الى فورة الدم ، وثورة العاطفة ، بما يبذل من تطاول واستشراف ، وقبض وبسط ، وارعاد وابراق .

﴿ المهـــر ﴾

هو صلة الرجل لامرأته ، تأخذه كاملاً غير منقوص لا سبيل لأحد اليه ، ولا سلطان له عليه . لذلك عدوا من اللؤم المؤتشب فى نفس الرجل أن يتخذ حُلْوان ابنته أو مُوَلِّيَتِهِ . وذلك أن يتفق على جزء من المهر يبغيه لنفسه[٢] .

وأعز مهورهم الذهب السبيك ، والأينق العُشَرَاء ، يبذلون منها على قدر مارزقوا من نعمة العيش ، وبسط الغنى . على أن حد ذوى الجاه والسؤدد واليسار

(١) انسان العيون ج ١ ص ١٥٠ (٢) لسان العرب ج ١٨ ص ٢١٩

مائة رطل أو مائة ناقة . وقد يجمع الرجل بينهما . فقد أمهر عبد المطلب بن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب[١].

وليس العرب بالذين يساومون فى المهر قَلَّ أو كثر . وحسبهم من الرجل جهد همته ، وبعد غايته ، وسناء نسبه ، وصفاء ضريبته . فقد نزع لَقِيط بن زرارة شريداً إلى قيس بن خالد ذى الجدين ، كريم العرب ، وأحد ملوكها ، فخطب اليه ابنته ، وتكلم بكلمات كشفن منه عن قلب ذكى ، وأنف حَمِىّ ، ونسب سنىّ . فزوجه الملك ابنته لليلته ، وساق اليها المهر عنه[٢].

أما ذوو الخصاصة فإن بحَسْبِ الرجل أن يسوق إلى امرأته عرضاً مما يباع ويشترى . ومن حديث العرب أن مُهَلْهِلَ بن ربيعة رحل بآل بيته بعد أن استَذَلَّته بَكْر يوم تحلاق اللمم ، فاستجار بمَذْحِج . وهنالك جاءه ناس منهم يقال لهم بنو جَنْب ، فخطَبوا إليه ابنته طمعاً فى أن يَشْرُفوا بشرف قومه ، وينبهوا بوثوق الصلة به ، فأبى ذلك عليهم . ثم سعى اليه مجيروه من مَذْحِج ، وظاهروا جنباً فى خِطْبَتِهم ، وأبصر هو القسر والكريهة منهم ، فنزل لهم عن ابنته ، وساقوا اليه فى مهرها رقاعاً من جلد ، وأفاؤوا بها على فتى من غِمارهم . فقال مهلهل فى ذلك[٣] :

نهنهنى صاحبى فقلت له ... ان الحظوظ جعلن بالقِسَم[٤]
أصبحت لا مَنْفَسًا أصَبْتُ ولا ... أُبْتُ كريماً حرا من الندم
عز على وائل بما لقيت ... أخت بنى الأكرمين من جُشَم
أنكحها فقدُها الأراقم من جنـ ... ـب وكان الحِباء من أدَم[٥]

(١) انسان العيون ج ١ ص ٤٨ (٢) جمهرة الأمثال ص ٢٠١ وسيمر الحديث مفصلا فيما نختاره من أمثال نساء العرب (٣) بكر وتغلب ص ٩١ (٤) نهنه عن الأمر كفه وزجره
(٥) الأراقم حى من تغلب وهم قبيل كليب ومهلهل بن ربيعة والحباء العطاء ويريد به المهر

ليسوا بأكفائنا الكرام ولا يغنون عن عَيْلَةٍ ولا عَدَم
لو بأبانَيْنِ جاء يخطبها ضُرِّج منه جبينه بدم[١]

وربما احترش[٢] الأعرابى ضباً فاحتمله إلى كفيئته فكان ذلك مهرها وعُقدة زواجها . قال أعرابى[٣] :

أمهرتها بعد المِطال ضبّين من الضباب سَحْبَلَيْنِ سَبْطين[٤]
نعم لعمر الله مهر العِرْسَيْن

فذلك مهره الذى أبَرَّ به على غيره ، وتجمل به على صاحبته ، وعده تأنقاً فى البذل وافراطاً فى السماحة . ذلك مهر العروسين .

والعرب يقولون : الأزواج ثلاثة ، زَوْجٌ مَهْرٌ ، وزوجٌ بَهْرٌ ، وزوجٌ دَهْرٌ . أما زوج مَهْرٌ فرجل لاشرف له يُسْنِى المهر لِيُرَغِّب فيه ، وأما زوج بهر فالشريف وان قَلَّ ماله تتزوجه المرأة لتفتخر به ، وأما زوج دهر فذلك الكفء الذى لا عيب فيه[٥] .

﴿ يوم البناء ﴾

لا تجد فى مأثور حياة العرب ومعدود أيامهم ، يوماً أتم بهاء ، ولا أعم صفاء ، ولا أبدع رُواء ، ولا أكثر ضياء ، ولا أجمع للبهيج الهنىّ من محافلهم ، ومعالم أفراحهم — من يوم للبناء . فهنالك يتبارى الفتيان فيلعبون بالرماح . ويتنضلون بالصفاح . ويَسْتَبِقُونَ على متون الخيل . ويأخذون فى الميسر — وهو أداة لهوهم وسنة الندى والكرم فيهم — ويسرحون ويمرحون . ويشربون ويطربون .

أما بين يدى الدار وفى حجراتها ، فهم يبسطون الأنماط ، ويشدونها على الجدران وعليها النقوش المموَّهة والصور المزينة — وتلك التى استنكرها الإسلام

(١) أبانان جبلان تقيم بينهما تغلب (٢) احترش الضب صاده وذلك بأن يحرك يده على باب جحره ليظنها حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه (٣) الحيوان ج ٦ ص ٣٦
(٤) السحبل من الضباب الضخم والسبط الحسن القد والمنظر (٥) المخصص ج ٤ ص ٢٤

واطَّرحها فى أعراس المسلمين[١] — . وعلى النمارق المصفوفة ، والزرابىّ المبثوثة ، يجلس النساء ، ويأخذ فتياتهن فيما عف وظرُف من ضروب اللهو وفنون المرح .

فأما الليل ، فأحسن ما اكتحلت به نواظر العرب حتى جعلوه مضرب أمثالهم فقال قائلهم : ✲ يا ليلةً ما ليلة العروس[٢] ✲

فهنالك تُجْلَى الفتاة ، ويُفْرَغ عليها الحُلِىّ مما تملك وما لا تملك ، لأن قومها يستعيرون لها أمتع ما فى الحى من حَلْى ، بل ربما تجاوزوا حيهم الى ما سواه . فقد استعار عتبة بن ربيعة — وهو فى الشرف الصميم من قومه — حلى بنى أبى الحقيق لتزف فيها ابنته هند على أبى سفيان ورهنهم ابنه الوليد . فأقام بينهم شهراً ثم رد الحلى موفوراً[٣] .

فى ذلك الزِّىّ البهىّ تسير الفتاة فى حشد من لِدَاتها وأترابها حتى يصلن بها إلى حجلتها . فينشىء الإماء يرقصن بين يديها ، ويُغَنِّينها بمآثر آبائها ، والغرّ الميامين من قومها . وفى ذلك الموطن لا يحتجب النساء عن الرجال .

وقد عَبَرَ العرب على سنتهم هذه فى مقتبل العهد الاسلامى . فقد حدث البخارى عن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ بن عفراء أنها قالت : جاء النبى صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُنِى علىَّ فجلس على فراش كمجلسك منى[٤] فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر[٥] ، إذ قالت إحداهن : وفينا نبى يعلم ما فى غد . فقال : دعى هذا وقولى بالذى كنت تقولين[٦] .

ومن مقال النساء لصاحبتهن عند مفارقتها : باليُمن والبركة . وعلى خير طائر .

✲ ✲ ✲

﴿ أما بعد ﴾ فلا يهولنّك ما رأيت من اعتداد القوم بأعراسهم فوق

(١) ارشاد السارى ج ٨ ص ٧٥ (٢) المخصص ج ٤ ص ١٩ (٣) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٧١ (٤) تخاطب راوى الحديث (٥) تريد يتغنين بمآثرهم يوم بدر وكان الذى قتل يوم بدر أبوها وعماها (٦) ارشاد السارى ج ٨ ص ٥٩

اعتدادهم بمواسمهم وأعيادهم . فان العرب على ما تعلم أمة حرب وجلاد . وهم لا يزالون فى وقائع تُبَهْرِج[1] دماءهم ، وتعتصر مهجات نفوسهم ، حتى تخطب القبيلة إلى القبيلة ، فتتخذا من تعاطف الأرحام ، تعاطفاً فى القلوب ، وأسواً للجروح ، وأمنة من الحادثات .

وأخرى أن العرب إذا أكبروا أمر الزواج فانما يكبرون ما تحسر عنه النساء من الأبناء ، وهم عُدَّة الحى ، وغاب الحمى ، وعز العشيرة .

﴿ مناحتها ﴾

لنساء العرب مظاهر من الوفاء كلها حسن جميل إلاَّ ما تعسَّفه الثواكل منهن فى مناحاتهن ومهاجات أحزانهن من توَرُّط فى الجزع واسراف فى البلاء .

والمرأة العربية أحمل الناس لنازلة وأصبرهم على مُلمّة ، إلاّ إذا انتزع الموت منها أليفاً حميماً أو عزيزاً عظيماً . فهى تسير فى شعاب من الأحزان طَلْقةَ العنان بل انها لتضاعف أحزانها ، وتؤرث ضرام حشاها ، بما تنهجه يومذاك من خطة وتشتمل عليه من عادة .

على أن نساء العرب فى مواقف الحزن طبقات بعضها فوق بعض . فهنالك المُتَجَمّلة المؤتزرة بالصبر ، التى تشتفى بالبكاء ، وتكتفى بالرثاء . ثم تأتى بعد هذه الصالقة والشاقة والحالقة .

فالصالقة التى ترفع صوتها وتدعو بدعوى الجاهلية[2] كأن تقول فى ندبة ولدها : وا ولداه ، وا واكبداه ، وفى كبيرها : وا جبلاه ، أو وا عضداه

(١) تبهرج أى تبيح (٢) ذلك من قول رسول الله « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » وفسر القسطلانى دعوى الجاهلية بما بينته لك

والشاقة التى تُنحى على جيب جلبابها[١] شقًّا وتمزيقًا . وبذلك أوصى طرفة اخته بقوله :

إذا مت فانعَينى بما أنا أهله وشقى علىَّ الجيب يا ابنة معبد

والحالقة التى تحلق شعرها فلا تبقى على بقية منه

وأولئك اللواتى لعنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرئ منهن[٢]

ومنهن التى تجعل فى يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها . وإلى هذه يشير عبد مناف بن رِبْع الهُذَلى فى قوله[٣] :

يَرِيع قَلْبَ ابنتَىْ رِبْعٍ عويلُهما لا تَرْقُدَان ولا بُؤسَى لمَن رقدا[٤]

كِلتاهما أُبطِنَتْ أحشاؤها قَصَباً من بطن حَلْبة رَطْباً نَقِدا[٥]

إذا تأوَّب نَوْحٌ قامتا معه ضرباً أليماً بسِبْتٍ يَلْعَجُ الجَلَدا[٦]

كل ذلك أو بعضه مما يفزع اليه الغاليات[٧] اللواتى اهتاجهن الحزن فأسرفن على أنفسهن . فأما ذوات الرأى الجزل والحسب الكريم فهو عندهن مأثمة يأبين أن يقارفنها ويهبطن اليها ، على رغم ما يعالجن من حُرَق وأحزان . وتلك هى الخنساء وما ضُرِب به المثل من تدلهها ، وتصدع قلبها ، واضطرام حشاها ، لم ينزل بها الهلع الى منازل أولئك المسرفات . فلم تحلق شعراً ، ولم تضرب صدراً . وذلك حيث تقول فى رثاء أخيها معاوية :

فلا والله لا تسلاك نفسى لفاحشة أتيت ولا عقوق

---

(١) جيب القميص طوقه (٢) لسان العرب مرددًا فى شرح هذه الكلمات وتيسير الوصول ج ٣ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ (٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٦٣ (٤) ابنتا ربع اختاه وماذا يريعهما عويلهما أى ماذا يرد عليها العويل والسهر (٥) يريد بالقصب المزامير و « كلتاهما أبطنت إحشاؤها قصباً » أى كأن فى جوفهما مزامير من طول ما ترجعان من نوحهما وقوله لا رطباً ولا نقداً أى ليس ذلك القصب بالرطب الذى لا يبين فيه الصوت ولا بالنقد « المتأكل » الذى يسرع اليه العطب (٦) تأوبهن النوح عاودهن فى جنح الليل والسبت النعل ويلعج يؤثر وحرك لام الجلد لضرورة الشعر (٧) الغاليات من الغلو وهو الافراط فى كل شىء

ولكنى رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق

وأشد أثقال المصيبة فى الرجل يلقى على امرأته . فهى تقيم من بعده سنة كاملة لا تمس ماءً ، ولا تُقَلِّمُ ظفراً ، ولا تزيل شعراً[١] .

بل ربما ضاعفت المرأة هذا الشقاء فانتبذت بيتاً صغيراً تقيم فيه عامها بنجوة من الناس ، ولبست شر ما تلبس من الثياب .

واليك ذلك الحديث الكريم فان فيه وفاءً بتلك العادة المُعْنِتة .

حدث البخارى عن حُمَيد بن نافع عن زينب ابنة أبى سَلَمَةَ قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله أن ابنتى تُوُفى عنها زوجها ، وقد اشتكت[٢] عينها أفتكحلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا . مرتين أو ثلاثا . كل ذلك يقول لا . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت احداكن ترمى بالبَعْرَةِ على رأس الحَوْل ، قال حُميد بن نافع : فقلت لزينب وما ترمى بالبعرَة على رأس الحول ؟ فقالت زينب : كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حِفْشًا[٣] ولبست شر ثيابها ولم تَمَسَّ طيباً حتى تمر بها سنة ثم تُؤْتَى بدابةٍ : حمارٍ أو شاةٍ أو طائرٍ فتفتض به[٤] ، فقَلَّما تفتض بشىء إلا مات . ثم تخرج فتُعْطَى بعرة فترمى . ثم تراجع بعدُ ما شاءت من طيب[٤] .

على أن نظرة واحدة فى رواية الحديث ، وسؤال راويه عما يراد منه على قرب عهده بالجاهلية ، تُنْبِئُنا أن تلك العادة لم تكن عامة شاملة فى بطون العرب وشعرها

***

وكان قول النساء اذا حُمِل الميت من بيته ، أو وُورى قبره ، أن يقلن : لا يَبْعَدْ . يردن بذلك أننا أحوج ما نكون اليك فلا تحجب دوننا أثر يمينك

---

(١) القسطلانى ج ٨ ص ٢٠٨ — ٢١١ (٢) اشتكت أى وجعت (٣) الحفش البيت الصغير جداً (٤) تفتض به أى تتمسح بجلده (٤) صحيح البخارى ج ٧ ص ٦٠

ولا نور جبينك . والعرب كَلِفون بأن ينسبوا للميت بعد الموت جميل ما اشتمل عليه من صفات ومَكْرُمات . فهم يقولون أن ربيعة بن مُكَدَّم حمى الظُّعُنَ حيًّا وميتاً ، وان حاتماً نفح ضيوفه وهو فى قبره بما كان يحبوهم به وهو حى[١]

لذلك قال النساء : لا تبعد .

قالت الفارعة بنت شداد فى رثاء أخيها مسعود بن شداد :

أبا زُرَارَة لا تَبْعَدْ فكل فتى ... يوماً رهين صفيحات وأعواد[٢]

وقالت الخِرْنِق بنت بدر :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين همُ ... سُمُّ العُدَاة وآفة الجُزُر[٣]

النازلين بكل معـــترَك ... والطَّيِّبون معـــاقد الأُزُر

وقالت امرأة ترثى ولدها :

بُنِيَتْ عليك بُنىَّ أحوَجَ ما ... كنا اليك صفائحُ الصَّخْر

---

(١) أما حديث ربيعة فقد عرفته ممـا أسلفته وأما حديث حاتم فذلك الذى أسوقه اليك مما حدث ابن الكلبي قال : — مر أبو الخيبرى فى نفر من قومه بقبر حاتم بمكان يقال له (تبعة) وحوله أنصاب نوائح من حجارة كأنهن نساء فنزلوا به فبات أبو الخيبرى ليلته كلها ينادى أقر « أطعم » أضيافك يا أبا جعد فيقال له مهلا ما تكلم من رمة بالية ؟ فيقول أن طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد الا قراه فلمـا كان آخر الليل نام أبو الخيبرى حتى اذا كان فى السحر وثب فجعل يصيح « واراحلتاه » فقال له أصحابه ما لك ؟ قال والله خرج حاتم بالسيف وأنا أنظر اليه حتى عقر ناقتى فقالوا كذبت والله ما خرج قال بلى والله فنظروا الى راحلته فاذا هى مختزلة — مقطوعة — لا تنبعث قالوا والله قد قراكم فظلوا يأكلون لحمها ثم أردفوه وانطلقوا فساروا ثم نظروا الى راكب فاذا هو عدى بن حاتم مقبلا عليهم فقال : أيكم أبو الخيبرى قالوا هذا قال ان حاتماً جاءنى فى النوم فذكر لى شتمك اياه وأنه قرى راحلتك أصحابك وقال لى فى ذلك أبياناً رددها على حتى حفظتها وهى :

أبا الخيبرى وأنت امرؤ ... حسود العشيرة شتامها
فماذا أردت الى رمة ... بداوية صخب هامهـا
تبغى أذاها وأعسارها ... وحولك غوث وأنعامها
وانا لنطعم أضيافنـا ... من الـكوم بالسيف نعتامها

وقد أمرنى أن أحملك على بعير فدونكه فأخذه فركبه وذهب

(٢) الصفيحات أو الصفائح حجارة عراض رقاق . تريد بها القبر وتريد بالاعواد سرير الموت

(٣) العداة جمع عاد وهو العدو والجزر جمع جزور وهو البعير أو الناقة المجزورة . تصفهم بالبأس والكرم

لا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا عَمْرِى[1] إمَّا مضيت فنحن بالإِثْرِ

وقالت أم عمرو بنت مُكَدِّم فى رثاء أخيها ربيعة بن مكدم :

فاذهب فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ من رجل لاقى الذى كلُّ حىّ مثلَهُ لاق

وقال الفرَّار السُّلمى :

ما كان ينفعنى مقال نسائهم — وَقُتِلْتُ دون رجالهم — لا تَبْعَدِ

* * *

وكانت المنادب والمناحات على سادة الحى وأشرافهم سنة كاملة . بذلك أوصى لبيد بن ربيعة ابنتيه فى قوله :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فقوما وقولا بالذى تعلمانه ولا تَخْمِشَا وجهاً ولا تحلقا شَعَر
وقولا هو المرء الذى لا صديقَهُ أضاع ولا خان الأمين ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقداعتذر

حتى إذا لحق لبيد بربه ، نهض ابنتاه بما أمرهما به ، فكانتا تلبسان ثيابهما كل يوم ، وتقصدان إلى مجلس جعفر بن كلاب عظيم عشيرته فترثيانه ولا تُعْوِلان وكذلك أقامتا سنة كاملة ثم انصرفتا[2] .

وإنما أوصى لبيد بنتيه بما أوصاهما ، بعد أن آمن بالله واعتصم بدينه ، لِما اتصف به من الشرف القديم فى قومه ، فلم يشأ أن يرزأهم فيما عف من سننهم ومناهجهم .

---

(١) عمرو ابنها أضافته الى نفسها (٢) الأغانى ج ١٤ ص ٩٨

﴿ تجمّلها ﴾

يحب الرجل العربى من المرأة أن تملأ أقطار عينه طولاً ، وعرضاً ، وامتلاء ، واستواء . وأن تكون إلى كل ذلك كَحْلاءَ ، عيناءَ[١] ، زجّاءَ[٢] ، بلجاءَ[٣] ، بيضاءَ ، شماءَ[٤] ، مأشورةَ[٥] ، فلجاءَ[٦] ، لمياءَ[٧] ، لعساءَ[٨] ، جيداءَ[٩] ، غيداءَ[١٠] ، أثيثة الشعر[١١] ، مُشْرِقة النحر ، مهضومة الخصر[١٢] .

ذلك ما يَرُوع الرجل العربى من جمال المرأة . وذلك ما تحب المرأةُ العربية أن توسم به ، وتُطبع عليه . فإن حُرِمت بعضه تصَنَّعَته ، وتجمَّلت فيه بما لا ينبو الطبع عنه ، ولا يُرَد الطرف دونه .

وتلك التى أوردها عليك ، فنون من التجمل ، كَلِفَ بها اللواتى حُرِمن الكفاية من الجمال .

فهنالك : التكحل ، والتنمُّص ، والتزجيج ، والتفليج ، والتَّلْمِيَة ، والوَشْر ، والوَشْم ، والوصل ، والخِضَاب .

فالتكحُّل أخذ العين بقليل من الكحل تداوياً أو ازدياناً .

وأكثر ما يكون التكحل بالإثمد . وهو حجر أسود إلى حمرة . ومعدنه بأصبهان . وليس فى مذاهب العرب ما يجلو العين ويذهب بأقذائها مثله . ولا تكتحل المرأة إلا بين يدى المرآة .

---

(١) العيناء من العين — بفتح الياء — وهو عظم سواد العين واتساعها (٢) الزجاء من الزجج وهو دقة الحاجبين وطولها (٣) البلجاء من البلج وهو تباعد ما بين الحاجبين وبقاوته من الشعر

(٤) الشماء من الشمم وهو دقة الانف واستواء قصبته فى علو

(٥) مأشورة ذات الأشر — بضم الهمزة والشين — وهو دقة الأسنان وتحزيزها وحدة أطرافها

(٦) الفلجاء من الفلج وهو تباعد ما بين الثنايا والرباعيات (٧) اللمياء من اللمى — بفتح اللام والميم — وهو سمرة فى الشفاه واللثات (٨) اللعساء — من اللعس — وهو سمرة فى حمرة فى الشفة وحدها أو الجسم كله (٩) الجيداء — من الجيد — بفتح الجيم والياء — وهو طول العنق فى حسن ودقة

(١٠) الغيداء — من الغيد — نعومة فى العنق أو فى سائر الجسم (١١) أثيثة الشعر طويلته على حسن فيه وغزارة واسترخاء ١٢) مهضومة الخصر كناية عن رقة وسطها عما يحيط به

قال قائل :

إذا الفتى لم يركب الأهوالا وخالف الأعمام والأخوالا
فأعطِهِ المِرْآة والمِكْحالا واسع له وعُدَّه عِيالا

يقول : أولى بمن لم يقتحم الأهوال أن يكون من ذوات الحجال .

والتنمُّصُ أخذ ما بين الحاجبين من الشعر حتى تُخيِّل للناس البَلَج .

والتزجيج حف ما حول الحاجبين من الشعر واطالتهما بالإثمد .

والتفليج تفريق ما بين الثنايا والرباعيات تشبهاً بالفُلْج من النساء .

والتَّلْمِية خضاب الشفاه واللثات بالإثمد حتى تحكى اللمى .

والوَشْرُ تحزيز الأسنان وتحديدها بمِبْرَد ونحوه مَجْلبة للأُشُر فى الأسنان وأكثر ما يفعل ذلك ذوات السن منهن . لأن الأشر من صفات الحدثات .

والوشم وذلك أن يُوخَزَ ما تشاء المرأة من جسمها بإبرة أو نحوها حتى يسيل الدم ثم يُحْشَى بالنُّؤُر[1] أو النِّيلج أو الكحل حتى يَخْضَرَّ أو يسودّ .

وأكثر ما تَشِمُ المرأة ذراعها وشفتاها ولثاتها ، وقد تجاوزهن إلى غيرهن .

وللمرأة العربية مَشَابِهُ مما تفعل القَرَوِيَّات من نساء مصر من وشم أذرعهن وما سواها بصور النبات والحيوان .

وربما اتَّشَم الرجل بزعم أن الوشم يشد عَضُده ويُقَوِّى دمه .

والوصل أن تصل المرأة شعرها بشَعَرٍ مُعار . وأكثر ما كان يفعل ذلك يهوديّات العرب . وآية ذلك ما حَدَّثَ البخارى عن حُمَيد

(١) النؤر ما تجمع من دخان الشحم

ابن عبد الرحمن انه سمع معاوية بن أبى سفيان عامَ حَجَّ وهو على المنبر وهو يقول — وتناول قُصَّة من شعر كانت بيد حَرَسِىّ — : ما كنت أرى يفعل ذلك إلا اليهود ، أين علماؤكم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل ذلك[١] .

وهناك صوانع من النساء خصصن بذلك وانقطعن له . ففيهن النامصات ، والفالجات ، والواشرات ، والواصلات ، والواشمات . وهن يطفن على النساء مأجورات يكفينهن معاناة ذلك بأيديهنّ . وأولئك اللواتى لعنهن نبى الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام[٢] .

وأما الخضاب ، فأكثر ما يكون بالحناء فى أيديهن وأرجلهن ، وبالكَتَم[٣] الممزوج بالحناء فى رؤوسهن . فذلك أجلب لفُحومة الشعر ونعومته .

وعندهن خليط من الطيب يتضمخن به فيكسب وجوههن حمرة واشراقا ولا يكون ذلك إلا فى ذوات العز والثراء . والعرب يسمون أولئك المتضمخات بالعواتك[٤] .

على أن تصنع الجمال مما يَنِدُّ عن الطبع العربىّ إلا أن يكون كحلا أو طيباً وأكثر ما تُرَى المرأة العربية غانية بجمالها ، أو مغتنية بآلها وخلالها ، أو مشغولة بجدها وأعمالها . بل لقد تواصى الحسيبات من النساء بالاكتفاء بالماء ومن جوامع كَلِمِهنَّ : أطيب الطيب الماء .

---

(١) ارشاد السارى ج ٨ ص ٤٧٥ (٢) ارشاد السارى ج ٨ ص ٤٧٥ — ٤٧٧

(٣) الكتم نبت يخرج فى شواهق الجبال وينبت فى صم الصخور لا يقوم فى استواء بل يتدلى كما تتدلى الخيوط

(٤) العواتك جمع عاتكة ومن ذلك سميت العواتك من النساء

(٤)

فصاحتها وسماحة منطقها

إذا عُدَّت سِمَات الحسن ، وصفات الجمال ، فحسن المنطق أروعها وأبدعها وأملكها للأنفس ، وآخذها بالقلوب . لأن معالم الجمال تستمد روعتها من البدن وحده . فأما جمال الكلام فوسط عدل بين الروح والبدن .

واذا عُرِفت المرأة فى مختلف أطوارها بالإكثار من فضول القول ، والإرسال من حواشيه ، لتبلغ من نفوس جلسائها فان المرأة العربية قد بلغت ذلك وتجاوزته بما ملك أسلوبها من دقة وبراعة ، وسماحة رأى ، وحسن بيان .

ولعل ذلك خير ما مكن لها من نفوس الرجال ، ومهد من أسماعهم ، ووطَّأ من قلوبهم .

لقد كانت المرأة العربية ، وما تكاد تُسامَى فى ارتياد شعاب القول ، وعَجْم أعواده ، وكشف فنونه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه ، فاغتمرت حومة البيان قائلة ناقدة . فان نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول الناقد العليم . وَلَشَدَّ ما أخذت على فحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه . ولها من دقة النقد ، ولطف المأخذ ، ونفاذ الادراك ، وحسن البديهة ، ما جعل لها فى شتات مواقفها الرأى القاطع ، والكلمة الفاصلة .

وستعلم من هذين الشاهدين بُعد شأوها من دقة النقد ، ونفاذ البديهة . وفى تاريخ العرب ما لا يناله العدّ من أمثالهما .

أما الأول ، فما حدثوا أن امرأ القيس ، وعلقمة الفحل ، تنازعا الشعر ، فقال علقمة لصاحبه : قد حكَّمت بينى وبينك امرأتك « أُمَّ جُنْدَب » . قال : قد

رضيت . فقالت لهما : قولاً شعراً ، على روىّ واحد ، وقافية واحدة ، تصفان فيه الخيل . فقال امرؤ القيس قصيدة أولها :

خليلىَّ مُرَّا بى على أُمِّ جُنْدَب ... لِنَقْضِىَ حاجات الفؤاد المعذب

وعارضها علقمة بمثلها ومطلعها :

ذهبتِ من الهِجران فى كل مذهب ... ولم يك حقًّا كل هـذا التجنب

وأنشدها . فحكمت لعلقمة . فقال لها زوجها : بأى شىء غلبته ؟ فقالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهوبٌ وللساق دَرَّة ... وللزجر منه دَفْعُ أخرجَ مُهْذِب[1]

فجَهَدْت فرسك بسوطك ، ومَرَيته بساقك ، وأتعبته بجَهدك . وقال علقمة :

فولى على آثارهن بحاصب ... وعيبة شُؤبُوب من الشد ملهب

فأدركهن ثانياً من عنانه ... بمرّ كمرّ الرائح المُتحَلِّبِ[2]

فلم يضرب فرسه بسوط ، ولم يمره بساق ، ولم يتعبه بزجر . فلم يكن لامرئ القيس من ردّ إلا أن طلقها ! وتلك آية العجز عن مقارعة الحجة بالحجة . أما هى فقد خَلَفَته على صاحبه[3] .

وأما الثانى ، فحديث الخنساء بنت عمرو بن الشريد .

ذلك أن النابغة الذبيانى كان حكماً يحتكم اليه الشعراء فى عكاظ . فكان فيمن تقدم بين يديه الخنساء ، وحسان بن ثابت . فلما أنشدته الخنساء قصيدتها التى تقول فيها :

---

(١) الالهوب اجهاد الفرس فى عدوه حتى يثير الغبار والدرة شبيهة بالسوط والأخرج من الطيور المكاء والمهذب المسرع فى طيرانه أو عدوه . يقول انه اذا قنع الفرس بالسوط وعلاه بالدرة اشتد عدوه حتى كانه الطير (٢) الحاصب ريح شديدة تحمل التراب والحصباء وعيبة الماء مجاوزته السدود والشطوط والشؤبوب الدفعة من المطر ويقال تحلب المطر اذا سال . يقول أن فرسه جاوز الريح الحاصب والمطر المتدافع وأدرك سوابق الخيل غير معنت ولا مجهود (٣) الأغانى ج ٧ ص ١٢١

وان صخراً لمولانا وسيدنا وان صخراً إذا نشتو لَنحَّار
وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال لها : لولا أن أبا بصير « الأعشى » أنشدنى لقلت أنكِ أشعر أهل الأرض . فهاج ذلك جمرة الغضب فى صدر حسان ، وقال للنابغة : أنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ! قال النابغة : بماذا ؟ فقال : بقولى

لنا الجفنات الغرّ يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فيروون أن النابغة قال للخنساء : خاطبيه يا خَناس . فقالت له : أضعفت افتخارك وأنزرته فى ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت : قلتَ الجفنات والجفنات ما دون العشر . ولو قلتَ البيض لكان أكثر اتساعاً . وقلت : يلمعن واللمع شىء يأتى بعد شىء ، ولو قلتَ يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت : بالضحى ولو قلت بالدجى لكان أكثر طُرَّاقاً . وقلت : أسيافنا والأسياف ما دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا كان أكثر . وقلت : يقطرن ولو قلت يَسِلن لكان أكثر . وقلت : من نجدة والنجدات أكثر من نجدة . وقلت : دماً والدماء أكثر من الدم . فلم يحر حسان جواباً . وانصرف عند ذلك مستحيياً[1] .

لذلك كله نهجت المرأة العربية كل مناهج القول ، واستنّت فى جميع ضروبه فأسهبت ، حتى استرقت الأسماع ، وملكت أزمة القلوب ، وأوجزت حتى كشفت عن الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم رجال هم أَمَسُّ الناس به ، وأطولهم لزاماً له ، وأملؤهم قلباً منه ، وهم ملوك القول ، وفرسان البيان ، ومن بينهم بطل حومتهم ، وامام سُنتهم ، علىُّ بن أبى طالب عليه السلام . فلم يبلغ واحد من

(١) شرح شواهد المغنى ص ٩١

وصفه ما بلغت امرأة أعرابية ألمّ عليه الصلاة والسلام بها وهو فى طريقه الى المدينة . فوصفته لزوجها وصفا جعله ملء سمعه وبصره ، ونفسه ، ووجدانه[1].

ولئن اعتز رجال العرب بقوم منهم ضربوا الأمثال ، ونشروا مطارف الحكمة ، وكشفوا قناع الحقيقة ، فان لنسائهم ان يعتززن بفريق منهن لا يقل عن اولئك شأناً ، ولم يتخذ دون مكانهم مكاناً . ومن هؤلاء صُحْر بنت لقمان ، وحَذَام بنت الريان ، وخُصَيلة بنت عامر بن الظّرِب ، وفاطمة بنت الخُرْشب ، وهند وجمعة ابنتا الخسّ الإيادى ، وأمثالهن ونظائرهن ممن تنبو شفار الأقلام دون الوفاء بذكرهن ، وذكر ما كان لهن من كلمة نافذة ، ورأى مسموع .

أما الشعر — وأخصه شعر العاطفة — فهو حديث أنفسهن ، ونجوى ضمائرهن ، ومَبَثّ أوجاعهن ، ومثار سرائرهن ، والمحتكم بألسنتهن احتكامَ الدموع بأعينهن . ويا رب مُهْتاجة هاضها الشوق ، وأضناها الأسى ، فلم يأسُ جراح كبدها ولم يطفىء لهيب حشاها إلاّ بيتان من الشعر جاشت بهما نفسها ، فزفر بهما صدرها ، فجرى بهما لسانها ، ففاضت لهما عيناها ، فسكنت الى حنين الصوت ، واشتفت بنشيج البكاء .

لعلّ انسكاب الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفى نجىّ البلابل

ولئن وقف أبو طالب بن عبد المطلب فناح على أبيه بقصيدة بارعة رائعة ، لقد وقف الى جنبه أخواته الست : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم ، وأميمة وأروى ، فانحسرن عن ست قصائد ، هنّ صبيب المهج ، وذوب القلوب .

وان تبغ المَزيد من القول ، والفُسْحة فى المقارنة ، فدونك فاسمع هذا الحديث : أبو نواس الحسن بن هانىء شاعر الدولة العباسية . وشعره ثمرة نَعْمائها ، ومرآة

(١) وسيمر بك حديث ذلك

حضارتها ، وصفحة أهوائها . ذلك الشاعر المُغْدِق الفيَّاض ، هو الذى يقول : أجهَدْتُ نفسى على أن تقع فى الشعر « عين أُباغ » فامتنعت علىَّ فقلت عيْنَىْ أباغ فذلك حيث أقول[1]

فما نجدت بالماء حتى رأيتها مع الشمس فى عينى أباغ تغور

ذلك قول الشاعر الذى فاق المُحْدَثين نفاذاً فى القول ، ودقة فى الوصف . فاذا وعيته ، وملأت بصرك منه ، فانظر الى قول امرأة من بنى شيبان[2]:

وقالوا شاعراً منكم قتلنا كذاك الرمحُ يَكلَفُ بالكريم

« بعين أُباغ » قاسمنا المنايا فكان قسيمها خير القسيم

ألسنا نرى الكلمة التى تأبَّت على شاعر المهدى والرشيد والأمين ، سيقت الى امرأة من غمار نساء العرب ريقةً رَيّضَة ؟ .

وما عجب ذلك ؟ ! ألم تدفن المرأة فى عين أباغ غصون روضتها ، وليوث غابها ؟ فما لها لا تلين لها ، وتسكن اليها ؟ .

ذلك شأن المرأة العربية فى الشعر . وغلبتها فيه على الرجل ، كغلبة عاطفتها على عاطفته . وأى الرجال يملك أن ينوح على زوجه بمثل ما ناحت به جليلة بنت مرة على زوجها ؟ أوليس ذلك لأنه لا يملك قلباً كقلبها ؟ ولا يشعر بالنار تضطرم بين جوانحه كما تضطرم بين جوانحها ؟ .

أمَا لقد تألقت المرأة العربية فى سماء الشعر ، فنفذ سناها الى أعطاف الصدور ، فانحسرت ظَلماؤها ، وتفرجت ضوائقها . على حين ترك غيرها من نساء الأمم المختلفة — فى متباين أطوارهن ومنشعب ديارهن — أمكنتهن خالية مظامة يرتَدُّ عنها الطرف خاسئاً وهو حسير .

(١) معجم ياقوت ج ٦ ص ٢٥١ (١) لسان العرب ج ١٠ ص ٢٩٩

وعجيبٌ كل العجب أن تنازع المرأة الرجل فى زماننا هذا أمر معقولاته ومجهوداته ، وتدعه يختص نفسه بالشعر ، وهو ثمرة نفسها ، ونسج يدها . ولو شاءت لكان لها فضل الزعامة ، وشرف الإمامة .

ونحن أُولاء بمعونة الله وتوفيقه نجمع لك من نثار نساء العرب نظامهن ما لعل نفسك تزهو به وتسكن اليه .

اثارة من قولها

مأثور من المنثور

١ — بين امرأتين

وافت جمعة وهند ابنتا الخَسّ[١] سوق عكاظ ، فاجتمعتا بين يدى القَلَمَّس[٢] الكنانى . فقال لهما : انى سائلكما لأعلم أيكما أبسطُ لسانا ، وأظهرُ بيانا ، وأحسنُ للصفةِ اتقانا . قالتا سلنا عما بدا لك . فستجد عندنا عقولاً زكية ، وألسنة قوية ، وصفة جلية . قال القَلَمَّس : أىُّ ذكور الخيل أحبُّ اليك ياجمعة ؟ قالت : أُحِبُّ المنسوب جَدُّه[٣] ، الأسيل خَدُّه[٤] ، السريع شَدُّه[٥] ، الطويل مَدُّه[٦] ، الشديدَ هَدُّه[٧] ، الجميلَ قَدُّه . قال القلمّس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : هذا فرس خَلِيق ان طُلب لم يُلْحَق ، وان جورى لم يُسْبَق ، وان بوهِىَ لم يُفَق ، وغيره أحبُّ الىَّ منه . قال : فقولى . قالت : أحبُّ الوثيقَ الخَلْق[٨] ، الكريمَ العِرْق[٩] ، الكثيرَ السَّبْق ، الشديدَ الذَّلْق[١٠] ، يمرُّ من البرق . قال : كلتا كما محسنة . فأىّ إناث الخيل

(١) اختلف العلماء والمؤرخون فى نسب هند وجمعة فمن قائل انهما أختان وانهما ابنتا الخس الأيادى ومن قائل ان هندا هى ابنة الخس وأما جمعة فابنة حابس . ومهما جميعاً حكيمتان يضرب بهما المثل فى جلال الحكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ : من أهل الدهاء والنكراء ومن أهل اللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخس وهى الزرقاء وجمعة بنت حابس — البيان والتبيين نسخة خطية ص ٨٨ — ٩٠ والنكراء — على وزن حمراء — الدهاء . واللسن — بفتح اللام والسين — جودة اللسان . واللقن جودة الفهم (٢) القلمس سيد من سادات كنانة وحكيم من حكماء العرب وكاهن من كهانهم ومما عرف عنه أنه كان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه قالت هند ابنة الخس

اذا الله جازى منعماً بوفائه فجازاك عنى ياقلمس بالكرم

(٣) المنسوب جده أى الذى ينتهى نسبه الى جواد كريم . وكانت العرب تحفظ انساب العتاق من خيلها كما تحفظ ذلك فى رجالها (٤) خد أسيل طويل مسترسل (٥) الشد العدو بسكون الدال

(٦) المد بسط الجسم وارتفاعه

(٧) هد الفرس ضربه الارض بحافره (٨) الوثيق الخلق . المحكم التكوين

(٩) العرق الأصل (١٠) ذلق كل شىء حده وحدته

أحبُّ اليك يا جمعة ؟ قالت : أحبُّ كل حيِيّة الفؤاد ، سَبُوح[١] جَوَاد ، سَلِسَة القياد ، شديدة الاعتماد ، فى الدَّفع والاشتداد ، ذات هِبَاب وثماد[٢] . قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : هذه فرس صاحبها خليق ألا يفوته أمر ، ولا يَهُوله ذُعْر ، اذا شاء كَرّ ، واذا هاب فَرّ ، وغيرها أحبُّ الىَّ منها . قال : فقولى . قالت : أحبُّ الشديدَ أَسْرُها[٣] ، البعيدَ صبرها ، القليل فَتْرُها ، الجميل قدرها ، السريع مَرُّها ، المخوف كَرُّها . قال القلمس : كلتا كما محسنة . فأى ذكور الخيل أبغض اليك يا جمعة ؟ قالت : أبغض كل بليد ، وارم الوريد[٤] ، ذا رِكال شديد[٥] ، لا ينجيك هاربا ، ولا تظفر به طالباً ، ولا يسترك شاهداً ولا غائباً . قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : هذا فرس إمساكه بلاء ، وعلاجه عناء ، وركوبه شقاء ، وغيره أبغض الىَّ منه . قال : فقولى . قالت : أبغض السريع البُهْر[٦] ، البطىء الحصر[٧] ، السُّكَيت الطَّفْر[٨] . قال القلمس : كلتا كما محسنة . فأى النساء أحبُّ اليك يا جمعة ؟ قالت : أحبُّ الغريرة[٩] العذراء ، الرُّعْبوبة العَيطاء[١٠] ، الممكورة اللفاء[١١] ذات الجمال والبهاء ، والسِّتْر والحياء ، البَضّة الرخصة[١٢] كأنها فضة بيضاء . قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت جارية هى حاجة الفتى ، ونُهْيَة الرّضا ، وغيرها أحبُّ الىَّ منها . قال : فقولى . قالت : أحبُّ كل مشبَعَة الخَلْخال[١٣] . ذاتِ شَكَلٍ ودلال[١٤] وظَرْف وبهاء وجمال . قال القلمس : كلتا كما محسنة . فأى النساء أبغض اليك يا جمعة ؟ قالت : أبغض كل سلفع[١٥] بَذِيّة ، جاهلة

---

(١) السبوح من الخيل المسرع فى لطف ولين كأنه يسبح على الماء (٢) الهباب النشاط فى السير والثماد حفر الأرض (٣) الاسر قوة الجسم وأحكام الخلق (٤) الوريد عرق فى العنق

(٥) الركل ضربك الفرس برجلك ليعدو (٦) البهر انقطاع النفس (٧) الحصر الانحباس عن السير

(٨) السكيت الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلبة (٩) الغريرة الطيبة القلب

(١٠) الرعبوبة الفتاة البيضاء الحلوة اللينة الناعمة . والعيطاء الطويلة العنق (١١) الممكورة الممتلئة الساقين فى بياض ولين . واللفاء السمينة الطويلة (١٢) البضة اللينة الجسد الناعمة الجلد الممتلئة . والرخصة اللينة الناعمة كذلك (١٣) اشباع الخلخال كناية عن امتلاء الساق

(١٤) الشكل الجمع بين الحمرة والبياض (١٥) السلفع من النساء الشديدة الصخب السيئة الخلق

غبيّة، حريصة دنيّة، غير كريمة ولا سَرِيّة[١]، ولا سِتِّيرَة ولا حَبِيّة. قال: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: وصفت امرأة صاحبها خليق ألا تصلح له حال، ولا يَنْعَمَ له بال، ولا يُثْمِرَ له مال، وغيرها أبغض الىَّ منها. قال: فقولى. قالت: أبغض المتجرّفة الشوهاء[٢]، المنفوخة الكَبْدَاء[٣]، العِنْفِصُ الوقْصَاء[٤]، الحَمِشَة الزَّلّاء[٥]، التى ان وَلَدَت لم تُنجِب، وان زُجِرت لم تَعتَتِب، وان تركت طفقت تصخب. قال القلمس: كلتا كما محسنة. فأى الرجال أحبُّ اليك يا جمعة؟ قالت: أحبُّ الحُرّ النجيب، السرىّ القريب، السمْح الحسيب، الفَطِن الأريب، المِصْقَع الخطيب، الشجاع المَهيب. قال القلمس: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: وصفت رجلاً سيداً جواداً ينهض الى الخير صاعداً، ويسرك غائباً وشاهداً، وغيره أحب الىَّ منه. قال: فقولى. قالت: أحبُّ الرَّحْبَ الذراع، الطويل الباع، السخىّ النَّفّاع، المنيع الدَّفّاع، الدَّهْمَيَّ[٦] المطاع، البطل الشجاع، الذى يحل باليَفاع[٧]، ويُهين فى الحمد المتاع. قال: كلتا كما محسنة. فأىّ الرجال أبغض اليك يا جمعه؟ قالت: أبغض السَّئَّالة اللئيم، البغيض الزنيم[٨]، الأَشْوَه الدَّميم، الظاهر العُصُوم[٩]، الضعيف الحَيْزُوم[١٠]. قال: كيف تسمعين ياهند؟ قالت: ذكرت رجلاً خَطَره[١١] صغير، وخَطْبه يسير، وعيبه كثير، وأنت ببغضه جدير، وغيره أبغض الىَّ منه. قال: فقولى. قالت: أبغض الضعيف النُّخَاع[١٢]، القصير الباع،

---

(١) السرية الشريفة (٢) المتجرفة الشديدة الهزال (٣) المنفوخة المتسعة البطن. والكبداء المرأة الضخمة الوسط البطيئة المشى (٤) العنفص المرأة البذيئة القليلة الحياء القليلة الجسم الكثيرة الحركة الكثيرة الاختيال والوقصاء القصيرة العنق (٥) الحمشة القليلة اللحم الدقيقة الساق والزلاء الخفيفة الوركين (٦) الدهمى الكريم (٧) اليفاع المرتفع من الارض وانما يحل الكريم باليفاع حتى يرى السارون ناره فيقبلون اليه (٨) الزنيم الشرير أو الدعى الذى ينتسب الى القوم وليس منهم (٩) العصوم بقايا الخضاب (١٠) الحيزوم الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحمق وضيق الذراع (١١) الخطر. القدر والمنزلة (١٢) تريد بالضعيف النخاع العاجز الذى يضيق بالهم ولا يطيقه

الأحمق المِضْياع ، الذى لا يُكْرَم ولا يطاع . فقال : أحسنتما وأجملتما ، فبارك الله فيكما ، ووصلهما وحباهما[١]

٢ — أبلغ الكلام فى أبلغ الكرم

قالت ماوية امرأة حاتم : —

أصابتنا سنةٌ اقشعرَّت[٢] لها الأرض ، واغبرَّ أُفق السماء ، وراحت الإبل حُدْبًا حَدَابير[٣] ، وضَنَّت المَراضع على أولادها فما تَبِضُّ[٤] بقطرة ، وحَلَّقت ألسِنَة[٥] المال ، وأيقَنا بالهلاك . فو الله إنا لفى ليلة صِنَّبْرٍ[٦] بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاغى[٧] صِبْيَتُنا جوعا ، عبد الله وعدىٌّ وسَفَّانة . فقام حاتم الى الصَّبيين ، وقمت أنا الى الصبية . وأقبل يعلّلنى بالحديث . فعرفت ما يريد ، فتناومت . فلما تهوَّرت[٨] النجوم ، اذا شىءٌ قد رفع كِسْرَ البيت[٩] ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ، قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبيْة يتعاوَوْن عُواء الذئاب ، فما وجدتُ معوَّلاً إلا عليك يا أبا عدىّ . فقال أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم ! فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنَائبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها[١٠] . فقال حاتم الى فرسه فوجأ[١١] لَبَّته بمُدْية فخرّ . ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية الى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم نشوى ونأكل . ثم جعل يمشى فى الحىّ يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول هُبُّوا أيها القوم ، عليكم بالنار فاجتمعوا . والتفع فى ناحية ينظر الينا .

---

(١) بلاغات النساء ص ٥٨ — ٦٢

(٢) اقشعرت الارض أمحلت (٣) الحدب جمع أحدب وهو ما دخل صدره وخرج ظهره وانما تظهر الابل كذلك إذا اشتد بها الجوع لا محال المراعى . والحدابير جمع حدبار — بكسر الحاء — وهى الناقة الضامرة أو التى دهب سنامها (٤) تبض تسيل (٥) التحليق وجع يصيب الحلق وتلك كناية بديعة عن الفقر والمسغبة تقول أن المال من ابل وخيل ومال انقطع صوته (٦) ليلة صنبر باردة شديدة الريح (٧) تضاغوا تصايحوا (٨) تهورت انحدرت الى المغرب (٩) الكسر الشقة السفلى من الجُباء (١٠) الرئال — جمع رأل — أولاد النعام (١١) وجأ طعن

فو الله ان ذاق منه مُزْعة[١] وانه لأحوج اليه منا . فأصبحنا وما على ظهر الارض من الفرس الا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نَوَارِ أقلى اللوم والعذلا ولا تقولى لشىء فات ما فعلا
ولا تقولى لمال كنت مهلكه مهلا وان كنت أعطى السهل والجبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة ان الجواد يرى فى ماله سبلا[٢]

٣ — امرأة تصف رسول الله

لما فارق رسول الله مكة مهاجراً الى المدينة ، خرج ومعه صاحبه أبو بكر ورائده عبيد الله بن أُرَيقط . فمروا على خيمة أم معبد — وكانت أمرأة بَرْزة جَلْدَة تحتبى بفِناء الكعبة ثم تسقى وتطعم — فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك . وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتين[٣] . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاة فى كِسْرِ الخيمة ، فقال : ما هذا يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلَّفها الجَهد عن الغنم . قال : هل بها من لبن . قالت : هى أَجْهَدُ من ذلك . قال : أتأذَنين لى أن أحلُبها . قالت : بأبى وأمى أنت ، نعم ! ان رأيت بها من حَلَب فاحلبها . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها وسمَّى الله ودعا لها فى شاتها . فتثاجَّت[٤] عليه ودرَّت واجترَّت . ودعا باناء يَرْبِضُ[٧] الرَّهْط ، فحلب فيه ثَجًّا حتى غلبه الثِّمال[٦] . ثم سقاها حتى رَوِيَت . وسقى أصحابه حتى رَوُوا . ثم شرب آخرهم . وقال : ساقى القوم آخرهم ، فشربوا جميعاً عَلَلاً بعد نَهَل[٨] . ثم أراضوا[٥] . ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدءٍ حتى ملأ الإناء . ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا

(١) أن نافية بمعنى ما والمزعة القطعة من اللحم (٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميدانى ج ١ ص ١٢٣ (٣) أرمل القوم نفد زادهم واسنتوا أصابهم القحط
(٤) تثاجت سالت (٥) يربض الرهط يكفيهم أمداً (٦) الثمال — بكسر الثاء — جمع ثمالة — بضمها — ما يعلو اللبن من الرغوة (٧) إذا استق الانسان مرتين فالأولى النهل والثانية العلل
(٨) أراضوا أى شربوا مرة أخرى

عنها . فقلَّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حُيَّلاً عِجافاً[١] هِزَالاً مُخهن قليل[٢] ولا نُقىً[٣] بهن . فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين هذا يا أم معبد ، والشاة عازبة حِيال ، ولا حَلُوبة فى البيت ؟ فقالت : لا والله ، انه مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . قال : صفيه لى يا أم معبد . فقالت :

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، أبلج[٤] الوجه ، حَسَن الخَلْق ، لم تَعِبه ثُجْلَة[٥] ولم تُزْر به صُقْلة[٦] ، وسيما قسيما ، فى عينيه دَعَج[٧] ، وفى أشفاره وَطَف[٨] ، وفى صوته صَحَل[٩] ، وفى عنقه سَطَع[١٠] ، وفى لحيته كَثَاثة . أحوَرَ[١١] أكحل ، أزجّ ، أقرن[١٢] ان صَمَتَ فعليه الوقار ، وان تكلم سماه وعلاه البهاء . فهو أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه من قريب . حُلْوُ المنطق ، فصل ، لا نزرٌ ولا هذر[١٣] ، كأن منطقة خَرَزات نُظُمٍ يتحدَّرن ، رَبعة ، لا تَشْنَؤه من طول ، ولا تقتحمه العين من قصر . غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قَدًّا . له رفقاء يحُفون به ، ان قال أنصتوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره ، محفود محشود[١٤] ، لا عابس ولا مُفَنَّد . صلى الله عليه وسلم .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ، ولو كنت وافقته لالتمست صحبته ، ولأفعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا .

---

(١) حيلا جمع حائل وهى التى انقطعت عن الحمل وعجاف جمع عجفة — بكسر الجيم — وهى المهزولة

(٢) قلة المخ كناية عن الضعف والهزل (٣) النقا جمع نقاوة — بضم النون — وهى المختار من كل شىء (٤) وجه أبلج وضاء أغر (٥) الثجلة ضخم فى البطن (٦) الصقلة دقة الجسم وشدة نحوله (٧) الدعج شدة سواد العين فى شدة بياضها (٨) الوطف غزارة أشفار العين وطولها

(٩) الصحل شبيه بالبحة فى الصوت لا يكون حاداً (١٠) سطع العنق طوله فى جمال

(١١) أصل الحور أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك الا فى البقر والظباء ثم استعير لعين الانسان اذا غلب سوادها على بياضها (١٢) الأقرن المقرون الحاجبين

(١٣) النزر القليل والهذر الذى لا يعبأ به من القول (١٤) المحفود الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويبادرون الى طاعته والمحشود الذى يحف به من معه

٤ — سناء الرأى وحسن الاستعطاف

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى طيء فريقاً من جنده يقدمهم علىٌّ عليه السلام ، ففزع عديُّ بن حاتم الطائى — وكان من أشد الناس عداء لرسول الله — الى الشام ، فصبّح علىٌّ القوم ، واستاق خيلهم ونَعَمَهم ورجالهم ونساءهم الى رسول الله . فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سَفَّانة بنت حاتم فقالت :

يا محمد ؛ هلك الوالد ، وغاب الوافد . فان رأيت أن تخلّى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ! فان أبى كان سيد قومه : يَفُكّ العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار ، ويُفَرِّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكَلّ[1] ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائباً . أنا بنت حاتم الطائى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا جارية ، هذه صفات المؤمنين حقا . لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه . خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزاً ذل ، وغنيًّا افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال . وامتنّ عليها رسول الله بقومها فأطلقهم تكريماً لها . فاستأذنته فى الدعاء له . فأذن لها . وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببرّك مواقعه ، ولا جعل لك الى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلاّ وجعلك سبباً فى ردها عليه . فلما أطلقها رجعت الى أخيها عديّ وهو بدُومة الجَنْدَل . فقالت له : يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تَعْلَقك حبائله ، فانى قد رأيت هَدْياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالاً تعجبنى : رأيته يحب الفقير ، ويفكّ الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير . وما رأيت أجود ولا أكرم منه . فان يكن نبيًّا فلِلسابق فضلُه ، وان يكن ملكًا فلن تزال فى عز اليمن . فقدم عدى الى رسول الله فأسلم ، وأسلمت سَفانة[2] .

(١) الكل العائل واليتيم (٢) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣ وانسان العيون ج ٢ ص ٢٨٥

٥ — بين نارين

لما قَتَلَ جساس بن مرة كليب بن ربيعة ، وقفت جليلة بنت مرة فى المناحة وقفة تذيب الصخر — وكانت أخت القاتل وزوج القتيل — فقال نساء الحى لأخت كليب : أخرجى جليلة عن مأتمك ، فان فى قيامها شماتة وعاراً علينا عند العرب . فقالت لها : ياهذه ، اخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا ، وشقيقة قاتلنا . فخرجت وهى تجر أعطافها . فلقيها أبوها مُرَّة . فقال لها : ما وراءك يا جليلة ؟ فقالت : ثُكْل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل . وبين ذلك غَرْس الأحقاد ، وتفتُّت الأكباد . فقال لها : أوَ يكفّ ذلك كرم الصفح ، وإغلاء الديات ؟ فقالت : أُمنِيَّةُ مخدوع ورب الكعبة ! أَبالبُدْن[1] تدع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا :— ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ، وفراق الشامت ! ويل غداً لآل مرة ، من الكرَّة بعد الكرَّة ! فبلغ جليلة قولها فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سِترها ، وتَرَقُّب وتْرِها . أسعد الله جَدَّ أختى أفلا قالت نَفْرَة الحياء ، وخوف الأعداء ؟ ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن لُمْتِ فلا ... تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى ... يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرئ لِيمَت على ... شَفَقٍ منها عليه فافعلى
جَلَّ عندى فعل جساس فيا ... حسرتى عما انجلى أو ينجلى
لو بعينٍ فُدِيَت عينى سوى ... أختها فانفقأت لم أحفل

(١) البدن جمع بدنة — بفتح الباء والدال — الناقة أو البقرة تهدى الى مكة ثم اطلقت على كل عظيم جسيم من الابل والبقر

تحمل العين أذى العين كما تحمل الأم أذى ما تَعْتَلى[1]
يا قتيلاً قوض الدهر به سقف بيتىّ جميعاً من عَلِ
هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الأول
ورمانى قتله من كثب رِمْيَةَ المُصْمَى به المستأصَل[2]
يا نسائى دونكن اليوم قد خصنى الدهر برُزْءٍ مُعْضِل
خصنى قتل كليب بلظًى من ورائى ولظى مستقبلِى
ليس من يبكى ليومَيه كمن إنما يبكى ليوم ينجلى
يشتفى المُدْرِك بالثأر وفى دَرَكى ثارىَ ثكلُ المُثْكِلِ
ليته كان دمى فاحتلبوا درراً منه دمى من الكلى[3]
فأنا قاتلة مقتـــولة ولعل الله أن يرتاح لى

٦ — تداوُل الأيام

لما صدع سعد بن أبى وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أتته حُرَقة بنت النعمان بن المنذر فى حفدة من قومها وجواريها — وهن فى زيّها ، عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات — تطلب صِلة . فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال : أيكن حُرَقة ؟ قالت : ها نذا . قال : أنت حُرَقة ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك فى استفهامى ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال لا تدوم على أهلها انتقالاً ، وتُعقبهم بعد حال حالا . كنا ملوك هذا المصر ، يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله ، مدى الإمرة ، وزمانَ الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر ، فشق عصانا ، وشتت شملنا . وكذلك الدهر يا سعد ، انه ليس يأتى قوماً بمسرة ، إلا ويعقبهم بحسرة . ثم أنشأت تقول :

(١) يقال اعتلت الأم أى نهضت بحملها تقول ان العين تحمل أذى أختها كما تحمل الأم راضية أذى حملها أما هى فا عساها تعمل وقد أصيب عيناها معاً . وروى فى هذا البيت : أذى ما تفتلى واذا ما تمتلى غير ان ما بين يديك أوجه وأمثل (٢) الكثب القرب واصمى الرمية اذا أنفذها (٣) الأكحل عرق فى الذراع اذا نُزف لا يرقأ

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصَّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلَّبُ تارات بنا وتَصرف

فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد ! كأنه ينظر إليها حيث يقول :

ان للدهر صولة فاحذرنها لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى معافىً فَيَرْدَى ولقد كان آمناً مسرورا

وحدثوا أن عمرو بن معد يكرب — وكان من قصاد النعمان وزواره — دخل عليها وهى بين يدى سعد ، فلما نظر إليها قال : أنت حُرَقة ؟ قالت : نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بجودات شِيَمك ؟ أين تتابع نعمك ، وسطوات نقمك ؟ فقالت : يا عمرو ، ان للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم ، فتخفضهم بعد رفعة ، وتُفْرِدُهم بعد مَنَعة ، وتذلهم بعد عز . ان هذا الأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره . قالوا : فلما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهى ، وإنما يكرم الكريمَ الكريم[1] .

٧ — صفات فى فقرات

لما قتل الحارث بن ظالم المُرِّىّ ، خالد بن جعفر العامرىّ ، لحق بحاجب بن زرارة التميمى يعتصم به من بنى عامر . فاتبعه رجال منهم . حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تجنى الكمأة ، فتعرفوا منها أمر الحارث ومكانه من حاجب . ثم احتجزوها عندهم . فترقبت حتى أنست غِرَّة من القوم فأفلتت . وانطلقت تعدو إلى حاجب . فاخذت تحدثه حديث القوم . فقال لها : أخبرينى أى قوم أخذوك ؟ قالت : أخذنى قوم يقبلون بوجوه الظباء ، ويدبرون باعجاز النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : فحدثينى مَن فى القوم ؟ قالت : رأيتهم

(١) خزانة الأدب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٢

يغدون على شيخ كبير لا ينظر بماقيه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذلك الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شابًا شديد الخَلْق ، كأن شعر ساعديه حَلَق الدِّرْع ، يَعْذِم[١] القوم بلسانه عذم الفرس العضوض . قال : ذلك عُتْبة ابن بشير بن خالد . قالت : ورأيت كهلاً إذا أقبل ومعه فَتيان يُشْرف القوم اليه ، فإذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه زُرْعة ويزيد . قالت : ورأيت شاباً طويلاً حسناً إذا تكلم بكلمة أنصتوا لها . ثم يؤلون[٢] اليه كما تؤل الشُّول[٣] إلى فحلها . قال : ذلك عامر بن مالك . قالوا : وجاء القوم فكانوا كما قالت وقال[٤] .

٨ — نساء يَصِفْن رجالا

حدث أبو بكر بن دريد قال : كان قَيل[٥] من أقيال حِمْير مُنع الولدَ دهراً ، ثم وُلدت له بنت . فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً عن الناس . ووكل بها نساء من بنات الأقيال يَخْدُمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشأ وأتمّه فى عقلها وكمالها . فلما مات أبوها ملّكها أهلُ مِخْلافها[٦] . فاصطنعت النسوة اللاتى ربَّيْنَها وأحسنت إليهن . وكانت تشاورهن ، ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوماً : يا بنت الكرام ، لو تزوَّجت لَتَمَّ لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فأخذت كل واحدة تصف العذب الهنىّ من صفات زوجها . فقالت : أمهلنى أَنظرْ فيما قلتنّ . فاحتجبت عنهن سبعاً . ثم دعتهن . فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أُمَلّكه رِقّى ، وأبثه باطلى وحقى . فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغْيتى ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شِقْوَتى . على أنه

(١) العذم عض الفرس وهى استعارته لحدة اللسان (٢) أل فى مشيه أسرع
(٣) الشول جمع شائلة وهى ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر (٤) الأغانى ج ١٠ ص ١٨ (٥) القيل الملك من ملوك حمير (٦) المخلاف الكورة أو الأقليم وهو لليمن خاصة

لا ينبغى إلا أن يكون كفؤاً كريماً، يسود عشيرته، ويَرُبُّ[١] فصيلته، لا أتقنع به عاراً فى حياتى، ولا أرفع به شَنَارًا لقومى بعد وفاتى. فعَلَيكُنَّه فابْغِينَه، وتفرقن فى الأحياء، فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحِباء، وعلىّ لها الوفاء. فخرجن فيما وجَّهتهن له — وكُنَّ بناتِ مَقاول ذوات عقل ورأى — فجاءتها احداهن — وهى عَمَرَّطة بنت زُرعة بن ذى خَنْفَر — فقالت: قد أصبت البُغْية. فقالت: صفيه، ولا تُسَمِّيه. فقالت: غيث فى المَحْل[٢]، ثِمال فى الأَزْل[٣]، مفيد مبيد، يصلح النائر، وينعش العاثر، ويَغْمُرُ الندىّ، ويقتاد الأبىّ، عِرْضه وافر، وحَسَبُه باهر. غَضُّ الشباب، طاهر الأثواب. قالت: ومن هو؟ قالت: سَبرةُ بن عَوَّال بن شداد بن الهَمَّال. ثم خلت بالثانية. فقالت: أصبتِ من بغيتك شيئاً؟ قالت: نعم. قالت: صفيه، ولا تسميه. قالت: مُصَامِص[٤] النسب، كريم الحسب، كامل الأدب، غزير العطايا، مألوف السجايا، مُقْتَبَلُ الشباب، خصيب الجناب. أمره ماض، وعشيره راض. قالت: ومن هو؟ قالت: يَعْلَى بن هَزَّال بن ذى جَدَن. ثم خلت بالثالثة. فقالت: ما عندك؟ قالت: وجدته كثير الفوائد، عظيم المرافد[٥] يعطى قبل السؤال، وينيل قبل أن يستنال. فى العشيرة معظَّم، وفى النـدىّ مكرم. جَمُّ الفواضل، كثير النوافل[٦]، بذَّالُ أموال، محقق آمال، كريم أعمام وأخوال. قالت: ومن هو؟ قالت: رَوَاحَة بن حُمَيْر بن مضحى بن ذى هُلَاهِلة. فاختارت يعلى بن هَزَّال فتزوجتَه. فاحتجبت عن نسائها شهراً. ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحباء. وأعظمت لهن العطاء[٧].

---

(١) يرب فصيلته يحفظها ويرعاها ويربيها (٢) المحل الجدب والقحط (٣) الثمال الغياث والأزل الضيق والشدة (٤) المصامص الخالص من كل شىء وهو مصامص فى قومه اذا كان زاكى الحسب خالصاً فيهم (٥) المرافد جمع مرفد — بفتح الميم وضمها — المعونة (٦) النوافل — جمع نافلة — ما زيد على العطاء (٧) امالى القالى ج ١ ص ٨٠ — ٨٢

٩ — مجاذبة الثناء

وصفت أعرابية زوجها بكرم الأخلاق عند أمها فقالت : يا أُمَّه ! منْ نشر ثوب الثناء ، فقد أدى واجب الجزاء . وفى كتمان الشكر جحود لما وجب من الحق ودخول فى كفر النعم . فقالت لها أمها : أى بنية أطبت الثناء ، وقمت بالجزاء . ولم تدعى للذم موضعاً . إنى وجدت مَنْ عَقَل لم يعجل بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار . فقالت : يا أُمه ، ما مدحت حتى اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت . قال الزوج : ما وفيتك حقك ، ولا شكرتك إلا بفضلك ، ولا أثنيت إلا بطيب حسبك ، وكريم نسبك . واللهَ أسأل أن يمتعنى بما وهب لى منك[1] .

١٠ — الكَلِم القِصَار

قيل لهند ابنة الخُسّ : ما مائة من المعز ؟ قالت : مُوَيلٌ يشِفّ الفقر من ورائه : مال الضعيف ، وحرفة العاجز . قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت : قرية لا حِمَى لها . قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت بَخٍ بَخٍ ! جَمال ومال . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد . قيل : فما مائة من الحُمُر ؟ قالت عازبة الليل ، وخزى المجلس . لا لبن فيحلب ، ولا صوف فيُجزّ .

وقيل لها : مَن أعظم الناس فى عينيك ؟ قالت : من كانت لى اليه حاجة .

وقيل لها : الصيف خير أم الشتاء ؟ فقالت : من جعل بؤسًا كأذى[2] .

---

(١) أمالى القالى ج ١ ص ٢٢٥ وبلاغات النساء ص ٨٧ (٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٥١ والبيان والتبيين نسخة خطية ص ٩٠

أمثال[١]

أرسلها النساء فتمثل بها الرجال

﴿ أَغَيْرَةً وَجُبْناً ! ﴾

قالته امرأة من العرب تعير به زوجها . وكان تخلف عن لقاء العدوّ واعتكف فى منزله . ثم بَصُرَ بها تنظر الى قتال الناس فضربها . فقالت : أَغَيْرَةً وَجُبْناً ؟ !

﴿ بَيْتِي يَبْخَلُ لاَ أَنا ﴾

قالته امرأة سُئلت ما ليس فى بيتها . فلما عَزَّ عليها عطاؤه قيل لها : أتبخلين ؟ فقالت : بيتى يبخل لا أنا .

﴿ تَرَى ٱلْفِتْيَانَ كَٱلنَّخْلِ وَمَا يُدْرِيكَ مَا ٱلدَّخْلُ ﴾

يضرب لذى المَنْظَرِ لا خير فيه .

قال المُفَضَّل : أول من قال ذلك عَثْمَة بنت مطرود البُجَلية . وكانت ذات عقل ورأى مسموع فى قومها . وكانت لها أخت يقال لها خَوْد وُسمت بالجمال ، وكرم الخلال ، وأن سبعة أخوة من الازد خطبوا خَوْداً الى أبيها . فأتوه وعليهم الحُلَل اليمانيـة ، وتحتهم النجائب الفُرْه[٢] . فقالوا : نحن بنو مالك بن عُفَيلة ذى النِّحْيين . فقال لهم : انزلوا على الماء . فنزلوا ليلتهم . ثم أصبحوا غادين فى الحُلَل ومعهم ربيبة لهم كاهنة يقال لها الشَّعْثاء . فمروا بوصيدها[٣] ، وكلهم وسيم جميل ،

(١) كل ما أتيت به من الأمثال مرجعه الى كتب الأمثال للميدانى والضبى وأبى هلال

(٢) نجيب فاره وجواد فاره اذا كان كريماً لا عيب فيه

(٣) الوصيد الفناء ومرجع الضمير فى وصيدها الى (خود)

وخرج أبوها فجلسوا اليه ، فرحب بهم . فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شباب . وكلنا يمنع الجانب ، ويمنح الراغب . فقال أبوها : كلكم خِيَار . فأقيموا نر رأينا . ثم دخل على ابنته فقال : ما ترين ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم ، فقالت : زوجنى على قدرى ، ولا تَشْطُط فى مهرى . فان تخطئنى أحلامهم . لا تخطئنى أجسامهم . لعلى أصيب ولداً ، وا كثِرُ عدداً . فخرج أبوها فقال : أخبرونى عن أفضلكم . قالت ربيبتهم الشعثاء : اسمع أخبرك عنهم : هم اخوة ، وكلهم أُسوة . أما الكبير فمالك ، جرىء فاتك ، يُتْعب السنابك[1] ، ويستصغر المهالك . وأما الذى يليه فالغَمْر ، بحر غَمْر[2] ، يقصر دونه الفخر ، نَهْدٌ[3] صَقْر . وأما الذى يليه فعلقمة ، صُلْبُ المَعْجَمة ، منيع المشتمة ، قليل الجَمْجَمة[4] . وأما الذى يليه فعاصم ، سيد ناعم ، جَلْدٌ صارم ، أبىٌّ حازم ، جيشه غانم . وجاره سالم . وأما الذى يليه فثُوَاب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب ، كريم النصاب ، كليث الغاب . وأما الذى يليه فُدُرْك ، بَذُول لما يملك ، عزوب مما يترك ، يفنى ويهلك . وأما الذى يليه فَجَنْدَل ، لقِرنه مُجَدِل ، مقل لما يحمل ، يعطى ويبذل ، وعن عدوه لا يَنكِل . فشاورت أختها فيهم . فقالت أختها عَثْمة : ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل . اسمعى منى كلمة : أن شر الغريبة يعلَن ، وخيرها يدفن ، تزوجى فى قومك ، ولا تغررك الأجسام . فلم تقبل منها . وبعثت الى أبيها : زوجنى مدركا . فتم ذلك على مائة ناقة ورعاتها . وحملها مدرك . فلم تلبث عنده إلا قليلاً حتى صَبَّحَهم فوارس من بنى مالك بن كنانة . فاقتتلوا ساعة . ثم انكشف عنها زوجها واخوته وعشيرته . فسبيت فيمن سبين من النساء . فبينا هى تسير بكت . فقالوا : ما يبكيك ؟ أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قبح الله جمالاً لا نفع معه . انما أبكى على عصيانى أختى فى

(١) السنابك — جمع سنبك كقنفذ — أطراف حوافر الخيل تصفه بالشجاعة ومعاناة الحروب
(٢) الغمر الماء الكثير ومعظم البحر (٣) النهد الأسد (٤) صلب المعجمة عزيز النفس ، ومنيع المشتمة لا يجرأ أحد أن يشتمه لأنه لا عيب فيه والجمجمة ألا يبين كلام الرجل

قولها : ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل ! وأخبرتهم كيف خطبوها . فقال لها رجل منهم يكنى أبا نُوَاس — شاب أسود أفوه مضطرب الخَلْق — : أترضين بى على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترين ليمنع الحليلة ، وتتقيه القبيلة . قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال . قد رضيت به . فزوجوها منه .

﴿ لَا تَأْمَنِي ٱلْأَحْمَقَ وَفِي يَدِهِ سِكِّينٌ ﴾

قالته امرأة من بنى كنانة .

﴿ رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَٱنْسَلَتْ ﴾

يضرب لمن يرمى الناس بعيبه .

قالته امرأة لضرتها . وكانت الضرة تشتم النساء بعيب هو فيها . فلما بادأتها به قالت لِمَن حولها من النساء : رمتنى بدائها وانسلّت .

﴿ صَارَتِ ٱلْفِتْيَانُ حُمَماً[1] ﴾

من قول الحمراء بنت ضَمْرَة بن جابر .

وذلك ان بنى تميم قتلوا سعد بن هند ، أخا عمرو بن هند الملك . فنذر عمرو ليَقْتلن بأخيه مائة من بنى تميم . فجمع أهل مملكته ، فسار اليهم . فبلغهم الخبر . فتفرقوا فى نواحى بلادهم . فأتى دارهم فلم يجد إلا عجوزاً كبيرة — وهى الحمراء بنت ضمرة . فلما نظر اليها والى حُمْرَتها قال لها : انى لأحسبك أعجمية ! فقالت : لا والذى أسأله أن يَخفض جناحك ، ويَهُدَّ عمادك ، ويضع وسادك ، ويسلبك بلادك ، ما أنا بأعجمية . قال : فمن أنت ؟ قالت : أنا بنت ضمرة بن جابر ،

---

(١) الحمم الفحم

ساد مَعَدًّا كابراً عن كابر ، وأنا أُخت ضمرة بن ضمرة . قال : فمن زوجك ؟ قالت : هَوْذَة بن جَرْوَل . قال : وأين هو الآن ؟ أما تعرفين مكانه ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعلم مكانه حال بينى وبينك ! قال : وأى رجل هو ؟ قالت : هذه أحمق من الأولى ، أعن هوذة يُسْأَل ؟ هو والله طيب العِرق ، سمين العَرق[1] ، لا ينام ليلة يُخاف ، ولا يشبع ليلة يُضَاف ، يأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد . فقال عمرو : أما والله لولا انى أخاف أن تلدى مثل أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك . فقالت : وأنت والله لا تقتل الا نساء أعاليها ثُدِىّ ، وأسافلها دُمِىّ[2] . والله ما أدركتَ ثارا ، ولا محوت عارا ، وما مَنْ فَعلتَ به هذه بغافل عنك . ومع اليوم غد . فأمر باحراقها . فلما نظرت الى النار قالت : أَلَا فتى مكانَ عجوز ؟ ! فذهبت مثلاً . ثم مكثت ساعة فلم يَفْدِها أحد . فقالت : هيهات ! صارت الفتيان حُمَماً . فذهبت مثلاً . ثم ألقيت فى النار . ولبث عمرو عامة يومه لا يقدر على أحد . حتى اذا كان فى آخر النهار أقبل راكب يسمى عماراً ، تُوضِعُ به راحلته . حتى أناخ اليه . فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا رجل من البَرَاجم . قال : فما جاء بك الينا ؟ قال : سَطْع الدخان ، وكنت طويتُ منذ أيام فظننته طعاماً . فقال عمرو : ان الشقىّ وافِدُ البراجم . فذهبت مثلاً . وأمر به فأُلقِىَ فى النار . فقال بعضهم : ما بلغنا أنه أصاب من بنى تميم غيره ، وانما أحرق النساء والصبيان .

﴿ لَا تَعْدَمُ ٱلْحَسْنَاءُ ذَامًا[3] ﴾

قالته حُبَّى بنت مالك العَدْوَانية

﴿ لَا عِتَابَ عَلَى ٱلْجَنْدَلِ ﴾

(١) العرق — بفتح العين — العظم الملبس باللحم (٢) الدمى جمع دم (٣) الذام العيب

يضرب فى الأمر اذا وقع لا مرد له

وأصله ما حدثوا أن إحدى ملكات سبأ ، وفد اليها قوم يخطبونها . فقالت : لِيَصِف كل رجل منكم نفسه وليَصْدق وليوجز . لأَتقدَّم ان تقدمت ، أَو أَدَع ان تركت على علم . فتكلم رجل منهم يقال له مدرك فقال : ان أبى كان فى العز الباذخ ، والحسب الشامخ . وأنا شَرِس الخليقة ، غير رعْدِيد عند الحقيقة[١] . قالت : لا عتاب على الجندل . فأرسلتها مثلاً ، ثم تكلم آخر منهم يقال له ضَبيس ابن شَرِس ، فقال : أنا فى مال أثيث ، وخُلُق غير خبيث ، وحسب غير عَثيث ، أحذو الفعل بالفعل ، وأجزى القرض بالفرض[٢] . فقالت : لا يَسُرُّك غائباً ، مَنْ لا يَسُرُّك شاهداً . فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم يقال له شَمَّاس بن عباس . فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندى والباس . حَسَن الخُلُق فى سجية ، والعدل فى قضية . مالى غير محظور على القُلّ والكُثر ، وبالى[٣] غير محجوب على العسر واليسر . قالت : الخَيْرُ مُتَّبَعٌ ، والشَّرُّ مَحْذُور . فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضبيس : لن يستقيم معكما معاشرة لعشير حتى يكون فيكما لين العريكة . وأما أنت يا شماس فقد حللت منى محل الأَهْزع[٤] من الكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدمائة خلقك ، وكرم طباعك . ثم اسْعَ بِخَيْرٍ أَوْدَع . فأرسلتها مثلاً وتزوجت شَمَّاساً .

﴿ تَرَكَ الْخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ ﴾

قالته امرأة من كندة يقال لها عصام .

وأصله ما رووا أن الحارث بن عمرو ملك كندة ، لما بلغه جمال خُمَاعة ابنة

(١) الرعديد الجبان المستطار القلب والحقيقة ما يحق على المرء أن يحميه وقد يريدون بها اللواء

(٢) القرض القطع والفرض الحز يريد أنه لا يصبر على ضيم بل يجزى الشر بأشد منه

(٣) البال رخاء العيش (٤) الأهزع خير السهام وأفضلها تدخره لشديدة

عوف بن مُحَلِّم الشيبانى وكمالها ، وقوة عقلها ، دعا عصام — وكانت امرأة ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان — وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف . فذهبت . وأبصرت من جمال الفتاة ، وروعة أدبها ، وكمال شمائلها ، ما ملك عليها بصرها وسمعها وقلبها . فخرجت وهى تقول : ترَكْ الخداع من كشف القناع ثم انطلقت الى الحارث ، فلما رآها مقبلة قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صَرَّح المَحْضُ عن الزَّبدُ[1] . فسار كلتا الجملتين مثلاً . ثم حدثته حديثها ، ووصفتها له أبدع وصف وأبينه وأتقنه ، فأرسل الملك الى أبيها فخطبها فزوجها إياه . وقد أسلفنا حديث خِطبتها ، ووصية أمها لها .

﴿ كُلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيهَا مُعْجَبَةٌ ﴾

يضرب فى عجب الرجل برهطه وعشيرته .

وأول من قال ذلك العَجْفَاء بنت علقمة السعدى ، وذلك أنها وثلاث نسوة من قومها خرجن فاتّعدن بروضة يتحدثن فيها . فوافين بها ليلاً فى قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة مُعْشِبة خصبة . فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة ، ولا كهذه الروضة روضة ، أطيبَ ريحاً ، ولا أنضر ، ثم أفضن فى الحديث فقلن : أى النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخَرُود[2] ، الودود ، الولود . قالت الأخرى : خيرهن ذات الغَناء ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفوع غير المنوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة ، الرافعة لا الواضعة . قلن ؛ فأى الرجال أفضل ؟ قالت احداهن خيرهم الحَظِىُّ الرضىُّ ، غير الخطّال ، ولا التبّال[3] . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب

(١) المحض اللبن الخالص والزبد رغوة اللبن يضرب المثل للصدق بعد الخبر
(٢) الخرود الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة المستترة
(٣) الخطال المقتر الذى يحاسب أهله بما ينفق عليهم والتبال الشديد العداوة الكثير الترات

العميم ، والمجد القديم ، قالت الثالثة : خيرهم السخىّ الوفىّ ، الرضىّ ، الذى لا يُغير الحرة ، ولا يتخذ الضرة . قالت الرابعة : وأبيكن ، أن فى أبى لنعتكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق . والفَلْج[١] عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق ، قالت العجفاء عند ذلك : كلُّ فَتَاة بأبيها مُعْجَبة .

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبى يكرم الجار ، ويعظم النار ، وينحر العشار ، بعد الحوار ، ويحمل الأمور الكبار . فقالت الثانية : إن أبى عظيم الخَطَر ، منيع الوَزَر ، عظيم النَّفَر ، يحمد منه الوِرْد والصَّدَر[٢] . فقالت الثالثة : إن أبى صدوق اللسان ، كثير الأعوان ، يروى السنان ، عند الطعان . قالت الرابعة : إن أبى كريم النزال ، مُنِيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال . ثم تنافرن الى كاهنة معهن فى الحى فقلن لها : اسمعى ما قلنا ، واحكمى بيننا واعدلى . ثم أعدن عليها قولهن . فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة[٣] ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة . ولكن اسمعن قولى : خير النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع الى أهلها مطلقة . فهى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها . فتلك الكريمة الكاملة . وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل ، كثير النَّفَل[٤] . ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجبة .

﴿ لَوْ تُرِكَ ٱلْقَطَا لَيْلاً لَنَام ﴾

يضرب لمن حُمِلَ على مكروه من غير إرادته .

وأول من قاله حَذَامِ بنت الريان . وذلك إن عاطس بن خِلَاج سار الى أبيها

---

(١) الفلج الفوز والسبق (٢) الورد الاشراف على الماء والصدر العودة من الاستقاء
(٣) الماردة العاتية (٤) النفل العطية

فى حِمْير وخَثْعَم وجُعْفِىّ وهَمْدَان . ولقيهم الرَّيان فى أربعة عشر حيا من أحياء اليمن ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم تحاجزوا . وإن الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هُرَّاباً ، فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح عاطس فغدا لقتالهم فاذا الأرض منهم بلاقع ، فجرد خيله ، وحثّ فى الطلب ، فانتهوا الى عسكر الريان ليلاً ، فلما كانوا قريباً منه ، أثاروا القطا ، فمرت بأصحاب الريان ، فخرجت حذام بنت الريان الى قومها فقالت :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لناما

أى إن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا الى قولها ، وأخلدوا الى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام دَيْسَم بن طارق وقال بصوت عال :

إذا قالت حَذَامِ فصدقوها فان القول ما قالت حَذَامِ

وثار القوم ، فلجَئوا الى واد قريب منهم ، فانحازوا به حتى أصبحوا ، وامتنعوا منهم

﴿ مَرْعًى وَلَا كَالسَّعْدَان ﴾

يضرب للشىء يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد . وذلك أنها أقبلت من الموسم — فى عكاظ — فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة . فعرَّجت عليها وهى تنشدهم مراثى فى أهل بيتها . فلما دنت منها قالت : على مَنْ تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا . قالت : أنشدينى بعض ما قلت ، فأنشدت هند أبياتاً أسلفناها . فقالت الخنساء مرعًى ولا كالسَّعدان .

﴿ مَاءٌ وَلَا كَصَدَاءٍ ﴾

يضرب للرجلين لهما فضل ولكن أحدهما أفضل .

والمثل لقَذُورَ بنت قيس بن خالد ذى الجدين الشيبانى . وكان من حديثها أن زُرَارة بن عُدُس رأى ابنه لقيطاً يختال ، فقال له : كأنك أصبت ابنة قيس بن خالد ومائة من هجان المنذر بن ماء السماء ! فخلف لقيط لا يَمَسّ الطيب ، ولا يشرب الخمر ، حتى يصيب ذلك . فسار حتى أتى قيس بن خالد — وهو سيد ربيعة — وكانت عليه يمين لا يخطب انسان اليه علانية إلا أصابه بسوء . فخطب اليه لقيط فى مجلسه ، وقال : عرفت أنى أن أُعالنك لم أشِنك ، وان أُناجك لم أخدعك ، فزوجه بنته القذور ، وساق المهر عنه وهداها اليه من ليلته ، فاحتمل بها الى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل الى أهله . فقالت : أَلقَى أبى وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كونى له أَمة يكن لك عبداً ، وليكن أطيب طيبك الماء . إنه فارس مُضَر ، ويوشك أن يقتل . فان كان ذلك فلا تخمشى لك وجهاً ، ولا تحلقى شعراً ، فقتل لقيط ، فاحتملت إلى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم فجعلت تكثر ذكر لقيط ، فقال لها : وأىَّ شىءٍ رأيت منه كان أحسن فى عينك ؟ قالت كل أموره حَسَن . ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد فى يوم دَجْن[1] وقد تطيب وشرب ، فرجع إلىَّ ولقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أطرافه . . . فسكت عنها . حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرع من الصيد ، وأتى وبه نضح من الدم والطيب . فقال لها : كيف ترَينى ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : ماءٌ ولا كصدَاءٍ

(١) الدجن المطر الكثير

عيون من الشعر

﴿ فى الحَنين الى الوطَن ﴾

١ — قالت أم موسى بنت سِدْرَة الكِلاَبية — وكانت تزوجت فنُقِلت الى حُجْر[١] —:

قد كنت أكره حُجْراً أن أموت بها ... وأن أعيش بأرض ذات حيطان
يا حبذا الغُرَق[٢] الأعلى وساكنه ... وما تضمن من ماء وعيـــدان
أبيت أرقب نجم الليل قاعدة ... حتى الصباح وعند الباب عجلان[٣]
لولا مخافة ربى أن يعاجلنى ... لقد دعوت على الشيخ ابن حَيَّان[٤]

٢ — جلست امرأة ضبية تسمى زينب أم حسانة، على بركة فى روضة بين الرياحين والأزهار، فى ألطف وقت وأبهجه — وكانت قد احتملت من البادية الى الحضر — فقيل لها: كيف حالك هنا؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية؟ فأطرقت ساعة، ثم تنفست وقالت[٥]:

أقول لِأدنى صـــاحبىَّ أُسِره ... وللعين دمع يُحْدِرُ الكحلَ ساكبُه
لعمرى لنهر باللِّوَى نازح القذى ... بعيد النواحى غير طَرْقٍ مشاربه[٦]
أَحَبُّ الينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... لِلعب ولم تَمْلُحْ لدىَّ مَلاعبه
فيا حبذا نجد وطيب ترابه ... إذا هضبته بالعشىّ هواضبه[٧]

---

(١) بلاغات النساء ص ١٩٦ وحجر قرية نابهة من قرى اليمن (٢) الغرق موطن بالميمن من مواطن همدان (٣) تصف ديار حجر وما يرتبط بأبوابها من الماشية أما فى البادية فليس الا النجائب من خيل وابل (٤) ابن حيان أبوها (٥) محاضرات الادباء ج ٢ ص ٢٧٧
(٦) اللوى ما التوى من الرمال والنازح القذى الصافى الذى لا يشوبه كدر والطرق الماء الذى خاضته الابل وبالت فيه (٧) هضبت السماء فاضت والهاضبة السحابة

وريح صبا نجـدٍ إذا ما تنسَّمت ضحى أو شرت جُنْحَ الظلام جَنائبُه[١]
وأقسم لا أنساه ما دمت حيـة وما دام ليل من نهار يعاقبه
ولا زال هـذا القَطْرُ يُسْفِر لوعة بذكراه حتى يترك الماء شاربه

٣ — وقالت وجيهة بنت أوس الضبية[٢]:

وعاذلةٍ تغـدُو عليَّ تلومنى على الشوق لم تَمْحُ الصبابةمن قلبى[٣]
فما لى إن أحببت أرض عشيرتى وأبغضت طَرْفاء القُصَيبة من ذنب[٤]
فلو أن ريحاً بَلّغَت وَحْىَ مرسل حَفِيّ لناجيتُ الجَنُوبَ على النَّقْب[٥]
فقلت لهـا أدى اليهم رسالتى ولا تخلطيها طال سَعدُك بالتُّرْب[٦]
فانى إذا هَبَّت شَمالاً سألتها هل ازدادصَدَّاح النُّمَيرَة مِن قُرْب؟[٧]

البكاء

﴿ بكاء الأبناء ﴾

٤ — قالت أم تأبط شرا ترثى ولدها[٨]:

طاف يَبغى نَجْوَةً مِنْ هـلاك فهلك
ليت شِعرى ضِلّةً أىُّ شىء قتلك
أمريض لم تُعَد أم عَـدُوٌّ خَتَلَك

(١) الجنائب ريح تهب من مطلع سهيل — فى الجنوب — الى مطلع الثريا (٢) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ١٨٧ (٣) الصبابة رقة الشوق (٤) الطرفاء صنوف من الشجر منها الأثل . والقصيبة الموطن الذى نزلت به (٥) الحفى المكثر من السؤال . والنقب الطريق بين الجبلين
(٦) طال سعدك جملة معترضة للدعاء للريح ولا تخلطيها بالترب أى لا تذليها أو لا تجرى عليها ذيولك فتنسيها
(٧) يظهر من مساق القول أن ريح الجنوب كانت تجتاز مقرها الذى هبطت اليه الى ديار عشيرتها . لذلك حملتها رسالتها وكانت الشمال تستقبلها من منازل قومها . ولذلك سألتها عما استعجم عليها من أخبارهم . والصداح من الصدح وهو اختلاط الصوت بعضه ببعض ولعل النميرة ماء من مياه وطنها وتريد بالصداح ما يحدث حين يصدر القوم عن مشاربهم من اختلاط أصوات الرعاة بماشيتها (٨) شرح الحماسة للخطيب التبريزى ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٢

أم تولَّى بك ما غال فى الدهر السُّلَك[١]
والمنايا رَصَـــد للفـــتى حيث سَلَك
أىُّ شىء حَسَنٍ لفتى لم يَكُ لك
كلُّ شىء قاتلٌ حين تَلْقَى أجلك
طال ما قد نِلتَ فى غيرِ كَـــدٍّ أمَلَك
إن أمراً فادحاً عن جوابى شَغَلَك
سأُعَزِّى النفس إذ لم تجِبْ مَن سألك
ليت قلبى ساعةً صَبْرَهُ عنك مَلَك
ليت نفسى قُدِّمَت للمنـــــايا بَدَلَك

٥ — وقالت امرأة ترثى طفلها. وكانت قد سافرت به. فلما كانت ببعض الطريق فاضت نفسه[٢]:

يا عَمرو ما لى عنك من صبرِ يا عمرو يا أسَفى على عمرو
للهِ يا عمرُو وأىَّ فتى كَفَّنْتُ يوم وضعت فى القبر
أحثو التراب على مَفارقه وعلى غَضَارة وجهه النَّضْرِ
حين استوى وعلا الشباب به وبدا منـــير الوجه كالبدر
ورجا أقاربه منافعـــــه ورأوا شمـــائل سيد غَمْر[٣]
وأهَمَّـــهُ هَمّى فساوَرَه وغدا مع الغادين فى السَّفْر[٤]
تغـــدو به شَقْراء ساميةٌ مَرَطَى الجزاء شديدة الأسر[٥]

(١) السلك فرخ القطا أو الحجل وللثانى منها حرص شديد وحذق باخفاء نفسه اذا أبصر الخطر . على أن الموت يغلبه . لذلك تقول لولدهـا أن الموت الذى اغتال السلك فى جوه تفذ اليك في مأمنك
(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٨ — ١٠ من هامش العقد الفريد (٣) الغمر الكريم الأصل الكريم الخلق (٤) أهمه الأمر شغله وحزنه وساوره أخذ برأسه والسفر الركب المسافر
(٥) تريد بالشقراء فرسه والشقرة فى الخيل حمرة فى لونه المضاف اليها المغرة — بضم الميم — وهى خضاب أحمر فى عرفه وذنبه والمرطى السريعة

ثَبْتُ الجنـــان به ويُقْدِمُها فَلْجٌ يُقَلِّبُ مقلتىْ صَقْرِ (١)
ربيتـــه دهراً افَنِّقُه فى اليُسر أغذوه وفى العُسر (٢)
حتى اذا التأميـل أمكننى فيـــه قُبَيل تلاحق الثَّغْرِ (٣)
وجعلت من شغفى أُنقِّلُهُ فى الأرض بين تنائفٍ غُبْرِ (٤)
أَدَعُ المزارع والحصون به وأُحِلُّهُ فى المَهْمَهِ القَفْرِ (٥)
ما زلْتُ أُصْعِدَهُ وأُحْدِرُه من قُتْرِ مَوْماة الى قُتْرِ (٦)
هرباً به والموت يطلبـــه حيث انتَوَيْتُ به ولا أدرى (٧)
حتى دُفِعتُ به لمصرعه سَوْق المعيز تساق للعَتْرِ (٨)
ما كان إلا أن هَجَعْتُ له ورمى فأغفَى مطلَعَ الفجر (٩)
ورمى الكرى رأسى ومال به رمس يُسَاور منه كالسكر (١٠)
إذ راعنى صوت هببت به وذُعِرْتُ منـــه أيَّما ذُعْرِ
وإذا منيَّتُـــه تُسَاوره قد كَدَّحت فى الوجه والنحر
وإذا له عُلَقٌ وحشرجة مما يَجِيش به من الصدر
والموت يقبِضُهُ ويبسُطه كالثوب عنـد الطى والنشر

---

(١) ثبت الجنان صفـة للفرس أى أنه ألهمها ثبات القلب فلا تضطرب فى سير ولا ترتاع من مخوفة ويقدمها أى يسبق بها والفلج الظفر والسبق وهو هنا على حذف مضاف أى ذو فلج تريد ولدها وانما شبهت عينيه بعيني الصقر لما يلوح عليهما من مخايل القوة والسيادة . أقول وكل هذه الآيات الخمسة مضافة الى حين أما متعلق الظرف فمحذوف والتقدير أتموت حين تم لك كل ذلك

(٢) أفنقه أنعمه (٣) تلاحق الثغر اكتمال الأسنان (٤) التنائف جمع تنوفة — بفتح التاء — وهى الأرض الواسعة البعيـدة الأطراف أو الفلاة لا ماء فيها (٥) المهمة كالتنوفة والقفر الأرض التى لانبات فيها (٦) القتر الناحية أو الجانب والموماة الفلاة الواسعة (٧) انتويت أقمت (٨) العتر الذبح

(٩) الهجوع النوم الخفيف ومثله الأغفاء ورمى بمعنى ترامى أى تخاذلت أعضاؤه ومطلع الفجر ظرف للأفعال قبله تقول لم يكن الا ان أغفيت وأدركه الاعياء لدى مطلع الفجر فنام حتى حدث ما وصفته فى الأبيات التالية

(١٠) الرمس الصوت الخفى الذى لايكاد يبين

فدعا لأنصره وكنت له ... من قبل ذلك حاضر النصر
فعجزت عنه وهى زاهقة ... بين الوريد ومدفع السَّحْرِ
فمضى ! وأىَّ فتى خُمْتُ به ... جَلّتْ مصيبته عن القدر
لو قيل تفديه بذلت له ... مالى وما جَمَّعت من وَفْرِ
أو كنت مقتدراً على عُمرى ... آثرته بالشَّطْرِ من عُمرى
قد كنت ذا فقر له فغدا ... ورَمى علىَّ وقد رأى فقرى
لو شاء ربى كان متعنى ... يا بنى وشد بأزره أزرى
بُنِيَت عليك بُنَىَّ أحوجَ ما ... كنَّا اليك صفائحُ الصخر
لا يُبْعِدَنك الله يا عَمرى ... إمَّا مضيت فنحن بالإثْر
هذى سبيل الناس كلهم ... لا بد سالِكُها على سَفَرِ
أوَ لا تراهم فى ديارهم ... يتواقعون وهم على ذعر
والموت يوردهم مواردهم ... قسراً فقد ذَلُّوا على القَسْرِ

٦ — وقالت أم بِسطام بن قيس الشيبانى ترثى ولدها بسطاما[1] :

لِيَبْكِ ابنَ ذى الجدين بكْرُ بن وائل ... فقد بان فيها زينها وجمالها
اذا ما غدا فيها غَدَوا وكأنهم ... نجوم سماء بينهن هلالها
فللَّهِ عيناً من رأى مثله فتى ... اذا الخيل يوم الرَّوع هَبَّ نزالها
عزيز مِكَرٌّ لا يُهَدُّ جناحه ... وليث اذا الفتيان زَلَّت نِعالها[2]

(١) ذيل ديوان الخنساء ص ١٢٠ — وكان بسطام من خير سادات العرب بيتاً وأعزهم قبيلاً وكان مضرب الأمثال فى قوة الباس وصدق اللقاء وقد ذكره ابن عبد ربه فى الصف الأول من أبطال العرب وقرن به ربيعة بن مكدم وعنترة الفوارس وزيد الخيل وأمثالهم وكان مقتله يوم الشقيقة (٢) المكر الذى يكر على خصمه بعد أن انثنى حيلة عنه

وحمال أثقال وعائذ مِحجَر تحل لديه كل ذاك رجالُها[١]
سيبكيك عَانٍ لم يجد من يفكه وتبكيك فرسان الوغى ورجالها
وتبكيك اسرى طالما قد فككتهم وأرملة ضاعت وضاع عيالها
مُفَرِّجُ حومات الخطوب ومدرك الحروب اذا صالت وعز صيالُها
تَغَشَّى بها حينا كذاك ففجعت تميم بها أرماحها ونبالها
فقد ظفرت منا تميم بعثرة وتلك لعمرى عثرة لا تُقَالُها[٢]

٧ — وقالت أم قيس الضّبية ترثى ولدها[٣]

من للخصوم اذا طال الضّجاجُ بهم بعد ابن سعد ومن للضُّمَّرِ القُودِ[٤]
ومَشْهَدٍ قد كَفَيتَ الغائبين به فى مجمع من نواصى القوم مشهود[٥]
فرجته بلسان غير ملتبسٍ عِند الحِفاظِ وقلب غير مزؤود[٦]
اذا قناة امرىء أزرى بها خورٌ هزَّ ابن سعد قناةً صُلْبة العود

٨ — وحدثوا أن رسول الله أرسل خالد بن الوليد ليحطم وُدًّا فقام بنو عبدوُد يدرأون عنه، فضرب خالد فتى من فتيانهم فقتله. حتى اذا عامت أمه حديثه أقبلت اليه والقوم على أهبة أن يدفنوه فقالت :

يا قَرحة القلب والاحشاء والكبد يا ليت أمك لم تولد ولم تلد
لما رأيتك قد أدرجت فى كفن مطيباً للمنايا آخر الأبد
أيقنت بعدك انى غير باقية وكيف يبقى ذراع زال عن عضد[٧]

ثم أكبت عليه فزفرت زفرة كان فيها موتها فدفنا معاً

---

(١) المحجر اللاجئ تريد أنه يعوذ كل من يتحرم بساحته (٢) تقالها من الاقالة أى ليست من العثرات التى ينهض منها (٣) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٥١ (٤) جد الضجاج أى صار ضجاجهم جداً والضمر جمع ضامر والقود الطوال الأعناق (٥) نواصى القوم أشرافهم (٦) الملتبس المعقود المزؤود المذعور (٧) العقد الفريد ج ٢ ص ١٨

بكاء الآباء

٩ — قالت دَختنوس ابنة لقيط بن زرارة ترثى أباها[١] :

عثر الأغرُّ بخير خِنْـــدِفَ كهلِها وشبابها[٢]
وأضرّها بعدوها وأفكّها لرقابها
وقريعها ونجيبها فى المُطْبِقات ونابها[٣]
ورئيسها عند الملو ك وزين يوم خطابها
وأتمها نسباً اذا رجعت الى أنسابها
يرعى عموداً للعشيـــرة رافعاً لِنصَابها[٤]
ويعولها ويحوطها ويَذِبُّ عن أحسابها
ويطأ مواطن للعدوِّ وكان لا يُمشَى بها
فِعلَ المُدِلِّ من الأسو د لِحَينِها وتَبَابها[٥]
كالكوكب الدُّرِّىّ فى سيماء لا يخفى بها[٦]
عبث الأغر به وكلُّ منيـة لكتابها
فرت بنو أسد فرا ر الطير عن أربابها
لم يحفظوا حسباً ولم يأووا لغى عقابها
عن خيرها نسباً اذا نصت الى أنسابها
وهوازى أصحابهم كالفأر فى أذنابها

---

(١) الأغانى خ ١٠ ص ٣٩ والكامل لابن الأثير خ ١ ص ٢٤٤ وكان لقيط فى الذروة والسنام من سعة الجاه وعز العشيرة . وكان مقتله يوم شعب جبلة بين عبس وذبيان وهو من أعظم أيام العرب وأنبهها وليس هناك ما يشبهه فى كثرة ما حشد فيه من القبائل الا يوم ذى قار ويوم كلاب (٢) الأغرّ من الخيل ما علا البياض جبهته (٣) القريع كالفروع السيد والمطبقات النوائب الشداد والناب سيد القوم (٤) يرعى عمود العشيرة أى يحمى حماها . والنصاب الأصل (٥) المدل من السباع والطير الذى يفترس صيده من حيث لا يعلم والضمير فى حينها عائد على مواطن العدو (٦) السيماء العلامة

١٠ — وقالت هند بنت عتبة تبكى أباها عتبة بن ربيعة[١] :

يريب علينـــا دهرنا فيسوءنا ... ويأبى فمـــا نأتى بشىء نغالبه
أبعد قتيل من لؤى بن غالب ... يراع امرؤ أن مات أو مات صاحبه
ألا رب يوم قد رُزِئت مُرَزَّأً ... تَرُوح وتغدو بالجزيل مواهبه[٢]
فأبلغ أبا سفيـان عنى مألُكا ... فان ألقه يوماً فسوف أعاتبه[٣]
فقد كان حرب يسعر الحرب أنه ... لكل امرئ فى الناس مولى يطالبه

١١ — وقالت أيضاً تبكى آلها[٤] :

لله عينـــاً من رأى ... هُلْكا كهلك رجاليه
يارُبّ باك لى غـداً ... فى النائبـات وباكيه
كم غادروا يوم القليـــب غداة تلك الداعيه[٥]
من كل غيث فى السنيـــن إذ الكواكب خاويه
قد كنت أحذر ما أرى ... فاليوم حق حذاريه
يا رُبّ قائلة غـــداً ... يا ويح أم معـــاويه

١٢ — وقالت قُتَيْلَة بنت النضر بن الحارث تبكى أباها . وكان قد أسر فيمن أسر من مشركى بدر. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه صبراً بين يديه ، لِلِجاجه فى عدائه ، وامعانه فى هجائه[٦] :

يا راكباً إن الأُثَيْلَ مَظِنّةٌ ... من صبح خامسة وأنت موفق[٧]

(١) سيرة بن هشام ج ١ ص ٥٣٦ — ٥٣٧ وكان عتبه من آحاد قريش شرفاً ونبلا ومنصباً وهو الذى استنفر قريشاً الى بدر لاستنقاذ أبى سفيان وكان هناك مقتله (٢) المرزأ الكريم
(٣) المألك الرسالة وأبو سفيان زوجها وكان قد أرسل الى قريش يستعديهم على رسول الله وكان ذلك سبيل مأساتهم فى بدر (٤) سيرة بن هشام ج ١ ص ٥٣٧ (٥) القليب البئر وتريد يوم القليب يوم بدر (٦) حماسة البحترى ص ٢٧٦ (٧) الأثيل واد قرب المدينة به قتل النضر والمظنة الموضع تقول أيها الراكب بينك وبين الأثيل خمس ليال اذا لم تحد عن الطريق

أبلغ به مَيْتاً فان تحيـــة ما أن تزال بها الركائب تَخْفِقُ
منى اليك وعَـبرةً مسفوحة جادت بوابلهـا وأخرى تخنُقُ
هل يسمعَنَّ النضر إن ناديته بل كيف يسمع مَيِّتٌ أو ينطق
ظلّت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هنـاك تمزَّق[1]
قسراً يقـاد إلى المنيه متعباً رَسْف المُقيَّد وهو عانٍ مُوثَقُ
أمحمد ولأنت صنو نجيبـة من قومها والفحل فحل مُعْرِق[2]
ما كان ضَرَّك لو مننت وربما مَنَّ الفتى وهو المَغِيظ المُحْنَقُ
فالنضر أقرب من أصبت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يُعتَقُ
لو كنت قابل فدية لفديته بأعزّ ما يُفْدَى به من يَنفُق

قال ابن هشام : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر : لو بلغنى قبل قتله ما قتلته .

١٣ — وقالت أروى بنت الحُبَاب[3] :

قُلْ للأرامل واليتامى قد ثوى فلْتبكِ أعينهـا لفقد حَبَاب
أودَى ابنُ كل مخاطر بتلاده وبنفسه بُقْيـا على الأحساب
الراكبين من الأمور صدورها لا يركبون مَعـاقد الأذناب

١٤ — وقالت امرأة[4] :

ألا فاقصرى عن دمع عينك لن تَرَىْ أباً مثله تَنمى اليه المفـاخر
وقد علم الأقوام أن بنـاته صوادق إذ يندبنه وقواصر

(١) تريد ببنى أبيه آل رسول الله والنضر يلتقى برسول الله فى قصى وتنوشه أى تطلبه والمشار اليه فى هناك بدر ففيه مزقت أرحام قريش (٢) حماسة البحترى ص ٢٧٥ (٣) حماسة أبى تمام ج ٢ ص ٢٠١

١٥ — وقالت ابنة مالك بن بدر[١] :

لله عينـــا من رأى مثل مالك ... عَقِيرةَ قوم أن جَرَى فرسان
فليتهمـــا لم يشربا قط قطرة ... وليتهمـــا لم يجريا لرهان
أَحَدَّ به أمسِ الجُنَيْدِبُ نَذْرَه ... فأى قتيل كان فى غَطَفان[٢]
إذا سجعت بالرقتين حمـــامة ... أو الرس فابكى فارس الكَتِفان[٣]

١٦ — وقالت صبية ، ماتت أمها ، فأضرت بها امرأة أبيها[٤] :

فلو يأتى رسولى أمَّ سعد ... أتى أمى ومن يَعنيه حاجى[٥]
ولكن قد أتى مَنْ بين وُدّى ... وبين فؤاده غَلَقُ الرِّتاج[٦]
ومن لم يؤذه ألم برأسى ... وما الرئمـــانُ الا بالنتاج[٧]

بكاء الاخوة

١٧ — قالت فارعة ابنة شداد ، تبكى أخاها مسعود بن شـــداد وذلك من قصيدة ضافية[٨] :

يا عينُ بكّى لمسعود بن شداد ... بكاء ذى عـــبراتٍ شجوُه باد
من لا يُذَاب له شحم السَّدِيف ولا ... يجفو العيال إذا ما ضُنَّ بالزاد[٩]

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٢٩ — ٣٠ — ومالك بن بدر — أخو حذيفة بن بدر — قتل فى أيام داحس والغبراء وكان قد أضل ابلا له فخرج يبغيها فلقيه رجل من بني رواحة يدعى جندبا فرماه بسهم فقتله وقد نسب الميدانى بعض هذه الأبيات الى عنترة ونسب لسان العرب بعضها الى بنت مالك بن زيد

(٢) الجنيدب تصغير جندب وهو قاتل أبيها (٣) الكتفان فرس أبيها (٤) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ٢٠١ (٥) أم سعد أمها ومن يعنيه حاجى أى من تهمه حاجاتى (٦) تعنى بهذا البيت امرأة أبيها أى قد أتى رسولى من لا يصل ودى الى قلبه لانغلاق باب مودته علىّ والرتاج الباب

(٧) الرئمان العطف والنتاج الولادة أى أن المرأة لا تعطف الا على من تلد (٨) أمالى القالى ج ٢ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ (٩) السديف شحم السنام وهو أجود شحم البعير أى لا يستأثر به دون ضيفه وعياله

ولا يَحُلُّ إذا ما حَلَّ منتبِذاً ... يخشى الرزية بين المالِ والنادى[١]
قوَّال مُحْكَمة نقَّاضُ مُبْرَمة ... فرَّاج مُبْهَمة حبَّاسُ أوراد
نحَّارُ راغيـــة قتَّال طاغية ... حلَّال رايـة فكاك أقْياد[٢]
حلال مُمْرِعة حمال مضلعة ... فراج مُفْظِعة طلاع أنجاد
شهاد أندية رفاع أبنيـــة ... شداد ألوية فتـــاح أسداد
جماع كل خصال الخير قد عاموا ... زين القرين ونِكْلُ الظالم العادى
أبا زُرَارَةَ لا تبعـــد فكل فتى ... يوماً رهين صفيحات وأعواد
هلا سقيتم بنى جَـرم أسيركم ... نفسى فداؤك من ذى كربة صاد

١٨ — وقالت هند بنت عتبة، تبكى أخاها وأسرتها، وقد ذهبت بهم الحرب يوم بدر:[٣]

من حَسَّ لى الأخوين كالـــغصنين أو من رَاهُمَا
قَرْمان لا يتظالمـا ... ن ولا يرام حِمَاهما[٤]
وَيْلى على أبوىَّ والـــقبر الذى واراهما
لا مثل كهلى فى الكهو ... ل ولا فتى كفتاهما
أسدان لا يتـــذللا ... ن ولا يرام حماهما
رُمْحَين خَطِّيَّيْنِ فى ... كبـد السماء تراهما[٥]
ما خلفـــا إذ ودعا ... فى سؤدد شَرْوَاهما[٦]
سادا بغـــير تكلف ... عَفْـواً بفيض نداهما

(١) المنتبذ المتنحى المنفرد أى أنه لا ينتبذ عن قومه مكاناً قصياً خشية أن يطرقه ضيف فى بيته أو نادى قومه (٢) الراغية الناقة والراية المرتفع من الأرض وانما يحل بها الكريم حتى يرى السارون ناره فيقبلون اليه (٣) الأغانى ج ٤ ص ٣٣ — ٣٤ (٤) القرم الفحل الذى يكرم عن المهنة ومنه استعير للسيد الكريم (٥) الرمح الخطى منسوب الى الخط وهو مرفأ السفن بالبحرين ترد اليه سيوف الهند ورماحها وليست بمنبت للرماح ولا بمصنع لها (٦) شروى الشىء مثله

١٩ — وقالت ليلى بنت سامى[١] :

أقول لنفسى فى خفاء ألومها ... لك الويل ما هذا التجلد والصبر
ألا تفهمين الخُبْرَ أن لست لاقياً ... أخى إذ أتى من دون أكفانه القبر
وكنت أرى بيناً به بعضَ ليلة ... فكيف ببين دون ميعاده الحشر
وهوّن وجدى أننى سوف أغتدى ... على إثره يوماً وان طال بى العمر
فتى كان يعطى السيف فى الرَّوع حقه ... إذا ثوَّب الداعى وتشقى به الجُزْر[٢]
فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ، ويبعده الفقر
فتى لا يَعُدُّ المال رَبًّا ولا تُرَى ... له جفوة ان نال مالاً ولا كبر
فنعم مُناخ الرَّكب كان إذا انبرت ... شَمالٌ وأمست لا يُعَرِّجها سِتْرُ
ومأوى اليتامى الممحلين إذا انتهوا ... إلى بابه شُعثاً وقد قحِط القَطْرُ

٢٠ — وقالت الخنساء ترثى أخاها معاوية[٣] :

أَريقى من دموعك واستفيقى ... وصبراً ان أطقتِ ولن تطيقى
وقولى ان خير بنى سُلَيْم ... وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل تَرجعن لنا الليالى ... وأيام لنا بلِوَى الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم ... إذا حضروا وفتيان الحقوق
وإذ فينا معاوية بن عمرو ... على أدماء كالجمل الفنيق[٤]
فبكيه فقد أودى حميداً ... أمين الرأى محمود الصديق
فلا والله لا تسلاك نفسى ... لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً ... من النعلين والرأس الحليق

---

(١) حماسة البحترى ص ٢٧٤ (٢) ثوب الداعى أشار بثوبه وكانت عادة الخائف المستجير أن يصعد مرتقى عالياً ويشير بثوبه وينادى يا لفلان فيجيبه والجزر جمع جزور وهى الناقة

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٦٢ — ٢٦٣

(٤) الأدماء من الابل والخيل . المشربة سواداً أو بياضاً والجمل الفنيق الذى لا يؤذى لكرامته على أهله

بكاء الأزواج

٢١ — قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية، تبكى زوجها[١] :

يا عين بَكّى عنـد كل صباح ... جودى بأربعة على الجراح[٢]
قد كنت لى جبـلاً ألوذ بظله ... فتركتنى أضحى بأجرد ضاح[٣]
قد كنت ذات حَمِية ما عشت لى ... أمشى البَرَاز وكنت أنت جناحى[٤]
فاليوم أخضع للذليـــل وأتقى ... منـــه وأدفع عاذلى بالراح
وإذا دعت قُمْرية شَجَناً لهـا ... يوماً على فَنَنٍ دعوت صباحى[٥]

٢٢ — وقالت الهيفاء بنت صبح القُضَاعية[٦] :

أبكى وأبكى بإسفار وإظلام ... على فتى تغلبىّ الأصل ضرغام
لهفى عليـه وما لهفى بنافعةٍ ... إلا تكافُحُ فُرسان وأقوام
قل للحُجَيب لحاك الله من رجل ... حُمِّلت عار جميع الناس من سام
أيقتل ابنُكَ بعلى يا ابن فاطمة ... ويشرب الماء؟ ذا أضغاث أحلام
والله لازلت أبكيه وأندبه ... حتى تزورك أخوالى وأعمامى
بكل أسمر لَدْنِ الكف معتدل ... وكل أبيض صافى الحد قَمْقام[٧]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٨٨ — ١٩٠ وكانت فاطمة من أكمل قومها أدباً وأجرامم لساناً وأبوها الاحجم بن دندنة الخزاعى سيد من سادات قومه وهو زوج خالدة بنت هاشم بن عبد المطلب

(٢) تريد بالأربعة الموقين واللحاظين والعرب تزعم أن الدمع يجرى من الموق فاذا جد البكاء واشتد فاض من اللحاظ أيضا (٣) الأجرد الأملس والضاحى البارز للشمس تريد ان سترها قد انكشف عنها

(٤) البراز الفضاء من الأرض لا يستره شىء (٥) تريد بدعوة الصباح انها تقول — اذا سمعت تغريد الطير فى الصباح — وأسوء صباحاه (٦) ذيل ديوان الخنساء ص ١٩١

(٧) تريد بالأسمر الرمح واللدن اللين من كل شىء والأبيض السيف والقمقام العظيم

٢٣ — وقالت امرأة من طَيّىء[١] :

تأوّب عينى نُصْبها واكتئابها ... ورجيت نفسا راث عنها ايابها[٢]
أُعلل نفسى بالمرجَّم غيبُـــهُ ... وكاذبتها حتى أبان كِذَابها[٣]
أَلَهْفى عليك ابن الأشدّ لبهمة ... أَفَرَّ الكُماةَ طعنها وضِرَابها[٤]
متى يَدعُهُ الداعى اليـه فانه ... سميع إذا الآذان صَمَّ جوابها
هو الأبيض الوضاح لو رميت به ... ضواح من الرَّيّان زال هضابها[٥]

٢٤ — وقال خِرْنِق بنت بدر بن هفان، تبكى زوجها بشرا، وتذكر من أصيبوا معه يوم قُلاب[٦] :

ألا أقسمت آسَى بعد بشر ... على حىٍّ يموت ولا صديق[٧]
وبعـد الخير علقمة بن بشر ... إذا نزَت النفوس إلى الحلوق[٨]
وبعد بنى ضُبَيعة حول بشر ... كما مال الجزوع من الحريق
مُنِى لهم بوالبة المنـــــايا ... بجنب قُلَاب للحَين المَسُوق[٩]
فكم بقُلَابَ من أوصال خِرق ... أخى ثقـــة وجُمْجُمة فليق[١٠]
ندامى للمـــلوك إذا لقوهم ... حُبُوا وسُقُوا بكأسهم الرحيق
هُمُ جدعوا الأنوف وأوعبوها ... فما ينساغ لى من بَعدُ ريق[١١]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٧١ (٢) أصل التأويب سير النهار كله حتى يتصل بالليل والنصب من أنصبه الحزن اذا أثر فيه وراث الشيء أبطأ تقول ان حزنها لا ينقطع وان النفس التى عقدت بها رجاءها أبطأ بها الاياب (٣) تريد بالمرجم أى الذى يظن به الظنون يقال رجم الرجل بالغيب اذا تكلم بما لا يعلم (٤) البهمة الخطة الشديدة وتريد بها الحرب وأفر الكماة طعنها أى حملهم على الفرار

(٥) تريد بالأبيض الوضاح الخالص النسب الصافى الخلال . والريان جبل ببلاد طيىء والضواحى النواحى

(٦) ديوان خرنق نسخة خطية بدار الكتب المصرية — والخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة ابن العبد البكرى لامه ومكانها من شواعر النساء كمكان أخيها من الشعراء وأكثر شعرها فى رثاء زوجها بشر بن عمرو سيد بنى مرثد لما قتله بنو أسد يوم قلاب (٧) آسى من الأسى وهو الحزن (٨) نزت النفوس علت وذلك كناية عن شدة الكرب ومثله قول الله جلت آيته « وبلغت القلوب الحناجر »

(٩) والبة شعبة من بنى أسد وقلاب جبل بديارهم دارت دونه الحرب بينهم وبين بشر فكانت الغلبة لهم

(١٠) الخرق الجواد الكثير الجود (١١) جدع الأنف قطعه وأوعبه استأصله

وبيضٍ قد قَمَدْن وكل كُحل بأعينهن أصبح لا يليق[١]
أضاع قدورهن مصاب بشر وطعنة فاتك فمتى تفيق[٢]

بكاء العشيرة

٢٥ — قالت رَيطة بنت عاصم[٣] :

وقفت فأبكتنى بدار عشيرتى على رُزئهن الباكياتُ الحَواسرُ
غدوا كسيوف الهند وُرَّاد حومة من الموت أعيا وردَهن المَصادر
فوارس حاموا عن حريمى وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رُزْئنا لهُدّت ولكن تحمل الرزء عامر[٤]

٦٦ — وقالت خرِنق :

لا يَبعَدَن قومى الذين همُ سم العُدَاة وآفة الجُزُر
النازلين بكل معترَك والطيبون معاقد الأُزُر[٥]
الضاربون بحومة نزلت والطاعنون بأذرع شُعُر[٦]
أن يشربوا يهبوا وإن يذروا يتواعظوا عن منطق الهُجر
قوم اذا ركبوا سمعت لهم لَغَطًا من التأييه والزجر[٧]
من غير ما فُحشٍ يكون بهم فى مُنتَج المُهرات والمهر
هذا ثنائى ما بقيت لهم فإذا هلكت أجَنّنى قبرى

---

(١) لا يليق أى لا يبقى تقول أن فتيات الحى أصبحن لا يبقين على بقية من الكحل لكثرة ما يبكين
(٢) فى هذين البيتين اقواء وهو مخالفة شكل القافية لما دونها من القوافى
(٣) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ (٤) سلمى أحد جبل طيء
(٥) الأزر جمع أزار وطيب معاقدها كناية عن عفة ذويها (٦) الأذرع الشعر — جمع أشعر — الطويلة الشعر وذلك أقوى لها (٧) التأييه زجر الخيل والصياح بها يريد أنهم لا يتفاحشون فى نخرهم اذا نتجت خيلهم وذلك خير مظاهر الثروة عندهم

٢٧ — وقالت أمامة بنت ذى الأصبع العَدوانى تبكى قومها :

كم من فتى كانت له مَنْعَةٌ أيلجَ مثل القمر الزاهر
قد مرت الخيل بحافاتهم مر الحيا بالجبل العاطر[١]
قد لقيت فَهْم وعَدوانها قتلاً وهلكا آخر الغابر
كانوا ملوكاً سادة فى الورى دهراً لها الفخر على الفاخر
حتى تَساقَوْا كأْسهم بينهم بغياً فيا للشارب الخاسر
بادوا فمن يحلل بأوطانهم يحلل برسم مقفر داثر

فى الفخر

٢٨ — قالت عاتكة بنت عبد المطلب تفخر بيوم عكاظ[٢] :

سائل بنا فى قومنا وكفاك من شر سَماعُه
قيساً وما جمعوا لنا فى مجمع باق شناعُه
فيه السنَوَّر والقنا والكَبْش ملْتَمِعٌ قِناعُه[٣]
بعكاظ يعشى الناظرين إذا هم لمحوا شعاعُه[٤]
فيه قتلنا مالكاً قَسْراً وأسلمه رَعاعُه
ومجدَّلاً غادرنه بالقاع تنهشه ضباعه

٢٩ — وقالت الخنساء تفتخر وتذم الزمان :

تعرّفنى الدهر نَهْسَا وحَزّا وأوجعنى الدهر قَرْعاً وغمزا[٥]
وأفنى رجالى فبادوا جميعاً فغُودر قلبى بهم مستفَزّا[٦]

---

(١) الحافات الجوانب والحيا المطر (٢) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٣٠
(٣) السنور الدروع أو جملة السلاح وقناع الفارس بيضته (٤) الباء فى بعكاظ متعلقة بقولها فى مجمع ويجوز أن تكون متعلقة بمتلمع ويعشى الناظرين أى يخطف أبصاهم
(٥) تعرفها أى أكلها حتى ذهب بلحمها والنهس أخذ اللحم بمقدم الاسنان والحز القطع
(٦) مستفزاً من استفزه أى أخرجه عن موطنه

كأن لم يكونوا حِمَّى يُتَّقى إذ الناس إذ ذاك من عزبزا[١]
وهم فى القديم أساة العديـــم والكائنون من الخوف حِرْزا
وهم منعـــوا جارهم والنسا ءَ يَحْفِز أحشاءها الخوف حَفْزا[٢]
غـــداةَ لَقُوهم بملمومة رَدَاح تغادر فى الأرض رِكْزا[٣]
ببيض الصِّفاح وسُمر الرماح فبالبيض ضرباً وبالسُّمْر وخزا
وخيـــل تكدَّسُ بالدارعيـــن تحت العَجاجة يجْمِزْن جَمْزا[٤]
جَزَزنا نواصىَ فرسانهـــا وكانوا يظنون ألاّ تُجَزّا[٥]
ومن ظن ممن يلاقى الحروب بأن لا يُصَاب فقد ظن عجزا
نَعِفُّ ونعرف حق القِـــرَى ونتخذ الحمد ذخراً وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد ونسحب فى السلم خَزّا وقَزّا

٣٠ — وقالت الهيفاء بنت صبح القضاعية تفخر بأبيها[٦] :

الخيل تعلم يوم الرَّوع ان هُزمت أن ابن عمرو لدى الهيجاء يحميها
لم يُبدِ فُحْشاً ولم يُهدَد لمُعظَمة وكلُّ مَكْرُمة يلقى يُسَاميها[٧]
المستشار لأمر القوم يحزبهم إذ الهَنَاة أهمَّ القوم ما فيها[٨]
لا يَرْهَب الجار منه غدرة أبداً وان ألمّت أمور فهو كافيها

٣١ — وقالت خرنق بنت بدر، تفخر بزوجها بشر بن عمرو وصحابته[٩] :

لقد علمت جَدِيلة أن بشراً غـدا مُرَبِّح مُرُّ التقاضى

---

(١) من عزبز مثل من أمثال العرب أى من غلب سلب يقال بزه ثوبه اذا سلبه اياه (٢) الحفز الطعن (٣) الملمومة وصف لموصوف محذوف أى كتيبة ملمومة والرداح من الكتائب الثقيلة الجرارة (٤) التكدس السرعة فى المشى والعجاجة الغبار والجمز الاسراع حتى يكون عدواً (٥) كانت العرب تجز نواصى من تطلقه من الاسرى (٦) ذيل ديوان الخنساء ص ١٩١ (٧) المعظمة كالعظيمة النازلة ويساميها أى يسمو اليها (٨) حزبه الأمر نابه واشتد عليه والهنات جمع هنه ويكنى بها عن المنكرات (٩) ديوان خرنق

غداة أتاهم بالخيـــل شُعثاً ... يدق نسورها حد القِضَاض[١]
عليهـا كل أصيد تغلبيّ ... كريم مُرَكَّب الحدين ماض[٢]
بأيديهم صوارم مرهفـات ... جَلَاها القَين خالصة البياض
وكل مثقف بالكف لَدْن ... وسابغةٌ من الحَلَقَ المُفَاض
فغـــادر مَعقِلاً وأخاه حِصْنا ... عفير الوجه ليس بذى انتهاض

فى اللوم والإغراء

٣٢ — قالت امرأة من كندة[٣] :

لا تخبروا الناس إلا أن سيدكم ... أسلمتوه ولو قاتلتمو امتنعا
أنْعَى فتى لم تذر الشمس طالعة ... يوماً من الدهر إلَّا ضرَّ أو نفعا

٣٣ — وقالت بنت حُكَيم بن عمرو العَبْدِية[٤] :

أيرجو ربيع أن يؤوب وقد ثوى ... حُكَيمٌ وأمسى شِلْوُه بمُطَبَّقِ[٥]
فان كنتم قوماً كراماً فعجلوا ... له جُرْأةً من بأسكم ذات مِصدَق
فان لم تنالوا نيلكم بسيوفكم ... فكونوا نساء فى الملَاء المُخَلَّقَ[٦]
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له ... فما أنتم إلا كمعزى الحبلق[٧]

---

(١) النسور بواطن حوافر الخيل والقضاض الحصى الصغار (٢) الأصيد الذى يميل بعنقه كبراً
(٣) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ١٧ . (٤) حماسة البحترى ص ٣١ (٥) الشلو العضو
(٦) الملاء جمع ملاءة والمخلق المضمخ بالطيب والزعفران (٧) الحبلق غنم صغار لا تكبر أو قصار المعز ودمامها

٣٤ — وقالت كبشة بنت معد يكرب ، تعير أخاها عمراً لقعوده عن ثار أخيه عبد الله[١]

وأرسل عبد الله اذ حان يومه ... إلى قومه لا تعقلوا لهم دمى[٢]
ولا تأخذوا منهم إفالًا وأبكراً ... واترك فى بيت بصُعدة مظلم[٣]
ودع عنك عمراً ان عمراً مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان أنتمُ لم تثأروا واتَّديتمُ ... فشوا بآذان النعام المُصَلم[٤]
ولا تردوا الا فضول نسائكم ... إذا ارتملت أعقابهم من الدم[٥]

٣٥ — وقالت امرأة من غامِد فى هزيمة ربيعة بن مكدم لجمع من قومها :

ألا هل أتاها على نأيها ... بما فضحت قومَها غامِدُ
تمنيتم مائتى فارس ... فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيو ... ل ضأنا لها حالب قاعد

نساء يصفن أنفسهن

٣٦ — حَدَّث الأصمعى قال[٦] :

كان أعرابى عنده أربع نسوة ، كندية ، وغسانية ، وشَيبانيـة ، وغَنَوية ، والأعرابى غسانى . وكن متظاهرات على الغَنَوية . فجمع بينهن ثم قال : لِتَقُلْ

---

(١) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١١٧ (٢) لم يقل عبد الله شيئاً من ذلك وانما تخيلته لتبلغ من نفوس أخيها وقومها والعقل اعطاء الدية والرضا بها (٣) الأفال جمع أفيل وهو الذى أتت عليه سبعة أشهر أو ثمانية من أولاد الابل واختصت الافال والأبكر بالذكر لتحقير شان الدية وصعدة محلاف من مخاليف اليمن وانما قالت مظلم لأن العرب تزعم أن الميت اذا أخذوا بثأره أضاء قبره وإلا بقى مظلما
(٤) انديتم أى قبلتم الدية والمصلم المجدوع وتلك كناية عن الجبن والذل (٥) يقال ارتمل اذا تلطخ بالدم وكان من عادتهم اذا وردوا الماء أن يكون النساء آخر من يرد حتى يشربن ويغلسن أنفسهن وثيابهن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل
(٦) بلاغات النساء ص ١٥١ — ١٥٢

كل واحدة منكن قولاً تصف به نفسها . فقالت الكندية :

كأنى جَنَى النحل والزنجبيل وصَفْوُ المدامة والسلسبيل
يزين سنا الوجه لى مَبْسِمٌ كمثل اللآلى وعين كحيل

وقالت الغسانية :

برانى إلهى إله السما نصفاً قضيبا ونصفا كثيبا
وألبسنى ما يسوء الحسود جمالاً ومِلْحا وحسنا عجيبا[١]

وقالت الشيبانية :

أفوق النساء إذا ما اجتمعـــن كبدر السماء نجوم الدجى[٢]
ويقصر عنى جميع الصفات فمن نالنى نال فوق المنى

وقالت الغنوية :

تزود بعينك من بهجتى فقد خلق الله منى الجمالا
إذا ما تفرست فى رؤيتى رأيت هلالاً وأحوى غزالا[٣]

(١) الملح الملاحة (٢) أى كما يفرق بدر السماء نجوم الدجى (٣) الأحول الأسمر الشفتين

فهـــرس

الجزء الأول من المرأة العربية

تقديم الكتاب إلى حضرة صاحبة العظمة الملكة نازلى ٢

فاتحة الكتاب ٥

مقدمة الكتاب فى سبيل المرأة ٦ — ١٥

ماضينا وحاضرنا (١) ٦ — ١٠

المرأة فى الحياة (٢) ١١ — ١٥

١ — نصيبها من الوجود ١٦ — ٤٥

المرأة العربية موطن الشرف والحياة من الرجل ، لها يحيـــا ولها يموت ١٦ : ١٧ . صوتها تحت ظلال السيوف ١٨ . يوم تحلاق اللمم — نشيد الحرب ١٩ . رأى العرب فى الملائكة وانهم بنـــات الله ١٩ . الشعراء والنساء ١٩ . تمدح العظماء بين أيدى النساء ٢٠ . مسئولية الرجال امام النساء ٢١ . مغالاة العرب بالمرأة — حرقة بنت النعمان — كسرى يخطبها والنعمان يأباه — مقتل النعمان — يوم ذى قار ٢٢ : ٢٣ . وضيعة من العرب تمتنع على عظيم من الفرس — غضب العربى المرأة — عمرو بن هند وعمرو بن كلثوم — هند وليلى — مقتل عمرو بن هند ٢٣ : ٢٤ . كلمة من امرأة تثير الحرب أربعين عاما — حرب البسوس ٢٤ : ٢٦ . العرب تقتتل لامرأة من عرض الطريق تهان — حرب الفجار ٢٦ : ٢٧ . نساء العرب فى سواء الرجال — فتاة تبرم عقدا لا يملك الملك أن ينقضه ٢٧ : ٢٩ . الساحة المقدسة — احتماء الرجال بأطناب أخبية النساء — سبيعة بنت عبد شمس فى حرب الفجار ٢٩ : ٣٠ . نفاذ المرأة — حديث أوس بن حارثة وامرأته وبناته ٣٠ . ملك النساء ٣١ : ٣٣ . بلقيس ملكة اليمن — ديارها — خلالها — سياستها — صورة غمدان وكلمة عنه — زينب ملكة تدمر — كلمة عن تدمر — وصف زينب — زينب بين جندها — مأساة زينب — زينب أم الزباء — صورة الرواق الاعظم — شقاء الكرامة ٣٣ : ٣٩ .

السباء — المرأة العربية آخر عرق ينبض من الرجل — كرائم السبايا — ريحانة بنت معديكرب — الانفة من السباء — فاطمة — عنزة — سلمى — الوأد ٤٠ : ٤٤ . الوائدون — الفادون — صعصعة بن ناجية — زيد بن عمرو ٤٤ : ٤٥ .

٢ — سمو أدبها ونفاذ لبها ٤٦ — ٨٢

المرأة العربية فى قومها — أثر عزتها وحريتها فى نبلها وفضلها — المرأة العربية منذ نيف وأربعين قرناً ٤٦ : ٤٧ . حياتهـــا الزوجية — صلاح الزوجة — دعائم صلاحها — اختيارها — كرامتها على زوجها — شرف الرجل وعفته ٤٧ : ٤٨ . اختيار الزوجة العربية — أسلوب الاختيار — شرف الحسب وسناء الذكر — قيس ابن زهير — يوم الهباءة ٤٨ : ٤٩ . سعة الحيلة ومضاء الذكاء — امرؤ القيس وامرأته ٤٩ : ٥٠ . شن وطبقة ٥٠ : ٥١ . رأى الفتاة — الخنساء ودريد — هند وعتبة وأبو سفيـــان ٥١ . الحارث بن سليل وامرأته وابنته — زيد الخيل وأوس بن حارثة وحاتم الطائى بين يدى ماوية ابنة عفزر ٥٢ . يزيد بن الصعق وملك غسان ٥٣ . ما تؤثره المرأة من صفات الرجل — شريفة من بنى كنانة تمتحن الرجال ٥٤ . الغرائب وبنات العم ٥٤ . حق المرأة العربية فى الطلاق ٥٥ : ٥٦ . حاتم وماوية — شريفات طلقن أزواجهن ٥٨ : ٥٩ .

كرامة المرأة العربية على زوجها ٥٨ — ٦١

المرأة العربية هى العشير الأدنى والمشير الأمين — رجل يلطم زوجته فتنشب الحرب بين عدنان وقحطان — تحرير مضر وربيعة ٥٩ . نداء الرجل العربى لامرأته ٦١ .

شرف الرجل وعفته ٦١ — ٦٦

العفة فضل من الشجاعة ، والفجور شعبة من الجبن — فخر العربى بعفته ٦٢ . النساء المهينات — الاماء — حـــذر المريب — الرجل المريب مجفو من قومه منبوذ من عشيرته — امرؤ القيس وأبوه ٦٣ : ٦٥ . تقديس أسماء النساء — سعادة الأسرة العربية — كفاية المرأة — معونتها — مصابرتها — شرفها — وفاؤها ٦٥ : ٦٦

الأم العربيـــة ٦٧ — ٨٢

الأم العربية معقد فخر الرجال — فخر النبى بأمهاته — فخر على بأمهاته — فخر القبائل بأمهاتها ٦٧ : ٦٨ . انتساب الملوك الى الامهات — انتساب البطون الى الامهات — القبائل التى سميت بأسماء أمهاتهـــا — اعتراف العرب بأثر النساء فى الرجال —

المنجبات من النساء ٦٨ : ٦٩ . اهتمام المرأة بابنها منذ أول حملها — حديث الهواتف — ليلى بنت مهلهل — عتبة بنت عفيف ٧٠ : ٧١ . تسمية الابناء — أسماء بنت دريم ووائل بن قاسط — وادى السباع — تمهيد الطفل للعظائم — أناشيد النساء للابناء — كيف تربى المرأة العربية طفلها — رأى الطب الحديث فى أسلوب تربيتها — تكوين الرجال — أوس بن حارثة وأمه ٧٢ : ٧٦ . عجوز تنصح ابنا عظيما — ريحانة بنت معد يكرب وابنها دريد ٧٧ ربيعة بن مكدم وأمه وأخته حاتم وأمه ٧٨ : ٧٩ . السليك وخلاته ٨٠ . أثر المرأة فى ابنتها — خماعة بنت عوف وأمها — زوجات النعمان ٨١ : ٨٢ .

٣ — المرأة العربية فى عامة حياتها ٨٣ — ١٤٩

«١» عملها

الوره والخرق — أثرهما فى سيرة المرأة العربية — خرقاء قريش ٨٣ . أعمال النساء العامة — المرأة العربية والطب ٨٤ . الغناء والموسيقى — الحارث بن ظالم وماوية بنت عفزر — مجالس الغناء ٨٥ : ٨٦ . رعاية البيت — مطاعم العرب ٨٦ : ٨٨ . أعمال الارتزاق : الصناعة : ردينة : التجارة : خديجة بنت خويلد وهند بنت عتبة مهن النساء : النياحة — زجر الطير وطرق الحصا ٨٨ : ٨٩ . الكهانة والعرافة — مرثد بن عبد كلال وعفراء ٩٠ : ٩١ . النفث فى العقد ٩١ : ٩٣ . الارضاع — حديث حليمة ٩٤ : ٩٥ . ضعة المهنة وعظمة الخلق — حديث فتاة عن بنات البائمات — عمل المرأة فى الامة ٩٥ : ٩٧ . تسكين الثائرة — فاطمة بنت الخرشب والجمانة بنت قيس ٩٨ . اثارة العزائم — هند بنت عتبة — عمرة بنت علقمة — قيادة النساء — رقاش قائدة طيىء ٩٩ : ١٠٠ .

«٢» حجابها وسفورها ١٠١ — ١١٠

حد الحجاب — حجاب البيت وحجاب الانتقاب — نصيبهما من المرأة العربية — المرأة العربية فى المحافل والمشاهد والاندية والاسواق — نساء العرب فى عكاظ — هند والخنساء ١٠٢ . يوم حليمة ١٠٣ . الانتقاب — البرزة — المقنعة — سقوط القناع — حالات السفور الشاملة — السفور فى أمم العرب البائدة — هيئات الانتقاب : الخمار — القناع — البرقع — النصيف — اللثام — اللفام ١٠٤ : ١١٠ .

« ٣ » ثيابهـــا ١١٠ — ١١٣

أشكالها — ألوانها — مناسجها — شعارها — دثارها — ثياب الحداد — الاحذية

« ٤ » حليهـــا ١١٣ — ١١٦

العاطل — الغانية — المرهاء — تحلية البنت منذ ولادتهـا — صنوف الحلى — قرطا مارية — الطيب — صورة المرأة العربية فى أكمل زينتها

« ٥ » بيتهـــا ١١٦ — ١٢٠

بيوت البـادية — مجالس النساء — القصور — أثاث البيوت — وصف المرأة الناعمة العيش

« ٦ » دينها وعقائدها ١٢٠ — ١٣٥

معبودات العرب — اضطراب دينهم — الخرزات والرقى ١٢٠ : ١٢٥ . التفاؤل والتطير ١٢٦ : ١٣١ . سفر الرجل وطول غيبته ١٣١ : ١٣٢ . خدر الرجل واختلاج العين ١٣٣ . رأيها فى مصير موتاها ١٣٢ . ضمان القلوب ١٣٤ صنيع المقلات ١٣٤ . البثر فى شفة الصبى ١٣٥ . عمل الشمس فى الاسنان ١٣٥

« ٧ » بعض شأنها ١٣٦ — ١٤٩

عرسها — يوم الاملاك — المهر — يوم البنـاء ١٣٦ : ١٤٢ . مناحتها — نساء العرب فى مناحاتهن — الحداد — حداد النساء على أزواجهن — قولهن اذا حمل الميت واذا دفن — منادب الاشراف — ١٤٢ : ١٤٦ . تجملهـا — صفات الجمال عند العرب — صنوف التجمل عند النساء — مثال من الجمال العربى ١٤٧ : ١٤٩ .

٤ — فصاحتها وسماحة منطقها ١٥٠ — ١٩٣

بيان المرأة — دقة نقدها — امرؤ القيس وعلقمة بين يدى أم جندب — الخنساء وحسان — المرأة العربية والرجل العربى فى حومة البيـان — حكيمات العرب — المرأة العربية والشعر ١٥٠ : ١٥٥ .

أثارة من قولها — مأثور من المنثور ١٥٦ — ١٧٧

«١» بين امرأتين ١٥٦ . «٢» أبلغ الكلم فى أبلغ الكرم ١٥٩ . «٣» امرأة تصف رسول الله ١٦٠ . «٤» سناء الرأى وحسن الاستعطاف ١٦٢ . «٥» بين نارين ١٦٣ . «٦» تداول الأيام ١٦٤ . «٧» صفات فى فقرات ١٦٥ . «٨» نساء يصفن رجالا ١٦٦ . «٩» مجاذبة الثناء ١٦٨ . «١٠» الكلم القصار ١٦٨ . أمثال أرسلها النساء فتمثل بها الرجال ١٦٩

عيون من الشعر ١٧٨ — ١٩٣

فى الحنين الى الوطن ١٧٨ . البكاء — بكاء الابناء ١٧٩ . بكاء الآباء ١٨٤ . بكاء الاخوة ١٨٧ . بكاء الازواج ١٩٠ . بكاء العشيرة ١٩٢ . فى الفخر ١٩٣ . فى اللوم والاغراء ١٩٤ نساء يصفن أنفسهن — كلمة الختام

(مطبعة المعارف) ٢/٢٠٠٠/٧/١٩٣٢

المرأة العربية

في جاهليتها وأسلامها

ألَّفَهُ

عبد الله عفيفي

محرر عربي ديوان جلالة الملك

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة

(الطبعة الثانية) ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

يطلب من

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الى صاحبة الجلالة

ملكة مصر

مولاتى

تلك هى الصفحة المقدّسة من تاريخ الوجود تجلّتْ بها المرأة العربيّة فى زَهْو الأسْلام على أرجاء العالم المظلم فملأته نوراً وطهـــرا وحكمة وعلما ثمَّ طوتْها العوادى فلم نعد نسمع خبرها أو نلمح أثرها .

واليوم — وكوكب مُلْك مصر يَخْفِق صاعداً ويشرق بَسَّاماً — أنشر تلك الصّحيفة المُطَهَّرة من طَيِّ الزمن وأبتَعِثُها من مدَارج المحن لتكون عُقْدَة الصّلة بين تلك النفوس الزكيّة وبين ذات الجلالة الملكية

بارك الله لصاحب الجلالة فيما أولاه ومَلَّاه مَا وَلَّاه ورَعَاه فيما اسْترعاه وأتمَّ بيده بناء الوطن الصاعد فى سماء المجد الراسخ فوق هام الزمان آمين

عبدك الخاضع

عبد الله عفيفى

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۞ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِين . سُبْحانكَ يا مُبْدِعَ الكون بلا عون ، ومفيضَ البيان على اللسان ، تَبارَكْتَ وتَعالَيْت ، لَكَ الحمد ولكَ المُلْك ، أَنْتَ ولِيُّنا ، فارْزُقنا من فَيْضِ حِكْمَتِكَ ، واُهدِنا بنُور هِدَايتِك ، واجْنُبْنا بِفَضلك زَيْغَ القلم ، ولَغْوَ الْكلِم ، وفتنة الهوَى ، وضَلَال السَّبيل ، إنَّكَ نِعْمَ المَوْلى ونِعْمَ النَّصير ؟

المرأة العربيـة

فى عهد اسلامها

تمهيد

المـــرأة والدين

للمرأة من دقة الحس ، وقوة العاطفة ، وبعد الخيال فوق ما للرجل . فهى لا تبرح الدهر بين خاطر مُتَوثّب ، ووِجدان متأثّر . لا تكاد تستمع خبرا ، أو تلمح منظرا ، أو تُطيف بها ذكرى ، حتى ينال ذلك من أعماق نفسها ، واسرار وجهها ، وشئون عينيها . وربما ألمّت بالحديث وهى تعامه ضرباً من الخيال ، فلا تزال رغم ذلك بين دم يتَصعَّد ثم يتَحدَّر ، وقلب يَثِبُ ثم يطمئن ، ووجه يَرْبَدُّ ثم يُشْرِقُ ، وعَبرة تطفو ثم تنحسر ، حتى تنتهى منه وقد استبقى بنفسها أثراً لا تملك أن تمحوَه . ذلك خَلْقُ المرأة وتلك شيمتها . فطرةٌ طيبة ، وسريرة صافية ، وقلب دائم الخفقان .

مِثل تلك الطبائع المستكنة فى نفس المرأة إن وُفِّقت إلى من يتعاهدها ، ويصلح نهجها ، ويزيل العوائق من دونها ، كانت سبيل الكمال المطلق ، والخير الصريح فى الأمم . وان مُنيت بمن يُموِّه لها الباطل ، ويُزين لها صفحة الشر ، ويَجْنُبُها طريق السداد ، قضاء لنهمة فاسدة ، ومَجْلَبةً لعَرَض زائل ، انعكست آيتها ، وانتكست حالتها ، وهاجت الداء الدوىّ ، والشر العقام . وان هى تركت وأَمْرَها وخُلِّيت وسبيلها ، كان شأنها كشأن دفائن الكنوز فى قفر من الأرض ، تتحول الأزمنة ، وتتبدل الأمم ، وهى على حالِها ، لا خير فيها ، ولا أثر لها .

حقيقة لا مِرَاء فيها . . . فأى طرق التربية آثر فى حياة المرأة ، وأحق باستكمال فضائلها ، وإذاعة مزاياها ؟

الدِّين وحده هو الكفيل بذلك . فهى بما لها من انفساح مدى التصور ، وقوة سلطان العاطفة ، تتمثل عظمة الله بأكثر مما يتمثل الرجل ، وتستشعر حبه والخوف منه بأشد مما يستشعر .

أن إيمان المرأة إيمان لا مثار فيه للرّيب ، ولا مجال للشبهات . فهى لا تعتصم بالتأويل ، ولا تفزع إلى الحيلة ، شأن الرجل اذا أثقله الواجب وأعياه الاحتمال . فاذا أشرِبت ذلك الايمان منذ أول عهدها ، ولدُونة عُودها ، وجدت الله ملءَ سمعها ، وبصرها ، وقلبها ، وسريرتها ، فلا تشعر إلا به ، ولا تعمل إلا له ، ولا تُقدِم على ما عساه يغضبه ، ويستنزل سخطه .

أن تصديق المرأة تصديق وثيق عميق ، فهى لا تحاول — كما يحاول الرجل — تطبيق أمور الدين جليلها ودقيقها على عقلها . وفى الدين أشياء لا تنالها العقول إلا إذا رسخت حكمتها ، ورجحت كفتها ، واتسعت رُقعتها ، وأين للناس أن يكونوا جميعاً كذلك ؟

ولستُ بناسٍ أبد الدهر مشهداً لا يزال على طول العهد به يهتاج عواطفى ، ويُحيل جوانحى وجوارحى إلى وجدان فياض ، ومشاعر ثائرة . وهو على ما نقول أدَلّ ، وبه أمثل . وذلك الذى أقصه عليك : —

فى أصيل يوم من صيف سنة ١٩١٤ كنت واقفاً فى جمهور الواقفين فى محطة طنطا ، أترقب القطار القادم من الاسكندرية ، لأتخذه إلى القاهرة .

لقد كان كلٌّ فى شغُل بتلك الدقائق المعدودات يقضيها فى توديع واشفاق ، وترقب وانتظار ، وحمل متاع وتنسيق آخر ، وكنت فى شُغُل بصديق يجاذبنى

حديثاً شيقاً ممتعاً . فى تلك اللحظات الفانية ، و بين ذلك الجمع المحتشد ، راع الناسَ صياح واعوال ، وتهدج واضطراب ، ومشادَّة ومدافعة ، ثم ابصروا فاذا فتاة فى السابعة عشرة من سنيها ، يقودها إلى موقف القطار شرطى عات شديد ، وساع من سعاة معتمدى الدول قوى عتيد ، ومن خلفها شيخ أوربى جاوز الستين مكتئب مهزول ، وهى تدافع الرجلين حولها بيدين لا حول لهما .

أقبل القطار ثم وقف ! فكاد كل ينسى بذلك الموقف موقفه وما قصد له ، ثم أُصعدت الفتاة وصعد معها من حولها ، وعجلت أنا وصاحبى فأخذنا مقاعدنا حيث أخذوا مقاعدهم . كل ذلك والفتاة على حال من الحزن والكرب لا يَحْمِلُ معها الصبر ، ولا يُحمَد دونها الصمت . سألت الشيخ ما خطبه ، وما أمر الفتاة ؟ فقال وقد أشرقه الدمع ، وقطع صوته الأسى :

اننى رجل اسبانى ، وتلك ابنتى ، عرض لها منذ حين ما لم أعلمه ، فصحوت ذات صباح على صوتها تصلى صلاة المرأة المسلمة ! ومنذ ذلك اليوم احتجزت ثيابها لتتولى أمر غسلها ، وأرسلت خمارها الأبيض على صفحتى وجهها ، ومكشوف صدرها . ثم أخذت تُنفِدُ وقتها فى صلاة وصيام ، وسجود وهجود . وكانت تدعى « روز » فأبت إلا أن تسمى « فاطمة » . وما لبثت أن تبعتها أختها الصغرى ، فصارت أشبه بها من القطرة بالقطرة ، والزهرة بالزهرة .

فزعت لهول ذلك الأمر ، وقصدتُ أحد أساقفتنا ، فأخذ يعانى رياضتها فلم يجد إلا شِمَاسا وامتناعا . وعَزَّت على الرجل خيبته فكتب إلى معتمد الدولة الاسبانية بأمر الأسرة الخارجة على دينها . وهنالك آمر المعتمد حكومة مصر فساقت إليه الفتاة كما ترى برغمها و رغم ذويها ليقذف بها بين جوانب دير تسترد فيه دينها القديم ! . . .

قلت : أو أرضاك أن تساق ابنتك سوق الآثمات المجرمات على غير أثم

ولا جريمة ؟ ! فزفر الرجل زفرة كاد يتصدَّع لها قلبه واحناء ضلوعه ثم قال : أما لقد خُدِعت ودُهمت ، وغلب أمر الحكومتين أمرى فما عسانى أفعل ؟

على أثر ذلك انثنيت الى الفتاة وهى تعالج من أهوال الحزن وأثقاله ما تخشع الراسيات دون احتماله فقلت : ما بالك يا فاطمة ؟ — وكأنها أنست منى ما لم تأنسه ممن حولها — فأجابتنى بصوت يتعثر من الضنى : لنا جيرة مسلمون ، أغدو اليهم فأستمع أمر دينهم . حتى اذا أخذنى النوم ذات ليلة رأيت النبى محمداً صلى الله عليه وسلم فى هالة من النور يخطف سناها الأبصار ، يقول وهو يلوّح إلىّ بيده : « اقتربى يا فاطمة » . ولو أنك أبصرتها وهى تنطق باسم النبى محمد لرأيت رِعْدَة تتمشى بين أعطافها وأطرافها حتى تنتهى إلى أسنانها فتخالف بينها ، وإلى لسانها فتعقله ، وإلى وجهها فتحيل لونه . فلم تكد تستتم جملتها حتى أخذتها رجفة فهوت على مقعدها كأنها بناء منتقض ! إلى ذلك الحدّ غشى الناس ما غشيهم من الحزن . وأبصرت بشيخ يتمشى فى ردهة القطار فطلبت إليه أن يؤذن فى أذنها ، فلما انتهى إلى قوله « أشهد أن محمداً رسول الله » تنفست الصُّعَدَاء ، وأمعنت فى البكاء ، وعاودتها سيرتها الأولى . فلما أفاقت قلت لها : ومِمَّ تخافين وتفزعين ؟ قالت : أنه سيؤمر بى إلى دير . . . حيث ينهلون السياط من دمى . ولست من ذلك أخاف ألا أن أخوف ما أخاف يومئذ أن يحال بينى وبين صلاتى ونسكى ! قلت لها : يا فاطمة أوَلا أدلك على خير من ذلك ؟ قالت : أجل . قلت إن حكم الاسلام على القلوب . فما عليك لو أقررت بين يدى المعتمد بدينك القديم ، وأودعت الاسلام بين شغاف قلبك ، حتى لا يفوتك أن تقيمى شعائره حيث تشائين ؟ . هنالك نظرت إلىّ نظرة تضاءلتُ دونها حتى خفيتُ على نفسى ثم قالت : « دون ذلك حزّ الأعناق وتفصيل المفاصل ! دعنى ! فانى أن أطعت نفسى عصانى لسانى » . وكان ضلالاً ما توسلت به أنا وأبوها ومَن حولها .

كان ذلك حتى أوفينا على القاهرة فخيل دونها .

لم أعلم بعد ذلك شيئاً من أمر فاطمة لأنى لم أستطع أن أعلم . . .

رحمة الله وبركاته عليك يا فاطمة ، فما أنت أولى شهيدات الرأى الحر ، والايمان الوثيق .

ذلك ما رأيته ، ولا والله ما غيّرت منه شيئاً إلا أن يكون اللفظَ بمرادفه . فان يكن الوقوف دون الحقيقة تغييراً فذلك مالِيَ العذر فيه .

مِثْلُ ذلك التصديق العميق من شأن المرأة وطبيعتها ، وسبيله ما أسلفنا من خلالها وسجاياها . وإذا كان جمهور النساء يقدسن أجداث الموتى ، ويؤمنَّ بنوافر العادات فلا يتحولن عن ذلك الايمان المقدس مهما خانتهن التجارب وأخلفت منهن الظنون ، فكيف بهن لو وجهت وجوههن إلى الله العزيز القهار ، وعلمن حق العلم أنه وحده بارىء النسم ، ومبيد الأمم ، وأنه وحده العليم بخفيات السرائر ، ونزعات الضمائر ؟

لذلك كان دين المرأة — اذا طُبعت عليه — أكثرَ وضحاً ، وأوضح سناً ، وأرسخ أصولاً ، وأبعد عن عثرات الحيرة ونزغات الشيطان — من دين الرجل . ولذلك كانت — إذا أُخذت به ، ونشأت على حبه — أشد الناس عصمة فى السر والعلانية ، وأطهرهم صحيفة فى المشهد والمغيب ، وأبعدهم عن اقتراف المآثم ، واجتراح المحارم ، إذا سكنت ألسنة الزواجر ، وهدأت عيون الرقباء .

ان ضلالاً أن تعمد إلى الصَّبيَّة فتَعصِبها بالشدة ، وتُقَنّعها بالهوان . فانك ان فعلت هوَّنت نفسها ، وثلمت حسها ، فلا تشعر بعدئذ بأوزار العار ، ولا تبتئس بانثلام الشرف . ولَخيرٌ للعالَم يومئذ أن تَطوىَ صفحتها ، وتودىَ بحياتها من أن تقذفه بها داء دويا ، وجرثومة وبيئة .

وإن محالاً أن تعمد إلى الأخلاق النظرية فتسوقها إليها قواعدَ يزحم بعضها بعضاً ، وعظاتٍ ينهال بعضها على بعض . فان ذلك مما يَكِدُّ ذهنها ، ويثقل خاطرها . وربما شق عليها استظهارها ، فأبغضتها وأبغضت ما حوتها .

ليس إلا الدين . فهو وحده الذى يملك زمام نفسها ، وقِوام أمرها ، بما فيه من ذكر الله ، ووصف جلاله وعظمته ، وملكوته وجبروته ، وعجيب صنعه وبديع آياته ، وقدرته ورحمته ، وناره وجنته ، وأشباه ذلك مما يوافق سجيتها ويثير عاطفتها ، ويزيد غرسها زكاء ، ونفسها صفاء .

وليس بفائتنا أن نقص عليك قَصَصاً مما يسوقه بعض كتب التربية الفرنسية دعماً لذلك الرأى واعزازاً له :

قالوا : أن صبيَّة فى التاسعة من عمرها مَرِنت على الإساءة إلى أُمها ، ولم تزدها الأيام إلا جفوة وعناداً ، حتى لقد رمتها ذات عشية بقطعة من الخبز كانت فى يدها ! ذُهلت الأم لذلك واضطربت . وخرجت لساعتها إلى مربية ابنتها بالمدرسة تشكو إليها بثها ، وسوء صنيع ابنتها بها . فهدأت ثائرتها ، وقالت لها : دعينى وإياها .

استهل الصباح ، فدرجت الصبية إلى مدرستها . ودق ناقوس الكنيسة فغدا إليها التلميذات وهى معهن ، ثم أخذت كل واحدة مكانها . وأقبلت المربية فجلست مطرقة صامتة ، لا تقول شيئاً ، ولا تفعل شيئاً . تطاول الوقت حتى أوشك أن ينتهى . ونشرت السكينة رواقها على البنات جميعاً ، وأبى عليهن جلال المكان وهيبة المربية أن يكلمنها . ثم اعتزمت الكلام فكن جميعاً عيوناً شواخص إليها وقلوباً حوائم إليها . فانطلقت تقول :

بينكن صبية أغضبت الله ! . . . وأخشى أن يشملنا جميعاً غضبه لوجودها فينا ، أو تعلمن أىّ أثم اقترفت ، وإلى أىّ هاوية من الخطيئة سقطت ؟ أنها أهانت أمها ! !

فأما حديثها ووصف اهانتها فأنتن فى غنى عنه ، لأنه موجع مؤلم ، وليس لمثلى أن يفوه به . فأنا أخجل أن أُقرَن بين يدى الله إلى صبية آثمة

هنالك أخذت كل واحدة تفتش فى ثوبها هل تجد بين حواشيه تلك الفتاة الآثمة ؟ فأما من ذكرت لأمها قبلة ، أو اعتناقة ، أو دعوة بخير ، فتلك الظافرة المبتهجة

أما صبيتنا فقد ودَّت لو انفرجت الأرض فوارتها بين أحشائها . ولو وفِّقت إلى ذلك لتلمست المهرب من غضب الله ، وايلام الضمير فلا تجده .

أقامت الصبية نهارها ، ولو أقامته على أنياب الأفاعى لكان أهون عليها وأروح لها مما لقيت . حتى إذا آذنت المدرسة بالانصراف ، خرجت وهى تتلفت فى كل ناحية . فما كادت تنتهى إلى أمها حتى ارتمت مُكِبَّةً عليها ، تقبلها وتبللها بدموعها . ومنذ ذلك الحين أصبحت أسمى البنات أدباً . وأسمحهن خلقاً

فيأيها الماضون فى تعليم البنت : وَطِّنوا أنفسكم قبل أن تبدأوا أعمالكم ، أن تجعلوا الدين علمها الخفاق على رأسها ، وأكليلها المشرق فوق جبينها ، وكوكبها المتألق فى ظلمات الدهر ، ومدلهمات الخطوب . وإلا فَقَدْتُم خلقها ، وهو أعزّ ما ملكت يمينها . وهنالك لا تجدون العلم إلا مدرجة الشر ، وسبيل الفساد ؟

المـرأة العربيـة

فى ظل الإسـلام

دور العظمـــة

أسفر نور الإسلام فافترَّ ثغر الدهر لنساء العرب عن جوّ مُشرق ، وأمل بعيد ، وأسلوب من الحياة جديد .

لقد كان للمرأة العربيـة فى عهد جاهليتها فضائلها المكسوبة ، ومواهبها الموروثة ، وحقوقها التى تمَّ لها بعضها ، وسلب الجهل وسوء نظام الاجتماع بقيَّتها فأما وقد رسخت أصول الإسلام ، ووَرِفت ظلاله ، وخفقت على الخافقين أعلامه ، ونَعِمَتْ هى تحت ظله بوثوق الإيمان ، وتقلبت بين أعطاف الملك ، ونهلت من معين العلم ، وضربت بسهم فى التشريع ، وشُرِع لها من الحقوق ما لم يُشرَع لأمة من الأُمم فى عصر من العصور — فقد أمعنت فى سبيل الكمال طَلْقة العنان ، حتى أخملت من بين يديها ، وأعجزت من خلفها ، فلم تشبهها امرأة من نساء العالمين فى جلال حياتها ، وسناء منزلتها .

ذلك حكم للحقيقة وللتاريخ ، لا لعاطفة الدين ، ولا لآصِرَة الرحم ، ولا لحسن نسق اللفظ . له عِلَله وحِكَمه ، وأسبابه ودواعيه ، ومقدماته ونتائجه . وإنا لماضون بعون الله فى الوفاء بذلك كله . بادئين بما منع الإسلام عنها من حيف ، وما شرع لها من حق . معتمدين فيما نقول على كتاب الله ، وسنة رسوله وسيرة البررة الأخيار من آله وصحابته . فذلك كله مرجع أمرنا ، ومنار بصائرنا .

المـرأة العربيـة

بين العهـــدين

على الرغم مما لقيت المرأة العربية فى عهد جاهليتها من كرامة لا تمارَى، ومكانة لا تُسامَى، ومجالات درجت فيها إلى موطن الملك، ملك الجوارح والقلوب — على الرغم من ذلك كله تعثر بها الدهر عثرات، وَقَرَتْ فى بعض المواطن عظمها، وانتظمت قلبها، وتغشّتها بظُلَل من الفزع، وظلمات من الأهوال.

كذلك لبثت المرأة العربية تتعثر حتى استبان وضح الإسلام فأقالتها يد الله وهأنذا أبسط القول فيما رفع الإسلام عنها من غواشى الظلم فى عامة أحوالها، ومختلف أطوارها.

١ — الوليدة المسلمة

من العرب مَنْ كان يرى البنت حملاً فادحاً يضعف دونه احتماله، وتتخاذل قواه لفرط ما يُشفق من وصمة الذل، ووسم العار، إذا وهنت نفسها، أو ذهب السباء بها، فكان بين أن يستبقيها على كره لها، ومضض منها، وترقب لموتها، أو يفزع إلى الحُفَر فيقذفها فى جوفها، ويُهيل التراب على غَضَارة عُودها، ونضارة وجهها. فما أشدَّ ما عابَ الله أمر ذلك عليهم، ونقمه منهم، ودلَّ على سفه رأيهم وسوء صنيعهم فى مواطن كثيرة من كتابه الكريم. فقال جل ذكره:

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِٱلْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ».

(١) الكظيم الممتلىء غيظاً وأصل الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه اذا أخذ بمخرج نفسه ومنه كظم الغيظ لاخفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه

وقال تباركت آيته : « وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[1] »

وقال تعالت حكمته : « قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » .

وفى القرآن الكريم كثير من مثل ذلك أليم شديد .

وكان قيس بن عاصم المِنقَرى يُحَدِّث بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم عن ضحاياه الموءودات وانه ذهب باثنتى عشرة منهن . فقال عليه الصلاة والسلام « مَنْ لا يَرحم لا يُرحم » وأمره أن يعتق بكل واحدة جارية مؤمنة[2] .

وكان العرب يأنفون أن يداعب الرجل وليدته ، أو يسمح لها أن تمرح بين

---

(١) انما صرف الله سبحانه السؤال الى الموءودة ولم يوجهه الى الوائد اظهارا لفرط السخط عليه والاحتقار له كأنه لهوان شأنه وشناع جرمه لايستحق أن يوجه السؤال اليه (٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٥٧ وتفسير الطبرى ج ٣٠ ص ٤٠ : وكان قيس من سادات تميم وممن عقدت عليهم الخناصر فى البسالة والفصاحة والكرم والحلم . وكان الأحنف بن قيس يقول انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم . حضرته يوما وهو محتب « أى ضام ساقيه الى صدره » يحدث اذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له مؤثق فقالوا ان هذا قد قتل ابنك هذا فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى اذا فرغ من الحديث التفت اليهم فقال رعيتم الفتى وأقبل عليه وقال يابنى نقصت عددك وأوهنت ركنك وفتت عضدك واشمت عدوك وأسأت بقومك ثم قال أين ابنى فلان فجاءه فقال يا بنى قم الى ابن عمك فأطلقه والى أخيك فادفنه والى أم القتيل فاعطها مائة ناقة فانها غريبة لعلها تسلو ثم اتكأ على شقه الأيسر وأنشأ يقول

انى امرؤ لا يعترى خلقى ... دنس يفنده ولا أفن
من منقر من بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحسن جواره فطن

وقد وفد قيس على رسول الله فى وفد بنى تميم ودعاه صلى الله عليه وسلم سيد أهل الوبر — أى سيد أهل البادية — وفيه يقول عبدة بن الطبيب — وقد وقف على قبره —

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
سلام امرئ جللته منك نعمة ... اذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ومما قالوا فى حديث هذا الوأد ان النعمان بن المنذر أوقع ببنى تميم لمنعهم الاتاوة عنه فاستاق نعمهم وسبى نساءهم — وفيهن بنت لقيس — فوفدت وفودهم على النعمان ضارعين اليه أن يرد عليه نساءهم فحكم النعمان أن يجعل الخيار الى النساء فأية امرأة آثرت زوجها ردت اليه فكلهن اخترن أزواجهن الا ابنة قيس فأنها اختارت سابيها فنذر قيس أن يئد كل ابنة تولد له

يديه . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نقض تلك السنة السيئة ، فلم يكن يضنُ بوقته الأعزّ أن يداعب فيه الولائد من بناته أو بنات صحابته .

فقد حدَّث البخارى عن أبى قتادة قال : خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم وأُمامة بنت أبى العاص على عاتقه ، فصلى ، فاذا ركع وضعها ، واذا رفع رفعها[١]

وحدثت أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى وعلىّ قميص أصفر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَنَهْ سنه » — وهى بالحبشية حَسَنة — قالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة فانتهرنى أبى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَبْلى وأَخْلِقى ثم أبلى وأخلقى ، فعُمِّرَت بعد ذلك ما شاء الله أن تعمر[٢] .

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ٧ — طبع بولاق — وفى رواية ابن سعد عن أبى قتادة [بينا نحن على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل أمامة بنت أبى العاص بن الربيع — وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهى صبية قال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على عاتقه يضعها اذا ركع ويعيدها على عاتقه اذا قام حتى قضى صلاته يفعل ذلك بها] . وكانت أمامة من أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حديث ابن سعد انه صلى الله عليه وسلم دخل على أهله ومعه قلادة جزع فقال لأعطينها أحبكن الى فقلن يدفعها الى ابنة أبى بكر فدعا بابنة أبى العاص فعقدها بيده .

وقد زوجت أمامة من على بن أبى طالب عليه السلام بعد موت خالتها فاطمة صلوات الله عليها

(٢) أم خالد : هى أمة — بفتح الهمزة والميم — بنت خالد بن سعيد بن العاص ابن عبد شمس . وكان خالد بن سعيد قد هاجر الى الحبشة ومعه امرأته هيمنة بنت خلف فولدت له هناك أمة وهنالك قضت شطرا من عهد طفولتها وآبت الى المدينة وقد بدأت تدرك ما يحيط بها . ومما قالت : سمعت النجاشى يوم خرجنا يقول لاصحاب السفينتين اقرئوا جميعاً رسول الله منى السلام فكنت أنا فيمن بلغ رسول الله

وهى من اللواتى روين كثيراً عن رسول الله

وفى رواية ابن سعد عن اسحاق بن سعيد عن أبيه عن أم خالد قالت أتى رسول الله بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة — الخميصة كساء أسود مربع له علمان — فقال من ترون أكسو هذه الخميصة ؟ قالت فأسكت القوم فقال ائتونى بأم خالد قالت فأتى بى رسول الله أحمل فألبسنيها بيده وقال أبلى وأخلقى — يقولها مرتين أو ثلاثا — وجعل ينظر الى علم فى الخميصة أصفر أو أحمر فقال هذا سنا يا أم خالد هذا سنا يا أم خالد — ويشير بأصبعه الى العلم — والسنا بلسان الحبش الحسن

وتزوجت أمة بالزبير بن العوام فولدت له عمرا وخالدا . وعمرت من بعده أمداً طويلا وخاتم النبوة سمة مستديرة من الشعر بين كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن حديث عنايته صلى الله عليه وسلم بهن ، وأمره ببذل الرحمة ، واسداء المعونة لهن ، ما حدثت عائشة أم المؤمنين قالت : جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة . فأعطيتها . فقسمتها بين ابنتيها . ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته . فقال : « من ابتلِى من هذه البنات بشىء كنَّ له سِتْرًا من النار[1] » .

* * *

أما حبه عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة ، وشغفه بها ، وحنانه عليها ، فما لا يحيط به وصف ولا يناله بيان . وهى التى يقول فيها : فاطمة بضعة منى يسوءنى ما يسوءها ، ويسرنى ما يسرها .

أبصر المسلمون كل ذلك ، ورأوا أن الله لم يختص فاطمة بنت محمد بذرية رسوله الا ليُشيد بالمرأة ، وينهض بأمرها ، ويرفع من شأنها ، ويأخذ العرب بحبها ، والابتهاج بها . فغدوا من بعده يحبون بناتهم ويُكرِمونهن ، ويرون الخير كله معقوداً بنواصيهن . وقد استخلص وهب بن مُنَبِّه من تقديمه سبحانه الإناث فى قوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ » ان من يُمن المرأة أن تلد الأنثى قبل الذكر .

وكان لمعن بن أَوس[2] ثمان بنات ، ويقول : ما أُحب أن يكون لى بهن

---

(١) ج ارشاد السارى ٣ ص ٢٢ طبع بولاق

(٢) كان معن سيدا من سادات مزينة وعلماً من أعلام التابعين ورأساً من رؤوس الشعراء حدث أبو على القالى عن أبى عبيدة قال كان عبد الملك بن مروان ذات ليلة فى سمره مع ولده وأهل بيته وخاصته فقال لهم : ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل فى الشعر وليفضل من رأى تفضيلة فأنشدوا وفضلوا فقال بعضهم امرؤ القيس وقال بعضهم النابغة وقال بعضهم الأعشى فلما فرغوا قال أشعر والله من هؤلاء جميعاً عندى الذى يقول

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمى عنه وليس له حلم
يحاول رغمى لا يحاول غيره ... وكالموت عندى أن يحل به الرغم

الى آخر القصيدة — أمالى القالى ج ٢ ص ١٠٣ — ١٠٥ فقيل له يا أمير المؤمنين من قائل هذه الأبيات قال معن بن أوس المزنى

رجال . وفيهن قال :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا تُكذَبُ نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملنـــه ونوائح

وحدّثوا أن عمرو بن العاص دخل على معاوية بن أبى سفيان وعنده بنت له يلاعبها. فقال له : انبذها عنك يا أمير المؤمنين ! فوالله انهن يلدن الأعداء ، ويقرّبن البعداء، ويؤدّين الضغائن . فقال معاوية : لا تقل ، فما ندب الموتى ، ولا تفقدَ المرضى ، ولا أعان على الحزن مثلهن .

وقال الزهرى : كانوا — يريد أصحاب رسول الله — لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة ، ولا جهاداً ، لحاجتهن اليه ، وشُغُلِهِ بهن ، والعناية بتربيتهن[1]

وكأن أبا خالد القنانى[2] — وكان من عُلاة الخوارج — يشير الى ذلك ، وكان قد طُلب اليه الغُدُوُّ الى القتال فقال :

لقد زاد الحياة الىَّ حبًّا بناتى انهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى وأن يشربن رنقاً بعد صاف
وأن يَعْرَين ان كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولاذاك قد سَوَّمت مُهرى وفى الرحمن للضعفاء كاف
أبانا من لنا ان غبت عنا وجَدَّالحى بعدك فى اختلاف

---

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٥٥ (٢) كان أبو خالد من زعماء الخوارج وعلمائهم وكان من القعدة — الذين لا يرون خوض الحروب — وسبيله فى ذلك ما أوضحه فى أبياته . وكان قطرى بن الفجاءة كبير الخوارج قد كتب اليه .

أبا خالد أنفر فلست بخالد وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد

فأجابه بما أسلفنا من شعره — الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢١ مطبعة التقدم

٢ — فوارق النساء

مزّق الاسلام حجب الفوارق بين النساء ، كما مزّقها بين الرجال . فتطامنت الرؤوس ، وتساوت النفوس ، فلم يكن بين المرأة والمرأة الا الخير تتقدّم به ، أو العمل الصالح تسبق اليه . فامّا أن تُدِلّ بعَرَض طارف ، أو تعتزّ بحسب قديم فذلك ما لا يقدّمها أُنملة ، ولا يُغنى عنها من الله شيئا .

لقد شرع الله للمؤمنين شِرعة الإخاء بقوله جلّ شأنه : « انما المؤمنون إخوة » فلم يكن يفْرِق بين المسامة والمسلم ، ولا بين المسلم والمسلمة ، إلا شريف الخلق وخسيسه . فذلك حيث يقول الله تباركت حكمته فى كتابه الكريم : « اَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ » . وكذلك استنّ رسوله صلى الله عليه وسلم سنة المساواة بقوله : « ألا وإن المسلم أخو المسلم فلا يحلّ لمسلم من أخيه إلا ما أحلّ من نفسه » . وهو الذى يقول صلى الله عليه وسلم : كل نسب وسبب يوم القيامة مقطوع الا نسبى وسببى » . ولا أدلّ على ما نقول من حديث فاطمة بنت الأسود المخزومية — وهى امرأة من ذوات الشرف والحَسَب من قريش — وَهَنت نفسها فسرقت ، فقامت عليها البينة ، فوجب عليها الحد . فأهمّ ذلك قريشاً . فقالوا : من يُكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أتشفع فى حدّ من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : يأيها الناس إنما ضلّ مَنْ قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه

وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها[١] .

أرأيت لو ذهبت صبيَّة جارية بقطيع من الغنم ، فعدا الذئب على واحدة فأكلها ، فنهض مولى الصبية إليها يضربها ، أكان ذلك غريباً على الناس ، بعيداً عن مواقع أسماعهم وأبصارهم ؟ لقد حَدَث ذلك فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وغدا الرجل على رسول الله يخبره بما أصاب به جاريته . فاشتدَّ بالنبي الغضب حتى احمرَّ وجهه ، وهاب أصحابه أن يكلموه . ووقف الرجل واجماً لا حراك به . وقال عليه الصلاة والسلام عند ذلك : وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ! وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ! . وما زال يكررها . ثم قال : أن خدمكم إخوانكم جعل الله لكم الولاية عليهم . فلم يجد الرجل مساغاً من موقفه إلا بعتق جاريته[٢] .

---

(١) ارشاد الساري ج ٩ ص ٥٠٤ — ٥٠٥ طبع بولاق

فاطمة بنت الاسود : هى فاطمة بنت الاسود بن عبد الاسود المخزومية . وعمها أبو سلمة ابن عبد الأسد الزوج الأول لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنهما . وكانت قد سرقت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حلياً فى قطيفة . وقيل كانت تستعير المتاع وتجحده . وقد ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من قريش فعرضوا عليه أن يفتدوا فاطمة بأربعين أوقية من الذهب . فقال : تطهر — أى يقام عليها الحد — خير لها . فغرهم ذلك الأسلوب من نبي الله . فكلموا أسامة . فكان ما أسلفنا فى الحديث الشريف . وقد تولى بلال قطع يدها . أقول : وقد أحسنت فاطمة الاتابة الى الله بعد ذلك

أما أسامه فهو حب رسول الله ، وابن مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنهما . وكان رسول الله يقرنه فى الحب بالحسن بن علىّ عليهما السلام . ومن حديث البخارى عن أسامة أن رسول الله كان يضعه على فخذه والحسن على فخذه الأخرى ثم يضعهما ويقول : اللهم ارحمهما فانى أرحمهما . وقد قتل أبوه فى غزوة مؤتة وكان قائد القوم . وأسامة يومئذ صبي . وقد جهز رسول الله أسامة فى جيش عظم الى أبنى — بالشام — وهو على رأس الثامنة عشرة . ومات رسول الله قبل مسيره . فلما استخلف أبو بكر كان بدء عمله انفاذ الجيش وسار هو وعمر فى ركاب أسامة . وكان ظفر الجيش بالروم عظيما . ومات أسامة سنة ثلاث وخمسين . رضى الله عنه

(٢) وفى رواية أبى حنيفة : أن عبد الله بن رواحة كانت له راعية تتعاهد غنمه وأنه أمرها أن تتعاهد شاة . فتعاهدتها حتى سمنت الشاة . واشتغلت الراعية ببعض الغنم . فجاء الذئب فاختاس الشاة وقتلها . فجاء عبد الله وفقد الشاة ، فأخبرته الراعية بأمرها . فلطمها ثم ندم على ذلك . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال ضربت وجه مؤمنة ! فقال انها سوداء لا علم لها فأرسل اليها النبي صلى الله عليه وسلم فسألها أين الله فقالت فى السماء قال فمن أنا قالت رسول الله قال : انها مؤمنة فاعتقها . فأعتقها مسند الامام أبى حنيفه ص ٣

ولقد ورث عليه الصلاة والسلام فيما ورث عن أبيه جارية عَسْراء اللسان لا تكاد تبين : هى أم أيمن . فكان صلى الله عليه وسلم يدعوها أُمّه . وكان إذا نظر إليها قال : هذه بقية أهل بيتى[1]

وكان من أشد ما يؤلم نفسه الكريمة ، أن يسمع الرجل يعيِّر الرجل بأمه . وآية ذلك ما حَدَّث المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذرّ الغِفارى وعليه حُلة وعلى غلامه حُلة . فسألناه عن ذلك فقال : إنى سابيت رجلاً فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أعَيَّرته بأمه ! إنك امرؤ فيك جاهلية . ثم قال : إن خدمكم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يَغْلِبهُم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم[2] .

---

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص ١٦٢ طبع ليدن

أم أيمن : هى حاضنة رسول الله ومربيته ، ورثها رسول الله فيما ورث عن أبيه وقد أعتقها حين تزوج خديجة عليها السلام فتزوجها عبيد بن زيد الانصارى فولدت له أيمن . وكان أيمن موفور الدين . قتل شهيداً يوم حنين رضى لله عنه . ولما مات عبيد خلفه عليها زيد بن حارثة فولدت له أسامة . وكان مما عظمها فى عين زيد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن

وهى من اللواتى أكرمهن الله وأحسن مثوبتهن فى الدنيا والآخرة : حدث ابن سعد عن عثمان بن القاسم قال : لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء فعطشت وليس معها ماء وهى صائمة فجهدها العطش فدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فأخذته فشربت منه حتى رويت فكانت تقول ما أصابنى بعد ذلك عطش ولقد تعرضت للعطش بالصوم فى الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة وان كنت لأصوم فى اليوم الحار فما أعطش

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأنس بها ويمازحها . وكانت عسراء اللسان ومن عسر لسانها أنها كانت تقول اذا دخلت على رسول الله : سلام لا عليكم — تريد سلام الله عليكم — فرخص لها عليه الصلاة والسلام أن تقول : السلام . ومن حديثها أنها قالت لرسول الله وهو خارج فى جيشه الى حنين « سبت الله أقدامكم » — بالسين — تريد ثبت — بالثاء — ومعنى سبت قطع — فقال صلى الله عليه وسلم اسكتى يا أم أيمن فانك عسراء اللسان وقد حضرت أم أيمن أحداً مع رسول الله فكانت تسق الماء وتداوى الجرحى

(٢) ارشاد السارى ج ٣ ص ٣٦١

أبو ذر هو جندب بن جنادة بن سكن الغفارى — وغفار بطن من كنانة — أحد السابقين الأولين من المؤمنين . أسلم والاسلام فى مستهل أمره والنبى غريب فى قومه فكانت قوة صادعة وعضدا قويا . وحديث اسلامه حديث بديع وهو فيما رواه البخارى قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم

ذلك الإخاء الشامل هو الذى حمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يزوّج ابنه عاصما — وهو أحب أبنائه اليه — من ابنة امرأة تبيع اللبن فى الطريق ، وهو لو شاء زَفَّ اليه أكرم وأعزّ امرأة فى العالم . ولكنه آثر الخلق العظيم على البيت الكريم ، والمجد القديم . وتفصيل ذلك فيما رواه الميدانى أن عمر رضى الله عنه مرَّ بسوق الليل — وهى من أسواق المدينة — فرأى امرأة معها لبن تبيعه ، ومعها بنت لها شابة . وقد همت العجوز أن تمْذِق لبنها — تخلطه بالماء — فجعلت الشابة تقول : يا أُمَّة لا تمذقيه ولا تغُشّيه . فوقف عليها عمر فقال : مَن هذه منك ؟ قالت : ابنتى . فأمر عاصما فتزوجها .

أقول : وقد أنجبت هذه المرأة — فيمن أنجبت — أورع الملوك وأعدلهم وأجلّهم عمر بن عبد العزيز ، فهى جدّته لأمه . رضى الله عنهم أجمعين[1] .

قال لأخيه : اركب الى هذا الوادى — يريد وادى مكة — فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم انه نبى يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتنى فانطلق الاخ حتى قدمه وسمع من قوله ثم رجع الى أبى ذر فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاما ماهو بالشعر فقال ماشفيتنى مما أردت فتزود وحمل شنة له فيها ماء — والشنة القربة الخلقة — حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبى صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه فأدركه بعض الليل فرآه على بن أبى طالب فعرف انه غريب فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى أصبح ثم احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه النبى صلى الله عليه وسلم حتى أمسى فعاد الى مضجعه فمر به على فقال أما آن للرجل أن يعلم منزله — وذلك أسلوب بديع للدعوة الى الضيافة — فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى كان يوم الثالث فعاد على على مثل ذلك ثم قال ألا تحدثنى ما الذى أقدمك . قال ان أعطيتنى عهدا وميثاقا لترشدننى فعلت ففعل فأخبره فقال فانه حق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أصبحت فاتبعنى فانى ان رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء فان مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى فانطلق يقفوه حتى دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى قال والذى نفسى بيده لأصرخن بها — يريد كلمة التوحيد — بين ظهرانيهم — يريد قريشاً — فخرج حتى أتى المسجد — يريد الكعبة — فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول ثم قام القوم — من قريش — فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ألستم تعلمون انه من غفار ؟ وان طريق تجاركم الى الشام عليهم ؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكب العباس عليه فأنقذه منهم ورجع الى قومه فأسلم أخوه وأسلمت أمه وتابعتهم غفار بعد ذلك . وكان رضى الله عنه من أحب الناس الى الله ورسوله وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر . ومات رضى الله عنه بالربذة سنة احدى وثلاثين . الاصابة ج ٧ ص ٦٢ المطبعة الشرفية

(١) الميدانى ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ المطبعة الخيرية

٣ — بوائق الغيرة

الغيرة ضرب من ضروب الأَثَرة ، لا بد منه لحياطة الشرف ، وصيانة العرض وهى مثار الحمية والحفيظة فيمن لاحمية ولاحفيظة له . وانما تقبل — بل تجب — اذا خاف الرجل على شرفه أن ينثلم ، وعرضه أن يهان . فاما أن تقتاد الرجل فى كل آنة ، وتفزعه فى كل موطن ، فهى خَبْل ووسواس ، وأولى بها أن تدنى اليه الشر من حيث يتقيه .

ولقد مُنِىَ العرب فى جاهليتهم باتقاد الغيرة حتى جاوزوا بها طورها ، وحتى قادت فريقاً منهم الى قذف زوجته فى عرضها ، لهاجس اعتاده ، أو خلجة من الشك نقذت اليه . فرفعوا خصومتهم ، واحتكموا فى أعراضهم الى فريق الكهان والكواهن ، وهم بَشَر يقذفون الغيب برجم الظنون ، فيخطئون ويصيبون

وان من أشد ضروب الوهم ، وأفدح أثقال الظلم ، أن ترى العربى يريد السفر ، فيعمد الى شجرة فيعقد بين غصنين منها ، فان عاد وكان الغصنان على حالهما ، زعم أنها لم تخنه ، وإلا فقد خانته . وذلك ما يسمونه بالرتيمة[1] . كأن عرض المرأة ، بل عرض الأسرة ، بل عرض الحى الذى نشأت المرأة بين ربوعه ، ودرجت بين مدارجه مُرتَهن بغصنين ، تعصف بهما الريح ، أو تعبث بهما الأيدى ، فتفرق بينهما .

أما أسباب تلك الغيرة الموبقة ، فقد قطعها الإسلام ، إلا أن تكون عن علم وبينة . فأما حكم الرِّيب ، واحتكام الشبهات فذلك ما ليس من الدين فى شىء

وقد فرض الله جل ذكره على من رمى امرأته فى عرضها أن يشهد أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، فيما قال وادعى . والخامسة أن لعنة الله عليه

(١) لسان العرب ج ٥١ ص ١١٦ طبع بولاق

ان كان من الكاذبين . فان لم يصدع بتلك الشهادات الخمس ، فعقوبته عقوبة قاذف المحصنات بجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهادة أبداً ، وهو عند الله من الفاسقين.

* * *

وهنالك حديثان حَدَّث بهما البخارى عن نبى الله صلى الله عليه وسلم يكشفان عن مواطن الغيرة حقها وباطلها ، وما ورد من حكم الله ورسوله فيها .

فالأول حديث المغيرة قال :

قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مُصْفَح — أى غير مائل عرضاً — فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغيرُ منى ، ومن أجل غَيْرَة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن[1] .

وأما الثانى فحديثه عن أبى هريره قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه أعرابى فقال : يارسول الله ان امرأتى ولدت غلاماً أسود . فقال هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : ما ألوانها ؟ قال : حُمْر . قال : أفيها أوْرَق ؟ قال : نعم . قال : فأنَّى كان ذلك ؟ قال : أراه عِرْقٌ نزعه . قال : فلعل ابنك هذا نزعه العرق[2] .

---

(١) ارشاد السارى ج ٨ ص ١٢٢ — ١٢٣

سعد بن عبادة : هو السيد البطل الكريم سعد بن عبادة بن دليم الانصارى سيد الخزرج وأحد النقباء الذين قال لهم رسول الله فى بيعة العقبة أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء كـكفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى . ففالوا : نعم . وكان سعد من أندى الرجال يداً وأعرفهم بالرمى والسباحة ولذلك كانوا يسمونه الكامل . وكان مناديه ينادى كل يوم : من أراد شحماً ولحماً فليأت سعداً . وكانت مائدته تدور مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بيوت أزواجه . وكان يضيف كل ليلة ثمانين من أهل الصفة — المنقطعين للعبادة — ومن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . ومات رضى الله عنه بحوران سنة خمس عشرة

(٢) ارشاد السارى ج ١٠ ص ٣٨ طبع بولاق

واسم ذلك الاعرابى ضمضم بن قتادة . والبعير الاورق الذى جمع بين السواد والبياض وقول الاعرابى « أراه عرق نزعه » أى أن أصلا من أصول نسبه جذبه اليه . قال صاحب الاصابه — ج ٣ ص ٢٧٤ — وقد قدم بعد ذلك عجائز من عجل — قبيلة المرأة — فشهدن بأن كان للمرأة جدة سوداء

فانظر كيف شرع النبي صلى الله عليه وسلم شرعة الغيرة وَضّاحة صافية لا مجال فيها لنزعات الوهم، وعثرات الوساوس، وكيف اتقاها، ووَقى الناس شرها من التباس الشك، واحتكام الظنون.

أن فى دفع النبي صلى الله عليه وسلم شر التهمة عن امرأة الأعرابى لدليلاً لا يقبل الشك على براءتها، وطهارة عرضها. فما كان الرجل فاعلاً لو كان فى عهد جاهليته ولم يهتد بِقَبَس من نور النبوة؟ ليس بين يديه إلا أن يفتك بها ويروى غليل نفسه بنقيع دمها، أو أن يتلمس العرّافين والمنَجّمين ليُلقوا إليه بالكلمة الحمقاء فيكون لها ما بعدها. وليس وراء الحالتين إلا عار الدهر، وذلّ الأبد.

لذلك تحامى المسلمون مواطن الظُّنَن، ومداحض التهم، حتى عدُّوا الاعتساف فى الغيرة سِمَة من الحمق، لا يستحقُّ صاحبها أن يُسَوَّد أو يطاع. ومن ذلك ما قال معاوية بن أبى سفيان: ثلاث من السؤدد، الصلع، واندحاق البطن، وترك الافراط فى الغيرة[1].

وقد ظهر فى المسلمين كثيرون ذمُّوا التورُّط فى الغيرة، وتوكيل الريب والظنون بالمرأة. ومما سار من القول فى ذلك، وحفل بوضح الرأى فيه، قول مسكين الدارمى[2]:

وانى امرؤ لا آلَفُ البيت قاعداً ... إلى جنب عِرسى لا أفرطها شبرا
ولا مقسم لا أبرح الدهر بيتها ... لأجعله قبل الممات لها قبرا

(١) عيون الاخبار ج ١ ص ٣٦١ طبع كوتنكن واندحاق البطن اتساعها
(٢) أمالى المرتضى ج ٢ ص ١٢٣ — ١٢٥
مسكين الدارمى: هو ربيعة بن عامر. ومسكين لقب غلب عليه كان يصف نفسه به فى مواطن وفى سبيله يقول

ان أدع مسكينا فلست بمنكر ... وهل ينكرن الشمس ذر شعاعها
لعمرك ما الاسماء الا علامة ... منار ومن خير المنار ارتفاعها

ومسكين فى الشرف الصميم من تميم. وكان صبيح الوجه فصيح اللسان ندى الكف عف السريرة. لذلك لم يأخذ فيما أخذ فيه شعراء عصره كجرير والفرزدق والاخطل من الهجاء وهو فى شعره فخور حكيم وهو الذى يقول

أخاك أخاك ان من لا أخا له ... كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح

اذا هى لم تُحْصِن أمام قِبابها فليس بمنجيها بنائى لها قصرا
ولا حاملى ظنى ولا قيلُ قائل على حائط حتى أحيط بها خبرا
فهبنى امرؤ راعيت ما دمت شاهداً فكيف اذا ما سرت من بيتها شهرا

وقوله :

ألا أيها الغائر المستشيط علام تغار اذا لم تُغَر
فما خير عرس اذا خفتها وما خير بيت اذا لم يُزَر
تغار على الناس أن ينظروا وهل يفتن الصالحات النظر
فانى سأخلى لها بيتها فتحفظ لى نفسها أو تذر
اذا الله لم يعطه ودها فلن يعطى الود سوط مُمرّ
ومن ذا يراعى له عرسه اذا ضمه والمطى السفر

وقوله :

ما أحسن الغيرة فى حينها وأقبح الغيرة فى غير حين
من لم يزل متهماً عرسه مناصباً فيها بوهم الظنون
يوشك أن يغريها بالذى يخاف أو ينصبها للعيون
حسبك من تحصينها ضمها منك الى خلق كريم ودين
لا تظهرَن منك على عورة فيتبع المقرون حبل القرين

ولعمرك ما كان مسكين فى شىء من سُقُوط الهمة، وفتور العزيمة، ولؤم الحسب، حتى يقال ضعف أن يملك امرأته فقال ما قال، فاللهم لا . فانه هو السيد البطل، الحكيم الكريم . وحسبك منه قوله :

اذا قصرت أيدى الرجال عن العلا مددت لها باعاً عليا فنلتها
ومكرمة كانت رعاية والدى فعلّمنيها والدى فنقلتها
وانى سألقى الله لم أرم حرة ولم تأثمنى يوم سر فخنتها
ولا قاذف نفسى ونفسى بريئة وكيف اعتذارى بعد ما قد قذفتها

بل حسبك منه قوله :

نارى ونار الجار واحدة واليه قبلى تنزل القدر
ما ضر جارى إذ أجاوره ألا يكون لبيته ستر
أعمى اذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الخدر
ويصم عما كان بينهما سمعى وما بى غيره وقر

٤ — السباء

كانت الحرب تعصف بالعرب ما شاءت أن تعصف ، ثم تنكشف عنهم وهم بين قاهر محتكم ، ومقهور ذليل . ثم لا تسكن نأمتها ، ولا يخفت هديرها حتى يستبيح القاهر حِمى المقهور ، ويستاق نساءه حواسر الرؤوس ، بين ذل الغربة ، وعار السباء ، وهو بعد ذلك إما مجمل يعتقهن فيتزوجهن ، وإما بغيض منتقم يتخذ منهن رعاة الإبل ، وجوارى الخسف ، ما شاءت له ثائرة نفسه ، وسموم حقده ، وبين هذا وذاك يحال بينهن وبين ذويهن فلا يلقون بعدهن إلا الهوان .

وأى نكبة تمرُّ بالمرأة أشد عليها من أن تكون ناعمة فى دارها ، آمنة فى سربها ، مبتهجة بين لداتها وعشيرتها ثم تمسى وقد سلّبها القاهر المستبيح من ذلك كله ، وقادها إلى امرأته سَبِية أسيرة ، تطلب رحمتها ، وتسأل انصافها .

كان ذلك أشد مواطن الرَّوع والفزع فى حياة المرأة العربية . فلما دخل العرب

فى دين الله أفواجا ، وأصبحوا بنعمته اخوانا ، حرم عليهم السباء . فلا يحل للمسلم أن يسبي المسلمة ، مهما عصفت بالقوم عواصف الفتن ، وفرّقتهم شُعَب الأهواء .

ولما سار خالد بن الوليد إلى حرب المرتدين فى عهد أبى بكر رضى الله عنه غدا على مالك بن نويرة وكان قد منع الزكاة وجحدها بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان أبو بكر قد أمره اذا سمع صوت المؤذن فى قوم أن يكف عن قتالهم — فأذّن مؤذن مالك ، وخشى خالد خدعة الحرب ، فقاتل مالكا وقتله ، وانتزع زوجه ، واتخذها زوجاً له ، فأثار ذلك حفيظة عمر بن الخطاب ، وهاج غضبه ، وقال لأبى بكر : اقتل خالداً ، فقد قتل مسلماً ، وزنى بمسلمة ، فقال أبو بكر : أن خالداً تأول فأخطأ ولا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين فلولا ثقة أبى بكر بايمان خالد ، وايمانه بصفاء دينه ، وقوة يقينه ، وان رسول الله قال فيه : أنه سيف من سيوف الله . لولا ذلك كله لما حمل عمله على خطأ الاجتهاد ولما جاوز فيه رأى صاحبه[1] .

* * *

ولقد ذاع الاسلام و بين أيدى العرب جوار من سباء الجاهلية ، فأولئك أقرهم الله سبحانه وتعالى عليهن بمثل قوله : « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ[2] » .

على أنه جل ذكره حبب إليهم تحرير الرقاب ، ورغبهم ترغيباً شديداً فى افتكاكها ، ورفع رقها ، بطرق ثلاث :

الأولى — أنه جعل ذلك أسمى ما يتقرب به الانسان إليه ، شكراً له على جليل

(١) كان مالك بن نويرة من أشرف تميم حسبا وأصدقهم لقاء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاه هو وأربعة من هامات القوم امرة تميم . فلما قبض عليه الصلاة والسلام ، ارتدت تميم فيمن ارتد من العرب ، فرماهم أبو بكر بخالد بن الوليد وأوصاه ألا يقاتل قوماً حتى يدعوهم الى الاسلام ، فان أجابوه فلا سبيل له عليهم ، وآية طاعتهم أن يؤذن مؤذنهم ، فلما قصد خالد مالكا وجده قد انبث هو وجنده فى شعاب الصحراء ومسايل الماء ، فأحاط بهم وأتى بمالك فأمر ضرار بن الأزور فقتله صبرا بين يديه . وشهد قوم عند ابى بكر انهم سمعوا أذان مالك وانه أقر بالاسلام بين يدى خالد

(٢) سورة النساء

نعمه، وجزيل احسانه، فذلك حيث يقول جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مُتْرَبَةٍ[1] » .

الثانية — أنه تباركت آلاؤه، اختص تحرير الرقاب بسهم من ثمانية أسهم من الزكاة . أعنى أن الإمام اذا اجتمعت له أموال الزكاة أفرد منها جزءا لفك الرق عن الأرقاء، فذلك حيث يقول سبحانه : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

الثالثة — أنه جعل تحرير الرقاب فى مقدمة كفارات كثيرة، عن جرائم تجترم . فقال فى كفارة الظِّهار[2] : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا

(١) سورة البلد . والمراد بالنجدين طريق الخير والشر، أو الثديان . والأصل فى النجد المرتفع من الارض . والمسغبة الجوع . والمقربة القرابة . والمترية الفقر

(٢) كان من سنن العرب اذا غضب الرجل على امرأته أو مل عشرتها قال لها : أنت على كظهر أمى . فتحرم عليه، ثم ربما عاودها بعد ذلك . وذلك ما يدعونه « الظهار » . فهو عند العرب ضرب من الفرقة دون الطلاق، وربما استمر فكان طلاقا . فأما الاسلام فقد كشف القرآن الحكيم عن حكمه فيه فى مستهل سورة المجادلة وذلك قوله جلت آيته « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان امهاتهن الا اللائى ولدنهم وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وان الله لعفو غفور والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » ... الى آخر الآيات البينات، وقد نزلت فى خويلة بنت ثعلبة، وهى التى جادلت رسول الله . وحديث ذلك : أن أوس بن الصامت الانصارى غاضب امرأته خويلد — وكان رجلا ملولا ضيق الصدر — فقال لها : أنت على كظهر أمى . ثم أخذه الندم وقال : ما أظنك الا قد حرمت على ! فقالت : لا تقل ذلك فوالله ما أحب الله طلاقا، ثم قالت : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله . فقال : انى أجدنى أستحى منه أن أسأله عن هذا . فقالت : فدعنى أن أسأله . فقال لها : سليه . فجاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا نبى الله، أن أوس بن الصامت أبو ولدى، وأحب الناس الى، قد قال كلمة والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا، قال أنت على كظهر أمى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما أراك الا قد حرمت عليه . قالت : لا تقل ذلك يا نبى الله، والله ما ذكر طلاقا . فراودت النبى صلى الله عليه وسلم مراراً . ثم قالت : اللهم انى أشكو اليك شدة حالى، ووحدتى، وما يشق على من فراقه . فلم ترم — تبرح — مكانها حتى أنزل الله « قد سمع » ...

قالوا فتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِن قَبلِ أَن يَتَمَاسَّا » .

وقال فى كفارة اليمين : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيمَانِكُم وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُمُ الْأَيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِن أَوسَطِ مَا تُطعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أو كِسوَتُهُم أو تَحرِيرُ رَقَبَةٍ[1] » .

كذلك أوسع رسول الله صلى الله عليه وسلم القول فى فضل تحرير الرقاب وانه خير ما يقرب العبد إلى الله ويفيض نعمته عليه . ومن قوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران[2] . وقال عليه الصلاة والسلام : أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار[3] .

على ذلك تتابع المسلمون وهم يتخلعون عما ملكت أيديهم بعضه أو جميعه تقرباً إلى الله ، وشكراً له ، ومجلبة لرحمته ، واستدفاعاً لسخطه . ومنهم من كان يطوف على غلاظ الاكباد من السراة يشترى منهم عبيدهم وإماءهم ليحررهم ويرفع رقهم فى سبيل الله . ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه . ومنهم من خرج عن عبيده وإمائه جميعاً ، مؤثراً إطاعة الله ورضاه ، على نعيم دنياه .

ولئن سارع رجال المسلمين إلى تحرير الرقاب ، لقد كان نساؤهم أطول بذلك يداً ، وأسخى نفساً ، وأروح قلباً . فما جَدَّت نعمة ، أو تكشفت حادثة أو عارضهن ريب الأمر ، أو نزعن إلى رحمة من الله ، إلا وعتق الرقاب بادرة خواطرهن ، وسابقة إيمانهن . فقد تحللت عائشة أم المؤمنين من يمين أقسمتها بعشر من الجوارى أعتقتهن .

---

(١) سورة المائدة . ولغو اليمين ما يبدر من المرء بلا قصد ، كقول الرجل لا والله ، أو بلى والله . وتعقيد اليمين توثيقه بالقصد والنية (٢) القسطلانى ج ١ ص ٢٢٦ و ج ٤ ص ٣٦٢ طبع بولاق
(٣) القسطلانى ج ٤ ص ٣٣٨

وكانت أسماء بنت أبى بكر اذا أحست بدبيب المرض خرجت عن إمائها جميعاً[١]

وان من ابتغاء الشطط أن يأتى القلم على اجمال ما أطلق المسلمات من إمائهن تأنقاً فى الشكر، وتفريجاً للضر، وزلفى إلى الله .

كذلك كان تحرير الرقاب أسمى مظاهر البر، وأوضح مواطن الخير عند الموسرين من المسلمين . وكذلك أخذ الدين جماعة المؤمنين بالنزول عما ملكت أيديهم راضين مطمئنين . فان لم يكن عتق، فرحمة، وإخاء، ورعاية حق، وبذل معونة .

وما رأينا النبى الكريم تعاهد برحمته ووَصاته جماعة من المسلمين بمثل ما تعاهد جماعة الغلمان والجوارى، حتى كان آخر ما أوصى به : «الصلاة وما ملكت أيمانكم[٢]

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يجعل عتق الجارية فداء لها من لطمة تصيبها[٣] وهل تجد فى قديم الأمم وحديثها من منع عسف الرق، ورفع شأن الأرقاء مثل رسول الله محمد بن عبد الله فى قوله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله فى خولكم، فانهم أشقاؤكم، لم ينحتوا من جبل، ولم ينشروا من خشب . أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، واستعينوا بهم فى أعمالكم، فان عجزوا فأعينوهم، فان كرهتموهم فبيعوهم، ولا تعذبوا خلق الله[٤] » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « اذا أتى أحَدَكم خادمه بطعامه فان لم يجلسه معه فليطعمه اكلة أو أكلتين فانه ولى علاجه » وقوله صلى الله عليه وسلم : لا يقُلْ أحدكم عبدى، أمتى، وليقل فتاى وفتاتى[٥] .

وأى مولاة قوم أو مولى لهم يسمع قوله صلى الله عليه وسلم : المملوك الصالح

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص ١٢٣ طبع ليدن
(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٣٤ مطبعة الوبلحى (٣) تيسير الوصول ج ٣ ص ١٢
(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٣٣ (٥) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٠ المطبعة الخيرية

— اذا نصح سيده وأخلص عبادة ربه — أجران[١] ثم لا يخفق قلبه غِبطة وابتهاجاً بما سيضاعف له الله من أجر السراة الأحرار فى الآخرة[٢] ؟

٥ — تربيت البنات

سُنَّة من سنن العرب أن النساء لا يؤول اليهن من ميراث الرجال شىء . وكانوا يقولون فى ذلك : لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمى البيضة . فاذا مات الرجل ورثه ابنه ، فان لم يكن فأقرب من وجد من أوليائه ، أباً كان أو أخاً أو عمّاً . على حين يضم بناته ونساءه الى بنات الوارث ونسائه . فيكون لهن ما لهن ، وعليهن ما عليهن . حتى جاء الاسلام فصَدَع ذلك الضرب من الظلم ، واختص النساء بنصيب مما ترك الرجال . فذلك قوله جل ذكره : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً » .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرّ وأرحم بالبنت من أبيها . وأن فيما حَدّث البخارى عن سعد بن أبى وقّاص لبلاغاً لقوم يعقلون[٣] .

---

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٠ — (٢) ومن أجل ذلك قال أبو هريره رضى الله عنه — وهو راوى الحديث السالف — أما والله لولا الحج والجهاد وبر أمى لتمنيت أن أموت وأنا عبد مملوك — وقد روى هذا القول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) سعد بن أبى وقاص : هو البطل الكريم والفاتح العظيم سعد بن مالك بن أهيب خال رسول الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة من أصحابه

صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته جميعاً ووقف ينزع بالسهم من دونه فى أحد . وهو أول رجل رمى بسهم فى سبيل الله

وبعد موت رسول الله سيره عمر الى القادسية فثل عرش الفرس فى أعظم وقائع الاسلام وافتتح على أثرها المدائن واختط بعد ذلك مدينة الكوفة

وكانت وفاته رضى الله عنه فى خلافة معاوية سنة ٥٥

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير اليه ويقول هذا خالى فليرنى امرؤ خاله

قال سعد : مرضت بمكة مرضاً أشفيت منه على الموت ، فأتانى النبي صلى الله عليه وسلم يعودنى . فقلت : يا رسول الله ، ان لى مالاً كثيراً ، وليس يرثنى إلا ابنتى أفأتصدَّق بثلثى مالى ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت : الثلث ؟ قال : الثلث كبير . إنك ان تركت ولدك أغنياء ، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . وانك لن تنفق نفقة إلا أُجرت عليها ، حتى اللقمة ترفعها إلى فِى امرأتك[1]

فأية امرأة تلك التى كانت إذا مات أبوها تنتقل إلى بيت عمها ، وقد صفرت يدها مما كانت تتمتع به من عز ومال ، ثم تصبح فتجد من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم تلك الرعاية العالية ، وتستظل من قوله بتلك الظُّلة السابغة ؟

ذلك مجمل ما اهتضمته العرب فى عهد جاهليتهم من حقوق المرأة ، على وفر نُبلها ، وسماحة فضلها يومذاك . أسبغه الإسلام عليها ، فأزال شكاتها ، وأنصف مظلمتها .

وإلى هذه الحقوق حقوق كانت لها ، فزادها الإسلام تأييداً وتعزيزاً ، ونفث فيها من روحه فأصبحت ديناً راسخاً ، وحكماً نافذاً ، ويقيناً مكيناً . وتلك التى نبدأ فنفى بها .

---

(١) القسطلانى ج ٤ ص ٤٧٢

﴿ ٢ ﴾

حقوق المرأة فى الاسلام

١ — هى والرجل

المرأة بين يدى الإسلام قسيمة الرجل ، لها من الحق ما له ، وعليها ما عليه ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوة الجَلَد ، وبسطة اليد ، واتساع الحيلة ، فيلى رياستها . فهو بذلك وليها ، يحوطها بقوته ، ويذود عنها بدمه ، وينفق عليها من كسب يده . فأما فيما سوى ذلك ، فهما فى السراء والبأساء على سواء .

ذلك ما أجمله الله ، وضم أطرافه ، وجمع حواشيه ، بقوله تباركت آيته : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

تلك هى درجة الرعاية والحياطة لا يتجاوزها إلى قهر النفس ، وجحود الحق .

وفى سبيل تلك التسوية الشاملة ، جعل الله الخبيثات أكفاء الخبيثين ، والطيبات أكفاء الطيبين . فإذا تم للناس أن يكونوا كذلك فلا نزاع بين زوجين . لأن شر الخبيثين يدفع بعضه بعضاً ، ويطمس بعضه آثار بعض ، فيكون كل على حَذَر من صاحبه .

فإنى رأيت الشر للشر ماحيا ... كما خطّ فى القرطاس سطر على سطر

أما الطيبان فأين للشر أن يدب بينهما ، أو يجد السبيل اليهما ؟

وكما قرن الله سبحانه بينهما فى شؤون الحياة ، كذلك قرن بينهما فى حسن المثوبة ، وادّخار الأجر ، وارتقاء الدرجات العلى فى الآخرة .

فاذا احتمل الرجل نار الهجير ، واصطلى جمرة الحرب ، وتناثرت أوصاله تحت

ظلال السيوف ، فليس ذلك بزائده مثقال حبة عن المرأة اذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها ، وأحسنت القيام على بنيها . وفى حديث مسلم عن أسماء بنت يزيد الأنصارية ما ينبئك أن بعض ما قلنا يعدل عمل الرجل كله . قال[1]:

ان أسماء أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت : بأبى وأمى أنت يارسول الله . أنا وافدة النساء اليك . ان الله عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة ، فآمنّا بك وبالهك . إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وانكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجُمَع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج . وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل . وان أحدكم اذا خرج حاجا ، أو معتمراً ، أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسئلة امرأة قط أحسن من مسئلتها فى أمر دينها من هذه ؟ فقالوا : يارسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى الى مثل هذا ! . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم اليها فقال : افهمى أيتها المرأة وأعْلِمى مَنْ خلفَك من النساء ، ان حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله .

فانصرفت المرأة وهى تُهلِّل ، حتى وصلت الى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحن وآمنّ جميعهن[2]

---

(١) أسماء بنت يزيد : هى أم سلمة أسماء بنت يزيد بن السكن الانصارية خطيبة نساء العرب ورسولهن الى رسول الله . بايعت النبي عليه الصلاة والسلام عند مقدمه الى المدينة وتلقت عنه كثيراً من العلم وتخرج عليها كثير من التابعين . وكانت رضى الله عنها من أبين الناس بيانا وأجرئهم فى موطن الحق حتى دعيت خطيبة النساء . عمرت بعد رسول الله دهراً طويلا . وحضرت موقعة اليرموك تسق الظماء وتداوى الجرحى فلما جد جد المسلمين أخذت عمود خيمتها وانغمرت فى الصفوف فصرعت به تسعة من الروم

النووى والاصابة وابن سعد

(٢) صحيح مسلم

وقد عزّ على النساء أن يكون وقت النبى صلى الله عليه وسلم للرجال دونهن فسألنه أن يختصهن بيوم من كل أسبوع . فأجابهن صلى الله عليه وسلم الى ما طلبن . فاذا كان يومهن غدون على رسول الله ، فجلسن اليه ، فأقبل عليهن ، يجيب السائلة ، ويهدى الحائرة ، ويأخذ بأيديهن جميعاً الى النهج القويم ، والصراط المستقيم[١] .

وكان صلى الله عليه وسلم فى مجلسه هذا على أتمّ ما يكون من الرحمة والرفق فلا يشق عليهن ، ولا يكلفهن فوق ما تحتمل نفوسهن .

أخذ عليهن عند مبايعته لهن ذات مرة ألا ينُحْنَ على الموتى . فقالت عجوز ممن حضرن : يارسول الله إن ناساً أسعدونى على مصيبة أصابتنى ، وانهم أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أسعدهم . قال : انطلقى فاسعديهم . فذهبت ثم عادت فبايعته[٢] .

واستأذن عليه عمر بن الخطاب وهن بين يديه . فابتدرن الحجاب . فلما دخل عمر تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : بأبى وأمى أنت يا رسول الله ما يضحكك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رآك النساء فتبادرن الحجاب . فالتفت عمر إليهن فقال : يا عدوات أنفسهن تَهَبْنَنِى ولا تهبن رسول الله ؟ قلن : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله[٣] .

ومن أبدع مظاهر رفق الله ورسوله بالنساء ، أنه صلى الله عليه وسلم وقف بينهن وقد جئن يبايعنه على أن يأتمرن بأوامر الله ويجتنبن نواهيه . فقال عليه الصلاة والسلام : فيما استطعتن وأطقتن . فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا[٤] .

أما حياته صلى الله عليه وسلم فى بيته بين نسائه فقد كانت المثل الأعلى فى الموادة ، والمودعة ، والمواتاة ، وترك الكلفة ، وبذل المعونة ، واجتناب هُجر الكلام ومره . وهو الذى يقول : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .

---

(١) القسطلانى ج ١ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ (٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٢ — ٧
(٣) القسطلانى ج ٥ — ٥ (٤) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٤ — ٦

وسئلت عائشة ما كان عمل النبي على الله عليه وسلم فى بيته ؟ فقالت : كان فى مهنة أهله حتى يخرج الى الصلاة . تريد بذلك أنه يعاونهن ويعمل معهن .

وكان من التبسط ورفع الكلفة الى حد أن يستبق هو وامرأته . كما حدثوا عن عائشة رضى الله عنها .

وكانت فاطمة بنت رسول الله تتولى الطحين والعجين بينا علىٌ رضى الله عنه ينزع الماء ويحتمله ويهيئه .

وكما كان الرجل يجاذب المرأة أمرَ العمل ، وتدبير المنزل ، كذلك كانت تجاذبه شؤون العالم ، وجد الحياة .

ففى ساحات الوغَى ، وبين مشتجر القنا ، وتحت ظلال السيوف ، كانت المرأة تسير مع الرجل جنباً لجنب ، تروى ظمأه ، وتأسو جرحه ، وتجبر كسره وترقأ دمه وتثير حميته ، وتهيج حفيظته . وربما غشيت حَر القتال ، واصطلت جمرة الحرب ، وصالت بين الصفوف ، وعرضت نحرها للحتوف ، وصدرها للسيوف . فكانت لها مواطن صادقات ، ومواقع صالحات ، سنخصها بشىء من القول فى موطن آخر ان شاء الله .

وقد طويت صحف السِّيَر والسُّنَن والتاريخ على كثير من فضليات النساء خرجن فى رفقة رسول الله إلى غزواته ليداوين المرضى ، ويأسون الجرحى ، ويسقين الماء ، ورحن بأجر المجاهدين فى سبيل الله . وإليك طائفة من أسمائهن وأعمالهن :

(١) فمنهنَّ أُمَيَّة بنت قيس[١] الغِفَارِية قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار ، فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك الى وجهك

(١) أميه بنت قيس : فتاه خامر الاسلام قلبها وهى لم تعد بعد طور الحداثة . قدمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعه — على بعد الشقة — ولها أربعة عشر عاما ، وخرجت على زعامة الآسيات — الطيبات — من قومها الى خيبر ولم تبلغ السابعة عشرة . وأردفها رسول الله خلفه فى مسيره . وقد أحسنت أمية القيام بما تقدمت به . وقلدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الموقعة قلادة لم تغادر صدرها حتى ماتت . وأوصت حين موتها أن تدفن معها

هذا — وهو يسير الى خيبر — فنداوى الجرحى ، ونعينُ المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله .

(٢) أم سنان الأسلمية : جاءت الى رسول الله وهو خارج الى خيبر فقالت : يارسول الله أخرج معك فى وجهك هذا ، أخرز السِّقاء ، وأداوى المريض والجريح ان كانت جراح — ولا تكون — وأبصر الرَّحْل . فقال رسول الله : اخرجى على بركة الله ، فان لك صواحب قد كلمنى وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فان شئت فمع قومك ، وان شئت فمعنا . قلت : معك . قال : فكونى مع أم سلمة زوجتى . قالت : فكنت معها [١] .

(٣) حَمْنَة بنت جحش : أخت أمّ المؤمنين زينب . حضرت أُحُداً . وكانت تروى الظِّماء ، وتأسو الجراح [٢] .

(٤) أم أيمن : مولاة رسول الله وحاضنته . حضرت أُحُداً . وكانت تسقى العطشى ، وتداوى الجرحى .

(٥) كُعَيْبة بنت سعد الأسلمية : كانت تقام لها خيمة فى المسجد ، تداوى فيها المرضى ، وتأسو الجرحى . وكان سعد بن معاذ حين رُمى يوم الخندق عندها تداوى جراحه ، حتى مات رضى الله عنه [٣]

(١) أم سنان الاسلمية : امرأة من غفار أسلم — وأسلم بطن من خزاعة — قدمت من باديتها الى المدينة حين مقدم رسول الله اليها فبايعته . ورافقت رسول الله الى خيبر وهى التى مشطت صفية بنت حيى أم المؤمنين وأعدتها لتزف على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى من اللواتى روين عن رسول الله كثيراً من العلم وابنتها بثينة احدى الثقات الفضليات من راويات الحديث

(٢) حمنة بنت جحش : هى ابنة عمة رسول الله وأخت زوجه أم المؤمنين زينب رضى الله عنهما . وأمهما أميمة بنت عبد المطلب . حضرت مع رسول الله أحدا فكان موقفها مما تزل دونه أقدام الرجال فقد كانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح وتعود به حيث تأسو جراحه . وأصيبت فى هذه الموقعة بزوجها مصعب ابن عمير ومن بعده تزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له السيد التقى العالم العظيم محمد بن طلحة المعروف بالسجاد

(٣) كعيبة بنت سعد : هى احدى النجيبات المعدودات من طبيبات العرب . لم يكن عملها الشريف وقفا على مواقف الحروب بل كانت تداوى من ألم به المرض فى كل آن . وقد أعطاها رسول الله فى خيبر سهم الرجل المجاهد رضوان الله عليها

(٦) الرُّبَيِّع بنت معوذ . قالت : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسقى القوم ونخدمهم ، ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى والجرحى الى المدينة [١] . وأشباه أولئك ونظائرهن كثير .

كذلك كان أمرها فيما سوى الحرب من العظائم . فقلما رأينا عظيما من عظماء المسلمين لم يصدر فى كثير من المواطن عن رأى امرأة .

فكثيراً ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدر عن رأى زوجه خديجة رضى الله عنها . وكمثل ذلك صدور عبد الله ابن الزبير عن رأى أمه أسماء ، وصدور الوليد بن عبد الملك عن رأى زوجه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وصدور السفاح عن رأى زوجه أمّ سَلَمة ، وصدور الرشيد عن رأى زوجه زبيدة ، وأمثال هؤلاء فى الاسلام جمّ كثير .

* * *

وإنا لذاكرون فى هذا الموطن موقف الحجاج من أم البنين حين أشار على الوليد ابن عبد الملك بالامتناع عن مجاذبة النساء سياسة الملك وتدبير الحروب .

قال ابن عبد ربه :

قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء ، وقوس عربية ، وكنانة . فبعثت اليه أم البنين : من هذا الأعرابى المستلئم فى السلاح عندك وأنت فى غِلالة ؟ فبعث اليها : هذا الحجاج بن يوسف . فأعادت الرسول اليه تقول : والله لَأَن يخلو بك ملك الموت أحب إلىّ من أن يخلو بك الحجاج . فأخبره

(١) القسطلانى ح ٥ ص ٩٥ والاصابة ج ٨ ص ٨

الربيع بنت معوذ : هى احدى السابقات الى الاسلام . بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الشجرة — شجرة الرضوان — فوجبت لها كلمة الله جلت كلمته « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » وقد صحبت النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته . وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يغشى بيتها فيتوضأ ويصلى ويطعم عندها . ولما تزوجت حضر رسول الله زواجها وجلس على مقربة منها وسمع الغناء فى بيتها . وعاشت رضى الله عنها حتى عهد معاوية

الوليد بذلك وهو يمازحه . فقال : يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة [١] . فلا تطلعها على سرك ، ومكايدة عدوك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها بمقالة الحجاج . فقالت : حاجتى أن تأمره غداً يأتينى مسلّماً . ففعل ذلك . فأتاها الحجاج ، فحجبته ، فلم يزل قائماً . ثم قالت له : إيه يا حجاج ! أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث [٢] ؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ، ما ابتلاك برمى الكعبة ، وقتل بن ذات النطاقين ، أول مولود فى الأسلام ، وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء ، وبلوغ أوطاره منهن ، فان كنّ ينفرجن عن مثلك ، فما أحقه بالأخذ عنك . وان كنّ ينفرجن عن مثله ، فغير قابل لقولك . أما والله لقد نَفَضَ كساء أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن . بعثك فى أعطية أهل الشام حتى كنت فى أضيق من الفَرْق ، قد أظلّتك رماحهم ، وأثخنتك صفاحهم ، وحتى كان أمير المؤمنين أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم . فما نجاك الله من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه .

ولله درّ القائل إذا نظر اليك ، وسنان غزالة بين كتفيك :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر

---

(١) القهرمان المسيطر الحفيظ على من تحت يديه

(٢) سنفرد لابن الزبير فصلاً خاصاً نسوقه فيما بعد . أما ابن الأشعث فهو عبد الرحمن ابن محمد بن الاشعث . وكان قائداً معدوداً من قواد عبد الملك بن مروان وكان تحت امرة الحجاج بالعراق . انفذه الحجاج الى قتال رتبيل ملك الترك فلم يمعن فى الغزو كثيراً فأرسل اليه الحجاج يستحثه ويعنفه فأثار ابن الاشعث الجند على الحجاج وخرج عليه وانحدر اليه وأمعن فى قتاله وانضم اليه أشراف العراق وقراؤه ثم خرج على عبد الملك ابن مروان وهزم جند الحجاج فى مواطن كثيرة حتى كانت موقعة (دير الجماجم) وكان نجمه صاعدا فى أولها ثم غلب على أمره ففر الى ملك الترك وفزع اليه فأقطعه بلدا من بلاده وهنالك أنفذ الحجاج عمارة بن تميم اللخمى فما زال برتبيل بالوعود تارة وبالوعيد أخرى حتى رضى بتسليم عبد الرحمن ويقولون ان عبد الرحمن رمى بنفسه من قمة الحصن فسقط قتيلاً ويقولون ان رتبيل هو الذى قتله وبعث برأسه الى الحجاج فأرسل به الى عبد الملك

هلّا برزت الى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر تركت كتائبه كأمس الدابر

ثم قالت : اخرج . فخرج مذموماً مدحورا ! . . .

على أن للمرأة حالتين أَبَرَّتْ فيهما — بحكم الاسلام وشهادته — على الرجل وهاتان هما حالتا الأمومة والزوجية ، وهما أمثل حالات المرأة ، وأظهرها لكرم خلالها ، وجلال سجاياها ، وأنهضها ببناء الكون ، وأتمها لنعمة الله على الانسان .

فأما أولى الحالتين ، فشاهدها ما حدث البخارى عن أبى هريرة قال :

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك [1] .

فانظر كيف أن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم آثرها بتقديم القول ، ثم لم يكفه ذلك فى بيان مالها من فضل السبق ، وشرف المنزلة ، فاختصها من قلب ولدها بثلاثة أضعاف نصيب أبيه منه .

وأما الثانية فشاهدها ما ذكره ابن سعد فى حديث حَمْنة بنت جحش قال :

قام النساء حين رجع رسول الله من أُحُد يسألن الناس عن أهلهن فلم يُخْبَرْنَ حتى أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تسأله واحدة إلا أخبرها . فجاءته حَمْنة بنت جحش . فقال : ياحمنة ، احتسبى أخاك عبد الله بن جحش . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمه الله وغفرله . ثم قال : ياحمنة احتسبى خالك حمزة بن عبد المطلب . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمه الله وغفر له . ثم قال ياحمنة احتسبى زوجك مُصعب بن عمير . فقالت : ياحَرَباه فقال النبى صلى الله عليه

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ٢ طبع بولاق

وسلم : إن للمرأة لَشُعبة من الرجل ما هى له فى شىء [١] .

ولعمرك إن فى قول رسول الله لبلاغا لما أوثرت المرأة به وأبرَّت فيه من فرط الحنو على زوجها ، وفضل الوفاء له بعد موته .

ذلك موقف الرجل والمرأة من الشريعة الاسلامية . وهو شهيد بأنهما قسيمان فى تدبير المنزل وشئون الحياة وعند الله وبين يدى رسول الله .

٢ — كرامتها

لئن قرن الاسلام بين الرجل والمرأة فى عامة المواطن لقد عرف لها نصيبها من رقة القلب ، ودقة الوجدان . وأنها مناط شرف الرجل ، وموطن عرضه ، فاختصها بنصيب من الحرمة والكرامة لم يظفر بمثله نظراؤها من الرجال

أن كرامة المرأة فى الاسلام تتناول شخصها وسيرتها ، وتشمل مشهدها ومغيبها . فمن حقها أن تكون هى فى موطن الرعاية والعناية ، وأن يكون اسمها بمنجاة من لغو القول ، ومَنَال اللسان .

لقد كانت المرأة فى عهد الاسلام — كما كانت فى الجاهلية — تجير الخائف وتفك العانى ، وذلك كله الى تجِلّة واحترام ، بلغت منهما غايتهما .

فقد أجارت أم هانىء بنت أبى طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل ، وذلك بمحل حديثها فى سبيل ذلك . قالت :

لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فرَّ الىَّ رجلان من أحمائى من بنى مخزوم . فدخل علىَّ علىُّ بن أبى طالب أخى فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : مرحباً وأهلاً

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٧٥

يا أم هانئ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علىّ . فقال : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، وأمّنّا مَن أمّنت فلا يقتلهما [١] .

وافتكّت زينب بنت رسول الله إسار زوجها فى الجاهلية أبى العاص بن الربيع — وكان من أسرى بدر — فأطلق بغير فداء ورُدَّ عليه ماله . على أن صِلَتها به ، وزواجها منه ، قد فصلهما الاسلام قبل ذلك [٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٢٠ والبخارى ج ٨ ص ٣٧

أم هانئ : هى ابنة عم رسول الله فاختة بنت أبى طالب بن عبد المطلب . وأمها فاطمة بنت أسد بن هاشم وهى احدى ذوات الرأى الجزل والأدب الجم من قريش . خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية وكان أبوها قد وعد بها هبيرة بن أبى وهب فظفر بها . وفى مستهل الاسلام أسلمت أم هانئ ففرق بينها وبين زوجها بحكم الاسلام — وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين — فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله لأنت أحب الىّ من سمعى ومن بصرى وحق الزوج عظيم فأخشى ان أقبلت على زوجى أن أضيع بعض شأنى وولدى وان أقبلت على ولدى أن أضيع حق زوجى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان خير نساء ركبن الابل نساء قريش أحناه على ولد فى صغره وأرعاه على بعل فى ذات يده

وقد روى أصحاب الصحاح الستة جميعاً عن أم هانئ . وعاشت حتى جاوزت عهد أخيها علىّ عليه السلام

(٢) الاصابة ج ٨ ص ٩١ — ٩٢ المطبعة الشرفية

زينب بنت رسول الله هى كبرى بناته صلى الله عليه وسلم وأولى من تزوج منهن . ولدت قبل البعثة بعشر سنين وزوجت من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع فولدت له عليا — وقد مات فى حياة جده صلوات الله عليه — وأمامة — وقد أسلفنا سيرتها — وكان أبو العاصى يؤثر زينب بحبه وكرامته على ان الاسلام فرق بينهما فأسلمت هى وهاجرت وبقى هو بمكة كافراً وقال فيها :

ذكرت زينب لما وركّت ارما ... فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الامين جزاها الله صالحة ... وكل بعل سيثنى بالذى علما

— ووركّت أى ثنت رجلها على ناقتها لتستريح وارم اسم ناقتها —

وبعد هجرة زينب خرج أبو العاص الى الشام فى تجارة لقريش فعرض للقافلة زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب أرسلهم النبى صلى الله عليه وسلم فشدوا على المال والرجال فلم يدعوا شيئاً الا غنموه ولا رجلاً الا أسروه واستاقوا ذلك كله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما أبو العاص فاستجار بزينب فوعدته خيرا وانتظرت حتى صلى رسول الله الفجر بالمسلمين ثم وقفت على بابها — فى المسجد — فنادت بأعلى صوتها انى قد أجرت أبا العاص بن الربيع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس هل سمعتم ما سمعت قالوا نعم قال فوالذى نفسى بيده ماعلمت بشىء مما كان حتى سمعت الذى سمعتم . المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت فلما انصرف النبى صلى الله عليه وسلم الى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه ففعل .

عاود أبو العاص بعد ذلك مكة فأدى الحقوق الى أهلها ثم آب الى المدينة مسلماً فرد عليه رسول الله زوجه .

وتوفيت زينب سنة ثمان من الهجرة رضى الله عنها

وكانت فاطمة بنت رسول الله إذا أهلّت مُقبلة على أبيها قام لها عن مجلسه وأخذ يدها فقبّلها .

أما كرامة سيرتها ، وصيانة اسمها ، فذلك ما لا نحسب شريعة من الشرائع حاطتهما بمثل حياطة الإسلام لهما . وحسبك أن الله سبحانه وتعالى اشتدّ فى كتابه الكريم على قاذفى النساء فى أعراضهن بأشد مما اشتدّ على القَتَلة وقُطّاع الطريق . فقد قال الله سبحانه فى سورة النور : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

فجعل سبحانه للقاذف عقوبة ثمانين جلدة ، ثم دعم هذه العقوبة بأخرى أشد وأخزى ، وهى اتهامه أبد الدهر فى ذمته ، واطّراح شهادته ، فلا تقبل له شهادة أبداً . ثم وَسَمه بعد ذلك بسِمَةٍ هى شر الثلاثة جميعاً ، وهى سِمَة الفسق ، ووصمة الفجور .

لم يكن كل ذلك عقاب أولئك الأثمة الجناة ، فقد عاود الله أمرهم بعد ذلك بما هو أشد وأهول من تمزيق ألسنتهم فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » .

وان فى حديث الإفك ، وما أفاض الله فى شأنه ، لموعظة وذكرى لقوم يعقلون .

فان ناساً لم يبرأوا بعد من وضر الجاهلية نالوا من اسم عائشة أم المؤمنين بألسنتهم ، وأعقبهم جماعة المنافقين فذهبوا بالقول كل مذهب ، واحتجز بقية

المؤمنين أنفسهم عن الخوض حيث يخوض الناس . فأنزل الله فى سبيل ذلك تلك الآيات الكريمة ، تبرئة للمرأة الطاهرة . وفيها أهال سخطه ولعنته على المرجفين وأرسل لومه وتأنيبه لمن سواهم ممن سمعوا قولهم فلم يردوهم ، ولا برأوا الى الله منهم . قال جلت آياته :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاؤُا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » .

ذلك قول الله وحكمه فى طَغَمَة الأفاكين المرجفين ، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس ، فلا يزالون يلهثون ، يبتغون بألسنتهم ما أكنته البيوت من أعراض الحرائر . فهل يسمع حفدتهم وورثتهم وهم قوم شَجِى بهم حلق هذا البلد ،

وضاق صدره ، وأظلم المُشرق من جوّه ؟ ! يَنْفُسُ الرجل منهم على الرجل عامةُ ، أو ينقم منه رأيه ، أو يحقد عليه ظهور أمره ونباهة شأنه ، فلا يجد وسيلة للنيل منه ، إلا أن يَلغَ فى عرضه ، ويعيث فى كرامة أهله . وربما أبصر الرجل منهم عرضه مصدوعا ، وشرفه مشدوها ، فلا سبيل له إلا أن يتخذ لسانه كشباة العقرب ، يصيب به يميناً وشمالاً ، عساه يدرأ عنه العيون المحدقة ويكف دونه غرب الألسنة المتوثبة . وسواء أحقت تلك الأراجيف أم أفكت ، فان ذيوعها فى أمة من الأمم مما يؤول الى سوء القدوة ، وضعف النخوة وإغضاء العين على القذى ، وتوطين النفس على المهانة ، أسوة بمن قيل فيهم ، وتَعِلة بمن سمع عنهم .

* * *

﴿ وبعد ﴾ فقد درج المسلمونَ بعد أن سمعوا من آيات الله ما سمعوا على تنزيه المرأة ، وتكرمة اسمها ، وصيانة سيرتها ، واتهام أنفسهم دون اتهامها ، فقد مَرّ عمر بن الخطاب فى هدأة من الليل ، بدار إحدى نساء المدينة ، فسمعها تتغنى بقولها :

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج

فلم يعد — وهو أمضى المسلمين فى ذات الله — إلا الى نصر بن حجاج — وكان كأجمل الناس وجهاً — فنفاه الى البصرة حتى لا تتمناه امرأة غير هذه .

وكانت فى رجال قريش صرامة على نسائهم . ومنهم من كان يعمد اليهن بالأذى فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ضرب فى حياته امرأة ولا خادماً . وهو الذى يقول : « اتقوا الله فى النساء » و « استوصوا بالنساء خيراً » . وكان كأغضب ما يكون إذا سمع بامرأة يضربها زوجها .

وقد حَدَّث ابن سعد فى طبقاته قال : جاءت امرأة الى النبى صلى الله عليه وسلم قد ضربها زوجها ضرباً شديداً . فقام رسول الله فأنكر ذلك وقال : يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحى . وحَدَّث هو أيضاً فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب النساء . فقيل : يا رسول الله انهن قد فسدن . فقال : اضربوهن ولا يَضْرِبْ إلا شرارُكم[1] . وتلك لعمرى أشد وأوكد من المنع . ومن ذا الذى يرضى أن يحتسب عند الله ورسوله من الأشرار؟

على أثر ذلك انقطعت تلك السنة الموبقة من قريش ، فلم يقترفها إلا رجل لا يأبه بشرع ، ولا يركن الى دين . أما أهل المدينة من الأوس والخزرج فكأنهم قد خلقوا من طبع رسول الله ومودته ورحمته . فكانوا من أشد الناس تكرمة لنسائهم ورفقاً بهن . بل لقد كانت لهن بينهم صولة لا تقهر ، وسلطان لا يرام . وقد تأثرت طباع المسلمين جميعاً بطباع أنصار رسول الله ، لمنزلتهم من الدين ، ومكانهم من عاصمة الاسلام . كما ريضت نفوسهم بقول نبيهم الكريم ، صلى الله عليه وسلم . فتجملوا بمواتاة زوجاتهن ، ومواددتهن ، وكف الأذى عنهن . وفى ذلك يقول شُرَيح صاحب قضاء المسلمين فى عهد عمر بن الخطاب ومن أعقبه من الخلفاء :

رأيت رجالاً يضرِبون نساءهم فشُلَّت يمينى حين أضرب زينبا

ولم يقف الاسلام من كرامة المرأة ورعايتها موقف المكتفى بكف الأذى عنها فحسب ، بل كان مما سنه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترفيهها ، والحرص على سرورها ، واجتلاب ما يفرحها ، ويشرح صدرها . فقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتيان الحبشة فلعبوا بحرابهم بين يديه فى المسجد ، ودعا عائشة رضى

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٤٨

الله عنها فوطّأ لها عاتقه، وحاط وجهها بيده[١]، وأشهدها ذلك المنظر البهيج فلا تزال ترقبه حتى تسأم، فتتركه، ثم تعود اليه.

وحدثت عائشة أن أبا بكر دخل عليها و بين يديها قينتان تغنيان وتلعبان بالدف يوم العيد، وعلى مقربة منها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانتهرها أبو بكر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعها يا أبا بكر، فان لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا[٢].

وروى بن عبد ربه عن عائشة: أن رسول صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال: أهديتم الفتاة الى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يغنى؟ قالت: لا. قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغَزَل؟ ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم[٣]

وحدث البخارى عن الرُّبَيّع بنت معوّذ بن عفراء قالت: جاء النبى صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُنِيَ علىّ. فجلس على فراش. فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف، حتى قالت احداهن: وفينا نبى يعلم ما فى غد. فقال: دعى هذا وقولى بالذى تقولين[٤].

وحدث هو أيضاً عن أنس بن مالك قال: أبصر النبى صلى الله عليه وسلم نساء وصبياناً مقبلين من عُرس. فقام ممتنًّا فقال: اللهم أنتم من أحبّ الناس إلىّ[٥].

---

(١) تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٧٠ — ٢٨٠ (٢) تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٨٠
(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣١ (٤) القسطلانى ج ٨ ص ٦٦ ويريد صلى الله عليه وسلم بقوله « دعى هذا وقولى بالذى تقولين » ألا تتغنى بمدحه بل تسير فى غنائها على نحو ما كانت فيه
(٥) القسطلانى ج ٨ ص ٨٥ والامتنان المبادرة إلى الأمر بارتياح

٣ — حريتها وحرمة رأيها

لا تجد قوماً أبعد مدى فى الضلال ، ولا أقصر يداً عن الحقيقة ، من أناس أجازوا لأنفسهم الحكم على الاسلام وليسوا منه فى قليل ولا كثير . أولئك قوم من عامة كتاب الفرنج . اذا كتبوا عن النساء فى الاسلام زعموهن قعائد بيوت ، لا رأى يُبدينه ، ولا نصيب من الحرية يعتززن به . وتلك إحدى سخائم أنفسهم ، ونزعات أهوائهم ، تتكشف كل يوم عن ذلك الإيقاع المبتذل ، والأسلوب المرذول . فأما الدليل فلا دليل ! .

ما شرع الإسلام للمرأة أن تكون رهينة البيت ، أو سجينته . بل هى رَبَّتُهُ ، والقائمة بأمره ، والمسؤولة عنه . يعاونها الرجل فيه ، وتعاونه هى فيما سواه . وقد أسلفنا القول فى ذلك ، ولعلنا عائدون اليه فى تفاريق هذا الكتاب إن شاء الله .

أما حريتها ، وحرمة رأيها ، فلها فى الاسلام مظهران ، لا تطمع المرأة الى أعزّ وأسمى منهما : هما حرية الزواج ، وحرية المجالس والمحافل تغشاها ، وتظهر رأيها فيها .

أما أمر الزواج فذلك شأنها وحقها ، وليس لأحد أن يغصبها فيه رأيها أو يعدُوَ اذنها . وحريتها فيه أبعد مدى ، وأتم شأنا من الرجل . فهو اذا عقد عليها ، ثم لم يَرْضَها ، فتركها قبل أن يبنى بها ، نزل عن نصف مهرها لها . وان تركها بعد ذلك فلها المهر كاملاً . وليس له أن يقول هى دونى نسباً أو منزلة ، فكل النساء أكفاء للرجل ، وليس كل الرجال أكفاء للمرأة .

أما هى فلها أن تفصم عقدة الزواج اذا خُدِعت فيه ، أو أُكرهت عليه ، مهما أُنفق فى سبيلها . وليس لامرئ أن يقودها قسراً الى من لا تريد . فلقد فصم

رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج خنساء بنت خُذَام الأنصارية، لأن أباها زوَّجها وهى كارهة[١].

وهل هناك ما هو أدل على احترام رأى المرأة فى هذا الموطن وهو أدق مواقفها، وأمسها بحياتها، من حديث أم هانئ بنت أبى طالب، وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت يا رسول الله لأنت أحب إلىَّ من سمعى ومن بصرى، وانى امرأة مُؤتِمَة، وبَنِىَّ صغار، وحق الزوج عظيم. فأخشى ان أقبلت على زوجى أن أضيع بعض شأنى وولدى، وان أقبلت على ولدى أن أضيع حق زوجى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره، وأرعاه على بعل فى ذات يده، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت الإبل ما فضلت عليها أحداً[٢].

تلك امرأة أبدت صفحة العذر عن بلوغ أقدس منزلة تبلغها المرأة المسلمة وهى منزلة أُمومة المؤمنين، فأكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيها اكباراً قلدَ قريشاً بأسرها تلك الشهادة العالية الكريمة.

وقد عَبَرَ النساء بعد ذلك وهن مستمسكات بهذا الحق، معتصمات به، لا يستجزن لآبائهن ولا أوليائهن أن يغصبوه أو ينقصوه.

---

(١) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٨ والاصابة ج ٨ ص ٦٥

خنساء بنت خذام: هى من بنى عمرو بن عوف بن الأوس. لقيت النبى صلى الله عليه وسلم عند مقدمه إلى المدينة وهى صبية حدثة وسمعت عنه. وكان قد خطبها اثنان أحدهما أبو لبابة بن المنذر احد الأبطال النابهين من أصحاب رسول الله والثانى رجل من بنى عمرو بن عوف عشيرتها فآثرت أبا لبابة وآثر أبوها ابن عمها ثم أمضى منه زواجها غير آبه برضاها فأما هى فغدت على رسول الله فقالت ان أبى قد تعدى على فزوجنى ولم يشعر بى فقال لها لا نكاح له أنكحى من شئت فتزوجت أبا لبابة.

واختلف المحدثون فى أمرها حين زواجها ففى رواية الموطأ والثورى انها كانت بكرا وفى رواية البخارى وابن سعد انها كانت أيما وانها قالت يا رسول الله ان عم ولدى أحب إلى فجعل أمرها بيدها

(٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٣٢ والاصابة ج ٨ ص ٢٨٧

وكيف بالرجل يسوم المرأة نفسها ، أو ينازعها فضل رأيها ، وتلك فتاة تقوم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقى كلمة لا تدع للرجل من بعدها الى قهرها من سبيل .

ونحن لكيما نورد تلك الكلمة الرائعة الصادعة ، نعود الى حديث خنساء بنت خذام ، فنرويه بما رواه صاحب المبسوط[1] فى كتابه . قال :

قالت الخنساء : أن أبى زوجنى من ابن أخيه وأنا لذلك كارهة . فقال صلى الله عليه وسلم : أجيزى ما صنع أبوك . فقلت : ما لى رغبة فيما صنع أبى . فقال صلى الله عليه وسلم : اذهبى فلا نكاح له ، انكحى من شئت . فقالت : أجزت ما صنع أبى ، ولكنى أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم شىء . قال صاحب المبسوط : ولم ينكر عليه الصلاة والسلام مقالتها[2] .

وبريرة ! ومَن بريرة ؟ هى جارية من جوارى الحبشة ، ملكها عتبة بن أبى لهب وزوجها عبداً من عبيد المغيرة ما كانت لترضاه لو كان لها أمرها . فأشفقت عليها عائشة أم المؤمنين فاشترتها وأعتقتها . فقال لها رسول الله : ملكت نفسك فاختارى .

وكان زوجها يمشى خلفها ويبكى ، وهى تأباه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها ، وبغضها له ؟ ثم قال لها : اتقى الله فانه زوجك وأبو ولدك . فقالت : أتأمرنى ؟ فقال : لا ، إنما أنا شافع . فقالت : إذاً فلا حاجة لى إليه[3] .

---

(١) صاحب المبسوط : هو شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسى أحد أئمة الحنفية وأعلام القضاة . وكتابه المبسوط من أشمل كتب التشريع الاسلامى وأحفلها . يقع فى عشرين مجلدا . ومن عجيب أمره أنه أملاه املاء وهو رهين السجن بأوزجند وأوزجند بلد من بلاد فرغانة فى أقصى حدود الدولة الاسلامية الى الشرق والشمال . وكانت وفاته سنة ٤٨٣ رحمه الله (٢) المبسوط ج ٥ ص ٢

(٣) المبسوط ج ٥ ص ٩٩

فهل يعجب الناس بعد ذلك أن يقف فتيات العرب دون عسف آبائهن وأوليائهم ؟ فان انتهزوا منهن غِرَّة الصبى ، وخجل الحداثة ، وزوجوهن ممن لا يدانيهن فى طبع ، ولا يواتيهن فى خلق ، رجعن عليهم باللوم والخصومة بعد ذلك . ومثل ذلك ما كتبت امرأة من هؤلاء الى أبيها ، وكان زوَّجها وهى حَدَثة بغير إذنها .

أيا أبتَا عنَّيتنى وابتليتنى ... وصَيَّرت نفسى فى يدى مَن يُهينها

أيا أبتَا لولا التحرُّج قد دعا ... عليك مجابا دعوة يستدينها

وقالت امرأة أخرى أُوثر بها ابن عمها :

أيا عجبا للخَود يجرى وشاحها ... تزف الى شيخ من القوم تنبال

دعاها اليه أنه ذو قرابة ... فويل الغوانى من بنى العم والخال

وكان عبد الله بن جعفر قد زوَّج ابنته من الحجاج بن يوسف على كره منها لأنه ليس فى شىء من سناء نسبها ، ولا كرم سجاياها ، وما حمله على ذلك إلا ضيق ذات يده ، وألف ألف درهم حُملت مهراً إليه . فلما زُفَّت نظر الحجاج الى عبرتها تجول فى عينيها . فقال : بأبى أنت وأمى مم تبكين ؟ فقالت : أبكى من شرف اتضع ، ومن ضَعة شُرفت . حتى اذا علم عبد الملك بن مروان بأمرها كتب الى الحجاج بطلاقها . فقال لها : ان أمير المؤمنين كتب إلىَّ بطلاقك . فقالت : هو والله أبَرّ بى ممن زوَّجَنيك[1] .

(١) بلاغات النساء ص ١٨٦ نسخة خطية بدار الكتب السلطانية

عبد الله بن جعفر : هو قطب السخاء أبو محمد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وأمه اسماء بنت عميس أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأمها . هاجر أبواه الى الحبشة وهنالك كان مولده قبل هجرة رسول الله بثلاث سنين . ووافى به أبواه المدينة وله سبع سنين وفى هذه السن بايع عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوفى أبوه فى غزوة مؤتة وكان أمير القوم فيها فكفله عليه الصلاة والسلام ودعا له بقوله اللهم اخلف جعفرا فى ولده ثم انتقل الى كفالة أبى بكر ثم الى كفالة عمه على عليه السلام وكان أحد امراء جنده يوم صفين

وقد ذهب امام العراق ابن شُبْرُمة الى أن زواج البنت باطل ما لم تبلغ وتصارح برأيها فيمن يريدها[1] .

وكان من سنن فريق من العرب فى جاهليتهم أن الرجل اذا مات عمد أخص أوليائه وأقرب ورثته فوضع ثوبه على امرأته وقال أنا أحق بها ! ثم ان شاء تزوجها ، وان شاء زوجها غيره ، وأخذ صداقها ، وان شاء عضلها لتفتدى نفسها بما ورثت عن زوجها . فذلك ما حرمه الله جل ذكره إنصافاً للمرأة ، واطلاقاً لحريتها فقال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا » .

كذلك عمد الله سبحانه الى عقدة أخرى من عُقَد الاسر والاكراه فحلها عن المرأة وذلك حيث يقول للأزواج :

« وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ[2] » . فأصبح حراماً على الرجل أن يستبقيها على كره منها ، وإعنات منه ،

وزوجه عليه السلام بابنته زينب رضى الله عنها فولدت له عليا وعونا وعباسا ومحمدا وأم كلثوم . وكان عبد الله علماً من أعلام الجود حتى لقب بقطب السخاء . ومما قالوا ان امرأة سألته فأعطاها مالاً عظيما فقيل له أنها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير فقال ان كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى . وسأله سائل بينا يهم بركوب ناقته فنزل له عنها وعما فوقها وكان عليها أربعة آلاف درهم وسيف من سيوف على بن أبى طالب عليه السلام . وفيه يقو القائل .

وما كنت الا كالأغر بن حاتم رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكراً

وفى سبيل جوده احتمل الدين والمتربة حتى رضى أن يزوج ابنته من الحجاج بن يوسف لأنه وفى عنه دينه وأعطاه ألف ألف درهم . أما ابنته هذه فاسمها أم أبيها وكانت كأوضأ النساء وجها وأبينهن بيانا وأسمحهن يدا . وهى صغرى بناته . ولم تتكشف عن عقب . رضى الله عنها .

وكانت وفاة عبد الله سنة سبع وثمانين وله من العمر تسعون سنة . رضى الله عنه

(١) المبسوط ج ٤ ص ٢١٢

وقد أورد صاحب المبسوط لابن شبرمة وشيعته أدلتهم ومنها النافذ الذى يتطامن اليه العقل ويطمئن .

فمن ذلك ما أوردوه من قول الله جلت حكمته : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم » فالتعبير عن بلوغ الرشد ببلوغ النكاح دليل لا يقبل النقض على أن زواج القاصر لا نفاذ له .

ومن أدلتهم أن الله ما شرع الزواج الا للنسل والصغر ينافيه .

ومما قالوا : ان الزواج وثاق الحياة ، وليس لأحد أن يقيدها به حتى يبلغا ويكشفا عن صريح رأيهما

(٢) سورة النساء

حتى تفتدى نفسها بما بقى من صداقها . إلا اذا أتت بفاحشة مبينة . فتلك لا حق لها تطلبه ، أو تنزل عنه .

أما توارد القول الكريم من الله ورسوله فى محاسنة الزوجات وموادعتهن وتُسِيهن على بعض ما فيهن ، فما يفيض رفقاً ورحمة ، ورعاية وعناية . وحسبك أن الله جعل المرأة من آيات الله ومنته على الرجل . وجعل المودة والرحمة والألفة عقدة الصلة بينهما . فذلك حيث يقول جلّت آيته : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[1] » .

ومن ذا الذى يستمع قوله تعالى : « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا[2] » ثم يجفو امرأته ، أو يتسخطها بعد ذلك ؟

قلّب بين أعطاف هذه الآية بصرك ، واملأ منها يدك ، وروّ من مَعِين بيانها قلبك ، ثم انظر هل تقيم على وجْدانك ، أو تقر على عاطفتك ، فيما تكره من أمر امرأتك ؟ وما ظنك بأمر تكرهه ثم تظل على لجاجك فيه بعد أن مناك الله بالخير الكثير من ورائه ؟ وأين ذلك من حسن الثقة وتمام الايمان بالله ؟

ومما يرمى الى ذلك الغرض الجليل ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَفرُك مؤمن مؤمنة ان سخط منها خلقاً رضى عن خُلُق[3] .

ومما يرد هذا المورد ما حدثوا ان عمر رضى الله عنه قال لرجل طلّق امرأته : لِم طلقتها ؟ قال : لا أحبها . فقال : أكل البيوت بنيت على الحب ؟ أين الرعاية والذمم ؟ ؟ .

(١) سورة الروم (٢) سورة النساء (٣) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ١٣٠

ولنأخذ بالقول فى مسألتين مما لعلهما يرهقان سعادة المرأة ، ويكدران صفوها ويشعرانها بالحزن والموجدة . وهاتان هما : —

« تعدد الزوجات » و « الطلاق »

١ — تعدد الزوجات

ما كان تعدد الزوجات فى شىء من مظاهر الاسلام ولا شعائره . بل لقد ضرب الله حوله نطاقاً محكماً ، وقيده بقيود ثقال ، ففرض فيه العدل الشامل ، واجتناب الانسياق مع النفس فى ميلها وهواها ، واتقاء ما من شأنه أن يثير الحقد والضغينة بين زوجاته . وكم فى الناس من يقوى على ذلك ، وأى امرئ يغلب نفسه ، ويمحو فضل عاطفته ، ويبدل نظام طبيعته ؟

يقول الله جل ذكره : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً[1] » فجعل البقاء على واحدة فرضاً محتوماً عند توقع الجور ، والاشفاق من الانحراف ، والخوف من إيثار واحدة على واحدة . وأى الناس لا يخاف ذلك ، ولا يشفق منه ، والله سبحانه يقول : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .

وكان تعدد الزوجات معروفاً عند العرب ، ولم يكن هناك حدٌّ يقف دونه الرجل . فقد يجمع بين عشر نساء — وإن غَنِىَ أكثرهم بواحدة — فلما جاء الاسلام قصرهم على أربع .

ومن بين هؤلاء غَيْلان بن سلمة ، كان بين يديه عشرٌ . فقال له رسول الله أمسك عليك أربعاً[2] .

(١) سورة النساء (٢) القسطلانى ج ٨ ص ٣١

وانما نظر الاسلام فى تلك الإباحة الى أحد أمرين : —

الأول — الاحتفاظ بكيان الأمة ، لأن الرجال مدفوعون فى كثير من المواطن الى اغتمار القتال ، واقتحام الأخطار ، مما عساه يُنْضِب عددهم ، ويذهب بالكثير منهم . فان لم يُبَح لرجال أن يتجاوزوا الواحدة قصر كثير من النساء عن منازل الأمومة ، فتَضْؤُل الأمة ، وتلين قناتها ، ويقل عددها ، وربما أسرع الفساد اليها .

واليوم وقد تخطى الاسلام نيّفاً وثلاثة عشر قرناً ، يقوم جمع من فلاسفة الفرنج ومتشرعيهم ، فيقولون بتعداد الزوجات استكثاراً للنسل ، حتى يسدوا بذلك ما أصاب أممهم من الفراغ العظيم ، بفقد بضعة عشر ألف ألف رجل فى حربهم العظمى .

الثانى — هنالك أناس لا تمكنهم طبائعهم ، ولا تكوين جسومهم ، من البقاء على واحدة . فأولئك روعى أمرهم حتى لا يفزعوا الى ما هو أدهى وأمر من تعدد الزوجات .

على أن الاسلام — رغم ذلك كله — أحاط تلك الإباحة بما رأيت من القيود حتى لا يصاب تكوين الأسر بما لا يجبر صدعه ، ولا يدرك فائته .

وعلى ذكر الفرنج وآرائهم نسوق اليك رأى الكاتب الفيلسوف المؤرخ العظيم جوستاف لوبون ، فى تعدد الزوجات ، وهو ما أودعه كتابه الكريم : حضارة العرب (La civilisation des Arabes) قال :

ليس بالهيّن اليسير أن تدرك أسلوباً من الحياة لأمة من الأمم حتى تفترض كونك فى هذه الأمة ، يحيط بك ما يحيط بها ، ويحتكم بذات نفسك ما يحتكم بذوات نفوسها . فأما أن تحكم — وأنت متأثر بطبائع قومك وعاداتهم ، وما يحيط بهم من وسط وجوّ وبيئة — على نظام قوم لا يشا كلونك فى شىء مما أنت فيه ، فذلك ليس من الرأى فى شىء .

ذلك ما يراد بالناقد أن يأخذ به وينهجه اذا شاء أن يتولى بنقده نظاماً كنظام

تعدد الزوجات ، قبل أن تصل الأمم غير المسلمة الى أعماقه . وكثيراً ما تُذيع الزراية به ، والسخط عليه . بل لا تجد نظاماً أجمع الناس فى أوربا على النيل منه ، وتوكيل الظنون والأوهام به ، كاجماعهم بذلك على ذلك النظام .

فالمؤرخون الأوربيون — وفيهم من عُرف بالدقة والنفاذ فى استقصاء الحقائق وتمحيص الحوادث — يرون ذلك نظام دعامة الاسلام ، ومدعاة انتشار القرآن ، والهاوية البعيدة القرار ، فى سبيل نهوض المسلمين .

يقولون ذلك ، ثم يُتْبعون ما يقولون بنوافر الكلم عن حجاب المسلمات البائسات فى كسور دورهن ، يقوم بحراستهن ، ويتولى رتاج أبوابهن جماعة من الحرس والخصيان غلاظ شداد ، وقد يقتلن على غير اسم ولا جريرة ، بغير هوادة ولا مرحمة ، إذا صُرف عنهن أزواجهن إلى مَنْ سِواهن .

أن تصوير المرأة المسلمة بهذه الألوان القاتمة برئ من الحق . وسيعلم القارئ — إذا شاء أن يطرح عنها ظنونه وأوهامه قبل تلاوة ذلك البحث — أن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة ، وأنهضها بأدب الأمة التى تذهب اليه ، وتعتصم به ، وأوثقها للأسرة عقداً ، وأشدها لآصرتها أزراً . وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالاً ، وأوجه شأناً ، وأحق باحترام الرجل من اختها الغربية .

وقبل سياق الدليل على تلك الحقيقة الناطقة الناصعة أذكر للقارىء أن تعدد الزوجات لم يكن من مُحْدَثات الاسلام . بل لقد كان ذائعاً بين أمم الشرق من فرس وعرب ويهود ومَن سواهم فاذا كانت الشعوب التى رضيت الاسلام ديناً قد أخذت به فلم يك ذلك بدع جديد مالته من ذلك الدين الجديد . وانما هو أثر من تأثير البيئة وضرورة من ضرورات الجنس ونتيجة من نتائج احتكام الأحوال والأوساط عند الشرقيين .

وتأثير البيئة والجنس من الوضح والبيان بحيث لا نَجهَد فى افاضة القول فيه فان النظام العضوى للمرأة ، وما يصيبها من الحمل والولادة ، وما ينالها فى سبيل ذلك من أوجاع وآلام ، كل أولئك يضطرها الى اعتزال فراش الزوج أمداً غير محدود . ولما كان سبيل ذلك الاعتزال أن يعيش الرجل على قدره عيشة الأعزب — وهى عيشة لا يسيغها الشرقيون لما يحيط بهم من تأثير الاقليم وغلبة الأمزجة — أصبح تعدد الزوجات أمراً لا محيد عنه .

أما فى الغرب ، فان حكم الوسط ، وتأثير الأمزجة ، وغلبة الحالة ، مما يفعل فعله بالرجل . ورغم ذلك نجد البقاء على الواحدة نصًّا من نصوص القانون ، لا أمراً واقعاً ولا حكماً نافذاً . وليس فى قدرة أحد أن يعترض ما أقول ، أو ينكر أن الوقوف دون ذلك السياج — سياج الزوجة الواحدة — أمر لا يستمسك به إلا الأقلون .

ولست أدرى على أى قاعدة يبنى الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام — نظام تعدد الزوجات — عن نظام التفرد المشوب بين الأوربيين بالكذب والنفاق ؟ ! . على حين أرى هنالك أسباباً تحملنى على إيثار نظام التعدد على ما سواه . وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون الينا ، ويتنقلون بين مدائننا ، يحارون من قسوتنا فى الحكم على نظام تعدد الزوجات فيهم .

وان يسيراً على المرء أن يعرف السبب فى إقرار الشريعة الاسلامية لذلك النظام ، بعد ما أسلفنا من الدواعى النفسية للقوم . وأن رغبة الشرقيين فى خلود الذكر بالأبناء ، وغرامهم بتكوين الأسر ، والحياة السعيدة بينها ، وما فطروا عليه من العدل والانصاف — كل ذلك لا يجيز لهم إغفال الزوجة التى لا يتحول حبها عن صميم قلوبهم على مثال ما نراه فى أوربا .

ثم ان هناك أسباباً — سأعود إلى بيانها — تدعو إلى اقرار الشرائع للعادات

التى أصبحت من خلق الأمة وتقاليدها . وان يكن ذلك فان نظام تعدد الزوجات الذى ندّ عن حدود الشريعة عند الأوربيين ، سينتهى الأمر بقوانيننا إلى إقراره والاعتراف به .

وهنالك — فوق ما أسلفت — أسباب تؤيد ذلك النظام ، وتدعو اليه ، وهى على اختصاصها بطبقات معينة ، لا يخلو الوفاء بها من الفائدة ، لتعلم أن بعض البلدان أحوج ما يكون إلى الأخذ به . على أن بين أشد الناس استمساكاً بعروة الدين من الأوربيين من هم مسوقون بغلبة الضرورة إلى الاعتراف بالحاجة اليه . وخاصة إذا أمعنوا فى أحوال الشعوب الآخذة به .

ومن قبيل ذلك ما ذكره المسيو لابلاى صاحب كتاب « العمال فى الشرق » فقد انتهى به القول إلى الضرورة التى تدعو كبير الأسرة من القرويين إلى الاستكثار من الزوجات ، وكيف أن النساء أنفسهن هن اللواتى يطلبن إلى أزواجهن ابتغاء سواهن غير هائبات ولا آسفات على ما فعلن . وذلك بعض قوله :

يحرص الشرقيون على أن يزوجوا بكر الأسرة فى بواكر أيامه . لذلك ترى امرأته بعد تتابع الوضع بعد الوضع ، تسرع إليها الكهولة ، بينا يكون زوجها نضراً فتياً . فلا بدع أن يعوزه الزواج بغيرها ، وهو إذا همّ بذلك فانما يصدر فى أكثر المواطن عن رأى زوجته .

وقد يعجب الباحث من أن تغرى المرأة زوجها بالانصراف الى سواها . على أنه لا عجب فى ذلك . فان ربات المنازل فى الجماعات الزراعية الاسلامية ، عماد البيوت ، وقوام أمرها فاذا شُغِلت المرأة بتربية أبنائها ، والانصراف الى شؤونهم ، فليس هناك من يشد أزرها فى مهمة بيتها ، إلا الجوارى ، أو بعض بنات عشيرتها . وقد لا توجد المؤازرة من بنات العشيرة ، كما قد تضيق اليد دون شراء الجوارى ،

فليس لها يومئذ إلا أن تشير عليه بالزواج ، حتى تؤدى حق الأمومة .

وقد ذكر المؤلف ألّا أثر للغيرة ، ولا للخصومة بين زوجات الزوج الواحد ولا شك أننا بما وقر فى نفوسنا من الأوهام الباطلة ، نقول باستحالة ذلك .

وألحق أنا لم نقل بالاستحالة إلا لأننا نرجع فى حكمنا إلى حِسِّنا وعواطفنا . فأما عواطف غيرنا فلسنا بآبهين بها ، ولا مقيمين لها وزناً[1] » .

٢ — الطلاق

تلك هى قاعدة الحياة الزوجية فى الإسلام « إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » فإن محيت آية المعروف فدبت النفرة ، وساءت العشرة ، واتسع الصدع وامتنع التوفيق — سواء أكان سبيل ذلك الزوجَ ، أو الزوجةَ ، أو هما معاً — فما خير تلك الحياة ، وما فضل البقاء عليها ؟ وقد جعل الله الزواج مبعث الود والرحمة ، لا سبيل التَّعَسِ ، وبؤس الحياة . لذلك أبيح الطلاق .

ولقد يكون الطلاق من حق المرأة إذا اشترطته فى عقد زواجها . فأما إذا لم تَقُله فهو حق الرجل وحده . وإنما أطلق هذا الحق للرجل دونها لأنه يملك من كظم الغيظ ، وطول الأناة ، ما لا تملك .

على أن الإسلام لم يدع ذلك الحق دون أن يُضَيِّق مذاهبه ، ويأخذ على النفس سبل الوصول اليه . وقد هيأ لذلك من الوسائل ما نحن سائقون لك شيئاً منه وذلك هو :

(١) الترغيب فى محاسنة الزوجات ، والرضا منهن بخير ما فيهن ، وضمان الخير الكثير فيما عساه يكره منهن . وقد أسلفنا من ذلك ما فيه الغناء .

(١) La civilisation des Arabes 422—443

(٢) نعى الطلاق على المطلقين ونقمته منهن . ومن ذلك ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من حلال أبغض إلى الله من الطلاق . ويقول : ما خلق الله شيئاً أبغض اليه من الطلاق . ويقول : لا تطلّقوا النساء إلا من ريبة فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات .

(٣) التحكيم فى الخصومة بين الزوجين اذا بدر النزاع ، وبدأ الشقاق . وفى ذلك يقول الله جل ذكره : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » وذلك أمر للمسلمين جميعاً يقوم به أولياؤهم ، والقائمون بالأمر فيهم .

(٤) جعل الله للمرأة بعد الطلاق عِدَّة تعتدُّها فى بيته وهى وفاء الحمل للحامل حتى تضع ، وثلاثة أشهر لمن سواها ، وبين أثناء تلك المدة يراجع الرجل نفسه ، وتفيء المرأة الى عقلها ، فإن نزعا إلى عهدهما القديم فى هذا العهد القصير ، راجع الرجل زوجته ، وكان ذلك خيرًا وأبقى . وفى ذلك يقول الله جلت آياته : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » .

أما الأمر الذى لعل الله يحدثه ، فمعاودة الرأى ، ومراجعة النفس بعد رياضتها ، ورد جماحها ، واسلاس قيادها ، بعد ذلك الهجر القصير الأمد .

فاذا استكملت العدة فله أن يعيدها الى فيئه ، أو أن يبتَّ فراقها ، ان لم يكن الى التوفيق سبيل . فذلك حيث يقول جل ذكره : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلّٰهِ » .

وللرجل أن يعاود زوجته بعد أن يطلقها مرتين ، فان عاد الى الثالثة حيل بينه وبينها فلا يعود اليها حتى يخلفه غيره عليها ، تأديباً له ، وإذلالاً لنفسه .

وقد أمر الله الرجال بمجاملة زوجاتهم ، والرفق بهن ، وبذل كل ما يستطيعون بذله فى سبيل مرضاتهن فى أيام عدتهن ، فذلك حيث يقول : « أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللّٰهُ لاَ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » .

ثم لقد فرض الله على الرجل أن يرُدّ اليها بقية ما سماه من مهرها حين طلاقها وحرّم عليه أن يستردّ شيئاً مما اجتلب لها كائناً ما كان ذاك المجتَلَب . وفى ذلك يقول الله جلتْ آياته : « وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » .

من ذلك كله تعلم أن نظام الطلاق فى الاسلام ، لا يدانيه نظام غيره دقة وإبداعاً . فلا هو بالمغلق المحظور حتى يكون أحد الزوجين شجاً فى حلق صاحبه وغُلاً فى عنقه ، وكَبلاً فى يديه ، وقيداً فى قدميه . ولا هو بالسهل الهيّن فيتخذه

من لا عهد لهم ، ولا رعى ، ولا ذمام ، مرتعاً خصيباً ، يتنقلون فيه كما شاءت أهواؤهم ، وشهوات أنفسهم .

﴿ وبعد ﴾ فلنعد الى المظهر الثانى من مظاهر حرية المرأة فى الاسلام وهو : —

٢ — حريتها العامة

اذا كانت المرأة المسلمة عماد البيت بحكم الاسلام ، فهى أيضاً دعامة الحياة العامة بحكم الاسلام . فهى لم تدع موطناً عظيماً ، ولا مشهداً حافلاً ، ولا عملاً خالداً إلا وكانت فقار ظهره ، وعماد أمره . فقد جلست الى رسول الله متحدثة متعلمة ، ورافقت جيشه آسية مداوية ، وجالت بين يديه مقاتلة مستبسلة وهاجرت بدينها الى المدينة والحبشة مع السابقين الأولين من المهاجرين . فأجزل الله فى كل ذلك مثوبتها ، وأحسن النبى مآبها ، وأكبر المسلمون مواقفها .

لقد كانت المرأة العربية فى عهد جاهليتها تزن الرجل فى ذكاء قلبه ، ومضاء نفسه ، وسناء خلائقه . فلما عمها الاسلام لم تقصر عن مداه فى علم أو دين أو فضيلة . فمن أين للرجل أن يأنف من مجالستها ، ومساجلتها ، واستماع حديثها ، وذلك شأنها معه ، ومكانها منه ؟

ولم يكن الحجاب مما تألفه المرأة العربية كثيراً فى عهد جاهليتها ، فقد كانت تغشى المحافل ، وتخوض الجحافل ، وتخطب فى الأندية ، وتمشى فى الأسواق ، فلما انبسط ظل الاسلام تأثر الحجاب بمؤثرين متعارضين :

أما أولهما فأمر الله زوجات رسوله بالقرار فى بيوتهن ، والابتعاد عن منال العيون . لأن موطنهن من رسول الله ، ومكانهن من أمومة المؤمنين ، لا يجعلهن كأحد من النساء . وذلك حيث يقول جل ذكره :

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

ومهما يكن نظرنا الى الحجاب ورأينا فيه ، فليس لنا متأوّل فى أن الله اختص به نساء النبي دون سواهن . ولنا فى الحديث التالى كفيل بما نقول :

ذلك أن النعمان بن أبى الجون الكندى لما عرض على رسول الله ابنته أسماء[1] وارتضاها النبي زوجاً له ، قال له النعمان : فابعث يا رسول الله إلى أهلك من يحملهم اليك ، فأنا خارج مع رسولك فمرْسِلُهم معه . فبعث رسول الله معه أبا أسيد الساعدى . فلما قدما عليها جلست فى بيتها وأذنت له أن يدخل . فقال أبو أسيد : ان نساء رسول الله لا يراهن أحد من الرجال . فأرسلت اليه : فَيَسِّرنى لأمرى . قال : حجاب بينك وبين من تكلمين من الرجال إلا ذا محرَم منك . ففعلت . فلما حملت إلى رسول الله صرفه الله عنها فلم يَبْنِ بها . فأقامت بالمدينة لا تبرحها .

(١) أسماء بنت النعمان : هى احدى فرائد العرب ومعدوداتهن جمالا وشرفاً . وينتهى نسبها الى آكل المرار ملك كندة وسيدها . وكان مقامها بنجد . ولما شبت زوجت من ابن عم لها فاخترمه الموت عنها . وفى ذلك العهد ذاع الاسلام فى نجد فقدم النعمان الى رسول الله مبايعاً له وهنالك عرض ابنته عليه صلى الله عليه وسلم فارتضاها لمكان أبيها وأمهرها مهر نسائه اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقية من الذهب ، وأرسل اليها أبا أسيد الساعدى فأتى بها . على أن بناءه بها لم يتم وفى سبب ذلك خلاف شديد . ومما قالوا أنها أظهرت شيئاً من الكبرياء على النبي صلى الله عليه وسلم فقد دعاها فقالت أقبل أنت وأبت أن تقبل اليه . وقالوا أنها حين قدمت الى المدينة لم ترضها فسألت رسول الله أن يعيدها الى أهلها . وقالوا ان رسول الله سألها أن تهب له نفسها فقالت : هل تهب الملكة نفسها للسوقة ؟ وقالوا ان داخلة دخلت عليها حين قدمت المدينة فامتلأ قلبها غيرة مما أبصرت من جمالها فأسرت اليها أن تقول — اذا دخل عليها رسول الله — أعوذ بالله منك ، فذلك أحب شىء اليه . فلما سمع منها رسول الله ذلك القول غطى وجهه وقال استعذت بمعاذ ثم ألحقها بأهلها على أن هذا القول بعيد الاحتمال . وكان ألم قومها من هذه الخيبة كأشد ما يكون . ونال منها الألم بعد ذلك فقالت لأبى أسيد — وكان قد أمر بأن يعود بها — ماذا أصنع ؟ فقال أقيمى فى بيتك واحتجبي الا من ذى رحم محرم ولا يطمع فيك أحد فأنت أم المومنين . فبقيت كذلك حتى ماتت فى عهد عثمان . ويقولون أنها زوجت فى عهد عمر من المهاجر بن أبى أمية فجرى بينها وبين أمير المؤمنين ما أسلفنا فى أصل الكتاب

حتى إذا كانت فى عهد عمر تزوجها المهاجر بن أبى أُميَّة فأفزَع عمر أن إحدى أمهات المؤمنين تتزوج بعد رسول الله . فأرسلت اليه : والله ما ضُرِب علىّ الحجاب ولا سمّيت أم المؤمنين[1] .

ذلك الى أن مساق الآيتين الكريمتين لنساء النبى، وانهن لسن كأحد من النساء.

على أن ذلك التشريع الخاص بنساء النبى من شأنه أن يحبب ذوات الشرف والسناء من النساء ، إن لم يكن فى القرار الدائم ، ففى ايثار القرار، تشبها بأكرم نساء المسلمين على الله ورسوله ، لولا أن هناك مؤثراً آخر ، وازنه فعارضه .

ذلك ما دعته وثبة الاسلام ، وجِدُّ حياته ، الى خروج المرأة عن دارها طلباً للدين ، ودراسة للعلم ، واشتراكا فى مناسك الحج ، واسعاداً فى معاناة الجهاد ، وصدعا بما وقر فى نفسها من حق أضيع ، وحرمة أبيحت ، وانها لتعلم أن لها فى ابتناء عظمة الاسلام شأناً لا يستهان بخطره ، ولا أثره .

هذان هما المؤثران اللذان تأثر بهما حجاب المرأة العربية فى الاسلام ، وهما على تعارضهما لا يتكافآن قوة ورجحانا . لأن للثانى أثراً واقعاً ، ووضحاً فى الدين ظاهراً ، ومثوبة من عند الله مكفولة ، فلم يكن بد من غلبته .

بل إن عائشة رضى الله عنها — وهى احدى أمهات المؤمنين ، وأجمعهن للمأثور من حديث رسول الله — لما رأت تدافع الواجبين — وهى احدى اللواتى نزل فيهن صريح الأمر بالحجاب — آثرت الثانى فخرجت تخطب فى المسلمين وتستنفرهم — بل وتقودهم — الى قتال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، لأنها رأت فى قومتها — إن صواباً وإن خطأ — قياماً بالواجب ، وثأراً للخليفة المظلوم . وليس بفائتنا أن نذكر لك شيئاً من إجابتها على لوّامها .

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ١٠ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٠٢ — ١٠٥

فقد كتبت اليها أم المؤمنين « أم سلَمَة » رضى الله عنها تقول لها : ما كنتِ قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّةً قعوداً من منهل الى منهل وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجاباً ضربهُ عليك ؟ . . » فأجابتها عائشة :

من عائشة أم المؤمنين ، الى أم سلمة ، سلام عليك ، فانى أحمد الله اليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد فما أقبلنى لوعْظك ، وأعرفنى لحق نصيحتك ، وما أنا بمعتمرة بعد تعريج . ولنعم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين . فان أقعد فعن غير حرج . وان أمض فإلى ما لا غنى بى عن الازدياد منه والسلام[1] .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ طبع بولاق

سنفرد أم المؤمنين عائشة عليها السلام بفصل من هذا الكتاب . أما أم سلمة فهى أم المؤمنين هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية وأبوها أحد الذين انطلقت أيديهم بالجود حتى استفاض به ذكرهم . وكان اذا سار فى ركب فعليه اطعامهم ما دام فيهم ومن أجل ذلك سموه زاد الراكب . وأمها من بنى فراس بن غنم رهط ربيعة بن مكدم . وأول ما زوجت من ابن عمها أبى سلمة بن عبد الأسد . وهو أحد السابقين الأولين من المهاجرين . وقد صحبته فى هجرته الى الحبشة ثم تبعته الى المدينة فكانت أسبق النساء جميعاً الى الهجرتين ومات عنها أبو سلمة سنة ثلاث من الهجرة وقد انحسرت منه عن أربعة من الولد هم عمر وسلمة ودرة وزينب . وكان آخر ما أوصاها به أن تبتغى الزوج الصالح من بعده .

وكان من دعائه لها : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيرا منى لا يحزنها ولا يؤذيها . ومما حدثها به انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع الى ما أمره الله به من قول إنا لله وإنا اليه راجعون اللهم آجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيراً منها الا آجره الله فى مصيبته وكان قمنا أن يعوضه خيراً منها . قالت أم سلمة : فلما مات أبو سلمة ذكرت الذى حدثنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلته ثم قلت انى أعاض خيراً من أبى سلمة ؟ قالت فقد عاضنى الله خيرا من أبى سلمة وأنا أرجو أن يكون الله قد آجرنى فى مصيبتى

ولما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ثم خطبها عمر فردته ثم أقبل عليها رسول الله فخطبها وبينها وبينه حجاب فقالت أى رسول الله وما تريد إلىّ ؟ ما أقول هذا إلا رغبة لك عن نفسى انى امرأة قد أدبر منى سنى وإنى أم أيتام وانى شديدة الغيرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يمنعك ذلك . أما ما ذكرت من غيرتك فيذهبها الله وأما ما ذكرت من سنك فأنا أكبر منك سناً وأما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله . فأذنت له فتزوجها

وكانت رضى الله عنها من أكمل النساء نفساً ورأيا . فرج الله بها عن رسول الله موقفاً من أشد المواقف وقعا عليه . واجمال ذلك أن رسول الله خرج بالمهاجرين والانصار إلى مكة معتمراً — زائراً البيت الحرام — فلما دنا من مكة عرضت له قريش وقالوا لا يسمع العرب أنك دخلت ديارنا عنوة . وهنالك بايع رسول الله

فانظر إلى حسن وصفها لموقفها ، وتبيّن قولها : وان أمض فإلى ما لا غنى بى عن الازدياد منه . تَرَها — على امتلاء حجة صاحبتها وقوتها — لا تنثنى عن داعية قلبها ، ولا تتراجع عما رأت الخير فيه ، وعقدت العزم عليه ، بل هى تطلب المزيد منه ، وتسير قُدُماً اليه .

* * *

ذلك شأن عائشة أم المؤمنين . فأما جندها فلم يكونوا من السّوام الذين يتبعون أول صائح ، بل كان مدعوم الصفوف بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. وليس واحد منهم بمتّهم فى دينه ، ولا مفرّط فى كتاب الله ، وهم جزء من جماعة المسلمين الذين يُؤتسى برأيهم ، ويهتدى بحجّتهم .

ذلك ما فعلته عائشة أم المؤمنين وما كانت فيه بدعاً من أزواج رسول الله فقد شركتها أم المؤمنين صَفِية بنت حُيَى يوم حوصر عثمان ، فخرجت على بغلتها لتدفع غارة المغيرين عنه[1] .

أصحابه على الموت . ثم توسلت اليه قريش أن يعود إلى المدينة على أن يفسحوا له طريق الحج فى العام الذى يليه فرضى رسول الله ذلك اجلالا للمدينة المقدسة أن تخضب بالدماء وأمر المسلمين أن ينحروا أضاحيهم ويحلقوا رؤسهم تحللاً من احرامهم وايذانا لهم بالانثناء عن الاعتمار فعز على المسلمين أن يصرفوا عن وجههم بعد أن تعاقدوا على الموت فى سبيل الله وكفوا عما أمر رسول الله به فدخل على أم سلمة حزيناً مغضبا فقالت مالك يا رسول الله — مراراً — وهو لا يجيبها ثم ذكر لها ما لقى الناس وقال لها : هلك المسلمون ! أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا وهم يسمعون كلامى ويرون وجهى . فقالت : يا رسول الله لا تلمهم فانهم قد دخلهم أمر أعظم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحدا وينحر ويحلق رأسه فخرج رسول الله ففعل ما أشارت به أم سلمة فلم يبق مسلم الا نحر وحلق

وعمرت أم سلمة بعد رسول الله حتى ماتت فى عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ رضى الله عنها

(١) الاصابة ج ٨ ص ١٢٧

صفية : هى أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير . وتنزع بنسبها الى رسول الله هرون ابن عمران أخى رسول الله موسى بن عمران صلوات الله عليهما . كانت قبل أن تكون لرسول الله زوجا لكنانة ابن الربيع فقتل عنها يوم خيبر . وكانت قد رأت فى منامها ان قمراً هبط من يثرب — المدينة — فسقط فى حجرها . فقصت رؤياها على قومها فردوها اليها وقالوا لها قولا شديداً فلما غزا رسول الله خيبر وأمكنه الله من أهلها جىء اليه بصفية فقال لها لم يزل أبوك من أشد يهود لى عداوة حتى قتله الله فقالت يا رسول الله ان

أما مَن سوى أمهات المؤمنين فلم يكنّ يتحرجن من مجاذبة الرجال كل شئون الدنيا والآخرة . وسيمر بك فى مواطن خاصة من هذا الكتاب ما أسفر عنه رأى أولئك النساء فى مجالس العلم ، ومحافل الأدب ، ومشاهد الرأى ، وساحات العمل ، وما قرّ لهن فى مواطن كثيرة من زعامة المسلمين وقيادتهم ، وتصريف سياستهم ، وتكوين رجالهم . وما شىء من ذلك بالهيّن اليسير .

والآن وقد أخذنا بالقول فى حرية المرأة فيما عدا دارها ، فان حقًّا علينا أن نقول فى أمر نِقْبَتِها ، وما عليه هيئتها ، اذا انكشفت عن بيتها .

أول ما امرت به المرأة إذا خرجت لبعض شأنها ، أن تضرب بخمارها على صدرها ، فذلك حيث يقول الله جل ذكره : « وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ » وذلك كى لا يظهر شىء من مكشوف صدرها ، ولا زينة نحرها . وكان نساء الانصار لا يتخذن الخُمُرَ فاتخذنها لذلك . ثم زاد الله سبحانه ذلك الأمر بيانًا وتوكيداً فقال : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »

فأُمرت المرأة اذا سارت فى مذاهب الرجال ، أن تُرخى بعض ثيابها على بعض وجهها بأن تستره ببعض خمارها حتى لا تعرف بأنها من إماء المدينة وبغاياها اللواتى

الله يقول فى كتابه ولا تزر وازرة وزر أخرى فقال لها رسول الله اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك فقالت يارسول الله لقد هويت الاسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى ومالى فى اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ وخيرتنى الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق وأن أرجع الى قومى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله قوموا عن أمكم وكان ذلك ايذانا بتشريفها عليها السلام بزواجه ولها يومئذ سبعة عشر عاما . وكانت رضى الله عنها من أوضأ نساء النبى وجها وارضاهن له معاشرة وادناهن من قلبه ورحمته . فاخرتها عائشة بأبيها الصديق وفاخرها أخريات من أزواج النبى بآبائهن من قريش فشكت ذلك الى رسول الله فقال لها ان عدن فقولى أنا خير منكن أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد فلما عاودنها الفخر قالت لهن مقال رسول الله فما فاخرتها واحدة بعد ذلك . وعاشت عليها السلام بعد وفاة رسول الله حتى أدركت خلافة معاوية . وكانت وفاتها سنة خمسين رضى الله عنها .

يخرجن سوافر متبرجات فلا يؤذينها أرقاء الدين وفتيان المنافقين يتتبعها ، أو التحرش بها . على ذلك عَبَر جمهور نساء المسلمين . فكن يغدون لحاجاتهن ، ويغشين المجالس ، ويتصدرن الأندية ، ويتناولن شتات أعمالهن ، متنقبات غير متبرجات .

ومن النساء من فهمن الأمر على خصوصه فجلسن إلى الرجال سوافر محتشمات ، لبعدهن عن منال الأذى ومجال الشبهات .

ومن فضليات هؤلاء سُكَيْنَةُ بنت الحسين بن علىّ رضى الله عنهم . فقد كانت بَرْزَةً تجلس إلى العلماء والأدباء والشعراء ولا تكاد تحتجب منهم[١] .

ومنهن عائشة بنت طلحة فكانت لا تستر وجهها من أحد . وقد عاتبها فى ذلك زوجها مصعب بن الزبير فقالت : ان الله وسمنى بميسَم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد[٢] .

على أن الاسلام حيال ذلك النصيب البالغ من الحرية أخذ على المرأة الا تتشبه بالرجل فيما هو من خاصة أمره ولزام شأنه كزيه وهيئته وتبذله بين صحابته وخاصته . فقد لعن نبى الله المترجلات من النساء كما لعن المخنَّثين من الرجال . أما تشبهها به فى رأيه وعلمه فممدوح ومحمود . فقد كانت عائشة أم المؤمنين رَجْلة الرأى والعلم[٣]

﴿ أما بعد ﴾ فذلك رأى الاسلام والمسلمين فى المرأة المسلمة وحريتها أتينا عليه ، ولم نُفرط فيه ، انصافاً للتاريخ فى قوم لهم من وضح دينهم ، وسناء خلقهم ، وشرف نفوسهم ، ورجاحة عقولهم ، وجِدّ حياتهم ، حُجُبٌ لا تنالها الأوهام ، ولا تهتكها الأيام ، وعصمة لا تقى الحجب المضاعفة وِقاءها ، ولا تبلغ البروج المشيدة أدنى مداها .

---

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٥٩ (٢) الأغانى ج ١٠ ص ٥١ طبع بولاق . وسنفرد كلا من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بفصل من هذا الكتاب (٣) لسان العرب ج ١٣ ص ٢٨٣

المرأة العربيـــة

بين التأثر بالاسلام والتأثير فى نهضته

١ — تأثرها بالاسلام

اذا كانت المرأة العربية فى عهد جاهليتها قد خضعت لدين ، فانما ذلك دين مضطرب لا أثر له ، ولا خير فيه .

وان هى نزعت الى خلق فاضل ، وخليقة كريمة ، فقد عَلِقَتْ بهما شوائب الجهل ، وفوضى الجماعة ، فقنعت فى بعض المواطن جمالها ، وجاوزت بهما قصد السبيل .

وان هى أفاضت على القوم روح الحمية ، وحب التضحية ، ووحى القول ، وجمال الخيال ، فقد كان لهم من وجودها ، ونفاذ قولها ، حروب فرقت جماعتهم وأطالت بلاءهم ، ومزقت أوصالهم .

وان هى جاذبت الرجل حبل العمل ، وساجلته جد الحياة ، فقد احتملت من العبء أثقله ، ونالت من النصيب أقله . وربما تناولتها المصائب من كل جانب ، فلا تجد من حسن العزاء ما يطمئن بمثله ذوات الدين من النساء .

لذلك كله كانت المرأة العربية أحوج ما تكون الى دين سمح متين ، يعمد الى تلك الفضائل المودعة فيجلو صدأها ، ويثير كامنها ، وينهج بها الخير كله ، ويَجْنُبُهَا مداحض الزلل ، وعثرات الطريق .

لقد هيأ الاسلام للمرأة تلك الوسائل ، ورفعها الى أبعد مما يطمح خيالها ، ويصبو أملها ، وساق لها من آى الذكر الحكيم ، ما بهر سناه بصرها ، وملكت محجته نفسها ، واستقادت بلاغته وحسن مساقه قلبها ، وأنصتت لما وصف به

الله رحمته وعزته ، وناره وجنته ، وما أعد للصابرات والمحسنات من جزيل الأجر وسَنِيّ المنزلة ، فأثار ذلك عاطفتها ، وأفاض وجدانها ، وأنار بصيرتها . فكان حقاً لذلك أن يصيب حبة قلبها ، ويجُول فى مجال دمها ، ويتأشب بين أحناء ضلوعها . وأن يكون خَلجة شفتيها ، وظلّة رأسها ، وسُنّةَ وجهها ، ومَرَاد طرفها ، وكُلَّ شىء بين يديها .

كذلك كان أمر نساء العرب . فان أول قلب خفق بالاسلام وتألق بنوره ، قلب امرأة منهن . وما كانت تلك المرأة فى سواء النساء ، بل لقد هيئ لها من جلال الحكمة ، وبعد الرأى ، الى زكاء الحسب ، وذكاء القلب ، ما عز على الأكثرين من الرجال . فلم تأخذ الدين مشايعة ، ولم تتلقه مجاملة ، بل أخذته عن تأثر به ، وظمأ اليه .

أجل . لقد تأثرت خديجة بنت خويلد زوج النبى وأم المؤمنين بهذا الدين تأثراً نفذ الى قلبه صلى الله عليه وسلم ، فكان مبعث الغبطة والسكينة عند تدافع النوب ، واشتداد الخطوب . ثم أعقبها جمهور النساء فتأثرن بهذا الدين تأثراً هان وراءه كل شىء .

وأول من سبق اليه فريق الضعاف اللواتى فقدن النَّصَفة ، وعثر بجدهن الزمان . فابتدرن ورده ، وتفيان ظله ، واستهن بما أصابهن فى سبيله ، من ظلم وذل وآلام .

وكانت لقريش صولة وانبساط بالأذى على من آمن من أولئك الضعاف حتى لقد تجاوزوا به حدَّ التعذيب والإيلام ، الى الافتنان فى التمثيل ، والتأنق فى التنكيل .

ومن أولئك اللواتى استعذبن العذاب : سُمَيّة أم عمار بن ياسر . كان بنو مخزوم إذا اشتدت الظهيرة ، والتهبت الرمضاء ، خرجوا بهـا هى وابنها وزوجها الى

الصحراء، وألبسوهم دروع الحديد، وأهالوا عليهم الرمال المتقدة، وأخذوا يرضخونهم بالحجارة، حتى تفادى الرجلان ذلك العذاب المرّ بظاهرة من الكفر. وفيهما وفى أمثالهما أنزل الله قوله: « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ». فأما المرأة فاعتصمت بالصبر، وقرت على العذاب، وأبت أن تعطى القوم ما سألوا من الكفر بعد الإيمان. فذهبوا بروحها، وأفظعوا قِتلتها[١].

وغير سمية كثيرات احتملن فوق ما احتملت.

فمنهن من كانوا يلقونها، ويحمون لها مكاوى الحديد، ثم يضعونها بين أعطاف جلدها، ويدعون الأطفال يعبثون بعينها حتى يذهب بصرها[٢].

ومنهن من كانوا يسقونها العسل، ويوثقونها بالأغلال، ثم يلقونها بين الرمال، ولها حرٌّ يذيب اللحم، ويصهر العظم، حتى يقتلها الظمأ[٣].

وكان عمر بن الخطاب وهو على دينه القديم، يتولى تعذيب جارية مسلمة

(١) انسان العيون ج ١ ص ٣١٩ — ٣٢٠

سمية: هى سمية بنت خباط — بضم الخاء وتشديد الباء — أول الشهداء فى الاسلام.

نشأت سمية فى رق أبى حذيفة بن المغيرة المخزومى فزوجها من ياسر بن مالك حليف بنى مخزوم فولدت له عمارا. ومنها ومن زوجها وولدها ارتفعت ثلاث دعائم للاسلام نهضت والدين غض جديد. وهى احدى ثمانية ظهروا بالاسلام فى أول أمره وأولئك هم رسول الله وأبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار وياسر وسمية فأما رسول الله وأبو بكر فقد منعهما من العذاب قومهما وأما الباقون فقد ألبسوا دروع الحديد والقوا فى حفائر الصحراء حتى يتقد الحديد عليهم. وكل أولئك تفادوا العذاب أخيراً بما أجروه على ألسنتهم من كلمة الكفر الا بلالا وسمية فأما بلال فاشتراه أبو بكر وأعتقه وأما سمية فقد أنفذ فيها الشريف النذل أبو جهل بن هشام حربته فماتت رضى الله عنها وكان رسول الله يمر على آل عمار وهم يعذبون بالصحراء فيقول صبراً يا آل ياسر موعدكم الجنة

(٢) سيرة بن هشام ج ١ ص ١٢٦ والآثار المحمدية لدحلان ج ١ ص ٢٦٤

وممن عذب بهذا العذاب زنيرة جارية عمر بن الخطاب. وكان هو وجماعة من قريش يتولون تعذيبها على مثال ما قدمنا فى أصل الكتاب ولما ذهب بصرها قال المشركون ما أصاب بصرها الا اللات والعزى فقالت له والله ما هو كذلك وما تدرى اللات ولا العزى من يعبدها ولكن هذا أمر من السماء والله قادر على أن يرد على بصرى. قيل فرد عليها بصرها فقالت قريش هذا من سحر محمد. وقد اشتراها أبو بكر وأعتقها رضى الله عنها

(٣) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١١١ — ١١٢

وممن فعلوا بهن ذلك أم شريك بنت جابر بن حكيم وسيمر بك بعد قليل حديثها

لبنى المؤمل ، فلا يزال يضربها بالسياط ، حتى إذا مَلَّ قال لها : إنى أعتذر اليك انى لم أتركك إلا ملالة ! فتقول له : كذلك فعل الله بك[1] .

إلى ذلك الحد احتمل أولئك النساء مظالم الرجال صابرات راضيات مطمئنات لا يسألن رحمة ، ولا يفزعن الى حيلة . حتى لقد ذكر رواة السير أن المستضعفين من الرجال — إلا بلالا رحمه الله — استنقذوا أنفسهم من الموت بذكر وثن من أوثانهم . على حين لم يذكروا عن امرأة شيئاً من ذلك .

لم يقف النساء حيال ذلك الأمد السحيق من العذاب موقف الواهن الضعيف. بل لقد استعذبنه ، واستهنّ به حتى عَرَضْنَ له ، ونزعن اليه ، اعلاء لكلمة الله ، واعزازاً لدينه . فكنّ يَنْبَثِثْنَ فى البيوت لدعوة مَنْ بها من النساء الى الاسلام . وفى حديث أم شريك القرشية العامريّة ما يضرب لك المثل الأتمّ مما نقول .

قال ابن عباس : وقع فى قلب أم شريك الاسلام وهى بمكة فأسلمت . ثم جعلت تدخل على نساء قريش سراً فتدعوهن وترغبهن فى الاسلام ، حتى ظهر أمرها لأهل مكة ، فأخذوها وقالوا لها : لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا ، ولكنا سنردك اليهم . قالت : فحملونى على بعير ليس تحتى شىء موطأ ولا غيره ، ثم تركونى ثلاثاً لا يطعمونى ولا يسقونى . قالت : فما أتت علىّ ثلاث حتى ما فى الأرض شىء . فنزلوا منزلاً . وكانوا اذا نزلوا وقفونى فى الشمس واستظلوا ، وحبسوا عنى الطعام والشراب حتى يرتحلوا . فبينما أنا كذلك إذ بأثر شىء بارد وقع علىّ منه ثم عاد ، فتناولته ، فاذا هو دلو ماء ، فشربت منه قليلاً ، ثم نزع منى ، ثم عاد ، فتناولته ، فشربت منه قليلا ، ثم رفع ، ثم عاد أيضاً . فصنع ذلك مراراً حتى رويت ثم أفضت سائره على جسدى وثيابى . فلما استيقظوا اذا هم بأثر الماء ، ورأونى

(١) سيرة بن هشام ج ١ ص ١٢٦

حسنة الهيئة . فقالوا لى : انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه ؟ فقلت : لا والله ما فعلت ذلك . كان من الأمر كذا وكذا . فقالوا : لئن كنت صادقة فدينك خير من ديننا . فنظروا الى الأسقية فوجدوها كما تركوها . فاسلموا لساعتهم .

ذاك صنيع المستضعفات اللواتى لم يعتصمن إلا بشرف النفس ، ولم يأوين إلا الى قوة الأيمان[١] .

على أن ذوات الشرف والمكانة لم يقصرن عن اللحاق بهؤلاء . وان كان أكثرهن قد آمن مع من آمن من ذويهن وأزواجهن ، فمنهن اللواتى انفردن بالاسلام دونهم ، واحتملن وحدهن آلام الهجرة ، واعتساف الطريق .

فقد آمنت أم كلثوم بنت عُقْبة دون رجال بيتها ، وفارقت خدرها ، ومستقر أمنها ودعتها ، تحت جنح الليل ، فريدة شريدة ، تطوى بها قدماها ثنايا الجبال ، وأغوار التهائم بين مكة والمدينة ، الى مفزع دينها ، ودار هجرتها ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أعقبتها بعد ذلك أمها ، فاتخذت سُنتها ، وهاجرت هجرتها ، وتركت شباب أهل بيتها وكُهولهم ، وهم فى ضلال يعمهون[٢] .

(١) الاصابة ج ٨ ص ٢٤٨

أم شريك : هى غزية — بضم الغين وتشديد الياء — بنت جابر بن حكيم القرشية العامرية . تنتهى بنسبها الى عامر بن لؤى . نشأت فى بنى عامر بن لؤى قريباً من مكة ثم تزوجها أبو العسكر الدوسى فنقلها الى مكة حتى اذا ظهر النبى بدين الله كانت من أسبق الناس الى اجابته وهى التى وهبت نفسها بعد الهجرة لرسول الله وسماها الله جل ذكره بالمرأة المؤمنة فى قوله جلت آيته : « يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى » .

(٢) الاصابة ج ٨ ص ٢٧٥

أم كلثوم : هى ابنة عقبة بن أبى معيط الأموية وتنتهى بنسبها الى أمية بن عبد شمس وكان أبوها سيداً من سادات قريش . وأمها أروى بنت كريز وهى أم عثمان بن عفان . أسلمت بمكة وبايعت قبل الهجرة ثم تبعت رسول الله الى المدينة وهنالك تزوجها زيد بن حارثة ثم قتل عنها فتزوجها الزبير بن العوام فكرهته لشدة فيه على النساء فسألته طلاقها فطلقها ثم خلفته على عبد الرحمن بن عوف فمات عنها ثم اعقبته على عمرو بن العاص فمانت عنه لشهر من زواجها

وكانت رضى الله عنها من أوفر النساء عقلا وأقواهن ايماناً وهى أول امرأة هاجرت الى المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما كان ثبات المرأة وقوة نفسها، وسبوغ يقينها، واستهانتها بالموت فى سبيل دينها، وقفاً على عهد رسول الله. بل لقد صحبها كل ذلك، وخامر لحمها ودمها فى كل أدوار عظمتها، وظهور شأنها. وانما نريد بعهد عظمة المرأة العربية ذلك العهد الذى احتفظ العرب فيه بعصبيتهم العربية، وذلك عهد الراشدين، والعهد الأموى، وأوائل أيام العباسيين بالعراق، والفاطميين بمصر، وبنى مروان بالأندلس.

ففى هذه الأيام كان تأثر المرأة بدينها شبيهاً بما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما انشعبت الآراء، وتباينت المذاهب فى تلكم الأيام، كان ثباتها على رأيها شبيهاً بثباتها على دينها. فلم يحولها عنه تحول الزمان، وتداول الدول.

هذا معاوية بن أبى سفيان باقعة قريش وسائسها، رِيضت له الدنيا وقر لأمره الأمر، فتطامنت له رؤوس القوم، وخشعت نفوسهم، ونطقت بما يحب ألسنتهم على حين أن خصومه اللواتى انضوين الى علىّ رضى الله عنه وحرضْنَ عليه هو بين صفوف صفين، لم تأخذهن صولته، ولم يذهب برأيهن وميض سيفه، ولم ينثنين بين يدى وعيده وتهديده. بل كان يستقدم خطيباتهن وشواعرهن، والزعيمات بالرأى فيهن، فكن حياله وهو أمير المؤمنين، كما كن يوم صفين. وسيمر بك من مقالاتهن ومقاماتهن بين يديه. عند كلامنا على أدب المرأة المسلمة ما فيه غنَاء.

كذلك كان ايمان نساء الخوارج وثبات قلوبهن، وَرَباطة نفوسهن حين يؤتى بهن فى صفَدَ الإسَار بين أيدى الخلفاء والأمراء، وسيوفهم مُصْلَتَة، يلتمع شررها بين أعينهن، فلا خوف ولا وهَن.

فقد أُتى عبيد الله بن زياد بامرأة من هؤلاء كان لها فى قتاله والإغراء به شأن عظيم. فبدأ يقطع رجلها وقال لها: كيف ترين؟ فقالت: ان فى الفكر فى هول المطلع لشغلا عن حديدتكم هذه.

وأتى الحجاج بأخرى منهن فجعل يكلمها وهى لا تلتفت اليه . فقيل لها : الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه ؟ فقالت : انى لأستحى أن أنظر الى من لا ينظر الله اليه . فأمر بها فقتلت .

وقيدت اليه أخرى فقال: والله لأعدنكم عدًّا، ولأحصدنكم حصداً . فقالت له: الله يزرع وأنت تحصد ؟ فأين قدرة المخلوق من الخالق[1] ؟

وقد أورد الجاحظ والمبرد حديث البَلْجاء وأفاضاه . وهى امرأة خارجية من بنى تميم نهضت تثير الخوارج فى العراق ، وتؤلبهم على عبيد الله بن زياد . فنذر بها عبيد الله . قالوا : وذهب الى شيخ الخوارج أبى بلال بن حُدَير ذاهب ، فقال له : يا أبا بلال إنى سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء وأحسبها ستؤخذ. فمضى اليها أبو بلال فقال لها : ان الله قد وسع على المؤمنين فى التَّقِيَّة فاستترى ، فان هذا المسرف على نفسه ، الجبار العنيد ، قد ذكرك . فقالت : ان يأخذنى فهو أشقى بى ، فأما أنا فما أحب أن يُعْنَتَ انسان بسببى . فوجه اليها عبيد الله . فأُتى بها . فقطع يديها ورجليها ، ورمى بها فى السوق . فمر أبو بلال والناس مجتمعون فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاء . فعرج اليها . فنظر ، ثم عض على لحيته ، وقال لنفسه : لَهَذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك يا مرداس .

قالوا : ولبثت ما شاء الله أن تلبث ، ولم تسمع لها آهة ولا أنة ، الا أن تذكر الله وتشكره[2] .

ذلك قليل من كثير ، مما يشهد للمرأة العربية فى عهد اسلامها باحتكام الدين فى ذات نفسها ، واستهانتها بالدم والروح فى سبيله .

ولقد كان سبيل ذلك أن تأثرت كذلك بأدب الاسلام ، وخرجت عما احتكم بها فى الجاهلية من عادة نافرة ، وتقليد ذميم .

(١) بلاغات النساء ص ١٣٤ — ١٤٣ (٢) البيان والتبيين والكامل ج ٢ ص ١٥٩

وأول ما لُقّنت المرأة من أدب الله ورسوله ، الاعتصام بالصبر ، اذا دجا الخطب ، وجل المصاب . وهى وان وسمت فى الجاهلية بالصبر عند اشتداد الدهر وجهد البلاء ، إنها لتعافه وتأباه إذا ذهب الموت بعزيز كريم من آلها وعشيرتها فهنالك يجتمع نساء الحى للمأتم ، حواسر الرؤوس سوافر الوجوه ، يشققن الجيوب ، ويلطمن الوجوه ، ويهجن الباكيات ، بما يثير الحزن الرابض ، والشجو المميت . وعادة للمناحة على السيد الشريف أن تظل سنة كاملة

* ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر *

ذلك ما حال دونه الاسلام ، ومنع المرأة أن تفعله ، أو تقرب شيئاً منه . فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ، وبايعه الرجال على الاسلام ، قدم عليه النساء . فقلن : يا رسول الله ان رجالنا قد بايعوك ، وإنا نحب أن نبايعك فمدّ رسول الله يده اليهن . فبايعنه . وكان مما أخذ عليهن فى بيعتهن : ألا ينحن ، ولا يخمشن وجهاً ، ولا يشققن جيباً ، ولا يَدَّعين ويلاً ، ولا ينشرن شعراً ، ولا يقلن هجراً . وبذلك كان رسول الله يبايع كل من بايعته[1] .

تلك بيعة طوقت بها أعناق المؤمنات جميعاً ، فأصبحت من أركان دينهن ، وعمد ايمانهن . ثم أصغين إلى ما كتب الله للصابرين والصابرات من جليل الأجر وجميل المثوبة ، ورأينه خَلة الأنبياء ، وسنة الصديقين ، وآية المقربين ، وقرأن قول الله تباركت حِكمته : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » وقوله جلت آيته فى الصابرين : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » . وسمعن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحدّث عن الله عز وجل : اذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٣ — ٦

ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً[١].

وقوله عليه الصلاة والسلام : يقول الله عز وجل ما لعبدى المؤمن جزاء اذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة[٢]. وقوله صلى الله عليه وسلم لجماعة النساء : يا معشر النساء ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار. فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : واثنين[٣].

كل ذلك وأشباهه — وكثير ما هو — سمعنه ووعينه . فكان مسلاة نفوسهن ، وراحة قلوبهن ، وبرد أكبادهن .

أو لم تر الى الخنساء وما ذهب به الدهر من حديث جزعها ، وتصدع قلبها وازدهاف لبها ، واضطرام حشاها ، على أخويهـــا صخر ومعاوية ، مما نطقت به أشعارها ، وذاعت بحرّه أخبارها ؟ لقد استحال كل ذلك الى صبر أساغه الايمان ، وجمّله التقى . فلم تأس على فائت من متاع الحياة الدنيا .

أولئك أبناؤها ، وهم أشطار كبدها ، ونياط قلبها ، خرجوا الى القادسية وكانوا أربعة ، فكان مما أوصتهم به قولها : يا بنى انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما هجّنت حسبكم ، وما غيرت نسبكم : واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، وجللت ناراً على أرواقها ، فيمموا وطيسها[٤] ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة .

فلما كشرت الحرب عن نابها ، تدافعوا اليها ، وتواقعوا عليها ، وكانوا عند ظن أمهم بهم ، حتى قتلوا واحداً فى أثر واحد[٥] .

---

(١) عدة الصابرين ص ١٠٢ (٢) عدة الصابرين ص ٨٨ (٣) ارشاد الساري ج ١ ص ١٩٧
(٤) الوطيس المعركة او الضرب فيها (٥) الرئيس الأصل

ولما وافتها النعاة بخبرهم ، لم تزد على أن قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من الله أن يجمعنى بهم فى مستقرّ الرحمة[١] .

ذلك أبعد مدى تبلغه المرأة من جلال الصبر، وقوة الايمان . ولعل أبعد منه ما حَدَّث أنس بن مالك ، عن أمه أم سُلَيم بنت مَلْحان الأنصارية زوج أبى طلحة زيد بن سهل قال : مرض أخ لى من أبى طلحة يدعى أبا عمير . فبينا أبو طلحة فى المسجد مات الصبى . فهيأت أم سليم أمره ، وقالت : لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه . فرجع من المسجد وقد تطيبت له وتصنعت . فقال : ما فعل ابنى ؟ قالت : هو أسكن مما كان . وقدمت له عشاءه . فتعشى هو وأصحابه الذين قدموا معه . ثمّ أتمّا ليلتهما على أتمّ وأوفق ما يكون الزوجان . فلما كان آخر الليل قالت : يا أبا طلحة ، ألم تر الى آل فلان ، استعاروا عارية ، فتمتعوا بها ، فلما طلبت اليهم شقّ عليهم ؟ قال : ما أنصفوا . قالت : فان ابنك فلاناً كان عارية من الله فقبضه اليه . . . فاسترجع وحمد الله وقال : والله لا أدعك تغلبيننى على الصبر . حتى إذا أصبح غدا على رسول الله . فلما رآه قال : بارك الله لكما فى ليلتكما . فاشتملت منذ تلك الليلة على عبد الله بن أبى طلحة .

ولم يمت عبد الله حتى رزق عشر بنين كلهم حفظ القرآن وأبلى فى سبيل الله[٢] .

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ٦٦ — ٦٧

(٢) صحيح البخارى — الاصابة ج ٨ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ وابن سعد ج ٧ ص ٣١٥ — ٣١٨ ام سليم : هى سهلة بنت ملحان بن خالد الانصارية احدى السابقات الى الاسلام والغازيات فى سبيله . اسلمت ورسول الله بمكة وبايعته حين مقدمه الى المدينة . وكان اسلامها مرائمة لزوجها مالك بن النضر . وكان ولدها أنس بن مالك يومئذ طفلا رضيعاً فكانت تقول له قل لا اله الا الله قل أشهد أن محمداً رسول الله فجعل ينطق بذلك أول ما ينطق فكان مما يثير الغضب فى نفس مالك فيقول لها لا تفسدى على ولدى ثم أيأسه أمرها فخرج عنها الى الشام وهنالك كان مقتله فلما بلغها قتله قالت لا جرم لا أفطم أنساً حتى يدع الثدى ولا أتزوج حتى يجلس فى المجالس ويأمرنى فكان يعرف لها تلك المنة فيقول جزى الله أمى عنى خيراً لقد أحسنت ولابتى . حتى إذا شب أنس تقدم لخطبتها أبو طلحة زيد — وكان مشركا — فأبت ثم قالت له يوماً فيما تقول أرأيت

ذلك مثل الكمال فى أسمى فضائله . على أن الاسلام قد أباح للناس أن يشتفوا بالدمع ، ويستريحوا إلى البكاء . فقد حدث البخارى أن رسول الله حمل ابناً لابنته زينب قد حُضِرَ ونفسه تقعقع فى صدره . ففاضت عيناه . فقال له سعد بن معاذ : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء . أما ما سوى البكاء ، فقد لعن رسول الله الصالقة والحالقة والشاقة[1] .

بل لقد أُمرت المرأة اذا مَرّ على أعز موتاها — إلا زوجها — ثلاثة أيام أن تعود إلى سابق عهدها من زينة وطيب .

فقد روى البخارى عن زينب ابنة أبى سلمة انها دخلت على زينب بنت جحش زوج رسول الله حين توفى أخوها . فدعت بطيب فمست منه . ثم قالت : أما والله مالى بالطيب من حاجة ، غير انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحِدَّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً[2] .

حجراً تعبده لا يضرك ولا ينفعك أو خشبة تأتى بها النجار فينجرها لك هل يضرك ؟ هل ينفعك ؟ وأكثرت من أشباه ذلك الكلام فوقع فى قلبه الذى قالت فأتاها فقال : لقد وقع فى قلبى الذى قلت وآمن بين يديها قالت فانى أتزوجك ولا أريد منك صداقا غير الاسلام

وكانت أم سليم تصحب رسول الله فى غزواته فتداوى الجرحى وتسقى العطاش وربما جاوزت ذلك فانغمرت فى الجيش غازية ولها فى الحرب حديث مفاض وكانت يوم حنين حاملا فرآها أبو طلحة متقلدة خنجراً مشهورا فشكاها الى رسول الله فقالت يا رسول الله اتخذه ان دنا أحد من المشركين بقرت بطنه . أقتل الطلقاء واضرب أعناقهم ان انهزموا بك فتبسم رسول الله وقال يا أم سليم ان الله كفى فأحسن

وكان لأنس حين قدم الى المدينة عشر سنوات فذهبت به اليه فقالت يارسول الله هذا أنس يخدمك فأقام على خدمته صلى الله عليه وسلم عشر سنوات حتى لحق رسول الله بالرفيق الأعلى

وأم سليم من اللواتى أكرمهن رسول الله بزيارتها وربما طعم وبات فى دارها رضى الله عنها

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٦٣ — ١٦٥

(٢) ارشاد الساري ج ٨ ص ١٨٧ — ١٨٨

زينب : هى أم المؤمنين زينب بنت جحش بن دياب الأسدية أندى نساء النبى يداً وأقربهن منه رحماً وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله . هاجرت الى المدينة فيمن هاجر مع رسول الله

كذلك عمد الاسلام الى قلب المرأة العربية فاستل سخيمته ، وأخرج ضغينته وطهره من غلّ الثائر ، ونزعة الانتقام . وقد كان ذلك من أشد ما يجيش به صدرها وتهتف به نفسها ، ويقذف حممه فمها ولسانها . فاليوم وقد شرع الله القصاص فى الدنيا والآخرة . واستنقذ العرب من مفارق الفُرق ، ومنازع الفِتن ، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخوانا ، فقد تبدل الحقد وُدّا ، واستحالت البغضاء ولاء .

وأنى يكون لسخائم النفوس ، وتطلب الأوتار ، من أثر فى صدر المرأة العربية المسلمة ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الداعين بدعوة الجاهلية وقال : ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية . وما دعوة الجاهلية إلا أن يقول الرجل أو المرأة يا لَفلان . فتعقد الألوية ، وتجاش الجيوش ، وتنتضى السيوف ، وتخاض الدماء ، إن ظالماً وإن مظلوماً .

وكانت جميلة واضحة الجمال فخطبها صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بن حارثة فقالت يارسول الله لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش قال فانى قد رضيته لك فتزوجها زيد فكان يأخذها أحيانا ما يأخذ المرأة اذا زوجت ممن دونها وكان زيد يشكوها لرسول الله حتى هم أن يطلقها . وكانت لزينب خلال من الكمال لم تشتمل على مثلها امرأة من النساء فكانت فى صلاتها وصيامها وحنانها واحسانها مضرب المثل وكانت صناع اليدين تصنع الشيء الكثير وتتصدق بثمنه على الفقراء لذلك كله قذف الله فى قلب نبيه الرغبة فيها حتى يرحمها من مظنة الضعة ومظهر الاستكانة وكان رسول الله يدافع عن نفسه تلك الرغبة ويأمر زيداً بامساك زوجته حتى أنزل الله قوله : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا » فآذنها بأمر الله . ولما سمعت آية الله فيها سجدت شكراً لله ونذرت صوم شهرين لأن الله تعالى تولى زواجها من رسوله وكان ذلك معقد فخرها بل فخر بنى أسد قومها

وكانت رضى الله عنها آية الله فى الجود والكرم . ومما روى البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله قال لنسائه : أسرعكن لحاقاً بى أطولكن يدا قالت عائشة فكنا اذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله نمد أيدينا فى الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة فعرفنا حينئذ ان النبى صلى الله عليه وسلم انما أراد طول اليد بالصدقة . وسيمر بك من حديث جودها عند قولنا فى احسان النساء ما فية غناء

ولما حضرتها الوفاة قالت لمن حولها انى قد أعددت كفنى ولعل عمر سيبعث الى بكفن فان بعث بكفن فتصدقوا باحدهما ان استعطتم اذا دليتمونى أن تصدقوا بحقوى — والحقوا معقد الازار — فافعلوا

وماتت عليها السلام سنة عشرين ولها من العمر خمسون عاما

وهل طُوِى قلب على أشدَّ وأهول مما طوى عليه قلب هند ابنة عتبة ، من سموم الموجدة ، ونيران العداوة لرسول الله ، وآل بيته ؟ فهم الذين قتلوا آلها يوم بدر ، واستقادوا زوجها يوم زحفهم على مكة . وهى التى أهدر نبى الله دمها يوم فتح مكة جزاء تمثيلها بجُثْمَان عمه حمزة يوم أُحد ، فجاءته مقنعة تبايعه فقالت :

« يا رسول الله الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتنفعنى رحمك . يا محمد انى امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة برسوله » ثم كشفت عن نقابها فقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله : مرحباً بك . فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب الىَّ أن يذلوا من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلىَّ أن يعزوا من خبائك[1] » .

---

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٧١

هند : هى هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس احدى فرائد قريش رأياً ، وحزما ، وبعد همة ، وحسن بيان . وأبوها عتبة سيد من سادات قريش وذوى آرائهم . وكانت هند قد زوجت من حفص بن المغيرة أحد فتيان قريش . فعانت من سوء رأيه ما حملها على فراقه ثم قالت لأبيها انى امرأة قد ملكت أمرى فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على فقال لها ذلك لك ثم قال لها يوماً انه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحدا منهما حتى أصفه لك أما الاول ففى الشرف الصميم والحسب الكريم تخالين به هوجا من غفلته وذلك اسجاح من شيمته حسن الصحابة حسن الاجابة ان تابعته تابعك وان ملت كان معك تقضين عليه فى ماله وتكتفين برأيك فى ضعفه وأما الآخر ففى الحسب الحسيب والرأى الأريب بدر أرومته وعز عشيرته يؤدب أهله ولا يؤدبونه ان اتبعوه أسهل بهم وان جانبوه توعر بهم شديد الغيرة سريع الطيرة شديد حجاب القبة ان جاع فغير منزور وان نوزع ففير مقهور قد بينت لك حالهما . قالت أما الاول فسيد مضياع لكريمته مؤات لها فيما عسى — ان لم تعصم — أن تلين بعد اباتها وتضيع تحت جنائها ان جاءت له بولد أحمقت وان أنجبت فعن خطأ ما أنجبت . اطو ذكر هذا عنى فلا تسمه لى . وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة انى لاخلاق هذا لوامقة وانى له لموافقة وانى لآخذة بأدب البعل مع لزومى قبتى وفلة تلفتى وان السليل بينى وبينه لحرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته الذائد عن كتيبتها المحامى عن حقيقتها الزائن لارومتها غير مواكل ولا زميل — بضم الزاى الجبان — عند ضعضعة الحوادث فمن هو ؟ قال أبو سفيان بن حرب قالت فزوجه ولا تلقنى اليه القاء المتسلس السلس ولا تسمه سوم المواطس — المثير الشر — الضرس — كشرس وزنا ومعنى — استخر الله فى السماء يخر لك بعلمه فى القضاء .

وحديث هند فى رثاء آلها يوم بدر واستثارة قومها يوم أحد حديث مفاض مشهور أوردناه فى تفاريق الجزء الأول من هذا الكتاب

وكان حمزة بن عبد المطلب قد قتل رجال عشيرتها فى بدر فلما اشتبكت قريش بالمسلمين فى أحد أغرت به من أنفذ فيه حربته حتى اذا صرع حمزة بقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها ثم لفظتها وتلك شر نزعات

فى سبيل الله ، وفى سبيل دينه ، ما غسل الدم ، وزالت الوحشة ، وأتلفت نوافر القلوب .

وكما أن الله طهر نفس المرأة من نزعة الحقد ، وأبرأ قلبها من قرحة الغلّ ، كذلك حسر عن عقلها حجاب الجهل ، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل . فلم تخضع لعقيدة فاسدة ، ولم ترضخ لوهم مموَّه . وعلمت أن الله قد أسدل حجُبَ الغيب دون أوليائه وأصفيائه ، فلم تطلبه ، أو تحاول كشفه . فطويت بذلك صحف الكهان والعرافين ، وزواجر الطير ، وطوارق الحصى . وأمثال كل أولئك ، من كل ذى لغو مموَّه ، وظن مُرَجَّم ، وضلالة باطلة . وتبيَّنت أن الأمر كله بيد الله ، وأنه وحده مقلب القلوب ، ومحوِّل الحالات . فلم تَحْتَلْ على الحُبّ واللقاء ، والبُرْء والشفاء ، ومدّ حبل العُمُر ، وردّ سهم القَدَر ، بتعليق الخرزات ، والاستقاء بمائها ، ولا بقول الرُّقَى ، وعقد التمائم . فلم يكن مفزعها فى الأمر كله إلا الدعوة الصالحة ، والرجاء الطيب فى الله وحده . وبطل ما كانت تعتقد فى المعانى التى ألبسها الخيال لَبوساً من الاشباح المترائية . فلم تعد تعتقد فى صور الهواتف ، ولا أصداء الارواح

الجاهلية وقد أدركتها من ذلك وصمة مندية لازمت أبناءها وأحفادها وكان سبيل فعلتها أن أهدر رسول الله دمها على أن الاسلام محا ما بينها وبين رسول الله كما أسلفنا فى أصل هذا الكتاب

ولما أسلمت عادت الى بيتها وعمدت الى صنم لها فانحت عليه بالفدوم تحطيما حتى فلذته فلذة فلذة وهى تقول كنا منك فى غرور

ومما يؤثر من حديث مروءتها فى جاهليتها انها — رغم ما كان بينها وبين رسول الله — لما علمت اهبة زينب بنت رسول الله للهجرة ذهبت اليها فى هدأة من الليل فقالت يا ابنة محمد بلغنى عزمك على الرحيل فتلجلج لسان زينب بالانكار فقالت هند لا تكذبينى فان ما بين الرجال لا يتعداهم الى النساء فان أحوجتك معونة من مال أو عمل فان أولى باسعادك ابنة عمك — تريد نفسها —

ولما علمت أن قريشاً عرضوا لزينب فى هجرتها قالت تهجوهم

أفى السلم أعياراً جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك

وكانت وفاتها رضى الله عنها فى خلافة عثمان رضى الله عنه

كل أولئك محاه الدين ، ومحقه العلم الصحيح . وقد علمت مبلغ ايمانها بالأول ، وستعلم مبلغ نفاذها فى الثانى .

* * *

ولم يقف الاسلام بالمرأة عند حد صلاح لبها ، وخفيات قلبها . بل نظر الى وجهها ، وظواهر هيئتها . فحرم عليها تمويه خَلْقها ، وتلوين وجهها ، وتوصيل شعرها ، وكشف صدرها ، والتبرج فى ثيابها ، وإبداء زينتها ، إلا ما ظهر منها[1] وأشباه ذلك ، مما يبدل فطرة الله ، ويغرى مرضى القلوب ، ويحول بينها وبين جد العمل ، وسموّ الحياة .

على أن الاسلام أباح للمرأة فيما سوى ذلك أن تتخذ من الثياب أدقها وأرقها ، ومن الحلى أنفسها وأضوأها ، وأن تَدَّهن ، وتكتحل ، وتختضب ، وتتطيب ، وتتجمل ما شاءت أن تتجمل . فقد خطب علىٌ كرم الله وجهه فاطمة بنت رسول الله ، فباع بعيراً له بثمانين وأربعمائة درهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوا ثُلُثين فى الطيب وثُلُثا فى الثياب .

وكانت عائشة أم المؤمنين تلبس المُعَصْفَر ، والمُضَرَّج من الثياب ، وفيها الخزُّ والحرير ، وتتحلى بالذهب . وربما حجَّت فى بعض ذلك . وكذلك كان يفعل نساء رسول الله .

ودخلت عليها امرأة وهى معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء

---

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٧٠ واقرأ فى سورة النور قوله تباركت آيته : « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » والمراد بما ظهر منها ما لا سبيل الى اخفائه عند معاناة العمل كالخواتم والثياب وكمحاسن وجهها وجمال شكلها فان فى ستر كل ذلك حرجا

البيضاوى ص ٤٦٧ طبع الاستانة

طهور . وسألتها عن الحفاف فقالت لها : إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلى[١] .

﴿ وبعد ﴾ فذلك مجمل ما أحدث الاسلام من الأثر فى قلب المرأة ولبها وعادتها وهيئتها . فأما فضائلها التى جملها الله بها فى عهد جاهليتها ، فقد ازدادت رسوخاً وتمكيناً فى عهد إسلامها ، حتى بلغت بها غاية جلالها وكمالها

فقد حدث البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلمهن فى الصدقة ، فأخذن ينزعن الفتخ والقِرَطة والعقود والأطواق والخواتيم والخلاخيل ويلقينها فى ثوب بلال — وكان بلال قد بَسَط ثوبه ليضع فيه النساء صدقاتهن

وبذلك رقأت عبرة اليتيم ، وبردت لوعة المسكين

وكذلك فعل النساء حين نزلت آية الصدقة : « إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ[٢] »

وكان كثير من الاحسان فى الجاهلية مما تثيره المنافسة ، وحسن الأحدوثة فأصبح بالاسلام مما تفيض به الرحمة ، ويبعثه ابتغاء مرضاة الله

فقد حدث ابن سعد عن عروة قال : رأيت عائشة تَصَّدق بسبعين ألفاً ، وأنها لترقع جانب درعها

وحدث عن أم ذرة : بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال فى غرارتين يبلغ مائة ألف ، فدعت بطبق — وهى يومئذ صائمة — فجعلت تقسم فى الناس . فلما أمست قالت : يا جارية ، هاتى فطرى . فقالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تعنّفينى ! لو كنت أذكرتنى لفعلت

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٣ و ٤٧ طبع ألمانيا (٢) القسطلانى ج ١ ص ٢٢٦

وحدثت برزة بنت رافع قالت : لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذى لها . فلما أُدخل عليها قالت : غفر الله لعمر ! غيرى من أخواتى « أمهات المؤمنين » كان أقوى على قَسْم هذا منى . قالوا : هذا كله لك . فاسترت منه بثوب وقالت : صُبُّوه واطرحوا عليه ثوباً . ثم قالت لى : أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى به إلى بنى فلان و بنى فلان — من أهل رحمها وأيتامها — حتى بقيت بقية تحت الثوب . فقالت لها برزة : غفر الله لك يا أم المؤمنين ، والله لقد كان لنا فى هذا حق . فقالت : فلكُمْ ما تحت الثوب .

وحدث محمد بن كعب قال : كان عطاء زينب اثنى عشر ألف درهم حمل اليها فقسمته فى أهل رحمها ، وفى أهل الحاجة ، حتى أتت عليه . فبلغ عمر فقال : هذه امرأة يراد بها خير . فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال : قد بلغنى ما فرقت ، فأرسل إليها بألف درهم لتنفقها ، فسلكت بها طريق ذلك المال .

وقالت زينب حين حضرتها الوفاة : إنى قد أعددت كفنى . ولعل عمر سيبعث إلىَّ بكفن ، فان بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما . إن استطعتم إذا دليتمونى أن تصدقوا بحَقوى فافعلوا[1] .

وكانت سُكَينة بنت الحسين تجود بكل ما تجد من مال . فان لم يكن مال فبدملج تنزعه ، أو سوار .

وخرجت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عن مالها كله لفقراء آل أبى سفيان[2] .

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ٩٢ — ٩٣

(٢) بلاغات النساء ص ١٢٩

سنفرد عاتكة بفصل من هذا الكتاب فى باب العلم والأدب. أما حديث خروجها عن كل مالها فما رواه ابن أبى طالب فى بلاغات النساء قال : لما كبر يزيد ومروان ابنا عبد الملك من عاتكة بنت يزيد بن معاوية قال لها عبد الملك ان ابنيك قد بلغا فلو أشهدت لهما ميراثك من أبيك كانت لهما فضيلة على سائر اخوتهما فقالت اجمع لى شهوداً من موالى ومواليك قال فجمعهم فدخلوا وأدخل معهم روح بن زنباع — وكانت بنو أمية تدخله على نسائها مدخل مشايخها وأهلها — وقال له رغبها فيما صنعت وحسنه لها وأخبرها برضائى عنها فدخل عليها

وما استبقت المرأة والرجل فى سبيل الكرم إلا وكانت هى أبعد مدى ، وأطول يدا ، وأصدق ندى . لأنها تفقدت باحسانها مواطن البؤس ، وتتبعت مواقع الشقاء . فحسمت الجرح الدامى ، وسترت الجسد العارى ، وراشت الجناح المهيض على حين تعمد الرجل بحُرّ احسانه قالةَ الشعر ، ورواة الأخبار ، فأذاعوا ذكره ، وأنبهوا قدره ، وأكبروا أمره ، وعمدوا إلى موفور ما أكسبهم فصرعوه فى مصارع المال ، من سرف ولهو وضلال .

وأى رجل ذلك الذى يهب على البيت من الشعر ألف دينار ، وجاراته طاويات الحشى ، باديات الضنى ، قامحات الظما ، زغب الحواصل لا ماء ولا شجر ؟

وإن فيما أتم الله على المرأة المسلمة من نعمة الصبر ، وحبّ الاحسان ، لآية مما بلغته من شتات الفضائل التى أخذ بعضها بحُجُزَات بعض ، فبلغت منهن المقام الأوفى ، والمكان المكين .

ففى الوفاء لبيتها وزوجها وبنيها ، كانت بحكم الاسلام وتأثيره المثل الأعلى والقدوة الصالحة . وقد علمت من حديث أسماء بنت يزيد أن الوفاء لذلك كله يعدل عند الله ما يعانيه الرجل من الجهاد فى سبيل الله ، وما فوقه ، وما دونه . وفى حديث البخارى أن المرأة راعية على بيتها ، مسئولة عنه .

وكما أن الله حبب الى الرجال مصابرة أزواجهم ، وايلاف قلوبهن وبذل الود والرفق لهن ، كذلك حبب إلى النساء مثل ذلك فى أزواجهن .

فتكلم ثم قال ما قاله عبد الملك فقالت ياروح أترانى أخشى على ابنى العيلة وهما ابنا أمير المؤمنين ؟ اشهدتك أنى تصدقت بمالى على فقراء آل بنى سفيان قال فخرج القوم وأقبل روح يجر رجليه فلما نظر عبد الملك قال أما أنا فأشهد أنك قد أذللت بغير الوجه الذى أدبرت به قال يا أمير المؤمنين انى تركت معاوية بن أبى سفيان فى الديوان جالساً ! وأخبره الخبر فغضب عليها عبد الملك وتوعدها فقال له روح مهلا يا أمير المؤمنين فوالله لهذا الفعل فى ابنيها خير لك من مالها قال فكف عنها

فقد حدث ابن سعد عن عمرو ابن سعيد قال : كان فى علىّ رضى الله عنه على فاطمة شدة . فقالت : والله لَأَشْكُوَنَّكَ الى رسول الله . فانطلقتْ . وانطلق علىٌّ بأَثَرها . فقام حيث يسمع كلامهما . فشكت الى رسول الله غلظ علىّ ، وشدته عليها . فقال : يا بنية ! اسمعى واستمعى واعقلى : انه لا إمرة لامرأة لا تأتى هوى زوجها وهو ساكت . قال علىٌّ : فكففت عما كنت أصنع وقلت : والله لا آتى شيئاً تكرهينه أبداً (١) .

كذلك درجت المرأة المسلمة على مواتاة زوجها ومصافاته ، واستخلاص نفسها له ، واحتمال نبوة الطبع منه . وأكثر ما كان صفاء نفسها ، وسماح خلقها وعذوبة طبعها ، إذا استحال الدهر بالرجل فرزأه فى ماله ، أو نكبه فى قُوَّته ، أو بَدَّله بكرم المنصب ، وروعة السلطان ، أعرافاً من السجن ، وأصفاداً من الحديد .

بل لقد كان وفاؤها له بعد عفاء أثره ، وانمحاء خبره ، عديل وفائها له وهى بين أفياء نعمته ، وأكناف داره . وكان إيثار الاسلام له بمَدّ حدادها عليه أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا تتجمل فى أثنائها ، ولا تزدان ، ولا تفارق داره الى دار أبيها — سُنّة من سنن هذا الوفاء ، وآية من آياته .

لذلك كانت المرأة المسلمة ترى الوفاء لزوجها بعد الموت ، آثر مما تراه لأبيها وأمها وذوى قرابتها . فكانت تؤثر فضائله ، وتذكر شمائله فى كل موطن ومقام . بل ربما عرض ذكره وهى بين خَلِيفته من بعده ، فلا تتحرج فى ذكر فضائله وتفضيله إن كانت ترى الفضل له .

ومن حديث ذلك : أن أسماء بنت عُمَيْس كانت لجعفر بن أبى طالب ، ثم لأبى بكر من بعده ، ثم خلفهما علىٌّ كرم الله وجهه ورضى عنه . فتفاخر مرة ولداها

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٦

محمد بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر، كل يقول أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك، فقال لها علي ﷺ: اقضي بينهما يا أسماء. قالت: ما رأيت شابًا من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر. فقال علي ﷺ: ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير الذي قلت لمقتُّك!.. فقالت أسماء: ان ثلاثة أنت أقلهم لخيار[1]

ذلك علي ﷺ بن أبي طالب فتى المسلمين، وأحبهم الى رسول الله، وأعلمهم بدين الله، وأشدهم بلاء في سبيل الله، آثرت عليه امرأته زوجيها السالفين، ولو جعلته خير الثلاثة لاعتقدت بكفهـــا لواء أنصاره وشيعته، وهم جمهور عظيم من المسلمين. ثم انظر الى علي رضى الله عنه كيف أكبر رأى امرأته وأعظم وفاءها في قوله: لو قلت غير الذي قلت لمقتك.

وأشد من ذلك وأجل وأعظم، أن تفي المرأة لزوجها بعد موته. وفي وفائها الموت النافذ، والبلاء المحيق.

ومثال ذلك ما حدثوا أن مُصْعَب بن الزبير لما غَلَبَ على المختار بن أبي عبيد الثقفي ثائر العراق وسفاحها المُبيح وقتله، عرض آله وشيعته. فمن لم يقر بكفره ويبرأ

---

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

أسماء: هي أسماء بنت عميس بن معد — يوزن سعد — الخثعمية احدى الاخوات المؤمنات والسابقات المهاجرات والكريمات المنجبات والنافذات بالراي الجزل والقول الفصل والعلم المكين. وامها خولة بنت عوف بن زهير وهي أم ست عشرة امرأة ممن صحبن رسول الله وروين عنه وظفرن برضاه. ومنهن ميمونة بنت الحارث ام المؤمنين وام الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب وام الكملة من ابنائه والعصماء بنت الحارث زوج الوليد بن المغيرة وام خالد بن الوليد. وكان رسول الله يدعوهن بالاخوات المؤمنات. وكانت أسماء من أسبق النساء الى الاسلام. تزوجها جعفر بن أبي طالب وهاجر بها فيمن هاجروا الى الحبشة وهناك ولدت له عبد الله ومحمدا وعونا ثم قتل عنها فخلفه عليها أبو بكر الصديق رضى الله عنه فولدت له محمدا ثم مات عنها فأعقبه على عليه السلام فولدت له عونا ويحيى

وكانت رضى عنها من انجب النساء وأسناهن رأيا وأنفذهن في دين الله. روى عنها كثيرون من أعلام الدين ومنهم عبد الله بن جعفر والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير. وكان عمر بن الخطاب يغدو اليها فيسألها تأويل رؤياه. وكانت رضى الله عنها من أملك الناس لنفسها عند الخطب اذا جل والقضاء اذا حل وهي التي غسلت زوجها أبا بكر بوصية منه. ولما بلغها قتل ولدها محمد بن أبي بكر بمصر دخلت مسجد بيتها وكظمت حزنها حتى فاض ثدياها دما

منه ، ألحقه به . فلم يبق على عهـــده ، والوفاء له ، إلا امرأته عمرة بنت النعمان ابن بشير ، فقد قالت حين سئلت : أشهد لقد كان عبداً من عباده الصالحين فأمر بها فقتلت . ولم تفتد نفسها حين ضربت بالسيف بكلمة واحدة تُبَرِّئها منه مع أنها ضربت ثلاث مرات دون القتل . وتلك إحدى عثرات مصعب وسيئاته[١]

وفى عمرة وما حدث لها يقول عمر بن أبى ربيعة :

إن من أكبر الكبائر عندى ... قتل حسناء غادة عُطْبُول[٢]

قتلت باطلاً على غير ذنب ... إن لله دَرها من قتيل

كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

ومع أن رغبة الأيّم عن الزواج ، وكراهيتها له ، واعتكافها دونه ، لم يكن من مبادىء الاسلام فى شىء — فان كثيراً من الأيامى أَنِفن أن يتبدَّلن ببعولتهن زوجاً آخر ، وفاء لهم ، وبقيا على ذكْراهم . فقد روى صاحب أخبار النساء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب الى امرأة يخطبها فقالت : يا رسول الله انى عاهدت زوجى ألا أتزوج بعده . فقال : ان كان ذلك فى الاسلام ففى له[٣] .

بل لقد ظهر فيهن من عمدت الى مواطن الجمال من وجهها فشوهته حتى لا يرتغبها الناس ولا يبتغونها .

ومن أولئك نائلة بنت الفُرافِصَة زوج عثمان رضى الله عنه . فقد تكاثر عليها خطابها بعد قتل زوجها فأبتهم جميعاً .

ولما خطبها معاوية بن أبى سفيان قالت : وما أعجب أمير المؤمنين منى ؟ قيل لها : حسن ثغرك . وكانت كأحسن النساء ثغراً . فدقت ثناياها وقالت : أذات ثغر ترانى بعد عثمان[٤] ؟ .

---

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) العطبول المرأة الفتية الجميلة

(٣) أخبار النساء ص ٨٧ (٤) بلاغات النساء ص ١٣٨ — ١٣٩

وستختص نائلة رضى الله عنها بكلمة فى فصل آت

وقد صنعت خَوْلة بنت منظور بن زَبَّان صنيع نائلة حين خطبها عبد الملك ابن مروان بعد مقتل زوجها عبد الله بن الزبير . فقد أنحت على أسنانها تحطيماً لتشوه أجمل ثغر أبدعه الله[١] .

ومنهن زوج هُدْبة بن الخَشْرَم العُذرى . أخذ عليها زوجها حين قِيد الى القتل ، وأبصر طلعةَ الموت ، ألا تتزوج بعده أحمق ، أو لئيماً . فعمدت الى سكين فقطعت أنفها ، وقالت : أفيّ مطمع لما تقول بعد ذلك ؟ فقال : الآن طاب ورود الموت[٢] .

ومما حدّث الأصمعى قال : رأيت بالبادية أعرابية لا تتكلم ، فقلت : أخرساء هى ؟ فقيل لى : لا ، ولكن كان زوجها مُعْجَباً بنغمتها ، فلما توفى أطبقت فمها فلا تتكلم بعده أبدا[٣] .

على أن الاسلام وان لم يحمد من المرأة كراهيتها للزواج بعد زوجها ، ولم يعتدّ ذلك وفاء منها ، لقد شكره لها ، وأجزل عليه مثوبتها ، أن اعتزمته ، وأقدمت

---

(١) اخبار النساء ص ٧٣ (٢) ورد حديث هدبة فى عامة كتب الأدب العربى . وكان هدبة بطلا جلداً وشاعراً خلا وخطيباً جزلا ومحدثا بديع السمر عذب الحديث وكان قد قتل رجلا من أبناء عمومته يدعى زيادة بن زيد وله صبي لم يجاوز الثامنة فطلب سعيد ابن العاص — والى المدينة من قبل معاوية — هدبة فاعتقله حتى يبلغ الصبي ثم ان شاء قتله بأبيه وان شاء رضى بالدية بديلا منه فلما بلغ الصبي ذهب اليه كثيرون من هامات المسلمين يرغبونه فى العفو ويتقدمون اليه بالديات حتى بلغ ما تقدموا به عشر ديات . وكان ممن تقدموا بالدية الحسن بن على وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم . على أن الصبي أبى إلا أن يقتل قاتل أبيه . فلما أبصر أولئك الجد من أمر الفتى ورأوا ألا محيد من القصاص بكروا إلى هدبة بالسجن وفى أيديهم حفائرهم مطوية على الحنوط والأكفان وكان هدبة حينذاك يلعب بالنرد . فلما رآهم أقبل عليهم يحدثهم ثم أبصر فاذا بطرف من بعض الأكفان قد خرج من بعض الحفائر فقال كأن قد فرغ من أمرنا ؟ فقالوا أجل فقام فاغتسل ثم رجع اليهم فأخذ من كل واحد منهم ثوباً وردما بقى وخرج ليقاد منه وكان فى طول طريقه يقابل الناس فيحادثهم وينشدهم شعره كأن لم يكن من الأمر شيء . وكان ممن عرض له حسان بن ثابت فاستنشده شيئاً من شعره فقال

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب

(٣) أخبار النساء ص ٧٧

عليه ، وفاء لأبنائها ، ورعياً عليهم ، وضنًّا بهم أن يضيعوا عند غير أبيهم .

فقد علمت من أمر أم هانئ بنت أبي طالب كيف أبت على نفسها شرف الزواج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفاء لأبنائها ، وقضاء لحق الله ، وحق التربية فيهم ، وكيف امتدحها النبيّ ، وشكر لها ذلك .

وكان ذلك بعض عذر أم سلمة حين خطبها رسول الله فأرسلت تقول له : إني مُصْبِية . فأرسل اليها : أما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله . فقالت عند ذلك : مرحباً برسول الله .

ومات مالك بن النضر وابنه أنسٌ رضيع ، وزوجه أم سليم شابة حَدَثة . فكثر خطابها فقالت : لا أتزوج حتى يأمرني أنس . فوفت بعهدها وبرت . وكان ذلك مما أرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها .

وقالت امرأة من نساء اليمامة تدعى أم أثال — وكانت كأحسن النساء وجهاً فلما مات زوجها ، تدافع الخطاب على بابها فردت كل خاطب ، وفاء لابنها أُثال[1] :

لعمر أُثال لا أفدى بعيشه وان كان فى بعض المعاش جفاء

اذا استجمعت أم الفتى غضَّ طرفه وشاعَرَه دون الدِّثار بلاء

ذلك بعض حديث المرأة المسلمة فى الوفاء لخير ما خلقت له ، ووكلت به . وان لنا لعودة اليه فى الكلام على تأثير المسلمة فى الرجل ، وتكوينها له ، إن شاء الله تعالى .

﴿ وبعد ﴾ فان نساء العرب فى الاسلام لم يدعْن لرجالهن خَلة يستأثرون بها دونهن ، ولم يتركن سبيلاً من سبل العظائم ، ولا مشرفاً من مشارف المكارم إلا وكن السابقات اليه ، الواثبات الى غايته . حتى لقد جاذبن الرجال حبل البطولة ،

(١) بلاغات النساء ص ١٣٢ — ١٣٣

واصطلين نيران الحروب ، فأمَلْنَ ميزانها ، وأثرن نيرانهـــا ، وعَقَدْن دخانها ، وملكن عنانها .

وهن وان غشين الحرب لما دون القتال من إفاضة الرحمة ، وبذل المعونة ، لا يجدن بدًّا من انتضاء السيوف إذا أجفل الرجال ، ورجفت قلوبهم ، ورأين من لوائح الهزيمة ما لا خير فى الحياة بعده . ولعل من الناس من يقول : وما عسى المرأة أن تفعل يومذاك ؟ ألا إنّها لتَدَع الرجل يقول : وما عسى الرجل يفعل يوم ذاك ؟ .

وهل تجد الشَّجَاعة إلا قوة تفيض من اليقين الثَّبْت ، والصبر المكين ، فتصدع ركن الدهر ، وتفل غرب الحادثات .

فانظر كيف تجد المرأة من جلال الصبر ، وقوة الايمان ، ثم تبيّن مبلغ غَنَائِها وكفايتها ، إذا أحرج صدرها ، واشتملت الحرب العوان عليها ؟

ونحن بعون الله سائقون لك شيئاً من مواقف النساء ، فى مخاضات الدماء وتلك هى أسماء بعضهن ، وأثارة من أثرهن ، ووصف فعالهن : —

﴿ نَسِيبَةُ بنت كعب المازنية ﴾

لكل بطل موقف عرف به ، وأُثر عنه ، وكان مهبط الشرف من حياته ، ومعقد الفخر من سيرته .

وليس هناك موقف أملأ للقلب ، وأملك للنفس ، وآثر فى التاريخ ، من موقف نسيبة بنت كعب .

خرجت نسيبة فى جيش المسلمين يوم أُحد ، تسقى الظماء ، وتأسو الجرحى ، وكانت غرة الحرب وطلعتها للمسلمين . ثم أُشَاحت بوجهها عنهم ، فتناولتهم سيوف المشركين ، تنهل من نحورهم ، وتطعَن فى ظهورهم ، فانكشفوا وولوا مدبرين ،

إلا عشرة أو نحوهم ، وقفوا يدرأون عن رسول الله ، ويحولون دون الوصول اليه .

هنالك جاء دور نسيبة ، فانتضت سيفها ، واحتملت قوسها ، وذهبت تصول وتجول بين يدى رسول الله : تنزع عن القوس ، وتضرب بالسيف ، وحولها من الغُرّ المذاويد على وأبو بكر وعمر وسعد وطلحة والزبير والعباس ، وولداها وزوجها فكانت من أظهر القوم أثراً ، وأعظمهم موقفاً .

وكانت لا ترى الخطر يدنو من رسول الله حتى تكون سداده وملء لهوته حتى قال صلى الله عليه وسلم : ما التفتّ يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى .

ومما حدث به ابنها عمارة قال :

جُرِحْتُ يومئذٍ جرحاً فى عضدى اليسرى . ضربنى رجل كأنه الرَّقْل[1] ، ومضى عنى ، ولم يُعَرِّجْ علىّ ، وجعل الدم لا يرفأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعصب جرحك . فأقبلت أمى إلىّ ، ومعها عصائب فى حَقْويْها ، قد أعدّتها للجراح . فربطت جرحى ، والنبى واقف ينظر إلىّ . ثم قالت : انهض بُنَىّ ، فضارب القوم . فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ومن يُطِيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ قالت : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى ، فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك . قالت : فاعترضت له ، فضربت ساقه ، فبرك . قالت : فرأيت رسول الله يتبسّم حتى رأيت نواجذه . وقال : استقدت يا ام عمارة . ثم أقبلنا نَعُلُّه[2] بالسلاح حتى أتينا على نفسه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى ظفّرك وأقرّ عينك من عدوّك ، وأراك ثأرك بعينك .

وأُصيبت نسيبة فى هذا اليوم بثلاثة عشر جرحاً ، وَاحد منها غار فى عاتقها فنزف الدم منه ، وهى رغم ذلك كالصاعقة الساحقة . تضرب فى نحور العدو ،

(١) الرقل جمع رقلة وهى النخلة العالية (٢) عل الضارب المضروب تابع عليه الضرب

وترتمى بين صفوفهم ، غير آبهة ولا دارية بالدم الناعر من جسمها . فقال رسول الله : امّك أُمّك . أعصب جرحها . بارك الله عليكم من أهل بيت . مقام أمك خير من مقام فلان وفلان . فلما سمعت أمه قالت : أدع الله أن نرافقك فى الجنة . فقال : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة . فقالت : ما أُبالى ما أصابنى فى الدنيا[1] .

﴿ خَوْلَة بنت الأَزْوَر ﴾

أخت القائد العظيم ضرار بن الأزور الكندى .

وهى إحدى عقائل العرب ، وبقية بنات الملوك . وبيتها بيت رسخت دعائمه على القوة والمضاء ، فى الجاهلية والاسلام . قتل أبوها بين يدى رسول الله دفاعاً عنه . وأخوها ضرار من القادة الذين لا يغنى غناءهم أحد . وكان يُقاسُ اذا اشتملت عليه الوقائع بألف رجل .

أما هى ، فقد أوتيت من جمال الوجه ، ومضاء القلب ، ورباطة الجأش ، والاستبسال فى القتال ، ما لم يتح لكثير من الناس . ولها مواطن غرٌّ صالحات ، شفت قلوباً ، وروعت قلوباً . منها ما نحن ذاكروه لك ، مما حدث به الواقدى قال : لما أُسر ضرار بن الأزور فى وقعة أجنادين ، سار خالد بن الوليد فى طليعة من جنده لاستنقاذه . فبينا هو فى الطريق ، مرّ به فارس معتقل رمحه ، لا يبين منه إلاّ الحَدَق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوى على ما وراءه . فلما نظره خالد قال : ليت شعرى من هذا الفارس ؟ وايم الله إنه لفارس ثم اتبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك

(١) أخرج هذا الحديث من سيرة ابن هشام وانسان العيون والآثار المحمدية وطبقات ابن سعد والاصابة وأسد الغابة . ونسيبة من بنى مازن بن النجار أحد بطول الأنصار وزوجها الذى ثبت فى أحد معها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله ابنا زيد . وكان حبيب قد سار فى رفقة خالد بن الوليد لقتال مسيلمة فقتل فأقسمت نسيبة أن تقاتل مسيلمة حتى يقتل أو تقتل فذهبت الى اليمامة واشتركت فى الموقعة التى قتل فيها مسيلمة وفيها قطعت يدها رضى الله عنها

جند الروم . فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم . فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء . وقد قتل رجالاً ، وجندل أبطالاً . ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وخامر المسلمين من القلق والاشفاق عليه شيء كثير . وظنه أناس خالدا . حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : مَن الفارس الذى تقدم أمامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ، فقال خالد : والله لأنا أشد انكاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله ، وبينا القوم فى حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو فى أثره . وكلما اقترب أحد منه ألوى عليه ، فأنهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ، ورفع لثامه ، وناشده ذلك خالد ، وهو أمير القوم وقائدهم . فلم يحر جواباً . فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم فقال : أيها الأمير إنى لم أعرض عنك إلا حياء منك ، لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور . وإنما حملنى على ذلك أنى مُحْرَقة الكبد ، زائدة الكمد ، فقال خالد : من أنت ؟ قالت : أنا خولة بنت الأزور . كنت مع نساء قومى ، فأتانى آت بأن أخى أسير . فركبت ، وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد فى جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة ، وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم ، وكانت تجول فى كل مكان علّها تعرف أين ذهب القوم بأخيها ، فلم تر له أثراً ، ولا وقفت له على خبر .

على أنها لم تزل على جهادها ، حتى استنقذ لها أخوها .

ومن مواقفها الرائعة ، موقفها يوم أسر النساء فى موقعة صحورا . فقد وقفت فى النساء وكانت قد أسرت معهن ، فأخذت تثير نخوتهن ، وتضرم نار الحمية فى قلوبهن ، ولم يكن من السلاح شيء معهن . فقالت : خذن أعمدة الخيام وأوتاد

الأطناب ، ونحمل على هؤلاء اللئام ، فلعل الله ينصرنا عليهم . فقالت عَفْرَاء بنت عَفَار : والله ما دعوت إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت . ثم تناولت كل واحدة عموداً من عمد الخيام ، وصحن صيحة واحدة ، وألقت خولة على عاتقها عمودها ، وتتابع النساء وراءها . فقالت لهن خولة : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكُنَّ كالحلقة الدائرة ، ولا تتفرقن فتُملكن ، فيقع بكن التشتيت ، واحطمن رماح القوم ، واكسرن سيوفهم . وهجمت خولة ، وهجم النساء وراءها ، وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت ، حتى استنقذتهن من أيدى الروم ، وخرجت وهى تقول :

نحن بنات تُبَّعٍ وحِمْير ... وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تُسْعر ... اليوم تُسْقَوْن العذاب الأكبر[1]

﴿ صفية بنت عبد المطلب ﴾

هى عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم الزبير بن العوام أحد القادة العظام فى الاسلام . وكان من حديثها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — لما ثار عليه الاحزاب من قريش وحلفائهم وذهبت جموعهم الى المدينة تريد القضاء على المسلمين جميعاً — جمع النساء والصبيان فى حصن بنى حارثة ، حتى لا يمسهم السوء . واعتصم بالحصن يومئذ حسان بن ثابت ، وكان ضعيفاً واهن القلب . وكانت صفية يومئذ بين النساء . فبينا هى مشرفة من الحصن ، بصرت بفارس يهودى يطيف بالحصن . فخشيت أن يقتحمه ، أو يدل عليه . فقالت لحسان : إن هذا اليهودى يطيف بالحصن ، وانى والله ما آمنه أن يدل علينا مَن وراءنا من يهود وقد شُغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله . قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ! والله لقد

(١) فتوح الشام للواقدى ص ٢٨ — ٢٩ طبع مصر

عرفت ما أنا بصاحب هذا . حتى اذا يئست منه ، احتجزت بثوبها ، واحتملت عموداً ، ونزلت إليه ، وهو ملتمع السلاح . فنازلته فقتلته . ثم قالت : يا حسان : انزل إليه فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل قال : مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[١] .

﴿ ليلى بنت طريف ﴾

أخت القائد البطل الثائر الوليد بن طريف الشيبانى .

كان أخوها الوليد بقية أبطال الخوارج الذين خرجوا على الخلفاء ، وروّعوا جندهم ، وحطموا كتائبهم .

خرج الوليد على الرشيد فأمعن فى جنده فتكاً وقتلاً . وكلما ساق إليه الرشيد فريقاً ، كان كهشيم الكلأ فى ضرام النّار . فرماه بعد أن أعياه بقائده يزيد بن مِزْيَد الشيبانى . فظهر يزيد عليه فقتله . فخلفته على قيادة جنده أخته ليلى . فأطبقت بهم على جند الرشيد ، حتى خلعت قلوبهم ، ومزقت أوصالهم ، وقالوا : لا تكون هذه إلا أخت الوليد ، لأن فعلها بفعله أشبه . حتى إذا أبصر يزيد الوهن فى جنده ، قال : دعوها . ثم خرج اليها ، وضرب بالرمح قطاة فرسها ، وقال : أعزبى ، عزب الله عليك ، فقد فضحت العشيرة ، فاستحيت وانصرفت . وأقامت بعد ذلك بنجوة عن العيون ، تبكى أخاها ، بمراث تستنزف العبرات ، وتستثير الزفرات[٢] .

﴿ غزالة الحرورية ﴾

زوج القائد البطل المخوف شبيب بن يزيد ، قائد الخوارج وبطلهم ، والقائم بالأمر فيهم .

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٤٣ طبع بولاق

(٢) الأغانى ج ١١ ص ٩ وابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٧ طبع المطبعة الميمنية

وهى إحدى القادة الكفاة ، الذين دوخوا البلاد ، وروعوا الجيوش ، وملأوا القلوب أثراً ، والأفواه خبراً ، والأرض عبراً .

وكانت هى وزوجها يليان قيادة الخوارج . وكان الحجاج بن يوسف مبيد العراق، وسفاك بنى أمية ، يستمع خبرها ، فيمتلىء قلبه رعباً ووهلا .

وقد حدثوا : أنه خرج فى جنده ، وكلهم شاكى السلاح ، مستكمل العدة ، مرهوب الصولة . فعرضت له غزالة فى أربعين ، وهو فى أربعة آلاف . فما لبث أن اختلط عليه الأمر ، وخلع قلبه الفزع ، وولّى هارباً يخلط فى قوله ، وهو أعرف الناس بمواطن القول ، وأرفقهم بأساليب الكلام . ولكنه عُقل قلبه ، فعُقِلَ لسانه . وفى ذلك كتب عمران بن حطان إلى الحجاج ، وكان الحجاج قد لجّ فى طلبه[1] :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

صدعت غزالة جمعه بعساكر ... تركت كتائبه كأمس الدابر

وبلغ من جسارتها ، وقوة قلبها ، أنها أقسمت لَتُصَلِّيَنَ فى مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ فى الأولى سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، والكوفة يومئذ معقل الحجاج ، ودار إمرته ، ومجتمع قوّته .

وقد برّت غزالة بقسمها . ودخلت مسجد الكوفة هى وزوجها . ولبثت تصلى ركعتين تستنفدان نصف النهار . ولما أنبىء الحجاج بها ، تحصن فى قصره واستوثق من رتاج بيته .

وقد رمى الحجاج غزالة بخمسة جيوش ، وهى تلتهمهم التهاماً ، حتى أصبحت طِباق العراق ترتجف لإسمها . وفى ذلك يقول أيمن بن خُزَيم[2] :

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٨ (٢) الأغانى ج ٢١ ص ٨

أتينا بهم مائتى فارس ... من السافكين الحرام العبيطا
وهم مائتا ألف ذى فَوْنَسٍ ... يئط العراقان منهم أطيطا[١]
رأيت غزالة إن طَرَّحَتْ ... بمكة هودجها والغبيطا[٢]
سمت للعراقين فى جمعها ... فلاقى العراقان منها بطيطا[٣]
ألا يستحى الله أهل العرا ... ق إن قلدوا الغانيات السموطا
وخيـــــل غزالة تسبى النسا ... ء وتحوى النِّهاب وتحوى النبيطا[٤]

وقتلت غزالة خدعة فى موقعة الكوفة بين شبيب وبين الحجاج . غافلتها فرقة من جند الحجاج من ورائها بينما كانت تخوض فى صدور جنده .

ومن بعدها قُوِّض جند شبيب وعفا أثره[٥] .

* * *

﴿ وبعد ﴾ فذلك شىء من حديث النساء فى الحروب أفضنا فيه بعض القول لتعلم أن المرأة لم تدع للرجل فضيلة يَثْنِى عِطفه بها . وما كان شىء من ذلك لجفوة فى الخُلُق ، ولا نَبْوَة فى الطبع ، وهن الخَفِرَات اللواتى يَفْرِرن من المُندية ويرتمين على الموت . وما كانت شجاعتهن أثراً من الغلظة ، وظمأ إلى الدماء ، ولكنها كما أسلفنا قوة فاضت بها وَفْرَة الصبر ، وابتعثتها قوة اليقين . واذا كانت أثبت من الرجل إيماناً ، وأصبر منه على ريب الزمان ، فما لها لا تكون فى ساعة المحنة أبسل منه وأشد ؟

وإذا كان العرب يقولون : « الشجاعة صبر ساعة » فلم لا تكون أشجع الناس عند البلاء ، وهى أصبرهم على اللأواء ؟

---

(١) الفونس أعلى بيضة الحديد والأطيط الصياح أو المزوج بالأنين منه (٢) الغبيط الرحل
(٣) البطيط العجب أو الداهية (٤) النهاب — جمع نهب — الغنائم والنبيط جيل من الناس يسكنون البطائح بين العراقين (٥) ابن جرير ج ٨ ص ٨٥٣ — ٩٦٨ طبع أوربا

ونحن لا ندع القول فى شجاعة النساء يمر، حتى نختمه بحديثين . ومنهما تعلم إلى أى حدّ بلغ ثبات المرأة ، ووفور ثقتها بنفسها ، واستمكانها من موقفها .

أما أولهما فما حدّث ابن سعد عن أنس بن مالك ، قال :

شهدت أم سليم « حُنينا » مع رسول الله ، ومعها خنجر قد حزمته على وسطها ، وإنّها يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة . فقال أبو طلحة : يا رسول الله أن أم سليم معها خنجر . فقالت : يا رسول الله أتخذه إن دنا منى أحد من المشركين بقَرت بطنه ، أقتل به الطلقاء ، وأضرب أعناقهم إن انهزموا بك .

فتبسم رسول الله وقال : يا أم سُلَيم ، إن الله قد كفى وأحسن[1] .

وأما الثانى فما رواه الجاحظ فى البيان والتبيين قال :

كان حبيب بن مَسْلمة الفهرى رجلاً غَزّاء للترك . فخرج ذات مرة إلى بعض غزواته ، فقالت له امرأته : أين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية ، أو الجنة إن شاء الله تعالى . قالت : إنى لأرجو أن أسبقك إلى أى الموضعين كنت به . فجاء ، فوجدها فى سرادق الطاغية ، تقاتل الترك[2] .

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣١٠ — ٣١٧ (٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٣

تأثير
المرأة العربيـة
﴿ فى نهضة الاسلام وحضارته ﴾

ليس بدعا من المرأة التى وثب بها الاسلام الى أبعد غاية من كمال النفس ، وسموّ الحياة ، أن تكون العضد الأقوى ، والساعد الأشد ، فى نشر آيته ، و بلوغ غايته .

لقد وضح صبح الاسلام فظهرت المرأة العربية فى مشرق نوره ، ملأى اليدين من حق موفور ، وفضل مأثور . فياضة النفس ، بما شئت من وجدان وايمان . ثم أبصرت فاذا مجال القول متسع ، ومُستبق العمل فسيح . فانطقت تستن ملء عنانها ، وهنالك ، فى أبعد شأو الفضيلة ركزت لواءها ، واعتمدت بناءها ، فتساقطت الألوية ، وانتقضت الأبنية دونها .

ففى تصريف الحوادث ، وفى تكوين الرجال ، وفى نشر مطارف العلم ، ونثر طرائف الأدب ، تجد أثرها أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفياض ، فى زهر الرياض .

ونحن أولاء مرسلو القول فى كل آثارها ، مستعينين بمعونة الله ، وحسن توفيقه ، فهو وحده مرجع الأمر ، وولى التوفيق .

١ — أثرها فى تصريف الحوادث

تتابعت فى الاسلام حوادث عظام ، وتناوبته شدائد ثقال . وهى على عظمتها ، وفدح أمرها ، لم تقع بمنجاة عن المرأة ولا بمعزل عن تصريف زمامها وتدبير الرأى فيها .

وهى ان تنوولت بالنقد فى بعض تلك المواطن ، فتلك سنة التاريخ فى كل عمل عظيم ، من عامل عظيم .

ونحن مجملون لك القول فى تلك الحوادث ، ومبلغ رأى النساء فيها ، واستمكان أثرها منها .

* * *

حديث النبوة

﴿ خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت أسد ﴾

لئن أصيب رسول الله من رجال قريش بكل فادحة موقرة ، لقد لقى من امرأتين منهم ما هوّن عليه أمرهم ، وذهب بالشديد المؤلم من نوائبهم .

هاتان هما خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت أسد .

أما خديجة ، فكانت له صلى الله عليه وسلم منذ أوّل ساعات النبوة .

لقد نزل عليه الروح الأمين أول ما نزل فى غار فى الجبل ، فلم يكن ما رآه بشراً من الناس ، ولا خلقاً مما يتخيله المتخيلون . فأقرأه ماشاء الله أن يقرئه من آى الكتاب الكريم . ثم أخذ يتراأى له فى طريقه بين السماء والأرض ، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه ، فيقف لا يتقدم ولا يتأخر .

كل ذلك ورسول الله بين شعاب الجبال ، وفى وحشة الطريق ، فلا أنيس ولا سمير ، ولا معين ولا نصير .

لم يزل النبى فى موقفه هذا ، حتى انصرف المَلَك عنه ، فانصرف هو الى زوجه خديجه فزعاً مرعُوباً مما سمع ورأى . فلما بصرت به قالت : أين كنت يا أبا القاسم ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بَلَغُوا مكة ، ثم رجعوا إلىّ . فحدثها رسول الله

حديثه . فقالت : أبْشِر يا ابن عم وأثبت ، فوالذى نفس خديجة فى يده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

ثم قالت له : أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فاذا جاءك فأخبرنى به . فجاءه جبريل مترائياً بين أقطار الغرفة فقال رسول الله لخديجة : هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام رسول الله فجلس . قالت هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : قم فاجلس على اليمين . فقام . فتحوَّل عليها . فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . ثم تحسَّرت وألقت خمارها ، وقالت له : هل تراه ؟ قال : لا . قالت : اثبُت وأبشر ، فوالله إنه لَمَلَك وما هو بشيطان .

بعد ذلك قامت ، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت الى ابن عمها وَرَقة بن نوفل — وكان رجلًا علياً نافذ العلم فى التوراة والانجيل ودقائقهما وأخبار النبوة الأولى — فأخبرته خبر رسول الله . فقال ورقة : قدُّوس قدُّوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبى هذه الأمة ، فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت آية البِشر والبُشْرى له .

على ذلك النسق البديع الفريد ، سارت خديجة أم المؤمنين فى تثبيت قلب النبى ، وترويح نفسه ، وتأييد أمره . فلم ير شيئاً يحزنه ، من ردٍّ عليه ، وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه ، إلا فرجت صدره ، وأذهبت حزنه ، وأثلجت قلبه وهونت الأمر عليه .

تلك هى خديجة التى بعث الله اليها تحيته ، فنزل بها جبريل على رسول الله فقال له : أقرئ خديجة السلام من ربها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك . فقالت : لله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

ولعمرك انها لمثوبة من الله ما ظفر بها أحد من السابقين الأولين ، والخلفاء الراشدين . ذلك لأن موقفها يومئذ أبرّ برسول الله ، وآثر فى بسط دعوته ، وتأييد أمره ، من مواقف الأبطال المُعْلِمَةِ ، على الخيل المسَوَّمَةِ .

وفى السنة التاسعة من ذلك الجهاد العظيم ، ماتت خديجة ، فاشتد حزن رسول على أعز نصرائه ، وأصدق وزرائه .

ماتت خديجة ولكن عظمة المرأة لم تمت . فقد خلفتها على رعاية النبي وتأييده وتثبيته وتدبيره ، امرأة لم تكن دونها رأياً ، ولا عطفاً ولا عقلاً ، ولا جاهاً ولا منصباً وتلك هى فاطمة بنت أسد زوج أبى طالب بن عبد المطلب ، عم النبى ، وأم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، قائد المسلمين ، وصهر النبي الأمين .

لم تكن فاطمة رضى الله عنها خلفاً من خديجة فحسب ، بل كانت كذلك خلفاً من أبى طالب فى الذود عن النبي . والانتصار له ، ورفع الصوت حرّا نديّا فى سبيله ولم يزل ذلك شأنها ، حتى هاجر رسول الله إلى مهبط أمنه ، ومستقر أنصاره ، فتبعته فى هجرته . فكان بيتها فى المدينة ، كما كان فى مكة ، مآباً طيباً ، ومقيلاً كريماً .

وكما كانت فاطمة فى نصرة الله ، وتأييد رسوله ، منقطعة القرين — كذلك كان لها رسول الله يوم لحقت بربها . فقد كفنها فى ثوبه ، ونزل فى قبرها ، واضطجع فيه ، فكان حقاً على القبر أن يشرق بنور الله ، ويَعبِق برَوحه ، ويفيض برحمته .

وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعته بهذه فقال : انه لم يكن بعد أبى طالب أبَرّ بى منها[1] .

ذلك فضل الله يختص به من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(١) ابن جرير ج ٤ ص ١١٣٧ — ١١٥٦ طبع أوربا وكتاب الطبقات ج ٧ ص ١٢ — ١٤ والاصابة ج ٨ ص ١٦٠ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٠ — ٨٣

حديث الهجرة

﴿ رُقَيْقَة بنت صيفيّ وأسْماء بنت أبى بكر ﴾

تتصل رُقَيقة برسول الله فى هاشم بن عبد مناف . فهو جدها وجد أبيه . وكانت أسن من عمها عبد المطلب . فلما أدركها الاسلام كانت قد تطاول عليها القِدَم ، وجاوزت حد الهَرَم .

تلك هى المرأة التى استَشَفَّتْ خبر قريش يوم ائتمَرُوا بالنبى ليقتلوه ليلًا فى كِسْر داره . فذهبت تدرُج حتى انتهت الى رسول الله ، فحذرته مبيته فى داره ، وأشارت عليه بالنقلة والرحيل ، وحدثته حديث القوم . ففارق لساعته وطنه الأعزّ مدرج طفولته ، ومعقد أُلفته ، ومهبط نبوته ، ومُرتقى مناجاته وعبادته — الى دار هجرته ، وموطن أنصاره وشيعته . واتخذ صاحبه الصِّدِّيق رضى الله عنه رفيقاً له ، وتَرَك ربيبه وابن عمه عليًّا عليه السلام . فنام على فِرَاشه ، وتسجى ببردته ، وشغل بنومه جماعة المتآمِرين المترصدين المتهامسين على رسول الله ، الضاربين النطاق حول داره ، عن تأثّره ، واغتياله فى عُرض الطريق (١) .

ولعل هناك من يقول : وأى عظمة تجدها فى امرأة سمعت خبراً فألقته كما سمعته ؟ ذلك قول مَن لم يستبطن الأمر ، ويتبين دخيلته . فان فئة قليلة العدد خطيرة الغَرَض ، من هامات القوم ، وأشداء فتيانهم ، بيّتوا أمرهم ، واحتجَزُوا خبرهم عن بقيّتهم ، والممالئين لهم ، وتعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا ألا يذيعوه ، حتى يمضوه — فئة ذلك شأنها ، وتلك غايتها ، ليس بالهَيّن اليسير كشف أمرها ، والوقوف على ذوات نفوسها ، واستنقاذ رسول الله من كيدها ، وشر غائلتها .

(١) ابن سعد ج ٧ ص ٣٥ والاصابة ج ٨ ص ٨٣

ذاك حديث خفيَ عن الناس جميعاً ، مسلميهم ومشركيهم . فأى جُهد من التدبير ، ونفاذ من الحيلة ، بذلته تلك التى أنافت على المائة ، وأشرفت على ثنية الوداع ، حتى حسرت الحُجُبَ عنه ، فنقلته ولم تأمن على نقله ابنها مَخْرمة ابن نوفل ، وهو من لُحمة النبي ، وذوى صحبته ؟

أَمَا لقد اتخذ الله المرأة يوم ذاك كما اتخذها منْ قبله آية لطفه الخفى ، ووحى إرادته البالغة فى أعظم حوادث الإسلام خطراً ، وأبقاها أثراً ، وأدومها على مَرّ الدهور ذِكراً ، وأقومها ببناء الإسلام ، وأكفلها بوضَح محجته ، واستطارة دعوته .

تنقلت العظائم من يد طاهرة ، الى يد طاهرة . فبعد أن دعمت العجوز الفانية رُقَيقة بنت صيفى أثرها ، أقامت الفتاة الحَدَثة أسماء بنت أبى بكر أثرها .

لقد أُعجِل النبي وصاحبه عن ابتغاء الزاد ، وشَغَلهما الغرض الأسمى عن العَرَض الأدنى . فسارا خفيفين إلى غار فى الذروة العلياء من جبل ثور ، إخفاء لأمرهما ، وإعياء للذاهبين فى أثرهما . فكانت أسماء تُمَسّيهما كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون قد سمعته ، أو رأته ، من حديث القوم وخبرهم[1] .

ثلاثة أميال إلا قليلاً كانت تقطعها الصبية الناشئة فى جوف الليل ، ووحشة الطريق ، بين أسنة الصخر ، ومساخات الرمال ، ماشية متخفية ، حذرة مترقبة ، حتى تصعد إلى هامة الجبل ، ثم تنحدر فى جوفه ، فتوافى رسول الله وصاحبه ، بما قصدت له .

تلك هى الصبية التى تركت الوِلْدان والوَلائد من لِدَاتها وأترابها يغدون إلى ملاعبهم ، ويأوون إلى صدور أمهاتهم ، وذهبت إلى حيث يعجز أشداء الرجال وأبطالهم . فأى قوّة تلك التى أمدها الله بها ؟ وأى قلب ذلك الذى أودعه الله

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧١ طبع بولاق

بين ضلوعها ؟ وأية عَزْمة تلك التى خفقت فى نفسها ، والْتاعت بين جوانبها ؟

ذلك مثلٌ من تلك النفوس التى استخلصها الله لدينه ، واصطنعها لدعوته ، ونفث فيها من رُوحه ، فكانت مستقر الكمال ، ومجتمع أشتات الفضائل .

ولعمرى لئن سلمت أسماء من عثرات الطريق ، لقد محنت بالشديد المؤلم من بلاء قريش وأذاهم ، وهى وادعة فى كسر دارها . فلقد أحاط بها رجال القوم ذات صباح ليتعرفوا منها أمر أبيها . فأنكرت أمره ، وتجاهَلت خبره . ثم أمعنوا فى محنتها ، واشتدوا فى أذاها . حتى لقد لطمها الشريف النذل أبو جهل ابن هشام لطمة طار لها قرطها ، فلم يوهِن ذلك شيئاً من عَزِيمتها ، ولا عبث بمكنون سرها[1] .

كذلك اقتحمت أسماء ذلك الطريق الرائع المخوف ثلاث ليال متواليات . وفى الليلة الثالثة — وهى ليلة الزماع على مفارقة الغار إلى عرين الأنصار — وافتهما بزاد السفر كله . فلما آذن رسول الله بالرحيل ، نهضت لتُعَلّق سفرة الزاد ، فإذا ليس لها عصام ، فلم تجد ما تعصمها به إلاّ نطاقها ، خرجت عنه فشقته نصفين . فعصمت السفرة بنصفه ، ووكأت السقاء بباقيه . فأبدلها الله بنطاقها ذلك نطاقين فى الجنة .

كذلك وعدها رسول الله فسُمّيت منذ ذلك اليوم ذات النطاقين .

ونذكر من شجون الحديث حديثاً لأسماء ، يتصل بطَرَف من الهجرة ، قالت :

لما خرج رسول الله وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله . خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف . فانطلق بها . قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره . فقال : والله إنى لَأُراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت : قلت كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٢ طبع بولاق

فوضعتها فى كوّة فى البيت ، كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك[١] .

* * *

﴿ وبعد ﴾ فكل ما أوردناه من حديث تينك المرأتين ، لم يكن كل حديث النساء فى الهجرة . بل لقد هاجر العدد الموفور منهن فى رفقة أزواجهن إلى الحبشة ، وإلى المدينة . فلم يكنّ فى مهنة العمل وتهيئة الطعام فحسب — فليس من عادة العرب ، ولا سنة الإسلام ، إذا غدا الرجل إلى قطر سحيق كالحبشة أن يُحشم امرأته ذل الغربة ، وأوعار الطريق . ولكنهن خرجن — كما خرج الرجال — فى طاعة الله . وهاجرن — كما هاجروا — فراراً بدينهن . وذهبن فى أزر أزواجهن ، مشيرات مؤتمنات ، ومعينات صادقات . فابْنَ مآبَ الرجال : فضل زكى ، وأجر غير منقوص.

ومما يحمل ذكْره فى هذا الموطن ، ما رواه ابن سعد عن أبى حمزة ، قال :

لما قدمت أسماء بنت عُميس من أرض الحبشة ، قال لها عمر بن الخطاب : يا حبشية ، سبقناكم بالهجرة — وأحسبه قالها فاكِهاً — فقالت : إى لعمرى لقد صدقت ! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعلم جاهلكم ، وكنا البعداء الطرداء . أما والله لآتينّ رسول الله فلأذكرن ذلك له . فأتت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ان رجالاً يغمزون علينا ، ويزعمون أنّا لسنا من المهاجرين الأولين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل لكم هِجرتان ، هاجرتم إلى أرض الحبشة ونحن مُرْهَنون بمكة ، ثم هاجرتم بعد ذلك إلىّ[٢] .

---

(١) ابن جرير ج ٤ ص ١٢٣٥ — ١٢٤٠ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٢

(٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٧

ألم تر إلى الذين هَبطوا من الحبشة كيف قامت المرأة بحجتهم ، وفيهم أربعة وثمانون رجلاً ، كلهم مُشَيّع القلب ، مصقول اللسان ، فلا دفع منهم ولا استكْراه . وهل رأيت إلى المرأة كيف فاءت بأمرها إلى رسول الله ، ولم تعرج به على زوجها ، أو تطلب الإذن منه فى خصومتها . ذلك لأن الأمر بينها وبين الله ورسوله ، فلا إمرة لأحد عليها ، أيًّا كان مكانه منها .

وكانت هِجرة رسول الله قد سبقت ببيعة العقبة ، وهى البيعة التى اتّعَدَ فيها رسول الله مع الأنصار خفية . فتوافدوا تحت جنح الليل بالعقبة . وكان وفد الأنصار ثلاثة وسبعين رجلاً ومعهم من نسائهم وذوات آرائهم اثنتان : هما نسيبة بنت كعب المازنية — وقد عقدنا لها فصلاً خاصًّا — وأم منيع أسماء بنت عمر السّلَميّة ، وهى من أتم القوم عقلاً ، وأحكمهم رأياً . وقد شهدت مع رسول الله خيبر . فكان لها فيها المشهد الأروع ، والمقام المحمود[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢١ ص ١٥٥ طبع مصر

أمر العقبة : — لما بسطت قريش أيديها وألسنتها بالسوء لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يعرض نفسه على القبائل عله يجد من بينها ناصرا أو ظهيرا فلم يجد منها جميعاً أذنا صاغية ولا قلباً واعياً حتى لقى فى موسم الحج نفراً من الخزرج فعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فصدقوه وآمنوا به وقالوا انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله اليه فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله وقد بايعوه فلما عادوا المدينة أذاعوا بها الاسلام فأجاب داعيتهم خلق كثير . حتى اذا كان موسم الحج من قابل ذلك العام خرج من المدينة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان إلى رسول الله ليبايعوه ويؤتوه عهدهم وذمامهم أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم فتوافوا جميعاً بالعقبة اخفاء لأمرهم وكان مع رسول الله عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما استقر المقام بهم قال العباس يامعشر الخزرج — وكانت قريش تطلق الخزرج على الانصار جميعاً — ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وانه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده . فقال الانصار قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ورغب فى الاسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما

وقد أعطى القومُ رسول الله ذمتهم أن يذودوا عنه ذيادهم عن أعراضهم . وأعطاهم ذمته ألا يعود فيقيم مع قومه ، اذا دانت له أرضهم ، وقرت لحكمه نواصيهم .

فهل رأيت مثلاً أدل على سمو المرأة ، وعظم منزلتها ، ورعاية حقها ، مما ترى ؟ .

عهد سياسى حربى عظيم أُسدل عليه ستر من السر ، وألقى دونه حجاب من الليل . أترى القوم أنفوا أن يكون للمرأة فيه شأن ؟ . ولِمَ لا يكون لها ذلك الشأن وتلك مواقفها ومشاهدها ملء المسامع والأبصار ؟ .

وقد علمت فى جملة ما مر بك أن رسول الله يوم وافى المدينة ، بسط يده للنساء فبايعهن ، كما بسطها للرجال فبايعهم .

من ذلك كله تعلم أن الهجرة بيد المرأة مهدت واختمرت ، وعلى يدها تكونت وتكاملت ، وبرأيها وعزمها أثمرت وأينعت .

حديث الخلوة

أو

﴿ المرأة المسلمة بين الحرب والسياسة ﴾

ما زال المسلمون منذ لحق النبي بربه وهم من أمر خليفته ، والقائم بالأمر من بعده ، فى فتنة غاشية ، تعصف بهم تارة وتقر دونهم ، رابضة مترصدة متحفزة تارة أخرى . فهى يومئذ غافية غفوة الذئب ، نائمة هاجعة ، ساكنة مستجمعة .

تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ان بيننا وبين الرجال — يريد اليهود — حبالا ونحن قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » :

ويقال الهدم الهدم أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

أقول وقد أسلفنا القول فى نسيبة بنت كعب . أما أم منيع فهى أسماء بنت عمرو بن عدى الانصارية السلمية احدى ذوات المكانة والرأى من نسوة الانصار . أسلمت حين تنفس صبح الاسلام بالمدينة وصحبت رسول الله إلى خيبر . وهى أم معاذ بن جبل أحد الائمة المعدودين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

كذلك تدافعت الحقب على الخلافة ، والدم ينعر من حروفها ، والمهج تسيل على أطرافها ، وشفار السيوف تصلّ من أقطارها ، ورسل الموت رائحة بأسود الغاب ، وفتيان الضراب ، من كل معتزم لو جرد فى سبيل الله عزمته . لفل بها الصفوف ، وجندل الألوف .

ولقد كان للمرأة فى كل تلك الأدوار رأى ماثل ، وصوت مسموع ، وفى بعضها يد أيدة وبطش شديد . وذلك ما نحن آخذون بالقول فيه .

﴿ فاطمة[1] وأبو بكر ﴾

ترك رسول الله للمسلمين أن يختاروا بعده من يرتضونه لدينهم ودنياهم . ففى

(١) فاطمة الزهراء : هى سيدة نساء العالمين وبنت امام المتقين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ولدت صلوات الله عليها قبل النبوة بخمس سنين . وهى صغرى بنات رسول الله وأحبهن إلى قلبه وأشبههن به فى خلق وخلق . وكان رسول الله يدعوها بأم أبيها وكانت فى نشأتها الأولى مضرب المثل فى أشتات الكمال ولها يقول صلى الله عليه وسلم ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك وفيها يقول : فاطمة منى يؤذينى ما آذاها ويريبنى ما رابها .

ولما سمت الى الثامنة عشرة من عمرها خطبها أبو بكر الى أبيها صلى الله عليه وعلى آله فقال يا أبا بكر انتظر بها القضاء ثم خطبها عمر فقال له مقالة لأبى بكر ثم اجتمع الى علىّ جماعة من أهله ورهط من الأنصار فقالوا له اخطب فاطمة فقال بعد أبى بكر وعمر ؟ فذكروا له قرابته من رسول الله فأتى النبى صل الله عليه وسلم فقال ما حاجة ابن أبى طالب قال ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى مرحباً وأهلا لم يزده عليهما فخرج علىّ على أولئك الرهط فقالوا ما وراءك قال ما أدرى غير أنه قال لى مرحباً وأهلا قالوا يكفيك من رسول الله احداهما . وقد تم له ذلك الشرف الأسمى حين عاد الى رسول الله بالقول فقال له يا علىّ لست دجالا أعدك وأكذبك . وكانت خطبتها بعد مقدم رسول الله الى المدينة بخمسة أشهر وبناؤها بعد يوم بدر بشهرين . ولما كانت ليلة بنائها دعا رسول الله بإناء فيه ماء فأخذ منه ومج فيه ثم دعا عليا فنضح منه على كتفيه وصدره وذراعيه ودعا فاطمة فأقبلت تعثر فى ثوبها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل بها مثل ذلك وقال لها يا فاطمة والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلى .

وقد اختصها الله بذرية رسوله الطاهرة فلم يكن له عقب فى غيرها

وان القلم ليتعثر عيا ومعجزة حين يعرض لتلك الفضائل الملكية المقدسة التى كمل الله بها سيدة نساء العالمين . وحسبك أن تسمع قول عائشة : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها .

أما علمها فهو فيض من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنها روى أبناها الكريمان وأبوهما وعائشة وأم سلمة وسلمى أم رافع وأنس بن مالك

وكانت وفاتها عليها السلام بعد ستة أشهر من موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . صلوات الله على تلك النفس الزكية والشمائل الملكية

اليوم الذى رجفت الأرض لموته صلى الله عليه وسلم ، سعت رجالات من المهاجرين والأنصار الى سقيفة بنى ساعدة ، وهناك — بعد جدال وحوار — بسطوا أيديهم الى أبى بكر يبايعونه .

على أن فاطمة بنت رسول الله أقامت فى عهدها القصير بعد رسول الله مجافية أبا بكر ، واجدة عليه .

وسواء أكانت تلك الموجدة لما رأت من انتزاع الخلافة من آل بيت النبى — وكانت تراها حقا لهم لا يطاولون فيه ، ولا يغالبون عليه — أو لحرمانها ميراث أبيها فى فدك ، وسهمه فى خيبر — سواء أكانت موجدتها لهذا أو لذلك فقد كف عن البيعة كرامة لها زوجها علىّ عليه السلام ، وانحاز بجانبه بنو هاشم جميعاً. وانضم اليهم أبو سفيان بن حرب رأس بنى أمية ، والزبير بن العوام بطل قريش وحوارى رسول الله . وأقام على والزبير بدار فاطمة لا يبرحانها .

كذلك لبثوا وبعض المسلمين لبعض رصد ، حتى لحقت الزهراء بربها . فانكشف بموتها ستر من ستور الهيبة الرائعة فى بنى هاشم . حتى لقد سعى عمر بن الخطاب بقبس من النار الى بيت على كرم الله وجهه ليحرقه . وهناك خرج له الزبير والسيف مصلت بيمينه ، يريد أن يصدع به رأس عمر ، لولا أن عثرت قدمه بحجر فى الطريق فوقع ووقع السيف من يده فأخذ . ولولا تلك العثرة المباركة لخضّب بالدم رأس من أرفع رؤوس المسلمين .

ولقد كادت الحرب تعود جذعة لولا حكمة من على حسمت الجرح ، ورأبت الصدع ، وجمعت الشمل . فخطب المسلمين خطبة ردت صغيرهم على كبيرهم ، وجمعت قصيهم وعصيهم ، ثم بايع أبا بكر . فلم يبق بعد ذلك مخالف عليه[1].

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٩ وابن جرير ج ٤ ص ١٨٣٥ — ١٢٣٧ وبلاغات النساء ص ٢٤

﴿ عائشة وعثمان وعلىٌّ ﴾

تقضت أيام أبى بكر وعمر والمسلمون فى أمنة من الفرقة . وقد فرغوا للجليل العظيم من أمرهم . فردوا المرتدين ، الى حظيرة الدين . ثم فتحوا العراق وفارس والشام ومصر وما وراءهن . حتى أصبحت الدولة الاسلامية يومئذ أورف الدول ظلا ، وأسمقها بناء . ثم أعقبتها أيام عثمان ، فبدأت الأرض تمور بالفتنة

لقد كان عمر صُلباً شديداً لا يبالى أن يُقنَّع بِدرَّته وجه الشريف العظيم اذا مال به القصد ، وحاد عن الطريق . وكان عثمان حيياً خجولاً . يبتدر الرجل الهفوة بين يديه فيندى جبينه ، ويحمر وجهه . ومحال أن يروض الناس هذا بعد ذاك .

وكانت من عثمان الى المسلمين هفوات ساقها الضعف ، فأسخطتهم ، وأحفظت قلوبهم : منها انه استعان على عمله بالأحداث من بنى أمية ، فأخذوا يخسفون بعامة المسلمين ، ويضربونهم بالسياط ، ويعذبونهم بالمَساحى المُكْوَاة . حتى دوى الصوت من الحجاز إلى العراق إلى مصر بأن عثمان خليفة مستضعف ، وأن سواه أولى منه بخلافة المسلمين .

وكان مصدر هذا الصوت من سُدَّة عائشة أم المؤمنين . فتجاوبت أصداؤه وانشعبت جِواؤه .

ضاعف الثائرون ذلك الصوت وجوَّفُوه ، فكلٌّ يقول : قالت عائشة ، وكتبت عائشة . حتى اتخذوا اسمها سبيلًا إلى الإغراء بدم الخليفة المظلوم ، كما اتخذوا اسم علىّ فى ذلك بهتاناً واثماً مبينا . على أن كليهما أراد النَّصَفة للمسلمين باستصلاح الخليفة أو اعتزاله . فكان ما جرى به القضاء ، وقتل عثمان فى بيته مظلوماً مخذولًا . واستَحَلَّ الثائرون منه الحُرم الثلاث : حرمة الخلافة ، وحرمة البلد الحرام ، وحرمة الشهر الحرام .

أبصرت أم المؤمنين ذلك ، وأبصرت قَتَلَة عثمان يذهبون إلى ديارهم موفورين وحسبت الهوادة فى القصاص ، فانصدع قلبها وذابت حشاشتها .

وان يك عثمان قد مات مظلوماً ، فقد عاش من بعده علىٌّ مظلوماً . ومن أشدَّ مظالمته أن تُؤَلِّبَ أم المؤمنين عليه المسلمين . وأن تقود الجنود إلى قتاله ، فى وقعة الجمل ، لأنها اتهمته بالمألأة على عثمان ، كما اتهمها الناس بذلك .

وفى موقعة الجمل ترامى جند عائشة على الموت كأن لهم فيه أرَباً ، حياطة لحرم رسول الله ، وذياداً عنها ، حتى لقد قتل حولها عشرون ألفاً ، وقُطِّعت على زمام هودجها سبعمائة يد ، وكلما نُزِعت عنه كف نَزَعت اليه أخرى . وكانت خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال ، وما أصاب قوائمه من السيوف . ثم احتمل الهودج إلى دار عبد الله بن بُدَيل ، وهو أقرب الدور إلى ساحة القتال ومن هنالك آبت إلى المدينة بعد أن أحسن أمير المؤمنين مآبها ، وبعث فى رفقتها سبعين من نساء صحابته .

رحم الله أم المؤمنين ، لقد اشتَفَتْ من الداء بالداء . أما والله ما نفست على ابن عم رسول الله خلافته ، ولا وجدت عليه قديم أمره . ولقد كانت تدعو الناس اليه يوم قتل عثمان ، لأنها تعلمه أحق الناس بالأمر ، وأقربهم قرابة من رسول الله . ولكنها رأت حقًّا ضائعاً ، ودماً مطلولًا ، وألسنة مرجفة ، ووسطاء سوء ، فتعجلت ما رأته واجباً ، ولو صبرت لكان خيراً وأبقى ، ولعمرى لهى آثر عند الله وأبرّ ممن رأى وضح الحق فى زمرة علىّ ثم قعد عنه ، ونَكَل عن نصرته ، وانما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى[1] .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٥ — ٢٨٣ وابن جرير ج ٥ ص ٣٠٢٥ — ٣٢٢٦

﴿ نائلة بنت الفُرَافِصَة[١] وعليُّ بن أبى طالب ﴾

على أن أمير المؤمنين لم يطمئنّ به الأمر، ولم تصف له الحياة، بعد أم المؤمنين فقد عَرَض له من النساء خصم جديد، ومن الرجال خصم جديد، وكلاهما اشتد أزره، وقوى أمْرُه بصاحبه. أما الرجل فمعاوية بن أبى سفيان، وأما المرأة فنائلة بنت الفرافصة، زوج الشهيد المظلوم عثمان بن عفان.

كانت نائلة من أعذب النساء قولاً، وأذكاهن قلباً، وأكملهن خلقاً

ولما تسوَّر الثائرون على عثمان، وتبادروه بالسيوف، ألقت بنفسها عليه حتى تكون له وقاء من الموت. فلم يَرْعَ القتلة الأثمة حُرْمتها، وضربوه بالسيف ضربة انتظمت أصابعها، ففصلتهن عن يدها، ونفذت إليه فجندلته، ثم ذبحوه كما يزبح الحمل الذلول! رحمه الله ورضى عنه.

أرادت نائلة أن تنتقم. وحُقَّ لها أن تنتقم. ولكن ممن؟ لم تجد أمامها إلا علياً، فهو أمير الناس بعد زوجها، ووليّ الدم المضيعُه فى نظرها. ولم تجد إلا رجال الشام، وجند الشام، وأمير الشام. فهم أولى بأن تثير ثائرتهم، وتضرم نار الثأر فيهم.

أرسلت نائلة الى معاوية بأصابعها الممزقة، وقميص عثمان المُخَضَّب، وأوحت اليه أن يعلق كل أولئك فى المسجد الجامع فى دمشق، وأن يقرأ على المجتمعين جميعاً ذلك الكتاب: —

من نائلة بنت الفرافصة، إلى معاوية بن أبى سفيان. أما بعد، فانى أدعوكم إلى الله الذى أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر،

(١) نائلة: هى نائلة بنت الفرافصة بن الأخوص الكلبية صاحبة عائشة وزوج عثمان. وأبوها سيد بنى كلب. وهى احدى اللواتى ذهب الدهر بمقالاتهن ومقاماتهن. وكان سعيد ابن العاص قد تزوج اختها فكتب اليه عثمان أما بعد فانه بلغنى أنك تزوجت امرأة من بنى كلب فاكتب الى بنسبها وجمالها فكتب اليه سعيد « أما بعد فان نسبها أنها بنت الفرافصة ابن الأخوص وجمالها أنها بيضاء مديدة » فطاب اليه عثمان أن يخطب أختها عليه

ونصركم على العدوّ ، وأسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فانه قال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ » فان أمير المؤمنين بُغِي عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية ، لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدمه فى الاسلام ، وحسن بلائه ، وأنه أجاب الله ، وصدق كتابه ، واتبع رسوله ، والله أعلم به اذا انتخبه فأعطاه شرف الدنيا ، وشرف الآخرة . وإنى أقص عليكم خبره — إنى شاهدة أمره كله : — إن أهل المدينة حصروه فى داره ، وحرسوه ليلهم ونهارهم ، قياماً على أبوابه بالسلاح ، يمنعونه من كل شىء قدروا عليه حتى منعوه الماء ، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة ، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى علىّ ، ومحمد بن أبى بكر ، وعمار بن ياسر ، وطلحة ، والزبير ، فأمروهم بقتله ! وكان معهم من القبائل خُزَاعة ، وسعد بن بكر ، وهُذيل ، وطوائف من جُهَينة ، ومُزَينة ، وأنباط يثرب . فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه . ثم أنه حُصِرَ ، فرشق بالنبل والحجارة ، فخرج ممن كان فى الدار ثلاثة نفر معه . فأتاه الناس يصرخون اليه ، ليأذن لهم فى القتال ، فنهاهم وأمرهم أن يردوا اليهم نبلهم ، فردوها عليهم ، فما زادهم ذلك فى القتل إلا جرأة ، وفى الأمر إلا إغراقاً ، فأحرقوا باب الدار ! ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا إن ناساً يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل ، فاخرج إلى المسجد يأتوك . فانطلق فجلس فيه ساعة ، وأسلحة القوم مصلتة عليه من كل ناحية . فقال : ما أرى اليوم أحداً يعدل ! فدخل الدار . وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح ، فلبس درعه ، وقال لأصحابه : لولا أنتم ما لبست اليوم درعى . فوثب عليه القوم . فكلمهم ابن الزبير ، وأخذ عليهم ميثاقاً فى صحيفة بعث بها الى عثمان :

عليكم عهد الله وميثاقه ألاّ تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا . فوضع السلاح ، فلم يكن إلاّ وضعه . ودخل عليه القوم يَقْدُمهم محمد بن أبى بكر ، فأخذ بلحيته ، ودعوه باللقب . فقال : أنا عبد الله وخليفته عثمان . فضربوه على رأسه ثلاث ضربات ، وطعنوه فى صدره ثلاث طعنات ، وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت فى العظم . فسَقَطْتُ عليه ، وقد أثخنوه وبه حياة ، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه ، فيذهبوا به ، فأتتنى ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معى ، فَوُطئنا وطئنا وطئاً شديداً ، وعرينا من حُلِيّنا ، وحُرْمةُ أمير المؤمنين أعظم ، فقتلوا أمير المؤمنين مقهوراً على فراشه ؟ . . . !

وقد أرسلت اليكم بثوبه عليه دمه ، فأنه والله إن كان أثِم مَن قتله ، فما سَلِمَ من خذله . فانظروا أين أنتم من الله ، وأنا أشتكى كل ما مسَّنا إلى الله عز وجل ، وأستصرخ بصالحى عباده . فرحم الله عثمان ، ولعن قتلته ، وصرعهم فى الدنيا مصارع الخزى والمذلة ، وشفى منهم الصدور .

* * *

ذلك هو الكتاب الذى اجتمع لسماعه خمسون ألف شيخ من شيوخ الشأم يصيحون ويعجون بالبكاء تحت قميص عثمان ، وأصابع نائلة ، ويتقاسمون فيما بينهم ألاّ يمسوا غسلاً حتى يقتلوا عليًّا ، أو تفنى أرواحهم[1]

﴿ نصراء علىّ من النساء ﴾

وبرغم خصومة تينك المرأتين لعلىّ كرم الله وجهه ، كان جنده أحفل الأجناد بذوات القول الفصل ، والرأى الجزل ، من النساء . ولهن فى صفين مقامات ومواقف ، أشجت حلوق العدوّ ، وصكّت أسماعهم ، وروّعت نفوسهم

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٢

ومن هؤلاء بكّارة الهلالية، وسودة ابنة عمارة، وآمنة بنت الشريد، وأم سنان بنت خيثمة، وكثيرات من نظائرهن وأشباههن، ممن أوتين جوامع الكلم، وجمعن أشتات الحِكَم. ولنا إليهن عودة عند الكلام على مقالاتهن، بين ازدحام الصفوف، وتحت ظلال السيوف.

ولما تبدلت الأيام بعهد علىّ عهدَ معاوية، كانت بلاد العراق مجالات الشيعة، ومباءات الفتن، ومواطن الانتقاض عليه. فرماها بداهيتى العرب، المغيرة بن شعبة، وزياد بن أبى سفيان، واحداً بعد واحد، وأوصاهما أن يلعنا عليًّا على المنابر، وأن يتخذا السيف حَكَماً بينهما وبين الناس. فقام فى وجههما حُجْرُ بن عَدِى الكندى، وانضم إليه شباب أهل العراق، وجمهور من نسائهم. وبدأت المجامع تعْقَدُ بنجوة من أعين الرقباء. وما زال أمر حجر يستطير، وصوته يعلو، حتى انتزعه زياد من العراق، وقاده إلى معاوية، فقتله.

وكانت هند بنت يزيد الأنصارية ممن شايعنه وناصَرْنه وأَعَنَّهُ. وهى امرأة قَلَّ أن تدانيها امرأة، فى بُعد الرأى، وقوة البيان.

ومن قولها ترثى حُجراً:

ترفّعَ أيها القمر المنير ... تبصّر هل ترَى حُجْراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخَوَرْنَقُ والسَّدِير
وأصبحت البلاد لها مُحُولا ... كأن لم يحْيها بَرْق مطير
ألا يا حُجْرُ حُجْرَ بنى عدىّ ... تلقّتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عديًّا ... وشيخاً فى دمشق له زئير

يَرَى قتل الخيار عليه حقًّا له من شر أُمته وزير
فان يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هُلك يصير[١]

ثم لما اقترف الخليفة المجرم الطاغية يزيد بن معاوية فَعلته ، بحفدَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام المختار بن أبى عُبَيد الثقفى للانتقام له ، والاشتفاء بالثأر من قَتَلته ، كان النساء فى عونه ورفقته . وبهن وبمن اليهن من الرجال أوقع وقعته القاضية بالبغاة المعتدين . على أنه أخذ بالشبهة ، وأسرف فى الدماء . فقصده مصعب ابن الزبير ، وغلبه على أمره . حتى ضرب عليه النطاق حول قصره بالكوفة . وفى تلك الساعة الضائقة المرهقة ، خلّاه رفاقه ، فلم يبق إلا الأوفياء المخلصون ، وقليل ما هم . على أن النساء بَدَأن فِعالهُنَّ كعادتهن فى كل خطب فَدَح وجَدٍّ نبا . فلقد كانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام واللّطف والماء قد ائتزرت عليه ، والتفعت فوقه ، وأرسلت خمارها على وجهها وصدرها ، كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة ، أو تقصد النُّقلة لذوات قرباها ، فاذا دنت من القصر فتح لها الباب ، فدخلت فتركت ما معها ، ثم خرجت لِطِيَّتِهَا[٢] .

وكان فى الكوفة بيتان لامرأتين يأوى اليهما غلاة الشيعة ، فيتسامرون ويتآمرون . وهاتان المرأتان هما هند بنت المتكلفة الناعطية ، وليلى بنت قُمَامة المدَنية

وكانت ليلى لا تَليق شيئًا من مالها فى سبيل نشر دعوتها ، وبث مبدئها . وكانت تبغض أخاها رفاعة بن قمامة لاقتصاده وفتور أرْيَحيته[٣] .

ومن هنالك خفقت نسمة التشيع ، فانتظمت نَغْمَتُهَا بلاد فارس وخراسان وما وراءهما . وكان ذلك مما هيأ لآل رسول الله تنظيم دعوتهم ، وإقامة دعامتهم

(١) ابن جرير ج ٧ ص ١٤٦ (٢) ابن جرير ج ٨ ص ٧٣٤ (٣) ابن جرير ج ٨ ص ٧٣٦

حتى اقتادوا الجيوش من صوب خراسان ، فصدعوا بها ملك بنى مروان . على أن يد المرأة لم تترك مقادة تلك الثورة المبيحة المُنيحة .

فان أبا العباس السفاح ثائر بنى هاشم ، ووارث بنى أمية ، كان — على وفر فضله ، وعراقة مجده ، وسموّ فضائله — فقيراً مُقْتِراً . ومحال أن تنهض الثورات ويتاح لها الظفر — إلا بالمال .

هنالك قيض الله لعظيم بنى هاشم من ملأت قلبه عزماً ، ويده مالاً ، ونهجه وضحاً ونوراً ، وتلك هى زوجه أم سَلَمَة ابنة يعقوب بن سَلَمَة .

كانت أم سَلَمة قبل أن تصير إلى السفاح زوجاً لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . فكانت لذلك أعرف الناس بِسِرّ بنى أمية ، وأوقعهم على خبيئة أمورهم فلما هلك عنها اجتمع لديها ثرات زوجها وأبيها ، وكلاهما كان غنيًّا موفور الغنى . فأما ما ملكت من سماحة الرأى ، ورجاحة العقل ، فكان أوفر من مالها وأتم .

أرسلت أم سلمه مولاتها الى السفاح تخطبه ، وحمّلتها سبعمائة دينار تقدمها اليه إن شكا الفاقة اليها . فلما عرضت الجارية أمر مولاتها ، قال : أنا مملق لا مال عندى . فقدمت اليه هدية سيدتها . وهنالك سارع السفاح الى الزوجة المواتية بمالها . وكان ما لقيه من نفاذ رأيها وإحكام تدبيرها ، أتمّ وأوفى . فلم يكن يصدر إلا عن رأيها ومشورتها ، وبها عرف مواطن الداء من أعدائه ، واليها كانت إفاءته فى خلافته[1] .

﴿ المرأة والخوارج ﴾

الخوارج قوم يبتغون الكمال فى الخلافة . فهم يريدون الامام العادل الثَّبْت ، الذى يقوم باجماع المسلمين ، وينزل من الأمر على شورى المسلمين . ذلك مبدؤهم الذى خرجوا به ، وقاتلوا الناس عليه . على أنهم أسرفوا فيه وغلوا غلوًّا كبيراً ، حتى

(١) الدر المنثور ص ٥٨

حسبوا كل وزر كفراً يُقاتَل مقترفه ، ويقتل عليه . وكانوا فى أول أمرهم قطعة من جند علىّ . فلما رضى بالتحكيم فى خلافته ، قالوا : علامَ يقتتل المسلمون وأمراؤهم فى شك من أمرهم ؟ ! ومنذ ذلك اليوم انفصلوا عن علىّ ، واستجازوا قتاله ، وقتال من بعده من الخلفاء .

وحجتهم فى الخروج على علىّ داحضة . فقد يكون التحكيم مما يبعثه اليقين بالحق ، والثقة بالعناية . كذلك شرع الخوارج لأنفسهم قتال كل خليفة لأنه اتخذ خلافة رسول الله تراثا عن أبيه . وحسِبَ المسلمين سواه هملا ، فساقهم بغير عهد منهم ولا رضى . ذلك ما يقوله الخوارج . ومهما يكن من أمرهم فقد استبسلوا فى سبيل غايتهم ، حتى أصبحوا مضارب الأمثال فى البسالة والجسارة .

وأوضح ظاهرة تراها فى فريق الخوارج ، نباهة ذكر المرأة ، ونزوعها منازع القادة الكفاة ، وقيامها فى الطرف القصى ، من تفدية الغرض ، والتضحية فى سبيله .

وكم احتمل نساء الخوارج من ولاة العراق وسفاحيه من نكال ووبال ، وتمزيق أوصال . فلم يك شىء من ذلك يروعهن ، ولا يَثلم غرضهن ، أو يحول غايتهن ، حتى تقاد المرأة منهن الى القتل ، صابرة راضية .

ولقد ظهر من الخوارج رجلان عظيمان ، قاما واحداً بعد واحد . كلاهما اجتمع عليه القوم ، وكلاهما لقب بامرة المؤمنين . وكلاهما استمد من امرأته الجليلَ من رأيه ، والشديد من قوته .

أما أولهما فقَطَرِىّ بن الفُجَاءة . كانت زوجه أم حكيم من أتمّ النساء ذكاء ومضاء ، وجمال وجه ، ونفاذ رأى ، وقوة بيان . ومن قوله فيها[1] :

لعمرك انى فى الحياة لزاهد وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

(١) الكامل ج ٢ ص ١٣٦

مِنَ الخُفِرَات البيض لم يُرَ مثلها شفاءٌ لذى بَثّ ولا لسقيم
لعمْرُك انى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر جِدُّ لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم

حتى يقول :

فلو شَهِدَتْنَا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الأله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

وأما الثانى فشبيب بن يزيد ، وزوجه غزالة الحرورية . وقد أسلفنا ذكرها وأفردنا خبرها .

وكانت أمه « جَهيزة » بالمكان الأوفى من الشجاعة . وكانت هى وغزالة لا تُرَيان إلاَّ فى أخطر المواقف من الموقعة

وقالوا أن عِمران بن حِطّان كان رجلاً من أهل السُّنة ، فتزوج امرأة من الشُّرَاة[1] من عشيرته وقال أردها عن مذهبها فذهبت هى به[2]

وكان أخطر ما قام به الخوارج قتلهم عليًّا عليه السلام ، قتله عبد الله بن مُلْجِم ، وما أغراه بذلك إلا أمه وإلا زوجه قَطَام ابنة علقمة التى طلبت صداقاً لها[3]

(ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علىّ بالحسام المسمم)

ولعلك ذاكر ما فصّلنا من حديث « ليلى بنت طريف » فى عهد الرشيد مما يبين لك هو وأشباهه أن المرأة والرجل فى تلكم الأيام كانا عودَى سرحة واحدة ، وشبلى عرين واحد

---

(١) الشراء جماعة الخوارج كان الرجل منهم يسمى نفسه شارياً أى بائعاً نفسه من الله وهو ينظر فى ذلك إلى قوله تباركت آيته « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

(٢) الأغانى ج ١٦ ص ١٤٦ — ١٤٧ (٣) الكامل ج ٢ ص ١٣٦

(٢)

أثرها فى تكوين الرجال

أو

الأمم العربية المسلمة

فى قرن وبعض قرن ، وثب المسلمون وثبة ملأوا بها الأرض قوة و بأساً وحكمة وعلماً ، فراضوا الأمم ، وهاضوا الممالك ، وركزوا ألويتهم فى قلب آسيا وهامات إفريقية ، وأطراف أوربا ، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب وتنقلب بها الألسنة بعد أن كانوا فرائق بَدَداً لا نظام ، ولا قوام ولا علم ، ولا شريعة .

ففى أى المدارس درجوا ، ومن أى المعاهد خرجوا ؟

لقد قطع العرب تلك المرحلة التى سَهَمَ لها الدهر ، ووجَم لروعتها التاريخ ولم يقيموا معهداً أو ينشئوا جامعة ، استغفر الله ! بل لقد كانت خِصاصَهم وخيامهم ودورهم وقصورهم معاهد ومدارس وما شئت من مغارس حكمة ومغاوص آداب وَلِيَ أمرها أمهات صدق ، أقامهن الله على نشئه ، واستخلفهن على صنائعه ، وأرعاهن أشبال غابه ، وأتمنهن على بُناة ملكه ، وحُماة حقه ، ورعاة خلقه ، فكن أقوم خلفائه بواجبه ، وأثبتهن على عهده ، وأنهضهن بالفادح الشديد من أمره

لقد كان الله أبر بهؤلاء القوم من أن يخرجهم مُخرجاً سيئاً ، أو ينبتهم منبتاً فاسداً ، أو يضمهم الى صدور واهية وقلوب سقيمة ، ثم يسومهم أشرف مطالب الحياة ، ويوردهم أسمى مقاصدها ، ولو فعل لكان قد كلفهم شططاً وجشمهم محالاً

لأن الأم من الامة بمثابة القلب من الجسد، فهى غذاء أرواحها، ومِران أعوادها ومفيض مداركها، ومبعث عواطفها، فان وهنت كان كل أولئك واهناً ضعيفاً.

لذلك كله عَمَد الاسلام الى المرأة أول ما عمد، فرد مظالمتها وأتم نصفتها ورفع شأنها، وأطلق عنانها، وثبت ايمانها.

لقد كانت نهضة المسلمين غريبة فريدة لأن المرأة كذلك كانت غريبة فريدة ولو لم تكن كذلك لكانوا فى عظيم أمرهم ككل الناس بين جد وانتظار واقبال وإدبار. وإذا كانت المرأة الحديثة قد أنصتت لِلنُكولن زعيم الجمهورية الأمريكية وهو يقول لمهنئيه باسمى مناصب العالم « لا تهنئونى وهنئوا أمى فهى التى رفعتنى إلى مقامى هذا » إذا كانت قد أنصتت لذلك فازدهت وأشرقت وتطاولت واستشرفت — فان المرأة العربية المسلمة كانت تستمع لأشباه هذا الكلام من أشباه لنكولن فلا ينثنى جيدها ولا يهتز عِطفها لطول ما سمعته وألفته حتى لقد أصبح من بدائِهِ العرب الظاهرة وعقائدهم الراسخة أن الهُجَنَاء — وهم الذين لم تنجبهم نساء العرب — لا يُغْنُون فى المهم، ولا يكفون فى الملم، مهما أمعن آباؤهم فى شرف المنبت، ونبل الشمائل.

وما ظنك برجل من رجال البادية كعُقَيل بن عُلّفة المُرّى يخطب اليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ابنته لبعض بنيه فيقول له « جنِّبنى هجناء ولدك[1] ».

وشبيه بذلك ما حدثوا أن هشام بن عبد الملك قال لزيد بن على بن الحسين: بلغنى أنك تحدث نفسك بالخلافة. ولا تصلح لها لانك ابن أَمَة[2].

أوتدرى من تلك الأمة؟ انها ابنة ملك الفرس الذى كان العرب يُذكرون بين رعيته فلا يأبه بهم. أما أبوه فحفيد على بن أبى طالب وسليل رسول الله صلى الله

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥٦ (٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٨ طبع بولاق

عليه وسلم . ذلك هو الذى قصّر به عن مدى الخلافة فى رأى هشام بل وفى رأى العرب يومئذ — أن أمه فارسية لم يجر الدم العربى بين نياط قلبها ، وحَنِيَّات صدرها

بل لقد كان الرجل يرجع إلى الأمهات ما يراه بين الأخوين من الفوارق التى لا تظهر صلتها بهن . ومثل ذلك ما قالوا أن عبد الملك بن مروان سابق بين سليمان ومَسْلَمَةَ ابنيه — وكان مسلمة هجيناً — فسبق سليمان . فقال عبد الملك[1] :

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرِّهان فتدرك

أرأيته كيف جعل فوز الفتيان بالسبق أثراً من جهد المرأة ونزعة من روحها وثمرة من تنشئتها وتربيتها مع أن الامَّيْن امرأتاه والفتيين ولداه ؟

وأى غريبة تجدها فى ذلك ؟ أو لم يكن ركوب الخيل ، وادِّراع الليل ، واقتحام الهول نوازع من عزمة مُتَّقِدة وقوة غالبة ونفس حمية ؟ وهل فى كل أولئك شىء لم يرضعه فى دَرِّها ، أو يسمعه من ثغرها ، أو يقرأه على صدرها ، أو يَتَنَسَّمْه من بين سحرها ونحرها ؟

ولعل أوضح من ذلك علمهم بأن لها الأثر كله فى قوة بيان الرجل وتقويم لسانه . وما رأينا أمراً أجمع عليه قالَةُ العرب وَمَنْ اليهم من أئمة اللغة ورواة الادب وأعيان البيان كإجماعهم على أن أول لوثة أصابت اللغة العربية لم يقذف بها إلاّ ألسنة الهجناء .

وليس ذلك بالأمر الذى يحوجه الدليل ويعوزه البيان . فان أمهات العرب لم يَكُنَّ يناغين أبناءهن وهن زهر غَض وصحائف بيض إلاّ بكل مورق مثمر من القول فينشأ ناشئهن عذب البيان غدق اللسان

فأما بنو الاماء فما عساهم يسمعون إلاّ كل لفظ دعى من كل لسان عي

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٨ طبع بولاق

ولئن يكن الخضوع لذلك الحق — حق تفرد المرأة بتكوين الرجل والتأثير فيه — مما أفاض عليها قوتها وشد عزيمتها على المضى فى عملها والبلوغ بواجبها إن مما ضاعف ذلك كله احترامهم لها احتراماً لم ينله أحد سواها

لقد كان احترام الأم فى الجاهلية طبعاً مألوفاً فأصبح بالاسلام فوق ذلك فرضاً محتوماً ولعلنا أوردنا الكفاية من بيان ذلك فى تفاريق كتابنا

وكل ما فى الكتاب والسنة من أشادة بالأبوين واكبار لأمرهما وتعريف بحقهما يؤثر الأم ويرجح بفضلها ويفيض فى القول عنها

وإليك مثلاً من ذلك قول الله جل ذكره « وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً » فانظر كيف أجمل سبحانه الأب ثم اختص الأم بفضل البيان ووضح الاقناع بأنها حملته مؤلمة ووضعته مؤلمة وليس الأب فى شىء من ذلك

وشبيه بذلك ما أسلفنا أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال امّك . قال ثم من ؟ قال أُمّك . قال ثم من ؟ قال أمك . قال ثم من ؟ قال أبوك

وجاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال إن لى أُمًّا أنا مطيعها ، أقعدها على ظهرى ، ولا أصرف عنها وجهى ، وأرد اليها كسبى . فهل جزيتها ؟ قال لا ولا بزفرة واحدة

وهل أتاك نبأ أويس بن عامر الْقَرَنى ؟ ذاك رجل أنبأ النبى بظهوره وكشف عن سناء منزلته عند الله ورسوله وأخذ البررة الأخيار من آله وصحابته بالتماس دعوته وابتغاء القربى الى الله به وما كانت آيته إلا بره بأمه وذلك حديث مسلم عنه : كان عمر رضى الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر؟

حتى أتى على أويس بن عامر فقال أنت أويس بن عامر؟ قال نعم . قال من مُرَاد ؟ قال نعم . قال كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ فال نعم. قال لك والدة ؟ قال نعم. قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثر برص فبرأ منه إلاموضع درهم ، له والدة هو بَارٌّ بها ، لو أقسم على الله لَأَبَره فان استطعت أن يستغفر لك فافعل ، فاستَغفِرْ لِى . فاستغفر له ، فقال له عمر أين تريد ؟ قال الكوفة . قال ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال أكون فى غبراء الناس أحب إلىّ[1]

كل ذلك وأشباهه مما جعل للأُم المقام الأَوفى والمنزلة التى ليس فوقها إلا الله ورسوله . وفى سبيل ذلك الاحترام نذكر ذلك الحديث الموجز

لما كانت موقعة أُحُد أغْرَتْ هند ابنة عُتبة بحمزة بن عبد المطلب من خالسه فصرعه — وكان قد قتل آلها يوم بدر — ثم نفذت اليه فبَقَرت بطنه ونزعت كبده . وجدعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وجاء بعدها أبو سفيان فأخذ يطعنه بالرمح فى فمه حتى مزقه

انقضت الموقعة وجثمان حمزة تكاد تَحيل معالمه لفرط ما مثل به . فلما وقف به رسول الله اشتد حزنه لما أصاب عمه البطل الكريم ، ووقف بنجوة منه ثم أبصر فوجد عمته صفيّة بنت عبد المطلب مقبلة لتنظر ما فعل القوم بأخيها فقال رسول الله لابنها الزبير دونك أمَّك فامنعها . وأكبر همه ألا يَجدّ بها الجزع لما ترى . فلما وقف ابنها يعترضها قالت « دونك لا أرض لك ! لا أم لك ! » وهنالك رجفت أحناء بطل قريش وزلزلت قدماه واعتقل لسانه وكر راجعاً إلى رسول الله فحدثه حديث أمه فقال خل سبيلها

(١) صحيح مسلم شرح النوى ج ٥ ص ٢٢٣

كذلك انفرجت صفوف الناس لعمة رسول الله فسارت حتى أتت أخاها فنظرت اليه فصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ، وقالت لابنها قل لرسول الله ما أرضانا بما كان فى سبيل الله ! لاحتسبَنَّ ولأصبرن إن شاء الله[١]

فانظر إلى موقف البطل العربى حيال أمه وقد أمره رسول الله أن يقف دونها فيعترضها ! ولو سامه النبى أن يعترض الجيش اللهام لوقف فى سبيله غير هائب ولا مدفوع

وما له لا يعنو وجهه ولا ترتجف أضالعه لعظمة الأمومة وعظمة الخُلق ! وهل رأت الأمم قديمها وحديثها من سمو المرأة وجلال خلالها ما رأته من مثل صفية ! امرأة يمثل بأخيها كذلك التمثيل ثم تقف على جثمانه فلا تجاوز الصلاة له والاسترجاع عليه لأن جسده إنما مزق فى سبيل واجبه وحياطة دينه ! إن هذا لهو الخلق العظيم

ولقد كان الرجل وما يجاوز رأى أمه ولا يستشعر الغَناء عن مشورتها ونهج سبيلها مهما تطاول به العمر وأمعنت برأيه التجارب وحديث عبد الله ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر آية بالغة ودليل كفيل بما نقول

ذلك أن عبد الله لبث على إمرة المؤمنين ، ودانت له العراق والحجاز واليمن ثمانى سنين ثم أخذ عبد الملك بن مروان يقارعه فانتقص منه العراق ورماه بعد ذلك بالحجاج بن يوسف فأخذ يطوى بلاده عنه حتى انتهى إلى مكة فطوقها ونصب المجانيق على الكعبة وأهوى بالحجارة عليها وفى الكعبة يومئذ أسماء بنت أبى بكر. وكان عبد الله يقاتل جند الحجاج مسنداً ظهره إلى الكعبة فيعيث فيهم ويَرُوع أبطالهم وليس حوله إلا القوم الأقلون عدداً والحجاج بين ذلك كله يرسل اليه

(١) انسان العيون ج ٢ ص وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٥ طبع أوربا

يمنّيه الخير ويعده بالامارة فى ظل بنى أُميّه لو أغمد سيفه وبسط للبيعة يده

دخل عبد الله على أثر ذلك على أمه فقال يا أمّه ! خذلنى الناس حتى أهلى وولدى . ولم يبق معى إلا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيكِ ؟ فقالت اللهَ اللهَ يا بنى ! إن كنت تعلم إنك على حق تدعو اليه فامض عليه ولا تمكّن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك . وان كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . وإن قلت إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا فعل الأحرار ولا مَن فيه خير ، كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير . والله لَضربة بالسيف فى عز أحب إلىَّ من ضربة السوط فى ذل . فقال : يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى ، قالت : يا بنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبّل رأسها وقال لها هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعياً إلى الله . والله ما دعانى إلى الخروج إلاّ الغضب لله عز وجل أن تُهتَك محارمه ، ولكنى أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدنى قوة وبصيرة مع قوتى وبصيرتى ، والله ما تعمدت إتيان منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم أجُر فى حكم ، ولم أغْدِر فى أمان ، ولم يبلغنى عن عمالى حيف فرضيت به ، بل أنكرت ذلك ، ولم يكن شىء عندى آثر من رضاء ربى . اللهم إنى لا أقول ذلك تزكية لنفسى ، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى . فقالت والله إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً ، إن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك . ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأمه ، اللهم إنى قد سلمت فيه لأمرك ورضيت فيه بقضائك فأثبنى فى

عبد الله ثواب الشاكرين . قال : يا أُمَّه لا تَدَعى الدعاء لى قبل قتلى ولا بعده . فقالت : لن أدعه . فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق . فتناول يدها ليقبلها فقالت : هذا وداع فلا تبعد . فقال لها جئت مودعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا . قالت : امض على بصيرتك وادن منى حتى أودعك . فدنا منها فعانقته وقبلته ، فوقعت يدها على الدّرع فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد ! فقال ما لبستها إلاّ لأشد متنك ، قالت : إنها لا تشد متنى ، فنزعها ثم درج لِمَّته ، وشد قميصه وجبته ، وخرج وهو يقول :

أبى لابن سلمى أن يُعير خالداً ... ملاقى المنايا أىَّ صرف تيمَّما
فلست بمبتاع الحياة بسُبَّة ... ولامرتق من خشية الموت سلَّما

وقال لأصحابه احملوا على بركة الله ، وليشغل كل منكم رجلاً ، ولا يُلهِيَنَّكم السؤال عنى ، فانى على الرعيل الأول . ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون وهنالك رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه ، فأخذته منه رعدة ، فدخل شعباً من شعاب مكة يستدمى . فبصرت به مولاة له فقالت : وا أمير المؤمنينا ! فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه ، وصلبه الحجاج ، فأقام جثمانه على الجذع عاماً كاملاً . حتى إذا أمر عبد الملك بانزاله أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه ، وذهب البلى بأوصاله . ثم كفنّته ، وصلت عليه ، ودفنته[1]

ذلك أمر ابن الزبير ومقامه من أمه وعكوفه على رأيها ونزوله عند مشورتها حتى آخر ساعة من ساعاته وقد طعن يومئذ فى السبعين . وماله لا يكون كذلك ؟ وهل ترى فيما رأيت خطلاً فى الرأى ، أو زللاً فى القصد ، أو حياداً عن النهج ، أو عثرة فى الواجب ؟ وهل أعانت امرأة ولدها على التضحية فى نصرة الحق ، وبذل النفس فى حومة الشرف بمثل ما أعانت أسماء ولدها ؟

(١) بلاغات النساء ص ١٣٠ — ١٣٢

اللهم إن ذلك سر عظمة القوم ، وسبيل نهضتهم ، ومُنْبَعَث قوتهم . وإليه مرجع استبسالهم واستماتتهم

ولعمرى لقد عمد عبد الله إلى أبيه فحوّله عن رأيه ووجهه ومبدئه فى أدق مواقفه وأخطر مشاهده وهو دون الأربعين وأثرت فيه أمه برأيها وقولها فى أحرج أمره وأهول سَاعِهِ وقد أطل على السبعين .

أما موقفه حيال أمه فقد علمته . وأما موقفه حيال أبيه فذلك بعد أن بايع عَلِيًّا عليه السلام وعقد له من عهده وذمته على السمع والطاعة له ، فما زال عبد الله به حتى نقض بيعة أمير المؤمنين ، وخلع طاعته ، وشرع السيف فى وجهه بعد أن شايعه نيفاً وثلاثين عاماً . وفى ذلك يقول على كرم الله وجهه : ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا[1] .

وبعد فقد علمت مما سلف من القول أن المرأة المسلمة اجتمع لها من وسائل التربية ومجالات العمل ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها ، من اقرار بحقها وامعان فى احترامها ، ومماشاة فى الرأى والعمل لها إلى غير مدى ولا غاية فى ذلك كله . كل أولئك إلى ما علمت من رجاحة فى العقل ، وسماحة فى الرأى ، واستمكان من الفضيلة ، وبلوغ إلى الغاية القصوى من جلال الدين وفرط اليقين ، مما جعلهن أعرف خلق الله بتكوين الرجال ، والتأثير فيهم ، والنفاذ إلى قلوبهم ، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم ، وفى مسارب دمائهم . ومن أجل ذلك كان أبناء النابهات الممتازات من النساء أنبل وأفضل وأمثل من أبناء النابهين الممتازين من الرجال . حتى لا تكاد تقف على عظيم ممن راضوا شماس الدهر وذلت لهم نواصى الحادثات إلا وهو ينزع بِعِرْقِهِ وخلقه إلى أم عظيمة . فالزبير بن العوام قامت بأمره

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٦

أمه صفية بنت عبد المطلب فنشأ على طبعها وسجيتها . والكملة العظماء عبد الله والمنذر وعروة أبناء الزبير ثمرات أمهم أسماء بنت أبى بكر وما منهم إلا له الأثر الخالد والمقام المحمود .

وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه تنقل فى تربيته بين صدرين من أملا صدور العالمين حكمة وأحفلها بجلال الخلال ، فكان مغداه على أمه فاطمة بنت أسد ، ومراحه على خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ، ومكانهما من الفضل وبعد الرأى ما علمت . وعبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم تركه أبوه صغيراً فتعاهدته أمه أسماء بنت عُمَيس ، ولها من الفضل والنبل ما لها وَمعاوية ابن أبى سفيان أريب العرب وأَلْمَعِيُّهَا ورث عن أمه هند بنت عتبة ما لم يرث عن أبى سفيان . وهى القائلة — وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها أن عاش معاوية ساد قومه — ثكلته ان لم يسد إلا قومه . ولما نعى اليها ولدها يزيد بن أبى سفيان قال لها بعض المعزين أنا لنرجو أن يكون فى معاوية خلف منه . فقالت أو مثل معاوية يكون خلفاً من أحد ؟ والله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمى به فيها لخرج من أيها شاء .

وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدرة وجوذب المباهاة بالرأى انتسب إلى أمه فصدع بذلك أسماع خصمه . ومن قوله فى سجال الفخر لابن الزبير أنا بن هند ، أطلقت عقال الحرب فأَكَلَتْ السَّنَام وشربت عنفوان الْمَكْرَع ، وليس للآكل إلا الْفَلْذَة ، ولا للشارب إلا الرَّنَق (١) .

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٥ مطبعة الفتوح . وكان سبيل تلك المساجلة أن عبد الله قال لمعاوية : يا معاوية لا تدع مروان يرمى جماهير قريش بمثالبه ويضرب صفاتهم بمعاوله ولولا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشه وأقل فى نفوسنا من حشاشة ولئن ملك أعنة خيل تنقاد له ليركبن منك طبقا تخافه فقال معاوية : إن يطلب هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه وأن يتركه بتركه لمن هو فوقه وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله اليكم من لا يعطف عليكم بقرابة ولا يذكركم عند ملمة يسومكم خسفاً ويوردكم تلفاً . فقال ابن الزبير اذن والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد حافاتها الأسل لها دوى كدوى الريح

وعجيب أن معاوية لم يعرف كيف يودع يزيد ابنه وخليفته ، رأيه وحامه وسياسته. ذلك لأن أمه امرأة أعرابية لا شأن لها ، خطبها معاوية على الجمال واتخذها مقادة لقبيلتها ومرتق لعشيرتها

وشبيه بمعاوية أخوه زياد بن أبى سفيان . فهو مساق المثل فى ذكاء القلب وفرط الدهاء ، الى وفور فى العلم ، وقوة فى البيان . وبرغم ذلك كان ابنه عبيد الله أبعد الناس عن خُلقه ، وأنباهم عن طبعه . كان أحمق ، أخرق ، واهن العقدة ، مضطرب الفطنة ، عيياً . سفاكاً . ذلك لأن أمه « مَرجانة » امرأة فارسية من فلول تلك الأمة المتهدمة المتحطمة ، فهى ضعيفة ذليلة ، لا تصلح أن تكون أماً لعزيز عظيم .

ولقد انحسر ملك بنى مروان عن رجلين ، ذهب أحدهما بما أوتى من حَوْل وطَوْل ، وما انتضى من حزم وعزم ، وضُربت الأمثال بما نهج ثانيهما من سَنَن العدل ، وما أفاء على الناس من ظلل الخيرات ، وكلاهما مهبط وحى المرأة العظيمة

أما أولهما فعبد الملك بن مروان ، وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبى العاص بن أمية ، وكان لها من مضاء العزم ، وذكاء القلب ، ونفاذ الرأى — ما لم يكن مروان فى شىء منه . وهى التى يعنيها ابن قيس الرُّقيَّات فى قوله لعبد الملك[1]

أنت ابن عائشة التى ... فَضَلَت أُرُوم نسائها
لم تلتفت لِلدائِها ... ومشت على غُلَوَائها
ولدت أغر مباركاً ... كالشمس وسط سمائها

وأما الثانى فأبو حفص عمر بن عبد العزيز . وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب أكمل أهل دهرها كمالاً وأكرمهن خلالاً — وأمها تلك التى اتخذها

تتبع غطريفا من قريش لم تكن أمه براعية ثله ، فقال معاوية أنا ابن هند شرح الغريب : المشاقص — جمع مشقص — النصال العريضة . الصفاة الحجر . الصلد الضخم . الحشاشة — مثلثة الحاء حشرة الأرض ، الطبق العظم الفاصل بين فقار الظهر . الرجل — بكسر الراء — القطعة العظيمة من الجراد المكرع المشرب وعنقوانه صافيه . الرنق الماء المكدر

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣١٦ طبع بولاق

عمر لابنه عاصم وليس لها ما تعتز به من نشب ونسب إلا ما جرى على لسانها قول الصدق فى نصيحتها لأمها — وهى التى نزعت به الى خلائق جده الفاروق رضى الله عنه

فاذا نحن انتقلنا بك من مُلك بنى مروان بالمشرق الى مُلكهم بالمغرب، وجدنا العظمة الرائعة، والهمة القصية، والأمل البعيد، والبأس الشديد، والأثر الخالد، والمجد المكين، لم يجتمع شىء منها لرجل ما اجتمع لأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر. ذلك الذى ولى الأندلس وهو ولاية تميد بالفتن، وتَشْرَق بالدماء. فما لبثت أن قرت له وسكنت لخشيته، ثم خرج فى طليعة جنده، فافتتح سبعين حصناً فى غزوة واحدة، ثم أمعن بعد ذلك فى قلب فرنسا، وتغلغل فى أحشاء سويسرا، وضم أطراف ايطاليا، حتى ريض كل أولئك له، ورجف لبأسه. وبعد أن كانت قرطبة دار أمارة يذكر الخليفة العباسىّ على منابرها وتُمضى باسمه أحكامها، أصبحت مقر خلافة يحتكم اليها عواهل أوربا وملوكها ويختلف الى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها

أو أحدثك عن سر هذه العظمة ومهبط وحيها؛ هى المرأة وحدها! فقد نشأ عبد الرحمن يتيماً قَتَل عمُّه أباه، فتفردت أمه بتربيتهِ وإيداع سر الكمال وروح السمو فى ذات نفسه، فكان من أمره ما علمت

ثم إذا نحن نشرنا صفحة العهد العباسى، بل صفحة العهد الاسلامى لا نجد فى تضاعيفها أمرأ دنت له قطوف العلم والحكمة، ودانت له نواصى البلاغة والفصاحة كمحمد بن أدريس الشافعى. فهو الشهاب الثاقب الذى انتظم حواشى الأرض ملأً أقطارها علماً وتشريعاً

ذلك أيضاً ثمرة الأم العظيمة

فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها، وأشرقت عليه بحكمتها،

وكانت امرأة من فضليات عقائل الأزد[١] . وهى التى تنقلت به من (غزة) مهبطه الى (مكة) مستقر أخواله فربته بينهم هنالك

وكان جعفر بن يحيى وزير الرشيد أرفق الناس برياضة القول ، وأعرفهم بفنون الكلام . وكان إذا عقب رسالة أو وقع تحت كتاب فاليه مبادة البلاغة ونهاية الايجاز حتى لقد يتدافع الكتاب على بابه فيشترون من حجابه كل توقيع بدينار .

كل ذلك ورثه جعفر عن أمه لا عن أبيه[٢]

كذلك كان النساء فى ذلك العهد الكريم مبعث كل شىء فى نفوس أبنائهن والامر فى ذلك ما قال رافع بن هُريم

فلو كنتم لِمُكيْسَةٍ لكاست وَكَيْسُ الأم يعرف فى البنينا

أما بعد فأولئك هن الأمهات اللواتى انبلج عنهم فجر الاسلام وسمت بهن عظمته ، وصدعت بقوتهن قوته ، وعنهن وحدهن ذاعت مكارمه ورسخت قوائمه فان كان مما يذل الرجل فى عصرنا هذا أن يقال له « تربية أمه » فقد كان ذلك فى عصور الاسلام الزاهية ، وأيامه الخالية ، مهبط الشرف الحر ، والعز المؤثل والمجد المكين .

(١) طبقات الادباء ج ٦ ص ٣٦٨ مطبعة هندية

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ مطبعة الفتوح

(٣)

﴿ أثرها فى العلم والأدب ﴾

تصدت المرأة لفنون العلم وشئون الأدب جميعاً وأمعنت فى كل ذلك إمعاناً أعيا على الرجل دركه فى مواطن كثيرة .

وبرغم ما مهد للرجل من مشاكل المسائل ، وهيء له من وسائل الكشف والاستنباط فقد كان للمرأة — على لحاقها بالرجل فى كل ما أسلفنا — مظهر خلق كريم فى العلم والتعليم .

أجل ! لقد امتازت « العالمة المسلمة » بالصدق فى العلم ، والأمانة فى الرواية والحيدة عن مواقع التهم ومساقط الظُّنن مما لم يوفق اليه كثيرون من الرجال .

ومعاذ الله أن نقول ذلك محاباة أو مشايعة لموضوع كتابنا . فنحن أولاء ضاربون لك مثلاً من إقرار عظماء العلماء بما نقول :

الحافظ الذهبي المتوفى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ثقة من ثقات المسلمين وعظيم من عظماء المحدّثين ألّف كتابه « ميزان الاعتدال » فى نقد رجال الحديث خرّج فيه أربعة آلاف متّهم من المحدثين ، ثم اتبع قوله بتلك الجملة التى كتبها بخطه الواضح وقلمه العريض فقال «وما علمت من النساء من اتُّهمت ولا من تركوها[1]» ولعل قائلاً يقول وما للنساء ورواية الحديث ؟ وهل تركهن الذهبي إلا من قلة أو ذلة ؟

ونقول نحن أن حديث رسول الله منذ عهد عائشة أم المؤمنين حتى عهد الذهبي ما حفظ ولا روى بمثل ماحفظ فى قلوب النساء وروى على ألسنتهن .

---

(١) ميز الاعتدال ج ٣ ص ٣٩٥

ذلكم الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، أوثق رواة الحديث عقدة ، وأصدقهم حديثاً — حتى لقبوه بحافظ الأمة — كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء[١] .

فهل سمع الناس فى عصر من العصور ، وأمة من الأمم أن عالماً واحداً يتلقى عن بضع وثمانين امرأة عالماً واحداً ؟ فكم ترى منهن من لم يلقها أو يأخذ عنها والرجل لم يجاوز الجزء الشرقى من الدولة الاسلامية ، فلم تطأ قدماه أرض مصر ، ولا بلاد المغرب ، ولا الأندلس ، وهى أحفل ما تكون بذوات العلم والرأى من النساء .

والحق الذى لا مراء فيه أن مزالّ النفس ، ومنازع التهم ، ونزعات الريب لا تجد مسرباً إلا فى صدور الرجال ، فان دواعيها موفورة فيهم ، مؤتشبة بين جوانبهم . فلهم من منازعة السياسة ، ومجاذبة الرياسة ، ومناصرة الآراء ومؤازرة الأهواء ، والزلفى عند الملوك ومساومة قلوب العامة ، ما لا سبيل له إلى نفس المرأة وكل ذلك مما يميل بالرأى ويصدع ركن العقيدة .

ولم تقف التهمة بالرجل عند حد الدين وحده . بل لقد طمس أناس من الرجال معالِمَ الشعر والأدب والتاريخ ووصف الأمم والمواطن وأسرار الكون ومظاهر الطبيعة . وإذا هان على المرء أن يكذب على الله ، فأهون ما يكون أن يكذب على كل شىء سواه .

وإذا كان الصدق فى النقل والعصمة من الهوى مما دعم قواعد الأثر العلمى للمرأة المسلمة وشاد جوانبه ، فقد كان لها من صفاء فطرتها وقوة فطنتها عماد وقوة

إن الذين يقولون بالفوارق فى المقدرة بين الرجل والمرأة لينتقض رأيهم إذا هم استمعوا حديث النهضة العلمية الإسلامية .

---

(١) طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٧٣

لقد لحق النبي بربه وعائشة أم المؤمنين لم تَخْطُ إلى التاسعة عشرة . على أنها ملأت أرجاء الأرض علماً . فهى فى رواية الحديث نسيج وحدها — ولم يكن بين أصحاب رسول الله من كان أروى منها ومن أبى هريرة ، على أنها كانت أدق منه وأوثق .

وكانت من أنفذ الناس رأياً فى أصول الدين ودقائق الكتاب المبين . وكان زعماء الصحابة إذا أشكلت عليهم الفرائض فزعوا إليها فحسرت حجبها وكشفت سحبها .

ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة كفتها وقفاً على الدين وحده . فكذلك كان أمرها فى رواية الشعر والأدب والتاريخ ، وكذلك كان نفاذها فى الطب وعلم الكواكب والأنواء والأنساب وما إلى كل ذلك ، وذلك عروة بن الزبير فقيه المسلمين يقول : « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة[1] » .

وإليك فاسمع هذا الحديث ثم انظر إلى أى مدى بلغت عائشة من الإحاطة بحوادث الأمم ومشكلات التاريخ .

لما وفد المسلمون إلى الحبشة مهاجرين أوطنهم النجاشى موطناً كريماً فأوفدت إليه قريش عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بأعز ما لديهم من طرائف وتلاد . وفى أنفسهم أن يبرأ من ذمة اللاجئين اليه ويعيدهم على أعقابهم ، فرد النجاشى على القوم هداياهم وقال : « لاحاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع النّاس فىّ فأطيعهم فيه » فحفظ الناس ذلك القول من ملك الحبشة ولم يعرفوا معناه حتى كانت عائشة هى التى حدثتهم خبره مما تعلم من تاريخ الحبشة فقالت : إن أبا النجاشى كان ملك قومه ولم يكن له ولد سواه . وكان للنجاشى عم له إثنا عشر رجلًا كلهم من صلبه .

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣٩ — ٥٦

فقالت الحبشة : لو أنا قتلنا الملك وولينا أخاه لَأَمِنَّا على المُلْكِ أن يضيع وعلى المَلِكِ أن ينقطع عَقِبه . فعدوا على ملكهم فقتلوه وملّكوا أخاه فمكثوا على ذلك حيناً . وكان ولد القتيل فتى أيّدًا حازماً ، لبيباً ، أديباً ، فغلب عمه على الملك ، وأوجس القوم أن يثب على الملك فيأخذهم بأبيه ، فحملوا الملك على بيعه من تاجر بستمائة درهم ، فقذفه التاجر فى سفينة وانطلق به ، حتى إذا كان العَشِيّ من ذلك القوم هاجت سحابة من سحب الخريف فخرج الملك يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته ، ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمَق لاخير فى ولده ، ثم علموا أن لامفزع لهم إلاّ إلى ابن ملكهم القتيل ، فخرجوا يطلبونه ، فجاؤوا به من صاحبه ، فعقدوا عليه التاج . وعز على التاجر أن يضيع ماله وتذهب صفقته فاقتضى القوم حقه فجحدوه إياه ، فشكا أمره إلى الملك فقال : لَتُعْطِنَّهُ ماله أو لَيَضَعَنَّ غلامُه يده فى يده فليذهبن به حيث شاء ، فقالوا : بل نعطه ماله . قالت : فلذلك يقول ما أخذ الله منى رشوة حين رد علىّ ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه[1] .

ذاك هو الحديث الذى خفى عن ثلاثة وثمانين رجلاً ، وابتدرته عائشة حين سئلت عنه

وكانت رضى الله عنها تحسن أن تقرأ ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله

وكان زوجات رسول الله جميعاً قسيمات عائشة فى إذاعة العلم وإفاضة الدين على المسلمين

وكما كانت عائشة أم المؤمنين تجيد القراءة كانت حَفْصَةُ أم المؤمنين تحسن

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ طبع بولاق

الكتابة ، وكانت الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية هى التى علمتها إياها[١]

ولم يكن أمهات المؤمنين بدعاً من نساء هذا العصر . فقد عقد محمد بن سعد جزءاً من كتاب الطبقات الكبيرة لروايات الحديث من النساء أتى فيه على نيف وسبعمائة أمرأة روين عن رسول الله ، أو عن الثقات من أصحابه ، وروى عنهن أعلام الدين وأئمة المسلمين

وهل تجد موطناً أوثق ، ومرتقى أسمق ، ومنزلة أوثق ، من أن على ابن أبى طالب وهو الْعَلَم الأشمّ الذى لا يدانيه أحد فى علمه وحكمته ، وقربه من رسول الله وقرابته يتلقى الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته ، هى ميمونة بنت سعد[٢] فكيف بمن دون على ، وما أحد من أعلام الاسلام إلا دونه

على أن رواية الحديث ومعاناة التشريع لم تكونا كل ما للنساء من هَمّ ، فقد كان لهن فى الأدب العربى شأن لا يدرك وغاية لا ترام

---

(١) الاصابة ج ٧ ص ١٢٠ — ١٢١

حفصة : هى أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية زوج رسول الله وإحدى الصائمات القائمات الفائتات من المسلمات

ولدت رضى الله عنها قبل مبعث النبى بخمس سنوات وزوجت من خنيس بن حذافة السهمى أحد السابقين الأولين فهاجر بها الى المدينة وأقامت معه حتى مات عنها بعد ما آب من بدر سنة ثلاث حتى إذا انقضت عدتها عرضها عمر على أبى بكر فسكت ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجه رقيه بنت رسول الله فقال ما لى فى النساء من حاجة فذكر عمر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله ألا تعجب من عثمان إنى عرضت عليه حفصة فأعرض عنى فقال رسول الله قد زوج الله عثمان خيراً من إبنتك وزوج الله ابنتك خيراً من عثمان فتزوج رسول الله حفصة وزوج أم كلثوم ابنته من عثمان

وكان رسول الله قد هم بطلاق حفصه فنزل جبريل فقال يا محمد لا تطلق حفصة فانها صوامة قوامة وأنها من نسائك فى الجنة

وعاشت حفصة بعد رسول الله حتى ماتت فى عهد معاوية سنة خمس وأربعين

أما الشفاء بنت عبد الله فاحدى ذوات الرأى الجزل والقول الفصل من بنى عدى بن كعب . وهى ممن سبقن إلى بعية النبى بمكة وهاجرت معه الى المدينة وكان صلى الله عليه وسلم يؤثرها بغشيان دارها والمقيل فيها وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه اذا أوى اليها وقد بقى الفراش والازار مذخورين فى دارها بعد موت رسول الله حتى أخذه مروان حين ولايته على المدينة . وكان عمر يقدمها فى الرأى ويؤثرها بالجميل .

(٢) الاصابة ج ٧ ص ١٧٣

ومما حدثوا أن عائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك فقال لها ما أوفدك ؟ قالت حبست السماء المطر، ومنع السلطان الحق قال انى سأعرفه حقك. ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال : أن عائشة عندى فاسمروا عندى الليلة لليلة ، فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته فقال لها هشام أما الأول فلا أنكره وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتى عائشة . فأمر لها بمائة ألف درهم وردها الى المدينة[١]

ودونك فاستمع حديث الحجاج عن نسائه ، قال :

عندى أربع نسوة : هند بنت المهلَّب . وهند بنت أسماء بن خارجة ، وأم الجُلاَس بنت عبد الرحمن بن أَسَيد وأَمَة الرحمن بنت جرير بن عبد الله البُجَلى فأما ليلتى عند المهلب فليلة فتى بين فتيان ، يلعب ويلعبون ، وأما ليلتى عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك ، وأما ليلتى عند أم الجلاس فليلة إعرابى مع إعراب فى حديثهم وأشعارهم ، وأما ليلتى عند أمة الرحمن بنت جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء[٢]

ومن الحديث الذى نورده الآن عليك تعلم إلى أى مدى بلغت المرأة من رواية الشعر ، والوقوف على مراميه ، ونفاذ البديهة فى اجتلابه وقت الحاجة إليه

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٥٧

عائشة بنت طلحة هى أم عمران عائشة بنت طلحة بن عبيد الله جميلة قريش وعقيلتها . وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر . وكانت أشبه الناس بخالتها عائشة أم المؤمنين وأحبهم اليها وأطبعهم على علمها وأدبها ومن أجل ذلك زوجتها من ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر فولدت له عمران وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة . وكان ابنها طلحة أجود قرشى فى عهده . ولما مات عنها عبد الله تزوجها مصعب بن الزبير وساق اليها ألف ألف درهم حتى اذا قتل عنها حلف عليها عمر بن عبيد الله بن معمر وساق اليها ألف ألف درهم فأقامت معه ثمان سنين ثم مات عنها فتأيمت بعده ودفعت عنها كل خاطب . وكانت عائشة أجل نساء قريش وأدلهن على أزواجها وأحظاهن عندهم . أما علمها وأدبها وأجزال مثوبتها للشعراء والمغنين فما لا شبيه لها فيه إلا سكينة بنت الحسين

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٣ — ٢٨٤

قالوا إن رجلاً من العرب نزل بامرأة من بنى عامر فأكرمته وأحسنت قِراه ، فلما هم بالرحيل أنشد ذلك البيت — وهو مما هجى به بنو عامر —

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها

حتى إذا سمعته قالت لجارتها قولى له ألم نحسن إليك ونفعل ونفعل ؟ هل رأيت تقصيراً ؟ قال لا . قالت فما حملك على البيت ؟ قال جرى على لسانى . فخرجت إليه جارية من بعض الأخبية فحدثته حتى أنس واطمأن ثم قالت له ممن أنت يا ابن عم قال رجل من تميم . قالت أتعرف الذى يقول

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضَلّتِ
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى خلال المخازى عن تميم تَجَلّتِ

قال والله ما أنا من تميم . ما أقبح هذا الكذب بأهله ! فممن أنت ؟ قال من بنى عِجل . قالت أفتعرف القائل ؟

أرى الناس يعطون الجزيل وإنما عطاء بنى عجل ثلاث وأربع
إذا مات عجلىّ بأرض فانما يخط له فيها ذراع وأصبع

قال لا والله ما أنا من بنى عجل ، قالت فممن ؟ قال من بنى عبس . قالت أفتعرف القائل ؟

اذا عبسية ولدت غلاماً فبشرها بلؤم مستفاد

قال لا والله ، ما أنا من بنى عبس ، قالت فممن ؟ قال من بُجَيْلة ، قالت أفتعرف القائل ؟

سألنا عن بُجَيْلَةَ حين جاءت لتخبر أين قَرَّ بها القرار
فما تدرى بجيلة إذ سألنا أقحطان أبوها أم نذار
فقد وقعت بُجَيْلة بَيْنَ بَيْنٍ وقد خُلِعت كما خلع العذار

قال لا والله ما أنا من بجيلة . قالت فمن ؟ قال من بنى نمير . قالت أفتعرف القائل ؟

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

قال لا والله ما أنا من بنى نمير ، قالت فمن ؟ قال من بنى باهلة . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا نصّ الكرام إلى المعالى تنحى البـاهلىّ عن الزحام
إذا ولدت حليـلة باهلىّ غلاماً زيد فى عـدد اللئام
ولو كان الخليفة باهليًّا لقصر عن مساماة الكرام
وعرض الباهلىّ وإن تَوَقَّى عليه مثل منديل الطعـام

قال لا والله ما أنا من باهله . قالت فمن؟ قال من خزاعة . قالت أفتعرف القائل؟

إذا فخرت خزاعة فى نديّ وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهلا بِزِقٍّ بئس مفتخر الفخور

قال لا والله ما أنا من خزاعة . قالت فمن ؟ قال من بنى أميـة . قالت أفتعرف القائل ؟

وَهَى من أميـة بنيانها فهان على الناس فِقدانها
وكانت أميـة فيما مضى جَرِيًّا على الله سلطانها
فلا آل حرب أطاعوا الإله ولم يتـق الله مروانها

قال لا والله ما أنا من بنى أميـة . قالت فمن ؟ قال من هَمْدَان . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا همدان دارت يوم حرب رحاها فوق هامات الرجال
رأيتهم يحتـــون المطايا سراعاً هاربين من القتال

قال لا والله ما أنا من همدان . قالت فمن ؟ قال من النَّخَع . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا النخع اللئام عدوا جميعاً تدكدكت الجبال من الزحام
وما تغنى إذا صدقت فتيلا ولا هى فى الصميم من الكرام

قال لا والله ما أنا من النخع . قالت فمن ؟ قال من لَخْم . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا ما اجتبى قوم لفضل قديمهم تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا

قال لا والله ما أنا من لخم . قالت فمن ؟ قال من كلب . قالت أفتعرف القائل ؟

فلا تقربن كلباً ولا باب دارها ولا يطمعن سار يرى ضوء نارها

قال لا والله ما أنا من كلب . قالت فمن ؟ قال من سُلَيْم . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا ما سُلَيْمٌ جئتها فى ملمة رجعت كما قد جئت خزيان نادماً

قال لا والله ما أنا من سليم . قالت فمن ؟ قال من الموالى . قالت أفتعرف القائل ؟

إلا من أراد اللؤم والفحش والخنا فعند الموالى الجِيدُ والكتفانِ

قال لا والله ما أنا من الموالى . قالت فمن ؟ قال رجل من الشيطان الرجيم قالت أفتعرف القائل ؟

ألا ياعباد الله هذا عدوكم وذا ابن عدو الله ابليس خاسئاً

حتى إذا ضاقت بالرجل مناسبه ، وأعيت عليه مذاهبه ، قال لها الله الله ! أقيلينى العثرة ، فوالله ما ابتليت بمثلك قط . ثم خرج خاسئاً وهو حسير[1] .

ذاك حديث الصبية العربية التى لم تَعْدُ بعد طور الحداثة ، وتلك قوة بديهتها ودقة فطنتها ، وحضور جوابها ، وأخذها المآخذ على خصمها . وفى الحديث كما رواه المسعودى هنات للقبائل ومغامز ضربنا الذكر الصفح عنها .

(١) المسعودى ج ٢ ص ١٧٥ — ١١٨٠ وطبقات الشافعية ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٦

ولقد أثمرت رواية الشعر فى تلك النفوس الصافية النقية ثمراً حلواً جَنِيًّا فكانت المرأة ناقدة لا تبارى ، وشاعرة لا تجارى ، وبنقدها وصوغها تبوأ الشعر العربى تلك المنزلة التى لا تطاول روعة وجمالاً .

ولئن أثار الخلائف من بنى أمية فى نفوس الشعراء روحاً خبيثة من التنابز والأحقاد فأثابوهم على المخزيات المنديات يترامون بها ، ويتهالكون عليها — لقد دافع عقائل العرب تلك الروح بنفاذ نقدهن ، ولطف مآخذهن ، وإجمال مثوبتهن فكن ينظرن فى نقدهن إلى نبل الغرض ، وشرف اللفظ ، وجلال المعنى وكفى . وكانت سيدة الناقدين سُكينة بنت الحسين . فهى حَكَمُ الشعراء الذى لا يرد حكمه ، ولا يَفيل رأيه ، ولا تبدو مزلته ، وكانوا يفدون على دارها من كل صوب وحدب وكلهم قد عقد يده على خير ما قال ، وليس بينهم إلا من كان حديثه طوال طريقه عما عسى السيدة أن تقوله وتحكم به ، لأنه سيكون بين المتأدبين وبغاة الشعر يقيناً لا شك فيه .

اجتمع إليها ذات مرة جرير والفرَزْدَق وكُثَيِّر وجميل ونُصَيْب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مآخذه ، ثم أثابت كلاً بألف دينار فخرجوا بخمسة آلاف دينار[1] وما كان الخليفة ليظفرهم بما دونها حتى يجمعوا فيه من الفضائل ما تفرق فى الأبرار والمقربين . والكرام الكاتبين ، والقادة الفاتحين .

كذلك كانت مثوبتها للمغنين . وكان بصرها بمذاهب الغناء وضروب الايقاع كبصرها بأعطاف الشعر وقطاف الأدب .

وكانت عائشة بنت طلحة تتأثر خُطوات سُكَيْنَة فى نقد الشعر والغناء ، والاجتماع بالمغنين والشعراء ، والرواة والأدباء ، وذوى الرأى والسناء ، فتحدث كلا بما عنى به ، وخلق له ، حتى لا تدع له مجالاً يقول فيه .

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٦٧

وكانت عَمْرَة الجُمَحِيَّة — من سَرَاة بنى جُمَح — يجتمع اليها الشعراء والرواة فى دارها ، فتستمع لكل ، وتوازن بينهم جميعاً[١]

وكثير من غير هؤلاء خصصن بنقد الشعر ليثرن فيه قوة الخيال ، وروعة الجمال ومن عيون هؤلاء أسماء وعُلَيَّة ابنتا المهدى واختا الرشيد فى الدولة العباسية ، وحفصة بنت الحاج الركونية — من شريفات غرناطة وحسيباتها — وولَّادَة بنت الخليفة المستكفى فى الأندلس

ونحن أولئك مرسلو القول فى تبسط العقائل للشعراء وتأثير رأيهن وحكمهن فى أنفسهم

كان أبو مِحْجَن نُصيب بن رَبَاح مولًى أسود حالك السواد ، فاضت به عاطفة الشعر فظهر له فيه أثر حَميد . وهو الذى نسوق عنه ذلك الحديث :

قال : أنه خرج هو وكُثَيِّرٌ والاحوص غب يوم أمطرت فيه السماء ، فقال هل لكم فى أن نركب جميعاً فنسير حتى نأتى العقيق فنمتع فيه أبصارنا ؟ فقالوا نعم . فركبوا أفضل ما يقدرون عليه من الدواب ، ولبسوا أحسن ما يقدرون عليه من الثياب ، وتنكروا . ثم ساروا حتى أتوا العقيق ، فجعلوا يتصفحون ويرون بعض ما يشتهون ، حتى رفع لهم سواد عظيم فأموه ، حتى أتوه ، فاذا وصائف ورجال من الموالى ونساء بارزات ، فسألنهم أن ينزلوا فاستحيوا أن يجيبوهن من أول وهلة ، فقالوا لا نستطيع أن نمضىَ فى حاجة لنا ، فخلفنهم أن يرجعوا إليهن ففعلوا ، وأتوا فسألنهم النزول فنزلوا ، ودخلت امرأة من النساء فاستأذنت لهم فلم تلبث أن جاءت المرأة فقالت ادخلوا ، فدخلنا على امرأة جميلة بَرْزة على فرش لها ، فرحبت وحيت ، وإذا كراسى موضوعة ، فجلسنا جميعاً فى صف واحد كل انسان على كرسى ، فقالت

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ١٥٠

إن أحببتم أن ندعو بصبي لنا فنصيحه ونعرك أذنه فعلنا — كناية عن ضرب العود — وإن شئتم بدأنا بالغداء ، فقلنا بل تَدْعين بالصبي ولن يفوتنا الغداء ، فأومأت بيدها إلى بعض الخدم فلم يكن إلا كلاَ ولا حتى جاءت جارية جميلة فرحبت بهم وحيتهم فقالت لها مولاتها خذى ويحك من قول نصيب عافى الله أبا محجن

ألا هل من البين المفرق من بُدّ وهل مثل أيام بمنقطَع السعد
تمنيت أيامى أولئك والمنى على عهد عاد ما تعيد ولا تبدى

قال نصيب فغنته فجاءت به كأحسن ما سمعته ، بأحلى لفظ وأشجى صوت ثم قالت لها خذى أيضاً من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

أرق المحب وعاده سُهُدُه لطوارق الهم التى ترده
وذكرت من رقت له كبدى وَأَبَى فليس ترق لى كبده
لا قومه قومى ولا بلدى فنكون حيناً جيرة — بلده
ووجدت وجداً لم يكن أحد من أجله بصبابة يجده

قال فجاءت به أحسن من الأول فكدت أطير سروراً . ثم قالت لها خذى من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

فيالك من ليل تمتعت طوله وهل طائف من نائم متمتع
نعم إن ذا شجو متى يلق شجوه ولو نائماً مستعتب أو مودع
له حاجة قد طالما قد أسرها من الناس فى صدر بها يتصدع
تحملها طول الزمان لعلها يكون لها يوماً من الدهر منزع

قال فجاءنى والله شىء حيرنى وأذهانى طرباً لحسن الغناء وسروراً باختيارها الغناء فى شعرى وما سمعت فيه من حسن الصنعة وجودتها واحكامها ، ثم قالت لها خذى أيضاً من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

يأيها الركب إنى غير تابعكم حتى تلموا وأنتم بى ملمونا
فما أرى مثلكم ركبا كشكلكم يدعوهمو ذو هوى الا يعوجونا
أم خبرونى عن داء بعلمكم وأعلم الناس بالداء الأطبونا

قال نصيب فوالله لقد زهوت بما سمعت زهواً خيل إلى أنى من قريش ، وأن الخلافة لى ، ثم قالت حسبك يا بنية . هات الطعام يا غلام . فوثب الأحوص وكثيِّرٌ وقالا : لا والله لا نطعم لك طعاماً ، ولا نجلس لك فى مجلس . فقد أسأت عشرتنا واستخففت بنا . وقدمت شعر هذا على أشعارنا ، وأسمعت الغناء فيه ، وان فى أشعارنا لما يفضل شعره ، وفيها من الغناء ما هو أحسن من هذا فقالت : فأى شعر كما أفضل من شعره ؟ ! أقولك يا أحوص كذا وكذا ، وقولك يا كثير كذا وكذا ، وذكرت لهما أبياتاً أساآ فيها إلى النساء فخرجا مغضبين ! واحتبستنى فتغديت عندها ، وأمرت لى بثلثمائة دينار وحُلتين وطيب ، ثم دفعت إلىَّ مائتى دينار ، وقالت ادفعها إلى صاحبيك فان قبلاها وإلا فهى لك . فأتيتهما منازلهما فأخبرتهما القصة . فأما الأحوص فقبلها وأما كثير فلم يقبلها ، فأخذتها وانصرفت . قال عبد الله بن اسماعيل فسألت نصيباً ممن المرأة ؟ فقال من بنى أمية ولا أذكر اسمها ما حييت[1]

وإذا نحن وازنا بين الثلاثة الشعراء وجدنا الأحوص وكُثيِّراً قد ذهبا من رقة القول ، ودقة النسج كل مذهب . على أن الحق الذى لا يماريان فيه أن شاعر حديثنا أشرفهم غرضاً ، وأكرمهم خلقاً ، وأنباهم عن هجر الكلام ومن أجل ذلك آثرته المرأة وأثابته وأنبهت شعره وذكره .

(١) الأغانى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٩

كل ذلك بينا تجد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى يضع خمسمائة دينار بين يديه وعنده من الشعراء جرير والفرزدق والأخطل لتكون مثوبة لمن يكون أشد مدحاً لنفسه وهجواً فيمن سواه[١]

وعلى ذكر كثير ونقد شعره تقول أنه خرج ذات مرة إلى البادية فدفع به طريقه إلى خباء لقطام ابنة علقمة فنزل بها وعرفها بنفسه فقالت له أنت كثير؟ أنت الذى تقول ؟

فما روضة بالحزن باكرها الندى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها[٢]

بأطيب من أردان عزة موهناً ... إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها[٣]

قال : نعم . قالت وهل أبقيت لعزة من الفضل فوق ما لهذه اللبنة الملقاة ؟ أولا تراها إذا أوقد المندل الرطب فوقها عبق منها ما يعبق من عزة ؟ هلا قلت كما قال امرؤ القيس

ألم تريانى كلما جئت طارقاً ... وجدت بها طيباً وان لم تطيب[٤]

فخرج كثير واستحيا بعد أن ملأ فاه فخراً بنفسه

وأن من أعجب الأشياء أن تضع زوج أحد الشاعرين المتكافئين قوة وشيعة رأيها فى كفة خصمه وتلك هى النوار بنت أعين زوج الفرزدق همام بن غالب . سألها زوجها رأيها فيه وفى جرير فقالت أن جريراً شاركك فى مره وانفرد دونك فى حلوه[٥]

---

(١) ديوان الأخطل ج ٤ طبع بيروت

(٢) الحزن الأرض الصلبة والجثجاث نبت أصفر طيب الرائحة تصبوا اليه العرب والعرار البهار

(٣) الاردان — جمع ردن بضم الراء — الاكمام وموهنا أى عند انتصاف الليل والمندل العود

(٤) الاغانى ج ١٤ ص ٥٧ والمحاسن والاضداد ص ١٣٩ — ١٤٠

(٥) تريد أن جريراً وزن الفرزدق فى الهجاء وانفرد دونه فيما رق من القول كالغزل والنسيب

وما ظنك بامرأة تستمع بيوتاً من الشعر فتهب نفسها لقائلها بعد أن تكون قد سخرت منه وامتنعت عليه ؟ ذلك ما كان من إحدى أديبات العرب وجميلاتهم مع نُصَيب بن رباح . فقد رامها نصيب فعزت عليه ، بل لقد سخرت منه حين كلمها ودلف اليها فقالت له ما أظرفك يا أسود ! وأغضب ذلك نصيباً فانصرف عنها، فقال

فان أك حالكاً فالمسك أحوى وما لسواد جلدى من دواء
ولى كرم عن الفحشاء ناء كبعد الأرض عن جو السماء
فان ترضى فردى قول راض وان تأبى فنحن على السواء

فلم تقرأ الأبيات حتى كانت هى التى طلبته فتزوجته[1]

تلك شواهد موجزة مجملة عما كان للمرأة العربيـة المسلمة فى الأدب من نفاذ وبراعة ، ورجاحة وسماحة ، وصفاء فطرة ، ومضاء بديهة ، وكرم مثوبة ، وقوة عارضة ، وصولة واستبسال ، فى حياطة مواطن الشرف والجمال من الشعر . وكان بودنا لو ملأنا للقارىء أيدينا من ذلك الثمر الحلو الجنى لولا خشية التياث القصد وترامى الطريق

ولئن نضرت جوانب الأدب العربى بموقف المرأة ، وضاءت مذاهبه ، ورقت مشاربه ، لقد فاضت مشارعه ، وتدفقت متالعه ، وزكت فنونه ، وتهدلت غصونه ، بما أثمرت قريحتها ، وانحسر عنه لبها من نثر الكلام وشعره

لقد وردت المرأة مناهل القول جميعاً . على أنها لم تجاوز الصافى الفرات منها ، فكان قولها قِطعاً من قلبها ومشاعرها . فهى إذا خطبت ، أو كتبت ، أو شافهت ، أو نظمت ، لم تَعْدُ ما تؤمن به ، وتهفو إليه . أما سفال القول من إغراق فى المدح ، وأقذاع فى الهجاء ، ومجون فى الغزل ، وذهاب فى الخمر ، وسخف فى الدين ، فذلك ما تركت الرجل يستأثر به ويتسكع فيه

(١) الأغانى ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧

لا نكذب الحق فقد ظهر من الشواعر جماعة أخذن بطرف من ذلك اللغو . على أن هؤلاء لسن فى شىء من موضوع كتابنا . فهن نوازح من الجوارى جىء بهن إلى مدن العراق والشام والأندلس مما والاهن من الأقطار فتصدين لرجال العرب بما شئن من دعابة وتأنق ، فظهر كثير من السرف والتهتك على مقالهن ، حتى لقد سترن بذلك الانحسار تلك الملاحة الروحية المعنوية فى المرأة العربية ، فتضاءلت وتراجعت وقذف بها ذلك السيل الأتىّ إلى مكان سحيق ، وسنفرد القول فى ذلك فى الجزء الثالث من كتابنا إن شاء الله

وإذا كانت المرأة العربية قد استمدت وحى البلاغة وسحر البيان من صبيب قلبها وخطرات سرائرها فان الرجل لم يستمد ذلك كله إلاّ من المرأة نفسها

وهل رأيت شاعراً ممن طار شعرهم كل مطار . وسار ذكرهم كل مسار يستمد خواطر شعره ، أو يصطفى الحر السنى من معناه وخياله إلاّ من المرأة ؟

وكم قصيدة من تلك التى قيلت فى العظائم وقدمت إلى العظماء لم تكن المرأة مطلع أمرها ومنبلج فجرها ؟

نقف الآن إلى ذلك الحد من منزلة المرأة فى الأدب العربى وأنا لعائدون إليه إن شاء الله فيما نختاره لها من شئون القول وفنونه ، ونأخذ ببقية القول فى أثرها العلمى فنقول

لم تقف بالمرأة العربية قريحتها عند حد النبوغ فى التشريع الاسلامى ، والأدب العربى . فقد أخذت بنصيب موفور من النهضة التى استحدثها المسلمون عَمَّن سواهم من الأمم ذوات التاريخ الحافل والمجد القديم

وأخص ما عنين به الطب ، فهنّ فوق ما ورثته عن أمهاتهن من أسْو الجراح ، وجبر العظام ، برعن إلى غير حد فى بقية فروع الطب مما نقلوه عن اليونان

والسريان والهند ، حتى كانت بغداد وقرطبة وما سواهما من مدن العراق والأندلس مسارح للكثيرات منهن ممن خصصن بعلاج الأجسام ما ظهر منها وما بطن

ومن هؤلاء أخت الحفيد بن زهر الأندلسى وابنتها . فقد حدث صاحب طبقات الأطباء عن نفاذهن فى فروع الطب جميعاً وفى أمراض النساء خاصة وكان المنصور بن أبى عامر وارث الخلافة الأمويه بالأندلس لا يدعو لنسائه وعامة أهله غيرهما

ومنهن زينب طبيبة بنى أود وكان أخص ما برعت علاج العين بالجراحة أو أجراء العمليات الجراحية للعين[١]

وغير أولئك كثيرات وسنختصهن ببحث طويل فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

ولا يفوتنا أن نختم حديثنا بشىء مما كتبه الكاتب الفيلسوف العظيم جوستاف لوبون ، فى كتابه حضارة العرب La Civilisation des Arabes عن المرأة المسلمة وأثرها العلمى ، قال :

« أما نباهة شان المرأة وسمو مكانها فى عصور العرب الزاهية فما ينبئ عنه عدد اللواتى امتزن بنفاذهن فى العلوم والآداب من نساء العرب

ولقد نبغ منهن عدد موفور فى العهد الأموى بالاندلس والعباسى ببلاد المشرق . ولنذكر من بين أولئك « وَلاَّدَة » بنت المستكفى بالله أمير المؤمنين بالاندلس

كتب « كوند » مجملاً عمن كتب من مؤرخى العرب عن الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر قال . كان هذا الخليفة وسط ما يحيط به من بدائع « الزهراء » وعجائبها يسره أن يستمع الغناء مما كانت تصوغه جاريته وصاحبة سره « مُزْنة » من الاناشيد العذبة الرقيقة . ومن أولئك الناهضات النابهات « عائشة » إحدى

(١) طبقات الأطباء

بنات السَّراة بقرطبة . وهى التى يقول ابن حيان عنها أنها أجمل وأعقل وأعلم نساء عصرها و « صفية » وكانت من أفتن النساء بجمالها وأدراهن بفنون الشعر

ومما قال بعض المؤرخين عن الحَكَم بن الناصر « فى ذلك العهد الذى أولع فيه أهل الأندلس بالشعر وجنوا قطاف الفنون والعلوم — كان النساء فى عزلتهن يقبلن على الدرس وينصرفن اليه وأكثرهن قد امتاز بمضاء الذكاء وانفساح مدى العلم . وكان فى قصر الخليفة بين نسائه « لُبنى » تلك التى جمعت إلى جمالها الساحر إحاطتها بالنحو والشعر والرياضة وما سوى ذلك من علوم وفنون . وكانت تكتب رسائل الخليفة بأسلوب يملأ النفس روعة وخط يملأ العين جمالاً ، فهى كاتبة قصره ، ومنشئة رسائله . ولم يكن بين نساء القصر من يساميها عقلاً وفطنة ورشاقة لفظ ، وسماحة قافية ، و « فاطمة » ومَثَلُها فى رجاحة العقل وسماحة القول مَثَل لبنى . وكان شعرها كفاء نثرها وفى كليهما أمعنت حتى بلغت غاية لا تنال ، وكان العلماء والشعراء يطربون لشعرها وما فيه من أنق وإبداع . ولها مكتبة جمعت أجل الكتب وأنفسها

ومنهن « خديجة » وهى التى جمعت إلى عذوبة المنطق وروعة الشعر ، رخامة الصوت والذهاب فى فنون الغناء و « مريم » التى كانت تغدو على بنات سادات اشبيلية فتعلمهن القريض . وكان لها فى التعليم ذكر نابه وشهرة ذائعة . وقد تخرج فى مدرستها طائفة عظيمة من شهيرات النساء . و « راضية » ويدعونها الكوكب الزاهى — وهى التى وهبها الناصر لابنه الحكم . وكانت آية ذلك العصر فى الأدب والتاريخ . وقد تنقلت فى بلاد المشرق أثر موت الحكم فكانت موطن الاجلال والاكبار من العلماء جميعاً »

أما بعد : فذاك حديث النهضة العلمية الاسلامية وتلك آثار المرأة فيها ومآثرها عليها ، فهل رأيت ما رأيت فى أمة من الأمم قديمها وحديثها ؟ اللهم إنها حكمة الله ملأ بها أحناء تلك الصدور ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً .

اثارة من قولهـــا

نثار من النـــثر

١ — حفيـدة رسول الله

﴿ تفخم أهل العراق ﴾

حدث ابن أبى طاهر عن خِذَام الأسدى ، قال :

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين . وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على عليهما السلام — فرأيت نساء الكوفة قياماً يَلْتَدِمْن[١] ورأيت على بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضئيـل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟ وسمعت أم كلثوم[٢] بنت على عليهما السلام وهى تقول — فلم أر خَفِرَةً والله أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وأشارت إلى الناس أن أمْسكوا ، فسكنت الأنفاس وهدأت ، فقالت : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على جدى سيد المرسلين . أما بعد :

---

(١) التدمت المرأة ضربت صدرها حزناً ونوحاً

(٢) أم كلثوم : هى خطيبة قريش وفصيحتها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب عليه السلام . وأمها سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولدت فى أخريات العهد النبوى وتزوجها عمر فى خلافته وهى حدثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يصل نسبه وسببه برسول الله وكان رضى الله عنه قد كلم علياً عليه السلام فى أمرها فقال على انما حبست بناتى على بنى جعفر فقال عمر زوجنيها يا على فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد فقال على قد فعلت ثم غدا على بيته وأمر ببرد فطواه وقال لأم كلثوم انطلق بهذا إلى أمير المؤمنين فقولى له أرسلنى أبى يقرئك السلام ويقول إن رضيت البرد فأمسكه وان سخطته فرده فلما أتت عمر قال بارك الله فيك وفى أبيك قد رضينا قالوا فرجعت إلى أبيها فقالت ما نشر البرد ولا نظر الا الىّ فزوجها إياه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيداً ورقية ثم خلفته على ابن عمها عوف بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها ثم أعقبته على أخيه محمد بن جعفر فمات عنها فخلفته على أخيه عبد الله بن جعفر — بعد أن ماتت عنه أختها زينب — فماتت عنده . وكان موتها هى وابنها زيد فى يوم واحد . رضى الله عنهما

يا أهل الكوفة ! يا أهل الخَتْر[١] والخَذْل ، لا ، فلا رَقَأت العَبْرَة ، ولا هدأت الرّنّة . انما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم . ألا وهل فيكم إلّا الصَّلَفُ والشَّنَفُ[٢] ومَلَق الإماء ، وغمز الأعداء . وهل أنتم إلّا كمرعًى على دِمْنَة[٣] ؟ وكفضة على ملحودة[٤] ؟ ألا ساء ما قدَّمَتْ أنفُسُكُمْ أنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْكم وفى العذاب أنتم خالدون . أتبكون ! ! إى وَاللهِ فأبكوا ! وانكم والله أحْرِياء بالبكاء . فأبكوا كثيراً ، واضحكوا قليلًا ، فلقد فزتم بعارها وشَنارها ، ولن تَرْحَضُوهَا بغسل بعدها أبداً[٥] وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، ومنار مَحجتكم ، ومِدْرَهِ حُجَّتِكم[٦] ، ومُفْرِخ نازلتكم ، فتعساً ونكساً ! لقد خاب السعى ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، لقد جئتم شيئاً إدّا ، تكاد السموات يَتَفَطَّرْنَ منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا . أتدرون أىّ كبد لرسول الله فريتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ لقد جئتم بها شوهاء خرقاء ، شَرْهاء طَلّاعة الأرض والسماء . أفعجبتم أن قطرت السماء دماً ! ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفنكم المهل ، فإنه لا تَحْفزه المبادرة[٧] ولا يخاف عليه فوت الثار . كلاّ إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد ؛ ثم ولت عنهم . قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم إلى أفواههم . ورأيت شيخاً كبيراً من بنى جُعْفِىّ ، وقد أخضلت لحيته من دموع عينيه ، وهو يقول :

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا عد نسل لا يبور ولا يخزى[٨]

---

(١) الختر الغدر والخديعة (٢) الصلف الكبر والخيلاء والشنف التنكر عمن تعرفه

(٣) الدمنة أثر الديار أو فضلاتها ينبت عليها مرعى أنيق الشكل مر المذاق وقد شبهوا بها كل شىء مموه لاخير فيه (٤) الملحودة القبر ومثل الفضة على الملحودة كمثل مرعى الدمن وهما جميعاً مثل الرجل المنافق

(٥) رحض الثوب غسله (٦) المدره المقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال

(٧) حفزه أعجله وأزعجه (٨) بلاغات النساء ج ٢٧ — ٢٩

(٢)

بين الوفاء للرأى والمضاء فيه

صواحب على فى مجلس معاوية[١]

﴿ سودة بنت عمارة ﴾

استأذنت سودة بنت عِمارة بن الأسَكّ الهَمْدانية على معاوية بن أبى سفيان فأذن لها . فلما دخلت عليه قال هيه يا بنت الأسَكّ ! ألست القائلة يوم صفين ؟

شَمِّر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليًا والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
ان الإمام أخو النبى محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان
فقِهِ الخنوف وسر أمام لوائه ... قُدُماً بأبيض صارم وسنان

قالت إى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فما حملك على ذلك ؟ قالت حب على عليه السلام ، واتباع الحق ، قال فوالله ما أرى عليك من أثر على شيئاً ، قالت أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكار ما قد نسى ! قال هيهات ! ما مثل مقام أخيك يُنسى وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وقوم أخيك . قالت صدق فوك ! لم يكن أخى ذميم المقام ، ولا خفى المكان ، كان والله كقول الخنساء :

وان صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

قال صدقت لقد كان ذلك فقالت مات الرأس ، وبُتر الذنب . وبالله أسأل أمير المؤمنين أعفانى مما استعفيت منه . قال قد فعلت . فما حاجتك ؟ قالت : إنك أصبحت للناس سيداً ، ولأمرهم متقلداً ، والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك

(١) فصلت وقادة أولئك النساء فى طائفة من كتب الادب منها بلاغات النساء والعقد الفريد وأشباهها

من حقنا ، ولا يزال يقدم علينا من يبوء بعزك ، ويبطش بسلطانك ، فيحصدنا حصد السنبل ، ويدوسنا دوس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة ، هذا بُسر بن أَرْطاة قدم علينا من قبلك ، فقتل رجالى ، وأخذ مالى ، يقول لى : فوهى بما أستعصم الله منه وألجأ إليه فيه[1] ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما عزلته عنا فشكرناك ، وأما لا فعرّفناك . فقال معاوية أتهددينى بقومك ؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس فأردك اليه ينفذ فيك حكمه . فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صلى الاله على جسم تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به بدلاً ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال لها ومن ذلك ؟ قالت على بن أبى طالب عليه السلام . قال وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟ قالت قدمت عليه فى رجل ولاه صدقتنا ، قدم علينا من قِبَله ، فكان بينى وبينه ما بين الغث والسمين ، فأتيت علياً عليه السلام لأشكو اليه ما صنع بنا ، فوجدته قائماً يصلى ، فلما نظر إلىّ انفتل من صلاته ثم قال لى برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته الخبر ، فبكى ، ثم قال : اللهم أنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، انى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك . ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجواب فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ

إذا قرأت كتابى فاحتفظ بما فى يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام . فأخذته منه والله ما ختمه بطين ، ولا خزمه بخزام ، فقرأته . فقال لها

(١) تريد بذلك أن يأمرها بسب على للزراية بأبنائه وشيعته

معاوية : لقد لمَّظكم ابن أبى طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئاً ما تُعَظّمون ، ثم قال : اكتبوا لها برد مالها والعدل عليها ، قالت : أَلىَ خاصة ، أم لقومى عامة ؟ قال : ما أنت وقومك ؟ قالت هى والله إذن الفحشاء واللؤم ! إن لم يكن عدلاً شاملاً وإلاّ والله فأنا كسائر قومى . قال : اكتبوا لها ولقومها

﴿ أم الخير بنت الحريش البارِقيَّة ﴾

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة : أن أوفد علىَّ أم الخير بنت الحريش بن سُرَاقة البارقية ، رحلة محمودة الصحبة ، غير مذمومة العاقبة ، واعلم انى مجازيك بقولها فيك ، بالخير خيراً ، وبالشر شراً . فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها فأقرأها إياه ، فقالت أما أنا فغير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب . ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى ، تجرى مجرى النَّفَس يغلى بها غلى المرجل بحب البُلْسُنِ[1] يوقد بِجذْل السَّمُرِ[2] . فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، أن معاوية قد ضمن لى عليه أن يقبل بقولك فىَّ ، بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فانظرى كيف تكونين ؟ قالت : يا هذا لا يُطمعْك والله برك بى فى تزويق الباطل ، ولا تؤيسك معرفتك إياى أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير . فلما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثا ، ثم أذن فى اليوم الرابع وجمع لها الناس ، فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتنى بهذا الاسم ! فقالت مه يا هذا ! فان بديهة السلطان مُدْحِضَة لما يجب علمه[3] . فقال صدقت يا خالة وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزلْ فى عافية وسلامة حتى أُوفِدْت الى مُلك جَزْل وعطاء

(١) البلسن العدس (٢) الجذل أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع والسمر شجر من أشجار البادية
(٣) البديهة المفاجأة ومدحضة مبطلة

بَذل . فأنا فى عيش أنيق ، عند ملك رفيق . فقال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه يا هذا ! لك والله من دحض المقال ما تُرْدى عاقبته قال ليس لهذا أردناك . قالت : إنما أُجرى فى ميدانك ، إذا أجريت شيئاً أجريته فاسأل عما بدا لك . قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمَّارُ بنُ يَاسِر ؟ قالت : لم أكن والله رَوَّيته قبل ، ولا زَوَّرْته بعد[١] وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة . فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت . قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد ، قال هاتِه ! قال نعم ، كأنى بها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها بُرْد زَبِيدِىّ كثيف الحاشية ، وهى على جمل أرمك[٢] وقد أحيط حولها حَوَاء[٣] وبيدها سوْط مُنتشِرُ الضَّفْر ، وهى كالفحل يَهْدِرْ فى شِقْشِقَتِهِ[٤] تقول : يا أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عظيم ، ان الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العَلَم ، فلم يَدَعكم فى عمياء مُبهمة ، ولا سوداء مُدْلَهِمَّة ، فالى أين تريدن رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ؟ أم فراراً من المؤمنين ؟ أم فرار من الزحف؟ أم رغبة عن الاسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِين مِنْكُم والصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عيلَ الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، و بيدك يا رب أزِمَّةُ القلوب . فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى . واردد الحق إلى أهله . هاموا رحمكم الله إلى الامام العادل ، والوصى[٥] الوفى ، والصِّدِّيق الأكبر

(١) رويت فى الأمر فكرت فيه وزورت الكلام زينته (٢) الارمك الرمادى
(٣) الحواء ما يتخذ كالوسادة على الرحل (٤) الشقشقة شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه اذا هاج
(٥) انما سمى علىّ عليه السلام بالوصى لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له « أنت منى بمنزلة هرون من موسى الا أنه لا نبى بعدى » فهو بذلك كقول الشيعة — قد أوصاه بالمسلمين واستخلفه عليهم

أنها إحَنٌ بَدْرية[١] وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحُدِية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس. ثم قالت: قَاتِلوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُون. صبراً معشر الأنصار والمهاجرين. قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم. وكأنى بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كَحُمُرٍ مستنفرة لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى، عما قليل لَيُصْبِحُنَّ نادمين، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الاقالة. انه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار أيها الناس! ان الاكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته، خلق من طينته، وتفرع من نَبْعَتِهِ، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، وعَلَم المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين[٢] فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعونته، ويمضى على سَنَنَ استقامته لا يعرج لراحته الدَّأب. ها هو مفلق الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر، وأفنى أهل أُحُد، وفرق جمع هوازن[٣] فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً، وردّة وشقاقاً. قد اجتهدت فى القول، وبالغت فى النصيحة، وبالله التوفيق وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى! والله لو قتلتك

---

(١) الأحن جمع أحنة — الاحقاد — وبدرية نسبة الى بدر وهى أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بأثارته الحرب على علىّ انما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر (٢) تشير بذلك الى قولى رسول الله فيه « لا يحبه الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق » (٣) تريد بذلك يوم حنين

ما حَرِجْتُ فى ذلك . قالت والله ما يسوءنى يا ابن هند أن يجرى الله ذلك على يَدَىْ من يسعدنى الله بشقائه . قال هيهات يا كثيرة الفضول : ما تقولين فى عثمان ابن عفان ؟ قالت وما عسيت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . فقال معاوية إيهاً يا أم الخير ! هذا والله أصلك الذى تبنين عليه[1] قالت لكن الله يشهد بمـــا أنزل اليك أنزَلَهُ بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسباقاً إلى الخيرات ، وانه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله[2] قالت وما عسى أن أقول فى طلحة ؟ اغتِيل فى مأمنه ، وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال فما تقولين فى الزبير[3] قالت يا هذا لا تدعنى كرجيع الصبيغ يُعْرَكُ فى الْمِرْكن[4] قال حقاً لتقولِنَّ ذلك وقد عزمت عليك . قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوارِيِّهِ[5] ، وقد شهد له رسول الله الجنة . ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة فى الاسلام ، وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فان قريشاً تحدث أنك أحلمها ، وأسألك بأن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تعفينى من هذه المسائل ، وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم وكرامة . قد أعفيتك ، وردها مكرمة إلى بلدها .

---

(١) يريد أن سوء رأيها فى عثمان هو الذى دفعها إلى مناصرة على (٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والأبطال المعلمين وعاشر عشرة بشرهم رسول الله بالجنة وسادس ستة اختارهم عمر رضى الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده وأول صحابى بايع علياً عليه السلام ثم استحال رأيه فخرج عليه وانضم إلى جند عائشة رضى الله عنه يوم الجمل وهنالك أصيب بسهم أودى به رضى الله عنه (٣) كان أمر الزبير حيال على شبيهاً بأمر طلحة وكان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة فأرسل اليه على يذكره بقول رسول الله له « لتقاتلنه — يريد تقاتل علياً — وأنت ظالم له » فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعودا الى الحق فلما انتهى الى واد يقال له وادى السباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز

(٤) الصبيغ الثوب المصبوغ والعرك الدلك والحك والمركن الآنية أى لا تتركنى كالثوب المصبوغ يدلك فيغير الماء (٥) حوارى الرجل صفوته من الناس

﴿ الزرقاء بنت عدى ﴾

سهر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس — امرأة كانت من أهل الكوفة ، وكانت ممن يعين علياً عليه السلام يوم صفين . فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقاء ؟ فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين : قال فما تشيرون علىّ فيها ؟ قالوا نشير عليك بقتلها ، قال بئس ما أشرتم علىّ به ! أيحسن بمثلى أن يتحدث الناس أنى قتلت امرأة بعد ما ملكت وصار الأمر لى ؟ ثم دعا كاتبه فى الليل فكتب إلى عامله فى الكوفة أن أوفد إلىّ الزرقاء ابنة عدى فى ثقة من محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدها وطاء لينا ، واسترها بستر حصيف[1] فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طائعة . وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إلىّ لم أرِم[2] من بلدى هذا ، وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بى ، فحملها فى هودج وجعل غشاءه حبراً مبطناً بعصب اليمن ، ثم أحسن صحبتها . فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلاً خير مقدم قدم وافد . كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت خير مسير ، كأنى كنت ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً . قال بذلك أمرتهم فهل تعلمين لِمَ بعثت إليك ؟ قالت سبحان الله أنّى لِى بعلم ما لم أعلم ؟ وهل يعلم ما فى القلوب إلاّ الله ؟ قال بعثت إليك أن أسألك : ألست راكبة الجمل الاحمر يوم صِفّين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين أنه قد مات الرأس وبُتِرَ الذنب ، والدهر ذو غِيَرَ ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر . قال لها صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت . ما أحفظه . قال ولكنى والله أحفظه ! لله أبوك . لقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! أنكم فى فتنة غشتكم جلابيبَ الظلم ، وجارت

(١) الوطاء الفراش اللين والحصيف المحكم النسج (٢) لم أرم أى لم أتحرك

بكم عن قصد المحجة . فيا لها من فتنة عمياء صماء ، يسمع لقائلها ولا ينظر لسائقها أيها الناس ! أن المصباح لا يضىء فى الشمس ، وان الكوكب لا ينفذ فى الفجر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإن الزَّفَّ[1] لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلاّ الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها. فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ؛ فكأنْ قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنّى ؟ لِيَقْضِىَ الله أمراً كان مفعولاً . ألا إنَّ خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، «والصبر خير فى الأمور عواقباً» . إيهاً إلى الحرب قُدُماً غير ناكصين . فهذا يوم له ما بعده . ثم قال معاوية والله يا زرقاء لقد شركت علياً عليه السلام فى كل دم سفكه . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك . مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه . قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت نعم لقد سرنى قولك فأنّى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إلىَّ من حبكم له فى حياته . أذكرى حاجتك. قالت يا أمير المؤمنين انى قد آليت على نفسى ألاّ أسأل أميراً أعَنْتُ عليه شيئاً أبداً . ومثلك أعطى عن غير مسألة . وجاد عن غير طلب . قال صدقت . فاقطعها ضيعة أغَلّتْها فى أول سنة عشرة آلاف درهم . وأحسن صفدها ، وردها والذين معها مكرمين .

﴿ بكارة الهلاليـــة ﴾

استأذنت بكارة الهلاليـة على معاوية فأذن لها ، فدخلت ، وكانت امرأة قد أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها . فهى ترعش بين خادمين لها ، فسلمت ثم جلست ، فقال معاوية كيف أنت يا خالة ! قالت بخير يا أمير المومنين . قال غيَّرك

(١) الزف صغير الجص

الدهر . قالت كذلك هو ذو غِيَر ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . وكان هنالك مروان بن الحكم وعمرو بن العاص فابتدأ مروان فقال ألا تعرف هذه يا أمير المؤمنين؟ قال ومن هى ؟ قال هى التى كانت تعين علينا يوم صفين وهى القائلة :

يا زيد دونك فاستتر من دارنا سيفاً حساماً فى التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عظيمة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص : وهى القائلة يا أمير المؤمنين

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيهات ذاك وما أراد بعيد
مَنَّتْك نفسك فى الخلاء ضلالة اغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بِأنكد طائر بنحوسها لاقت علياً أسعد وسعود

فقال سعيد يا أمير المؤمنين وهى القائلة

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخـر مدتى فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحمد عائبا

ثم سكت القوم ، فقالت بكارة نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى ، فقصر مِحْجَنِى[1] وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين ، فقال معاوية أنه لا يضعك شىء . فاذكرى حاجتك تقض . فقضى حوائجها وردها الى بلدها

(١) اعتورتنى أى تناوبتنى من كل جانب والمحجن العصا

﴿ عِكْرِشَةُ بنت الأُطْرُوش ﴾

حدث ابن أبى طاهر عن الشافعى ، قال :

دخلت عكرشة بنت الأطروش على معاوية وبيدها عكاز فى أسفله زجٌ[1] مسق ، فسلمت عليه بالخلافة وجلست ؛ فقال لها معاوية يا عكرشة ! الآن صرت أمير المؤمنين ! قالت نعم إذ لا علىٌ حى . قال ألست صاحبة الكور[2] المسدول والوسط المشدود ، والمتقلدة بحمائل السيف ، وأنت واقفة بين الصَّفين يوم صِفِّين تقولين « يأيها الناس عليكم أنفُسَكمْ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . ان الجنة دار لا يرحل عنها من قطنها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . كونوا قوماً مستبصرين . ان معاوية دَافَ اليكم بِعُجْم العرب ، غُلْفِ القلوب[3] لا يفقهون الايمان ، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم الى الباطل فلبَّوْه . فاللهَ اللهَ عباد الله فى دين الله ! واياكم والتواكل فان فى ذلك نقض عروة الاسلام ، وأطفاء نور الايمان ، وذهاب السُّنَّة ، واظهار الباطل . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . قاتلوا يا معشر الأنصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كالحمر النهاقة والبغال الشَّحَّاجة ، تَضْفَعُ[4] ضَفْعَ البقر ، وتَرُوث روث العَنَاق ثم قال معاوية : فوالله لولا قدر الله وما أحب أن يجعل لنا هذا الأمر لقد انكفأ على العسكران . فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ان اللبيب اذا كره أمراً لم يحب اعادته . قال صدقت ، اذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين ان الله قد رد صدقاتنا علينا ، ورد أموالنا فينا الا بحقها . وانا قد فقدنا ذلك فما يُنْعَش لنا

---

(١) الزج الحديدة فى أسفل الرمح أو نحوه ويطعن به (٢) الكور الرحل

(٣) غلف جمع أغلف والقلب الأغلف الذى كأنما غشى غلافاً فهو لا يعى (٤) تضفع أى تضرط

فقير ، ولا يجبر لنا كسير فان كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين . قال معاوية : يا هذه انه تنوبنا أمور هى أولى بنا منكم ، من بحور تنبثق وثغور تنفتق . قالت : يا سبحان الله ! ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علام الغيوب . قال معاوية هيهات يا أهل العراق فقهكم ابن أبى طالب فلن تطاقوا . ثم أمر لها برد صدقتها وانصافها وردها مكرمة .

﴿ جروة بنت غالب ﴾

احتجم معاوية بمكة ، فلما أمسى أرق أرقاً شديداً ، فأرسل إلى جروة بنت غالب التميمية — وكانت مجاورة لمكة ، وهى من بنى أسيد بن عمرو بن تميم ، فلما دخلت قال لها مرحباً يا جروة ، أرعناك ! قالت : إى والله يا أمير المؤمنين ، لقد طرقت فى ساعة لا يطرق فيها الطير فى وكره ، فارعت قلبى ، وريع صبيانى ، وأفزعت عشيرتى ، وتركت بعضهم يموج فى بعض ، يراجعون القول ويديرون الكلام خشية منك وشفقة على . فقال لها ليسكن روعك ، ولتطب نفسك ، فان الأمر على خلاف ما ظننت . انى احتجمت فاعقبنى ذلك أرقاً ، فارسلت اليك تخبرينى عن قومك .

قالت : عن أى قومى تسألنى ؟ قال عن بنى تميم . قالت يا أمير المؤمنين هم أكثر الناس عدداً ، وأوسعه بلداً ، وأبعده أمداً . هم الذهب الأحمر ، والحسب الأفخر . قال فَنَزِّ ليهم لى[1] قالت : يا أمير المؤمنين أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة ، لا يتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء ، سلمهم فيهم ، وسيفهم على عدوهم . قال صدقت ، ونعم القول لأنفسهم . قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة ففى العدد الأكثرون ، وفى النسب الأطيبون ، يضرون ان غضبوا

(١) يريد وضعنى كل عشيرة فى موضعها

ويدركون ان طلبوا ، أصحاب سيوف وحَجَف[١] ونزال وزَلَف[٢] ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم . وأما حنظلة فالبيت الرفيع ، والحسب البديع ، والعز المنيع ، المكرمون للجار ، والطالبون بالثار ، والناقضون للأوتار . قال ان حنظلة شجرة تفرع ، قالت : صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتمعة ، وكف ممتنعة . وأما طُهَيَّة فقوم هُوج وقِرْنٌ لَجوج . وأما بنو ربيعة فصخرة صماء ، وحية رقشاء[٣] يغزون لغيرهم ، ويفخرون بقومهم ، وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ، وأسود الصباح ، يعتنقون الأقران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع غير مفلول . وعز غير مجهول ، ليوث هرَّارة[٤] ، وخيول كرارة ، وأما بنو دارم ، فكرم لا يدانى ، وشرف لا يسامى ، وعز لا يوازى ، قال أنت أعلم الناس بتميم . فكيف ، علمك بقيس ؟ قالت كعلمى بنفسى . قال فخبرينى عنهم ، قالت : أما غطفان ، فأكثر سادة ، امنع قادة . وأما فزارة ، فبيتها المشهور ، وحسبها المذكور . وأما ذبيان ، فخطباء شعراء ، أعزة أقوياء . وأما عبس ، فجمرة لا تطفا ، وعقبة لا تعلى ، وحية لا ترقى[٥] وأما هوازن ، فحلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما سُليم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم . وأما نمير ، فشوكة مسمومة ، وهامة مذمومة ، وراية ملمومة ، وأما هلال ، فاسم فخم ، وعز ضخم ، وأما بنو كلاب ، فعدد كثير ، وفخر أثير . قال لله أنت ! فما قولك فى قريش قالت يا أمير المؤمنين هم ذروة السَّنام ، وسادة الأنام ، والحسب القَمقام قال فما قولك فى على — عليه السلام — قالت حاز والله فى الشرف حداً لا يوصف ؛ وغاية لا تعرف ، وبالله أسأل أمير المؤمنين اعفائى مما أتخوف . قال قد فعلت ، وأمر لها بضيعة غلتها عشرة آلاف درهم .

---

(١) الحجف — جمع حجفة — الترس من جلد بلا خشب (٢) الزلف الاقدام (٣) الحية الرقشاء المنقطة بسواد وبياض (٤) هر الاسد زأر (٥) لا ترقى لا تنفع فيها الرقية

﴿ الكلمات الخالدة ﴾

لما قُتل المفضل بن المهلب دخل ثابت قُطنةَ العَتَكى[١] على هند بنت المهلب ، والناس حولها جلوس يعزونها فأنشدها :

يا هند كيف بنُصب بات يبكينى ... وعائر فى سواد الليل يؤذينى[٢]
لما حنى الدهر من قوسى وعذرنى ... قاسيت منه أَمَرّ الغلظ واللين[٤]
إذا ذكرت أبا غسان أرقنى ... هم إذا عرس السارون يشجينى[٥]
كان المفضل عزاً فى ذرايمن ... وعصمة وثمالا فى المساكين
ما زلت بعدك فى هم تجيش به ... نفسى وفى نَصَب قد كان يَسلينى
انى تذكرت قَتلىَ لو شهدتم ... فى حومة الموت لم يصلوا بها دونى
لا خير فى العيش إن لم أجن بعدهم ... حربا تنىء بهم قتلى فيشفونى

فقالت له هند ! اجلس يا ثابت ، فقد قضيت الحق ، وما من المَرْزِئَةِ[٦] بدّ ، وكم من ميتة ميت أشرف من حياة حى ، وليست المصيبة فى قتل من استُشْهد ذاباً عن دينه ، مطيعاً لربه ، وإنما المصيبة فيمن قلت بصيرته ، وخمل ذكره بعد موته ، وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملا[٧]

---

(١) ثابت قطنة ! هو ثابت بن كعب العتكى الشاعر الكاتب البطل الكريم . وانما لقب بقطنة لأن سهماً أصابه فى احدى عينيه فذهب بها فى بعض حروب الترك فكان يغشيها بقطنة . وكان فى صحابة يزيد بن المهلب وكان يوليه بعض الثغور فيحمد فيها لكتابته وشجاعته

أما هند فابنة المهلب بن أبى صفرة أعظم نساء عصرها نفساً وأذكاهن قلباً وأشجعهن أباً . زوجت من الحجاج بن يوسف وكانت أكرم أزواجه عليه وأحبهن اليه

(٢) النصب الداء أو البلاء — والعائر كل ما أعل العين أو هو الرمد أو القذى يصيب العين

(٣) يريد بهجود الاصداء سكون الاصوات والسليم اللديغ (٤) عذر الدار طمس آثارها ومنه استعار سوء حاله وأدبار الدهر به (٥) أبو غسان كنية المفضل والسارون السائرون ليلا وعرسوا نزلوا فى آخر الليل (٦) المرزئة المصيبة (٧) الاغانى ج ١٣ طبع الساسى

﴿ قوة الحجة وحسن البيان ﴾

كانت أم جعفر بن يحيى — وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قَحْطبَة — أرضعت الرشيد مع جعفر، لأنه كان رَبى فى حَجْرها، وغَذِىَ برِسْلها، لأن أمه ماتت عن مهده، فكان الرشيد يشاورها مظهرا لاكرامها، والتبرك برأيها. وكان آلى وهو فى كفالتها أن لا يحجبها، ولا استشفعته لأحد الا شَفَّعها، وآلت أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذونا لها، ولا شفعت لأحد مقترف ذنبا. قال سهل ابن هرون: فكم أسير فكت، ومهم عنده فرجت، ومستغلق فتحت.

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر، وقذف بزوجها وبقية أسرتها فى غياهب السجن بعد ايقاعه بالبرامكة — طلبت الاذن عليه فى دار البانوقة، ومتَّت بوسائلها اليه، فلم يأذن لها، ولا أمر بشىء فيها. فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها، محتفية[1] فى مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال: ظِئْر[2] أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك، أوَ ساعية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، حافية! قال: أدخلها يا عبد الملك، فرب كَبِدٍ غذتها، وكُرْبة فرجتها، وعورة سترتها، قال سهل: فما شككت يومئذ فى النجاة بِطِلاَبها، واسعافها بحاجتها، فدخلت؟ فلما نظر الرشيد اليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس، وأكب على تقبيل رأسها، ومواضع ثدييها، ثم أجلسها معه فقالت: يا أمير المؤمنين! أيعدو علينا الزمان، ويجفونا خوفا لك الأعوان، ويحردك بنا البهتان[3] وقد ربيتك فى حجرى، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى؟ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قال سهل:

(١) محتفية أى حافية (٢) الظئر العاطفة على ولد غيرها المرضعة له (٣) الحرد الغضب والبهتان الزور

فآيسنى من رأفته تركه لكنيتها آخراً ما أطمعنى من بره بها أولا[١] قالت : ظِئْرُك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته ، وأشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف فى شأن موسى أخيه[٢] قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق ، وقضاء حُمّ ، وغضب من الله نفذ . قالت : يا أمير المؤمنين يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ . قال : صدقت ! فهذا مما لم يمحه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد مليا ثم قال :

وإذا المنيـة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمـة لا تنفع

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . فأطرق هارون مليًّا ، ثم قال يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تُقْبِـلُ

فقالت يا أمير المؤمنين وأنا أقول :

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أى كف تَبَدَّل

قال هرون : رضيت . قالت فهبه لى ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقده . فأكب هرون مليًا ، ثم رفع رأسه يقول : لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . قالت يا أمير المؤمنين : وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . واذكر يا أمير المؤمنين أليتك ما استشفعت إلا شفعتنى . قال : واذكرى يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت

(١) يريد أن تركه نداءها بأم جعفر آيسه مما طمع فيه من العفو عن آلها (٢) راجع رواية «الهادى» للمؤلف

لمقترف ذنباً . قال سهل : فلما رأته صرح بمنعها ، ولاذ عن طلبها ، أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعته بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه فدغمست جميع ذلك فى المسك . فقالت : يا أمير المؤمنين أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيي عبدك . فأخذ هارون ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيي وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها : لَحَسَنٌ ما حفظت الوديعة ، قالت : وأهل المكافأة أنت . فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها . وقال : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا . قالت : والله يقول : وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . ويقول : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ . ثم قال وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لى به أن لا تحجبنى ولا تمهنني . قال : يا أم الرشيد أتشريه مُحَكَّمَةً فيه ؟ قالت : أنصفت ، وقد فعلت غير مستقيلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لا يُسْخِطك . قال : يا أم الرشيد أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ قالت : بلى ! أنت أعز عَلَيّ ، وهم أحب إلىّ . قال : فتحكمى فى ثمنه بغيرهم . قالت : بلى قد وهبتكه وجعلتك فى حل منه وقامت عنه ، وبقى مبهوتاً ما يحير لفظة . قال سهل : وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عَبرة ، ولا سمعت لها أنَّة[1] .

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨ — ٢٩

﴿ بين القبور ﴾

(١)

لما توفى أبو بكر رضى الله عنه قامت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها على قبره ، فقالت :

نَضَّر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مُذلًا بأدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بأقبالك عليها ، وان كان لَأَجَلُّ الأرزاء بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رُزْؤُك ، وأكثر المصائب فقدك ، وان كتاب الله ليعد بجميل العزاء فيك ، وحسن العوض منك . فأتَنَجَّزُ من الله موعده فيك ، بالصبر عنك ، واستخلصه بالاستغفار لك[١] .

(٢)

توفى الأحنف فى دار عبد الله بن أبى العُصَيْفِير بالكوفة ، وكان مُصْعَب بن الزُّبير إذ ذاك أميراً على الكوفة من قِبَل أخيه عبد الله بن الزبير ، فشيع مصعب جنازة الأحنف ، فخرج مُتَسَلِّباً[٢] فى قميص بغير رداء — وكانت الأمراء تفعل ذلك بالسيد إذا مات — فلما دفن الأحنف أقبلت صَفِيَّة بنت هشام المِنْقرِيَّة على نجيب[٣] لها متخصرة[٤] وكانت بنت عم الاحنف — حتى وقفت على قبره فقالت :

لله دَرُّك من مُجَنٍّ فى جَنن[٥] ومدرج فى كفن . إنا لله وإنا إليه راجعون . جعل الله سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك . أما والذى أسأله أن يفسح لك فى مدخلك ، وأن يبارك لك فى محشرك ، ووالذى كنت من أجله فى عدّة ، ومن كتابه فى مدة ، ومن الأثرة إلى نهاية ، ومن المضمار إلى غاية ، لقد كنت صحيح

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦٧ (٢) تسلب لبث ثياب الحداد (٣) النجيب البعير أو الفرس الكريم العتيق (٤) متخصرة واضعة يدها فى خاصرتها (٥) مجن مدفون والجنن القبر

الأديم ، منيع[١] الحريم ، عظيم السلم ، فاضل الحلم ، وارى الزّناد ، رفيع العماد ، وان كنت لمُسَوَّدا ، وإلى الملوك لموفدا ، وفى المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل عطوفاً وكانت الملوك لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين ، ولقد عشت حميداً ودوداً ، ومت شهيداً فقيداً .

ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت عباد الله : أن أولياء الله فى بلاده ، شُهود على عباده ، وانا لقائلون حقاً ، ومثنون صدقاً ، وهو أهل لطيب الثناء . فَعليه رحمة الله وبركاته . وما مَثَلُهُ فى الناس الا كما قال الشاعر فى قيس بن عاصم .

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمتـه ما شاء أن يترحما
سلام امرئ أودعته منك نعمة اذا زار عن شحط بلادك سَلَّما
فما كان قيس هلـكه هلك واحد ولـكنه بنيـــان قوم تهدما

قال فتعجب الناس من كلامها وقال فصحاؤهم تالله ما رأيا كاليوم قط ، ولا سمعنا أفصح ولا أبلغ من هذه . قال فبعث اليها مصعب بن الزبير فخطبها على نفسه فأبت عليه . فما زال يتعهدها ببره حتى قتل[٢] .

(٣)

حدث الأصمعى قال :

دَفَعْتُ يوماً فى تَلمُّسى بالبادية إلى وادٍ خَلاءٍ لا أنيس به إلا بَيتٌ مُعْتَزِلٌ[٣] بفنائه أَعْنُزٌ ، وقد ظَمِئْتُ ، فيمَّمته ، فسلَّمت ، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخِمٍ[٤] فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو لَبَنَ ؟ فقلت ما كانت بغْيتى إلا الماء فاذا يسر اللهُ اللبن فانى إليه فقير .

(١) تريد بالاديم العرض (٢) بلاغات النساء ص ٥٥ — ٥٦ (٣) المعتزل المنفرد
(٤) الراخم التى تحضن بيضها

فقامت الى قَعب[١] فأفرغت فيه ماء ، ونظفت غسله ، ثم جاءت الى الأَعْنزْ فَتَغبَّرتهنْ[٢] حتى احتلبت قُرَابَ مِلْءِ القَعْبِ ، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا[٣] وطفت ثُمالته[٤] كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تَحَبَّبْتُ[٥] رِيًّا واطمأننت ، فقلت إنى أراك معتزة فى هذا الوادى الموحش والحلَّة[٦] منكِ قريب! فلو انضممت إلى جَنابهم[٧] ، فأنست بهم ؟

فقالت يا ابن أخى : انى لآنس بالوَحشة ، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمئن قلبي إلى هـذا الوادى الموحِشِ فأتَذَكَّر مَنْ عهدت ، فكأنى أخاطب أعيانهم ، وأتراءى أشباحهم ، وتتَخَيَّل لى أندية رجالهم ، وملاعب وُلدانهـم ، ومُندَّى[٨] أموالهم ، والله يا ابنَ أخى لقد رأيت هذا الوادى بَشع اللَّدِيدين[٩] بأهل أدواح[١٠] وقباب ، ونَعَمٍ كالهضاب ، وخيل كالذِّئاب ، وفتيان كالرماح يبارون الرياح ، ويحمون الصَّباح ، فأحال عليهم الجلاءُ قَمًّا[١١] بغرفة ، فأصبحت الآثار دارسة ، والمحالُّ طامسة . كذلك سيرة الدهر فيمن وثق به . ثم قالت : ارم بعينك فى هذا الملا المتباطن[١٢] فنظرت ، فاذا قبور نحو أربعين أوخمسين ؛ فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما انطوت إلا على أخ ، أو ابن أخ ، أو عم ، أو ابن عم ، فأصبحوا قد الْمَأَت[١٣] عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غالهم . انصرف راشداً رحمك الله[١٤]

---

(١) القعب قدح فوق الصغر ويشبه الحافر فى هيئته (٢) تغبرتهن احتلبت الغبر — بضم الغين وسكون الباء — وهى بقية اللبن فى الضرع (٣) رغا علت رغوته (٤) الثمالة الرغوة
(٥) تحببت أى امتلأت (٦) الحلال جماعات لناس وواحدها حلة (٧) الجناب فناء الدار
(٨) المندى المـكان الذى يندى فيه المال أى يجمع (٩) بشع ملان واللديدان الجانبان
(١٠) الادواح جمع دوحة والدوحة الشجرة العظيمة (١١) قما أى كفسا (١٢) الملا الفضاء والمتباطن المتطامن (١٣) المأت عليهم احتوت عليهم (١٤) أمالى القالى ج ٢ ص ٧ طبع بولاق

﴿ بين الرجاء والدعاء ﴾

(١)

وقفت امرأة من هوازن على عبد الرحمن بن أبى بكرة فقالت : أصلحك الله ، أقبلت من أرض شاسعة ، ترفعنى رافعة ، وتخفضنى خافضة[١] بِمُلِحَّاتٍ[٢] من البلاد وملمَّات من الدهور ، برين عظمى ، وأذهبن لحمى ، وتركننى والهًا . وانزلننى إلى الحضيض ، وقد ضاق بى البلد العريض ، لا عشيرة تحمينى ، ولا حميم يكنفنى ، فسألت فى أحياء العرب مَنِ المرجو سيبه ، المأمون غيبه ، المكنى سائله ، الكريمة شمائله ، المأمول نائله ، فأرشدت إليك . وأنا امرأة من هوازن ، مات الوافد ، وغاب الرَّافد[٣] ومثلك من سد الخَلة[٤] وفك الغلَّة ، فاصنع إحدى ثلاث . إما أن تقيم من أوَدِى[٥] أو تحسن صَفَدى[٦] أو تردنى إلى بلدى . قال : أجمعهن لك وحُبًّا .

(٢)

خرج المهدى يطوف بعد هدأة من الليل ، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهى تقول : قوم مبطلون ، نَبت عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وعَضَّتهم السِّنون . بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق[٧] وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم . فهل من امرىء يجبرهم ؟ كلأه الله فى سفره ، وخلفه فى أهله

فأمر نضيرا الخادم فدفع اليها خمسمائة درهم

---

(١) تريد بالرافعة المرتفع من الأرض وبالخافضة الوهاد منها (٢) يريد بالملحات الشديدة الضيق
(٣) الراقد المعطى (٤) الخلة الحاجة والفقر (٥) أصل الأود العوج وتريد به هنا الحاجة
(٦) الصفد العطاء (٧) النضو المهزول وجمعه أنضاء

(٣)

لما قدم ابراهيم بن محمد المدينة أتته عجوز من ولد الحارث بن عبد المطلب فشكت اليه ضنك المعيشة ، فقال : ما يحضرنى الكثير ، ولا أرضى لك بالقليل وأنا على ظهر سفر ، فاقبلى ما حضر ، وتفضلى بالعذر . ثم دعا مولى له فقال ادفع اليها ما بقى من نفقتنا ، وخذى هذا العبد والبعير . فقالت بأبى أنت وأمى ! أجزل الله فى الآخرة أجرك ، وأعلى فى الدنيا كعبك ، وغفر لك يوم الحساب ذنبك ، فأنت والله كما قالت أم جميل بنت أمية

زين العشـــيرة كلها ... فى البدو منها والحضر
ورئيسها فى النائبـــا ... ت وفى الرحال وفى السفر
ورث المكارم كلهـــا ... وعلا على كل البشر
ضخم الدسيعة ماجد ... يعطى الجزيل بلا كدر

(٤)

خرجت اعرابية الى مِنى فقطع بها الطريق ، فقالت : يارب أخذت وأعطيت ، وأنعمت وسلبت ، وكل ذلك منك عدل وفضل . والذى عَظَّمَ على الخلائق أمرك ، لابسطت لسانى بمسئلة أحد غيرك ، ولابذلت رغبتى الا اليك ، ياقرة أعين السائلين ، اغننى بجود منك أتبحبح فى فراديس نعمته ، وأتقلب فى رواق نضرته ، واحملنى من الرَّجلة ، وأغننى من العَيْلة ، واسدل علىّ سترك الذى لا تمزقه الرماح ، ولا تزيله الرياح ، انك سميع الدعاء

﴿ الكلم القصـــار ﴾

(١) دخلت امرأة من بنى أميـة على عبد الله بن علىّ بالشام فبكت فقال لم تبكين ؟ أجزعا على أهلك على ما أصابهم ؟ قالت لا ، ولـكنه ما كان يوم سرور ألا وهو رهن بيوم مكروه ، وما امتلأت دارٌ حَبْرَة الا امتلأت عَبرة

(٢) قيل لِحُبَّى المدنية : ما الجرح الذى لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم الى اللئيم ثم لا يجدى عليه . قيل لها فما الشرف . قالت : اعتقاد المنة فى أعناق الرجال تبقى للأعقاب .

(٣) قيل لأعرابية مات ابنها : ما أحسن عزاءك ؟ قالت : إن فقدى إياه آمننى كل فقد سواه . وان مصيبتى به هونت علىّ المصائب بعده . ثم أنشأت تقول :

كنت السواد لناظرى فعمِى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
ليت المنازل والديا ر حفائر ومقابر
إنى وغيرى لا محا لة حيث صرت لصائر

(٤) حدث اسحاق الموصلى عن رجل من أهل المدينة . قال : كنت فى جنازة عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإذا امرأة تقول واحرّاه عليك ! فسألت عنها ، فقالوا هذه أمه . فدنوت منها ، فقلت يا أم عبد الله : إن عبد الله كان بعض البشر . فقالت : إن عبد الله كان ظهراً فانكسر ، وأصبح أجراً ينتظر وإن فى ثواب الله لعزاء عن القليل ، وجزاء على الكثير .

(٥) كانت هند بنت المهلب تقول : إذا رأيتم النعم مستدرَّة فبادروا بالشكر قبل الزوال .

(٦) دعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة ، فقالت :

كان الله صاحبك فى أمرك ، وولى نجح طلبتك ، امْضِ مصاحباً مكلوأً ، لا أشمت الله بك عدواً ، ولا أرى محبيك فيك سوءًا .

(٧) وقفت أعرابية فقالت : يا قوم سنة جردت ، وأيد جمدت ، وحال أجهدت ، فهل من فاعل لخير ، وآمر بِخَيْر . رحم الله من رحم فأقرض من لم يظلم .

(٨) رأت عائشة أم المؤمنين رجلاً متماوتاً فقالت : ما هذا ؟ فقالوا زاهد قالت : كان عمر بن الخطاب زاهداً . وكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب فى ذات الله أوجع .

(٩) قال رجل لولادة العبدية : وكانت كأعقل النساء ، إنى أريد الحج فأوصينى . قالت : أأوجز فأبلغ ، أم أطيل فأحكم ؟ فقال : بما شئت . قالت : جد تسد ، واصبر تفز . قال أيضاً . قالت : لا يتعد غضبك حلمك ، ولا هواك علمك ، وفِرْ دينك بدنياك ، ووفر عرضك بعَرَضك ، وتفضّل تخدم ، واحلم تُقَدَّم . قلت : فمن أستعين ؟ قالت : إن قلت من الناس . قلت : الجلد النشيط ، والناصح الأمين . قال : فمن أستشير ؟ قالت : المجرب الكيس ، أو الأديب ولو الصغير . قال : فمن أستصحب ؟ قالت : الصديق الملم ، أو المداجى المتكرم . ثم قالت : يا ابناه إنك تفد على ملك الملوك فانظر كيف يكون مقامك بين يديه .

(١٠) قالت أعرابية لابنها : أى بنى ! إن سؤالك الناس ما فى أيديهم ، من أشد الافتقار إليهم ، ومن افتقرت إليه هُنْتَ عليه ، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل وترغب . فإذا ألحت عليك الحاجة ، ولزمك سوء الحال فاجعل سؤالك إلى من إليه حاجة السائل والمسئول .

(١١) مات لاعرابية ميت فغمضته وترحمت عليه ، ثم قالت : ما أحق من أُلبس العافية . وأطيلت له النَّظِرَةُ ألا يعجز عن النظر لنفسه ، قبل الحلول بساحته والحيال بينه و بين نفسه .

(١٢) قالت هند بنت عتبة : المرأة غُل ، ولا بد للعنق منه ، فانظر من تضعه فى عنقك .

(١٣) نظرت إعرابية إلى امرأة حولها عشرة من بنيها كأنهم الصقور فقالت : لقد ولدت أمكم حزناً طويلاً .

(١٤) بلغ عائمَةَ بنت عائم[١] ثلب معاوية وعمرو بن العاص لبنى هاشم . فقالت لأهل مكة :

أيها الناس ! أن بنى هاشم سادت فجَادت ، وَمَلَكتْ وَمُلِّكتْ ، وَفَضَلت وَفُضِّلت ، واصطفت واصطفِيت ، ليس فيها كدر عيب ، ولا أفك ريب ، ولا خسروا طاغين ، ولا خازين ، ولا نادمين ، ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين .

لما ذهب صالح بن على إلى الشام من قبل السَّفَّاح سيق اليه نساء بنى أمية وبناتهم ، فلما دخلن عليه تكلمت بنت لمروان فسامت عليه بالخلافة . فقال : لست بالخليفة ، ولكنى عمه . فقالت يا عمّ أمير أمير المؤمنين ! حفظ الله من أمْرِك ما تحب أن يحفظه ، وخصك فى الأمور كلها بخواص كرامته . وعمك بالعافية ألمُجَلَّلةِ فى الدنيا والآخرة ، نحن بناتك وبنات أخيك ، فَلْيَسَعْنا عدلك ، قال : إذ لا يستبقى منكم آلُ البيت أحداً ، رجلاً ولا امرأة . ألم يقتل أبوك بالأمس أخى الامام فى محبس حران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على وصلبه وأمر بقتل امرأته فقتلها يوسف بن عمر صبراً ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد بخراسان وأحرق خشبته وجثته ؟ فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ قالت : قد ظفرتم فَلْيَسَعْنا عفوكم قال : أما هذا فنعم . قد عفونا عنكم

(١٧) دخلت ليلى الاخيلية على الحجاج بن يوسف فسألها عن نسبها فانتسبت اليه . فقال لها يا ليلى ما أتى بك ؟ فقالت : إخلاف النجوم ، وقلة الغيوم وَكَلَبَ البَرْد[٢] وشدة الجهد[٣] وكنت لنا بعد الله الرِّفد[٤] فقال لها : صفى الفجاج .

---

(١) هى إحدى حكيمات العرب المعمرات روى الجاحظ أنها كانت تعد فى العهد النبوى أربعمائة عام

(٢) الكلب الشدة (٣) الجهد المشقة (٤) الرفد العطاء

فقالت : الفجاج[١] مُغبَرَّة ، والأرض مُقْشعِرَّة[٢] ، والمنزل معتل ، وذو العيال مختل ، والهالك المقِل ، والناس مسنتون[٣] رحمَةَ الله يرجون ، وأصابتنا سنة مجحفة مبطلة[٤] لم تدع لنا هيْعاً[٥] ولا ريْعاً[٦] ولا عافطة[٧] ولا نافطة[٨] أذهبت الأموال ، وفرقت الرجال ، وأهلكت العيال .

(١٨) أُسِرت أم علقمة الخارجية واتى بها إلى الحجاج فقيل لها وافقيه فى المذهب فقد يظهر الشرك بالمكر . فقالت قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . فقال لها قد خبطت الناس بسيفك يا عدوة الله خبط العشواء . فقالت : لقد خفت الله خوفاً صيرك فى عينى أصغر من ذباب — وكانت منكسة — فقال : ارفعى رأسك وانظرى إلى . فقالت أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله اليه ، فقتلها .

(١٩) كانت أسماء بنت أبى بكر تقول لبناتها ونساء آلها . أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضل ، فأنكن ان انتظرتن الفضل لم يفضلن شيئاً ، وان تصدقتن لم تجدن فقده .

(٢٠) وقدم اليها ولدها المنذر بن الزبير من العراق بثياب رقاق عتاق[٩] بعد ما كف بصرها ، فلمستها بيدها ، ثم قالت : ردوا عليه كسوته فشق ذلك عليه وقالت يا امَّه أنها لا تَشِفُّ[١٠] فقالت إن لم تشف فانها تصف[١١]

---

(١) الفجاج جمع فج — الطرق الواسعة بين الجبال (٢) مقشعرة مجدبة (٣) مسنتون مجدبون
(٤) مبطلة مضيعة (٥) الهيع الصوت وتريد به صوت الماشية (٦) الريع فضل كل شىء
(٧) العافطة العنز (٨) النافطة القدر يقال نفطت القدر إذا غلت (٩) العتاق جمع عتيق وهو الحسن من كل شىء (١٠) يريد لا يتم عن الجسم (١١) تريد أنها تفصل الجسم تفصيلاً

﴿ عيون من الشعر ﴾

الحنين الى الوطن

١ — قالت فتاة أعرابية احتملها زوجها الى مكان قصى :

ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا ... علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائكم هل سال نَعْمانُ[1] بعدنا ... وحُبّ الينا بطن نعمان واديا
فان به ظلا ظليلاً ومشربا ... به نُقِع القلب الذى كان صاديا[2]

٢ — تزوج رجل من تِهامة امرأة من نجد ، فلما نقلها اليه قالت ما فعلت ريح من نجد كانت تأتينا يقال لها الصَّبَا ؟ ما رأيتها ههنا : فقال يحجزها عنا هذان الجبلان ، فأنشأت تقول :

أيا جَبَلَيْ نعمان بالله خليا ... نسيم الصَّبا يخلص إلىّ نسيمها
فان الصبا ريح اذا ما تنفست ... على قلب محزون تجلت همومها
أجد بَرْدها أو يشف منى حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها[3]

٣ — وقال حفص بن الأروع الطائى كنت أسيراً فى بلاد طىء فاذا بجارية تسوق أعنزاً ، فقلت يا جارية أى البلاد أحب إليك ؟ فقالت :

أحَبُّ بِلاَد الله ما بين مَنْعِج ... الىَّ وسلمى أن يصوب حجابها[4]
بلاد بها حل الشباب تمائمى ... وأول أرض مَسَّ جلدى ترابها[5]

---

(١) نعمان اسم لخمسة أودية أحدها وراء عرفة (٢) بلاغات النساء ص١٩٩ (٣) أخبار النساء ص ٩
(٤) منعج وسلمى موطنان من مواطن نجد وصاب المسحاب اصب تريد أن أحب المواطن اليها ما بين هذين المكانين وهى ترجو أن تعشب أرضها مما يصوب سحابها (٥) محاضرات الأدباء ج ٣ ص ٢٧٥

(٤) وتزوج رجل من حُجْر بامرأة من تميم ، فلما احتملها اليها قالت

لقد كنت عن حجر بعيداً فساقنى ... صروف النوى والسابقات الى حجر
يقولون فرش من حرير وانما ... أرى فرشهم عندى كحامية الجمر

(٥) وقالت اعرابية مرضت بعيداً عن بلدها

خليلىَّ ان حانت بحربة مِيتَتى ... وأزمعتما ان تجعلا لى بها قبرا
الا فاقرآ منى السلام على قَنًا ... وحَرَّةِ ليلى لا قليلا ولا نزرا
سلام الذى قد ظن ان ليس رائياً ... رَماصا ولا من حَرَّتَيْه ذُرًى خُضْراً[1]

﴿ عهد الطفولة ﴾

قالت فتاة تتغنى بأيام طفولتها

ألا لا أبالى اليوم ما دمتُ جاريا[2] ... وما دمت أسعى لا أبالى أزاريا
وما دمت أسعى بين أم عزيزة ... وبين أب بَرّ يحب جَماليا
اذا عصبوا بُرْدِى بشُقَّةِ بردهم ... وقيل اقعدِنْ فى البيت يُخْلَط ذاليا
ومر جوارى الحى من كل وجهة ... لألعب إن اللعب كان شفائيا[3]

﴿ فى البكاء ﴾

بكاء الأبناء

كان معاوية قد أرسل قائده الطاغية بُسْر بن أرطاة مغيراً على اليمن . — وكانت فى حوزة علىّ عليه السلام — ففر من وجهه أميرها عبيد الله بن العباس فلم يجد السفاح غير طفلين له ، فعمد اليهما فذبحهما ، وترك أمهما ذاهلة

(١) حربة وقنا وحرة ليلى مواطن من نجد ورماص واد من أوديتها والحرة الأرض الصلبة السوداء بلاغات النساء ص ١٩٨ (٢) جاريا ترخيم جارية وهى الحدثة السن (٣) بلاغات النساء ص ١٩٨

اللب ، مخطوفة اللقب ، تهيم فى كل واد ، وتغشى كل مجتمع وناد ، وتتغنى بما يثير الحسرات ويسيل العبرات . ومن قولها فيهما

ألا يا من سبي الأخوين ... أمُّهما هى الثكلى
تسائل من رأى ابنيها ... وتستسقى فما تسقى
فلما استيأست رجعت ... بعَبْرةِ وَإلهٍ حَرَّى
تتابع بين وَلْوَلةٍ ... وبين مدامع تترى

وكذلك قالت

يا من أحسَّ بإبْنَىَّ اللذَيْن هما ... كالدُّرَّتين تَشظّى عنهما الصَّدَف[1]
يا من أحسَّ بابنى اللذين هما ... سمعى وقلبى فقلبى اليوم مُزْدَهَفُ
يا من أحسَّ بابنى اللذين هما ... مخ العظام فمخى اليوم مُختَطَفُ
نُبِّئْت بُسراً وما صدقت ما زعموا ... من قولهم ومن الأفك الذى اقترفوا
انحى على وَدَجَىْ[2] طِفْلىَّ مُرْهَفَةً ... مشحوذة وكذاك الأفك يقترف
مَن دل والهة حرى مُوَلَّهة ... على حبيبين ضَلاَّ إذ غدا السلف[3]

ووقفت اعرابية على قبر ابن لها يدعى عامراً فقالت :

أقمت أبكيه على قبره ... من لِىَ من بعدك يا عامر
تركتنى فى الدار ذا وحشة ... قد ذل من ليس له ناصر[4]

وقالت زبيدة ابنة جعفر ترثى ولدها الأمين

أودى بإلفين من لم يترك الناسا ... فامنَحْ فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا

(١) تشظى انكشف (٢) الودجان عرقا العنق (٣) الاغانى ج ١٥ ص ٤٣ — ٤٥
(٤) العقد الفريد ج ٢ ص

فبت مكتئباً أرعى النجوم له ... أخال سنته بالليل قرطاسا
رُزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر آساسا
فليس من مات مردوداً لنا أبداً ... حتى يرد علينا قبله ناسا

وقالت أعرابية تندب ابناً لها

أُبنيَّ غيبك المحل الملحد ... إمَّا بَعِدْتَ فأيْنَ من لا يَبْعَدُ
أنت الذى فى كل ممسى ليلة ... تَبلى وحزنك فى الحشا يتجدد

وقالت فيه

لئن كنت لهواً للعيون وقرة ... لقد صرت سقماً للقلوب الصحائح
وهون حزنى أن يومك مُدْرِكى ... وأنى غداً من أهل تلك الضرائح (١)

﴿ بكاء الآباء ﴾

قالت امرأة من بنى شيبان قتل أبوها ورجال من أسرتها مع الضحاك الحَرُورِى

من لقلب شفه الحزن ... ولنفس مالها سَكَنُ
ظعن الأبرار فانقلبوا ... خيرهم من معشر ظعنوا
معشر قضوا نحوبهم ... كل ما قد قدموا حسن
صبروا عند السيوف فلم ... يَنْكلوا عنها ولا جَبُنُوا
فتية باعوا نفوسهم ... لا ورب البيت ما غُبِنُوا
فأصاب القوم ما طلبوا ... مِنَّةٌ ما بعدها منن

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٤

وقالت أروى بنت الحُبَاب ترثى أباها

قل للأرامل واليتامى قد ثوى ... فلتبك أعينها لفقد حُبَاب
أودى ابن كل مخاطر بتلاده ... وبنفسه بُقْيا على الاحساب
الراكبين من الأمور صدورها ... لا يركبون معاقد الأذناب[1]

وقالت فاطمة بنت رسول الله تبكى أباها صلى الله عليه وسلم

انا فقدناك فَقْد الأرض وَابِلَها ... وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما نعيت وحالت دونك الكُتُبُ

﴿ بكاء الاخوة ﴾

قالت ليلى بنت طريف التغلبية ترثى أخاها الوليد بن طريف :

بتل نُبَاتَى[2] رسم قبر كأنه ... على جبل فوق الجبال منيف
تضمن جوداً حاتمياً ونائلاً ... وسَوْرَة مقدام ورأى حصيف
إلا قاتل الله الحَشَى كيف أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عَيُوفِ[3]
فَإلاّ تجبْنى دِمْنَةٌ هى دونه ... فقد طال تسليمى وطال وقوفى
وقد علمَت ان لا ضعيفاً تضمنت ... إذا عظم المَرْزَى ولا ابنَ ضعيف[4]
فتى لا يلوم السيف حين يهزه ... على ما اخْتلى من مِعصِم وصَلِيف[5]
فتى لم يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جَرْداء شَطْبَةٍ ... وأجود عالى المنْسِجَينِ غَروفِ[6]

(١) حماسة البحترى (٢) نباتى موطن بالبصرة (٣) الحشى موضع بقرب المدينة وآخر بالعراق وعيوف من عاف الشىء كرهه (٤) المرزى المصاب (٥) الصليف عرض العنق (٦) الجرداء والاجرد من الخيل ما لاشعر فيه ولشطبة الفرس الطويلة الحسنة ومنسجا الفرس جانباه والغروف السريع

فقدناه فِقْدان الربيع وليتنا ... فديناه من فتياننا بألوف
وما زال حتى أرهق الموتُ نفسه ... شجاً لعدو أو لَجًا لضعيف
حليف النَّدى ان عاش يرضى به الندى ... وإن مات لا يرضى الندى بحليف
فإن يك أرداه يَزيدُ بن مِزْيَدٍ ... فرب زُحُوف فَضَّها بزحوف
فيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تحزن على ابن طريف
ألا يا لقومى للنوائب والردى ... ودهر مُلِحٌّ بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى ... وللشمس همت بعده بكسوف
وللّيْث فوق النعش إذ يحملونه ... إلى حفرة ملحودة وسقوف
بكت تَغْلِبُ الغَلْبَاء يوم وفاته ... وأبرز منها كل ذات نصيف
يقلن وقد أبرزن بعدك للورى ... معاتِدَ حَلْيٍ من بُرى وشُنوفِ[1]
كأنك لم تشهد مصاعاً ولم تقم ... مقاماً على الأعداء غَدْوَ خَفِيفِ[2]
ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة ... ولم تبدُ فى خضراء ذات رفيف[3]
عليك سلام الله وقفا فأننى ... أرى الموت وقاعاً بكل شريف[4]

وقالت كذلك تبكيه :

ذكرت الوليد وأيامه ... إذا الأرض من شخصه يَلقعُ
فأقبلت أطلبه فى السماء ... كما يبتغى أنفَه الأجدعُ
أضاعك قومك فلينظروا ... إفادة مثل الذى ضيعوا
لو ان السيوف التى حدُّها ... أصابك تعلم ما تصنع
نبت عنك أو جَعَلَتْ هيبة ... وخوفاً لِصولك لا تقطع

---

(١) معاتد الشيء أتفه (٢) المصاع الموقعة من المصع وهو الضرب بالسيف (٣) الخضراء الدرع والرفيف اللمعان (٤) حماسة البحترى ص ٢٧٦

وقالت عَمْرَة بنت مرداس — وهى ابنة الخنساء — ترثى أخاها :

أعينىَّ لم أخْتِلْكما بخيانة ... أبَى الدهر والأيام أن أتصبرا
وما كنت أخشى أن أكون كأننى ... بعير إذا يُنعى اخَىَّ تحسرا
ترى الخصم زُوراً عن أخىَّ مهابة ... وليس الجليس عن أخَىَّ بأزورا[1]

وقالت امرأة ترثى أخوتها :

رَعَوْا من المجد إلى أكنافاً إلى بلد ... حتى إذا أكملت أظماؤهم وردوا
ميْت بمصر وميت بالعراق وميت ... بالحجاز منايا بينهم بَدَدُ
كانت لهم هم فرقن بينهم ... إذا القعادِ دُعن أمثالها قعدوا[2]
بذل الجميل وتفريج الجليل واعطاء الجزيل اذا لم يعطه أحد[3]

﴿ رثاء الأزواج ﴾

قال الأصمعى

دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى ، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال ، وعليها من الحلى والحلل ما لم أر مثله ، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى ، فالتفتُّ الى صاحبى ، فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال لا والله لا أحسبنى أراه ، ثم قلت لها يا هذه ! أنى أراك حزينة وما عليك زِىُّ الحزن ؟ فأنشأت تقول :

فإن تسألانى فيم حزنى فأننى ... رهينة هذا القبر يا فتيانِ
وأنى لأستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحييه حين يرانى
أهابك أجلالا وإن كنت فى الثرى ... مخافة يوماً أن يسوءك لسانى

(١) زور جمع أزور أى منحرفين بلاغات النساء ص ١٩٦ (٢) القعادد جمع قعدد — بضم القاف والدال — الجبناء (٣) حماسة البحترى ص ٧٤

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى ... بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حَلْيٍ وفى حلل ... كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه ... أن قد تسربه فى بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عَبرَى مُوَلَّهَة ... عجيبة الزى تبكى بين أموات[1]

وقالت عاتكة بنت زيد ترثى زوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه

مَن لنفس عادها أحزانها ... ولعين شفها طول السَّهَد
جَسدٌ لفَّ فى أكفانه ... رحمة الله على ذاك الجسد
فيه تفجيع لمـــولى غارم ... لم يَدَعه اليوم يمشى بسَبَد[1]

وقالت فيه

وفَجَعَنى فيروز لا در دره ... بأبيض تال للكتاب نجيب
رؤوف على الدانى غليظ على العدى ... أخى ثقـة فى النائبات مجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله ... يريع الى الخيرات غير قطوب

وقال الأصمعى : رأيت بصحراء جارية قد ألصقت خدها بقبر وهى تبكى وتقول

خدِّى يقيك خشونة اللحد ... وقليلة لك سيدى خدى
يا ساكن القبر الذى بوفاته ... عميت علىَّ مسالك الرشد
اسمع أبثَّك غلتى ولعلنى ... أطفى بذلك حرقة الوجد[2]

وكان أمير المؤمنين الأمين قد عقد على لُبانة بنت رَيْطة بن على فقتل عنها قبل البناء بها ، فقالت تبكيه

أبكيك لا للنعيم والأُنُسِ ... بل للمعالى والرمح والفرس

(١) مختار المراثى ص ١٦٥ طبع بيروت (٢) العقد الفريد ج ٢

أبكى على سيد فُجعت به ... أرملنى قبل ليلة العرُس
يا فارساً بالعراء مطَّرحاً ... خانته قواده مع الحرس
من للحروب التى تكون بها ... ان أُضرمت نارها بلا قبس
من لليتامى إذا هم سغبوا ... وكل عان وكل محتبس
أمْ مَن لبر أم من لفائدة ... أم من لذكر الاله فى الغَلَسِ[1]

وقال الأصمعى

خرجت إلى مقابر البصرة فاذا أنا بامرأة على قبر من أجمل النساء وهى تندب صاحبه وتقول :

هل أخبر القبر سائليه ... أم قر عيناً بزائريه
يا جبلا كان ذا امتناع ... وطود عز لآمليه
يا نخلة طلعها نضيد ... يقرب من كف مُجْتنيه
يا موت ماذا أردت منى ... حققت ما كنت أتقيه
دهر رمانى بفقد إلفى ... أذم دهرى واشتكيه
آمنك الله كل خوف ... وكل ما كنت تتقيه
أسكنك الله فى جنان ... تكون أمناً لساكنيه

قال : فقلت لها يا أمة الله ما هذا منك ؟ قالت لو علمت مكانك ما انشدت حرفاً ! هذا زوجى وسرورى وأنسى . والله لا زلت هكذا أبداً أو الحق به[2]

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢ (٢) أخبار النساء ص ٦٩

﴿ فى التذمم من الأزواج ﴾

قالت امرأة تذكر ضيق صدرها وفرط عنائها من زوجها

يا من يلذذ نفسه بعذابى ... ويرى مقاربتى أشد عذاب
مهما يلاقى الصابرون فانهم ... يُؤْتَوْن أجرَهُمُ بغير حساب
لو كنت من أهل الوفاء وفيت لى ... إن الوفاء حلى أولى الألباب
مازلت فى استعطاف قلبك بالهوى ... كالمرتجى مطراً بغير سحاب
يا رحمتى لى فى يديك ورحمتى ... لى منك ياشينا من الأصحاب
يا ليتنى من قبل ملكك عصمتى ... أمسيت ملكاً فى يد الأعراب
هل لى إليك إساءة جازيتها ... ألا لباسى حلة الآداب[1]

وحدث القالى قال :

كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يحضر طعامه فكتب الى امرأته يعلمها بذلك فكتبت إليه

أيُهدى لى القرطاس والخبز حاجتى ... وأنت على باب الأمير بطين
اذا غبت لم تذكر صديقاً ولم تُقِمْ ... فأنت على ما فى يديك ضنين
فأنت ككلب السوء ضيّع أهله ... فَيُهزل أهل البيت وهو سمين

(١) بلاغات النساء ص ١٥٤

﴿ فى الأنفة والإباء ﴾

دخل عبد الملك بن مروان على زوجته عاتكة بنت يزيد فرأى امرأة بدوية أنكرها، فقال لها من أنت ؟ قالت أنا الواهة الحرى ليلى الأخيليَّة . قال من القائل :

أريقت جفان ابن الخليع فأصبحت ... حياض النـدى زالت بهن المراتب
فَعُفَّاؤُها لهفَى يطوفون حوله ... كما انقض عرش البئر والورد عاصب

قالت أنا الذى أقول ذلك . قال : فما أبقيت لنا . قالت : ما أبقى الله لك : نسباً قُرَشِيًّا ، وعيشاً رخياً ، وإِمْرَة مطاعة . قال أفردته بالكرم ! قالت : أفردته بما انفرد به ، فقالت عاتكة لعبد الملك : قد جاءت تستعين بنا عليك فى عين تسقيها وتحميها لها ، ولست لِيَزِيد ان شفَّعتها فى شىء من حاجاتها لتقديمها اعرابيا جِلْفاً جافياً على أمير المؤمنين ، فوثبت ليلى فجلست على راحلتها وقالت :

ستحملنى ورحلى ذات لَوْثٍ[1] ... عليها بنت آباء كرام
إذا جعلت سواد الشام دونى ... وأغلق دونها باب اللئام
فليس بعائد أبداً اليهم ... ذوو الحاجات فى غلس الظلام
أعاتك لو رأيت غداة بنَّا ... سلو النفس عنكم واعتزامى
إذاً لعلمت واستيقنت أنى ... مشيعة ولم ترعَىْ ذمامى
أأجعل مثل توبة فى نداه ... أبا الذبّان فوه الدهر دامى[2]
معاذ الله ما وخدت برحلى ... تغذ السير فى البلد التهامى
أقلت خليفة فسواه أحجى ... بأمرته وأولى بالشآم
لئام الملك حين تُعد كَعْبٌ ... ذوو الأخطار والخطَطِ الجسام[3]

(١) اللوث القوة (٢) توبة صاحب ليلى وأبو الذبان تريد به عبد الملك لانه كان أبخر دامى الفم فيسقط عليه الذباب أحياناً (٣) بلاغات النساء ص ١٤٧ والاغانى ج ١٠ ص ٨٢

آخر صفحة من كتاب العظائم

﴿ زبيدة بنت جعفر ﴾

هى كوكب السَّحَر فى سماء العظائم ، وآخر السُّوَر من كتاب العزائم ، هى زبيدة بنت جعفر ، حفيدة المنصور ، وزوج الرشيد ، وأم الأمين .

نشأت زبيدة فى مهد الدولة العباسية فكانت مهبط الحب وموطن الرعاية من قلوب بنى العباس ، وأخصُّهم فحل أجمتهم وركن دولتهم أبو جعفر المنصور ، فقد كان يؤثرها بقلبه ، ويختصها بحبه ، وهو الذى دعاها زبيدة لِما رأى من بَضاضتها ونعومتها ، وقد ظهر من إعزازها والمغالاة بها يوم زفها عمها المهدى إلى ابنه الرشيد ما لا يتسع له مجال الخيال .

فقد ألقى عليها من غوالى اللآلئ ما أثقلها وعاق سيرها . بل لقد نثر اللؤلؤ فى جنبات طريقها على البسط الموشية بأسلاك الذهب .

وكان لها من قلب الرشيد حِمًى لا يرام . وبرغم من تصدين له من جوارى الفرس ، وما تأنقن فيه من حسن مخضوب ، وجمال مجلوب ، وما ابتدعنه من ضروب اللهو ، وفنون الايقاع ، وما امتزن به من خلابة ودعابة — برغم ذلك كله لبثت زبيدة ربة القول الفصل فى قلبه وقصره ودولته .

أما وفور فضلها ، وسماح يدها ، وعظمة قلبها ، ونفاذ لبها ، ونبل خليقتها ، وصفاء قريحتها فما سار مسار الأمثال ، وذلك ميراث أمهاتها من عقائل قريش ، وسلائل بنى هاشم .

وحديث حجها ، وما ابْتَنَت فيه من عظائم ، وقدمت من مكارم ، حديث لا يدع لقائل قولا ولا لمفتخر سبيلا . فقد بلغ ما بذلت فيما نَوَّلَتْ من بر وما

ابتنت فى طريق مكة من مساجد ومنازل ومشارب ألف ألفٍ وسبعمائة ألف دينار وما كان ذلك كله إذا قيس بعين زبيدة شيئاً مذكوراً .

وقبل أن نأخذ فى القول عن عين زبيدة نقول كلمتنا فى الأمين وما ذهب من مقالات السوء عنه، فرب قائل يقول وأى أثر تركته المرأة العظيمة فى ولدها الخليع ؟!

أستغفر الله ! ما كان الأمير خليعاً ، ولا مائقاً ، ولا مارقا ، ولا سرفا فى دينه ودنياه . بل كان شأنه كشأن أبناء النابهات من العرب ، كف نَدِيّة ، وهمة قصية، وفطنة هاشمية وظل فى الفضل ممدود ، وأمد فى النبل غير محدود ، ولكنْ هُمُ المرجفون ، من شيعة المأمون . وقالة السوء من شعوبية الفرس ، ألحقوا به ما ألحقوا ظلماً وزوراً لانه اعتصم بالعرب ، وجعلهم حزبه وشيعته ، وترك ما سنه آباؤه من استدناء الفرس ، وابتغاء الوسيلة عندهم ، وتفويض الأمر كله اليهم ، فنزعوا الى المأمون ونزع اليهم لما بينه وبينهم من وشيج الرحم وفرط الهوى ، فأثاروها على الخليفة العربى حملة فارسية ، وأجلب بهم المأمون على أخيه فساروا اليه محدَّدى الاظافر ، مرهفى الأنياب ، حتى هتكوا عليه داره فذبحوه ، وحملوا رأسه الى صاحبهم ! فهل رأيت أشد وأشنع من ذلك ؟ ! أخ يقتل أخاه ، ويروى نفسه بدمه ، ويحمل رأسه من بغداد الى أعماق بلاد الفرس ، ليجعله مسلاة الأعاجم وملهاة الموالى ! !

يقولون أن الأمين أسرف فى الشراب ! فاللهم أنهم كذبوا . لقد علموا أن الرشيد حد ابنه المأمون فى الخمر أو ما هو شر منها ،[1] فأما الامين فلم يكد يلى أمر المسلمين حتى ارتهن أبا نواس فى سجنه وأطال فيه بلاءه وعناءه ، لأنه لج فى الخمر وأكثر من ذكرها[2] .

(١) الفخرى طبع (شالون ص٢٩٢) (٢) ديوان أبى نواس ص ٣٦١

لعمرى لقد ذل للعرب بموت الأمين ذلة تصدع لها ركن الاسلام صدعا لم يجبره المأمون بما اجتلب من علم وأدب ، حتى لقد قال قائلهم :

سألونا عن حالنا كيف أنتم ... مَنْ هَوَى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أذلنا حادث الده ... ر فَطَلْنَا لريبه نستكين
نتمنى من الأمين أياباً ... ليت شعرى وأينَ منا الأمين

وان أعوزتك صفات الأمين ، فاستمع لما قالته فيه لبانة ابنة ريطة « ونحن نعيد شيئاً منه لحاجتنا اليه ونعلم أن الشعراء وان أغرقوا فى الصفات فهم لا يخلقونها:

قالت لبانة

أبكيت لا للنعيم والانُس ... بل للمعالى والرمح والفرس

حتى قالت

من للحروب التى تكون بها ... ان اضرمت نارها بلا قَبَس
من للتيامى اذا هم سغبوا ... وكل عان وكل محتبس
أم من لِبرٍّ أم من لقائدة ... أم من لذكر الإله فى الغلس

وقال أبو نواس فى رثائه :

أيا أمين الله من للندى ... وعصمة الضعفى وفك الأسير
خلفتنا بعدك نبكى على ... دنياك والدين بدمع غزير
يا وليتا بعدك ماذا بنا ... من ضنك صروف الدهور
لا خير للأحياء فى عيشهم ... بعدك والزلفى لأهل القبور

وعلى ذكر الامين وأمه زبيدة نذكر لها وصية أوصت بها على بن عيسى حين خرج للقاء جيش المأمون « يا على ! أن أمير المؤمنين وإن كان ولدى فانى على عبد الله « المأمون » متعطفه مشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى . وانما ولدى ملك

نافس أخاه فى سلطانه ، فاعرف لعبد الله حق ولادته وأُخوّته ولا تَجْبَهْهُ بالكلام فانك لست نظيراً له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد أو غل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تُعْنِفْ عليه فى السير ، ولا تساوه فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، وان شتمت فاحتمل منه[1] »

فهل عرف المأمون أو بطانته أن يوصوا طاهر بن الحسين بمثل هذا .

ونعود الى ما نوهنا بالقول عنه فى عين زبيدة فنقول :

إذا قيست الآثار بما تنال على الدهر من خلود ، وما ينال الناس منها من دفع غائلة ، وتنفيس ضائقة ، فكل عمل دون ذلك العمل الجليل ، مهين ضئيل

وليس جلال الاثر أن تذهب به فى أقطار السماء ، وتريق على جنباته دماء الضعفاء ، ثم لا يكون للناس منه إلا أنه جبل يسامى الجبل الأشم ، والغراب الأعصم ، فان ذلك سمة من سمات الظلم ، ونزعة من نزعات الاستبداد ، ولعمرى أن كوخا من هشيم الكلأ لامرأة ضعيفة معوزة ، أعظم وأفضل فى شرعة الانصاف منه

لذلك كانت عين زبيدة أثراً صالحاً تفنى دونه الآثار وتتحطم المعالم .

لم يكن لأهل مكة من المناهل إلاّ المَسَايل التى يجودها المطر أحياناً ، وبعض البئار التى تفيض آناً وتجف آناً . فإن جفاهم الغيث عاماً فالويل لهم ولكل راغية وثاغية عندهم .

أما الحجاج فكانوا يحتملون من قرب الماء ما يؤودهم ويوقر ظهورهم . ولقد أخذ بقلب زبيدة العظيم ما علمت فى حجها أن راوية الماء تباع بدينار[2] وأن الفقير إنما يَتَبَلغ بما يتساقط من قطرات الْغَنِيّ فاعتزمت روّى الله بدنها أن تحفر

(١) الفخرى ص ٢٩٥ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٧ والراوية القربة الصغيرة

لآل مكة ولقصاد البيت الحرام نهراً جارياً يتصل بمنابع الماء ومساقط المطر بالغة من بعد الشقة ووعورة الطريق ما بلغت .

ولم يَسنح بخاطر أحد منذ عهد اسماعيل صلوات الله عليه حتى عهد زبيدة رضى الله عنها مثل ذلك الخاطر الوثاب . خاطر اجراء نهر بين شعاب مكة ، بل ولم يتمَنَّه تمنياً، لأنه أبعد من حد التمنى . أما زبيدة التى تحتكم على خراج الدولة الاسلامية، والتى لها من مالها وجواهرها ما لا تفى به الأرقام ، ولا تحيط به الأوهام ، والتى فاض حنانها ، وثارت عاطفتها ، إلى حد لا يُدفع ولا يرد — فقد اعتزمت أن تجرى ذلك النهر ولو كان سبيله دجلة والفرات .

هنالك دَعَت خازن أموالها وأمرته أن يدعو العُرَفاء والمهندسين والعمال من أطراف الأرض وأقاصى البلاد ! فعَظُم خازنها الأمر وما يُسْتَنْفَدُ من المال فيه فقالت زبيدة تلك الكلمة الخالدة : « اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً » فلم يكن بعد ذلك إلا أن يراض العمل على اعتسافه ، فسيق إلى مكة أهل الكفاية من كل مهندس ناقد وعامل عتيد ، فأخذوا يصلون بين منابع الماء فى شَعفات الجبال ، ويظاهرون ذلك بما يحتفرون من الآبار ، وما يُعْمِقُون من المسايل ، ثم يغلغلون ذلك كله بين أعطاف الصخور تارة وفى أعماق الأرض طوراً حتى ينتهى ذلك كله إلى النهر الذى احتفروه .

وأهم ما اعتمدوا عليه عين حُنين فى جبال طاد الى الشمال من (عرَفَة) وعلى مدى خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة أعزها الله ، وتجرى فى وادى حنين ثم ظاهروا ذلك بمجرى آخر من وادى النعمان من مسايل جبال كسرى الى الشرق والجنوب من عرفات وعلى مدى عشرة كيلومترات منها وعززوا الْمَجْرَيَيْن بعد ذلك بسبع أقنية تتبعوا فيها مساقط السيل فسار ذلك كله فى ممر عظيم بين الصخور حتى

ينتهى الى منى فينحدر فى خزان عميق بقروه لذلك فى الجبل وسموه الى اليوم بئر زبيدة . ومن هناك يسير الماء فى فرعين : يذهب أحدهما الى عرفات ، وينتهى الآخر الى مسجد نمرة

ولهذه العين بل لذلك النهر الفرات مَوَادِ ع فى أعماق أرض مكة يخزن الماء فيها ولكيلا يأسَنَ الماء صرف ما فضل منه عن رى الظماء الى بركة ماجِن بالمسفلة فقام حولها الزهر الناضر والثمر الجَنىّ

تلك هى عين زبيدة التى احتملت ماء الحياة سائغة هنية الى أم القرى ، الى مُتَّجه أبصار المسلمين ، ومعتصم أقطارهم ، ومناط وحدتهم ، وقبلة جماعتهم ، الى الوادى المقدس الذى يجتمع فيه ضيوف الله فى بيته ، ويصعدون فوق مرتق رحمته ، تهفو مآزرهم على منا كبهم ، وتَجِفُ قلوبهم بين أعطافهم ، وتجول دموعهم فى مآقيهم . وهم يهتفون بصوت واحد ينبعث من قلب واحد « لبيك اللهم لبيك » فان أظمأتهم مواقفهم فمن ذلك المنهل الطاهر المطهر نُهلةُ ريقهم ، ونقيع زفراتهم وَبِلَال أكبادهم

ذلك أثر المرأة التى تركت هُجَنَاء الرجال فى أودية الضلال يجد بهم الدهر وهم عنه لاهون ، ويشتد بهم الأمر وهم فى غيهم يعمهون

تلك هى النفوس التى صاغها الله من روحه ، وروَّاها من رحمته ، واصطنعها لاذاعة خُلُقه ، وهيأها لتزكية خَلْقِه ، وابتعثها غُرَّةً فى جبين الزمان وَأَمَنَةً من كيد الحدثان

سلام على تلك الخلائق أنها مسلمة من كل عار ومأثم

فهـــرس

الجزء الثالث من المرأة العربية

فى جاهليتها واسلامها

تقديم الكتاب الى حضرة صاحبة الجلالة ملكة مصر ٣

فاتحة الكتاب ٥

المرأة العربية فى زهو الاسلام — تمهيد — المرأة والدين ٧ — ١٣

أسباب ونتائج : — أثر الدين فى المرأة والرجل — أثر الدين فى تربية البنات — حديث مربية فرنسية

المرأة العربية فى ظل الاسلام — دور العظمة ١٤

المرأة العربية بين العهدين ١٥ — ٣٤

١٥ — الوليدة المسلمة : — عود الى حديث الوأد قيس بن عاصم بين يدى رسول الله — حب النبى لبناته وبنات صحابته — رعايته لهن — رفع الجهاد والزكاة عن ذوى البنات — احتفاظ الله بذرية نبيه فى فاطمة بنت رسول الله — تقديم الأناث على الذكور فى قوله جل شأنه (يهب لمن يشاء أناثا ويهب لمن يشاء الذكور)

٢٠ — فوارق النساء : — تمزيق الفوارق بين النساء — شريفة من قريش تسرق فتقطع يدها — كيف غضب رسول الله لجارية لطمها سيدها — رسول الله ومربيته أم أيمن — شرف المرأة أدبها ودينها — عمر بن الخطاب يزوج ابنته من ابنة احدى البائعات

٢٤ — بوائق الغيرة : — جنون العرب بالغيرة — الرتم — القذف — الاحتكام الى الكهان والكواهن — الغيرة المشروعة — أقوال رسول الله فى الغيرة حقها وباطلها — قول معاوية بن أبى سفيان وشعر مسكين الدرمى فى الغيرة

٢٨ — السباء : — السباء فى الجاهلية — تحريمه فى الاسلام — حديث خالد بن الوليد ومالك بن نويرة — الرق فى الاسلام — تحرير الرقاب — حياطة الاسلام للخدم والارقاء

٣٣ — توريث البنات : — العرب لا يدعون المرأة ترث — رأيهم فى ذلك — توريث النساء فى الاسلام — رسول الله وسعد بن أبى وقاص

حقوق المرأة فى الاسلام ٣٥ — ٧٠

٣٥ — هى والرجل : — المرأة والرجل بين يدى الاسلام — تكافؤهما فى الدنيا والآخرة — خطيبة النساء بين يدى رسول الله — النساء فى حضرة النبى — ترفقه صلى الله عليه وسلم بهن فى القول والتشريع — النبى فى بيته — على فى بيته — المرأة تحت ظلال السيوف — الآسيات من صواحب رسول الله — صدور الرجال عن رأى النساء — الحجاج وأم البنين بنت عبد العزيز — فضل المرأة على الرجل

٤٣ — كرامة المرأة المسلمة : — كرامتها فى ذاتها — كرامتها فى سيرتها — شفاعة المرأة فيمن كتب عليهم القتل — أم هانئ وعلى بن أبى طالب — زينب بنت رسول الله وزوجها قذف المرأة المسلمة — القذف أكبر الجرائم — حديث الافك — جناية القاذفين على الأمم — متمنية المدينة وعمر بن الخطاب — رجال قريش ونساؤهم قبل الاسلام وبعده — رجال المدينة ونساؤهم — فتيان الحبشة يلعبون ويرقصون بمرأى من رسول الله وزوجه — الغناء فى الاسلام

٥٠ — حريتها وحرمة رأيها : — المرأة وكتاب الفرنج (حرية الزواج) — أم هانئ ورسول الله — أم سلمة ورسول الله — النبى يفصم زواجا أكرهت المرأة عليه — الحجاج وأم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر — سنن العرب فى الزواج وما غيره الاسلام منها — رأى ابن شبرمة فى زواج القاصر — أمر الله ورسوله بمحاسنة النساء — ضرب النساء — (تعدد الزوجات) — رأى المؤلف فى تعدد الزوجات — رأى جوستاف لوبون فى تعدد الزوجات — (الطلاق فى الاسلام) — قيود الطلاق — التحكيم — العدة — حق المطلقة على زوجها — الطلاق فى الكتاب والسنة — دقة النظام الاسلامى فى الزواج والطلاق — (حريتها العامة) — المرأة المسلمة بين الرجال — الحجاب — نساء النبى — أسماء بنت النعمان — المرأة المسلمة فى المحافل والمشاهد — النقاب — ترجل المرأة

أثر الاسلام فى المرأة العربية ٧١ — ١٠٢

٧١ — تأثرها بالاسلام : — أسباب ونتائج — خديجة بنت خويلد — المستضعفات احتالهن الأذى — النساء يحتملن ما لم يحتمل الرجال — ثبات المرأة المسلمة فى أدوار عظمتها — صواحب على بين يدى معاوية — نساء الخوارج وبنو أمية — تأثر المرأة بأدب الاسلام — الصبر — عود الى بيعة النساء — الخنساء فى الجاهلية والاسلام — جزعها على أخويها فى الجاهلية — صبرها على أبنائها فى الاسلام — أم سليم بنت ملحان

وزوجها — أجر الصابرات — حداد المرأة العربية فى الجاهلية والاسلام — استلال الأحقاد من قلب المرأة — دعوة الجاهلية — هند بنت عتبة ورسول الله — الاسلام يمحق عادات الجاهلية — المرأة المسلمة والصدقة — ما فعله المسلمات بعد نزول آية الصدقة — عائشة — زينب — سكينة — صدقات الرجال والنساء فى الاسلام — المرأة المسلمة والوفاء — نائلة وعثمان — هدبة بن الخشرم وامرأته — مصابرة النساء للرجال — فاطمة وعلى بين يدى رسول الله — المرأة المسلمة بعد زوجها — أسماء بنت عميس وجعفر وأبو بكر وعلى — المرأة المسلمة لم تترك للرجل فضيلة يفخر بها — شجاعة المرأة المسلمة — الأبطال من النساء — نسيبة بنت كعب — صفية بنت عبد المطلب — خولة بنت الأزور — غزالة الحرورية — ليلى بنت طريف

تأثير المرأة العربية فى نهضة الاسلام ١٠٣

تأثيرها فى الحوادث : — حديث النبوة — خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت أسد — الهجرة — رقيقة بنت صيفى وأسماء بنت أبي بكر — المهاجرات الى الحبشة — عمر بن الخطاب وأسماء بنت عميس — امرأتان تعاهدان رسول الله وتبايعانه — الخلافة الاسلامية أو (المرأة المسلمة بين الحرب والسياسة) — فاطمة وأبو بكر — عائشة وعثمان — عائشة وعلى — نائلة وعلى — النساء فى أزر على — الشيعة من النساء — الجماعات السرية فى العراق — هند بنت زيد وحجر بن عدى — المتآمرات على الخلافة الأموية — بيت هند بنت المتكلفة — بيت ليلى بنت قمامة — ثارات الحسين — النساء فى أزر المختار — عمرة امرأة المختار ومصعب بن الزبير — أم سلمة والسفاح — قيام الخلافة العباسية — النساء فى جيش الخوارج — من هم الخوارج — أم حكيم وقطرى بين الفجاءة — شبيب بن يزيد وزوجه وأمه — ليلى بنت طريف

١٢٥ — أثرها فى تكوين الرجال أو (الأم العربية المسلمة) : — سر نهضة العرب — لنكولن رئيس الجمهورية الامريكية والمرأة الحديثة — اعتراف العرب بأنهم أثر النساء — الهجناء ورأى العرب فيهم — عقيل بن علفة وعبد الملك — هشام بن عبد الملك وزيد ابن على — سليمان ومسلمة ابنا عبد الملك — منزلة الام من ابنها — الأم العربية امرأة مقدسة — صفية والزبير — موازنة بين الأمهات والآباء — عبد الله بن الزبير وأمه — عبد الله بن الزبير وأبوه — أبناء النابهات من النساء — أبناء النابهين من الرجال — موازنة بين الفريقين

١٣٨ — أثرها فى العلم والأدب : — المرأة المسلمة آمن على العلم من الرجل — صدق الرواية — رأى الحافظ بن حجر فى العلماء والعالمات — الحافظ بن عساكر يتلقى الحديث على بضع وثمانين امرأة — المرأة والحديث — عائشة — نيف وسبعمائة محدثة يروين عن رسول الله — عائشة وأبو هريرة — المرأة فى اللغة والأدب والتاريخ وعلم الكوكب — عائشة بنت أبى بكر وتاريخ الحبشة — عائشة بنت طلحة والأدب وعلم النجوم — المرأة فى رواية الشعر — اتساع مداها وحسن بديهتها — الفتاة العامرية والشعر — مثوبة النساء للشعراء — بيوت النساء — أندية الشعر والأدب — سكينة بنت الحسين — عائشة بنت طلحة — عمرة الجمجيه — عاتكة بنت يزيد — موازنة بين معونة النساء ومعونة الرجال للشعراء — شريفة عربية تهب نفسها لشاعر أسود — الشعراء والشواعر — النساء فى النهضة العلمية الاسلامية — المرأة المسلمة والطب — أخت الحفيد وابنتها — زينب طبيبة بنى أود — جوستاف لوبون والعالمات المسلمات

١٥٦ — اثارة من قولها : — نثار من النثر — حفيدة رسول الله تفحم أهل العراق — بين الوفاء للرأى والمضاء فيه — صواحب على بين يدى معاوية — سودة بنت عمارة — أم الخير بنت الحريش — الزرقاء بنت عدى — بكارة الهلالية — عكرشة بنت الاطروش — جروة بنت غالب — الكلمات الخالدة — قوة الحجة وحسن البيان — فاطمة أم جعفر والرشيد — بين القبور — بين الرجاء والدعاء — الكلم القصار

١٨٣ — عيون من الشعر : — الحنين الى الوطن — عهد الطفولة — فى البكاء — بكاء الابناء — بكاء الآباء — بكاء الاخوة — بكاء الازواج — التذمم من الازواج فى الانفة والاباء

١٩٤ — آخر صفحة من كتاب العظائم : — زبيدة بنت جعفر — الامين والمأمون — رأى المؤلف فيهما — عين زبيدة — وصفها — أثرها

(مطبعة المعارف ٢/٢٠٠٠/١١/١٩٣٣)

المرأة العربية

في جاهليتها وأسلامها

ألفه

عبد الله عفيفي

المحرر العربي لديوان جلالة الملك

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة

(الطبعة الأولى) سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م

يطلب من

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لمؤسسها نجيب متري

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمة العربية

بين الرأى والهوى

كان على العرب بعد أن لحق رسول الله بربه أن يبتغوا الوسائل لنشر دينه وإذاعة دعوته، وكان عليهم حين لا تجد الحجة البالغة سبيلاً إلى القلوب أن يجعلوا السيف كفيلاً بنشرها فى مشارق الأرض ومغاربها، وبقدر ما كانت الأمانة الملقاة على عواتقهم فادحة والغاية بعيدة كان جهدهم كذلك فادحاً وهمتهم بعيدة، فقد وثبوا وثبة رجفت لها قوائم الأرض، فلم يبق سهل ولا جبل، ولم يبق قطر ولا مصر، ولم يبق عرش ولا تاج إلا تبدل حالاً بعد حال؛ وكذلك صاروا يضربون فى مناكب الأرض، فمن وادعهم ودخل فى ذمتهم عاهدوه على الوفاء له والذود عنه، ومن حشد لهم ونهد لقتالهم فرقوا جمعه ومزقوا شمله ونكّسوا عرشه وتولّوا حكومته. وما كانت قوتهم التى أخضعت لهم الرقاب وذللت لهم الصعاب فى وميض سيوفهم ولا عديد جنودهم ولا قوة سواعدهم ولا نفاذ آرائهم فما من أمة ممن ناصبوها الحرب إلا وهى أشد منهم قوة، وأكثر عدداً، وأسنى تدبيراً، وأنفذ تفكيراً، ولكنها كانت فى قلوبهم التى ملأ الإيمان أقطارها فلم يَدَع فيها مطمعاً فى أمل ولا مستمتَعاً بمتاع، وفى نفوسهم التى استمكنت العفة من صميمها فلم تَفْتِنْها المآرب ولم تلوثها الشهوات، وفى مشاعرهم التى لا تَرِيعُ لآية من آيات الكتاب إلا ترقرقت فى العيون عَبْرةً جارية، وتأججت فى الصدور ناراً حامية. تلك كانت قوتهم التى أعزهم بها الإسلام فآمنهم من خوف، وجمعهم من شتات، وجعلهم خير أمة أخرجت

للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . على أن تلك القوة المُرَوِّعة كان يساورها خطر مُحيق من الفتنة بما حوت الممالك المفتوحة من عيش ناعم، ومُلك باسم، وزهو ولهو، وعزف وقصف، وما وراء ذلك مما يُفْسِد سرائر القوم، ويكدر ضمائرهم ويطفئ نور اليقين من قلوبهم، ويخمد نار الحميّة من صدورهم

وكان الإشفاق من وبال ذلك الداء أشد ما خامر قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، وفى سبيله ألقى على السابقين الأولين من المسلمين كلمته الخالدة « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ومن أجله حرّم على رجال المسلمين أن يتحلوا بالذهب وقال للمتختم به : « يعمِد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده » وحرّم عليهم لبس الحرير وقال : « إنما يلبسه من لا خلاق له » ، وأشباهُ ذلك ، مما كبح به الرسول جماح الفِتن وأخمد به جمرة الشهوات كثير لا يناله التعداد

وكان ذلك الإشفاق مما يهيج اللوعة والحسرات فى صدر الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . ومن قوله وهو مرتكس فى مرض موته يخاطب المهاجرين من أصحاب رسول الله : « والله لتتخذُن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمُن النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذى نفسى بيده لأَن يُقدَّم أحدكم فتُضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا »

وبينا كان الفاتحون يمعنون فى أعماق فارس والروم وكانت مغانم العدو وسباياه تتوارد على الخليفة الأيّد عمر بن الخطاب — بينا كان ذلك كله كان عمر فى شُغُل بما عسى أن يصيب العربَ من تلك الدنيا المقبلة والحياة المحْلُوَّة ، وهو الذى يقول بعد أن وطئ المسلمون أعراف مدائن كسرى « ليت بينى وبين فارس جَبَلاً من نار لا نصل اليهم ولا يصلون إلينا »

وكانت رهبة الدين وهيبة الخلافة لا تزالان تعقدان على عيون العرب حجاباً لا ينفذ النظر منه إلى متاع الحياة، وكانوا لا يزالون من نشر دينهم على غاية لم يبلغوها وهى غاية تملك عليهم خواطر نفوسهم ومدارج أنفاسهم فلا يشعرون إلا بها ولا يَحْيَوْن الا لها ولا يامحون ما دونها فلم تأخذهم لذلك فتنة ولم تفتنهم شهوة، ولم تبهرهم زينة. ولعلك تعلم أن مما أثار الناس على الشهيد المظلوم عثمان بن عفان وحملهم على اقتحام داره وسفك دمه ميله قليلاً الى ترفيه نفسه وساقوا من الأمثلة لذلك تعلية بيته وتزيين جدرانه واتخاذ الوصائف لخدمته. وكانت فتنة عاتية قاتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً وأذاقوا بعضهم بأس بعض ولم تنكشف حتى عصفت بعصر الخلافة وذهبت بجيل النبوة

وجاءت الدولة الأموية، وفى عهدها أخذت رهبة الدين تنحسر عن قلوب العرب، وقيلت أقوال لم تكن قبلُ تقال واجتُرحت أفعال لم تكن من قبل تفعل؛ وأى قول أشنع من أن يقوم شاعر مسلم بين سمع المسلمين وبصرهم فيقصّ عليهم حديث اعتدائه على أعراض المسلمات ثم لا يجد من الناس دفعاً ولا استنكاراً. بل أى جرم أبشع من أن يقف شاعر نصرانى بين يدى الخليفة الأموى فيسخر من شريعة الإسلام بقوله:

ولست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بقائل كالعير يوماً قبيل الصبح: حى على الفلاح
ولكنى سأشربها صبوحاً وأسجد قبل منبلج الصباح

ثم لا ينثنى من لدنِ الخليفة الا مثوباً موفوراً

وهل أتاك حديث أبناء النبى وأحبائه الذين عاهد الله المسلمين على مودتهم بقوله تعالت آيته « قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلا المودة فى القربى » أرأيت كيف قتلهم رجال هذه الدولة على مدرجة الطريق طعناً بالرماح وحزاً بالسيوف وصبراً

بالظمأ ثم ساقوا نساءهم سَوَاهِمَ الوجوه حواسر الرءوس تحملهم الإبل المُعَرّاة من بطحاء كربلاء الى مقر المُلك الأموى بدمشق

والمسلمون بمسمع وبمرصد لا جازع منهم ولا متصدع

على هذا السنن من العقوق للاسلام سار الأمويون فى غزو مدينة رسول الله واباحتها وهدم الكعبة واحراقها

وكان أكبر الظن بالقوم وتلك حالهم فى انتهاك الحرمات أن يستمتعوا بكل ما حوت البلاد المفتوحة من لذة ونعيم لولا أن معاوية بن أبى سفيان شيخ بنى أمية وفحل أجمتهم نفخ فى العرب روح العصبية العربية وحكم بهم الأمم على أنهم السادة وغيرهم المسودون وأنهم الآمرون وغيرهم المأمورون فحجزهم بذلك عن مخالطة من يلونهم من الأمم إلا مخالطة الحذِر المترفع الذى يرى الاتصال الوثيق بموالية منقصة وعاراً

ذلك الى أن العرب قضَوا الشطر الأكبر من ذلك العهد وهم فرق متناحرة، بعضهم لبعض عدو، ليس منهم الآمن كفّر خصمه واستحل دمه؛ فهناك أهل الشام ومَن حولَهم من الأعراب يشايعون بنى أمية، وهناك أهل العراق يبثون الدعوة لبنى هاشم، وهناك أهل الحجاز يلوذون بابن الزبير، وهناك الخوارج الذين خرجوا على الخلافة الموروثة والملك المغصوب؛ فأى أولئك يتسع له الوقت ليمرح فى مجال اللهو ويأخذ بأسباب النعيم

والحق أنَّ شيئاً من وسائل اللهو جُلب الى الأمصار الثلاث — دمشق والبصرة والمدينة، وتذوّقه الخواص من سادات العرب حين اطمأن المُلك وانقطعت أواصر الفتن، ومن هـذه الملهيات فن الغناء، جاء به جماعة من موالى الفرس وعلموه القيان الفارسيات فأسمعن العرب أشعارهم موقعة على النغم الفارسى؛ على أن

ذلك لم يَعْدُ القليل من ذوى الجاه يسمعونه فى كثير من التجمل والاعتدال

وكان حكماء بنى أمية وعظماؤهم يتواصون باجتناب السماع وما يستدعيهِ من تبسط وابتذال . وهذا الوليد بن عبد الملك يطرق سمعه غناء مغن فى عسكره ويرى جارية من جواريه تصغى الى الصوت فيدعو بالمغنى ويأمر بخصائه ثم يأمر بخصاء مخنثى المدينة الذين يغشون الديار ويغنون نساءها بالصوت المخنَّث والكلام المبذول ؛ وهذا مَسْلَمة بن عبد الملك يستمع غناء المغنيات فى قصر أخيه الخليفة سليمان فيزجره فى غير رفق ولا هوادة فلا يسع الخليفة إلا أن يطوى بساط الغناء ثم لا يعود إليه

وكان من سنة المستمعين من خلفاء بنى أمية أن يجلسوا وبينهم وبين ندمائهم ستر مضروب تصوناً واستتاراً واحتفاظاً بما يطلبه الملك من هيبة ووقار . ولقد مكّن الخليفةُ الخليع الوليد بن يزيد لخصومه من أهل اليمن أن يهتكوا عليه ستر الخلافة ويقتحموا عليه دارة الملك ويقتلوه جهرة بين قومه وعشيرته لأنه انحرف عن سبيل آبائه الى سبيل اللهو والخلاعة والابتذال . وفى ذلك يقول قائلهم

قتلنا الفارس المختال لما ... أضاع الحق واتبع الضلالا
ألا أبلغ بنى مروان عنى ... بأن الملك قد أودى فزالا

ولم يكن للجوارى فى ذلك العهد شأن ولا خطر ، فلم يُتخذن الا قهارمَ للخدمة أو سراريّ للاستيلاد ؛ وهم يسمون الجارية « جَفن سلاح » تشبيهاً لها بغمد السيف الذى لا شأن له وانما الشأن لما فيه . وقد ابتكر لهم هذه التسمية هَمّام بن غالب الفرزدق فى قوله وقد ماتت جارية حامل له :

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنُح ... عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفى جوفه من دارم ذو حفيظة ... لَوَانّ المنايا أمهلته ليـاليا

وكانوا ينكرون على الهُجَناء — أبناء الإماء — أن يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة ! وقد زجر هشام بن عبد الملك زيدَ بن على عن طلب الخلافة بقوله « بلغنى أنك تطلب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة !

وكان مَسلمة بن عبد الملك أشجع اخوته وأبعدهم همة ، ورغم ذلك دُفِع عن الخلافة دونهم لأنه هجين

وكانت المرأة العربية بفضل تلك العصبية العربية فى الذِّروة والسَّنام من الإعزاز والاكرام . فقد أصبحت تجر أذيال النعمة بين خدمها ووصائفها وترفع أعلام العزة بين آلها وذويها من الخلفاء والأمراء والقادة والولاة ومَن اليهم من كل ذى موقف مشهود ومقام محمود

ولم يؤثر ذلك النعيم الذى اجتَلَتْهُ المرأة العربية فى شىء من نقاء فطرتها ولاصفاء طبيعتها ولا قوة نفسها ولا توفرها على تربية أبنائها لأن العصبية العربية استبقت للرجل حميته وغيرته وعفته ، والرجل مرآة المرأة

على أن هذه العصبية التى صانت نفوس العرب عن التهور فى ضلال الشهوات كانت مزلق الأمويين الى السقوط الذى لا قيام بعده

فان الفرس الذين أوطنهم العرب مواطن الخسف وأوردوهم موارد الهوان لم يطيقوا القرار على ذلك طويلاً . وكيف يطيقونه وهم أهل الرأى والعلم والتدبير والعدد ؟ وكيف يقرون وقد وجدوا فى صفوف العرب ثغرة يقاتلون منها الأمويين باسم الدين ؟ أو لم يتتبع الأمويون سلالة النبى بالقتل والصلب والحبس والتشريد ؟ فالهم لا يغضبون لآل النبى ويثورون بهم ويتخذون من دمائهم وأشلائهم سهاماً مسدودة على أعدائهم ؟ أوليس قميص عثمان المخضب بدمهِ هو الذى جمع لمعاوية الجموع وساق له الجيوش حين نصبهُ للعيون بمسجد دمشق حتى لبس به قميص

الخلافة ؟ إذاً فلتكن الدماء المراقة على بطحاء كربلاء هى التى تدك عروشهم دكاً ! والفرس أعرف أمم الشرق القديم بتدبير المكايد وتنظيم الثورات ، ولا تنس أن العصبية العربية أرجعت العرب الى قديم أمرهم قبل الاسلام من فُرقة وشتات ، فبعد أن كانوا جميعاً قلباً واحداً تهزه كلمة واحدة وتدفعهُ عقيدة واحدة وتجتذبه غاية واحدة أصبحوا شعوباً وقبائل ! فهنالك قحطان وعدنان ، وهنالك مضر وربيعة ، وهنالك قيس وتميم ، وهنالك فرعا قريش من أمية وهاشم ، وكل منهم يفتخر بعزه القديم ومجده الصميم . وفى تفاريق هذه الفرقة جمع الفرس شملهم وألفوا وحدتهم وأحكموا مادتهم وجمعوا عديدهم ثم استاقوا الجيوش الزاخرة من إقليم خراسان فسارت حتى التقت بجيوش بنى أمية على نهر الزاب ولم تكن الا جولة بعد جولة حتى انتكث شمل الأمويين والتاثت صفوفهم وتبددت جماعتهم وفر خليفتهم حتى لقى مصرعهُ فى مصر ، وعلى أنقاض ذلك الملك الدابر قامت خلافة بنى العباس

وكان مُلك بنى العباس مُلكاً فارسياً يعلوه خليفة عربى ، فالفرس هم ركن الخلافة ودعامتها ، وهم وُلاتها وساستها ، وهم كفاتها وقادتها ، وهم مشيروها ووزراؤها ، وهم مفكروها وعلماؤها ، وهم كتابها وشعراؤها ؛ وهم مُغنّوها وندماؤها . وانتقلت الخلافة من بلاد العرب الى العراق الفارسى فأصبحت بغداد خلفاً من المدائن

وأراد الفرس أن يخمدوا آخر جذوة من الحمية العربية وأن يقطعوا آخر عقدة من العصبية العربية فأجلبوا عليهم بكل ما يوهن النفوس ويُصبى القلوب من سماع وشراب وكواعب أتراب ، وأغرقوهم فى بحر طامٍ من السَرَف والترف والزهو واللهو والمحارم والمآثم ، ولم يمض غير قليل حتى راح العرب يخطِرون فى مطارف الفرس ويلعبون فى ملاعب الفرس ويشربون فى مشارب الفرس ويتأدبون بآداب الفرس ويتخلقون بأخلاق الفرس . والمرأة والرجل كقوتى الكهرباء إذا تأثر أحدهما تأثر الآخر ، وكذلك بدأت المرأة العربية تتأثر

وكان لتلك المرأة منزلة فى القلوب تعنو لها الوجوه وتطمئن دونها النفوس، ولم يكن مرجع ذلك لما لها من جمال ودلال وغضارة ونضارة وخلابة ودعابة، فما كانت من ذلك فى قليل ولا كثير، ولكنها كانت فيما تفردت به بين نساء العصور الأولى من سمو الروح الى أبعد مرتقى، وصفاء النفس الى أتم غاية، وكان من أثر ذلك ما ذاع عنها من نبل وسناء، وعزة وكبرياء، وجلال فى الطبع والخلق، وترفع فى القول والفعل، واسعاد للزوج والولد، حتى كان من ثمرتها تلك الأمة التى جمعت أطراف الأرض وملكت نواحى الأمم فى أقل من خمسين عاماً. ومثل تلك المرأة اذا انحرفت عن المَحَجّة وانثنت عن الغاية وأسَفَت الى اللهو واستراحت الى الشهوات خمد منها روح السمو وانهتك عنها ستر الجلال، وذلك ما قاد المرأة العربية الى شفير الهاوية

وكانت أمور صرفت الرجل العربى عن المرأة العربية بعد أن كانت عينه التى بها يبصر، ويده التى عليها يعتمد، ونفسه التى بشعورها يشعر، وقلبه الذى بوعيهِ يعى؛ فلما أحاطت شهوته بعقلهِ وغلبت مجانته على دينهِ وجد عن امرأتهِ مصرفاً، ثم ما زالت الصلة تهن والعقد تُحَلّ حتى استحال عدواً لها يأخذ عليها مدارج أنفاسها ويحصى عليها لحظات عينها ونبرات صوتها وخطرات نفسها، وكان أشد ما فتَن الرجلَ فى نفسهِ وغلبهُ على عقله وصرفهُ عن امرأته ثلاثة أشياء

الأول — الجوارى اللواتى سباهن العرب من مختلف الأقطار والأمصار

الثانى — الديارات[1] التى بثها الروم والسريان وأشباههما فى تفاريق البلاد لصرف العرب أولاً عن قوميتهم وأخيراً عن دينهم

الثالث — ذيوع البغاء وأمثال البغاء فى حواضر العراق

وسنختص كلا من هذه الثلاثة بكلمة تكشف عن حقيقتهِ وتبين ما كان له من عمق الأثر وبعد الخطر فى الرجل العربى والمرأة العربية

(١) الديارات جمع دير

الجوارى

كل ما وراء العدو من نفس ومال فهو فىء الله أفاءه على المسلمين وولّى أمرَه امامهم، فان شاء تجاوز عنه ومنّ به، وإن شاء بسط عليه يده وعاد به على ذوى الحق فيه

وبحكم ذلك كانت بنات العدو ونسوته من مغانم الحرب فى كل بلد كان للسيف حكم فتحه وامتلاكه

وقد خَلَص للمسلمين من وراء ذلك عدد لا يحده الإدراك من النساء على اختلاف أسنانهن وأجناسهن وأخطارهن، ومنهن الفارسيات والتركيات والأرمنيات والجرجيات والشركسيات والروميات والبربريات والحبشيات، وفيهن بنات الأكاسرة والقياصرة والأساورة والبطارقة من كل قاصرة الطرف ناعمة الكف لم تبتذل لها المِهَن ولم تمتهنها المحن

لم تَلْقَ بُؤسا ولم يضرُر بها عوز ولم تُرَجَّفْ مع الصالى إلى النار

وكان قواد الدولة وولاة الأمصار يجمعون من أولئك أنضرهن وجهاً وأنداهن صوتاً وأمثلهن أدباً ويرسلونهن إلى الخليفة وهو يصطفى منهن من يشاء ويثيب وزراءه وندماءه وخلصاءه بمن يشاء

ولقد ينبئك بما تجمع للخلفاء من الجوارى ما روى ابن الأثير أن المتوكل أُهدِى اليه فى يوم واحد عشرون ألف جارية، ولَهُنّ ولأشباههن بَنَى قصر الْجَعْفَرى حين ضاقت بهن مقاصير قصر الخلافة فى بغداد

ومن حديث تلك الكثرة أن الرشيد أهديت اليه جارية رائعة الجمال فاحتفل بها إحتفالاً أخرج فيه من جواريه المغنيات وساقيات الشراب زهاء ألفى جارية فى أحسن زى وأتم حِلْية، واتصل الخبر بزوجه زبيدة فالتهب صدرها غيظاً وغيرة، وفزعت إلى عُلَيَّةَ بنت المهدى فصنعت لحناً بديعاً وخرجت هى وزبيدة فى زهاء

ألفى جارية عليهن غرائب الثياب وكلُّهن ينشدن بصوت واحد ولحن واحد

منفصلٌ عنّى وما قلبىَ عنه منفصلْ
يا قاطعى اليوم لِمنْ نَوَيْتَ بعدى أنْ تصل

فطرب الرشيد وقام حتى استقبل زبيدة وعُلَيّة وقال لم أرَ كاليوم قطّ ! يا مَسْرور ! لا تُبْقِيَنّ فى بيت المال درهما إلا نثرته ، فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستة آلاف ألف ! !

وعلى هذا السَّنن من الكثرة سار الخلفاء ومَن دُونهم من ذوى النعمة والثراء . وربما وقعت الفتاة الرُّود فى سَهْم الزاهد فيها الراغب فى المال عنها فيبيعها من المقَيِّن وهو يذهب بها الى جواريه فيَجْلُونَها أحسن جلوة ويُزَيِّنَّها أنفس زينة ثم يعرضها للراغبين فى معرِضه من سوق الجوارى أو يستبقيها فى بيته ليُرَوِّيها الشعر ويُخرِّجها فى الغناء ، وبها وبمثلها تصبح داره مثابة القاصدين من الخلفاء ومَن دونهم ليستَرْوحوا منهن بحسن الحديث وطِيب السماع ، وربما رغب العظيم فى اقتناء احداهن فبذل لصاحبها غاية ما يتمناه

وكان الجوارى أنفس ما يتهادى به ذوو الأخطار ، وأفضل ما يثاب به الأدباء والشعراء والسُّمَّار ، وبذلك انبثثن فى كل موطن وحللن فى كل دار . وإذا آلمك أن يَسبِيَ العرب هـذا العدد العديد من النساء فاعلم أنهن اللواتى سبين العرب ، وملكن أزمتهم ، ووطِئن أكتافهم ، واقتعدن ظهورهم ، وضربْن بينهم وبين نسائهم بسور له باب ظاهره الحسن والدلال ، وباطنه الذل والوبال . ذلك أنهن أصبحن عقدة تلك الحياة التى لم يعصمها دين ولم يُحِط بها رفق ولم يخالطها وقار ، حياة السَّرَف والتَّرف والشهوات واللذات . وكان لهن من وسائل امتلاك قلوب العرب ما يروض كل عَصِى ، ويستقيد كل أبىّ ، ويستميل كل نافر ، ويستدل كل جامح ،

الجمـــال

وأوّل تلك الوسائل الجمال ، وأنت تعلم أن العرب فتحوا بلاداً ليس لبلادهم شيء من صفاء جوها ، ولا رخاء عيشها ، ولا اعتدال اقليمها ، ولا رقة نسيمها ، ولا انسجام نعيمها ، ولا ابتسام زهرها ، ولا ازدهاء شجرها ، فما يمنع نساءها أن يكنّ على سواء أولئك صفاء وبهاء ، وجمالاً واعتدالاً ؟ وقد احتوى الجميعَ بلدٌ واحد وغذّتهن طبيعة واحدة ، ونفّحتهن نسمة واحدة

وكان من أيسر الأمور أن يُطلب الجمال المطْلق فى واحدة فإن لم يكن ففى جماعة وهن من كثرة العدد واختلاف النوع على مثال ما رأيت

التجمـــل

وربما كان أفتنَ للعقول من الجمال ، وأسبى منه للنفوس أن تحسن المرأة التجمل فى زِيّها وزينتها ، وحديثها واشارتها ، وعَبَثها ودَعَابَتِها ودَلّها وخَلَاعتها ، وجلوسها وَمِشيتها ؛ فتلك ضروب من الجمال لا يستوى النساء فى تنسيقها ولا تأليفها . وربما أخرجتها المرأة فى غير مُخْرَجها فأسأمت كل نفس وثقُلت على كل روح ، وقد تصيب بها مواضعها فتكون أمضى من الجمال سلاحاً ، وأعظم منه كيداً ؛ والمرأة الفارسية أقدر نساء الشرق القديم على استلاب قلوب الرجال . ولقد شاء القدر أن تصارع المرأة الأجنبية ما فى الرجل العربى من بداوة وحَمِيّة وعصبية فما زالت تفوّق اليها من سهام الحسن المجلوب والجمال المخضوب ما مزق قوتها وأطفأ جمرتها . ولقد لذ هذا الصراع لبنات الفرس حتى الحرائر اللواتى لم يُكْتَب عليهن رق ولم يُفرَضْ فيهن حق فكنّ يتزيّنْنَ بزى الجوارى ويُدلَفن الى سُوقِهِنّ ! ! وعليهن الأوشحة والعصائب والأكاليل والتيجان ، وبأيديهن المراوح وقد كتب على

كل ذلك بالذهب والجواهر من غرر الشعر ما تحار فيه القلوب والأبصار. فما كتبته إحداهن على جبينها بالمسك

كَتَبَتْ فى جبينها بِعَبِيرٍ على قمـــر
فى سطورٍ ثلاثةٍ لعن الله من غدر
وتناولْتُ كَفَّهـــا ثم قلت اسْمَعِى الخبر
كل شىء سوى الخِيَا نَةِ فى الحب يغتفر

ومما كتبته أخرى على عصابتها

فما زال يشكو الحب حتى كأنما تنفس فى أحشائه وتكلما
فأبكى لديه رحمة لبكائه اذا ما بكى دمعاً بكيتُ له دما

ومما كتبته أخرى

الكفر والسحر فى عَيْنى إذا نَظَرَتْ فأغْرُبْ بعينك يا مغرورُ عَنْ عينى
فان لى سيف لحظ لست أُغمده من صنعة الله لا من صنعة القَيْنِ

ومما كتبته واحدة على هلال فى صدرها

افلِتُّ من حور الجنانِ وخُلقت فتنة من يرانى

وربما ظهرت الجارية فى زى فارس فتقلدت السيف واعتقلت الرمح واتخذت المِنطَقَة على خصرها والقلنسوة فوق رأسها

ومما كتبته احداهن على قلنسوتها

تأمل حسن جارية يحار بوصْفِها القمر
مذكَّرَةٍ مُؤَنثـة فهِىْ أنثى وهِىْ ذكر

وعلى حمائل سيفها

لم يكفِهِ سيف بعينيه يقتل من شاء بحديه
حتى تردى مرهفاً صارماً فكيف أبقى بين سيفيه
فلو تراه لابساً درعهُ يخطِر فيها بين صفيه
علمت أن السيف من طرفه أقتلُ من سيف بكفيه

وأشباه ذلك كثير

ومِمَّنْ وصف أساليب الجوارى ، فى العَبَثِ بقلوب الرجال فأحسن الوصف أبو عثمان الجاحظ فى حديث مستفيض . ولا بأس أن نسوق اليك ما عَفَّ منه وشاكل موضوع الكتاب ، قال :

« إن القَيْنَةَ لا تكاد تناصِحُ فى ودها لأنها مكتَسِبَةٌ ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربِّطين ليقعُوا فى أنشوطتها ، فاذا شاهدها المشاهد رامتهُ باللحظ وداعبته بالنَّسَم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودتهِ ، والحزن لفراقهِ ، فأذا أَحَسَّتْ بأنَّ سِحْرَها قد تغلَّبَ فيهِ ، وأنهُ قد تغلغل فى الشَّرَكْ ، تَزَيَّدَت فيما كانت قد شرعت فيهِ ، وأوهمتهُ أن الذى بها أكثر مما بهِ منها ، ثم كاتبته تشكو اليهِ هواها ، وتقسم له أنها مَدَّتَ الدواة بدمعها ، وبلَّت السحاء بريقها ، وأنهُ سَبْحها وشجوها فى فكرتها ، وضميرها فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تُؤثِرُ أحداً على هواه ، ولا تنوى انحرافاً عنهُ ، ولا تريده لماله بل لنفسهِ ، ثم جعلت الكتاب فى سلاسل طومار وختمتهُ بزعفران ، وشدته بقطعة زير ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها ، وألَحَّتْ فى اقتضاء جوابه ، فان أُجيبَتْ عنه ادّعت أنها صيّرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضمير مليحة نَغَماتُها
جاءتْ وقد فرح الفؤا دُ لِطول ما استبطأتُها
فَضَحِكْتُ حين رأيتها وبكيت حين قرأتها
عينى رأت ما أنكرت فتبادرت عبراتها
أظلوم نفسى فى يديك حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ بـ

إنَّ كتاب الحبيب نَدْمَانِى مُحَدِّثِى تارةً وريحانى
أضحكنى فى الكتابِ أوله ثم تمادى به فأبكانى

ثم تجنّت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله ، ووصمتْهُ النظر الى صواحبها ، وسقته أَنْصَافَ أقْدَاحِها ، وجَمّشته بِعُضُوض تفاحها ، ومنحته من ريحانها ، وزودته عند انصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من مِرْطِها ، وشظية من مضرابها ، وأهدت اليه فى النيروز تكة وسكرا ، وفى المِهرَجان خاتماً وتفاحاً ، ونقشت على خاتمها رسمهُ ، وأبدت عند العثرة اسمهُ ، وغنته اذا رأته

نظرُ المُحِبِّ الى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليه عظيم

ثم أخبرتهُ أنها لا تنام شوقاً اليه ، ولا تهنأ بالطعام وجداً عليه ، ولا تمل — اذا غاب — الدموع فيه ، ولا ذكرته إلا تنغصت ، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت ، وأنها قد جمعت قِنِّينَةً من دموعها من البكاء عليه ؛ وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمها وأَشْبَهَهُ أو كان منهُ مدانيا

وعند الدعاء به قوله

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

ادب الجوارى

بذلك وأشباهه استمكن الجوارى من شهوات العرب، و بقى أن يملكن عليهم مجال أرواحهم ، و يأخذن عليهم سبل مشاعرهم ، ويَحْفِفْنَ بهم من كل نواحيهم . والعربى شاعر يهب الشعر قلبهُ وماله ، طروب يهزه رِزَامُ الناقة ، ويبكيه نوح الحمام ، و بلاد فارس بما حَبَاها الله من حسن واشراق مشرق شمس الشعر ، ومهبط وحى الغناء ؛ وليس ينقُصُ الفتاةَ الفارسيةَ إلا أن تروى الشعر العربى حتى تكون شاعرة ساحرة ، ومغنِّيَةً مضنية ، وذلك ما أقبل عليهِ الجوارى ومؤدبوهن اقبالاً لا حدّ له

وكان المقيِّنون يحتازون الجارية فان وجدوا منها لباقة فى اللفظ أو رخامة فى الصوت دفعوا بها الى المؤدبين والمغنين فيُرَوونها الشعر ويلقنونها الغناء ، فان تم لها هذان نبه شأنها ، وتنافس ذو و السلطان فى ابتغائها والمغالاة بها ، ولصاحبها من وراء ذلك ربح غير معدود ، وحظ غير محدود .

وكانوا قبل عهد بنى العباس لا يُعلِّمُون الغناء الا الصُّفرَ والسود ، فلما ازدهر العهد العباسى وظهر ابرهيم الموصلى أخذ يختار الحسان ويعلمهن الغناء فكانت داره أشبه ما تكون بمعهد موسيقى يتخرج فيهِ حسان المغنيات ، فاذا تم ذلك لهن أخذ يبيعهن من الخليفة أو الوزير بما يكفل له الغِنَى والجاه والحظ العظيم .

وفيما فعله ابرهيم يقُول أبو عيينه

لا جزى الله الموصلىَّ أبا اِسْـ ... ـحاقَ عَنَّا خيراً ولا احسانا
جاءنا مرْسَلاً بوحى من الشَيْـ ... ـطَانِ أغْلَى به علينا القيانا
من غِنَاءٍ كأنه سكرات الْـ ... ـحُبِّ يُصْبى القُلُوبَ والآذانا

ولم يمض غير قليل حتى ظهر فتيات الفرس فى ميدان الشعر العربى والغناء العربى يدافعن الشعراء والمغنين بالمناكب ، وأخذن يُفرغن على الشعر العربى حلة مُذْهبة

النسج ، واضحة النهج ، صفيّة الديباجة ، خفيفة الروح ؛ وفى مذاهبهن سار المُرقّون من الشُعَراء ، أمثال ابرهيم بن العباس ، وعلى بن الجهم ، ومهيار الديلمى ، ومَن ذهب فى مذاهبهم ودرج على آثارهم

وكان هذا العصر عصر مطارحة للشعر بين الرجال والجوارى ، يبتدىء الشاعر ببيت من الشعر فتعارضهُ الجارية بمثله على وزنه وَرَويّه وفى بقية معناه ، واكثر ما تكون الغلبة للنساء ، فقد كُنَّ أسرع بديهة وأرق طبعاً . ومن حديث ذلك أن أعرابياً ذهب الى عنانَ جارية الناطفى وصاحبة أبى نواس فقال : بلغنى أنك تقولين الشعر فقولى بيتاً ، وكان السلولى الشاعر عندها فقالت قل أنت يا عم ! ! فقال السلولى

لقد جَدَّ الفراق وعِيل صبرى عشيَّة عِيرُهم للبين زُمَّت

فقال الأعرابى

نظرت الى أواخرها ضُحَيًّا وقد بانت وأرضَ الشام أمَّت

فقالت عنان

كتمتُ هواكمُ فى الصدر منى على أن الدموع علىَّ نمَّت

فقال الأعرابى أنتِ والله أشعرنا ولولا أنك بحرمة رجل لقبَّلتك ، ولكنى أُقبّل البساط

ومن بديع المطارحة أن على بن الجهم ألقى على فضل الشاعرة بحضرة المتوكل بيتاً غريب القافية ليعجزَهَا فقال

لاذ بها يَشتكى اليها فلم يجد عندها ملاذا

فما لبثت أن قالت

ولم يزل ضارعاً اليها تهطل أجفانهُ رَذَاذا
فعاتبوه فزاد عشقاً فمات وجداً فكان ماذا

وسنسوق اليك فى حديث الشواعر والمغنيات من ذلك شيئاً كثيراً

ومن فَضْل الشواعر من الجوارى على نظرائهن من الرجال أنهن كن يجمعن بين الشعر والغناء ، فكانت الجارية تقول الشعر ثم تُوَقعهُ ثم تتغنى بهِ فتخرجهُ أحسن مخرج وتؤثر بهِ أنفذ تأثير

بذل

وممن هؤلاء بذل المغنية جارية جعفر بن موسى الهادى ، وكانت أستاذة كل محسن ومحسنة ، وكانت فيما ذكروا أروى خلق الله للغِناء وأخبار المغنين ، ومن قولها إنها تروى ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب جمعت فيه اثنى عشر ألف صوت ويقال انها كتبته فى يوم وليلة ! وهو قول ظاهر الغلو على أنهُ دليل على ما بلغته فى فنها من سمو وبعد غاية

وكان كل مغن يصف نفسهُ بالسبق فى فنه والتفرد فى احسانه إلا بين يدى بذل ، فهناك يتضاءل فخره ويلتبس سبيله حين تأخذ عليهِ نواحى الفن فلا يجد عنها مصرفاً ولا محيدا

وكان ابرهيم بن المهدى سيد أهل الغناء يعظمها ويتوافى لها ثم تغير بعد ذلك استغناء بنفسه عنها فصارت إليهِ فدعا بعود فغنت فى طريقة واحدة وإيقاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف ابرهيم منها صوتاً واحداً ، ووضعت العود وانصرفت فلم تدخل داره حتى طال عَناؤه فيها وطلا به لها وتوسله اليها

ومن حديثهم أن شيخ المغنين اسحاق بن ابرهيم الموصلى خالف بذلا فى نسبة صوت غنته فى حضرة المأمون فأمسكت عنهُ ساعة ثم غنت ثلاثة أصوات وسألت اسحاق عن صانعها فلم يعرفهُ ، فقالت للمأمون يا أمير المؤمنين هى والله لأبيه أخذتها مِن فيه ! فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ؟ ! فاشتد ذلك على اسحاق حتى رُئى فى وجهه

وكانت بذل لجعفر بن موسى الهادى فوصفت لمحمد الأمين فى عهد خلافته فبعث إلى جعفر يسأله أن يُزيره بَذْلاً فلم يفعل، فوافاه الأمين فى منزله فسمع من الغناء ما لم يسمع مثله قط ، وأحب الخليفة أن تكون له بذل فاستامها من ابن عمه فقال جعفر يا سيدى مثلى لا يبيع جارية قال هبها لى قال هى مدبّرة فاحتال الأمين عليهِ حتى أسكره وأمر بحمل بذل إلى حرّاقته وانصرف بها ، فلما أفاق جعفر سأل عنها فأخبر الخبر فسكت ، فبعث إليه الأمين من غده فجاء وبذل جالسة فلم يقل شيئاً فلما أراد أن ينصرف قال الأمين : أوقروا حراقة[1] ابن عمى دراهم فأوقرت فكان مبلغ ذلك عشرين الف الف درهم ، ووهب لها الأمين من الجوهر ما لم يملك أحد مثله وبعد مقتله رغب اليها وجوه القواد والكتاب و بنى هاشم فى التزويج فأبت وأقامت فى موطن الإجلال من الخلفاء والأمراء وصدور الدولة حتى ماتت

عنان

وهى أحسن شعراء دهرها بديهة وأسبقهم نادرة وأعذبهم حديثاً وكل ذلك فى رقة وجمال قلَّ أن يكونا لغيرها ، وهى من مولدات اليمامة وبها كانت نشأتها ثم اشتراها الناطفى أحد المُقيِّنين فى بغداد فكان بيته من أجلها مندَى العظماء والشعراء والعلماء . وكان أمراء الشعر يأتونها فيلقون عليها البيت أو البيتين فتجيزهما بما لم يخطر لهم على بال

ومن حديث مروان بن أبى حفصه شاعر المهدى والرشيد أن الناطفى لقيه فدعاه إلى بيته فانطلق معه ، ودخل إلى عنان قبله ، فقال لها جئتك بأشعر الناس مروان بن أبى حفصه ، وكانت تشكو علة ، فقالت إنى عن مروان فى شغُل فأهوى اليها بالسوط ، وقال لمروان ادخل فدخل وهى تبكى ورأى الدمع ينحدر من عينها فقال

بكت عنان فجرى دمعها كالدر إذ ينسلّ من خيطه

(١) الحراقة سفينة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو

فقالت مسرعة

فليت من يضربها ظالماً تجفّ يمناه على سوطه

فقال مروان أعتقُ ما أملك إن كان فى الجن والانس أشعر منها

وقيل ان الرشيد جلس ليلة ومعه سُمّاره ، فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير التى يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال مَعينا

فطرب لها الرشيد طرباً شديداً ، وقال لجلسائه هل منكم من يُجيز هذه الأبيات ، وله هذه البدرة — وبين يديه بَدْرَة من دنانير[1] — فلم يصنعوا شيئاً ، فقال خادم من خاصة خدمه ، أنا بها لك يا أمير المؤمنين ، قال شأنك ، فاحتمل البدرة ، ثم أتى الناطفى فقال استأذن لى على عنان ، فدخل وأخبرها الخبر ، فقالت ويحك وما الأبيات ؟ فأنشدها إياها ، فقالت اكتب

هيجت بالقول قد الذى قلتهُ داء بقلبى ما يزال كمينا

قد أينعت ثمراته فى روضها وسُقين من ماء الهوى فرَوينا

كذب الذين تقوّلوا يا سيدى أن القلوب إذا هوَين هَوِينا

فدفع اليها البدرة ورجع إلى هرون ، فقال له ويحك من قالها ، قال عنان جارية الناطفى فقال حللت الخلافة من عنقى إن باتت إلا عندى فاشتراها منه بثلاثين ألفا

وقال احمد بن معاوية ، تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدى أن أجد من يجيزه ، فلم أجد ، فقال صديق لى عليك بعنان جارية الناطفى فأتيتها فأنشدتها البيت وهو

وما زال يشكو الحب حتى رأيته تنفس من أحشائه وتكلما

---

[1] البدرة كيس فيه سبعة آلاف دينار

فلم تلبث أن قالت :

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

ودخل عليها أبان بن عبد الحميد وأبو العباس بن رستم وهى فى خيش ، فقال لها أبان : العيش فى الصيف خَيشٌ . فقالت مسرعة : إذ لا قتالٌ وجيش ، فأنشدها أبو العباس بن رستم قول جرير

ظَلِلْت أوارى صاحِبيَّ صبابتى وقد علِقَتْنِى من هواك عَلُوق

فقالت مسرعة

اذا عقل الخوف اللسان تكلمت بأسراره عين عليه نَطُوق

ولِعنانَ مع أبى نواس فصول طوال ، كان يتعرض لها بما يظنه أن يحرجها فترد عليه بما يفحمهُ ويقهره . وقد صرفنا القول عما تجاذباه من الشعر لأن أكثره مما يند على السمع لهُجره ومجانته

ومن حديث الجد بينهما أنه دخل عليها وهى جالسة تبكى لما أصابها من ضرب الناطف ، فأومأ هذا إلى أبى نواس أن يكلمها فقال أبو نواس

عنانُ لو جُدْتِ لى ! فأنِّىَ مِن عمرىَ فى « آمَنَ الرسول بما »[1]

فقالت :

فان تمادى ولا تماديت فى قطعك حبلى أكن كمَن ختما

فقال أبو نواس

عُلِّقْتُ مَنْ لو أتى على أنفُس الـــماضِينَ والغابرين ما ندما

فقالت :

لو نظرت عينها إلى حجر ولَّد فِيه فتورها سقما

(١) يقول أنه يتمنى جودها بالرضا لأنه فى آخر مرحلة من الحياة كما أن هذه الآية الكريمة «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ...» فى آخر سورة البقرة ، فقالت فى بيتها الثانى تتمة لكلامه أنها اذا تمادت ختم عمره كما تختم هذه الآية

بَصْبَص

جارية أوتيت كثيراً من ملاحة الوجهِ وسحر الغناء. تلقت صناعتها عن الطبقة الأولى من المغنين. وكانت فى رق يحيى بين نفيس، وكان يحيى صاحب قيان، يُرَوِّيهِنَّ الشعر ويعلمهن الغناء، ومن أجل ذلك كانت داره بالمدينة مهبطاً للوجوه والأشراف، ووُصفت للمهدى وهو ولى عهد فاشتراها بسبعة عشر ألف دينار، وقيل انه استولدها ابنته عُلَيَّة. وكان عبد الله بن مصعب حفيد ابن الزبير يأتيها بالمدينة فى فتيان قريش فيستمع منها، وكان من أشد الناس اعجاباً بها، وفيها يقول حين قدم المنصور منصرفاً من الحج ومر بالمدينة

أراحلٌ أنت أبا جعفرٍ ... من قبل أن تسمع مِن بَصْبصا؟
هيهات أن تسمع منها إذاً ... جاوزَت العيس بك الاعوصا[1]
فخذ عليها مجلسَىْ لذة ... ومجلساً من قبل أن تشخصا
أحلف بالله يميناً ومَن ... يحلف بالله فقد أخلصا
لو أنها تدعو إلى بيعة ... بايعتها ثم شققت العصا

وما كان أجرأ ذلك الفتى القرشىّ على المنصور وهو الذى لا تأخذه فى سفك الدماء ملامة ولا يثنيهِ عنها حرج، ولقد بلغ المنصور هذا القول فاشتد غضبه، ودعا الشاعر وقال له: أمَا إنكم يا آل الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا[2] حتى صرت أنت آخر الحمق، تبايع المغنيات، فدونكم يا آل الزَبير هذا المرتع الوخيم.

(١) الأعوص منزلة فى طريق المدينة (٢) يشير المنصور إلى حوادث انقاد فيها رجال هذا البيت إلى رأى النساء وأولها انقياد الزبير بن العوام إلى رأى سيدة النساء فاطمة الزهراء حين غاضبت أبا بكر وجانبته فامتنع الزبير عن بيعته مرضاة لها حتى توفيت. ومنها انقياد عبد الله بن الزبير إلى رأى أمه أسماء حين دفعته الى المضى فى قتال الحجاج حتى الموت وكان مصعب بن الزبير لا يبرم أمراً الا اذا استشار احدى زوجتيه عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين

وفى بصبص يقول هرون بن محمد بن عبد الملك

بصبص أنت الشمس مزدانةً ... فان تبدلتِ فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا ... فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود فى مشهد ... وعاونت يمنى يديها الشمال
غنت غِنـــاء يستفز الفتى ... حذقاً وزان الحذقَ منها الدلال

وممن شغف بهذه الجارية من أبناء الأشراف، محمد بن عيسى الجعفرى، وقد هام بها طويلاً ثم لما عز عليهِ طلابها سلّى نفسه بعض السلو عنها، ومن حديثه أنه قال لصديق له لقد شغلتنى هذه الجارية عن صنعتى وكل أمرى، وقد وجدت مَسَّ السلو عنها، فاذهب بنا اليها حتى أكاشفها ذلك وأستريح، فأتياها، فلما غنتهما قال لها محمد بن عيسى: أتغنين

وكنت أحبكم فسلوت عنكم ... عليكم فى دياركم السلام

فقالت: لا. ولكنى أغنى

تحمّل أهلها عنهـــا فبانوا ... على آثار من ذهب العفاء

فاستحيا محمد، وبدّل بالسلو كلفاً ووجداً، وأطرق ساعة ثم قال لها: أتغنين

وأخضع بالعتبى إذا كنت مذنباً ... وإن أذنبت كنت الذى أتنصل

قالت: نعم. وأغنى أحسن منهُ

فان تقبلوا بالود نقبل بمثله ... وننزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين، وما شعر بهما أحد

وحضر أبو السائب المخزومى مجلساً فيهِ بصبص فغنت

قلبى حبيس عليك موقوف ... والعين عَبْرَى والدمع مذروف
والنفس فى حسرة بغصتها ... قد شفّ أرجاءها التساويف

إن كنت بالحسن قد وصفت لنا فانني بالهـــوى لموصوف
يا حسرتا حسرةً أموت بها إن لم يكن لى اليك معروف

فطرب أبو السائب ونعر، وقال لا عرف الله من لم يعرف لك معروفك، ثم أخذ قناعها من رأسها ووضعهُ على رأسه وجعل يبكى ويلطم ويقول لها بأبى أنت، والله إنى لأرجو أن تكونى عند الله أفضل من الشهد لما تُنوِّليناه من السرور، وجعل يصيح: واغوثاه! يا لله ما يلقى العاشقون!

وحدّث عثمان بن محمد الليثى قال: كنت يوماً فى منزل ابن نفيس فخرجت الينا جاريته بصبص، وكان فى القوم فتى يحبها، فسألته حاجة، فقام ليأتيها بها، فنسى أن يلبس نعله، ومضى حافياً، فقالت له يا فلان نسيت نعلك، فرجع فلبسها وقال: أنا والله كما قال الأول

وحبك يُنسينى عن الشىء فى يدى ويشغلنى عن كل شىء أحاوله

فأجابته فقالت

وبى مثل ما تشكوه منى وإننى لأشفق من حب لذاك تزايله

دنانير

وهو اسم لجاريتين

أما الأولى فجارية، محمد بن كناسة، وكان ابن كناسة شاعراً فى الطبقة الثانية من شعراء العهد العباسى، وكانت جاريته فى مثل طبقته منهم، ومن حديثها ما رواه المرزبانى عن بعض شعراء الكوفة، قال: قال لى محمد بن كناسة اشتهت دنانير أن تنظر الى الحيرة فهل لك أن تساعدنا؟ وكان الزمان ربيعا، فقلت نعم، فقال تقدَّمنا لنلحق بك، فقصدت الخورنق، وجلست فى بعض المواضع المعشبة،

واذا به قد أقبل على بغلة ، ومعه دنانير على حمار ، فنزلا وجلسنا ، وقد سترت بعض وجهها عنى ، فقلت أداعبها — وكان محمد يأنس بى ويسكن الى — انما تسترين وجهك عن شيخ ، فقالت : طماح العين ، فضحكنا ، ثم أخذنا ننظر الى رياض الحيرة وبقاعها ونتذكر ما مضى بها من الزمان ونستحسن حمرة الشقائق على ائتلاف تلك الأنوار والألوان ، فأخذ محمد عوداً وكتب على الأرض :

الآن حين تزيّن القُطر انجادُه ووهاده العُفر

فقلت أحسنت وكتبت

بريّة فى البحر نابتة يُجْبَى إليها البر والبحر

فكَتَبتْ

وسرى الفرات على مياسرها وجرى على أيمانها النهر
وبدا الخورنق فى مطالعها فرداً يلوح كأنه الفجر
كانت منازل للملوك ولم يُعمل بها لمملّك قبر

أقول ومن أشرف الشعر وأجزله وأنزهه قولها تخاطب أبا الشعثاء ، وكان رجلاً عفيفاً مزاحاً ، وكان يدخل الى ابن كناسة يسمع غناءها ويعرض لها بأنه يهواها

لأبى الشعثاء حب كامن ليس فيه نُهْضَةٌ للمُتهِم
يا فؤادى فازدجر عنه ويا عبث الحب به فاقعد وقم
زارنى منه كلام صائب ووسيلات المحبين الكَلِم
صائد تأمنه غزلانه مثل ما نأمن غزلان الحرَمَ
صَلّ إن أحببت أن تُعْطَى المنى يا أبا الشعثاء لله وصم
ثم ميعادك يوم الحشر فى جنة الخلد ان الله رحم

وأما الثانية فجارية جعفر بن يحيى ، وكانت أنبه من الأولى ذكراً وأبدع شعراً وأتم ظرفاً وكمالاً ، وأزهى حسناً وجمالاً ، وأكثر رواية واطلاعاً ، وأدق لحناً وايقاعاً ، وكانت لرجل من أهل المدينة وهو الذى خرّجها فى الأدب والغناء ، فلما رآها جعفر بن يحيى وقعت بقلبه فاشتراها ، وكان الرشيد يسير الى دار جعفر ليسمعها ويتحدث اليها حتى ألفها واشتد اعجابه بها فكان لما يشعر من شغفه بها ونزوعه اليها لا يطيق الصبر عن المسير اليها ، وكان بره بها والطافه لها مما ضرب به الأمثال ، ومن ذلك أنه وهب لها ذات ليلة عقداً بثلاثين الف دينار ، وعلمت زبيدة كل ذلك فأحزنها ودفعها الى شكوى الرشيد الى عمومته فصاروا اليه جميعاً فعاتبوه فقال مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها وأنما أربى فى غنائها فاسمعوها ، فان استحقت أن يُؤلَف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم ، فنقلهم الى يحيى حتى سمعوها عنده فأولوه جانب العذر وعادوا الى زبيدة فأشاروا عليها ألا تلح فى أمرها فقبلت ذلك وأهدت الرشيد عشر جوار لعله يسلو بهن عنها — ومنهن مارية أم المعتصم ومراحل أم المأمون ، وماردة أم صالح .

ومما حدث به ابرهيم الموصلى : قال لى يحيى بن خالد ، ان ابنتك دنانير قد عملت صوتاً اختارته وأُعجِبَت به فقلت لها : لا يشتدَّ إعجابُك حتى تعرضيه على شيخك فان رضيه فارضَيْهِ لنفسك ، وان كرهه فاكرهيه ، فامض حتى تعرضه عليك ، فقلت له أيها الوزير فكيف إعجابك ، فانك والله ثاقب الفطنة صحيح التمييز قال أكره أن أقول لك أعجبنى فيكون عندك غير معجب إذ كنت عندى رئيس صناعتك تعرف منها ما لا أعرف وتقف من لطائفها على ما لا أقف ، وأكره أن أقول لك لا يعجبنى وقد بلغ من قلبى مبلغاً محموداً ، وانما يتم السرور به اذا صادف ذلك منك استجادة وتصويباً ، قال : فمضيت اليها ، وقد كان تقدم الى

خدمه يعلمهم أنه سيرسل بى الى داره ، فأدخلت ، واذا الستارة قد نصبت ، فسامت على الجارية من وراء الستارة فردت السلام وقالت : يا أبت أعرضُ عليك صوتاً قد تقدم ولا شك اليك خبره ، وقد سمعتُ الوزير يقول ان الناس يُفتنون بغنائهم فيعجبهم منه ما لا يعجب غيرهم كما يفتنون بأولادهم فيحسن فى أعينهم منهم ما ليس يحسن ، وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك ، فقلت هاتِ ، فأخذت عودها وتغنت تقول :

نفسى أكنتُ عليك مدعياً أم حين أزمع بينهم خُنْتِ ؟
ان كنت مُولَعة بذكرهم فعلى فراقهم ألا مُتِّ ؟

قال فأعجبنى والله غاية العجب ، واستخفنى الطرب حتى قلت لها أعيديه فأعادته وأنا أطلب لها موضعاً أصلحه ، وأغيّره عليها ، لتأخذه عنى ، فلا والله ما قدرت ، ثم قلت لها أعيديه الثالثة ، فأعادت فاذا هو كالذهب المُصَفّى ، فقلت أحسنت يا بنية ، وأصبت ، وقد قطعت بحسن إحسانك ، وجودة اصابتك ، ثم خرج ، فلقيه يحيى ، فقال : كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير قال : أعز الله الوزير والله ما يحسن كثير من حذاق المغنين مثل هـذه الصنعة ، ولقد قلت لها أعيديه ، وأعادته على مرات ، كل ذلك أريد إعناتها لأجتلب لنفسى مدخلا يؤخذ عنى ، وينسب إلىّ ، فلا والله ما وجدته

وإذا شئت أن تعرف ما لهذه الجارية من بعد الشأو فى الشعر ، ولطف المدخل فى الغناء ، فاليك قول جحظة البرمكى « كنت أنا وابن جامع نعانى دنانير جارية البرامكة فكثيراً ما كانت تغلبنا » وكلا هذين الرجلين قطب من أقطاب الغناء ، فى الدولة العباسية ، وعلم من أعلامه

ومن حديث وفائها لمواليها ، أن الرشيد دعا بها بعد أن أوقع نكبته بالبرامكة ، فأمرها أن تغنى ، فقالت يا أمير المؤمنين ، إنى آليت ألاّ أغنى بعد سيدى أبداً ،

فغضب وأمر بصفعها فصفعت ، وأقيمت واقفة ، وأعطيت العود ، فأخذته وهى تبكى أحر بكاء ، واندفعت فغنت

يا دار سلمى بنازح السَّنَد من الثنايا ومسقط اللِّبدِ
لما رأيت الديار قد دَرَست أيقنت أن النعيم لم يَعُد

فرق لها الرشيد وأمر باطلاقها ، فانصرفت

ولدنانير كتاب فى الغناء يعده أهل هـذا الفن أصلاً من أصوله ، ومرجعاً من مراجعه

عَـــرِيب

وهى فتنة هذا العصر ، وعقدة سحره ، وملتقى بدائعهِ ، ومجتمع نوادره . نشأت فى دار جعفر بن يحيى البرمكى ، وقيل إنها ابنته من إحدى جواريه ، ثم جحد البرامكة نسبتها ، وبيعت فيمن بيع من جوارى جعفر بعد نكبته ، ثم احتازها ثمانية من خلفاء هذه الدولة ، أولهم الأمين ، وآخرهم المعتز ، وما منهم إلاّ من يعدها زينة قصره ، وآية عصره ، واليها اجتمعت محاسن هذا الجيل ، وفيها انتظمت مواهبهم ، من حسن خط ، وحلاوة شعر ، وجمال صورة ، وغاية ظرف ، وجودة ضرب ، ودقة غناء . وفيها يقول اسحاق الموصلى « ما رأيت امرأة أضرب من عَريب ، ولا أحسن صنعة ، ولا أجمل وجهاً ، ولا أخف روحاً ، ولا أحسن خطاباً ، ولا أسرع جواباً ، ولا ألعب بالشِّطرَنج والنرد ، ولا أجمع لخصلة حسنة ؛ لم أر مثلها فى امرأة غيرها » واسحاق إمام أئمة هذا الفن ، وشهادته لها مقطع الرأى وفصل الخطاب ، وقد ذكر هذه الشهادة حماد بن اسحاق لقاضى القضاة يحيى بن اكثم فقال : صدق أبو محمد ، هى كذلك ، قال أسمعتها ، قال نعم هناك « يعنى فى دار المأمون » قال : أفكانت كما ذكر أبو محمد فى الحذق ، قال يحيى : هذه مسألة الجواب فيها على أبيك ، هو أعلم بها منى

وكان المأمون مشغوفاً بحبها، وقد ذكر صاحب نهاية الأرب أنه خلع فى حبها عذار الخلافة حتى قبل مرة قدمها، وقد نُسِبَت هى اليهِ فقيل لها عريب المأمونية، وكان اسحاق قد وصفها له قبل أن تصير اليهِ فأمره أن يشتريها بمائة ألف درهم، وأعطى اسحاق فى وساطة شرائها مائة ألف أخرى. قال ابرهيم بن رباح — كاتب ديوان المأمون — فلما أردت أن أثبت هذا القدر من المال كتبت إن مائة الألف خرجت فى ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلالها، فجاء الفضل بن مروان — الوزير — الى المأمون، وقد رأى ذلك وأنكره، وسألنى عنهُ فقلت نعم، هو ما رأيت، فسأل المأمون عن ذلك فقال: وهبت لدلال وصائغ مائة الف درهم! وغلَّظ القصة، فأنكرها المأمون، ودعانى، فدنوت، وأخبرته أن المال الذى خرج فى ثمن عريب، وصلة اسحاق وقلت أيما أصوب يا أمير المؤمنين، ما فعلت، أم أثبت فى الديوان أنها خرجت ثمن مغنية وصلة مغن؟ فضحك المأمون وقال: الذى فعلت أصوب، ثم قال للفضل بن مروان يا نبطىّ لا تعترض على كاتبي هذا فى شىء

وما أظن امرأة بلغت فى هـذا العصر من نباهة الشأن وبعد الشأو ما بلغتهُ عريب، بل لا أظن مغنية فى أى عصر من العصور نالت من الحظوة والجاه بين صدور الدولة وأعوان الخليفة ما بلغتهُ هذه المرأة الممتازة بين النساء.

ومن حديث ابرهيم بن محمد اليزيدى أحد أصحاب المأمون قال: كنت مع المأمون فى بلد من بلاد الروم، فبينا أنا فى ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح، والى جانبي قبة، فبرقت برقة، واذا فى القبة عريب، قالت: ابرهيم بن اليزيدى؟ قلت لبيك! قالت قل فى هذا البرق أبياتاً ملاحاً لأغنى فيها، فقلت

ماذا بقلبي من أليم الخَفْقِ ... اذا رأيت لمعان البرق
من قبل الأردنِّ أو دمشقِ ... لأن من أهوى بذاك الأفق

خالفتـه وهو أعز الخلق علىّ والزور خلاف الحقّ
ذاك الذى يملك منى رقى ولست أبغى ما حييت عتقى

قال فتنفّستْ نفساً ظننت أنه قطع حيازيمها ، فقلت ويحك ! على من هذا ؟ فضحكت ، ثم قالت : على الوطن ، فقلت هيهات ! ليس هذا كلهُ للوطن ، فقالت ويلك ! أفتراك ظننت أنك تستفزنى ! والله ، لقد نظرتُ نظرة مريبة فى مجلسى ، فادعاها اكثر من ثلاثين رئيساً ، والله ما علم أحد منهم لمن كانت الى هذا اليوم

وكان بينها وبين ابرهيم بن المدبر أحد ولاة الدولة وكتابها وسراتها صحبة صادقة وود مكين ، لم يجاوز ود الأديب للأديب ، ثم حدث عتب فاحتجبت عنهُ ، وجد به الشوق والحنين اليها ، وقال فى ذلك — وهو مما يُتغنى به :—

إلى الله أشكو وحشتى وتفجعى وبعد المدى بينى وبين عريب
مضى دونها شهران لم أخلُ منهما بعيش ولا من قربها بنصيب
فكنت غريباً بين أهلى وجيرتى ولست إذا أبصرتها بغريب
وان حبيباً لم ير الناس مِثله حقيق بأن يفدَى بكل حبيب

وحَدَث أن اجتمع ابرهيم بن المدبر وعبد الله بن حمدان وابن منارة والقاسم فى بستان بالمُطَيْرة فى يوم غيم يقطر أحسن قطر ، ويُجتَلَى فيه أطيب العيش ، قال عبد الله بن حمدان فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد ، فوثب ابرهيم ابن المدبر من بيننا نخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ بركابها حتى نزلت ، وقبّل الأرض بين يديها ، فجاءت وجلست ، وأقبلت عليه متبسمة ، وقالت : إنما حننتُ إلى مَن هنا لا إليك ، فاعتذر لها . وقال :

بأبى من حقق الظن به فأتانا زائراً مبتـــديا
كان كالغيث تراخى مدة وأتى بعد قنوط مُرْويا

طاب يومان لنا فى قربه بعد شهرين لهجر مضيا
فأقرّ الله عينى وشفى سَقَماً كان لجسمى مبليا

وقال فيها :

ألا يا عريب وقيت الردى وجنّبك الله صرف الزمن
فإنك أصبحت زين النساء وواحدة الناس فى كل فن
فقربك يدنى لذيذ الحياة وبعدك ينفى لذيذ الوسن
فنعم الأنيس ونعم الجليس ونعم السمير ونعم السكن

ثم قال فيها وفى جاريتيها بدعة وتحفة

ان عريباً خلقت وحدها فى كل ما يحسن من أمرها
ونعمة لله فى خلقه يقصر العالَمُ فى شكرها
أشهدنى جاريتاها على أنهما محسنتا دهرها
فبدعة تبدع فى شجوها وتحفة تحف فى زمرها
يا رب أمتعها بما خُوِّلت وامدد لنا يا رب فى عمرها

وكانت عريبُ على موعد من زيارة ابرهيم ، فلما كانت فى صباح يوم الموعد لم تجد نشاطاً للزيارة ، فأرسلت إليهِ بدعة وتحفة تحملان منها هذه الرسالة :

بنفسى أنت وسمعى وبصرى — وقلّ ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً طيّب الله عيشك — قد احتجبت سماؤه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، وكأنه أنت فى رقة شمائلك ، وطيب محضرك ومخبرك ، لافقدت ذلك منك ، ولم يصادف حسنهُ وطيبه منا نشاطاً ولاطرباً لأمور صدّتنى عن ذلك ، اكره تنغيص ما أشتهيهِ لك من السرور بشرحها ، وقد بعثت اليك ببدعة وتحفة ليؤنساك وتُسَر بهما ، سرك الله وسرنى بك

فكتب اليها

كيف السرور وأنت نازحةٌ عنى وكيف يسوغ لى الطرب
إن غبت غاب العيش وانقطعت أسبابه وألحّت الكُربَ

وابتدأ الجواب ، فلم تلبث ان جاءت على حمار فبادر اليها وتلقاها حافياً حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمارُ بساطه وما عليه حتى أخذ بركابها فأجلسها فى مجلسه وجلس بين يديها ، ثم قال :

ألا رُبَّ يوم قصّر الله طولهُ بقرب عريب ، حبذا هو من قرب
بها تحسن الدنيا وينعم عيشها وتجتمع السراء للعين والقلب

وكان يُطيف الخاطر بعريب فتقوله شعراً ثم تصوغه لحناً ثم تُوَقعه غناء يستطير قلب الحكيم ويستخف وقار الحليم ، ومن شعرها ولحنها وغنائها قولها

لو كان يقدر أن يبثَّك ما به لرأيت أحسن عاتب يتعتب
حجبوه عن بصرى فمُثِّل شخصه فى القلب فهو محجب لا يحجب

ومنه

أما الحبيب فقد مضى بالرغم منى لا الرضا
أخطأت فى تركى لمن لم أُلْفَ عنه مُعْرِضا

ومنه

اذا كنت تحذر ما تحذرُ وتزعم أنك لا تجسر
فمالى أقيم على صبوتى ويوم لقائك لا يقدر

ومن بديع إجازتها للشعر وتضمينها إياه ، ما حدّث على ابن المنجم ، قال :

دخلت يوماً على عريب مسلّماً عليها ، فلما جلست هطلت السماء بمطر عظيم ، فقالت أقم عندى اليوم حتى أغنيك أنا وجوارىّ وابعث إلى من أحببت من

اخوانك ، فأمرتُ بدوابى فردّت ، وجلسنا نتحدث ، فسألتنى عن خبرنا بالأمس فى مجلس الخليفة « الواثق » ومَن كان يغنينا وأى شىء استحسناه من الغناء ، فأخبرتها أن صوت الخليفة كان لحناً صنعه بنان (المغنى) من الماخورى « وكان الواثق من أعلم الناس باللحن والايقاع » فقالت وما هو ؟ فقلت :

تَجَافى ثم تنطبق جفون حشوُها الأرق
وذى كلف بكى جزعاً وسَفْرُ القوم منطلق
به قلق يُمَلْمِلُهُ وكان وما به قَلَقُ
جوانحه على خطر بنار الشوق تحترق

فوجهت عريب رسولاً الى بنان فحضر وقد بلّته السماء ، فأمرت بخلع فاخرة فخلعت عليهِ ، وقُدم له طعام فأكل ، وجلس يشرب معنا ، فسألتهُ عن الصوت فغناها إياه ، فأخذت دواة ورقعة وكتبت :

أجاب الوابل الغَـدِق وصاح النرجس الغَرِق
وقد غنى بنان لنـا « جفونٌ حشوها الأرق »
فهاك الكأسَ مترعة كأن ختامها حَدق

قال على بن المنجم : فما شربنا يومنا الا على هذه الأبيات

ومن عجيب وفاء عريب لفنها ، ونسيان ذاتها فى سبيله ما حكاه صالح بن على ابن الرشيد قال : تمارى خالى ابو على والمأمون فى صوت ، فقال المأمون أين عريب ؟ فجاءت وهى محمومة ، فسألها عن الصوت فقالت فيهِ بعلمها ، فقال لها غنيه ، فولت لتجىء بالعود ، فقال غنيه بلا عود ، فاعتمدت من الحمّى على الحائط وغنت ، وأقبلت عقرب فرأيتها وقد لسبَت يدها مرتين أو ثلاثاً فما نحت يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت ، ثم سقطت وقد غشى عليها

ومن بديع منطقها ما حدثوا أن المأمون عتب عليها فهجرها أياماً ، ثم اعتلت فعادها ، فقال كيف وجدت طعم الهجر ؟ فقالت يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا ، فخرج المأمون الى جلسائهِ فحدثهم بالقصة ثم قال : أترى لو كان هذا من كلام النَّظَّام ألم يكن كثيراً؟

ولما قبل المأمون قدمها قالت : والله يا أمير المؤمنين لولا ما شرّفها الله من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها ، ولكن لله عليّ ألاّ أغسلها لغير وضوء أو طهر الا بماء الورد ما عشت . فكانت تفعل ذلك الى أن ماتت

فضـــل

وعزيز علينا أن نجمل القول عن فضل فى صفحة أو صفحتين فان فى ذلك الإجمال مظلمة للأدب العربى لا يبلغها العذر

نشأت فضل بالبصرة فى دار شاعر من بنى عبد القيس ، وبالبصرة تأدبت وتخرجت ثم اشتريت وأهديت إلى المتوكل ، وكانت فى الغاية العلياء من قسامة الوجه ، وحلاوة الطبع ، وحسن البديهة ، وظرف الحديث ، أما الشعر فهى فيه نسيج وحدها ، بل إنك لا تجد لها فى شواعر النساء ضريباً منذ جرى على ألسنتهن الشعر ، وكان عصر المتوكل عصر الشعر الساحر الذى ينبعث عن الطبع الرقيق ، وقد اجتمع فيه من الشعراء المُرَقِّين ذوى الديباجة المُذْهَبة والأسلوب الغنائى البديع ما لم يجتمع فى عصر من العصور ، ففيه ظهر البحترى وسعيد بن حُمَيد وعلى بن الجهم وابرهيم بن العباس وابن الرومى وأشباههم ، وفيه ظهرت فضل فما قصرت عن هؤلاء جميعاً ، وكثيراً ما تقدمتهم فى الشعر الغنائى الذى يعتمد على فرط الرقة وقوة التأثير ، وكم من الشعراء من يحسن أن يقول :

الصبر ينقص والسَّقام يزيد والدار دانيـــة وأنت بعيد
أشكوك أم أشكو اليك فانه لا يستطيع سواهما المجهود

ومن ذا الذى يستمع قولها فى المتوكل يتغنى به

إن من يملك رقى مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العا لم هـذا فى حسابى

ثم لا تميد به النشوة ويستخفه الطرب

وهل يحسن البحترى وأشباه البحترى أن يقولوا خيراً مما تقول فضل

لأكتمن الذى بالقلب من حُرَق حتى أموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقه إن الشكاة لمن تهوى هى الياس
ولا أبوح بشىء كنت أكتمه عند الجلوس اذا ما دارت الكاس

وأنظر الى استراضة الشعر لها ، وانسياغه على لسانها يوم أهديت الى المتوكل فقال لها أشاعرة أنت ؟ فقالت كذا زعم من باعنى واشترانى ، فضحك وقال أنشدينا من شعرك ، فقالت :

استقبل المُلكَ أمام الهدى عام ثلاث وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
انا لنرجو يا امام الهدى أن تملك الناس ثمانينا
لا قدس الله أمرا لم يقل عند دعائى لك آمينا

وكانت فضل مضرب المثل فى حسن البديهة وقوة الارتجال

ومما حدث ابن أبى طاهر أن بعض الشعراء ألقى عليها قوله

ومستفتح باب البلاء بنظرة تزود منها قلبه حسرة الدهر

فقالت مسرعة

فوالله ما يدرى أتدرى بما جنت على قلبـه أم أهلـكته وما تدرى

ومن حديث الفضل بن العباس الهاشمى أن المتوكل خرج متوكئاً على جاريتيه فضل وبنان، فقال لهما أجيزا قول الشاعر

تعلمت أسباب الرضا خوف سخطه وعلمه حبى له كيف يغضب

فقالت فضل

تصد وأدنو بالمودة جاهداً ويبعد عنى بالوصال وأقرب

وقالت بنان

وعندى له العتبى على كل حالة فما منه لى بدّ وما منه مذهب

وكانت فضل على بعد مرامها فى الشعر بعيدة الغاية فى النثر، ومما قاله ابرهيم ابن المهدى فيها: كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطاً، وأفصحهم كلاماً، وأبلغهم فى مخاطبة، وأثبتهم فى محاورة، قلت يوماً لسعيدبن حميد: أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها، وتقيدها وتخرجها، فقد أخذت نحوك فى الكلام وسلكت سبيلك، فقال لى وهو يضحك، ما أخيب ظنك! ليتها تسلم منى لأخذ كلامها ورسائلها، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك

وبعد فكان جميلاً أن نستوفى القول عن هذه الجارية ونبين ما لها على الأدب العربى من فضل وجميل، لولا أن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك، ولعلنا نوفيها القول فيما نكتبه عن أدب النساء فى كتاب خاص

محبوبة

وهى من نظائر فضل فى نشأتها وتربيتها واهدائها الى المتوكل، فبالبصرة نشأت وفيها تخرجت، وكانت أجمل من فضل وجهاً وأعلى نفساً وأشبه بها فى رقة طبعها وعذوبة لفظها وحضور خاطرها وقوة ارتجالها وان وقعت دون غايتها فى ذلك كله

ومن حديثها أن قبيحة حظيّة المتوكل كتبت على خدها بالغالية « جعفر » وهو اسم المتوكل فأعجبه ذلك منها ، وطلب الى على بن الجهم أن يقول فى ذلك شعراً ، وكانت محبوبة حاضرة . فلم تدع لابن الجهم وقتاً يفكر فيه واندفعت من فورها تقول

وكاتبة بالمسك فى الخد جعفرا ... بنفسى مَحَط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت فى الخد سطراً بكفها ... لقد أودعت قلبى من الحب أسطرا
فيامن لمملوك لمِلْكِ يَمِينِه ... مطيع له فيما أسر وأظهرا
ويامن هواها فى السريرة جعفر ... سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وكان فى المجلس على بن يحيى المنجم أحد شعراء المتوكل وندمائه ، فبقى الشاعران واجمين لا ينطقان بحرف ، وأرسل إلى عريب فلحنت الشعر وغنى به المغنيات

ومن حديث على بن الجهم قال :

كنت يوماً عند المتوكل وهو يشرب ، ونحن بين يديه ، فدفع الى محبوبة تفاحة مغلفة ، فقبلتها وانصرفت من حضرته الى الموضع الذى كانت تجلس فيه اذا شرب ، ثم خرجت جارية لها ومعها رقعة فدفعتها الى المتوكل ، فقرأها وضحك ضحكاً شديداً ، ثم رمى بها الينا فقرأناها ، وإذا فيها

يا طيب تفاحة خلوت بها ... تشعل نار الهوى على كبدى
أبكى اليها وأشتكى دنفى ... وما ألاقى من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت ... من رحمتى هذه التى بيدى
ان كنت لا ترحمين ما لقيت ... نفسى من الجهد فارحمى جسدى

وكان المتوكل لا يكاد يفارق محبوبة وقتاً من الزمان ، حتى إنه وهو فى مجلس خلافته كان يجلسها خلف ستر ثم يثنى وراء الستر فيكلمها ، ثم غاضبها يوماً فهجرها ومنع جواريه أن يكلمنها وانقطعت عنه وانقطع عنها . ثم أخبرته وصيفة بأنها فى

حجرتها تغنى ، فذهب حتى انتهى الى حجرتها واستمع إليها فاذا هى تغنى بقولها :

أدور فى القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى ركبت معصية ليست لها فدية تخلصنى
فهل لنا شافع الى ملك قد زارنى فى الكرى فصافحنى
حتى اذا ما الصباح عاد لنا عاد إلى هجره فصالحنى

فطرب المتوكل طرباً شديداً وأعاد لها سابق عهده وقديم وده

ولما قتل المتوكل تفرق جواريه فكان مصير محبوبة الى « وصيف » أحد المماليك الذين جلبهم المعتصم ثم غفل عنهم الزمان فأصبح لهم فى هذه الدولة ملك وسلطان ، وكان مصيرها اليه فى كثير من جوارى المتوكل ، فلما انتهين اليه جلس للشراب وأحضرهن عليهن الثياب المذهبة والجواهر الوضاءة وقد تصنعن وتطيبن الا محبوبة فانها جاءت مرهاء متسلبة[1] حزناً على المتوكل ، فغنى الجوارى جميعاً وشربن وطرب وصيف وشرب ، ثم قال لها يا محبوبة غنى ! فأخذت العود وغنت وهى تبكى وتقول

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا
ملكاً قد رأته عينى قتيلاً معفراً
كل من كان ذا هُيَام وحزن فقد برا
غير محبوبة التى لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها كل هذا لتُقبرا
أن موت الكئيب أصلح من أن يعمرا

فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها ، وكان بَغَا حاضراً — وهو خدينه وقسيمه فى التغلب على الملك والعبث بالخلافة — فاستوهبها منه ، فوهبها له ، فأعتقها وأطلقها

(١) المرهاء التى تترك عينها بغير كحل والمتسلبة اللابسة لبس الحداد

فخرجت من سُرّ مَن رأى إلى بغداد واحتجزت نفسها عن لقاء الناس حتى ماتت

*
* *

وبعد، فالى هذا الحد من الشواعر والمغنيات يقف القلم، وما نحاول أن نستوعب الموضوع أو نحيط به لأنه أوسع من أن يحاط به، واذا استصفينا من ذلك شيئاً فحسبنا أن نقول ان أولئك الجوارى أتين فى الشعر والغناء ببدع جديد؛ فالرقة النادرة، والخفة الساحرة، والأنوثة الظاهرة، وكل ما من شأنه أن يسترق عقول السامعين ويستخف ألبابهم — كل ذلك كان أوضح ما عرف به جوارى هذا العصر، واذا علمت أن للمغنية من وسائل توطين النفوس وترويض الأرواح والاحتكام بالخواطر والمشاعر، والامعان فى الأعماق والسرائر ما لا يتاح للرجل شىء منه سهل عليك أن تعرف قدر ما وصل النساء بهذا الفن من بعد الغاية وعلو المكان، واذا قيل ان هناك أئمة الغناء من الرجال أمثال ابرهيم الموصلى وولده اسحاق وإبراهيم بن المهدى وأشباههم قلنا إن هؤلاء لم يكن يصطفيهم إلا الآحاد المعدودون من خلفاء الدولة وصدورها، فكان غناؤهم خبراً من الأخبار. أما أولئك النساء فقد كن فى منال العيون والأسماع فغلب ذكرهن عن الألسنة وشاع حكمهن على النفوس، وفوق ذلك كن من الحسن والاحسان فى ملك وسلطان، حتى قال فيلسوف العرب وامام مفكريه أبو نصر الفارابى « إن هذا الفن لا يسمع من بين لحية وشارب » ولقد صور الشاعر البحترى هـذا الأسلوب الذى امتاز به المغنيات بقوله

وأشارت على الغناء بألحا ظ مراض من التصابى صحاح
فطربنا لهن قبل المثانى وسكرنا منهن قبل الراح

غلبة الجوارى على قلوب العرب

أما بعد فذلك الذى أسلفناه من فنون الجمال والتجمل عند الجوارى لم يكن كل ما ملكن من مواهب ، وما سلكن من مذاهب ، وما ارتدين من حسن واحسان ، وما ابتدعن من فن وافتنان ، وليس فى الكتاب مستفاض لأصفهن لك طاهيات طعام ، أو ساقيات شراب ، أو سامرات ليل ، أو ناسقات بيت ؛ على أنهن فى جملة ذلك كن صورة الحياة الناعمة ، والحضارة الباسمة ، والعيش الرغيد ، فأنت اذا تناولتها من أشتات نواحيها لا تجد إلا بهجة باهرة ، وفتنة ساحرة ، وكان أول آثار ذلك غلبتهن على قلوب الرجال ، واستحواذهن على عقولهم ، حتى لقد هتكوا فيهن ستر كل حشمة وخلعوا عذار كل وقار

وكانت بيوت الخلفاء مُسْتَنّ القُدوة ومسار الأمثال فى كل ذلك ، وأول من بذل من نفسهِ ، ورأيه ، وذخره ، وجلال منصبهِ لهؤلاء الجوارى الخليفة الثالث محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، وما كذلك كان السفاح والمنصور من قبله

أما السفاح فكان عصره عصر عزم ومضاء وهدم وبناء ، فلم يكن له متسع للهو ولا سبيل الى النساء

وأما المنصور فقد ملك عليه بناء الملك وتوطين دعائمهِ وتوفير المال لتشييده سبيل خواطره ومشاعره . وكان بخيلاً غيوراً مسوقاً الى الجد من الأمر مخوفاً مهيباً . وربما مال قليلاً الى التبسط للسماع فلم يكن يظهر لنديم ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء ، وكان بينهُ وبين الستارة عشرون ذراعاً وبين الستارة والندماء مثلها ، فاذا غناه المغنى فأطربه حركت الستارة بعض الجوارى فاطلع اليه الخادم صاحب الستارة فيقول قل له أحسنت بارك الله فيك ، وربما أراد أن يصفق فيقوم عن مجلسه

ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذلك هناك . وكان لا يثيب أحداً من ندمائهِ وغيرهم درهماً فيكون له رسماً فى الديوان ، ولم يُقطع أحداً ممن كان يضاف الى ملهية أو ضحكٍ أو هزل موضع قدم من الأرض

ولما خلف من بعدهما المهدى أراد أول أمره أن يحتجب عن الناس متشبهاً بالمنصور فلم يطق البقاء على ذلك إلاّ قرابة سنة ، ثم انكشف للندماء ، فأشار عليه عبد الملك بن يزيد قائده وصاحبه أن يحتجب عنهم ، فقال اليك عنى يا جاهل ! انما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرنى ، فأما مِن وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ ولو لم يكن فى الظهور بين الندماء والاخوان إلاّ أنى أعطيهم من السرور بمشاهدتى مثل الذى يعطونى من فوائدهم لجعلت لهم فى ذلك حظاً موفراً . ومن ثَمَّ بدأ المهدى يتبذل

وقد غلب عليه شغفه بالجوارى ، فكان لا يطيق الصبر عن محادثتهن ومجالستهن وكان وزيره يعقوب بن داود يستثمر تلك العاطفة لنفسه ، فكان اذا غضب عليه تقرب اليهِ بذكر الجوارى وأخذ يحدثه عنهن فيرضى عنهُ

وما ظنك بخليفة ينهتك فى جاريته حتى يقول فيها

أرى ماء وبى ظمأ شديد ولكن لا سبيل الى الورود
أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلهم عبيدى
وأنك لو قطعت يدى ورجلى لقلت من الهوى أحسنت زيدى

ذلك قول المهدى فى « حسنة » جاريتهِ

وفى سبيل المهدى تداعى بنوه وحفدته . فهذا الهادى تملك زمام قلبه جاريته غادر حتى لا يطيق فيها لوماً ولا يجد عنها مصرفاً

وهذا الرشيد ، ذلك الجبار الذى يرسل الكلمة فلا يبالى أى دم سفكت ولا أى

دار قوضت ، إنه لا يبالى كذلك أن يرسل الشعر الباكى المستكين فى جواريه ! واليك فاسمع قوله فى ثلاث منهن

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك الا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

وهؤلاء الثلاث هن اللاتى صرح بأسمائهن فى قوله

إن سحراً وضياء وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثى قلبى وترباها الثلث

وخَنث هذه احدى الجوارى المغنيات المتبذلات وتعرف بذات الخال ، ولها حديث عجب ، فقد تعشقها وشبب بها ثلاثة شعراء ؛ هم ابرهيم بن المهدى ، وابرهيم الموصلى ، والعباس بن الأحنف ، وذاعت أشعارهم فيها فى نواحى بغداد ، وتجاوزت بغداد إلى ما سواها من البلاد ، وتغنى بها الموصلى بين يدى الرشيد ، ورغم كل ذلك لم يتحرج الرشيد أن يشبب بها وينهتك فيها ! ! وتَرَسَّم الأمين أثر أبيه ، وما أظنه ابتكر ضرباً من ضروب اللهو ، وأكثر ما قيل عن خلاعته ومجانته مما موهه مؤرخو الفرس ، على أنه كان أوهب الجميع فى جد وهزل . ففى ليلة وهب اسحاق الموصلى أربعين ألف دينار ، وفى أخرى وهب عمه ابرهيم مائتى ألف ، ولا تنس أنه اشترى بذلاً المغنية بعشرين ألف ألف درهم

وأما المأمون عالم الخلفاء وفيلسوفهم فقد أحدث بابتذاله حدثاً لم يسبقه أحد إليه ولا نظن أحداً لحقه فيه ، فقد حدّث أحمد بن صدقة أنه دخل عليه يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزنّرات قد تزيّن بالديباج ، وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون

فهل رأيت كهذا ؟ خليفة رسول الله ، تُشد بين يديه الزنانير وتعلق الصلبان ويُرفع الخوص والريحان ! ذلك ما تحدثنا به الأخبار عن الخليفة المأمون

وهل كان يخطر بنفسك أن يستحل خليفة المسلمين دم مسلم من اكبر رجال دولته لأنه طلب جاريته ، ثم علم أنها أصبحت حاملاً منه ، فلم يكن له سبيل اليها أما الرجل فعلى بن هشام ، وأما الجارية فتيم الهاشمية ، وأما الخليفة فالمأمون . ومتيم تلك جارية تنقل بها الرق من رجل إلى رجل ، واجتمع اليها الناس تغنيهم وتطربهم فهل تعلم مآل أمرها بعد أن قُتل سيدها فى سبيلها ؟ لقد اتخذها الخليفة المعتصم ابن الرشيد لا جارية ولا مغنية ، بل زوجة ذات اكليل وتاج

وحديث القوم كله على هذا النسق ، كلما جاء خليفة أحدث فى تبذله حدثاً واستجد جديداً . وكان من أعجب حديثهم أن المسترشد خص ولده الراشد بعدة جوار ليلاعبنه وهو صبي مراهق ، فحملت منه احداهن وهو دون البلوغ ، هكذا يقول ابن الأثير

نفوذ الجوارى

وكان من أثر تلك الغلبة على القلوب أن غلبن كذلك على سياسة الملك وتدبير الرعية

فهذه الخيزران جارية المهدى وأم ولديه موسى وهرون قد بلغت من سعة الجاه ونفاذ الكلمة ما لم يبلغهُ وزير أو أمير . وكان بابها محط الولاة والقواد ، ومهبط ذوى الحاجات والآمال ، حتى فشت فيها القالة وساء عنها الحديث . كذلك كان أمرها فى عهد مولاها وزوجها المهدى

ولما صارت الخلافة إلى الهادى درجت على سيرتها فى عهد أبيه . وكان الهادى فتى ألمعى القلب ، عزيز الجانب ، غيوراً على الحُرَم . فلما رأى الوفود تنثال على أمهِ

أرسل اليها « ألاَّ تخرج من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فإنهُ ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك » فلم يثنها ذلك القول الحكيم عما أَلِفَتْهُ ، حتى إذا مضى عليها أربعة أشهر جاءت مرة تكلمهُ فى أمر لم يجد إلى اجابتها إليهِ سبيلاً ، فقالت لا بد من اجابتى ! قال لا أفعل ، قالت فإنى قد تضمنت هـذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال ويلى على ابن الفاعلة ! قد علمت أنهُ صاحبها ، والله لا قضيتها له ، قالت إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال إذا لا أبالى ، وحمى وغضب ، فقامت مغضبة ، فقال مكانك تستوعى كلامى ! « والله — وإلافأنا نَفِيٌّ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم — لئن بلغنى انهُ وقف ببابك أحد من قوادى ، أو أحد من خاصتى أو خدمى ، لأضربن عنقهُ ، ولأقبض ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يُذَكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم اياك ! ما فتحت بابك لملّى أو لذمّى » فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة

ثم جمع الهادى قواده ورجال دولته . فقال لهم : أيما خير ، أنا او انتم ؟ قالوا بل أَنت يا أمير المؤمنين ، قال فأيما خير أُمى أَو امهاتكم ؟ قالوا بل أُمك يا أَمير المؤمنين ، قال فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بأمه فيقولوا فعلت ام فلان ، وصنعت ام فلان ، وقالت ام فلان ؟ قالوا ما احد منا يحب ذلك ، قال فما بال الرجال يأتون أُمى فيتحدثون بحديثها ؟ ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فشق ذلك عليها وحلفت الا تكلمه

ولكن هل كفاها منه ذلك الهجر ، وهل تُروى المغاضبة غليل المرأة التى ترضعها أفاويق الملك ، وتسكرها بكأسه ، وتشعرها بعزته ، ثم تعود فتكف يدها وتكم فاها وتلزمها خدرها ؟

لم يكفها منه ذلك الهجر ولا ما فوق الهجر من شقاق ومكابرة ونزاع ومعاندة بل أمعنت فى الانتقام الى آخر ما تصل اليه النفوس الممعنة فى الشر العارية من الفضيلة، فقد حرضت الأم جوارى ولدها الشاب فقتلنه بغَطّ وجهه والجلوس عليه حتى مات . . . . أفرأيت كيف تشترى الجارية عزة الملك وزهرة الحياة بدم العزيز النجيب من بنيها

أما الرشيد فقد قضى عليه ان يمكّن فى ملكه لامرأتين : الخيزران أمه، وزبيدة امرأته، أما الخيزران فلأنها خلعت عليهِ رداء الملك مخضباً بدم أخيه ، واما زبيدة فلأن ذات الخال واشباهها عبثن بقلبهِ، وغلبنه على عقله ، فأراد أن يشغلها عنه

وهل ترى أعجب من أن تغنيَه ذات الخال ذاتَ عشية فيُحَكّمها فى ملكه فتسأله أن يولى صاحبها حَمَوَيه الخادم ولاية الخراج والحرب بفارس سبع سنين ، فيصدع الرشيد بالرأى ، ثم يخشى أن يموت فى خلال هذا الأمد فيكتب عهداً على من يليهِ من الخلفاء أن يضمن نفاذ العهد للخادم الأمير ! ذلك ماروواه صاحب الأغانى عن الرشيد

ومضت أجيال كان فيها للجوارى عز وشان ، وملك وسلطان ، وكان من أشدهن استمكاناً فى الملك ومضاء فى الرأى أم المقتدر ، وهى جارية تركية ، فقد كان لها سطوة قاهرة على رجال الدولة ، وكانت تتصرف بالأحكام دون ولدها ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها

وقد عَرَض الجاحظ لذوات الجاه والنفوذ من الجوارى فقال :

ثم لم يزل للملوك والأشراف اماء يختلفن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين، ونساء يجلسن للناس : مثل خالصة جارية الخيزران ، وعتبة جارية ريطة ابنة أبى العباس ، وسُكْر وتركية جاريتى أم جعفر (زبيدة) ودُقَاق جارية العباسة، وظلوم وقسطنطينية جاريتى أم حبيب، وامرأة هرون بن معبوبة، وحمدونه أمة نصر بن السندى بن شاهك

ثم كنّ يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزينّ به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب

الجوارى عيون الخلفاء

وهناك ناحية من نواحى العمل انبثثن فيها واستشففنَ أسرار الملك من خلالها وذلك باتخاذهن عيوناً على الوزراء والقواد ووجوه رجال الدولة ، فكان الخليفة يهب الرجل جارية من جواريه فترصد منهُ كل اشارة وتتسمع منهُ أو من جلسائه كل كلمة فاذا أصبح الصباح كان ذلك كله عند الخليفة . ومن أنباء ذلك ما حدث الطبرى عن يعقوب بن داود وزير المهدى قال : بعث الىّ المهدى يوماً فدخلت عليهِ فاذا هو فى مجلس مفروش بفرش مُوَرد متناه فى السرو على بستان فيهِ شجر ورءوس الشجر على صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار، من الخوخ والتفاح ، فكل ذلك مُوَرَّد يشبه فرش المجلس الذى كان فيهِ، فما رأيت شيئاً أحسن منه ، واذا عنده جارية ما رأيت أحسن منها ولا أشطَّ قواماً ولا أحسن اعتدلاً، عليها نحو ما فى المجلس من الثياب ، فما رأيت أحسن من جملة ذلك ، فقال لى يا يعقوب ! كيف ترى مجلسنا هذا ؟ قلت على غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به وهنأه اياه ، قال هو لك ، احمله بما فيهِ وهذه الجارية ليتم سرورك به ، قال فدعوت له بما يجب، ثم قال يا يعقوب ! ولى اليك حاجة، قال فوثبت قائماً ثم قلت يا أمير المؤمنين ما هذا الامن موجدة ، وأنا أستعيذ بالله من سخط أمير المؤمنين ، قال لا، ولكن أحب أن تضمن لى هذه الحاجة وأن تقضيها لى ، فقلت لأمير المؤمنين وعلىّ السمع والطاعة ، قال والله ! قلت والله ثلاثاً ، قال وحياة رأسى ، قلت وحياة رأسك، قال فضع يدك عليهِ واحلف به، فوضعت يدى عليه وحلفت به لأعملن بما قال، ولأقضين حاجته ، قال فلما استوثق منى فى نفسه ، قال هذا فلان بن فلان من ولد على

ابن أبي طالب أحب أن تكفيني مؤونته وتريحني منه وتعجل ذلك ، قلت أفعل، قال فخذه اليك، فحولته الىّ وحولت الجارية وجميع ما كان فى البيت من فرش وغير ذلك وأمر لى معه بمائة ألف درهم ، قال فحملت ذلك جملة ومضيت به، فلشدة سرورى بالجارية صيرتها فى مجلس بينى وبينها ستر وبعثت الى العلوى فأدخلته على نفسى وسألته عن حاله فأخبرنى بها وتجمّل فيها واذا هو ألبّ الناس وأحسنهم إبانة ، وقال لى فى بعض ما يقوله ، ويحك يا يعقوب ! تلقى الله بدمى وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد ؟ قال قلت لا والله، فهل فيك خير ؟ قال ان فعلت خيراً شكرت لك ، عندى دعاء واستغفار ، فقلت له أى الطرق أحب اليك؟ قال طريق كذا وكذا ، قلت فمن هناك من تأنس به وتثق بموضعهِ ؟ قال فلان وفلان، قلت فابعث اليهما وخذ هذا المال وامض اليهما مصاحباً فى ستر الله ، وموعدك وموعدهما للخروج من دارى الى موضع كذا وكذا (الذى اتفقوا عليهِ) فى وقت كذا وكذا من الليلة ، واذا الجارية قدحفظت علىّ قولى ، فبعثت به مع خادم لها الى المهدى ، قال : وبعث المهدى من وقتهِ ذلك فشحن تلك الطريق والمواضع التى وصفهـــا العلوى برجاله ، فلم يلبث أن جاءوا بالعلوى نفسه وصاحبه والمال على السجية التى حكتها الجارية، قال وأصبحت من غد ذلك اليوم فاذا رسول المهدى يستحضرنى ؛ وكنت خالى الذرع غير ملقٍ الى أمر العلوى الا حين أدخل على المهدى وأجده على كرسى بيده مِخصرة فقال يا يعقوب ! ما حال الرجل؟ قلت يا أمير المؤمنين قد أراحك الله منه، قال مات ؟ قلت نعم ! قال والله ! قلت والله ! قال قم فضع يدك على رأسى، قال فوضعت يدى على رأسه وحلفت له به ، فقال يا غلام ! اخرج الينا ما فى هذا البيت . قال ففتح باباً عن العلوى وصاحبه والمال بعينه ، قال فبقيت متحيراً وسقط فى يدى وامتنع على الكلام فما أدرى ما اقول، قال فقال المهدى لقد حل لى دمك لو آثرت اراقته، ولكن احبسوه

فى المُطْبَق فما زال به حتى انقضى عهد المهدى والهادى واخرجهُ الرشيد فى عهده

وممن احسنوا بث الجوارى للرقابة المأمون، وكان عنده اسرار رجال دولته جميعاً ولما ذاع رايه فى خلق القرآن وخاصمه عليه قوم من سراة اهل الرأى والعلم وثبتوا على خصومته رغم ما اصابهم منه من شدة وعنت اذاع فى الناس اسرار كل منهم وخفىّ عيوبه ومكنون دخائله ! وما عرف ذلك كله الا من هذا الطريق

والعجب ان هذا الأسلوب من الرقابة قد ذاع بين الناس حتى ارصد بعضهم الجوارى على بعض ، ويعجبنى من رقيق الشعر قول الناشىء فى جارية رقيبة

فديتك لو انهم أنصفوا لقد منعوا العين عن ناظريك
ألم يقرأوا ويحهم ما يرو ن من وحى طرفك فى مقلتيك
وقد بعثوك رقيباً لنا فمن ذا يكون رقيباً عليك

أمومة الجوارى

وكان آخر حلقة من حلقات امتزاج الفرس بالعرب واندماج العرب فى الفرس ما ناله الجوارى الفارسيات من امومة الأسر العربية ، وقليل من رجال الحواضر العربية من لم ينزع بدمه الى أم أجنبية ، ولكى نسوق لك المثل الواضح على ما نقول نذكر أن خلفاء الدولة العباسية الستة والثلاثين كانوا — إلاّ ثلاثة منهم — من ولد الجوارى، واذا نال الجوارى شرف ولادة الخلفاء فلم يكن عزيزاً عليهن أن يلد مَن سواهم

وهذا هو البيت العلوى الذى ينزع بنسبه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأئمة الاثنا عشر منهُ وهم الذين أولاهم الشيعة الإمامية جانب الطاعة ، ورفعوهم إلى مواطن التقديس ، وهذا آخرهم محمد المهدى الذى يدينون بأنه لا يزال حياً حتى يأذن الله له فيخرج إلى الناس ويملأ طباق الأرض نوراً وإيماناً وعدلاً

واحساناً، أولئك جميعاً لا نجد منهم فى العهد العباسى إلا مَن كانت أمه جارية

وبعد فذلك كان شأن الجوارى فى العراق وتلك غايتهن التي انتهين إليها من الاحتكام بقلب الرجل العربى، والتفرد بالمكان المحبوب فى المجتمع العربى، والتمكن من قياد الأسرة العربية، والوصول بالأمة الفارسية إلى القضاء على العصبية العربية

والآن ننتقل الى حديث الجوارى فى الأندلس ومدى أثرهن فى حياتها وقوة تأثيرهن فى نسوتها

الجوارى فى الاندلس

أقام الأمويون ملكهم بالأندلس كما أقامهُ أسلافهم بالمشرق على دعائم العصبية العربية والبداوة العربية، لأن هذه السياسة وسليتهم فى تمكين الملك ومعاناة الفتوح، فعبروا دهراً من الزمن لا يتخذون الجوارى إلا للمهنة والاستيلاد، فأما الحظوة والمكانة فللعقائل من بنات العرب

كذلك لبثوا قرناً ونصف قرن أخمدوا فيها حمية الفتنة وسكنوا مضطرب الملك ثم بدأوا يأخذون لأنفسهم نصيباً من الراحة ويبتغون لها طريقاً الى السرور فأصغوا الى المشرق ونظروا الى بغداد واستقدموا بعض جواريها المغنيات

قمـــر

ومن أول هؤلاء قمر البغدادية، وهى قَيْنة مغنية من أبرع قيان بغداد وأصنعهن فى الغناء وأعرفهن بفنون الكلام، سمع بها ابرهيم بن حجاج صاحب أشبيلية فى أخريات القرن الثالث فوجه إلى بغداد بأموال عظيمة اشتريت بها حتى إذا قدمت الأندلس ازدرى بها نساء العرب لأنهن لم يألفن جارية ذات مكانة، وأخذن يتهامسن إذا مرت ويتغامزن اذا غنت، فقالت هى فى ذلك :

قالوا أتت قمر فى زِى أطمار ... من بعد ما هتكت قلباً بأشفار
تمشى على وجل تغدو على سبل ... تشق أمصار أرض بعد أمصار
لا حرة هى من أحرار موضعها ... ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم ... لله من أمَةٍ تُزرى بأحرار
ما لا بن آدم فخر غير همته ... بعد الديانة والإخلاص للبارى
دعنى من الجهل لا أرضى بصاحبه ... لا يخلص الجهل من سب ومن عار
لو لم تكن جنة إلا لجاهلة ... رضيت من حكم رب الناس بالنار

وقمر هذه هى التى اعتمدت بناء الأدب النسائى بالأندلس ، وهو الذى سنصفه لك فيما يمر بك ، ومما يمثل لك أسلوب هذا الأدب أبدع تمثيل قولها تتشوق الى بغداد وتتغنى بمحاسنها وحسانها

آها على بغدادها وعراقها ... وظبائها والسحر فى أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه ... تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما ... خلق الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن ... فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

الناصر وجواريه

ولما وَلِى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر أمر الأندلس بلغ الجوارى فى عهده مبلغهن فى بغداد

وكان عبد الرحمن حين وثب الى الملك فى مشرق العمر ونضرة الشباب ، وكان فتى لا تسامية الرجال مضاء فى العزم ولا سناء فى الرأى ولا نفاذاً فى التدبير ، وكانت أقاليم البلاد وأطراف الملك خاضعة للمتغلبين الذين استأثر كل منهم بما يملك من

دون المَلك الأموى، فأراد عبد الرحمن ألا يبقى فى الأندلس من ينازعه الملك ويجاذبه السلطان، فما زال ينتزع المتغلبين واحداً بعد واحد حتى دانت البلاد له وألقت أزمتها إليه، ثم اندفع بجيوشه الى بلاد الفرنجة وما وراءها فدوخ مُلكَها وأفزع ملوكها وأذل رجالها وسبى نساءها حتى تحامته القياصرة وتفادته الجبابرة، وأنشأ الجميع يهدونه أنفس ما عندهم من جوهر ومال حتى اعتلى ذروة المجد واقتعد ظهور الآمال

ومنذ ذلك العهد أخذ سيل الجوارى يتدفق على الأندلس وأخذن يسقين العرب من بنى أمية بالكأس التى شرب بها بنو العباس، بل كان أصحابنا فى الأندلس أسرع نشوة وأشد اندفاعاً من أشباههم فى العراق كدأب المقلدين من الناس أجمعين.

هذا هو الناصر ومكانه من سناء الرأى ومضاء العزيمة ما عامتْ، تغلبه جاريته الزهراء على نفسه ورأيه وهمته فيوجهها جميعاً الى تذليل المستحيل لهذه الجارية، وان من تذليل المستحيل قيامه بابتناء مدينة الزهراء

الزهراء

واذا ذكرت الزهراء فاذكر ما يقول فيها صاحب نفح الطيب: « انه لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة أطبق الناس على أنه لم يُبْنَ مثله فى الإسلام البتة، وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنِّحَل المختلفة من ملك وارد أو رسول وافد أو تاجر جاهد — وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيهاً، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كونَ مثله »

والحق أن القوة التى دفعت الناصر الى بناء الزهراء لم تكن مما يدفع الناس الى بناء قصورهم وعمائرهم ولا هى من جنون العظمة الذى دفع ملوك مصر الأقدمين

الى بناء أهرامهم ومعابدهم ، فان لهذا النوع من الجنون حداً يقف دونه أو ينتهى اليه ، ولكنها قوة ساحرة يبثها النساء فى قلوب الرجال فينخلعون عن أموالهم وأرواحهم فى سبيلها .

أرصد الناصر على بناء الزهراء ما ورثه من مال وما جلبه من مغانم ، وان تشأ فقد أرصد عليه ذخر أمم وأعلاق ملوك ، واستقدم له المهندسين من بغداد ورومة والقسطنطينية ، واجتلب له الرخام الأخضر والوردى والمجزع من افريقية وتونس وقرطاجنة وريه وروميه ، وأعطى على كل رخامة ثلاثة دنانير وعلى كل سارية ثمانية فكان ما جلب له ست عشرة وثلثمائة واربعة آلاف سارية

وأقام الناصر على بناء الزهراء عشرين عاماً كانت تستنفد فيها كل يوم ستة آلاف صخرة غير ما كان يستنفده تمهيد طرقها وتعبيد مناهجها فذلك ليس فى هذا الحساب . وكان يقوم على البناء عشرة آلاف رجل يعملون دائبين كلما غاب منهم فوج أعقبهُ آخر

أما وصف المدينة فما يعجز عقل الإنسان عن تصويره وتصوره ، وهو كما يقول ضيا باشا صاحب تاريخ الأندلس « كان بناء الزهراء أعجوبة الدهر التى لم يخطر مثل خيالها فى ذهن بنّاء منذ برأ الله هذا الكون ولا تمثل رسم كرسمها فى عقل مهندس منذ وجدت العقول »

فأنت اذا شارفت المدينة وجدت سوراً يقوم عليه ثلثمائة برج حربى كأبراج القلاع وينتظم على محيطه ثلاثة عشر وخمسمائة وألف باب كلها من الحديد الملبّس بالنحاس أو الآبنوس المطعم بالفضة والذهب ! فاذا نفذت الى المدينة من أحد أبوابها وجدت حديقة لايحدها البصر ، تشقها طرق منسقة وبرك وغدران تلتقى جميعاً على البحيرة العظمى التى جلب اليها اكثر ما عرف من صنوف السمك ، وكان هذا

السمك من الكثرة بحيث يستنفد اثنى عشر الف خَبزة وستة أقفزة من الحمص كل يوم . وعلى البركة تقوم تماثيل من الذهب المحلّى بالجوهر على هيئة الأسد أو الطير فوق الغصون وكلها تتصل بأنابيب من الفضة تمدها الماء من متالع جبل قرطبة، فاذا انتهى الى أجوافها سمعت له زئيراً أو صفيراً ثم تلقيه من أفواهها فى البحيرة. والى جانب من البركة حديقة للوحش ، وأخرى للطير تظللها الشَّبَاك

أما القصور فكانت فوق منال العقول ، ومنها قصر الخلافة وكان سَمْكُه من الذهب والرخام المتماوج الشفاف ، وكانت قراميد بهو الخلافة من الذهب والفضة وفى سقفه علقت اليتيمة، وهى الدرة التى أهداها الى الناصر إليون ملك القسطنطينة وكانت تتألق فى سماء الغرفة كما يتألق النجم فى حاشية الظلام

وكان فى كل جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، وقامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى . وفى وسط هذا المجلس حوض عظيم مملوء بالزئبق وكانت الشمس تشرف على الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس فيتوهج من ذلك نور يأخذ سناه بالأبصار، وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل المجلس أومأ الى رجل من مواليه فيحرك ذلك الزئبق فتومض فى المجلس بروق تغشى الأبصار وتخيل للرائين أن القصر طار بهم فيفزع الرجل حتى يقع

ومن القصور القصر المؤنس ، وفيه بيت المنام ، وفى وسطه الحوض الأخضر المنقوش الذى جلب اليه من بيت المقدس ، وفيه نقوش وتماثيل وصور على هيئة الانسان ، وعلى جانبه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة ، والماء يتدفق من أفواهها جميعاً

وبين القصور مسجد الزهراء، وهو على هذا النسق الفريد من الجلال والجمال

ومن العجيب أن الزهراء حين حلت به سألها الناصر كيف ترين هذا ؟ فقالت حسن لولا أن هذا الأسود يضاجعنى! وأشارت الى جبل قرطبة — فلم يكن غير قليل حتى كسى الجبل حلة مَوْشِيَّة منقطعة النظير من الزهر والريحان وشجر اللوز والصنوبر

ذلك هو القصر الذى استنفد جهد الناصر وهمته وماله عشرين عاماً ، وما كان ذلك الجنون المُبرح إلا لأن جاريته ثم زوجته الزهراء طلبت اليه بناءه فشرع به للناس شريعة الفناء فى جواريهم ، ولعمرى لئن رفع الناصر بنيان الدولة العظيمة وأعلى كلمتها ووحد فرقتها لقد احتفر لها القبر العميق بما مكن لهؤلاء فى الملك — ملك القلوب والأجساد

صبح

وهذا ابنه الحكم قد غلبت على قلبه وعرشه جاريته صبح البشكنسية فتبادر العظماء وذوو الحاجات الى غشيان دارها وابتغاء الوسيلة عندها والزلفى اليها ، وبهذه الوسيلة انتقل المنصور بن أبى عامر من مقام الكتابة للناس على مدرجة الطريق الى مقام الوزارة بل الى مقام الملك لأنه تمكن بها من تقليم أظفار ولدها هشام بن الحكم ، وما زال ينتزع منه مظاهر الخلافة يوماً بعد يوم حتى حجبه عن الناس ومنع اسمه ان يذكر على أعواد المنابر أو يكتب فى صدور الرسائل وفى طرر الدراهم ، ثم استكتبه كتاباً جعل فيه ولاية العهد لعبد الرحمن بن أبى عامر دون الغطارف من قريش وسلائل الملوك من بنى أمية ، فثار الأمويون لذلك ثورة دمروا فيها الزهراء وانتهبوا كنوزها ونفائسها فأصبحت فردوس الدنيا أطلالاً باليـة ورسوماً عافية كل ذلك لأن الرجل توسل بدهائه وكياسته وجزيل هداياه وجميل ألطافه الى قلب الجارية المُمَلَّكَة فما زال يصعد بها درجة بعد درجة حتى اعتلى هامة الملك

وكان كلما أراد الوثوب الى أمانيه سرها بأمنية من أمانيها حتى لقد بنى لها مرة بيتاً من الفضه لم ير الراؤون مثله

شعر الملوك فى الجوارى

وجاء سليمان بن المستعين الخليفة الأموى فاتبع خلفاء بنى العباس وأذاع شعره تغزلاً وتبذلاً فى جواريه، مما تغنى به المغنون فى عواصم الأندلس

ومن قوله يعارض الرشيد فى أبياته التى أولها — ملك الثلاث الآنسات عنانى :

عجباً يهاب الليث حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيبا ... منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت قلبى ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال وتلك بنت المشترى ... حسناً وهذى أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلوّ الى الصبى ... فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبى الحمى وثنينى ... فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى ... ذل الهوى ملك وعز ثان
ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفا بهن فلست من مروان

ومن العجيب أنك لا ترى عشاق الجوارى مهما عز جانبهم وتسامت منازلهم إلا أرقاء فى ألفاظهم أذلاء فى مشاعرهم وضعاء فى ألفاظهم يتوسلون إلى جواريهم بالذل ويقدمون اليهم أعناقهم للرق ولا ترى ذلك فى شعر من أضناه حب الحرائر من بنات العرب، بل أنه لا يتقدم اليهن إلا بغُرّ مآثره وعُظْم مفاخره

هذا المستظهر بن هشام وهو خليفة المستعين ونظيره فى جلال لقبه وسناء حسبه أحب أن يتزوج فتاة من قرابته فمطلته أمها فقال فيها بعض ما استفاض من عاطفته شعراً يفيض عزة وإباء ، وكان مما قال :

يكلفها الأهلون ردى جهالة ... وهل حَسَنٌ بالشمس أن تمنع البدرا
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت ... جلالة قدرى أن اكون لها صهرا
وانى لأرجو أن أطوف بمفخر ... بملكى لها وهى التى عظمت فخرا
وانى لطعّان اذا الخيـــل أقبلت ... جرائدها حتى ترى جُونها شُقرا
وانى لأولى الناس من قومها بها ... وأنبههم ذكراً وأرفعهم قدرا
جمال وآداب وخُلق موطأ ... ولفظ اذا ما شئت اسمعتك السحرا

المعتمد وجواريه

ولعل أتعس مثل من أمثلة تبذل الملوك فى جواريهم وتهورهم فى مرضاتهن واندفاعهم إلى أعماق الهاوية من جرائهن المعتمد على الله محمد بن عباد صاحب أشبيلية ووارث ملك بنى أمية ، فقد أنهب نفسه حظاياه فسبين لبه واقتسمن قلبه ومن حديثه أنه أرسلهن ذات عشية من قرطبة إلى أشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح ، ثم عاد عنهن وهو من فراقه فى حسرة والتياع ، ومما قاله

سايرتهم والليل اغفل ثوبه ... حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثَمَّ مسلما وتسامت ... منى يد الاصباح تلك الأنجما

وقال فى موقف الوداع

ولما وقفنا للوداع غُدَيّة ... وقد خفقت فى ساحة النصر رايات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا ... بِجَرْى الدموع الحمر فيها جراحات

اعتمـــاد

وكان أشدهن امتلاكاً له واحتكاماً به جاريته اعتماد الرُّميكية التى اشتراها من رميك بن حجاج، واليها ألقى زمامه وفى سبيلها أرخى عنانه ومن اسمها اشتق اسمه فتسمى بالمعتمد، وتلك التى يقول فيها الوزير الشاعر محمد بن عمار

تَزوجتَها من بنات الهجان رميكية لا تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع لئيم التجارب عماً وخالا

وكانت اعتماد لا تشعر بأن فى الحياة أمنية عزيزة أو مطلباً بعيداً، فما نزعت نفسها الى شىء حتى وجدته بين يديها على أحسن صوره وأتم وجوهه، ولقد رأت مرة فتيات اشبيلية يملأن الجِرَار من النهر وفى اقدامهن أثر الطين فأحبت ان تطأ الطين كما يطأن وتحمل الجرة كما يحملن، فصنع لها المعتمد جرة من سبيك الذهب وأوطأها المسك معجوناً بماء الورد والغالية. وشاءت المقادير أن ينهك هذا الترف قوة الملك وان يطمع فيه العدو المتغلب وان يعرف ذلك يوسف بن تاشفين أمير الملثمين بالمغرب فيخوض البحر الى أشبيلية ويقصى العدو عن الملك ثم يقود الملك المستهام أسيراً ويقود صاحبته ونساءه وبناته وجواريه سبايا الى اغمات من أعماق بلاد المغرب، ولم تدرك الملك الملثم رقة الدين ولا نبل الخلق فألقى أسيره المسكين مكبلاً بالحديد فى غياهب السجن بين القتلة وقطاع الطريق، وترك بناته يطفن فى الأسواق بما يغزلن من الصوف حافيات الاقدام باديات الأجسام معروقات العظام وكذلك دخلن على أبيهن فى سجنه صبيحة عيد النحر فزفر زفرة كاد ينفطر لها قلبه ثم أنشأ يقول :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسروراً فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خَدَّ إلا ويشكو الجدب ظاهره وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً فردك الدهر مَنْهِيًّا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به فانما بات بالأحلام مغرورا

ومن قوله يخاطب قيده حين بلغ به العظم

قيدى أما تعلمنى مسلما أَبَيْت أن تُشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد أكلتهُ لا تَهشِم الأعظما
ارحم طفيلاً طائشاً لبه لم يَخْشَ أن يأتيك مسترحما
وارحم أخَيَّات له مثله جرعتَهن السم والعلقما
منهن مَن يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح الا لرضاع فما

الجوارى المدنيات فى الاندلس

وتلك طائفة أخرى من الجوارى المجلوبات إلى الأندلس تصلها بغيرها صلة الاسم وتبعدها عنهن فوارق المبدأ والغاية والأثر

ولقد عُرفت المدينة منذ استوطنها اليمانون من الأوس والخزرج بالرقة والظرف واتقان الغناء والعزف، ودرجت على ذلك فى الاسلام، ولم تنحرف عن شهرتها فى ذلك كله حتى فى عهد النبوة والخلافة

واتصل الأندلسيون بأهل المدينة فى مواسم الحج واستمعوا غناء جواريهم، فذهبن بهم كل مذهب من الطرب والاعجاب، وسارت الأنباء بذلك إلى الأمير

عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس، فاستقدم منهن جماعة عرفن بالأدب الغض والشعر الرائع والغناء البديع، وابتنى لهن دار المدنيات بقرطبة وأجرى عليهن المثوبة والألطاف وأوسعهن بالبر والاكرام، ومن هؤلاء فضل وعلم وقلم. وقد عرف هؤلاء جميعاً بشرف النفس ونبل الخلق وكمال الخلال. ولم يكن فيهن ما فى بنات الروم والصقالبة والجلالقة من خِلاَبة ودَعابة فهن لا يصلحن لذلك وفيهن السوداء والحمشاء، والعجفاء، ولكنهن مع ذلك كن مشرقاً من مشارق الجمال الفنى فى تلك البلاد. ولقد يجمل بنا أن نسوق حديثاً طريفاً عن إحدى هؤلاء الوافدات وتسمى بالجارية العجفاء لتعلم إلى أى حـــد بلغ أولئك الجوارى فى التأثير على نفوس أهل الأندلس :

قال الأرقمى : قال لى أبو السائب — وكان من أهل الفضل والنسك — هل لك فى أحسن الناس غناء ؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى ابن زهرة، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً فى مثلها، وطوله فى السماء ستة عشر ذراعاً، وفى البيت نُمْرُقتان قد ذهبت عنهما اللُّحمة وبقى السَّدى وقد حشيتا بالليف، وكرسيان قد تفككا من قدمهما، ثم أُطلِقَتْ علينا عجفاء كلفاء عليها هَرَوى[1] أصفر غسيل، وكأن وَرِكيها فى خيط من وسخهما، فقلت لأبى السائب : بأبى أنت ما هذه ؟ فقال اسكت ! فتناولت عوداً فغنت :

بِيَد الذى شغف الفؤاد بكم ... تفريج ما ألقى من الهم
فاستيقنى أنْ قد كلفت بكم ... ثم افعلى ما شئت عن علم
قد كان صرم فى الممات لنا ... فعجلت قبل اليوم بالصرم

(١) الهروى نوع من خشن الثياب يجلب من هراة احدى مدائن خراسان « افغانستان الآن »

قال فحسنت فى عينى ، وبدا ما أذهب الكلف عنها ، وزحف أبو السائب وزحفْت معه . ثم تغنت :

بَرِح الخفاء فأىَّ ما بك تكتم ... ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمَّن من غريرٍ قَلْبُهُ ... يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا ... تُلْقى المراسِىَ طائعـاً وتخيّم
فتذوق لذة عيشنـا ونعيمه ... ونكون اخواناً فماذا تنقم

فزحفت مع السائب حتى فارقنا النُّمرُقتين ، وربَتِ العجفاء فى عينى كما يربو السَّويق بماء مزنة . ثم غنت :

يا طول ليلى أعالج السَّقما ... إذ حل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً ... فاليوم أمسى فراقكم عُزِما

فألقيت طيلسانى ، وأخذت شادكونة وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول رقعة فى البيت فيها قوارير ودهن ، فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب البيت — وكان أخنف — قوانينى قوانينى ! ! «قواريرى قواريرى» وسال الدهن على رأس أبى السائب وصدره

ومن هذا ونحوه تعلم أن هؤلاء الجوارى لم يجتلبن لما اجتلب له غيرهن ، وقد حُرر هؤلاء وتزوجن وانبثثن فى أسر الأندلس يُعلمن نسوتها الأدب ، ويُرَوّينهن الشعر ويُلَقّنَهن الغناء فى حشمة ووقار

وقد ظهر فى هؤلاء الوافدين من تجاوزت الأدب والغناء إلى الفقه والحديث كعابدة المدنية ، فقد روت عن مالك بن أنس وغيره من أئمة المدينة ، قدم بها الأندلس محمد بن يزيد بن مَسلمة بن عبد الملك بن مروان ، وكان كثير الاعجاب بعلمها وفهمها ، وتزوجها بِشر بن حبيب الأندلسى فمنها سائر ولده

وتعد وفادة هؤلاء الجوارى إلى الأندلس مطلع عهد جديد للأدب والشعر والغناء بالأندلس ، وذلك ما سنتناوله بالقول عند الكلام عن الأدب النسوى بالأندلس

بنو الأغلب

ذلك حديث أهل الأندلس ، وفى مساقهم سار بنو الأغلب ملوك تونس ، وعنهم وعن ملوك العراق وردوا موارد اللهو وشربوا كئوس النعيم ، ومن بغداد وقرطبة استوردوا الجوارى الفارسيات والصقلبيات ، ومن حديثهم أن المعتمد على الله العباسى ساوم فى جارية شغفته حباً ، وأبلغها جهد ما يطيق ، وهو يومئذ ولى عهد الخلافة العباسية — فأبى عليه صاحبها وأبلغها حداً ليس فى منال ولى العهد ، فلما أعجزه شراؤها ذهب بها صاحبها الى ابن الأغلب فباعها منه

ثم لما فتحت عليهم جزيرة صقلية ومالطة تدفق عليهم سيل الجوارى الروميات فخللن من منازلهم وقلوبهم محلاً لا يرام ، حتى انتهى الأمر إلى « زيادة الله » آخر عقدهم فقسم نفسه بين مماليكه وجواريه . وبلغ من إيثاره لأحد غلمانه أن ضرب النقود باسمه ، وترك له زمام الملك يلهو بتصريفه . ثم غضب عليهِ فأقصاه ، حتى جاءت جارية فشفعت فيه ، فأعاده إلى مكانه . . . ! ! وكان مُلكاً عزيزاً فذل ، وقوة هائلة فهانت . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

الفاطميون

وجاء الفاطميون فى أعقاب بنى الأغلب ، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم وما زال ظلهم يمتد وملكهم يتسع حتى وسع مصر ، وبلاد الشام ، والحجاز ، واليمن وواقتهم النعمة من كل مكان ، وأضاء لهم العز من كل أفق ، وجُلِبت إليهم الجوارى

من كل قطر . ولكنهن لم يجدن عندهم من الحُظوَة والقوة ونفاذ الرأى وعلو الشأن ما وجدن فى غير مصر من سائر البلدان ، لأنهم راموا الخلافة بوسيلة النبوة المقدسة من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، ولأنهم كانوا يُرَوّجون لأنفسهم بالارجاف بينى العباس ، وإذاعة السوء عنهم ، وقولهم فيهم إنهم ملّكوا الجوارى زمام أمورهم وقِوَام سياستهم . ولما علم المعز لدين الله — وهو لم يزل بعد أميراً على تونس — أن ابنة الأخشيد اشترت جارية حسناء من بنات بغداد لتستمتع بها ، أرسل قائده جوهراً لفتح مصر ، وقال الآن لا يصدنا عنها شىء ، فكان الأمر وفاق ما قال . وكان كل ذلك حائلاً دون بلوغ الجوارى مبلغ التغلب على قلوب خلفاء مصر والاحتكام بملكهم ، والعبث فى جماعتهم . وما زلن كما هن أدوات مهنة ووسائل زينة حتى جاء عهد المستنصر — وكان قد أُوتِىَ الملك صبياً لم يبلغ السابعة ، وأقام فيهِ ستين عاماً وسبعة أشهر . ولما تنصف ذلك الأمد الطويل أدركته ملالة فمال إلى اللهو ، واستراض للجوارى ، على أن القدر لم يدعه فى لهوه طويلاً ، فأصيبت مصر بمجاعة مهلكة ذهبت باليابس والأخضر . ولبثت تجتاح الحرث والنسل وتعصف بالحَب والنوى سبع سنين دَأْباً ، حتى أشفق الخليفة على حُرمه وبناته أن يأكلهن الجوع فأرسلهن إلى بغداد ، وحتى لم يبق فى دار الخلافة إلا جواد مهزول يركبهُ الخليفة ويسير من حوله حرسه وحاشيته مشاة يميد بهم سكر الجوع . وكان الملك من كل ذلك عظة بالغة ، فإنهُ أقلع من بعدها عن اللهو وأناب إلى الله . وجاء الملوك من بعده فلم يكن منهم إلى جواريهم نزوع شديد كالذى كان فى قرطبة وبغداد

*
* *

ذلك الذى بسطته لك شأن الجوارى فى العالم العربى ، وقد ذكرتهُ لك ضافياً مستفيضاً لأنهُ أقوى المؤثرات فى حياة المرأة العربية . وسنجلو من ذلك الحديث

وجه العظة ونستخلص مدى الأثر حين نعرض لتلك المرأة وما نالها فى هذه الدول من خير أو شر . وننتقل بمعونة الله وتوفيقه إلى ذكر الديارات المنبثة فى بلاد العرب وما أنشئت له من غاية ، وما كان لها من أثر

الديارات

كان الفرس فيما قصدوا إليه من نشر آدابهم وبث حضارتهم ينزعون إلى غاية واحدة هى إخماد العصبية العربية ليتم لهم ما أرادوا من إعادة مجدهم الغابر وملكهم القديم ، وما عليهم من سبيل أن يرتدوا لبوس الدين طائعين أو خادعين

أما الروم والسريان ومَن سواهما من نصارى المشرق والمغرب ، فقد كان همهم من العرب غيرَ همّ الفرس منهم . وغاية هؤلاء أن ينقُضوا دعامة الإسلام ليشقوا الصفوف للنصرانية فى بلاد العرب ، فأخذوا يُقلّبون للاسلام وجوه الحيلة ، ويفوّقون عليهِ سهام الغيلة ، ويحشدون عليهِ جيوش التدبير ، ولكنهم قوم أولو سياسة ودهاء فهم لا يخطبون فى حفل ، ولا ينطقون فى جمع ، ولا يبعثون كتاباً ، ولا ينمقون صحيفة ، ولا يبادهون أحداً برأى ، ولا يشافهون أحداً بمكروه . بل أخذوا يمزجون العسل المصفّى فى السم المذاب ، وأنشئوا يبثون الشكوك والشبهات فى مزاج من المآرب والشهوات . وذلك ما أعدوه فى دياراتهم التى نثروها فى كل مكان من بلاد العرب

وكانت عناية القوم بتنظيم دياراتهم وتنسيقها واختيار مواطنها الصالحة لها مما يفوق كل عناية ، وأكثر ما تكون فى أرباض المدن وبين أشتات القرى وعلى طرق القوافل ، وفى منقطع الصحراء ، وفوق سفوح الجبال ، وفى كل مكان يكون انتياب الناس له وتواردهم عليه

وعلى الرغم من تكاثر الديارات وانشعاب مواطنها وترامى قواصيها وتباين بلادها كانت كلها على نسق واحد من الجمال الغض الذى تنساق النفوس اليه ويحلو العيش فيه . فهناك فى نجوة من الأرض تجد خميلة من الزهر قد عكفت عليها ظُلّة من الكرم وانبعثت من ورائها أصوات ندية يحَمّلها إيقاع جاوز غاية الابداع ؛ منظر يستهوى السمع والبصر ويستخف الأجسام والأحلام ، حتى إذا دخلها الداخل — وهى لا تمتنع على قاصد — وجد النسيم بارداً خفاقاً والماء صافياً سلسالاً والخمر صرفاً معتقة ، ووجد فوق ذلك إن شاء طعاماً هانئاً ومناماً هادئاً ، وليس ذلك بشىء فى جانب ما يسلب نهاهم من وَلَه العشق وفتنة الجمال

ولشد ما غشيت تلك الديار بذوى الأخطار من خلفاء الدولة وامرائها وساستها ووزرائها وكتابها وشعرائها ، فكان لهم منها مآب طيب وجدوا فيه كل ما تشتهى النفس من مطاعم ومشارب وأغراض ومآرب ينبئك عنها ما سار من شعرهم فى وصف تلك الديارات وأفنانها وحسناتها وحسانها وما أصابهم تحت ظلالها من حب شرد أحلامهم وسهّد أجفانهم وأحرق اكبادهم ، وبين هذه المنايا وتلك المنى أثيرت روح الشبهات على الاسلام وعصفت ريح الزندقة والالحاد . وليس من الحق أن نتهم العلم الذى نقله العرب عن أمم الحضارة باثارة الشكوك والرِّيَب فما عرف عن أئمة هذه العلوم إلا الدين الصريح والايمان الصحيح ، وإنما الملحدون جماعة من الشعراء والمتأدبين والمتبطلين وأشباه المتعلمين ممن ألفوا غشيان تلك الديارات وأقاموا فيها ما أقاموا ثم انثنوا عنها بلا قلب ولا لب ولا دين ولا عقيدة . على أن الذى يعنينا الآن من هذه الديارات أن العرب أصيبوا فيها بنوع من الفتنة أشجى قلوبهم وأطال عناءهم لأن هذا الجمال الذى رأوه لم يكن مما ابتذلته عيونهم وملكته أيمانهم . وكثير من ذوى الرأى والعلم كان يذهب إلى تلك الديار فيقيم فيها ما شاء

أن يقيم فاذا انصرف عنها شغفه الحب وشغله النوح عن بيته وآله ، وما ظنك برجل من خاصة رجال الملك يسير فى ركاب مولاه سميراً ونديماً حتى يبلغ ديراً فينفتل اليه ليلهو بالنظر اليه لحظة ثم يعود فما هو إلا أن قدموا له الشراب والطعام والكأس والنّدام حتى ينسى الملك فيشرب وينام ، وذلك ما يحدث به اسحاق بن ابراهيم الموصلى فيما رواه عنه صاحب الأغانى ، قال :

خرجنا مع الرشيد يريد الرَّقة فلما صرنا بالموضع الذى يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد فى طلب الصيد ، ولاح لى دير فقصدته وقد تعبت فأشرفت على صاحبه فقال هل لك فى النزول بنا اليوم ؟ فقلت إى والله وانى الى ذلك لمحتاج ، فنزل ففتح لى الباب وجلس يحدثنى — وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بنى أمية — فجعل يحدثنى عمن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم وعرض علىّ الطعام فأجبته ، فقدم إلىّ طعاماً من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه ، وأتانى بشراب وريحان طرى فشربت منه ، ووكل بى جارية تخدمنى راهبة لم أرَ أحسن وجهاً منها ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت وانتبهت عشاء فقلت فى ذلك

بدير القائم الأقصى غزال شادن أحوى
بَرَى حُبِّى له جسمى ولا يعلم ما ألقى
وأكتم حبه جهدى ولا والله ما يخفى

وركبت فلحقت بالعسكر والرشيد قد جلس للشرب وطلبنى فلم أوجد ، وأخبرت بذلك فغنيت فى الأبيات ودخلت اليه ، فقال لى أين كنت ويحك ! فأخبرته بالخبر وغنيته الصوت فطرب وشرب عليه حتى سكر وأخّر الرحيل فى غد ومضينا الى الدير ونزله فرأى الشيخ واستنطقه ورأى الجارية التى كانت تخدمنى بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ودعا بالشراب وأمر الجارية التى كانت بالأمس تخدمنى ان

تتولى خدمته وسَقْيه ففعلت ، وشرب حتى طابت نفسه ، ثم أمر للدير بألف دينار وأمر باحتمال خراجه له سبع سنين فرحلنا ، فلما صرنا بتل عزاز من دابق خرجت أنا وأصحاب لى نتنزه فى قرية من قراها فأقمنا بها أياماً وطلبنى الرشيد فلم يجدنى ، فلما رجعت أتيت الفضل بن الربيع فقال لى أين كنت ؟ طلبك أمير المؤمنين فأخبرته بنزهتنا فغضب وخفت من الرشيد أكثر مما لقيت من الفضل فقلت

إن قلبي بالتل تل عزاز ... عند ظبي من الظباء الجوازى
شادن يسكن الشآم وفيه ... مع ظَرْفِ العراق شكل الحجاز
يا لقومى لبنت قَسٍّ أصابت ... منك صفو الهوى وليست تجازى

وغنيت فيه ، ثم دخلت على الرشيد وهو مغضب فقال أين كنت ؟ طلبتك فلم أجدك ! فاعتذرت اليه وانشدته هذا الشعر وغنيته إياه فتبسم وقال عذر وأبيك أى عذر ، وما زال يشرب عليه ويستعيدنيه ليلته جمعاء حتى انصرفنا مع طلوع الفجر ، فلما وصلت الى رحلى اذا برسول أمير المؤمنين قد أتانا يدعونا فوافيت فدخلت واذا ابن جامع يتمرغ على دكان فى الدار وهو سكران يتململ ، فقال لى يا ابن الموصلى أتدرى ما جاء بنا ؟ فقلت لا والله ما أدرى ، فقال لكن والله أدرى دراية صحيحة جاءت بنا نصرانيتك . . . عليك وعليها . . . وخرج الآذن فأذن لنا فدخلنا ، فلما رأيت الرشيد تبسمت فقال لى ما يضحكك فأخبرته بقول ابن جامع فقال ماصدق ما هو إلا أن فقدتكم فاشتقت الى ما كنا فيه ، فعودوا بنا فعدنا فيه حتى انقضى مجلسنا وانصرفنا . . .

ذلك مثل من حديث الديارات ، ومثله جمٌّ كثير ، وما نحاول أن نتهم تلك المعابد بأنها كانت من مباذل القوم ودور خلاعتهم ، ولا بأن رهبانها أباحوهم ما أرادوا من لهو ومجانة ، ولكنهم وجدوا فيها فناً من الجمال لم يحوزه فى بيوتهم ،

ولم تنبسط عليه أيديهم ، وأصاب ذلك منهم نفوساً مبيحة ، وسرائر نازعة ، فشغفوا به ، وشُغِلوا بالحديث عنه ، وغرهم من أمره ما وجدوا من تبسط الرهبان لهم بالسمَر والمحادثة ، وبالمحاورة والمجادلة ، وبالكرم والضيافة ، وبكل ما تسكن اليه النفس وتطيب به ، فاذا رأيت انخلاع القوم فى الفتنة بهذه الديارات فانما هى فتنة الطمع فيما عز عليهم ، والتشبيب بما ندّ عن حياتهم ، والولوع بفنون الجمال المتناسقة هنالك من ظل وبستان ، ورَوْح وريحان ، ووجوه حسان ، وشراب رويّ ، ومسمع ندىّ ، وما الى ذلك من فتنة السمع والبصر والنفس والقلب

وجميل بنا أن نلم الملمة بأشهر الدِّيَرَة التى فتنت العرب وأثارت مشاعرهم وأرسلت أشعارهم ، ومن جملة ما يساق لك من الشعر تعلم كيف كان شغف القوم بتلك المواطن

من ديارات العراق

دير أحويشا

ومكانه بديار بكر ، وكان غاية فى السعة والبهاء ، وحوله البساتين والكروم ، ويحمل خمره الى ما حوله من البلدان لجودته ، وإلى جانبه نهر يعرف بنهر الروم وفيهِ يقول محمد بن طنّاب الشاعر

وفتيان كهمّك من أناس ... خفاف فى الغدو وفى الرواح
نهضت بهم وستر الليل مُلْقًى ... وضوء الصبح مقصوص الجَناح
نؤم بدير أحويشا غزالاً ... غريب الحسن كالقمر اللَّياح
وكابدنا السرى شوقاً اليه ... فوافينا الصَّباح مع الصباح
نزلنا منزلاً حسناً أنيقاً ... بما نهواه معمور النواحى
قسمنا الوقت فيه لاغتباقَ ... على الوجه الجميل ولاصطباح

وظلنا بين ريحان وراح وأوتار تساعدنا فِصاح
وساعفنا الزمان بما أردنا فأبنا بين ريحان وراح

دير الأعلى

ومستقره بالموصل فى أعلاها على جبل مطل على دجلة ، يضرب به المثل فى رقة الهواء ، وحسن المستشرَف ، وفيه يقول الخالدى

قمر بدير الموصل الأعلى أنا عبده وهواه لى مولى
لثِم الصليب فقلت من حسد قُبَلُ الحبيب فمى بها أولى
جُدْلى بِاحداهنَّ تَحْوِ بها قلبى فحبته على المقلى
فاحمر من خجل وكم قطعت عينى شقائق وجنة خجلى
وثَكِلْت صبرى عند فرقته فعرفت كيف مصيبة الثكلى

دير باشهرا — على شاطىء دجلة بين سامَرَّا وبغداد ، وفيه يقول أبو العيناء

نزلنا دير باشهرا على قسيسه ظهرا
على دين يسوعىّ فما أسنى وما أمرا
فأولى من جميل الفعْل ما يستعبد الحرا
وسقَّانا وروَّانا ورابطنا به عشرا

دير الثعالب — على مقربة من بغداد ، وبينه وبينها ميلان ، ومَدَاه اكثر من ميل وفيه يقول محمد بن جعفر العباسىّ

دير الثعالب مألف الضلاّل ومحل كل غزالة وغزال
كم ليلة أحييتها ومُنادمى فيها أبحُّ مقطّع الأوصال
وسقيته وشربت فضلة كأسه فرويت من عذب المذاق زُلال

دير درمالس — فى جانب من بغداد ، وهو نَزِه كثير الأشجار والبساتين ، وفيه يقول احمد بن حمدون النديم

يا دير دُرمالس ما أحسنك ... ويا غزال الدير ما أفتنك
لئن سكنت الدير يا سيدى ... فان فى جوف الحشا مسكنك
ويحك يا قلب أما تنتهى ... عن شدة الوجد لمن أحزنك
ارفق به بالله يا سيدى ... فانه من حتفه مكنك

دير قُنَّى — على مدى ستة عشر فرسخاً من بغداد ومسافة ميل واحد من دجلة وفيه يقول محمد بن الحسن القُمىّ

يا منزل اللهو بدير قُنَّى ... قلبى إلى تلك الربا قد حَنّا
سقيا لأيامك لما كنا ... نمتار منك لذة وحسنا
أيام لا أنْعَمُ عيشا منا ... اذا انتشينا وصحونا عدنا
وإن فَنِى دَنٌّ بَزَلنا[1] دَنّا ... حتى يُظَنَّ اننا جُنِنّا
ومسعد فى كل ما أردنا ... يحكى لنا الغصن الرطيب اللدنا
أحسن خلق الله إذ تثنى ... وجس زير[2] عوده وغنّى
بالله يا قسيسَ بَابَا قُنَّى ... متى رأيت الرشأ الأغنا
متى رأيت فتنتى تجنّى ... آهٍ إذا ما مَاسَ أو تثنى
أسأت إذ أحسنت فيك الظنا

دير قوطا — على مقربة من البَرَادان بينه وبين بغداد ، وهو من أبهج الديارات وأحسنها وأكثرها خمائل وبساتين . وفيه يقول عبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع

(١) بزل الخمر ثقب إناءها (٢) الزير الدقيق من الاوتار

يا دير قوطا لقد هيجت لى طربا ... أزاح عن قلبىَ الأحزان والكُرَبا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها ... لما وصلت به الأدوار والنُّخَبا
فى فتية بذلوا فى القصف ما ملكوا ... وأنفقوا فى التصابى العِرضَ والنشبا
وشادن ما رأت عينى له شبهاً ... فى الناس لا عجماً منهم ولا عربا
إذا بدا مقبلا ناديت واطربا ... وان مضى معرضاً ناديت واحربا
أقمت بالدير حتى صار لى وطنا ... من أجله ولبست المِسح والصُّلُبَا
وصار شماسه لى صاحبا وأخا ... وصار قسيسه لى والداً وأبا

دير اللج — من ديارات الحيرة، وليس فى الحيرة موطن أحسن بناء ولا أنزه موضعاً منه، وفيه قيل

سقى الله دير اللج غيثاً فانه ... على بعده منى إلىّ حبيب
قريب إلى قلبى بعيدٌ محله ... وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيِّج ذكراه غزال يحله ... أغن سحور المقلتين ربيب
إذا رجَّع الانجيل واهتز مائداً ... تذكر محزون وحن غريب
وهاج لقلبى عند ترجيع صوته ... بلابل أسقام به ووجيبُ

ومن ديارات الشام

دير صليبا — وهو فى قبالة باب الفراديس من دمشق، وفيه يقول أبو الفتح محمد بن على

جنةٌ لقبت بدير صليبا ... مبدعاً حسنه كمالاً وطيبا
جئته للمقام فيه يوماً فظَلْنَا ... فيه شهراً وكان أمراً عجيبا
شجر محدق به وميـــاه ... جاريات والروض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يضحى به الشـ ـاكل مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بدراً به فوق غصن مائس قد علا بشكل كثيبا
وشربنا به الحيـــاة مداما تطلع الشمس فى الكئوس غروبا

دير الطور . وهو غير دير طورسينا — ومكانه بين طبرية واللّجُون ، وحوله الكروم والبساتين ، ومن دونه الغَوْر والمرْج ، وفيه يقول الشابشتى

قد أبانت لِيَ الرياض من الزهـــر غريب الصنوف والألوان
وبدا النرجس المفتح يرنو من جنون الكافور بالزعفران
وقف الطلّ فى المحاجر منها ثم ماست فانهلّ مثل الجُمان
يا غلام اسقنى فقد ضحك الوقـــت وقد تمّ طيب هذا الزمان
أدْنِ منى الدنان ، صُبَّ الأباريـــق ، استحثَّ الكؤوس ، صف القنانى
بادر الوقت واغتنم فرصة العيـــش ولا تُكْذَبَنَّ فالعمر فان

دير المصلَّبة — وموضعه فى ظاهر بيت المقدس ، وهو دير نَزِه بديع الموقع حسن المنظر تحف به أشجار التين والزيتون والكروم ، وفيه يقول الحسن الغَزِّىّ

يا حسن أيام قطعتُ هنيئةً بالدير حيث التينُ والزيتونُ
دير المصلَّبة الرفيع بناؤه تفدى عبيرَ ترابه دارين
ومزنَّرين إذا تلوا انجيلهم وتعطفوا فخمائم وغصون
. . . .
وسعوا بكاسات المدام وما دروا أن للكؤوس الدائرات جنون
فقضيت بينهمُ زماناً لم يزل عندى إليه تشوق وحنين
تلك المنازل قد سفحن مدامعى لا مصر قاطبة ولا جيرون

دور المآثم

وامتد لسان الفتنة وأمعنت وسائل العيث حتى انبثت بيوت الدعارة وهى التى كانوا يدعونها بيوت الكشاخنة بين دور الحرائر فى أشتات الحواضر، وكانت أثراً محتوماً من آثار احكام الترف وتفاقم الشهوات وازدياد الجوارى عن حاجة المحتاج، وكان ظهور تلك الدور فى دار السلام أكفى دليل على عُتُوِّ ريح الشهوة وامعان سلطانها فى النفوس. وقد بسط الجاحظ فى رسالة القيان حديث تلك البيوت وذكر كيف كانت تستباح فيها الأعراض وتنتهك فيها الحرمات. والعجب أن ترى رجلاً من سُمّار الملوك وندمائهم وذوى المنزلة الدانية منهم مثل اسحاق الموصلى يذيع شعره فى رثاء امرأة من صواحب تلك البيوت، وذلك ما يقوله فى هشيمة الخمّارة:

أضحت هشيمة فى القبور مقيمة ... وخلت منازلها من الفتيان

كانت اذا هجر المحب حبيبه ... دبت له فى السر والاعلان

حتى يلين لما يريد قياده ... ويصير سيئُه الى الإحسان

هذا اسحق نديم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ومغنيهم وشاعرهم فمن منهم تنكر له أو تغير عليه من أجل ذلك؟!

وكما ذاعت بيوت الدعارة فى حواضر البلاد ذاعت كذلك الحانات فى غير سر ولا استخفاء، وما ظنك بالخليفة الواثق يعقد حانتين احداهما فى دار الحَرَم ليغشاهما ويمتع نفسه بما يقال وما يُدار فيهما، واليك فاسمع حديث صاحب مسالك الأبصار فى سياق ذلك:

قال حمد بن حمدون : كان الواثق يحب المواخير[١] وما قيل فيها وما غُنّى به فى ذكرها ، فعقد حانتين إحداهما فى دار الحرم والأخرى على الشط وأمر بأن يُختار له خمّار نظيف جميل المنظر حاذق بأمر الشراب ولا يكون إلاّ نصرانياً من أهل قُطْرَبُّل[٢] فأتى بنصرانى له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة، فجعلهم الواثق فى الحانتين وضم اليهم خدماً وغلماناً وجوارى رومية وأخدم النساء حانة الحُرم والرجال حانة الشط ، ونقل اليهما طرائف الشرب وفرشهما من فرش الخلافة وعلق عليهما الستور وجعل فيهما الأوانى المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاه .

فلما فرغ منهما أمر باحضار المغنين والجلساء ولم يدع أحداً من ضُرّاب الطنابير إلاّ أحضره وحضرنا وخرج الخمار هو وأولاده معه عليهم الأقبية المسَهّمة وفى أوساطهم الزنانير المحلاّة ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل فى الصوانى . وأخرجت تلك الدنان المذهبة فأقيمت بازاء المجلس الذى كان فيه جالساً فبُزلت كما يفعل فى الحانات ، وجعل يُؤتى بالأنموذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختار كل منهم ما يشتهيه فيأخذ دَنّاً ويجىء الى الخمّار ويكتال منه بمكيال فى إنائه كما يُفعل فى المواخير ويوضع على رأس الحضور أكاليل الآس وما أشبهه من الرياحين .

فشرب الواثق شرباً كثيراً وأمر للخمار بألف دينار ولزوجته بألف دينار ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار .

وحكى الحسين بن الضحاك قال : قال لى الواثق : هل لك فى حانة الشط ؟ فقلت إى والله يا أمير المؤمنين ! فقام اليها فشرب هناك وطرب وما ترك أحداً من الجلساء

---

(١) الماخور بيت الريبة ومن يلى ذلك البيت ويقود اليه (٢) قطربل ضاحية من ضواحى بغداد الى الغرب والشمال منها وهى مأثورة بجودة خمرها ورفاهة حاناتها وقد ذكر الشعراء واستهاموا بذكرها

والمغنين والحشم إلاّ أمر له بصلة ، وكان من الأيام التى سارت أخبارها وذُكرت فى الآفاق .

فلما كان من الغد غدوت عليه فقال : أنشدنى ياحسين شيئاً قلته فى يومنا هذا الماضى فأنشدته :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا ... عودى بيوم سرور كالذى كانا
لا تفقدينا دعابات الامام ولا ... طيب البَطالة إسراراً وإعلانا
ولا تخالُعنَا فى غير فاحشة ... إذا تُطَرِّبُنا الطنبور أحيانا
وسلسل الرطلَ عمرو ثم عم بنا السـ ... ـقيا فألْحَقَ أخرانا بأولانا
سقيا لعيشك من عيش خصصتُ به ... دون الدساكر من لذات دنيانا

قال فأمر الواثق لى بصِلة سنية مجددة واستحسن الشعر وأمر أن يُغنَّى فيه

ومن ذلك الغَور العميق أصيبت الدولة العباسية بالداء الدوىّ والنازلة المضْنِيَة والحق أن هذا العصر العباسىّ سما بالعقل الانسانى من طريق العلم والتفكير الى أبعد الآماد وأقربها من الكمال ، فهم قد ترجموا علوم الأمم السالفة وناقشوا مسائلها وابتكروا علوماً سواها فى أقل من خمسين عاماً ، وهم قد تناولوا الأدب العربى فهذبوه وجمّلوه وألبسوه حلّة مذهبة اللفظ صافية الخيال ، وهم بحثوا فى الكتاب والسنة وقيدوا منهما مسائل التشريع وابتدعوا من العلوم ما يكشف عن أسرار القرآن الكريم ويوضح مقاصده ويبحث علومه وحقائقه ، ولكن ضعف النفس يطغى على قوة العقل فيقسرها كما تشيع آفة النبات فى العود الناضر فتضنيه وتقصفه ثم تسرى منه الى المرج الخصيب فتفتك به وتذهب بريحه

وكان فى الدولة البررةُ والأتقياء ، ولكن التقى والبر يكمنان فى الفتنة العاصفة ويَسكنان فى الهيضة الجامحة ويخشيان صولة الألسنة الباغية . وماذا يقول البررة

الأتقياء فى هـذا العهد وهم يرون أمام العراق أبا حنيفة ينكر على الشاعر الخليع يحيى بن زياد بعض خلاعته فيجيبه يحيى بقوله

ان كان نُسْكُك لا يتمّ بغـير شتمى وانتقاصى
فاقعد وقم بى كيف شئـ ت مع الأدانى والأقاصى
فلطالما زكيتنى وأنا المقيم على المعاصى
أيام تأخـــذها ونعـ طى فى أباريق الرصاص

فيسمع الامام بعض هذه الأبيات فيبكى اشفاقاً على نفسه من لوثة ذلك الشعر ومن اذاعة هذا السوء ويرسل الى الشاعر من يستوهب منه نفسه فبعد لأى يهبها له

هذا مثل من احتكام الشر بالخير والفجور بالتقى ونموذج من غلبة صوت المجان والخلعاء على وعظ البررة الأتقياء فأيهم بعد ذلك يقدم على النصح ويهم بالارشاد؟ على أن الفقهاء والعلماء نالوا كذلك من طيبات هذه الحياة ونعموا بمناعمها وان وقف أكثرهم عند حد السائغ البرئ من هذه الحيـاة . ولكن هذا السائغ البرئ اذا سرى فى رجال الدين قعد بهم عن احتمال البلاء ومعاناة الأذى فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك ما كانوا عليـــه فى هذا العصر الحافل بالمناعم والمآثم

المرأة العربية فى العراق

كيف كان العباسيون ينظرون إلى المرأة

كان مما قضى الله أن ينشطر البيت الهاشمى فى الدولة العباسية إلى شطرين متنافرين لا تعطفهما عاطفة الدم ولا تأخذهما وشيجة الرحم ، بعد أن أقاما منذ لحق النبى بربه أسرة واحدة لا تزعجها الحوادث ولا تفرقها الخطوب، وبعد أن بُثت دعوة الخلافة لهما معاً باسم الرضى من آل بيت رسول الله . فاما وَلِى الخلافة أبو العباس السفاح سليل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نهض من بعده أخوه أبو جعفر المنصور ثم نظر المنصور إلى ولده محمد المهدى — لما كان ذلك عرف العلويون وهم سلائل رسول الله وأحفاد على بن أبى طالب أن بنى عمهم الذين قاسموهم احتمال الظلم والخسف فى عهد بنى أمية غلبوهم على أمرهم واستأثروا بالخلافة من دونهم وهم أمسّ برسول الله رحماً ، وأدناهم من الخلافة يداً ، لأنها رَوِيَت بدمائهم، ونهضت بأسماء الشهداء من قتلاهم ، فاحتجزوا بأنفسهم وأطالوا النظر فيما عساهم يفعلون ؛ وهكذا انصدع البيت العظيم ونظر بعضه الى بعض نظر المقهور إلى قاهره والموتور الى واتره ، ثم خرج إمامهم النفس الزكية محمد بن الحسن ومعه أهل المدينة وجمهور من أهل العراق على الخليفة أبى جعفر ، ولم يكن غير قليل حتى التقى الجيشان ، وبينا رماح الفريقين مشتجرة وسيوفهم متقطرة كان الامامان محمد بن الحسن وأبو جعفر المنصور يتساجلان الرسائل ويتناظران بالكتب ليكسب كل منهما عطف جمهور المسلمين وانحيازهم اليه ، وفى هذه الكتب يطاول كلاهما صاحبه بما له من فضل السبق وكرم العرق وقوة القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مما نخر به محمد أمومة سيدتى نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله وخديجة أم المؤمنين ، فكان مما أجاب به أبو جعفر « أما بعد فقد أتانى كتابك ، وبلغنى كلامك، فاذا جل فخرك بالنساء لتُضِل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعَصَبة والأولياء » ومن ثم أخذ العباسيون يتناولون أمر المرأة بالتهوين وقرابتها بالوهَن وعقدتها بالانحلال كلما سنحت سانحة أو جدَّت داعية، وأخذ شعراؤهم وعلماؤهم وذوو آرائهم يُبْعِدون مَدَى ما بين الرجل والمرأة كأن الله تعالى لم يجمع بينهما فى كل موطن من كتابه العزيز

ولما قال مروان بن أبى حفصة شاعر بنى العباسيين يخاطب العلويين ويمدح العباسيين

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب كل يوم زحام
أرضَوْا بما قسم الاله لكم به ... ودعوا وراثة كل أصيدَ حام
أبَى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام

بذل له الرشيد مائة الف وعشرة آلاف درهم . وما زال شعراء العراق يتداولون هذا المعنى تزلفاً لبنى العباس واستدراراً لأموالهم ويكثرون الأخذ به واللجاج فيه حتى قال محمد بن يحيى التغلبى رداً عليهم

لم لا يكون — وإن ذاك لكائنٌ — ... لبنى البنـــات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهـــام
ما للطليق وللتراث وانما ... صلى الطليق مخافة الصمصام[1]

وما زالت المرأة مبَثَّ هم ابى جعفر ومثار ألمه فلم تفته حتى فى آخر عهده من الدنيا وأول عهده من الآخرة حيث كانت آخر وصيته لولده المهدى « وإياك والاستماع إلى مشورة النساء وأظنك ستفعل »

(١) يريد بالطليق العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يظهر اسلامه الا حين رأى جيوش الرسول قاصدة مكة والشاعر يرى أنه لم يسلم الا خوفا من السيف

ولعل أوضح مظهر من مظاهر اساءة بنى العباس الى المرأة وتهوينهم من أمرها ودفعهم لها عن مواطن الحياة العامة ما كان من الخليفة المستنصر حين علم بولاية شجرة الدر أمْرَ مصر، فانه على الرغم من رضاء شعبها بها واطمئنانه لحكمها كتب إلى أمراء المماليك يقول لهم :

« أعلمونا إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها ! أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة » ثم ختم رسالته بانكار شديد ووعيد وتهديد وتمثل بعد ذلك بقول من قال

النسا ناقِصَات عقل ودينٍ ما رأينا لهن رأياً سنيّا
ولأجل الكمال لم يجعل اللـــه تعالى من النساء نبيا

ومن كل ذلك نعلم أن بنى العباس كانوا ينظرون إلى المرأة بمؤخَّر عيونهم حتى لا ينازعهم بنو عمهم زمام الملك باسمها ولا يساموهم بسموّها ، وأما تركهم الاماء يصرِّفن قياد الملك ويُقَلِّبن زمام الرعية ، فما كان ذلك اكباراً للمرأة ولا تنويهاً بشأنها وانما كان استضعافاً لنزوات النفوس وانغلاباً لحكم الهوى

الصدمة الأولى

طلاق المكرَه

وكان على المرأة أن تستقبل الصدمة بعد الصدمة وتستعد للّطمة بعد اللطمة فى ظل هذا العهد، وكان أول ما ابتدعوه لها من العنَت والمكروه يمين البيعة الذى يفرضون فيه على الرجل والسيف مُصْلَت على عنقه أن يحلف بطلاق امرأته على أن يبقى على بيعتهم ولا يحيد عن دولتهم ولا يحول عن نصرتهم ولا يشايع أحداً سواهم

والذين يقسمون هذه اليمين هم ذوو الرأى والجاه من الساسة الكفاة والقادة الحُماة والأئمة الهداة ، وقد يكون الرجل منصرفاً بقلبه عنهم ميالاً بوده الى سواهم ، فما عسى أن تكون امرأته ؟ أيفرق بينهما طواعية لارادة الحكم القاهر وخضوعاً للبيعة المقهورة ؟ وكيف تخضع تلك الشركة التى أحكم الله عقدتها وأوثق آصرتها لريح السياسة ونوازع الأهواء ؟ وهل يُقضى على امرأة آمنة فى سربها وادعة فى بيتها أمينة لزوجها ساهرة على أبنائها أن تقصَى عن كل ذلك فى غير ذنب ولا جريرة ؟ ! ذلك ما كان يراه خلفاء العراق وفقهاء العراق ؛ ولكن صوتاً دَوّى من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتظم دويّه الشرق والغرب « بأن طلاق المكرَه باطل ويمينه لاغيـة » ومصدر ذلك الصوت أمام المسلمين وحجة الاسلام مالك بن أنس ، صَدَع به بين سطوة السيف وصولة السيف ، ولم يخش فى الحقّ إلاًّ ولا ذمة ولم يرع فى الله لومة لائم ، ودعم هذا الرأى الصارخ بآراء أئمة المسلمين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس وابن الزبير ومن اليهم مِن أشياخ الصحابة وأعلام الأسلام ، ولقد راع الخليفة الجبارَ أبا جعفر المنصور موقف الامام الأعظم مالك بن أنس فأمر بأن يضرب بالسياط عارى الجسد فشُدت يده وضرب على جسده وعليها بالسياط حتى خُلعت كتفه فما نبا له عزم ولا وهن له رأى ولا حُلت له عقدة ولا زاغت منه عقيدة ، بل خرج من المِحنة أثبت جَناناً وأمضى لساناً وأشد إيماناً وأقوى برهاناً

التجنى على المرأة العربية

قيل إن عبد الملك بن مروان خطب إلى عقِيل بن عُلَّفة المرى إحدى بناته لأحد بنيه فقال عقيل ، أقبَلُ يا أمير المؤمنين على أن تُجنبنى هُجَناء ولدك . فذلك

أعرابى لا شأن له أكثر مما لغيره من سراة أهل البادية وهو مع ذلك لا يعد الهجناء من أبناء الخليفة أكفاء لبناته ، لأن المرأة كانت فى هذا العهد الأموى كما كانت فى العهد الجاهلى أدق مشاعر العزة والكرامة من نفس الرجل ، أما الآن فى هذا العهد العباسى فقد أخذ الرجل العربى يتجنى على المرأة العربية لأنه رأى من غيرها ما بهر لُبَّه وسحر عينيه ، ولأن حميته وعصبيته تَرَدَّتا تحت أثقال شهوته ، ومن ثَمَ أخذ يُعرض بها ويوازن بينها وبين غيرها ، وذاع فى هذا العهد قولهم : مَن أراد قلة المئونة وخفة النفقة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر ، واشتهر قول من يقول : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر . وأول من جهر بهذا الصوت فى المفاضلة الشاعر المبيح بشار بن برد ، ومن قوله فى وصف قينة :

وأصفر مثل الزعفران شربته ... على صوت صفراء الترائب رودِ
كأن أميراً جالساً فى ثيابها ... تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثَلَّةٍ ... سواماً ولم ترفع حِدَاج قَعود[1]
تميت به ألبابنـــا وقلوبنا ... مراراً وتحييهن بعـد هجود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى ... صياح جنود وجِّهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله ... كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا ... شهود وما ألبابنا بشهود

ومن قوله :

وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش ... ببؤس ولم تركب مطية راع
إذا قُلدت أطرافُها العود زلزلت ... قلوباً دعاها للوساوس داع

وعلى أثر هذا الشاعر درج الشعراء من الغض من شأن المرأة العربية والزراية

(١) الثلة جماعة الغنم والسوام الابل الراعية والحداج المخفة فوق البعير والقعود من الابل ما يقتعده الراعى فى كل حاجة

بها والتهوين من أمرها . وإن يكن ذلك عجيباً فأعجب منه أن تعتب المرأة على زوجها شغفه باحدى القيان وانصرافه عنها فيجيبها فى غير خجل ولا استحياء بمثل ما أجاب به محمد بن بشير الناشىء زوجته ، ثم يذيع هذا الجواب فى الناس فيُتغنى به فى بغداد وغير بغداد ، وذلك قوله :

لا تذكرى لوعة إثرى ولا جزعا ... ولا تقاسين بعدى الهم والجزعا
بل ائتسِى تجدى إن ائتسَيْتِ أُسًى ... بمثل ما قد فُجِعتِ اليوم قد فُجِعا
ما تصنعين بعين عنك قد طمحَتْ ... إلى سواك وقلب عنك قد نَزَعا
إن قُلْتِ قد كنتُ فى خفض وتكرمة ... فقد صدقت ولكن ذاك قد نُزِعا
وأى شىء من الدنيا سمعت به ... إلا إذا صار فى غاياته انقطعا
ومن يطيق خليعاً عند صبوته ... أم من يقوم لمستور إذا خَلعا

فهذا الشاعر يصارح امرأته الحرة بانصرافه عنها إلى غيرها من القيان وبأخذها بالتأسى بما أصيب به غيرها من جفوة وهجران ، وذلة وهوان ، ثم يلقنها من الحقائق أن المستور إذا خرج إلى الفجور سار طلق العنان لا ترده قوة ولا يثنيه بيان . وفى ذلك كله ما يكشف لك عن صورة هذا العصر ويمثله أوضح تمثيل

الاغراء بالفساد

وكان كل ما حول المرأة يدفع الى الاثم ويغرى بالفساد ، فقد أصبحت وإذا هى فى ميدان فسيح تغمره اللذات وتدفعه المحرجات ، فعن يمينها الرجال يستحدثون كل يوم أسلوباً من اللهو ، ويستجدون ضروباً من الشهوات ، لا يتورعون لمُندِية ولا يسكنون إلى روية ، ولا ينزعون عن حمية ، بل ساروا خفافاً تدفعهم المآرب والأوطار ، وتحدوهم الكؤوس والأوتار ، وعن يسارها الجوارى يجررن أذيال اللهو

ويجرين فى مستنقع الفساد ويتصدين للرجال بما يستخف ألبابهم من خائنة الأعين وما تخفى الصدور

وأنشأ الشعراء وهم ألسنة القوم وعنوان أدبهم يُغْرُون الرجال بالحرائر ويضرُّونهم عليهن ويُشَكِّكونهم فيما عسى أن يبدينه من عفة وما يتجملن به من إباء، وكان إمام أولئك الغواة بشار ابن برد، وهو أول من اتهم الحرة فى صيانتها وأمانتها وأطمع الرجال فى اسلاس قيادها بعد إفراط عنادها، وذلك حيث يقول :

لا يؤيسنّك من مخدّرة قول تُغَلَّظَهُ وان جرحا
عسر النساء الى مياسرة والشئ يسهل بعدما جمحا

ثم استن فى غباره أبو نواس الحسن بن هانئ فأتى ببدع من القول فى قوله :

كان الشبات مطية الجهل ومُحَسِّن الضحكات والهزلِ
والباعثى والناس قد رقدوا حتى أزور حليلة البعل

فانظر الى أى حد مَرِنت الألسنة واطمأنت الأسماع الى مقال السوء واشاعة الفاحشة بين الناس ! فاذا تأملت ذلك فأشفق على قلبك أن يذوب أسى وأبْقِ على نفسك أن تذهب حسرات ! يا ويح هؤلاء الناس ! أفى دولة اسلامية تُظِلّها خلافة اسلامية يقال ذلك القول وليس فى الناس راد ولا دافع ! ! أبلغ من فساد المروءة ورِقّة الدين أن يتحدث شاعر الخليفة بأنه كان يدرج فى ظلمة الليل إلى حرم البيوت فيسلب ذات الزوج عفتها وفى المسلمين امام يقيم الحدود ويمنع الحرمات ! ! فأين هذا من العهد الجاهلى الذى يقول قائله

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

أو العهد الاسلامى الذى يقول قائله

أعمى اذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الخدر
ما ضر جارى اذ يجاورنى ألاَّ يكون لبيته ستر

أو العهد الأموى الذى يقول قائله

قالت — وقلت تحرجى وصلِى ... حبل امرئ بوصالكم صبٍّ —
صاحب إذاً بعلى ! فقلت لها ... الغدر شىء ليس من ضربى
ثنتان لا أدنو لوصلهما ... عرس الخليل وجارة الجَنب
أما الخليل فلست غادِرَهُ ... والجار أوصانى به ربى

وراحَ هؤلاء الخلعاء وأشباههم ينشرون من الأحاديث المبذولة ما يُرَوض المرأة الآبِيَة ويستنزل النفوس الرفيعة . وقد حدثوا أن مطيع بن إياس مر بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان فقال لهما فيم أنتما ؟ قالا فى قذف المحْصَنات ! قال أو بقيت فى الأرض محصَنة فتقذفانها ؟ ! فهل هناك إغراء بالجرائر أشد وأشنع من اتهامهن جميعاً فى أعراضهن .

ومن الشُّنع المهلكة للفضيلة المغرية بالرذيلة تلك المقطعات التى تحدث فيها الشعراء بأحاديث التمرد على العفاف وأرسلوها مؤنثة اللفظ سهلة المأخذ فتلقفها المغنون والمغنيات وأنشئوا يرددونها فى المجامع والأندية وبين الستور والخدور ومما هو شبيه بذلك قول بشار

عجبت فطمة من نعتى لها ... هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسمت ... بين غصن وقضيب وقمر
درة بحـــرية مكنونة ... مازها التاجر من بين الدرر
أرخت الستر وقالت ويلتا ... مِن وَلوع الكفّ رَكّاب الخطر
أُمّتَا بَدَّد هـــذا لُعَبى

. . . . . .

أقبلت مغضبَة تضربهـــا ... واعتراها كجنون مستعر
أيها النوام هبوا ويحكم ... وسلونى اليوم ما طعم السهر

ولم يكن الرجال وحدهم هم المغرين للنساء باقتحام الآثام بل إن الجوارى قلن فى ذلك أشد مما قال الرجال وأغرَين النساء بأكثر مما أغروا ! ولولا أن ذلك كله مما لا يستجيز القلم ذكره لأثبتنا منه ما يدل على باقيه

حلول الكارثة

كذلك توالت النُذُر المؤذِنة بانصباب الخطْب وهبوب العاصفة ، وأى نفس تقدحها تلك المحن ولا تهن ؟ وأى قلب تبلوه تلك الفتن ولا يميل ؟ وأى عزم ترضخه تلك المآثم ولا يُفَلّ ؟ وأى ضمير ترهقه تلك المحارم ولا يأثم ؟ وأى عين تأخذها تلك المخايل ولا تطمح ؟ وأى قدم تدفعها تلك المزالق ولا تزل ؟ وكذلك حقت كلمة الله على الأمة المُترَفة أن يندفع نساؤها فى تيار الزمن ، وكان سبيلهن أن تبرجن كما تبرج الاماء ، وتصدين للرجال كما تصدين ، وبذلن من الزمام كما بذلن إلاَّ قليلاً منهن أمعنّ فى الفرار ، فلزمن المنازل ، واتخذن المسابح ، وانقطعن الى المحاريب . وكذلك كانت بلاد العراق مسارح للتبرج والتهتك ومعابد للتزهد والتنسك ، وفى كلا الموطنين فقدت المرأة أنوثتها التى تنهج لها سبيل الزوجية السعيدة والأمومة الرشيدة ، وكان للبيتين الكبيرين فى هذا العهد — بيت العباسيين و بين العلويين — أثر واضح فى توجيه المرأة الى ناحية من تينك الناحيتين

بيت بنى العباس

وكان المهدى أول ناشىء فى مهاد الدعة و بين ظلال النعيم من بنى العباس ، وقد ترك له أبوه من ذخر المال ما لا يُنْفِدُه سرف ولا يفنيه تلف ، فاتسع له بذلك مجال اللهو والترف . ولقد علمت ما حدثتك من نفاذ جواريه إلى ذات نفسه

وعلى شئون ملكه ، وعلمت ما كان من صرف وجوه الرعية الى دار الخيزران حتى فشت فيها القالة وأرجفت بها الألسنة وساء عنها الحديث

ولم يكن المهدى فى غيرة أبيه بل كانت الغيرة أضعف نواحيه . سمع أبا العتاهية ينشده مدحه فيمن أنشده من الشعراء فكان أول قصيدته غزلاً واضحاً وتشبيباً صريحاً بفتاة من جوارى قصر الخلافة ، وذلك ما يقول

ألا ما لسيدتى ما لها ... أدَلاً فأحملَ إدلالها
والا ففيم تجنت وما ... جنيت سقى الله أطلالها
ألاَ إن جارية للاما ... م قد أُسكِن الحسنُ سربالها
مشت بين حور قصار الخُطَا ... تجاذب فى المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها ... وأتعب فى اللوم عذالها

فلم يُرَ الغضب على وجهه ! بل لقد اختص هذا الشاعر دون غيره من سائر الشعراء بالجزيل من جائزته ، وأشد من ذلك أنه حاول أن يستوهب ابنته عُلَيَّة تلك الجارية ليمنحها الشاعر وكاد يتم ذلك لولا أن توسلت الفتاة بألا يجعلها منحة لهذا الشاعر الدميم المنظر الدانى من الموت ، وشفعت فيها ابنته فبدله الخليفة منها مالاً كثيراً

ولعلك تقول هى جارية تشرى وتمنح فليس من شأن المهدى أن يستشعر الحفيظة لها والغيرة عليها ، قلت فهلا حق له الغضب من نسبتها اليه وقرن اسمها باسمه ! وأى الخلفاء كان يستمع قول أبى العتاهية : ألا إن ظبياً للخليفة صادنى

ثم يتركه وفيه عين تطرف

ودعنا من الجارية : هذه ابنته « البانوقة » أعز الناس عليه وأحبهم اليه وأوحد أهل دهرها أتقاً وجمالاً ، فهل يجول فى خيال أو يخطر ببال أن يُلبسها أبوها ثياب

الجند ويقدمها بين يدى موكبه فى طريقه إلى الحج ، وهى فى نضرة العمر وربيع الشباب ! أو كما يقول الطبرى « كان المهدى فى موكبه يسير وابنته البانوقة تسير بين يديه فى هيئة الفتيان عليها قَباء أسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف وقد رفع ثدياها القباء لنهودهما . . . !

فهل رأيت كيف أبرز المهدى ربيبة الخلافة وسليلة العباس وعقيلة بنى هاشم ونصبها للعيون فى زى يجتذب الأبصار ويستقيد النظار ؟!

ولم تطل حياة البانوقة بل هصرها الموت فى مقتبَل الشباب فاخلت الطريق لأختيها عُلَيّة والعباسة

فأما علية فكانت شاعرة مغنية جميلة متجملة ، روت لها كتب الأدب كثيراً من الشعر الغنائى ، وفى كثير مما رووا تشبيب بفتيين من مماليك الرشيد يُدعى أحدهما طَلاً والآخر رشا ، وربما زجرها الرشيد فصحفت اسميهما وجعلت أولهما ظِلاً والثانى زينب وهما تصحيف طل ورشا

ومن قولها فى طل

أيا سروة البستان طال تشوق ... فهل لى إلى « ظِل » إليك سبيل

متى يلتقى من ليس يُقْضَى خروجه ... وليس لمن يَهْوى اليه دخول

عسى الله أن نرتاح من كربة لنا ... فيلقى اغتباطاً خلةٌ وخليل

ومن قوله فيه كذلك

سلم على ذاك الغزال ... الأهيف الحُلو الدلال

سلم عليه وقل له ... يا غل ألباب الرجال

خليت جسمى ضاحكا ... وسكنت فى « ظل » الحجال

وبلغتَ منِّىَ عنايةً ... لم أدر فيها ما احتيال

ومن قولها فى رشا

وجد الفؤاد «بزينبا» وجداً شديداً متعبا
أصبحت من كلفى بها أدعى سقيما منصبا
ولقد كنيت عن اسمها عمداً لكيلا تغضبا
وجعلت زينب سترة وكتمت أمراً معجبا
قالت وقد عز الوصا ل ولم أجد لى مذهبا
والله لا تلث المودَّ ةَ أو تنال الكوكبا

ومن قولها فيه وقد حلف ألا يشرب النبيذ

قد ثبت الخاتم فى خنصرى اذ جاءنى منـــك تجنيكِ
حرّمتُ شرب الراح إذ عفتَها فلست فى شىء أعاصيكِ
فلو تطوعت لعوضتنى منه رضاب الريق من فيكِ
فيالها عندى من نعمة لست بها ما عشت أجزيكِ
يا زينباً قد أرَّقَتْ مقلتى امتعنى الله بحُبِّيـــكِ

وكان الرشيد يستمتع غناءها غير متحرج ، وذكر صاحب الأغانى أنها تغنت وأخوها يزمُر لها بقولها

تحبَّب فان الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصَّر فان حُدِّثتَ أن أخا هوى نجا سالما فارج النجاة من الحب
اذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

وكان فى جبين عُلية سعة غير مستحسنة فاخترعت له العصابة وهى شُقَّة من الحرير محلاة بصنوف الجوهر فسترت عيبها وزادتها جمالاً

وأما العباسة فقد قال المؤرخون فى أمر صلتها بجعفر بن يحيى البرمكى ما قالوا ،

وذكروا أن هذه الصلة هى التى حملت الرشيد على قتله جعفراً وإيقاعه بالبرامكة ؛ كذلك كان الناس يعرفون قبل ابن خلدون ، فلما أنشأ هو مقدمة تاريخه جعل هذا القول من أوهام المؤرخين وقال فى سبيل ذلك : « وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبوتها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ؛ العباسة بنت محمد المهدى ابن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السَّجَّاد بن على أبى الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، ابنة خليفة ، أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد السرف ومراتع الفواحش ، فأين يُطلَب الصون والعفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى الأعاجم بمِلْكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش ، وغايته أن جذبت دولتهم بِضَبْعه وضَبْع أبيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الأشراف ، وكيف يسوغ للرشيد أن يصهر الى موالى العجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولجّ فى تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ وانما نكبَ البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه على سلطانه . . . »

ذلك قول ابن خلدون ؛ وما كان أولانا بما رآه وأذهبنا فيما ذهب اليه لولا أنه ناقش المؤرخين بمشاعره وبعض عقله ، وراح يعتمد على نخامة اللفظ ورنة الايقاع

وكل ذلك ليس خليقاً بأن يمحو خبراً ذاع ويقطع حديثاً نمى ، وكان أولى بابن خلدون حين ذكر للعباسة شرف المنصب وعلو النسب أن ينظر نظرة الى الأم فهى وحدها مرجع ما عليه البنت من علو أو هوان، بل مرجع ما عليه الولد من بعد همة أو فتور عزيمة ، تلك الأم التى نزع الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم اليها بقوله « أنا ابن العواتك من سُلَيم » . وكل ما يتصل به الأبناء من عظمة البيت وشرف الأسرة ونبل العشيرة إنما يتضاءل فيما يرتضعونه من أمهاتهم من لؤم وخمول . ومَن أم العباسة ؟ أليست مغنية من القيان اشتراها المهدى وكان من أمرها أن أصبحت أم ابنته ؟ أفى قدرة هذه أن تنشىء فتاة تحفظ ما لبيتها العظيم من سمو وجلال !

وان النفس لا تطمئن لما ذكر بن خلدون عن نكبة البرامكة ، فان المُثْلة الشنعاء التى مثلها الرشيد بجثمان جعفر من تمزيقه ثلاث فلذات وصلب كل واحدة على باب من أبواب بغداد بعد ما كان من فرط حبه له وتقريبه منه تقريباً لم يكن بين أخوين أليفين — كل ذلك لا يكون إلاّ حين تنقد الغيرة وتهتاج الحفيظة ويصاب العرض ، وما أظن ما قال القائلون من احتجان الأموال ومما لأة بنى على بن أبى طالب إلاّ تمويهاً للأمر وابلاغاً للعذر . ولو كان ذلك حقاً لقتل البرامكة على سواء ولم يختص واحداً بالقتل ويترك الباقين رهائن السجن ، بل لكان أولى بالقتل يحيى أبو جعفر لأنه هو الذى استنّ لبنيه سياسة الرفق والمودة للعلويين

وكان بيت المأمون يقوم على العلم والحكمة ، وعلى المرح والدعابة كذلك ، وكانت ابنته خديجة تجدّ فى أثر عمة أبيها علية من إرسال الشعر فى التشبيب وابتكار الغناء والتلحين ، ومن قولها فى خادم من خدم أبيها

بالله قولين لمن ذا الرشا المثقل الردف الهضيم الحشا

أظرف ما كان اذا ما صحا وأملح الناس اذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له أرسل فيه طائراً مُرعَشا
يا ليتنى كنت حماماً له أو باشقا يفعل بى ما يشا
لو لبس القوهىّ من رقة أوجعه القوهىّ أو خدّشا

وحسبنا أن نقف بالقلم عند هذا الحد ونكتفى منه بأن نقول إن نساء بيت بنى العباس قد أخذن مآخذ الرجال من السَّرَف والاندفاع ، وما نريد أن نقول إنهن تجاوزن المرح والدعابة الى ما وراءهما من العيث والفساد ، واذا زلت هنالك قدم أو طمحت عين أو لفظ لسان فان ذلك لا يصدع البيت ولا يثلم الأسرة الا أن يقال أن ترف الحضارة ورونق النعيم قد رفعا عن تلك البيئة كلفة الدين وخلعا عنها عذار الوقار

بيت العلويين

أما نساء هذا البيت فقد عكفن على التبتل وأنِسْن بالوحشة وانقطعن عن الناس ؛ وما ظنك بامرأة لا تنتقل من فاجعة الا الى فاجعة، ولا تصير من نازلة الا الى نازلة ، قد رضَّ الحديد عظام أهلها ، ونهلت السيوف من دمائهم ، وراح وحش الفلا بأشلائهم ، وكأن بينهم وبين كل دولة ثأراً لا تسكن نأمته ولا تروى غلته حتى لقد استجاز قُسَماؤهم وبنو عمهم أن يقودوا الطفل من ملعبه الى مذبحه ، واليك فاسمع احدى حوادثهم

قال الطبرى : ذكر أبو يعقوب بن سليمان قال : حدثتنى حميدة العطارة — عطارة أبى جعفر — قالت : لما عزم أبو جعفر المنصور على الحج دعا رَيْطة بنت أبى العباس امرأة المهدى — وكان المهدى بالرى قبل شخوص أبى جعفر — فأوصاها بما أراد وعهد اليها ودفع اليها مفاتيح الخزائن وتقدم اليها وأحلفها ووكد

الايمان ألاَّ تفتح بعض تلك الخزائن ولا تُطْلع عليها أحداً إلا المهدى، ولا تطَّلع هى الا أن يصح عندها موته، فاذا صح ذلك اجتمعت هى والمهدى وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة، فلما قدم المهدى من الرى الى مدينة السلام دفعت اليه المفاتيح وأخبرته عن المنصور أنه تقدم اليها فيه ألاَّ يفتحه ولا يطلع عليها أحداً حتى يصح عندها موته، فلما انتهى الى المهدى موت المنصور وولى الخلافة فتح الباب ومعه ريطة فاذا أَزَجٌ كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم واذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لِما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة ودفنوا فيها

تلك فَعْلَة من فَعَلات أبى جعفر بأبناء عمه، وهى مَثَل واحد من كثير لاحد له وما كان الرشيد بأنعم يداً، ولا أرقّ كبداً من جده المنصور، بل كانت سيوفه الطائشة كحم النار ترتمى يميناً وشمالاً على رؤوس الأبرياء من بنى عمه، حتى لقد كانت سياسته فيهم سياسة إبادة وإفناء. فأين تقر العيون الباكية، وكيف تسر القلوب الدامية، وهل يطمئن بالحياة من تنذره كل لحظة بحيف نازل أو كيد محيق لذلك لم يجد نساء هذا البيت فَرْجة من الهم ولا متسعاً للسرور. ولذلك ائتنسن بالوحشة، واسترحن إلى الوحدة، وانعطفن إلى الدين، حتى لقد نشأ جوارى ذلك البيت على غير ما ينشأ عليه جوارى ذلك العصر. فما كانت الجارية تدخل فى رقهم حتى تتلقاها إحدى نسائهم فترويها الحديث وتعلمها الفرائض

وقد حدثوا أن فتاة رومية من بيت القياصرة، وفدت على أبى محمد الحسن العسكرى، فلما رآها راغبة فى مصاهرة بيت النبوة، دعا أخته حكيمة فقال: خذيها إلى منزلك فعلميها الفرائض والسنن

ومما أذكر فى وصف هذين البيتين وعقد الموازنة بينهما قول أبى فراس الحمدانى

من قصيدة يرد بها على ابن سكرة الهاشمى العباسى . وكان ابن سكرة قد قال قصيدة يمدح فيها بنى العباس ويعقد فيها لواء الفخر عليهم :

خلوا الفخار لعلاَّمين إن سئلوا ... عند السؤال وعمّالين إن عاموا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبداً ... ومن بيوتكم الأوتار والنَّغَم
إذا تلوَا آية غنى إمامكمُ ... « قف بالديار التى لم يعفها القدم »
منكم عُلَيّة أم منهم وهل لكمُ ... شيخ المغنين ابرهيم أم لهمُ
ما فى بيوتهم للخمر معتصر ... ولا بيوتهمُ للشر معتصم

اتصال البيتين

وأقام هذا البيت أبْعَدَ ما يكون عن بيت بنى العباس حتى لا يجرؤ أحد من المتصلين بالعباسيين أن يصهرَ إلى علوى خوفاً من الخليفة أن يعرضه على السيف وبقى العلويون فى منعزَل سحيق من الناس ، حتى إذا استُخلف المأمون أراد أن يصل الحبل ، ويرَأب الصدع ، ويحسم الشقاق . فدعا بعلى بن موسى الرضا عميد هذا البيت وزعيمه والامام المرتضى من آل البيت ، فقلده ولاية عهد الخلافة ، وزوجه ابنته أم حبيب ، وزوج ابنه محمداً ابنته الثانية أم الفضل ، وضرب النقود باسم على ، وقرن اسمه باسمه على المنابر ، وخلع الشِّعار الأسود الذى اتخذه العباسيون عنوان دولتهم وبدل منه الشِّعار الأخضر الذى اختاره العلويون شارة إمامتهم

وكان من أثر تلك الخطة التى اختطها المأمون أن دوت صيحة بنى العباس بالثورة على الخليفة القائم . واحتشدت جموعهم لقتاله ، وخلعوا عن أعناقهم بيعته ، وولوا عمه ابرهيم بديلاً منه . وقد قابل المأمون كل ذلك بجيش من مضائه ودهائه مزج فيه الشدة باللين ، والوعد بالوعيد . ثم ما زال بأهله حتى أخمد جمرتهم ، وأطفأ ثورتهم ، وإن كانت صدورهم لم تزل محنية على الحقد والحفيظة . وإذا كانت الحالة

السياسية قد صفت مظاهرها ، فإن الحياة الزوجية فى الأسرة المؤتلفة كان يشوبها الكدر ويفسدها الشقاق ، وذلك شأن الزواج الذى لا تأتلف فيه نشأة الزوجين وأسلوب تربيتهما . وكان الخلاف بين محمد وزوجه أشد مما كان بين أبيه وزوجه ، تريد المرأة أن يبسط لها زوجها بساط النعيم ، ويفسح مجال السرور ، ويجلو لعينيها بهجة الملك ، ويأبى الرجل إلا التضييق عليها فى ذلك كله ، وكلاهما فى الطرف القصى من صاحبه . وكثيراً ما كانت تشكوه إلى أبيها المأمون فيقول لها : يا بنية أطيعيه واحتمليه ، فانه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم

القطيعة

على أن الحبل ما لبث أن قطع من أحد طرفيه ، فإن علياً مات بعد قليل من زواجه على أثر أكلة عنب قيل إنه مسموم ، وقيل إن امرأته هى التى سمته ، وقيل إن المأمون هو الذى أوحى ذلك الى ابنته ليعود إليه ود بنى أبيه . ثم قطع الطرف الثانى فى عهد المعتصم حين مات محمد بن على ، ويقول الشيعة إن امرأته كذلك هى التى قتلته لتفصم عقدة الحياة بينها وبينه ، وبذلك عاد البيتان الى قديم ما كانا عليه من فرقة وشتات . وكان حُلماً فانقضى ، وكان عقداً فانتثر

فان الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

الاقتداء

وكان لا بد للمرأة أن تأتسى بأحد هذين البيتين : فأما بيت بنى العباس فقد دخل فى زمرته جمهور النساء وأخَصُّهن ذوات الجاه والثراء لأن كل ما فى الحياة من لهو واندفاع ينزع بهن الى تلك الناحية ، ومن شأن المقلد أن يندفع فى تقليده إلى أبعد ممن يحكيه ، وكذلك خرج النساء الى مستَبَق المرح ومغتَنَم السرور ، وإذا استثنيت

ما يسوقه ابن خلدون من جدل وتأويل فان المؤرخين مجمعون على أن النساء قطعن الحوائل وكسرن القيود ، ولم يكن سرا حديث ملاعب بغداد ومغانيها ودورها وقصورها وما أقيم فيها من عزف وقصف وما ساد عليها من لهو ولعب ، فقد تواصفه شعراء هذا العصر ومؤلفوه ، ولولا عفة القلم لنقلنا الكثير الموفور مما وصفه أبو نواس فى مقدمة ديوانه وما ساقه أصحاب الأغانى وكتاب بغداد والمنظوم والمنثور والعقد الفريد وصاحب بلاغات النساء فى باب المجون وأشباههم من المؤرخين والأدباء وفى كلها من حديث المراح والجماح ما لا نراه إلا قطعاً للصلة بين نساء هذا العصر ونساء العصر القديم ، وهل كان يُقْدَرُ للمرأة غير ذلك المقدور وقد تقاسمتها الفتن وتنازعتها الأهواء . ومن البدائه الظاهرة فى تاريخ العراق أن المرأة فى هذا العصر شربت النبيذ . ومن حديث الطبرى أن نساء أقررن بالخمر بين يدى المهدى ومن رواية الأصمعى أن أعرابية نزلت بغداد فسقوها النبيذ ، فلما أخذتها النشوة قالت : أيشرب نساؤكم هذا ؟ قالوا نعم ، فقالت زنين ورب الكعبة

ومما يزيح لنا النقاب عن مبلغ ما أصاب الأخلاق من وهن وانتكاث قول علىّ ابن هشام وهو ممن تصلهم ببيت الخلافة صلة الدم وآصرة المصاهرة : عشقت ألف امرأة ثم انتهيت على ألاَّ أثق بامرأة . أفرأيت كيف لانت مقادة النساء وهانت كرامتهن وأُذيل فضْلُ ما لهن من إباء وحياء حتى استعصى على الخبير بهن أن يثق بواحدة منهن . كذلك أقام الكسائى إمام اللغة والأدب دهرَه غير متزوج لأنه لا يثق بامرأة ، وكثير من علماء هذا العصر درجوا ذلك المدرج فلم يتزوجوا

النُّسَّاك

وكان من شأن تلك الحال أن تدفع كثيراً من المستورين والمستورات إلى التحرج منها والانحياز بأنفسهم عن مجالها والابتعاد عن مخالطة من يتصلون بها ، وركبوا

فى ذلك الحرج مركباً خشناً لاسواء فيه ولاصفاء، فاستوحشوا من الدنيا وانقطعوا عن الناس وتجافت جنوبهم عن المضاجع وتناءت قلوبهم عن المطامع ، وهذا الفريق من الناس هو الذى اتخذ أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم غاية مرومة وسنّة مأمومة، ثم ما لبثوا أن تجاوزوا بالنسك أبعد حدوده فحرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله فلبسوا الخَشِن الشائك وأكلوا اليابس القَفار وأنسوا بالظامة الحالكة واستوطئوا الصلب العسير واندفعوا فى سبيل ذلك كما يندفع المُهر الأرَنّ فاعتسفوا الطريق إلى غايته واقتحموا الصعاب إلى مداها

وكان الزاهدات من النساء أشد اندفاعاً فى الزهد وانقطاعاً إلى العبادة وامتناعاً عن طيبات الحياة من زهاد الرجال ، فلا تراهن إلا صائمات قائمات، باكيات والهيات وخليق باندفاع المتبرجات المتبذلات أن يقابله اندفاع المتنسكات المتبتلات ، فان حسب المرأة أن تشعر بالموجدة على شىء حتى تفر من كل ما يلابسه أو يحيط به لذلك كان العراق أحفل بلاد الله بالخيّرات الصالحات اللواتى نهجن طريق الزهد عن فرط علم ورسوخ عقيدة لا عن حماقة وجهالة كما تجد فى كثير ممن عرفن بالنسك والتصوف من أشتات البلاد

ورأس هؤلاء الناسكات رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية ، وكانت مضرب المثل فى تدله القلب واحتراق الكبد حباً لله وايثاراً لرضاه ، وكانت على تواصل صيامها وقيامها وتتابع زفراتها وتدفق عبراتها تستقل كل ذلك فى جنب الله . قال يوماً شيخ الزُّهاد سفيان الثورى وهو عندها : واحَزَناه ! فقالت : لا تكذب ! بل قل: واقلة حزناه ، ولو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس

ومن حديث خادمتها عبدة بنت أبى شوال — وكانت أشبه الناس بها فى نسكها وعبادتها — : كانت رابعة تصلى الليل كله فاذا طلع الفجر هجعت فى

صلاتها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يا نفس كم تنامين ؟ ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور . قالت عبدة : وكان هذا دأبها أمد دهرها حتى ماتت ، ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت يا عبدة : لا تؤذنى بموتى أحداً ، وكفنينى فى جبتى هذه — وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون

ومن قولها : ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً . ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم

ومما أثر عنها من الشعر قولها فى ذات الله تعالت ذاته :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وكانت وفاتها رضوان الله عليها سنة خمس وثمانين ومائة

عبدة البصرية

وهى امرأة عكفت على العبادة وأفرطت فى السهر وأسرفت فى البكاء حتى كف بصرها .

سمعتْ قائلاً يقول : ما أشد العمى على من كان بصيراً ! فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب عن الله أشد من عمى العين ، وددت أن الله وهب لى كنه محبته وأنه لم يبق منى جارحة إلاّ أخذها

وقدم ابن أخ لها من فراق طويل فبُشِّرت به فبكت ، فقيل لها : ما هذا واليوم يوم سرور ! فازدادت بكاء ، ثم قالت : والله ما أجد للسرور فى قلبى مسكناً مع ذكر الآخرة ، ولقد أذكرنى يوم قدومه يومَ القدوم على الله ، فَمِن بين مسرور ومثبور ، ثم أغمى عليها وسقطت

فاطمة بنت عباس، المفتية، المدرسة، الفقيهة، العابدة، العالمة، الصوفية، المجاهدة

وكل هذه ألقاب خلعها عليها أهل دهرها، وكلها صفات وصلت بها منتهى حدودها. كانت تصعد المنبر وتعظ النساء. وانتفع بتربيتها والتخرج عليها خلق كثير. وكانت عالمة موفورة العلم فى الفقه والأصول، وعلى سُنّتها سارت ابنتها زينب فكانت تعظ النساء وتخطبهن فى حياة أمها وبعد موتها

فخرية بنت عثمان البصرية

كانت من أسرة عريضة الجاه موفورة الغنى، ولكن ذلك كله لم يطب لها فخرجت عنه وتزهدت وتنسكت وهجرت الراحة والمنام إلى الصلاة والقيام وقنعت من العيش برغيف وقدح ماء، فذلك قوتها كل يوم

وكانت أشبه الناس برابعة فى الوحشة من الدنيا والتدلّه فى ذات الله. هاجرت إلى بيت المقدس وأقامت أربعين عاماً تقف الليل كله بباب الحرم تصلى حتى يفتح الباب فتكون أول داخل وآخر خارج

مُعاذة بنت عبد الله العدوية البصرية

روى عنها قتادة والجرمى وأيوب وغيرهم. وكانت إذا شملها النهار قالت لعلّى أموت اليوم فلا تنام، وإذا جنّها الليل قالت لعلى أموت أموت الليلة فلا تنام. وكانت إذا اشتد البرد لبست الرّقاق من الثياب ليمنعها البرد طيب المنام فلا تنام.

ومن قولها: عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد فى ظلمة القبور. وكانت تصلى فى اليوم والليلة ستمائة ركعة، ولم ترفع بصرها إلى السماء أربعين عاماً

وأكثر ما كان الزهد والتنسك فى البصرة، وتلك كانت شهرتها من قديم عهدها ومن حديث هذا التبذل والتبتل تعلم أن المرأة تمردت على الحياة النّسوية الكاملة، فليس فى هؤلاء ولا أولئك مثل واضح للمرأة التى جعلها الله مبعث الود والرحمة للزوج

ومغرس النبل والكمال للولد ، بل هى امرأة ثائرة على النظام نافرة من الجماعة ، وما لهذا خلق النساء

ومن العجيب أن المرأة المتنسكة انصرفت عن الزواج ! كأنها تعلم أن نسكها لا يتم إلا إذا انفردت عن سائر الناس !

ومما رواه صاحب (مصارع العشاق) من حديث فتاة من المتبتلات نظر اليها فتى من جيرتها فهام بها فأومرت فى الزواج منه فاعتذرت . أقول من هذا الحديث تعلم كيف يصرف هذا الصنف من النساء عنانه عن كل ما يتصل بالحياة

وحديث ذلك أن هذا الفتى رأى الفتاة فشغفته حباً فكتم أمرها حتى انحلّ جسمه وأشفى على الموت ، ثم كاشف بأمره امرأة من أهله فذهبت الى الفتاة — وكان حديث مرض الفتى قد انتهى اليها — وحدثتها ساعة ، ثم قالت لها : يا بنية أبليت شبابك وأفنيت أيامك على هذه الحال التى أنت عليها ! قالت يا عمتاه أية حال سوء ترينى عليها ؟ ! قالت لا يا بنية ، ولكن مثلك يفرح فى الدنيا ويَلَذ فيها ببعض ما أحل الله عز وجل لك غير تاركة لطاعة ربك ولا مفارقة لخدمته ، فيجمع الله لك بذلك الدارين جميعاً ، فوالله ما حرم الله عز وجل على عباده ما أحل لهم من الطيبات . فقالت يا عمتاه ، أو هذه الدار دار بقاء لا انقطاع ولا فناء ، فتكون الجوارح قد وثقت بذلك ، فتجعل لله تعالى شطر همتها وللدنيا شطرها ، فتعد الجوارح اذا التعب راحة والكد سلامة ؟ أم هذه الدار دار فناء وتلك دار بقاء ومكافأة ، والعمل على حسب ذلك ، قالت يا بنية لا ، ولكن الدنيا دار فناء وانقطاع وليست بباقية على أحد ولا دائمة له ، ولكن قد جعل الله تعالى لعباده فيها ساعات صدقةً منه على النفوس تنال فيها ما أحل لها مخافة الشدة عليها . فقالت الجارية : صدقت يا عمتاه ، ولكن لله عباد قد علموا وصح فى هممهم شىء من ذخر ذخروه عنده ، فجعلوا هـذا الشكر

ذخيرة عنده ، اذ لم تكن الدنيا كاملة لهم ، ولاهم منتقصون شيئاً قدموه لأنفسهم ، وسكنت نفوسهم ورضيت منهم بالصبر على الطاعة لتنال جملة الكرامة. وان كلامك ليدلنى على أن تحته علة وهى التى حملتك على مناظرتك لى على مثل هذا ، وقد كنت أظن قبل اليوم فيك أنك تأمرين بالحرص على طاعة الله عز وجل والخدمة له والتقرب اليه بالأعمال الزكية التى تبلغ رضاه وترفع عنده ، فقد أصبحتِ متغيرة عن ذلك العهد الذى كنت أعهدك عليه ، فأخبرينى بما عندك وأوضحى لى ما بقى فى نفسك ، فان يكن لك جواب أعنتك ، وان يكن فيه حظ تابعتك ، وان يكن أمراً بعيداً عن الله تعالى وعظتك . قالت يا بنية ! فأنا مخبرتك به ، والذى منعنى من القائه عليك هيبتك ، فأما إذ بسطتنى وعلمت أن عندى خبراً وأمرتنى بالقائه فان من قصة فلان كذا وكذا ؛ قالت قد ظننت ذلك ، فأبلغيه منى السلام وقولى : أى أخاه ، إنى والله قد وهبت نفسى لمليك يكافئ من أقرضه بالعطايا الجزيلة ، ويعين من انقطع اليه وخدمه بالهمم الرفيعة ، وليس الى الرجوع بعد الهبة سبيل ، فتوسل الى مولاك ومولاى بحبابِهِ ، وأسرع اليه فى غفران ما قدمت يداك من عمل لم يهبه ولم يرضه ، فهو أول ما يجب عليك أن تسأله وأول ما يجب على أن أعظك به ، فاذا خدمته بقدر ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب وخطرات الصدور ، فانه لا يحسن بعبد كان لمولاه عاصياً وعن أمره موليا ناسياً — أن ينسى ذنوبه والاعتذار منها ، ويُلزم نفسه مسئلة الحوائج لعلها داعية له الى الفتنة إن لم يتداركه الله بكرمه ، فاستنقذ نفسك يا أخى من مهلكات الذنوب فان له فضلاً وسع كل شىء ، ولست مؤيستك من فضله إن رآك متبتلاً اليه ، ومما قدمت يداك معتذراً أن يمن بى عليك ، فانه الملك الذى يجود على من ولّى عنه فكيف من أقبل اليه ، فلا يشك أنه اذا جاد على من تولى عنه يكون لمن أطاعه مكرماً واليه وقت

الندامة مسرعاً ، وما أبقيت لك حجة تحتج بها ، فليكن ما أخبرتك به نصب عينيك ، ولا ترادنى فى المسئلة فلا أجيبك ، والسلام .

فلما بلغته مقالتها زاد وجده بها حتى خولط عقله ومات بعلته .

وبعد ، فهذه صورة ما كان عليه نسوة هذا العصر من غلو فى كل شىء ، ولست أعنى بذلك أن نساء العراق لم يبق منهن إلاّ الجامحة فى أحد هذين الطريقين فما زال فيهن المستورات اللواتى سرن فى الطريق السوى الذى لا اعتساف فيه ولا انحراف ، ولكن هؤلاء لم يكن فى أسلوب حياتهم شىء يستحق التنويه به ولا مزية تستوجب الاشادة بها وهن مع ذلك قُلٌّ فى النساء

المرحلة الثانية

الكساد

الزواج قيد من قيود الاجتماع أو ثقة الله بين الرجال والنساء لتنكسر به حدة الشهوة الطائشة ، وترعوِىَ به سورة النفوس المندفعة ، فاذا تم لها ذلك ، سمت الروح وصفت السريرة ، وغَلبت الفضيلة ، وسار الناس إلى الكمال فى نهج واضح وأمد قريب . لذلك لا تجد الأمة الغوية تنزع إلى الزواج ، لأنها تريد اثارة الشهوات لا اماتتها ، وايقاظ الفتن لا اخمادها ، وتضرية النفوس لا ترويضها ، فإذا نزع إليه منها نازع فبقدر ما يقضى نهمة جامحة ، أو يسد مطمعاً مؤتشباً ، ثم يتركها كما يُترك اللَّقَى المهمل ، أو يطويها كما يُطوى الثوب اللبيس . وذلك ما كان على أتم وجوهه فى حواضر العراق ، فقد كسد النساء حتى أصبحت المرأة تطلب بالدينار والدينارين فتساق ، وهى تعلم أنها ستسَلم حين اللقاء تسليم الوداع . ومما ينبئك عن هذا البوار ما حدث صاحب النجوم الزاهرة ، أن عالماً من علماء بغداد زُوّج من تسعمائة امرأة !

فهل إذا قيل لك إن فلاناً العالم ذبح فى حياته تسعمائة شاة أفلا يكون ذلك اسرافاً مبيناً . ذلك عالم ليس له إلا ما يقيم أوده مما يوظف لأمثاله من بيت مال المسلمين ، فكم من النساء يمسك الغنى إذا نزل تلك السوق الراكدة ومعه ماله وجاهه

وفى هذه السوق قُضى على المطلقات قضاء لا مرد له ، فلا يطلب المطلقة طالب ولا تلمحها نفس راغب . وقد كان من سنة العرب حتى آخر العهد الأموى ، أن المرأة يخلفها بعد زوجها زوج ومن بعده أزواج ، فلا يتضع لها قدر ، ولا تطمئن لها عزة ، وربما كان آخر أزواجها أسنى شرفاً وأدنى الى قلوب النساء من أولهم لأن المرأة انما تخطب لسناء شرفها ، وعلو بيتها ، ونبل خلالها ، وذلك ما لم ينقصه الطلاق شيئاً . أما الآن وقد شغل الناس بلذات الشباب ، واستمرأوا مرعى الجوارى فأقل ما يطلب أبكار العرب بَلْهَ ثِيبَهن . والى تلك الحال أشار الجاحظ فى كتاب القيان اشارة الآسف المحزون ، وان من أوضح ما يكشف عن رأى الرجل فى المرأة ، ومنزلتها من نفسه ، وحالها فى بيته قول القائل :

اذهبي قد قضيت منك قضائى وإذا شئت أن تبينى فبينى

ولعل أبلغ فى الإنباء بحالها ، وتجنى الرجل عليها قول أبى الشيص :

إذا لم تكن طرق الهوى لى ذليلة تنكبتها وانحزت للجانب السهل
ومالى أرضى منه بالجور فى الهوى ولى مثله ألف وليس له مثلى

ثم انظر الى المجاهرة بالغدر ، والمجابهة بمكنون النفس ، والمظاهرة بدخيلة الرأى فى قول القائل :

يا رُب مثلك فى النساء كثيرة بيضاء قد متعتها بطلاق
لم تدر ما تحت الضلوع وغرها منى تجمل شيمتى وخلاقى

وأعقب ذلك الكساد التفريط فى حقوق المرأة . ومن ذا الذى يضن بالرخيص المبذول ، أو يصون البغيض المملول ؟ ومن التفريط تركها فى غياهب الجهل وطرحها فى مطارح الإهمال ، فلا تزويد بعلم ، ولا تجميل بأدب ، ولا تنشئة على دين وانقضى بانقضاء القرن الثالث للهجرة عهد المرأة العربية الكاتبة والشاعرة والعالمة والخطيبة ، وقالوا تعلة لذلك : ان الذى يُعلم المرأة كمن يصقل السيف ليُقتل به ، وقالوا : لا تسق السهم سماً لترميك به يوماً ما ، وقالوا : اذا وصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة من الجهل . وقالوا : لا تدع المرأة تضرب صبياً فإنه أعقل منها . وأمثال ذلك ونظائره كثير

ومن التفريط فى المرأة ترك الحفاظ لها ، والغيرة عليها . ولا أقول ان ذلك كان سَنناً عاماً لأهل العراق ، ولكنه مما فشا فيهم ، وذاع فى أشعارهم وأخبارهم ، وأثر عن سامّتهم وعامّتهم . وليس بسر ما وضعه أهل هـذا البلد من الكنايات وما أرسلوه من النوادر ، وما أذاعوه من الشعر عن المفرّطين فى أعراضهم ، المغضين عن شرف حلائلهم مما استفاضت به الكتب ، وتظاهرت عليهِ الأخبار

اباحة المتعة والزواج الموقوت

المتعة عَقد بين الرجل والمرأة صيغته أن يقول الرجل أتمتع أو أستمتع بك ، أو ما اليهما مما اشتق من هـذا اللفظ ، فتجيبه المرأة بالقبول ولا تلزمه الشهود والزواج الموقت صيغة كصيغة الزواج العامة إلا أنه موقوت بوقت ، وقد أحلهما الإسلام معاً باسم المتعة فى السنة الأولى من الهجرة ، ثم حرمهما الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . على أن المسلمين ما برحوا يتمتعون طوال عهد أبى بكر وصدرا من عهد عمر لأن منهم من لم يصله حديث المنع حتى أخذهم عمر بمنعه

وحسر لهم عن حجة تحريمه فكفوا عنه ، وأقاموا بعدها لا يبيحون المتعة إلا فريقاً من الشيعة أباحوها معتمدين على فتوى نسبت الى علىّ عليه السلام، وأخرى قال بها ابن عباس رضى الله عنهما . وما زال جمهور المسلمين يحامون هذا الأسلوب من الزواج حتى أباحها المأمون للمسلمين عامة ، وظاهر غرضه الانحياز الى على وابن عباس لأنه كان يُولِى الشيعة رأيه ويمنحهم قياده ، أما حقيقته على ما أرى فعلاج ذلك الكساد الذى ينذر الأمة بالوبال العاجل والموت المحيق ، على أنه لم يحسم داء ولم يدفع بلاء . لذلك حرمه على الناس اعتداداً بحديث صدع به قاضيه يحيى بن اكثم

آثام الظنون

استنشى الناس فى العهد العباسى نشوة الحضارة وابتَلَوْا سكرة النعيم وسارت المرأة فى أثر الرجل ناهزة بدلوه مسيمة أفياء سرحته ، والمرأة ذات حِسّ وثاب ، تدفعها إلى الكمال فتسير الى أبعد حدوده وتقذف بها الى النقص فتتردى الى أعمق وهاده ، فلما أفاق الرجل وأبصر المرأة مرخاة العنان لا يردها زجر ولا يلويها تحرج أنشأ يَلْتدم حزناً ويستشرى غضباً كان لم تكن له فى ذلك الخَطب يد أيدّة ولا جهد عميق ، على أن مما يملك الرجل التعليل والتأويل ، فهو اذا ضل راح يلتمس المعاذير لهذا الضلال — وربما مرّه الرأى فاذا الضلال هدى واذا الشطط قصد مبين ، لذلك راح يعزو ما تورطت فيه المرأة الى سوء فطرتها ولؤم غريزتها وقبح دخيلتها وأنها أشرى الشر وأسوأ السوء ، وزور الرجال أحاديث نحلوها رسول الله وفيها أن المرأة قرارة اللؤم ودارته ومنبت الشر ونبعته ، كان لم يكن منها أمه ولا زوجه ولا ابنته التى عدها عديل نفسه ، وادخر الله منها سلالة نبيه ، ونسبوا الى فلاسفة اليونان والهند تشبيههم المرأة بالصائد الخاتل والحية الرقشاء ؟! ومما زوروه من الحديث : أوثق سلاح ابليس النساء — النساء حبائل الشيطان — شاوروهن وخالفوهن — اياك

ومشاورة النساء فان رأيهن الى أفن وعزمهن الى وهن — النساء شر كله وشر ما فيهن كلّه الاستغناء عنهن . ومما نحاوه صحابة رسول الله دعواهم أن علياً عليه السلام قال «لا تطيعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن يدبرن العيال، فانهن ان تركن وما يردن أوردن المهالك وأزلن الممالك، لا دين لهن عند لذاتهن، ولا عقل لهن عند شهواتهن ، ينسين الخير ويحفظن الشر ، يتهافتن فى البهتان ويتمادين فى الطغيان ويتصدين للشيطان» وقولهم على لسان سَلْمان رضى الله عنه : النساء عِىٌّ وعورة ، فداووا العى بالسكوت، والعورة بالبيوت. وزعموا أن من الأقدمين من قال لا تدع المرأة تضرب صبياً فانه أعقل منها. ومنهم من قال اذا وصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة من الجهل . وأن سقراط رأى امرأة تحمل ناراً فقال : نار تحمل ناراً والحامل شر من المحمول . وقيل له أى السباع شر؟ فقال المرأة

كل ذلك وأمثاله لم تقلبه الألسنة إلا فى العهد العباسى ، وقد ظهر اختيان المرأة فى أحط مظاهره على ألسنة الشعراء ، ومن أشنع ما قيل فى ذلك العهد

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جزوعاً اذا بانت ، فسوف تبين
وان هى أعطتك اللِّيان فانها لغيرك من خلانها ستلين
وخنها وان كانت تفى لك انها على مدد الأيام سوف تخون
وان حلفت لا ينقض النأى عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

ثم ما زال الشعراء يتداركون على ذلك السَّنن الوعر من هُجر الكلام ومُرِّه حتى جاء أبو العلاء فاتهم المرأة فى ذمتها وأمانتها ودينها وخلقها ! ولم يدع لها لمحة من الخير ولا حجب عنها لفحة من الشر ، وهو فى ذلك لم يَعْدُ ما يقوله أهل هذا العصر فى المرأة ، ونحن هنا نلم بشىء مما قال فى هذا السبيل . قال

وأظهر من ضوارب فى نعيم نعام فى الفلا متهبرات[1]
تقيَّد لفظها عن كل بر مواش بالحُلِيِّ مقيدات
عَجِلن الى مساءة مستجير لواهٍ فى الخطا متأبرات
وتنقص خيرَها أثراً وفتكا صواحب منطق متزيدات
وسَبَّح بالضحى ظَبَيات مَرْدٍ بكل عظيمة متمردات[2]
وقد أغمِدْن فى أزر ولكن سيوف لحاظهن مجردات
وورّدت اللباس بِلَون صبغ خدود بالشباب موردات

وقال :

قد أهملت للخِيَاط ابرتها فصادفت ابرة لعقربها
فهى تُسَقّى الحليب ليلتها ولم يكن من لذيذ مشربها

الحجـــاب

وكان لزاماً بعد أن أوحشت عقيدة الرجل فى المرأة أن يقصيها عن منال العيون ويحجبها عن محال المآثم، فما لبث أن أرخى عليها الحجب وأسدل دونها الأستار وعفّى على كل أثر ينبئ عنها أو يشعر بوجودها، وراح يتأول فيما أباح الدين رؤيته منها، وأكثر من فعل ذلك المتأخرون من فقهاء الحنفية، وأنت تعلم أن الاسلام أباح للرجل أن يطّلع على وجه المرأة وكفيها وقدميها. فانظر كيف تأولوا فى ذلك! أما الوجه فقد قال صاحب « الدر » « وتُمنع — المرأة — من كشف الوجه بين الرجال لخوف الفتنة » وأما الكف فقد قالوا : إن ظهره عورة، كما قالوا : أن باطن القدمين عورة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الحجاب، بل إنهم تأولوا كذلك فى صوتها فقالوا : إن نغمتها — حتى فى قراءة القرآن الكريم — عورة. وزاد صاحب

(١) آكلات الهبير — حب الحنظل (٢) المرد غصن الأراك

الكافى فقال : لا يجوز للمرأة أن تلبى جهرة لأن صوتها عورة ، بل لقد تجاوز صاحب الفتح كل ذلك إلى الفتوى بفساد صلاة المرأة لو جهرت بالقراءة

كل ذلك مما تأوله فقهاء القرن الخامس وما يليه — باسم الدين — درءًا للفتنة الناشبة وحسماً للداء الوبيل . وما عسى أن يفعل هؤلاء وقد طغى الفساد على المشاعر الفاضلة فلا يُعرف من المرأة إلا أنها ذريعة إلى مأرب فاسد وسبيل إلى مطمح وخيم

ولقد أغرق الناس فى حجاب المرأة حتى عِيب عليهم أن يذكروا اسمها ، وبعد أن كان معاوية يتحدث عن نفسه فى مجلس خلافته فيبدأ حديثه بقوله «أنا ابن هند» وبعد أن جاء شاعر بنى أمية يمدح فحل أجمتهم عبد الملك بن مروان بقوله

أنت ابن عائشة التى فضلت أروم نسائها

بعد كل هـذا وأشباهه أصبح اسم المرأة عورة يعاب ذكره وتُتَلَمّس وجوه الكناية عنه ، حتى لقد أراد أبو الطيب احمد بن الحسين المتنبى أن يرثى خَوْلة بنت حمدان أخت سيف الدولة فسماها « فَعْلَة » ، وهذا قوله :

كأنَّ فَعْلَةَ لم تملأ مواكبها ديار بكر ولم تَخْلَع ولم تهب

هذا والمتنبى شاعر نشأ بين الاعراب وسار فى مساقهم ورغم ذلك لم يشأ أن يصرح باسم مرثيَّته وذكر عنها تلك الكناية الغريبة

فانظر إلى هذا النوع من الحجاب كيف ألجأ الشاعر العظيم إلى تلك الكناية الفاسدة ، وأخرجه ذلك المخرج المعيب ؟ ولقد أراد ذلك الشاعر أن يصف ذلك الحجاب فى رثائه والدة سيف الدولة فدعاه دفناً ! وذلك قوله

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال
على المدفون قبل الموت صوناً وبعد الموت فى شرف الخلال

وأصبح أولئك الشعراء يعدون الاغراق فى الحجاب فضلاً ومحمدة حتى للبنات الصغيرات ! وانظر الى الشريف الرضى كيف أراد أن يرثى صغيرة من هؤلاء فقال

يا أرض ما الدّرء فى شخص عصفت به ... بين الأقارب والعواد والخول
أردت أن تحجب البيداء طلعته ... ألم يكن قبل محجوبا عن المقل ؟

اذاً فقد كتب على المرأة الشريفة فى هذا العهد أن تؤءد فى الحجاب وتظل فيه حتى تموت

ومن بعد القرن الخامس غابت المرأة العراقية فى الخفاء حتى عن التاريخ ، فأصبح لا يهتم بها ولا يذكرها بخير ولا شر

محنة المرأة

فى فتنة القرامطة

فرقة الاباحة

القرامطة فريق من غلاة الباطنية ، ولهؤلاء الباطنية حديث طويل يجب أن نجمله إجمالاً ثم نأخذ فيما قصدنا له

لقد ظهر مذهب الباطنية فى القرن الثالث ، والدعاة اليه قوم من أهل فارس أرادوا أن يوهنوا العرب فى دينهم كما أوهنوهم فى قوميتهم ، ولهؤلاء القوم فى دعوتهم حذق ورفق فلم يهاجموا الاسلام طعناً وتجريحاً كما كان يفعل دعاة الأديان حين يدعون المسلمين الى اديانهم ، بل ظهروا للناس مسلمين لا يعدلون عن الاسلام الى سواه ، ثم تأولوا كل حقيقة من حقائقه وكل شعيرة من شعائره ، فتأولوا الملائكة والعرش واللوح المحفوظ والبعث والجنة والنار الى معان بعيدة لا ظواهر لها ، حتى ذات الخالق جل وعز تأولوها الى قوى الطبيعة ، وتأولوا كذلك الصلاة والصيام

والحج الى ما ليس من شأنها ، وذهبوا يتصلون بنفوس العامة اتصالاً بارعاً دقيقاً. فهم يأتون السُّنى من غير الناحية التى يأتون منها المعتزلى، ويخاطبون المتصوف من غير هاتين الناحيتين ، ويبيحون للغواة صنوف اللذات ، وجعلوا من حق المرء أن يتزوج أخته وابنته كما يفعل المجوس، وفى ذلك يقول أحد دعاتهم : « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم تكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه ويُنكحها من أجنبى، ولو عقل الجاهل لعلم أنه احق بأخته وبنتهِ من الأجنبى »

ويرى هؤلاء أن الأنبياء قوم أظهرتهم مواهبهم ونفاذ عقولهم وقوة تأثيرهم فى نفوس الناس

والقرامطة فريق من غلاة الباطنية، وهم يدينون بالقتل والتدمير واخافة السبيل أكثر مما يدينون برأى أو ينزعون عن عقيدة ، وكثيراً ما كانوا يُغيرون على الحجيج فى طريقه الى مكة أو فى طوافه أو عند افاضته فيقتلون الرجال ويذبحون الأطفال ويستحيون من راق فى أعينهم من النساء

وزعيم هؤلاء أحمد بن قرمط ، كان من صابئة حرّان ، ثم قدم الكوفة فاجتذب اليه عامتها وأحل لهم الموبقات وخاض بهم الخبائث وقطع بهم السبيل واجتمع اليه خلق كثير؛ وخلف من بعده خلف كان أشد منه فتكاً وأنكى طريقة ، وقد حدثوا عن الحسين بن زكرويه القرمطى أنه ربما أغار على المدينة فقتل رجالها ونساءها وأطفالها وماشيتها وخرج وليس بها عين تطرف

وكانوا يبيحون للمرأة أن تتزوج بالكثير من الرجال

ومما حدث الطبرى عن أبى الحسن المتطبب ببغداد قال : جاءتنى امرأة بعد غلبة المكتفى بالله على صاحب الشامة — من زعماء القرامطة — فقالت لى : إنى

أريد أن تعالج شيئاً فى كتفى، قلت وما هو؟ قالت جرح، قلت أنا كحّال وهنا امرأة تعالج النساء وتعالج الجراحات فانتظرى مجيئها، فقعدت ورأيتها مكروبة كئيبة باكية فسألتها عن حالها وقلت ماسبب جراحتك، قالت! قصتى تطول. قلت حدثينى بها واصْدُقينى، وقد خلا من كان عندى فقالت: كان لى ابن غاب عنى وطالت غيبته وخلّف على أخوات له فضقت واحتجت واشتقت اليه، وكان شَخَص إلى ناحية الرَّقة فخرجت إلى الموصل وإلى الرقة كل ذلك أطلبه وأسأل عنه فلم أُدَل عليه فخرجت عن الرَّقة فى طلبه فوقعت فى عسكر القرمطى فجعلت أطوف وأطلبهُ فبينا أنا كذلك إذ رأيته فتعلقت به فقلت ابنى! فقال أمى؟ فقلت نعم! قال ما فعل أخواتى! قلت بخير، وشكوت ما نالنا بعده من الضيق فمضى بى إلى منزله وجلس بين يدى وجعل يسائلنى عن أخبارنا فخبرته ثم قال دعينى من هذا واخبرينى ما دينك؟ فقلت يا بنى أما تعرفنى؟! فقال وكيف لا أعرفك، فقلت ولِمَ تسألنى عن دينى وأنت تعرفنى وتعرف دينى. فقال كل ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه الآن فأعظمت ذلك وعجبت منه، فلما رآنى كذلك خرج وتركنى، ثم وجّه إلىّ بخبز ولحم وما يصلحنى وقال اطبخيه، فتركته ولم أمسّه ثم عاد فطبخه وأصلح أمر منزله فدق الباب داق فخرج اليه فاذا رجل يسأله ويقول له: هذه القادمة عليه تحسن أن تصلح من أمر النساء شيئاً؟ فسألنى فقلت نعم، قال امضى معى، فمضيت فأدخلنى داراً، وإذا امرأة تطلُق فقعدت بين يديها وجعلت أكلمها فلا تكلمنى، فقال لى الرجل الذى جاء بى اليها ما عليك من كلامها، أصلحى أمر هذه ودعى كلامها، فأقمت حتى ولدت غلاماً وأصلحت من شأنها وجعلت أكلمها وأتلطف بها وأقول لها يا هذه لا تحتشمينى فقد وجب حق عليك، أخبرينى خبرك وقصتك ومَن والد هذا الصبى؟ فقالت تسألينى عن أبيه لتطالبيه بشىء يهبه لك؟ فقلت لا، ولكن أحب أن أعلم

خبرك . فقالت : إنى امرأة هاشمية — ورفعت رأسها فرأيت أحسن الناس وجهاً — وإن هؤلاء القوم أتونا فذبحوا أبى وأمى وإخوتى وأهلى جميعاً ، ثم أخذنى رئيسهم فأقمت عنده خمسة أيام ، ثم أخرجنى فدفعنى إلى أصحابه فقال طهروها ، فأرادوا قتلى فبكيت ، وكان بين يديه رجل من قواده فقال هبها لى ، فقال خذها فأخذنى ، وكان بحضرته ثلاثة أنفس قيام من أصحابه فسلوا سيوفهم وقالوا لا نسلمها اليك ، إما أن تدفعها الينا وإلا قتلناها ، وأرادوا قتلى وضجوا فدعاهم رئيسهم القرمطى وسألهم عن خبرهم فخبّروه فقال تكون لكم أربعتكم ، فأخذونى ، فأنا مقيمة معهم أربعتهم ، والله ما أدرى ممن هو هذا الولد منهم

قالت فجاء بعد المساء رجل فقالت له هنّيه فهنأته بالمولود فأعطانى سبيكة فضة وجاء آخر وآخر أهنىء كل واحد منهم فيعطينى سبيكة فضة ، فلما كان فى السحر جاء جماعة مع رجل و بين يديه شمع وعليه ثياب خز تفوح منه رائحة المسك فقالت له هنيه ! فقمت اليه فقلت بيّض الله وجهك والحمد لله الذى رزقك هذا الابن ودعوت له فأعطانى سبيكة فيها ألف درهم ، وبات الرجل فى بيت و بتّ مع المرأة فى بيت ، فلما أصبحت قلت للمرأة ياهذه قد وجب عليك حق ، فالله الله فىّ ، خلصينى قالت م أخلصك ؟ فخبرتها خبر ابنى وقلت لها إنى جئت راغبة اليه ، وانه قال لى كيت وكيت ، وليس فى يدى منه شىء ، ولى بنات ضعاف خلفتهن بأسوأ حال ، فخلصينى من ههنا لأصل الى بناتى . فقالت عليك بالرجل الذى جاء آخر القوم فسليه ذلك فانه يخلصك ، فأقمت يومى الى أن أمسيت ، فلما انصرف تقدمت اليه وقبلت يده ورجله وقلت يا سيدى قد وجب حق عليك ، وقد أغنانى الله على يديك بما أعطيتنى . ولى بنات ضعاف فقراء ، فان أذنت لى أن أمضى فأجيئك ببناتى حتى يخدمنك ويكنّ بين يديك ! فقال وتفعلين ؟ قلت نعم ! فدعا قوماً من غلمانه فقال امضوا

معها حتى تبلغوا بها موضع كذا وكذا ثم اتركوها وارجعوا ، فحملونى على دابة ومضوا بى ، قالت فبينما نحن نسير واذا أنا بابنى يركض وقد كنا سرنا عشرة فراسخ فيما خبرنى به القوم الذين معى ، فلحقنى وقال يا فاعلة ! زعمت أنك تمضين وتجيئين بيناتك ؟ ! وسلّ سيفه ليضربنى فمنعه القوم فلحقنى طرف السيف فوقع فى كتفى ، وسل القوم سيوفهم فأرادوه فتنحى عنى وساروا بى حتى بلغوا بى الموضع الذى سماه لهم صاحبهم فتركونى وقَدِمْت

فالقرامطة اذاً قوم يجذبوب قلوب الفتيان والفتيات بما يزينون لهم من ضروب الملذات ومقارفة المآثم، وكانت سطوتهم مصبوبة على البيت الحرام ومن يلوذون به لأنه مثابة المسلمين ومعقد ألفتهم ومناط وحدتهم ومجتمع كلمتهم . وقد أحرقوا أستار الكعبة وكسروا الحجر الأسود وملأوا زمزم بأجساد القتلى وذبحوا من الحجاج من لا يحصيهم الا الله، كل ذلك لينتقموا من الاسلام بالخسف والعسف مالم يُمكّن الباطنيون من قمعه بالرفق والحيلة

وقد أقامت هذه الفرقة المُنيحة المبيحة أمد القرن الرابع ثم تآزر عليهم المسلمون فأبادوهم جميعاً

الحياة الفكرية

للمرأة فى العراق

تنقلت المرأة العربية العراقية فى دورين متباينين :

أما الأول فمداه مائتا عام ، وربما أربى على ذلك قليلاً . وفى ذلك العهد لم تقصر عن اللحاق بالرجل فى بعض نواحى العلم والفن وان لم يؤثر لها فيهما شىء كثير . وقد أسلفت لك شيئاً مما ذاع من دور الخلافة من شعر النساء وغِناء النساء ، وما أثر عن نساء العلويين من دراسة علوم الدين ، وكذلك ظهر من النساء من تعلمن الطب ودرسن الفلسفة ، ومن هؤلاء من جاذبن الملحدين أسباب الزيغ والالحاد وجهرن بذلك كله ، وقد تحدث الطبرى عن نساء أقررن بالزندقة بين يدى المهدى حين سلط سيفه على الزنادقة . وممن أقرَّبها هنالك فاطمة بنت يعقوب ابن الفضل وخديجة امرأته وهما من بيت المهدى ولحمته . وظهر كذلك من درسن كتبها وأقررن بها بين يدى المأمون . ولعل هذا الدور الأول من العهد العباسى أول عهد للناس ظهرت فيه المرأة قاضية تحكم بين الناس باسم الخليفة أمير المؤمنين ، وكان ذلك فى عهد الخليفة المقتدر ، وكان مرجع الأمر حينذاك الى امرأتين : السيدة والدة المقتدر وأم موسى القهرمانة ، وكان لهما الرأى الأعلى فيما دق وجل من أمر الخلافة وشئون الحكم ، وقد عرض للسيدة أم المقتدر أن تَرُوض النساء على القضاء فاختارت قهرمانة لها تدعى « مَثَل » وأمرتها أن تجلس بالرصافة للمظالم وتنظر فى كتب الناس يوماً فى كل أسبوع — قال الصابى : فلما رأى الناس ذلك أنكروه واستبشعوه وكثر عيبهم له والطعن فيه ، وجلست أول يوم فلم يكن لها فيه طائل ، ثم جلست فى اليوم الثانى وأحضرت القاضى أبا الحسن فحسّن أمرها وأصلح عليها

وخرجت التوقيعات على سداد فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس الى ما كانوا قد نفروا منه من صدارتها للقضاء ونظرها فى المظالم

لم يكن إذاً ذلك العهد من حياة المرأة عهد جهالة فاشية ولا تفكير مضطرب ولكنه كان عهد اضطراب فى الخلق والتياث فى السير وانحراف عن قصد السبيل وخروج عن سنّة المرأة وواجبها الذى ناطه الله بها ووكلها به . ومن خُلق الرجل أن يندفع فى لهوه ما شاء أن يندفع ، فاذا تأثرت المرأة به — وحَقَّ لها أن تتأثر — لها عنها حتى يفيق ، فان أفاق وكان هناك سبيل الى ردها عن غايتها دفعها بكلتا يديه وحمّلها وحدها عاقبة ما آل اليه أمره وأمرها من شر ووبال ، ثم لا يزال يسلب منها كل يوم حقاً ويحمّلها كل آن مغرما حتى تصبح هملاً من الأهمال ، أما اذا طال الأمد على اندفاعها وطال إغضاء الرجل عنها حتى يسترخى عنانها وتستحيل طبيعتها ويصلُب على تلك الحال عودها فان من أعسر الأمور أن يغلبها الرجل على أمرها ويردها عن غايتها . ومهما بدا من الرجل والمرأة من ضروب الرفق والود والمحاسنة والملاينة فان بينهما صراعاً قد لا يُحِسَّانه ولا يأبهان به ، وغايته انتزاع كليهما ما شاء من حق صاحبه ، ولقد ينزل أحدهما لصاحبه عن بعض حقه أو كله تجملاً وتفضلاً ، فاذا أراد أن يستردّه يوماً لا يجد السبيل اليه ، ثم ينتهى هذا التجمل والتفضل الى استرخاء واستخذاء وتسليم واستسلام ، وقلّ من الفريقين من يرضى ببعض الغلبة على غريمه ، بل لا يزال يقلّم منه كل يوم ظفراً ويطوقه طوقاً حتى يجعل حياته لغواً ووجوده عدماً ويعد ذلك بعض حقه الذى لا يُدفع عنه أو ينازَع فيه

ونعود الى المرأة العراقية فى الدولة العباسية فنقول : إنها تنكّبت الطريق وجاوزت النهج ولكن الرجل لم يمهلها حتى يكون خروجها طبعاً مألوفاً ودستوراً نافذاً وشريعة موضوعة بل عاجلها دون الغاية وردها قبل القرار ، ولا يكفى قرن

وبعض قرن ليكون للمرأة من مُحدَثات الحقوق ما لا سبيل الى تغييره والعبث به فلم يجد عناء فى سلبها كل ما انتزعته من حق غير مشروع ، ثم لم يقف عند هذا الحد من الغلَب ، بل ذادها عن حقها الذى سوّغه الله لها فحرّم تعليمها ، وحرّم على نفسه العناية بأمرها ، وأبعدها عن منال العيون والألسنة ، ولم يعد يذكرها إلاّ بالسوء ولا ينالها إلاّ بالشر ، وتلك حال المندفع اذا رُدّ ، والمتغلب اذا قُهر .

وكان من أثر ذلك كله انحطاط تفكيرها وشيوع أميّتها ، فلم نعد نسمع فى العراق بالكاتبة ولا الشاعرة ولا المتأدبة ولا المتفقهة إلا ما يشبه الشجرة الناجمة فى الصحراء المقفرة ، وأصبح نسك المتنسكات خَرَفاً وشعوذة ، وأصبحت الأسوة بهن جهلاً وحماقة ، وشاع ذلك الضرب من النسك حتى رُفِعت القباب فى كل إقليم وفى كل مدينة وفى كل قرية وكل دسكرة على أمثال هؤلاء ، وكان شيوع ذلك من الفتن التى أصابت الايمان المتين فى صدور المؤمنين .

المرأة البدوية

أقام أهل بادية العراق على ما كانوا عليه من طبع وخلق وعادة وأدب ، فلم يغير نظام الدولة شيئاً من نظام الجماعة ولا أسلوب الحياة ، ومن أجل ذلك بقيت المرأة الأعرابية على صفاء فطرتها وسناء رأيها وقوة نفسها ونصاعة أدبها ، وكان علماء الأدب ورواة الشعر يذهبون الى البادية فيستمعون مأثور الكلام من الرجال والنساء ثم يعودون فيُطرفون به الخلفاء ويُناقلون به العلماء ويتحدثون به فى مجالس العلم وفى حَلَقات الدروس ؛ وربما جدّ الخلاف بين أئمة النحو فلا يطمئن لهم رأى حتى يأتوا بأعرابى من البادية فيحتكمون اليه ، لأنه لا يسيغ الخطأ ولا ينطق به ؛ وبقيت البادية مباءة للصحيح من اللغة والفصيح من الأسلوب أمداً طويلاً . واذا

كانت المرأة الأعرابية قد فقدت فى أخريات هذا العهد بيانها العذب وأسلوبها البديع فلما أصاب الأعراب من التمزيق والشتات وما شملهم من الدعة والسكون، فلا مجامع تعقد ولا أسواق تقام ولا حروب تشبّ ولا غارات تثار، وقد كان لهم من هذه وتلك مجالات فسيحة يأتون فيها بالقصائد المفاضة، والأمثال المرسلة، والحكم الجامعة، والخطب الطوال.

مأثور من أدب النساء

١ — قالت عُلَية بنت المهدى — وهو مما يتغنى به :

مالى أرى الأبصار بى جافيه ... لم تلتفت منى إلى ناحيه
لا ينظرُ الناس إلى المبتلَى ... وإنما الناس مع العافية
صحبى سلوا ربكم العافيه ... فقد دهتنى بعدكم داهية
صارَمَنِى من بعدكم سيدى ... فالعين من هجرانه باكية

٢ — خرج المهدى يتنزه بعيسى باذ، وقَدِم هنالك النُّصَيب ومعه ابنته حَجْناء، فدخل على المهدى وهى معه، فأنشدته قولها فيه :

رُبَّ عيش ولذة ونعيم ... وبهاء بِمُشْرِق الميدان
بسط الله فيه أبهى بساط ... من بهار وزاهر الحوذان
ثم من ناضر من العُشُب الأخ ... ضر تزهى شقائق النعمان
مده الله بالتحاسين حتى ... قصُرت دون طوله العينان
حفلت حافتان حيث تناهى ... بخيام فى العين كالظُّلمان[1]
زينوا وسطها بطارمة مثـ ... ـل الثريا يحفها النسران

(١) الظلمان : جمع ظليم — ذكر النعام

ثم حَشْوُ الخيام بيض كأمثا ل المها فى صرائم الكثبان
يتجارين فى غناء شجيّ «أسعدانى يا نخلتى حلوان»
فبقصر السلام من سَلَّم اللـــه وأبقى ، خليفـةُ الرحمن
ولديه الغزلان بل هن أبهى عنده من شوارد الغزلان
يا له منظراً ويوم سرور شهدت لذتيه كل حَصَان

فأمر لها المهدى بعشرة آلاف درهم .

٣ — حدّث الأصمعى قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول: والله إن شربك لاشتفاف[١] ، وان ضجعَتَك لا نعجاف[٢] وان شِملتك لا لتفاف[٣] وإنك لتشبع ليلة تُضَافَ ، وتنام ليلة تخاف . فقال لها : والله إنكِ لكرواء[٤] الساقين ، قعواء[٥] الفخذين ، مقّاء[٦] الرفغين، مفاضة[٧] الكشحين ، ضيفك جائع، وشرك شائع .

٤ — لما قُتل الفضل ابن سهل دخل المأمون على أمه فوجدها تبكى فقال لها: أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ابنا ترك لىَ ابنا مثلك لجدير أن يُبكى عليه

٥ — لما أرسل الأمين على بن عيسى إلى خراسان لقتال المأمون حضر إلى باب زبيدة ليودعها، فقالت له : يا على! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى وإليه انتهت شفقتى فانى على عبد الله — المأمون — منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ولدى ملك نافس أخاه فى سلطانه ، فاعرف لعبد الله حق ولادتهِ وأخوته ، ولا تَجبَهه بالكلام فانك لست نظيراً له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ،

(١) الاشتفاف : شرب ما فى الاناء كله فلا تبقى منه على بقية (٢) الانعجاف : الانصراع تصفه بشدة الوخم (٣) الشملة : الاشتمال على الرداء والالتفاف بالرداء ضعف ومسكنة (٤) البكرواء : الدقيقة الساقين (٥) القعواء : المتباعدة ما بين الفخذين (٦) المقاء : الدقيقة الفخذين (٧) المفاضة : المسترخية والكشحان : الخاصرتان

ولا توهنه بقيد أو غُل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تَعْنُفْ عليه فى السير ، ولا تُساوِه فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، واذا شتمك فاحتمل منه .

٦ — قال الأصمعى : دَفَعْتُ فى بعض تطوافى الى امرأة من ولد ابن هَرْمة[١] فسألتها القِرَى ، فقالت : إنى والله مُرْمِلة مُسْنِتةٌ ما عندى شىء ، فقلت أما عندك جَزُور؟ فقالت والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بَيضة ، فقلت أما ابن هَرْمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ، إنى لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أُمْتِعُ العُوذَ بالفصال ولا ... أبتاع إلا قريبة الأجل[٢]
إنى اذا ما البخيل آمنها ... باتت ضَمُوراً منى على وَجَل

ووليت فنادت : اربَع أيها الراكب ، فِعله والله ذلك أقلَّه عندنا[٣] ، فقلت إلاَّ تكونى أوسعتنا قِرًى فقد أوسعتِنا جواباً

٧ — حديث غِربان النوى .

حدّث ابن السراج قال : أخبرنى بعض الاخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لُمَّةً نجتمع ولا يفارق بعضنا بعضاً ، فضجرنا من المقام فى المنازل ، فقال بعضنا : لو عزمتم فخرجنا الى بعض البساتين ! فخرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينا نحن فيه إذ سمعت ضجة راعتنا ، فقلت للبستانى : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة لهن قصة ، فقلت له أنا دون أصحابى : وما هى ؟ قال العِيَان اكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابى أقسمت ألاَّ يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدى

(١) أحد الشعراء الاجواد الفرسان (٢) العوذ من النياق الحديثات النتاج يقول أنه لا يبقيها حتى يعظم فصيلها وكلا شطرى البيت كناية عن تكرمه بذبح الابل فلا يبقى منها على شىء
(٣) تقول هذا التكرم أقل ما عندنا من الطعام

فصعدت إلى موضع أشرف عليهن وأراهن ولا يرينى ، فرأيت نسوة أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكلهن ، ومعهن خدم لهن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمأن المجلس بهن جاء خادم لهن ومعه خمسة أجزاء من القرآن فدفع الى كل واحدة منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم أخرجن صورة معهن فى ثوب دَبِيقيّ فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعون لها ثم أخذن فى النوح فقالت الأولى :

خَلَس الزمان أعز مختَلَس ... ويد الزمان كثيرة الخُلَس
لِلّه هالكة فُجعت بها ... ما كان أبعدها من الدنَس
أتت البشارة والنَّعِيُّ بها ... يا قربَ مأتمها من العُرُس

ثم قالت الثانية :

ذهب الزمان بأنس نفسى عَنوةً ... وبقيت فرداً ليس لى من مؤنس
أودى بمُلْكَ ولو تُفَادَى نفسها ... لفديتها مِمَّن أُعِزَّ بأنفُس
ظلّت تكلمنى كلاماً مُطمعا ... لم أسترب فيه بشىء مؤيِس
حتى إذا فتر اللسان وأصبحت ... للموت قد ذبلت ذبول النرجس
وتسهلت منها محاسن وجهها ... وعلا الأنين تَحُثُّه بتنفُّس
جعل الرجاء مطامعى يأساً كما ... قطع الرجاء صحيفةَ المتلمس

ثم قالت الثالثة :

جرت على عهدها الليالى ... وأُحدِثَت بعدها أمورُ
فاعتضْت باليأس منك صبراً ... فاعتدل اليأس والسرور
فلست أرجو ولست أخشى ... ما أحدثَتْ بعدك الدهور
فليُبلغ الدهر فى مساتى ... فما عسى جهده يضير

ثم قالت الرابعة :

خِدنٌ نفيس من الدنيا فجعت به ... أفضى اليه الردى فى حومة القدر
وَيْحَ المنايا أما تنفك أسهمها ... معلقات بصدر القوس والوتر
يبلى الجديدان والأيام بالية ... والدهر يُبْلِى وتَبلى جدَّة الحجر

ثم قمن فقلن بصوت واحد :

كنا من المساعدة ... نحيا بنفس واحدة
فمات نصف نفسى ... حين ثوى فى الرمس
فما بقائى بعدَهُ ... وشطر نفسى عنده
فهل سمعتم قبلى ... فيمن مضى بمثلى
عاش بنصف رُوح ... فى بدن صحيح

ثم تنحين وقلن لبعض الخدم كم عندك منهن ؟ قال أربعة ، قلن ائت بهن ، فلم ألبث إلا قليلاً حتى طلع بقفص فيه أربعة غربان مكتفات فوضع القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت :

لعمرى لقد صاح الغراب ببينهم ... فأوجع قلبى بالحديث الذى يبدى
فقلت له أفصحت لا طرت بعدها ... بريش فهل للقلب ويحك من رد

ثم أخذن واحداً من الغربان فنتفن ريشه حتى تركنه كأن لم يكن عليه ريش قط ، ثم ضربنه بقضبان معهن لا أدرى ما هى حتى قتلنه ، ثم غنت :

أشاقك والليل مُلْقى الجِرَان ... غراب ينوح على غصن بانِ
أحَصُّ الجناح شديد الصياح ... يبكى بعينين ما تهملانِ
وفى نَعبَات الغراب اغتراب ... وفى البان بين بعيد التدانى

ثم أخذن الثانى فشددن فى رجليه خيطين وباعدن بينهما وجعلن يقلن له :

أتبكى بلا دمع وتفرق بين الألاف ! فمن أحق بالقتل منك ؟ ثم فعلن به ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة

ألا يا غراب البين لونك شاحب ... وأنت بِلَوعات الفراق جدير
فبيّن لنا ما قلت إذ أنت واقع ... وبين لنا ما قلت حين تطير
فان يك حقاً ما تقول فأصبحت ... همومك شتى والجناح كسير
ولا زلت مكسوراً عديماً لناصر ... كما ليس لى من ظالِمِيَ نصير

ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيبت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت ففُعِل به ذلك ، ثم غنت الرابعة

عشيةَ ما لى حيلة غير أننى ... بلقط الحصى والخط فى الدار مولع
أخط وأمحو كل ما قد خططته ... بدمعِيَ والغربانُ فى الدار وُقع

ثم قالت لأخواتها : أىَّ قتلة أقتله ؟ فقلن لها علّقيه برجليه وشدى فى رأسه شيئاً ثقيلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغداء فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله وأخذن عيدانهن فغنين ، فغنت الأولى :

أبكىَ فراقكمُ عينِى فأرّقها ... إن المحب على الأحباب بَكّاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم ... حتى تفانوا وريب الدهر عداء

ثم غنت الثانية :

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمرُهُ الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يَروعهما الذعر

ثم غنت الثالثة

سأبكى على ما فات منك صبابة ... وأندب أيام الأمانى الذواهب

أحين دنا مَن كنت أرجو دنوّه رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً وكنت مُحسَّداً فصبراً على مكروه مُرّ العواقب

ثم غنت الرابعة :

سأفنى بك الأيام حتى يسرنى بك الدهر أو تفنى حياتى مع الدهر
عزاء وصبراً أسعدانى على الهوى وأحمد ما جرّبت عاقبة الصبر

ثم أخذت الصورة فعانقتها وبكت وبكين ثم شكون اليها جميع ما كن فيه، ثم أمرن بالصورة فطويت، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلمهن، فرفعت رأسى اليهن، فقلت لقد ظلمتن الغربان، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته سبباً للكلام لأخبرناك بقصة الغربان. قال فقلت إنما أخبرتكن بالحق، قلن وما الحق فى هذا؟ وكيف ظلمناهن؟ قلت إن الشاعر يقول :

نعب الغراب برؤية الأحباب فلذاك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذاك صرت عدو كل غراب. فقلت لهن : فبالذى خصكن بهذا المجلس وبحق صاحبة الصورة لَمَا خبّرتُنّنى بخبركن! قلن لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا حقه ما أخبرناك! كنا صواحب مجتمعات على الألفة، لا تشرب منا واحدةٌ البارد دون صاحبتها، فاختُرمت صاحبة الصورة من بيننا، فنحن نصنع فى كل موضع نجتمع فيه مثل الذى رأيت، وأقسمنا أن نقتل فى كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الغربان لعلة كانت، قلت وما تلك العلة؟ قلن فرق بينها وبين أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت تذمهن عندنا وتأمر بقتلهن، فأقل ما لها عندنا أن نمتثل ما أمرت به، ولو كان فيك شىء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغربان، ثم نهضن فمضين ورجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بما رأيت، ثم طلبتهن بعد ذلك فما وقعت لهن على خبر ولا رأيت لهن أثراً

٨ — حديث ناسكة

حدَّث التوَّزى عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والأَبلّة فاذا أنا بخباء أعراب قد زرعوا ، واذا أنا بخيمة ، وفى الخيمة جارية مجنونة عليها جبة صوف لا تباع ولا تشترى ، فدنوت فسلمت فلم ترد علىّ السلام ، ثم وليت فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهمُ أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه ... فمضى ليلهم وهم ساهرونا
حيّرتهم محبـــة الله حتى ... علم الناس أنّ فيهم جنونا
هم ألِبّا ذوو عقول ولكن ... قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال فدنوت اليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سَلِم ، فتركتها وأتيت بعض الأخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لآتينّها فأنظر قصتها فى هذا المطر ، فاذا أنا بالزرع قد غرق واذا هى قائمة نحوه وهى تقول : والذى أسكن قلبى من طرف سحر بِصَفِىّ محبة اشتياقك إن قلبى ليوقن منك بالرضا ، ثم التفتت إلىّ فقالت يا هذا ! إنه زرعه فأنبته ، وأقامه فسنبله وركّبه ، وأرسل عليه غيثاً فسقاه ، واطّلع عليه فحفظه ، فلما دنا حصاده أهلكه ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت : العباد عبادك ، وأرزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت : اسكت يا عُتبة

إن إلهى لغنى حميـــد ... لى كل يوم منه رزق جديد
الحمد لله الذى لم يزل ... يفعل بى أكثر مما أريد

٩ — بين القبور

حدث التوَّزى عن مصعب قال : قرأت على لوحين فوق قبرين :

أمغطّى على بصرى فى الحـــب أم أنت أكمل الناس حسنا

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا

ورأيت امرأة عند القبرين وهى تقول : بأبى ! لم تمتعك الدنيا من لذتها ، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى ، فأوفرتنى كدا ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعرى كيف وجدت مَقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ، ثم قالت : استودعتك من وهبك لى ثم سلبنى أسرَّ ما كنت بك . فقلت لها يا أمَه ! ارضَى بقضاء الله عز وجل وسلّمى لأمره . فقالت : هاه ! نعم فجزاك الله خيراً ، لا حرمنى الله أجرك ولا فتنى بفراقك . فقلت لها من هـذا ! فقالت : ابنى ، وهذه ابنة عمه ، كان مسمَّى بها ، زُفت اليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقضت ، فانصدع قلب ابنى فلحقت روحه روحها ، فدفنتهما فى ساعة واحدة ؛ فقلت فمن كتب هـذا على القبرين ، قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين فحفظتهما لكثرة تلاوته لهما ، فقلت ممن أنت ؟ فقالت فزارية ، قلت ومَن قائلهما قالت : كريم بن كريم ، سخى بن سخى ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : مالك بن أسماء بن خارجة يقولهما فى امرأته حبيبة بنت أبى جندب الانصارى ، ثم قالت وهو الذى يقول :

يا مُنزل الغيث بعد ما قنطوا ويا ولى النعمـــاء والمننِ
يكون ما شئت أن يكون وما قدرت ألا يكون لم يكن
يا جارة الحى كنت لى سكناً إذ ليس بعض الجيران بالسكن
أذكرُ من جارتى ومجلسها طرائفاً من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدنى مقة ما لحديث الموموق من ثمن

قال فكتبتها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين مابى من الأحزان

١٠ — حديث أرملة

حدّث الأصمعى قال :

سمعت رجلاً من تميم يقول : أضللت إبلاً لى فخرجت فى طلبهن ، فمررت بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : إبل لى أضللتها ، فهل عندك شىء من علمها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده علمهن ؟ قلت بلى ! قالت الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من طريق الاختبار ، ثم تبسمت وتنفست الصُّعَداء ، ثم بكت وأطالت البكاء ، وأنشأت تقول :

إنى وإن عَرَضت أشياء تضحكنى ... لموجع القلب مطوى على الحزن
إذا دجا الليـــل أحيا لى تذكرَه ... والصبح يبعث أشجانًا على شجن
وكيف ترقد عين صار مؤنسها ... بين التراب وبين القبر والكفن
أبلى الثرى وتراب الأرض جدّته ... كأن صورته الحسناء لم تكن
أبكى عليـــه حنيناً حين أذكره ... حنين والهـــة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهرى مصيبته ... وطيّر النوم عن عينى وأرّقنى
والله لا أنس حي الدهر ما سجعت ... حمامة أو بكى طير على فنن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها : هل لك من بعل لا تُذَم خلائقه وتومَن بوائقه ؟ فأطرقت مليا ، ثم أنشأت تقول :

كنا كغصنين فى أصل غذاؤهما ... ماء الجداول فى روضات جنات
فاجتثّ خيرَهما من جنب صاحبه ... دهرٌ يكر بفرحات وترحات

وكان عاهدنى إن خاننى زمن ألا بضاجع أنثى بعد مثواتى
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سُنَيات
فاصرف عنانك عمن ليس يردعه عن الوفاء خلاب فى التحيات

١١ — حديث فتاة

حدث التوّزى عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديق لى فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قمر . فقلت لصاحبي : لو ملت بنا إليها فاستسقيناها ماء ! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداءك ! اسقينا ماء ، فقالت : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهى تقول :

ألا حىٌّ شخصَىْ قاصدَين أراهما أقاما فما إن يعرفا مبتغاهما
هما استسقيا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقاهما

١٢ — عظة امرأة

حدّث محمد بن سلام الجُمَحى يقول : سمعت رجلاً من بنى سُليم يقول : هويت امرأة من الحى ، فكنت أتبعها إذا خرجت الى المسجد . فعرفت ذلك منى ، فقالت لى ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هى ؟ قلت مودتك ، قالت : دع ذلك ليوم التغابن[1] . قال فأبكتنى والله فما عدت إليها بعد ذلك

١٣ — ومن حديث أخرى : أن رجلاً رأى أعرابية بمكان خال ، والليل منسدل الستر فقال : أما من سبيل إليك ؟ فقالت : أنظر هل يرانا من أحد ! قال ما يرانا إلا الكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فبُهت الرجل وانصرف ذاهلاً ما يتكلم

(١) يوم التغابن ! يوم القيامة . سمى بذلك لأن أهل الجنة يغبنون فيه أهل النار

المرأة الاندلسية

ابتعد العرب بانتقالهم الى الأندلس عن اكثر ظواهر الحياة العربية الأولى، فهم من مهبطهم الجديد فى خميلة نشر الله عليها من سمات الحسن وآيات الجمال ما يستقيد العين والنفس والقلب والخيال، حتى خُيّل لشاعرها أن يقول:

يا آل اندلس لله دركمُ ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تثقوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تُدخل بعد الجنة النار

وهم فوق ما نعموا به من زهو الطبيعة وجلوة الأرض، نعموا كذلك بالكثير الموفور من رفاهة العيش واغداق النعيم، لِمَا آل إليهم من كنوز القُوط ولما حوته أرضهم وديارهم من أفانين الثراء وأسباب النعماء

وقد أصبحوا بهبوطهم تلك البلاد فى نجوة من بلادهم لا تصلهم بها الا الوفود المترددة بين الشرق والغرب على بعد الدار ونأى المزار، أما جيرانهم الأدنَوْن وخلطاؤهم الأقربون فهم أهل البلاد الصميمون الذين تمتعوا بأوفى نصيب من بُلهْنية العيش ولذات الحياة وما يقتضيه كل ذلك من سرف وترف ولهو ونعيم.

وعلى الرغم من ذلك سار الأمويون فى الأندلس دهراً طويلاً على مسار أسلافهم فى الشرق من الاحتجاز بأنفسهم عن الأمم المغلوبة حفظاً لعصبيتهم ووقاية لانسابهم وحماية لأخلاقهم أن يوهنها الضعف والانحلال.

وفوق ذلك لبث الأمويون يطفئون الفتن ويخمدون الثورات ويدفعون العدو المتوثب على الثغور أمداً طويلا، فلم يرخوا أعنـــة اللهو الى حد بعيد كما كان العباسيون يفعلون، حتى إن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وهو الذى رفع

الاندلس الى الذروة العليا من عزة الجانب ونضارة الحضارة وطيب العيش ونعيم الحياة لم يصف له من دهره — كما قال — إلا أربع عشرة ليلة ، وقد أقام فى الملك خمسين عاماً

وبحقّ لقد استحظى كثير من ملوك بنى أمية كثيراً من الجوارى الروميات والصقلبيات وبذلوا لهن أفضل ما يتمنين من رغيد العيش وبعيد الآمال ، ولكنهن لم يُفسدن العنصر العربى لأنهن لم يكن بالكثرة التى تمكنهن من غلبة الرجال على أمرهم وافساد ما بينهم وبين نسائهم ، ولم يكنّ من خلابة الفارسيات ولباقتهن واحتوائهن على ألباب الرجال فى قليل ولا كثير ، ذلك الى أنهن لم يكنّ يعتمدن — كما كان الفارسيات يعتمدن — على فريق من الرجال يشدون أزرهن ، ويُنْهجون طريقهن ، ويستثمرون نفوذهن فى بيوت الخلفاء والوزراء .

لم يكن أولئك الجوارى إذاً سوى وسائل لهو وأدوات زينة ، لأنهن لم يملكن من أسباب اقتياد الرجال إلا الجمال وحده ، وللمتعة بالجمال حد ينتهى إليه ، ومهما بلغت فإن غايتها الى ابتذال وملال .

ولم يكن ذلك العهد الأموى بالأندلس عهد لذات مجترَحَة ولا حرمات مباحة ولم يظهر من الناس من دأبُه قذف المحصنات ، وإشاعة الفاحشة بين الناس كما كان يفعل ذلك شعراء الفرس وأدباؤهم فى بغداد لتوهين الأعراض واباحة الحرمات

وكان للدين سلطان مبين على الأعلياء والدَّهْماء ، ومما زاد الروح الدينى استطارة واستفاضة تلك الشوكة العظيمة التى كان المسلمون يقابلون بها عدوان الجلالقة وغيرهم من المترصدين للعرب والإسلام .

من أجل ذلك لم يكن طريق المرأة الأندلسية شائكاً وعراً ولا ضيقاً حرجًا ، بل كان واضحاً قصداً وصراطاً قويماً ، لا لغو فيه ولا تأثيم ، فلم يكن بدعاً أن تسير

لغايتها من اسعاد الأسرة ، وإصلاح البيت ، وتزكية النشء ، وأن يسير الرجل لغايته من ولاية الأمر ورياضة العمل وحياطة البلاد ، ثم يلتقيان فى معاهد العلم ومجامع الأدب .

ولقد كان النساء يخرجن إلى المسجد الجامع فى قرطبة وإلى سواه من معاهد العلم فيجلسن فى حلقات الدروس منتقبات محتشمات .

وقد ظهر من النساء عدد لا كفاء له فى فنون من العلم والأدب . وكان لهن فى تلك الحياة العاملة شأن نابه وشأو بعيد ، ومنهن الشواعر ، والكاتبات ، والمحدّثات ، والمتفقهات ، والمعلمات ، والمتطببات .

وكان نساء الخلفاء والعظماء فى غنى عن الأطباء بالطبيبات ، وعن المعلمين بالمعلمات

عصر عظمة المرأة الأندلسية

امتد عصر عظمة المرأة الأندلسية حتى جاوز القرن الرابع الى بعض ما يليه ، وفى خلال ذلك الأمد الطويل كانت المرأة مضرب المثل فى جلال الخلق وقوة النفس ووفرة العلم والبعد عن هَنات الاجتماع ؛ وعلى الرغم من مسايرتها للرجل فى طلب العلم والبلوغ فى تحصيله لا تجد فيها زهواً ولا غروراً ، ولا اندفاعاً فيما ليس من حقها من شئون الحياة ، وما أثر عنها فى طَوَال ذلك العهد أنها عاقرت النبيذ أو تبذلت فى مجالس الرجال كما أثر ذلك عن المرأة العراقية فى زهو الدولة العباسية . ذلك لأن الروح العربى والعصبية العربية كانا غالبين على كل مظاهر الحياة فى ذلك العهد ، حتى لقد احتفظت بطون العرب وعشائرها فى تلك البلاد بوحدتها وجامعتها كأنها لم تزل فى تهامة ونجد من أرجاء الصحراء ، فكانت قيس تقيم فى موطن وتميم فى آخر وتجيبُ فى ثالث ، وبين الرجل وعشيرته عقدة جامعة ورباط وثيق

القرن الخامس

بدأت الأندلس فى خلال المائة الخامسة تميد بأعباء الفتن السياسية ، فقد سقطت الدولة الأموية ونهضت فى أثرها دويلات المتغلبين من ملوك الطوائف وكان من شأن ذلك التمزيق الذى فرق أوصال الملك وشتت شمل الأمة أن يخمد جذوة العلم ويوهن قوة الأدب لولا أن الرعيل الأول من أولئك المتغلبين كانوا من أئمة العلم وفرسان الأدب وأعيان البيان ، فأعانوا العلماء والأدباء والشعراء بكل ما فى طوقهم من معونة وما فى خزائنهم من مال ، وتنافسوا فى استيزار الكتاب والشعراء واستزارة الأدباء والعلماء حتى أثمرت المواهب الناضرة وانحسرت العقول النيرة عن أفضل نتاج من العلم والأدب

وفى هذا العصر وما يليه تَسَامَى خيال أهل الأندلس إلى أبعد ما يتسامى اليه خيال الشاعر الساحر ، وجاءوا بالمقطعات النادرة والموشحات المبتكرة ، وبزوا أهل العراق فى وصف ما امتازت به بلادهم من مظاهر الطبيعة المشرقة ، ومسارح الحياة المتألقة فلا تجد أوصف منهم للرياض والغياض والبحار والأنهار والمنازه والملاعب والطير والهديل والسَّحَر والأصيل

وبدأت المرأة الأندلسية فى هذا العصر تنكشف وتأخذ فيما أخذ الناس فيه من لهو ونعيم ، وجاذبت الرجل فنون المرَح وقالت ما لم يكن يقوله غيره من تغزل وتخالع وتفرُّق وتواصل ، ومناقضة ومماجنة ، ومناقلة ومداعبة ، ولكن الأخلاق بقيت فى جملتها مستمسكة فى هذا الجيل من النساء

وأول من سنت للنساء سنة الانكشاف والاستخفاف وَلَّادة بنت المستكفى بالله سليلة بيت المُلك الأموى فى الأندلس

وكان أبوها المستكفى بقية ملوك بنى أميه ، ولم يمهله الزمن حتى غُلب على أمره

وقتل ، ومن بعدهِ حَسَرت ولاَّدة حجابها واتخذت قصرها مهبطاً رحباً ومنتدى خصيباً يأوى اليه كل مبدع منقطع النظير من الكتاب والشعراء ، ومن هؤلاء الوزراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الأدب ويتساجلون الشعر ويتناولون النقد ويتناقلون الحديث . وما كانت ولاَّدة بمقصرة عن السابقين المُجَلّين من هؤلاء ، بل إنها لتُعَد من مبتكرات الشعر الأندلسى الحديث . وكم من الشعراء من يحسن أن يقول قول ولادة

ودَّعَ الصبرَ محب ودعك ذائعٌ من سره ما استودعك
يقرع السنَّ على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيّعك
يا أخا البـــدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قِصَر الليل معك

بل كم منهم من يحسن أن يقول قولها للوزير الكاتب الشاعر ابن زيدون

ترقَّب اذا جَنَّ الظلام زيارتى فانى رأيت الليل أكْتَمَ للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر

وعلى رغم ما أقدمت عليه « وَلاَّدة » من هتك حجابها وتسنية أبوابها . يقول المؤرخون إنها لم تَنْزِع إلى ريبة ولم تنزلق إلى مأثمة ، وأقامت حياتها لم تتزوج ، وعُمِّرَت طويلاً ، وتوفيت فى العام الرابع والثمانين من المائة الخامسة

ولولادة صواحب نشأن على أدبها وانكشفن على سُنَّتِها وأخذن فى الدعابة مثل مأخذها ، ومن هؤلاء « مهجة القرطبية » وكانت أشد اندفاعاً فى مجانة الشعر من استاذتها ، وقد حاولنا أن نرى لها شعراً بريئاً لنثبته فلم نجد ، على أن شعر ولادة لم يكن فى متناوَل النساء ، لأن فيه خولة وجزالة ، وهو بشعر الرجال أشبه ، ولكن أستاذة شواعر الأندلس التى أوردتهن من الشعر العذب الرقيق منهلاً ندى النفحات

صفى النسمات ، هى حَمْدة — أو حمدونة — بنت زياد ، وأصلها من (وادى آش) أحد أعمال الأندلس ، وهى أسبق من ولادة عهداً وأبعد منها مدى ، وفى شعرها أنوثة كاملة وسهولة نادرة وخيال بعيد

ومن شعرها ، وكانت قد خرجت إلى النهر مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت ، قالت :

أباح الدمع أسرارى بوادى ... له فى الحسن آثار بَوَادِ
فمن نهر يطوف بكل روض ... ومن روض يرف بكل واد
ومن بين الظباء مَهاة أنس ... سبت لبى وقد ملكت فؤادى
لها لحظ تُرَقده لأمر ... وذاك الأمر يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالسواد

فهذا هو الشعر النسوى الذى تسيغه نفوس النساء ويتأثرن به ويقتفين سبيله .

ومن أفضل ما يسمو اليه الخيال قولها تصف الرملة من أرباض وادى آش

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنَّى واجهتنا ... فيحميها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

فهذا الأسلوب من هذا الشعر لا تجد أرق ولا أدق ولا أنغم فى الآذان ولا أندى على الأكباد منه

ومن أبلغ ما وصلت اليه صناعة الشعر قولها :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا ... وليس لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة ... وقل مُحَماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهمُ من مقلتيك وأدمعى ... ومن نَفَسى بالسيف والسيل والنار

ولحمدة أخت تدعى « زينب » وكانت شاعرة كاختها

ومن أستاذات هذا العصر فى الشعر مريم بنت يعقوب الأنصارى ، وكانت تغدو على بيوت أشبيليه فتعلم نساءها الشعر والأدب ، ولها بينهن منزلة محمودة لسمو أدبها وفرط حشمتها ، وكان عظماء البلد يجلونها ويدنونها لعراقة أثرها ونبالة خلقها وحسن بديهتها . وقد أرسل اليها المهدى صاحب أشبيليه دنانير فى قرطاس كتب فيه :

مالى بشكر الذى أوليتِ من قِبَل ... لو أننى حزت نطق اللسن فى الخِلَل
يا فذة الظرف فى هذا الزمان ويا ... وحيدة العصر فى الاخلاص والعمل
أشبهت مريما العذراء فى ورع ... وفقت خنساء فى الأشعار والمثل

فأجابته الشاعرة :

من ذا يجاريك فى قول وفى عمل ... وقد بدرت إلى فضل ولم تُسَل
مالى بشكر الذى نظّمت فى عنقى ... من اللآلى وما أوليت — من قبل
لله أخلاقك الغر التى سقيت ... ماء الفرات فرقت رقة الغزل
من كان والده العضب المهند لم ... يلد من النسل غير البيض والأسل

وكان نساء غرناطة أعرف بالشعر ومعانيه وصوغه وصقله من غيرهن ، وقد ذكر صاحب نفح الطيب أنهنّ كن يُدْعَين العربيات لسيرهن على سَنَن العرب فى صفاء الشعر وفصاحة المعانى ، فبدل أن يقال هذه غرناطية كان يقال هى عربية .

ومن شواعرها الصادحات نزهون الغرناطية، وكانت من أعذب النساء طبعاً وأروحهنّ نفساً وأرفقهن بالشعر وأضربهن للأمثال، ولها فى مجالس الوزراء والأمراء آثَرُ منزلة وأعز مكان، وكانت فوق ما عرفت به من رقة الطبع وسماحة الذوق من أحسن الناس بديهة وأحضرهم جواباً.

ومما حدثوا عنها أنها كانت تقرأ ذات مرة على أبى بكر المخزومى الأعمى فدخل عليهما أبو بكر الكِنْدى فقال يخاطب المخزومى: لو كنت تبصر مَن تجالسه: وأُفحم فلم يستطع أن يتم البيت الذى بدأه فقالت نزهون

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرّته والغصن يمرح فى غلائله

ومن شعرها الذى أرخت لنفسها العذار فيه

لله در الليـــالى ما أحيسنَها وما أحيسنَ منهـا ليلةَ الأحد

لو كنت حاضرنا فيهـا وقد غَفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء ليناظرها — وكان يلبس غِفَارة صفراء على زى الفقهاء — فلما رأته قالت إنك اليوم كبقرة بنى اسرائيل، صفراء فاقع لونها، ولكن لا تسر الناظرين، فضحك الحضور، وثار ابن قزمان واندفع يسب، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه فى بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به.

وفى هـذا العصر ذاع الشعر النسوىّ القَصصى، فكان مما يألفه النساء أن يبسطن حديثهن شعراً، وقد يكون ذلك فى حفل حاشد أو بين يدى ملك أو فى رسالة إلى أب أو صديق، ومن أمثلة ذلك رسالة بثينه بنت المعتمد إلى أبيها.

وحديث ذلك أن المعتمد بن عباد بعد أن دفع به القضاء من قصره الأغنّ

فى أشبيلية إلى سجن ابن تاشفين فى أغمات — من أعمال فاس — سُبِيَت ابنته بثينة فيمن سبى من الجوارى وبيعت من أحد تجار أشبيلية على أنها جارية، فوهبها التاجر ابنهُ، فلما رأت الجِد من الأمر كشفت القناع عن نسبها الملكى، وقالت لولد التاجر لا أحل لك إلا بعقد يجيزه أبى، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها إلى أبيها وانتظار جوابه فكان الذى كتبته هذه الأبيات

اسمع كلامى واستمع لمقالتى ... فهى السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنى سبيت وأننى ... بنت لمَلْك من بنى عباد
مَلِك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للافساد
لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبى فى ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فخازنى امرؤ ... لم يأت فى إعجاله بسداد
إذ باعنى بيع العبيد فضمنى ... من صاننى إلا من الانكاد
وأرادنى لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بنى الأنجاد
ومضى اليك يسوم رأيك فى الرضا ... ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعساك يا أبتى تعرفنى به ... إن كان ممن يُرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والاسعاد

فلما بلغته مقالة ابنته وهو ثاو فى غياهب سجنه مطوق فى قيوده وأغلاله أدركه شئ من حسن العزاء لنجاتها، وأشهد على نفسه بعقد زواجها، وكتب إليها يهنئها ويتسلّى بحسن عاقبة الزمان فيها، وكتب آخر رسالته

بُنيتى كونى به بَرَّةً ... فقد قضى الدهر باسعافه

وشبيه بهذا الأسلوب من الشعر النسوى الأندلسى شكوى الشاعرة الشَّلْبِيَّة

إلى السلطان يعقوب المنصور صاحب غرناطة من عماله على بلدها، فقد كتبت هذه الشكوى وألقتها على مُصَلَّى المنصور يوم الجمعة، فلما قضى صلاته فضها وقرأها فاذا فيها

قد آن أن تبكى العيون الآبية ... ولقد أرى أن الحجارة باكية
يا قاصد المصر الذى يُرجى به ... —إن قدّر الرحمن— رفع كراهية
ناد الأمير إذا وقفت ببابه ... يا راعياً إن الرعية فانية
أرسلتها هملاً ولا مرعى لها ... وتركتها نهب السباع العادية
شِلْبٌ كَلاَ شِلبِ وكانت جنة ... فأعادها الطاغون ناراً حامية
حافوا وما خافوا عقوبة ربهم ... والله لا تخفى عليه خافية

فأنصف المرأة بعدله ووصلها بجزيل ماله

وحديث الأدب النسوىّ فى هذا العصر حديث شيِّق اليف، واذا قلت لك أن هناك استاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة الأدب ويروينهن الشعر فلا تظنّ هؤلاء على قدر محدود فيما أخذن فيه من درس وتحصيل ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأفذاذ رجاله على سواء واحد من العلم والأدب والفهم والتخريج، ومن أمثلة هؤلاء الشاعرة العروضية إحدى فتيات بَلَنْسية فقد تلقت النحو واللغة على الامام أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون، ثم فاقته فيهما وبزت علماء عصرها فى العروض، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والأمالى للقالى وتشرحهما شرحاً مبيناً، وقد قرأهما عليها العالم يوسف بن نجاح وأخذ عنها علم العروض.

ولقد يمتد بنا الطريق اذا استوفينا جانب الأدب من حياة المرأة الأندلسية وهو أنضر جوانبها وأبهج حلاها فى هذا العصر، فبحسبنا أن ندل عليه ونكتفى بهذا الطرف اليسير من حديثه.

ولقد حدثتك حديث الخُلْق النسوى فى هذا العصر وأنه بقى فى جملته مستمسكا مستقيماً وإن كانت عوامل الضعف لبثت تغالبه من كل جانب وتحيط به من كل سبيل .

ومهّد انقسام الأندلس وقيام ملوك الطوائف للعدو المترصد سبيل الظفر بالمنقسمين ، وبدأت النازلة الفادحة والخطب الجليل يهويان على البلاد فى أخريات هذا القرن منذ استباح الاذفونش طليطلة من صاحبها ابن ذى النون عام ٤٧٨ ، ومن هنالك أخذ العدو المتغلب يجد فى شططه وأخذ سلك البلاد ينتثر من وَسَطه كما قال الشاعر ابن العسال .

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف المقام مع الحياة فى سَفَط

وكذلك بدأت دعائم الخُلْق تهتز وأنشأ صرح الحياة يميد

بعد القرن الخامس

ألا مسعد منجدٌ ذو فِطَن ... يُبَكّى بدمع معين هَتِن
جزيرةُ أندلس قَدْ سَطَت ... عليها غوائل حقد الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ... ويرثى من الشعر ما قد وهن
ويبكى اليتامى ويبكى الأيامى ... ويحكى الحمام ذوات الشجن
ويشكو الى الله شكوى شج ... ويدعوه فى السِّر ثم العلن
وكانت رباطاً لأهل الهدى ... فعادت مناطا لأهل الوثن
وكانت معاذاً لأهل التقى ... فصارت ملاذاً لمن لم يَدِنْ
وكانت شَجَى فى حلوق العدى ... فأضحت لهم ما لها محتجن

ذلك بعض ما رثيت به الأندلس فى القرن السادس الهجرى أى قبل أن يحل بها القضاء الأخير بقرنين كاملين ، فقد أخذ العدو يوغل فى قلب البلاد وأخذ أولئك المتملكون يلقون اليه بالمودة ، ويتقدمون اليه بالجزى ، ويستعين به بعضهم على بعض ، ومن لم يستعن به استصرخ المغيرين من ملوك فاس ، وترك أهلُ الأندلس تلك القوى المتدافعة تتناجز على البلاد وراحوا يلهون ويلعبون ، ويشربون ويطربون ، ويسحبون فى مضمار الخلاعة أرسانا ، ويَسْتَبِقون فى ميدان البَطَالة فرساناً ، واستشرفوا الى الجوارى الروميات والمهاجرات المغربيات يَتَسَرّونهن ويستولدونهن ، وغادروا المرأة الأندلسية تندفع فيما هم مندفعون ، وتشرب بالكأس التى يشربون ، فالتاثت الأخلاق ، واضطربت الأعراق ، وفترت الحمية ، وضاع الحِفاظ .

وبدءوا يتشبهون بالفرنجة فيما أمكنهم أن يتشبهوا به ، وماذا يملك الضعيف الذليل من التشبه بالقوى العزيز ؟ ليس إلا المظاهر الجذابة من زى يبسطه عليه ، أو كلمات من لغته يتقرب بها اليه ، أو إنحاء بالطعن على أهل ملته وعشيرته ، أو لجاج فى البراءة من آداب دينه وأمته ، فأما الدأب فى العمل ، والامعان فى الثبات ، والتضحية فى الواجب ، وفناء الواحد فى عز الجماعة ، والطاعة فى غير ذل ، والبذل فى غير رياء ، فذلك ما لا يملك الضعيف أن يتشبه بالقوى فيه ، لأن النفس واهنة ، والعقل مضطرب ، والقلب رخو مريض . وكذلك فعل الأندلسيون . فقد غلَوْا فى التشبه بالفرنج فى عامة مظاهرهم ، فلبسوا برانسَهم ، واعتمروا قلانسهم ، ومضغوا ألفاظهم ، وتزوجوا الدّنيّات من نسائهم .

وأول من سن طريق الغلو فى اقتفاء الهيّن القريب من مظاهر الفرنجة محمد ابن سعد بن مردنيش الجذامى أمير شرقىّ الأندلس فى منتصف القرن السادس ،

وذلك ما يقوله عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه « الاحاطة فى أخبار غرناطة »

وآثر « ابن مردنيش » زى النصارى من الملابس والسلاح واللُّجُم والسروج ، وكلِف بلسانهم ، وألجأه الخروج عن الجماعة والانفراد بنفسه الى الاحتماء بالنصارى ومصانعتهم ، والاستعانة بطواغيتهم ، وصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة ، وصالح ملك قشتالة على أخرى ، فكان يبذل لهم فى السنة خمسين ألفاً من المثاقيل ، وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات ! ! وحانات للخمور ! وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم ، فعظمت فى بلاده المغارم وثقلت ؛ وأما رسوم الأعراس والملاهى فحالاتها عجيبة .

حدث بعض المؤرخين عن الثقة قال : كنت بِجَيّان مع الوزير أبى جعفر الوقشى فوصل اليه رجل من أهل مُرْسِية كان يعرفه ، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنيش وعن سيرته ، فقال الرجل أخبرك بما رأيت من جَوْ رعماله وظلمهم ، وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن كان له بنظر شاطبة ضُيَيْعة يعيش بها ، وكان لازمها اكثر من فائدتها ، فأعطى لازمها حتى افتقر ، وفر الى مرسية ، وكان أمر بن مردنيش أنّ من فر من الرعية أمام العدو أخذ ماله للمخزن ، قال الرجل فلما رحلت الى مرسية فاراً عن وطنى خدمت الناس فى البنيان ، فاجتمع لى مثقالان سعديان ، فبينما أنا أمشى فى السوق واذا بقوم من أهل بلدى شاطبة ، فسألتهم عن أولادى وزوجتى ، فقالوا إنهم فى عافية ، ففرحت فرحاً عظيماً وسألتهم عن الضيعة ، فقالوا إنها باقية عند أولادك ، فقلت لهم عسى أن تبيتوا عندى الليلة ، فاشتريت لحماً وشراباً وضربنا دفاً ، فلما كان عند الصباح اذا بنقر عنيف بالباب ،

فقلت من أنت ! قال أنا الطرقون الذى بيده قُبالة اللهو ، وهى متفقة بيدى ، وأنتم ضربتم البارحة الدف فأعطنا حق العرس الذى عملت ، فقلت والله ما كان لى عرس فأخذت وسجنت حتى افتديت بمثقال من الذى خدمت به وجئت الى الدار فقيل له ان فلاناً وصل من شاطبة الساعة فمشيت لأسأله عن الدار وعن قرابتى وعرفته بالأمر الذى طرأ علىّ وبكيت طول ليلتى وبكى معى ، فلما كان من الغد اذا بناقر بالباب ، فخرجت فاذا أنا برجل فقال أنا صاحب المواريث أُعلمنا أنكم بكيتم البارحة وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غنِىّ وأخذتم كل ما ترك ، فقلت والله ما بكيت الا نفسى ، فكذبنى وحملنى الى السجن فدفعت المثقال الثانى »

ذلك بعض ما يحدث فى عهد التياث الحكم واضطرابه وانحراف الأمر وانقلابه ، على أن ما أصاب البلاد من فتنة ناشبة وشر وبيل لم يثن هؤلاء الناس عن الاندفاع فى اللهو الى قرار الهاوية

وأصبح الاندماج فى الفرنج بالمظاهر والعادات وبالملق والرياء سنة مسلوكة وطبعاً مألوفاً عند أهل الأندلس ، ومن العجب أن عالماً ضليعاً كعزيز بن خطاب يُوَلَّى مُلك مُرسِية لعلمه وفضله ، فاذا جاءه الخطباء ليخطبوا له بالملك استمع أقوالهم حاسر الرأس كما كان يعمل ملوك الفرنج .

وكان ابن هود ملك الأندلس يسير فى أشتات بلاده حاسر الرأس ، وعلى هذا السبيل كان بنو الأحمر ينهجون .

وكان علماء الأندلس يرخون ذوائبهم ، ولم يسمح لغيرهم أن يفعل ذلك سيراً على سنة الفرنج فى رجال الأدب والفنون منهم .

ولبس النساء المناطق الأسبانيولية ! واعتمرن القبعات الاسبانيولية ! وخرَج الفتيات حواسر الرءوس كواشف الصدور على مثال الأسبان ، وفى كثير من الصور

التى خلفها الأندلسيون منقورة فى الجدران أو منقوشة فى الزجاج أو مرقومة على الثياب أو محفوظة فى الكتب والرقاع ما يدل على انسياق المرأة الأندلسية فى مساق الأسبانية وانخلاعها عن تقاليد السلف الصالح من الأمهات الأندلسيات . ورغم ما تورطت فيه امرأة هذا العصر من تهور واندفاع لم تكن بنجوة من العلم والأدب ، فقد نالت منهما أكثر مما نالت فى عصورها السالفة ، ولكن ويل للأمة من المرأة العالمة التى لا خلق لها ولا دين .

وأستاذة الشواعر فى العصر الأندلسى الأخير حفصة بنت الحاج الركونية ، وهى إحدى شريفات غرناطة الظاهرات بوفر المال وفرط الجمال وما تزدان به المجالس من حسن المساجلة ولهو الحديث . ولذلك لم يكن بدعاً أن يغدو فى أثرها كثير من نساء هذا العصر ، وكانت نشأتها فى القرن السادس وعمرت الى منتهاه

وكانت حفصة فى شعرها متدفعة غير متجملة ولا محتشمة ، لأنها إنما تحكى صورة هذا العصر وتنزع عن غايته ، وكانت تذيع هذا الشعر فيرويه الناس عنها وهم بها معجبون

ومن شعرها ما كتبته الى فتى اشتهرت به

أزورك أم تزور فان قلبى ... إلى ما تشتهى أبداً يميل
فثغرى مَورد عذب زلال ... وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أمّلت أن تظما وتضحى ... إذا وافى اليك بى المقيل
فعجّل بالجواب فما جميل ... إباؤك عن بثينة يا جميل

ومن شعرها وقد أرسلته الى الأمير أبى سعيد فى مجلس أنسه

زائر قد أتى بجيـــد الغزال ... مطلع تحت جنحه للهلال
بلحاظ من سحر بابل صيغت ... ورضاب يفوق بنت الدوالى

يفضح الورد ما حوى منه خد وكذا الثغر فاضح للآلى
ما ترى فى دخوله بعد إذن أو تراه لعارض فى انفصال

ومن شعرها

سلام يُفتّح زهر الكما م وينطق بالشدو ورق الغصون
على نازح قد ثوى فى الحشا وإن كان تحرم منه الجفون
فلا تحسبوا العبد ينساكم فذلك والله ما لا يكون

ومِمَّا نسب اليها

أغار عليك من عينى رقيبى ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنى خبأتك فى عيونى الى يوم القيامة ما كفانى

وعلى سَنَن ما أسلفت لك سارت المرأة الأندلسية بعد القرن السادس جامحة النفس مخلوعة العذار، ووهنت منها قوة الدين وخَفَرُ الحياء، وهدمت ركن البيت ومزقت آصرة الأسرة، وهى الغارس والأمة الغَرس، والبانى والأمة البناء، فاذا صرفها اللهو واللعب عما وكلها الله به من حياطة خَلقه ورعاية حقه فما هى الا نهلة بعد نهلة حتى ينتقض البناء، ويستحكم البلاء وترتفع صيحة القضاء، وتعصف عاصفة الفناء « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » وكذلك حقت كلمة الله على أهل الأندلس حين ائتمنهم الله على أرضه فلم يرعوا أمانته، واسترعاهم دينه فلم يوفوه رعايته، وأحلهم دار النعمة فابطرتهم، وسوّغ لهم صبابة الأمل فاسكرتهم، وكان ما أصابهم عبرة العبر ومُثلةَ المُثلات، فقد ظهر عليهم العدو المستبيح فمزق رجالهم واستعبد نساءهم وصرع بين أعينهم أطفالهم

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت نساهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رُب أم وطفل حيل بينهما ... كما تُفرّق أرواح وأبدان
وطَفلةٍ مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كانمـا هى ياقوت ومَرجان
يقودها العِلجُ للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

أثارة من أدب النساء فى الأندلس

١ — كتبت ولّادة بنت المستكفى الى ابن زيدون

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق ... سبيل فيشكو كل صب بما لقى
تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ... ولا الصبر من رق التشوق معتق
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا ... بكل سكوب هاطل الودق مغدق

٢ — للشاعرة الغسانية البجانية — وهى من شواعر المائة الرابعة :

عهدتهمُ والعيش فى ظل وصلهم ... أنيق وروض الوصل أخضر فينان
ليالىَ سعد ، لايُخاف على الهوى ... عتاب، ولايُخشى على الوصل هجران

٣ — سألت امرأة من شريفات غرناطه حفصة الركونية تذكاراً تكتبه بخطها فكتبت اليها

يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم ... غضى جفونك عما خطه قلمى
تصفحيه بلحظ الود منعمة ... لا تحفلى بردىء الخط والكلم

٤ — كتبت حسانة التميمية الى الحَكَم بن الناصر

أنت الامام الذى انقاد الأنام له ... وملكته مقاليدَ النُّهَى الأمم
لا شىء أخشى اذا ما كنت لى كنفا ... آوى اليه ولا يعرونىَ العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً ... حتى تذل اليك العُرب والعجم

فاما وقف الحكم على شعرها استحسنه ووظف لها عطاء كريماً وكتب الى عاملة على (البيرة) — من أعمال الأندلس — فجهزها بجهاز حسن

٥ — وكان الحكم قد كتب الى والى البيرة بتحرير أملاكها وردها اليها — ولا نعلم كيف نُزِعت منها — واتفق أن عوجل الحكم بالموت فلم يقض الوالى لها بشئ فاما طال مِطاله لها ذهبت الى ابنه الخليفة عبد الرحمن فاما مُثلت بين يديه انتسبت اليه ، فعرفها وعرف أباها ثم أنشدت

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى ... على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعى انه خير جابر ... ويمنعنى من ذى الظلامة جابر
فانى وأبنائى بقبضة كفه ... كذى الريش أضحى فى مخالب كاسر
جدير لمثلى أن يقال مَرُوعةٌ ... لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاه الحيا ، لو كان حياً لما اعتدى ... علىَّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يمناه جابر ... لقد سام بالأملاك احدى الكبائر

ثم بسطت أمرها وأرته خط أبيه فقبله وقال : لقد تعدى ابن لبيد طوره حتى رام نقض رأى الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، انصرفى يا حسانة فقد عزلته لك ووقع لها بمثل توقيع والده ، وأجازها بجائزة كريمة فشكرت له صنيعه بقصيدة جاء فيها :

ابن الهشامين خير الناس مأثرة ... وخير منتجَع يوماً لرُوّاد
ان هز يوم الوغى أثناء صعدته ... روَّى أنابيبها من صِرف فرصاد
قل للامام أيا خير الورى نسباً ... مقابلا بين آباء وأجداد
جوَّدت طبعى ولم ترض الظلامة لى ... نهاك فضل ثناء رائح غاد
فان أقمتُ ففى نعماك عاطفة ... وان رحلت فقد زودتنى زادى

٥ — لأم العَلاء بنت يوسف الحِجَارِيّة[١] — من شواعر المائة الخامسة

كل ما يصدر منكم حسنٌ وبعليا كمْ تحلّى الزمن
تعطِف العين على منظركم وبذكراكم تَلَذّ الأذن
من يعش دونكمُ فى عمره فهو فى نيل الأمانى يغبن

٦ — وخطبها رجل أشيب فكتبت اليه :

الشيب لا يُخدَع فيه الصبى بحيلة فاسمع الى نصحى
فلا تكن أجهل مَن فى الورى يبيت فى الجهل كما يضحى

٧ — وقالت تعتذر

افهم مطارح أقوالى وما حكمت به الشواهد واعذرنى ولا تلمِ
ولا تكلنى إلى عذر أبيّنه شر المعاذير ما يحتاج للكلم
وكل ما خلتــه من زلة فبما أصبحت فى ثقة من ذلك الكرم

٨ — لأم السعد بنت عصام الحِمْيرية القرطبية

آخ الرجال من الابا عِدِ والأقاربَ لا تقارب
إنّ الأقارب كالعقا رب أو أشدمن العقارب

٩ — للسيدة أمَة العزيز

لحاظكمْ تجرحنا فى الحشا ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح يجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذى أوجب جرح الصدود

١٠ — حكى الوزير أبو المغيرة بن حزم قال :

نادمت يوماً المنصور بن أبى عامر فى مُنية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير، وهى جامعة بين روضة وغدير، فلما تضمخ النهار بزعفران العشىّ ، ورفرف غراب

(١) نسبة الى وادى الحجارة من اعمال الاندلس

الغروب الدجوجىّ ، وأسبل الليل جنحه ، وتقلد السماك رمحه ، وهم النسر بالطيران ، وعام فى الأفق زورق الزّبرقان[1] ، أوقدنا مصابيح الراح ، واشتملنا مُلاء الارتياح ، وللدجن فوقنا مُلاء مضروب ، فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أُنس القلوب ، وقالت

قدم الليل عنـد ستر النهار ... وبدا البدر مثل نصف السوار
فكأن النهار صفحة خدّ ... وكأن الظلام خط عِذَار
وكأن الكؤوس جامد ماء ... وكأن المدام ذائب نار
نظرى قد جنى علىّ ذنوباً ... كيف مما جنته عينى اعتذارى
يا لقومى تعجبوا من غزال ... جائر فى محبتى وهو جارى
ليت لو كان لى اليـه سبيل ... فأقضّى من الهوى أوطارى

١١ — كتب أبو عامر بن نيق الى هند جارية أبى محمد عبد الله بن مَسلمة الشاطبى يدعوها بهذين البيتين .

يا هند هل لك فى زيارة فتية ... نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا ... نغمات عودك فى الثقيل الأول

فكتبت فى ظهر رقعة

يا سيدا حاز العلا عن سادة ... شم الأنوف من الطراز الأول
حسبى من الاسراع نحوك أننى ... كنت الجواب مع الرسول المقبل

١٢ — كان عباد المعتضد كلفا بجاريته العَبّادية فسهر ليلة وهى نائمة فقال

تنام ومدنفها يسهر ... وتصبر عنه ولا يصبر

فانتبهت له وأجابته

لئن دام هذا وهذا له ... سيهلك وجداً ولا يشعر

---

(١) الزبرقان البدر

١٣ — لحفصة الركونية تذم عبيدها

يا رب إنى من عبيدى على ... جمر الغضا ما فيهمُ من نجيب
إما جهول أبلهٌ متعبٌ ... أو فطن من كيده لا يجيب

١٤ — لزينب المُرِّيّة

يأيها الراكب الغادى لِطِيّتِه ... عَرِّج انبيك عن بعض الذى أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم ... إلاّ ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبى رضاه وأنى فى مسرته ... ووده آخرَ الأيام أجتهد

١٥ — دعا أمير المؤمنين الناصر بحجامه ليفصده، واتُّخِذَت لذلك الأهبة فى البهو الكبير من قصر الزهراء، فحين تقدم الحجام من سيده أطل عليه زرزور من حديقة القصر فتغنى بهذين البيتين :

أيها الفاصد رفقاً ... بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقاً ... فيه محيا العالمينا

فنظر الناصر إلى الطائر وأصغى اليه وقد ملكه العجَب والاعجاب وسأل عمن أوحى إليه ذلك الوحى البديع فقيل إنها السيدة الجليلة مرجانة زوج أمير المؤمنين وأم ولى عهده فضوعف سروره واعجابه .

أما بعد فتلك طائفة من الأدب النسوى بالأندلس ؛ وهو على ما به من ظرف ورقة لم يبلغ مبلغ نظيره فى العراق، لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية فى البادية، والجارية الفارسية فى الحاضرة ، ولكليهما منحى يستخف النفوس والأرواح ، فالمرأة البدوية كانت كافضل النساء صفاء فى الطبع ، ونقاء فى النفس ، وسمواً فى الخاطر وجلالاً فى الغرض ، وروعة فى الأسلوب ، وكانت الجارية الفارسية على

ما علمت مَثار الفتنة والسحر فى الغناء والشعر ، وكان للناس فى العراق من هذين الموردين مَعِين غدِق ، وروض خصيب ، وهما من وسائل الرقة التى امتزجت بالأدب العربى فى العراق .

أما المرأة الأندلسية فمع مجاذبتها للرجل كثيراً من أطراف العلم والأدب لم تأت منه بما يعلو عن مألوف الكلام الا قليلاً ، لأن للأدب النسوى جمالاً خاصاً تنقله المرأة عن المرأة لا عن الرجل ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة فى العراق عنيت برواية الأدب النسوى فى البادية وأخذت كفايتها منه وعمدت الى ما أخذت فصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء النعيم لأتت بأطيب الثمرات وأنداها على القلوب والأكباد

ولا أعلم كيف غفل متأدبو الأندلس ومؤلفوهم عن استقصاء شعر نسائهم والعناية بتقييده ، فهم يسمون وَلّادة بنت المستكفى : عُلَية الأندلس ، ويدْعون حمدة بنت زياد خنساء المغرب وهم مع ذلك لا يذكرون لكليهما إلا القليل المحدود من الشعر الذى أثارته مناسبة أو قيدته حادثة ، وقد لا يكون هذا من أفضل ما قالت الشاعرة ، بل قد يكون فوق ذلك غثّاً تافهاً لا شأن له ، فى حين أنهم حين دعوا ابن هانىء المغربى متنبىء الغرب وابن خفاجة الأندلسى صَنوبرى الأندلس ذكروا لهما ما جلّ ودق من شعرهما حتى لم يعُد شىء منه خافياً عن أحد ، والعجب أن هذا القليل المحدود الذى نقل عن نساء الأندلس كان يتناوله مؤلفو القوم بعضهم عن بعض ، فليس هناك تبسط فى النقل ولا استفاضة فى البحث عن شعر النساء ، فهل لم تأت « خنساء المغرب » بأكثر من بضعة عشر بيتاً من الشعر أكثرها مداعبات ومطارحات ، وهل لم تأت « علية الأندلس » بأكثر من عشرين بيتاً بعضها منسوب لغيرها ! أقول ولعل ذلك لأن أكثر الكتب التى

وصلتنا عن حياة الأندلس ألف بعد سقوط ذلك البلد العظيم ، وألف فى بلاد خفِى فيها أدب المرأة عن منال الأقلام ، فلم يحفل كتابها بها ، ولعلنا حين نجدّ فى البحث عن ذخائر الكتب المودعة قصر الاسكوريال فى « مدريد » نجد منها كثيراً مما كتبه الأندلسيون عن أنفسهم وصوروا فيه حقيقة شأنهم ومثال حضارتهم فذلك أشفى للنفس وأروى للحقيقة ، وعسى أن نصل قريباً بعون الله وتوفيقه إلى تلك الغاية المنشودة فنكون قد سددنا ثغرة من الأدب العربى لا تزال حتى اليوم عميقة الأثر بعيدة القرار . والله ولى التوفيق .

المرأة المغربية

وحسبنا فى هذا الجزء من الكتاب أن نتكلم عن المرأة فى المغرب الأقصى . أما المغرب الأدنى فحديث المرأة فيه طويل مستفيض لا يتسع له هـذا الجزء ، وموعدنا به الجزء الرابع مع المرأة المصرية ، لأن بين نساء هذا القطر من بلاد المغرب وبين نساء مصر البدويات صلة الجوار وعقدة النسب وألفة الطباع والعادات .

واذا تحدثنا عن المغرب الأقصى فانما نتحدث عن قطر كان فيما سلف من الدهر لا تجف دماؤه المتفجرة ولا تخمد نيرانه المضطرمة ، له فى كل آونة عرش يقوم ومصرع يترصد ، قد اختلف فيه كل ما فيه اختلافاً بيناً ، ففيه البربر والعرب ، وفيه الخوارج والرافضة ، وفيه الواتر والموتور ، وفيه الدخيل والأصيل ، ذلك شأنه وتلك حاله منذ بسط الاسلام ظله عليه .

وكان شأن المرأة فى عامة تلك البلاد كشأنها فى كل الشعوب المستبسلة المتبدية ، لها قوة عاملة وصفة مستقلة وحياة ظاهرة ، وما كان يَضير الرجل هنالك أن ينتسب إلى أمه . ومن الذين ظهروا فى هذه البلاد ممن انتسبوا إلى أمهاتهم ابن غانية القائد المتغلب المتملك ، وابن عائشة العالم الشاعر ، وبنو « سوط النساء » القادة الأبطال . وما كان عجيباً أن تسود المرأة وتحكم ، وقديماً تكلم ابن خلدون عن امرأة تسمى « شمس » كان لها عشرة أبناء استفحل أمرهم وتفاقم سلطانهم وألقوا اليها أزمة الأمر وروّضوا لها حكم البلاد فلم يكن هنالك دفع أو استنكار .

وكانت تأنف ويؤنف لها وتغار ويغار عليها إلى أن تؤثر ورد الموت على الذل والهوان . ومما رواه ابن خلدون أن جيش بنى مرين قصد إلى السلطان أبى زيان ابن عثمان وأخذ ينتقص أطراف بلاده ولم يقو جيشه عليه ، قال ابن خلدون فبينا

السلطان وأخوه أبو حمو جالسان فى بعض خاصتهما دخلت دعد قهرمانة القصر وقالت : يقول لكم حظايا قصركم و بنات زيّان حُرمكم : ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسَفَ عدوكم لالتهامكم ولم يبق إلاّ فواق ناقة لمصارعكم ، فأريحونا معرة السبى وقرّبونا إلى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة فى الذل عذاب والوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو إلى أخيه السلطان فقال قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن؟ فقال يا موسى أرجئنى ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا . فقال إلى تخرج مع قومنا إلى عدونا فتستميت ويقضى الله ما شاء ! فغضب أبو حمو وأنكر عليه تأخير ذلك وقال انما نحن والله نتربص المعرة بهن و بأنفسنا . وقام عنه مغضباً وأجهش السلطان بالبكاء فبينما القوم فى مجلسهم هذا دخلَ حَرَسى فقال « إن السلطان يوسف بن يعقوب —ملك بنى مرين— قتل الساعة . وبمقتله انفض جيشه وذهب عن أبى زيان وعن قومه ما كانوا فيه من خوف واشفاق . ولولا ذلك لذبحوا نساءهم و بناتهم وحظاياهم بقيا على العرض وأنفة من العار .

ومن أعجب ما يؤثر من غضبة الشعب للمرأة وأنفته لها وثورته من أجلها ، أن السلطان عبد الحق بن أبى سعيد المرينى لما لم يجد غَناءً فى وزرائه إستعان برجلين من اليهود ، فكانت رياستهما محنة على الأمة و بلاء على العباد ، فلم يدعا وسيلة من الخسف والأذى فى الأرواح والأموال إلاّ اتخذاها فى غير حرج ولا هوادة ، وصبرت الأمة لهذه النازلة وراضت نفوسها على احتمال تلك الكارثة وكان احتمالها بالغاً وصبرها جميلاً ، كان ذلك حتى ذاع فى البلاد أن أحد اليهوديين قبض على امرأة شريفة وأمر بضربها بين يديه ! وهنا اشتعلت النار الخابية واستطارت النفوس الوادعة وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز بن موسى ، وهنالك ائتمروا فيما بينهم على الفتك باليهود وثل

عرش المستعين بهم وولوا من بينهم أحد أشرافهم وبايعوه على الثبات معه حتى الموت وأحاطوا باليهود فأفنوهم واقتسموا أموالهم واستعان عبد الحق بجنده فتنكروا له وخالفوا عليه، وقتل اليهودى الضارب طعناً بالرمح بين يديه، وسيق هو إلى فاس وطيف به مشهراً فى أحيائها وأزقتها وتكاثرت عليه الجموع تريد أن تفترسه ثم قدم إلى مصرعه فقتل وانتهى بموته عهد وانقرض بنهايته ملك وسلطان

الأسرة المتنبئة

لم يكن أهل المغرب الأقصى سراعاً إلى الاسلام حين دعوا اليه فلم يسلموا إلا بعد لأى خيفة من السيف، ثم ارتد جمهورهم عن الدين الحنيف، ثم أثابوا أخيراً اليه، وفى عهد تلك الفتنة المضطربة نهض رجل فى أحد أعمال فاس يدعى طريفا أبا صبيح فادعى النبوة، واقتبس دينه من مآرب الناس وشهواتهم، فاتبعه جمهور من الغوغاء، وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان، ثم أعقبه ابنه فزاد على ما قال أبوه سخفاً من القول دعاه قرآنا وجعل من سوره سورة الديك وسورة الحُمُر وأمثال تلك الأضاحيك، وعلى ذلك السَّنَن تتابع سلالة ذلك الرجل، فليس منهم إلاّ من زعم أنه نبى يوحَى اليه حتى انتهى أمرهم إلى أبى غفير محمد بن معاذ ابن اليسع ابن طريف فازداد خطره واستفحل أمره وأباح للرجل أن يتزوج بمن وصلت اليه يده من النساء بالغاً ما بلغ، وأخذ يبث شياطينه فى البلاد يقتلون رجالها ويسبون نساءها، وشأنه فى ذلك شأن القرامطة، وهؤلاء وأولئك كانوا يتبعون سيرة آل فرعون فى بنى اسرائيل من قتل الرجال واستحياء النساء، وفى انسياق الغوغاء فى مساق أبى غفير يقول بعض شعراء فاس

قفى قبل التفرق واخبُرينا وقولى واخبرى خبراً يقينا
وهذى أمة هلكوا وضلوا وغاروا لا سُقوا مما سقينا
يقولون النبى أبو غفير فأخزى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت على آثار خيلهم ربينا
ستعلم أهل تامسنا إذا ما أتوا يوم القيامة مُقْطَعينا
هنالك يونس وبنو أبيه يقودون البرابر حائرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعا وأربعين، واشتدت نكايته بالبربر حتى غلب على قطر كبير من البلاد وتملكه وأقام فى هذا الملك تسعة وعشرين عاماً. ومن بعده جاء ابنه أبو الأنصار فتأثَّر سنة أبيه وازداد من إراقة الدماء. واستباحة النساء، وعظمت هيبته واشتد سلطانه، ودانت له قبائل المغرب. وكذلك كان ابنه من بعده أبو منصور عيسى فملك البلاد وجاءه ملوكها يسجدون عنوة له

وقد وقف مسلمو المغرب حيال تلك الطائفة المبيحة موقف مسلمى المشرق من القرامطة، فحاربهم الأدارسة والأموية والشيعة واجتازجند المنصور بن أبى عامر البحر إلى بلاد المغرب فلم يغنوا شيئاً، ثم نهد لقتالهم بلكين بن زيرى فى قبائل صنهاجة فقهر أبا منصور وقتله وأفنى جيشه، وأجاز المنصور بن أبى عامر للمرة الثانية جنده فأثخنوا فيهم قتلاً وسبياً. ولم ينتـــه أمرهؤلاء المفسدين إلاّ فى أخريات المائة الخامسة، وبذلك يكون مدى أمرهم قرابة أربعة قرون. وهذا فيما نعلم أطول مدى أقامته أسرة متغلبة مبيحة

الحالة الاجتماعية

للمرأة المغربية

يأتلف أهل المغرب الأقصى من شعوب ثلاثة : البربر والعرب واليهود ، وأكثر ما يتولى اليهود من العمل أشتات المهن من تجارة وصناعة، وليس لهم فيما وراء ذلك شأن عظيم ، غير أن أهل المغرب يذكرونهم كلما ناب خطب أو شبت فتنة أو أغير عليهم من حيث لا يعلمون

ويقوم العرب والبربر على نظام القبائل والبطون ، وكان للمرأة العربية منذ الفتح الاسلامى نصيب اختها فى بلاد العرب من القيام على الأسرة والاتصال بالحياة العامة على نحو ما أسلفناه فى الجزءين الأولين من هذا الكتاب ، ثم أخذت المدنية الأندلسيّة تسرى على قَدَر فى جنبات هذا الاقليم ، وأخذ ملوك الدول الاسلامية المتتابعة يَنْهَجون المدن وينشئون القصور وينقلون اليها الكثير الموفور من مباهج الحضارة ومناعمها ، واجتلبوا الجوارى من الأندلس والعراق ، وحجزت طبقات السَّراة والاشراف نساءها فى دور الحُرَم وأقاموا على خدمتهن وحجابتهن الخصيان من أرقاء الصقالبة ، وقد كان هؤلاء سبباً فى القضاء على دولة يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق حين استفحل أمرهم فى قصره ، فقد كان السلطان يخلطهم بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ، ثم رابته ريبة فى بعضهم فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير استاذهم وحجب سائرهم ، فراعهم ذلك وأفزعهم ، فبيتوا له الشر ودبروا له السوء حتى استأذن عليه واحد منهم يدعى سعادة وهو مضطجع فى فراشه فاما أنس الغِرّة منه وثب عليه وطعنه طعنات أردته قتيلاً

ودرج أوساط أهل المدن على تلك السنة من إرخاء الحجاب حتى أصبح من مسنون عاداتهم ألاّ تخرج المرأة من دارها إذا أعوزها الخروج إلا فى جنح الليل

وإذا خرجت قنّعت سائر وجهها فلا يظهر منه شيء ، ولكنّ الحال أخذت تتبدل رويداً فى هذا الجيل ، وبدأ نسوة هذا العصر ينحسرن عن هذا الضرب من الحجاب فهن يخرجن الآن فى وضح النهار ، ويتركن ما كشف من الحجاب إلى ما شفّ منه ، ويأخذن مأخذ نساء المشرق الأدنى من الثورة على ما كان عليه أمهاتهن من عزلة واحتجاز . على أن ذلك لم يجاوز أهل المدن ، أما نسوة البادية فقد بقى لهن اكثر ما كان لأمهاتهن من فطرة وطبع وأخلاق

حالتها الفكرية

لم تكن المرأة المغربية بنجوة عما كان عليه الرجل من علم محدود ، فقد جاذبته أسباب ذلك العلم وظهرت فى بعض نواحيه ، ويتحدث أهل المغرب عن كثير من النساء تناولن الشعر والنثر وان لم يكن فيما تناولنه شيء يستحق التدوين .

وأكثر ما عرف به الممتازات من نساء المغرب الأقصى حفظ القرآن الكريم بقراآته جميعاً ورواية الحديث ودرس الفقه والأصول وما إلى هذه من علوم الدين ويذكر أهل ذلك الاقليم ثمانين امرأة من نساء المغرب جمعن إلى النفاذ فى ذلك كله حفظ مدونة الامام مالك بن أنس رضى الله عنه وهى أكبر المطوّلات الجامعة فى الحديث والفقه

وفى إقليم شنقيط حيث البداوةُ التى لا تشوبها كلفة العيش ولا رفاهة الحياة يسير النساء فى مساق الرجال من درس علوم الدين وقراآت القرآن الكريم . وهنالك تعقد المحافل لامتحان الحفاظ الذين حفظوا الكتاب الكريم بمختلف قراآته فيجلس أشياخ القراء صفاً ممدوداً ويجلس الحافظ أمامهم وظهرُهُ اليهم ويتلو ما يطلبون تلاوته منه مرويًّا بما يقترحون عليه من الروايات . ولا بأس أن يكون فى هذا المحفل طائفة من النساء .

واليوم يقف التعليم الفرنسى فى بلاد المغرب الأقصى قبالة التعليم الدينى ، ولكل من التعليمين خصوم وأشياع . وقد بث الفرنسيون مدارسهم فى عامة مدن المغرب الأقصى فأقبل عليها المحدَثون إقبالاً عظيماً وصارعت اللغتان الفرنسية والاسبانية اللغة العربية فى المدن الساحلية حتى إنك تطوف بأرجاء طنجة فلا تكاد تسمع كلمة عربية خالصة من رجل أو امرأة

واليوم تجد فى تلك البلاد طائفة ظاهرة من النسوة اللاتى تخرجن فى العلوم الدينية وأخرى من اللواتى تخرجن فى المدارس الفرنسية

ومن الطائفة الأولى :

السيدة الشريفة فاطمة الزهراء ابنة السيد محمد بن احمد الادريسى

تحفظ القرآن الكريم بقراآته ، وتحفظ كثيراً من كتب الفقه والحديث ، ولها فوق ذلك صلة وثيقة بالعلوم العصرية ، ولم تبارح دار أبيها قط ، وتخرجت على أبيها وجدها

السيدة عائشة الشنقيطية

تخرجت فى شنقيط ، وانتقلت إلى مراكش ، ولها بها منزلة طيبة ومقام محمود وقد برعت فى العلوم الدينية والعربية وحفظت سبعمائة حديث وأخرجت بعض الكتب والرسائل

ومن الطائفة الثانية :

السيدة زينب الغرنيطية

من سلالة أندلسية ، تخرجت فى المدرسة الفرنسية بفاس ، وعنيت بدراسة

الأدب العربى ، وتكتب إلى جريدة الشهاب بالجزائر مقالات طيبة فى الأخلاق والاجتماع .

السيدة خديجة المرينية

من أهل الرِّباط ، تخرجت فى مدرستها الحكومية وأقبلت على دراسة الأدب العربى حتى تسامت فيه ، ولها كتاب فى التدبير المنزلى ولعل لها غيره من المؤلفات

ولا نحاول هنا أن نستقصى الطبقة الظاهرة من متعلمات المغرب ، فحسبنا أن ندل عليها بهؤلاء . على أننا نقول : إن الفصل الحاسم بين العلوم الدينية والمدنية وفصم الأواصر بينهما ليس من شأنه أن يخرج المرأة الصالحة للحياة . فكل ما رُكب فى المرأة من عاطفة متوثبة ووجدان متأثر وحس دقيق إنما ينزع إلى الدين ويسعى إليه ويستنير به ، الدين وحده عصمة المرأة ومنار وجدانها ، ومثار الحنان والرحمة والبر فى نفسها ، ومعقد الشرف والأمانة من خلقها . فإذا فصمْت ما بينها وبينه من عروة وسددت ما بينهما من طريق ، فقد سلبت منها الجُنَّةَ الواقية وأوردتها المورد الوبئ . وقد عرف ذلك الافرنج فطبعوا البنت منذ حداثتها الأولى على غرار الدين وجعلوه مستقى خلقها ومصدر قوتها ومشكاة حياتها سواء فى ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم وأشرافهم ودهماؤهم . وأى حصانة للمرأة أقوى من أن تراقب الله وتستمع قوله وتتلو آيهُ ، وتمثل فى الصلاة بين يديه ، وتمتلئ مشاعرها بذكر جلاله وعزته ، وناره وجنته ، وما يظفر البررة الأخيار من قربه ومحبته

وإن من أوهن الرأى أن تحاول إصلاح البنت بقطع ما بينها وبين أمهاتها السالفات من سُنَن وعادات ، وتدخلها فى غمار فئات من النساء ليس لها ما لهن من طبع وتكوين ، فانك بذلك تخرج المرأة الحائرة الثائرة المتمردة التى تزدرى الماضى ويزدريها المستقبل ، فهى هابطة بين القريتين ، لا شرقية ولا غربية وليس

لها سمة ولا شخصية . تحاول أن تحاكى المرأة الأوربية فيأبى عليها بُعد ما بين الفطرتين فتقنع من المحاكاة بظواهر ملهية كل ما فيها من الأثر أنها تغرها من نفسها وتحرفها عن دينها وتفتنها عن الطريق القويم . وليس من الخير فى شىء أن تحمل المرأة الشرقية على نسيان ماضيها ، ولكن الخير كل الخير فى إصلاح ذلك الماضى وتهذيبه وإحكام الاعتصام به

تلك كلمة لا نخص بها هذا الاقليم من العالم الإسلامى ، ولكننا نعم بها المسلمين فى أقطار الأرض ، فهم الآن على سَنَن واحد من الحيرة فى تعليم البنت وفصم ما بينها وبين الدين من صلة وأسباب ، ولو أنهم اختطوا لها النهج الواضح من تاريخ المرأة العظيمة فى الاسلام أيام كانت مناط الرحمة والود للأسرة ومغرس النبل والسمو للولد ومعقد الحمية والعصبية للعشيرة مع تزويدها بما تقتضيه حاجة العمران من مبادئ العلوم والفنون التى تدعم كيان المنزل وتقيم نظام الحياة — لو أنهم نهجوا لها هذا الطريق لأوجدوا منها المرأة التى تؤلف الأسرة السعيدة والأمة المجيدة والوطن العظيم

لقد خلقت المرأة لتكون قوة من قوى الوحى والالهام فى نفس الرجل ، فهى كالروح السارية تحرك الأحياء ولا تُرَى ، وكالعقل المنير يضىء الشعاب ولا يُحَس ، وكالكهرباء الدافعة تملأ الوجود ولا تُدرك . هى خَلْق قوام حياته الجود بالنفس والفناء فى سعادة الجماعة ، واحتمال الآلام المضنية والأهوال المَرُوعة فى راحة الزوج والولد ، وهى كعود الثقاب ينشر الضوء فى كل شىء ثم يحترق . تلك هى المرأة التى جعل الله السعادة بين شفتيها ، وجعل الجنة تحت قدميها ، وفرض لها من الطاعة فى رقاب الأبناء أضعاف ما فرض للاباء . هى سر عظمة الأمة ومبعث قوتها ومشرق صفوها وسعادتها . فإذا تنكبت تلك المَحجّة وانحرفت عن هذا السبيل فثارت على البيت والولد وانكشفت فى المجامع والأندية ، وانغمرت فى الملاعب والملاهى ، وراحت

تعلن عن نفسها بشقاشق القول وفضول اللسان ، فهنالك الويل والوبال ، وهنالك الفناء والدمار . ! ولا تقل إن مثل ذلك كائن فى بلاد المدنية الحديثة . ففى تلك البلاد خير وشر ، ومن شأن الجسم القوى أن تقاوم قوتُه ما قد يُلم به من ضعف وفساد ، فهنالك الخير يطوى الشر ويحمله ، وهنالك نار الجد تنفى زيف اللهو وتُحيله ، على أن كثيراً من كتّاب تلك البلاد ينظرون إلى ما أصاب المرأة من شطط واندفاع فيقولون إن هذا انتحار للأمة سريع الأجل ! فما بالك بمن يأخذ بذنَب الشر ويترك ناصية الخير ، فالحياة عنده لهو ولغو وضجة وإعلان

ألا فليعلم القوم أن المرأة قطب الحياة ، فإذا استقام استقامت ، وإذا تمايل اندكت ، وما قِوامه إلا الدين ، فهو الأساس الثابت والبناء المتين

مَعجَم

بما ورد فى تفاريق هذا الجزء من الأعلام وما يحتاج الى الشرح من الألفاظ[١]

الهمزة

أَبَجّ — الأبجّ الممتلئ ، والغليظ من العيدان

الأُبُلَّة — بلدة على شاطئ دجلة فى منعطف الخليج الذى يدخل مدينة البصرة وكانت من أعظم منازه الدنيا

أحَصّ — الأحص من الطير القليل ريش الجناح ومن الرجال القليل شعر الرأس

أحْوَى — الأحوى ذو الحوة وهى الحمرة المائلة إلى السواد والعرب تستحسن ذلك فى الشفاه وأنثاه حوّاء

أذربى — نسبة إلى اذربيجان وهى إقليم من أعظم أقاليم الفرس قصبته تبريز

أُروم — جمع أُرومه : الأصل

أزَج — الأزج ضرب من الأبنية ، وباب الأزج محلة ببغداد

أُسًى — جمع أسوة وهى القدوة من كل شىء

أشطّ — من الشَّطاط بفتح الشين المشددة وكسرها : الطول وحسن القوام

أشكل — الأشكل الذى يجمع بين الحمرة والبياض

أَغْمَات — اسم لمدينتين متقابلتين قرب مراكش

أَغَنّ — الأغن من الظباء الذى يخرج صوته من خياشيمه

أفيـاء — جمع فىء : الظّل

(١) أثبتنا الألفاظ فى هذا المعجم على صورتها من الكتاب ، ولم نراع فيها أصل الاشتقاق ليسهل الرجوع اليها

أقفزة جمع قفيز مكيال يسع ثمانية مكاكيك والمكّوك صاع ونصف أو نصف الويبة

الإمامية فرقة من الشيعة، وهم القائلون بإمامة اثنى عشر إماماً، أولهم الإمام علىّ المرتضى كرم الله وجهه، ثم ابنه الحسن المجتبى، ثم أخوه الحسين شهيد كربلا، ثم ابنه على السَّجاد زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق، ثم ابنه موسى الكاظم، ثم ابنه على الرضا ثم ابنه محمد التقى، ثم ابنه على النقى، ثم ابنه الحسن الزكى، ثم ابنه محمد الحجة، وهو المهدى المنتظر عندهم. يقولون إنه دخل مع أمه وهو صغير سرداباً بالحلّة على القرب من بغداد ففقد ولم يعد، فهم ينتظرونه إلى الآن، وفى اعتقادهم أنه سيخرج إذا فشا الظلم وعمت الفتنة وفسد الزمان فيرد الناس إلى الهدى ويؤلف بينهم جميعاً

الباء

البَذَاذة سوء الحال ومنه فلان بذ الهيئة وباذها أى رثها

بنان سمى بهذا الاسم ذكور وإناث، ومن الذكور بنان المغنى، ومن الاناث جارية الفضل بن العباس الهاشمى، وكانت مغنية شاعرة

الثاء

ترضخ من رضخ الحصى والنوى كسره

الثاء

الثَّنَايا جمع ثَنِيَّة: الطريقة فى الجبل

الجيم

الجِرَان مقدم عنق البعير من منحره إلى مذبحه

الجرائد جمع جريدة وهى الخيل التى لا رَجَّالة فيها والبقية من المال

جَزُور البعير أو هو خاص بالناقة المجزورة وجمعه جزائر وجزر

الجُمَان اللؤلؤ أو حبات على شكله من الفضة

جَمَش بفتح الميم مشددة ومخففة غازَل وداعب

الجُون جمع جَوْن وهى من النبات الضارب إلى السواد لشدة خضرته والأحمر والأبيض والأسود، ومن الإبل والخيل الأدهم أى الأسود

الحاء

حَسَك نبات شائك شوكه ذو ثلاث شعب

حَصَان المرأة العفيفة أو المتزوجة

الحَوْذَان نوع من النبت ناضر الزهر مشرقه

حيازيم جمع حَيْزوم: وسط الصدر، أو ضِلَعُ الفؤاد، أو ما اكتنف الحُلقوم من جانب الصدر

الخاء

خَنَث الخنث التكسر والتثنى

الخَوَرْنق قصر للنعمان بن المنذر بالحِيرة

خَيْف الخيف كل هبوط وارتقاء فى الجبل، وهنالك أخياف كثيرة: منها خيف مِنَى، وخيف سلّام، وخيف النَّعَم

الدال

دابق قرية قرب حلب عندها مرج معشب نزه وبها قبر سليمان بن عبد الملك

دَبِيق بلدة مصرية بين الفرَما وتنيس وكان ينسج بها صنف شائع من الثياب يسمى الدبيقية

دَرَسَ درس الرسمُ ودرسته الريح محته

دَنّ إناء أطول من الحُب (الزير) يحفظ فيه الخمر ويحتفر له ويوضع فى الأرض إلى قرابة نصفه

الراء

رُزَام وقد مرّت على المصحح مضمومة فى الطبع فلم ينتبه لها — صوت البعير الذى ثقل عن النهوض أو صوت الناقة اذا رئمت ولدها أى أدركها الحنان له

الرَّعيل القطعة من الخيل أو مقدمتها

السين

سَرَارى جمع سُرِّيّة وهى الأمة التى بوأتَها بيتاً وتسررها وتسراها اتخذها سرية

السَّرْو شجر ، وما ارتفع من الوادى

السَّعْدان نبات شائك ترعاه الابل

السَّنَد ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح

سَوَاهم متغيرات الوجوه حزناً ودهشة

الشين

الشَّعانين ومعناه بالعربية التسبيح ويسمى عيد الزيتونة وستهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو ذكرى يوم ركوب المسيح للبعفور (الحمار) فى القدس ودخوله صِهْيَون والناس يسبحون بين يديه

الصاد

الصَّالى — من صَلَى اللحم اذا شواه أوصلا يده بالنار سخّنها أو صلِ النار قاسى حرها

صَرائم — جمع صريمة أو صريم قطعة الرمل من الكثيب

الطاء

طَارمة — من الطُّرْم وهو ضرب من الشجر

الطَّفلة — الفتاة الرَّخْصة الناعمة

العين

عَبير — العبير الزعفران أو أخلاط من الطيب

عَجْفَاء — من العَجَف وهو الهزال

العُفْر — جمع عفراء وهى من المواطن كل أرض بيضاء لم توطأ

العِلج — الرجل من كفّار العجم

العَيْر — حمار الوحش

عيسى باذ — ضاحية من ضواحى بغداد الى الشرق منها ومعنى باذ بالفارسية عمارة فهى عمارة عيسى والمراد به عيسى بن المهدى وكانت اقطاعاً له

الغين

غَالِيَة — الغالية ضرب من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن

اغتباق — الاغتباق الشرب بالعشى والغبوق اسم للشراب

الغَوْر — قاع كل شىء

الفاء

فىء — الغنيمة والظل ينسخ الشمس

القاف

القائم بنيَّة كانت قرب سامرا من أبنية المتوكل

القِنِّينَة إناء من زجاج للشراب

قَهَارم جمع قَهْرَمَان وقهرمانة وهو المدبّر الحفيظ على ما تحت يده

قين القين الحدّاد

الكاف

الكَلْفَاء من الكَلَف وهو شيء يعلو الوجه كالسمسم ولون بين السواد والحمرة

اللام

اللَّجُون من الابل الحَرُون

لَسَب يقال للعقرب اذا أنفذت إبرتها لسبت

اللَّيَاح قمر لَيَاح زاهر ناصع

الميم

متالِع المتالع مسايل الماء من المرتفعات

المثانى جمع مثنى وهو الوتر الثانى من أوتار العود

المُدَبَّرة من الجوارى التى يقول لها سيدها أنت حرة بعد موتى وهى لا تباع ولا تورث ، ومثلها المدبَّر

مُزَنَّرات لابسات الزنانير جمع زُنّار وهو ما يشد على وسط النصارى والمجوس

المِسْح الكساء من الشعر وجمعه أمساح ومسوح

المُسَهَّمة ثياب تشبه نقوشها السهام

المَطِيرَة — وقد صَفّها الطابع بضم الميم وسها عنها المصحح — قرية من نواحى سامَرّا ، وكانت من متنزهات بغداد

المِقْلَى آلة القلْى أى الانضاج

المِهْرَجان — بفتح الميم — اليوم التاسع من شهر أيب وهو سادس أيام ستة تقام فيها أعياد المهرجان وأصله عيد فارسى وعنهم أخذه القبط واتخذه العرب أيضاً موسماً يحاكون فيه الفرس وهم يتيمنون فيه باهداء الأترج والسكّر والنبق والسفرجل والعناب والتفاح

والمهرجان — بكسر الميم — احتفال الجمع وازدحامه

النوبة

نَبَطِىّ نسبةَ الى النَّبَط وهم جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين

النَّظَّام ابرهيم النظام إمام المعتزلة وحجتهم واقدر أهل عصره فى الجدل والمنطق

نَمْتَار نجتلب المِيرة أى الطعام

نمرقة بتليث النون والقاف الوسادة أو الطَّنْفَسَة

النَّيْروز وهو عيد الربيع وعيد السنة الجديدة عند الفرس وعنهم تناقله كثير من الأمم وهو ستة أيام وفى ليلته يقف بباب الملك فتى صبيح الوجه فاذا أصبح دخل عليه غير مستأذن فيقول له الملك من أنت ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك ولأى شىء وردت وما معك فيقول أنا المنصور واسمى المبارك ومن قِبل الله أقبلت والملك السعيد أردت وبالسلامة وردت ومعى السنة الجديدة ثم يجلس وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الاسلام الحجاج بن يوسف الثقفى

الواو

وَشيجة — الوشيجة شجر الرماح واشتباك القرابة

الوَلاَء — المِلْك والمولى المالك والعبد والمعتِق والمعتَق

وهاد — جمع وهد ووهدة — الأرض المنخفضة

الياء

يَسْتشرى — يشد غضبه

يلتدم — يلطم وجهه

يَلى — يتولّى الأمر

مراجع الكتاب

تلك جملة الكتب التى رجعت عليها فى تحرير هذا الجزء من الكتاب

التاريخ	المؤلف
تاريخ الأمم والملوك	الطبرى
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون
الكامل	ابن الأثير
مروج الذهب	المسعودى
النجوم الزاهرة	أبو المحاسن يوسف الأتابكى
كتاب بغداد	ابن أبى طاهر طيفور
تحفة الأمراء	الصابى
وفيات الأعيان	ابن خلكان
الفخرى	ابن الطقطقى
الأخبار الطوال	أبو حنيفة الدينورى
بيان المغرب	الأزهرى
الاحاطة فى أخبار غرناطة	لسان الدين بن الخطيب
نفح الطيب	المقرى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب	التميمى المراكشى
التشريع الاسلامى	
تاريخ التشريع الاسلامى	الخضرى
المدونة	مالك بن أنس
تيسير الوصول	الشيبانى
رد المحتار	ابن عابدين
الأدب والاجتماع	
الأغانى	أبو الفرج
الأمالى	أبو على القالى
إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب	ياقوت الرومى

التاريخ	المؤلف
المغرب فى حلى المغرب	ابن سعيد
مصارع العشاق	السراج
نهاية الأرب	النويرى
المحاسن والأضداد	الجاحظ
التاج	
رسالة القيان	
المحاسن والمساوىء	البيهقى
شرح مقامات الحريرى	الشريشى
محاضرات الأدب	الراغب الأصفهانى
العقد الفريد	ابن عبد ربه
يتيمة الدهر	الثعالبى
قلائد العقيان	الفتح بن خاقان
الخطط	
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع	
معجم البلدان	ياقوت
الأزمنة والأمكنة	المرزوقى
رحلة ابن جبير	
رحلة ابن بطوطة	
صفة المغرب	اليعقوبى
مسالك الابصار	ابن فضل الله العمرى
الفرق الاسلامية	
الفصل فى الملل والاهواء والنحل	ابن حزم
الملل والنحل	الشهرستانى
الفرق الاسلامية	من صبح الاعشى للعلقشدى

فهـــرس

الجزء الثالث من المرأة العربية

فى جاهليتها واسلامها

الأمة العربية بين الرأى والهوى ٣ — ١٠

الفتوحات الاسلامية — سر قوة المسلمين — اشفاق الرسول وخلفائه من تأثر المسلمين بالترف . العصبية العربية فى الدولة الأموية . الترف والشهوات فى الدولة العباسية . افتتان الرجل . تأثر المرأة

الجوارى ١١ — ٦٤

الجوارى فى العراق . السباء . تكاثر الجوارى . الجوارى يملكن أزمة العرب . وسائل الفتنة . الجمال . التجمل . وصف الجاحظ للجوارى وتأثيرهن . أدب الجوارى . شعر الجوارى . غناء الجوارى . بذل . عنان . بصبص . دنانير عريب . فضل . محبوبة . غلبة الجوارى على قلوب العرب . الجوارى فى عهد المهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والمتوكل . نفوذ الجوارى . الهادى والخيزران . ذات الخال وحمويه . حديث الجاحظ عن نفوذ الجوارى . الجوارى عيون الخلفاء . يعقوب بن داود والمهدى . الجوارى يتجسسن للمأمون . رقابة الجوارى . أمومة الجوارى . الجوارى فى الاندلس . قمر . الناصر وجواريه . الزهراء . قصر الزهراء . صبح . شعر ملوك الاندلس فى الجوارى . المعتمد وجواريه . اعتماد . الجوارى المدنيات فى الأندلس . بنو الأغلب . الجوارى فى العصر الفاطمى

الديارات ٦٤ — ٧٢

فتنة العرب فى الديارات . ديارات العراق . ديارات الشام

دور المآتم ٧٣ — ٧٦

ذيوع الغناء فى العراق . الحانات . الواثق وحانتاه . العلم والأخلاق فى الدولة العباسية

المرأة العربية فى العراق ٧٧ — ١٢٦

كيف كان العباسيون ينظرون الى المرأة — ٧٧ — الصدمة الأولى : طلاق المكره — ٧٩ — التجنى على المرأة العربية ٨٠ الاغراء بالفساد ٨٢ حلول الكارثة — ٨٥ — بيت بنى العباس — ٨٥ — بيت العلويين — ٩١ — اتصال البيتين — ٩٣ — القطيعة — ٩٤ — الاقتداء — ٩٤ — النساك والناسكات — ٩٥ — رابعة العدوية . عبدة البصرية . نخرية بنت عثمان . معاذة بنت عبد الله انصراف المتنسكات عن الزواج . المرحلة الثانية — ١٠١ — الكساد . إباحة المتعة والزواج الموقوت — ١٠٣ — آثام الظنون — ١٠٤ — الحجاب — ١٠٦ — محنة المرأة فى فتنة القرامطة — فرقة الاباحة — ١٠٨ — الحياة الفكرية للمرأة فى العراق — ١١٣ — المرأة والقضاء — ١١٣ — المرأة البدوية — ١١٥ — مأثور من أدب النساء — ١١٦ —

المرأة الأندلسية ١٢٧ — ١٤٩

الحياة الأندلسية الأولى — المرأة فى هذه الحياة . عصر عظمة المرأة الأندلسية . المرأة فى القرن الخامس الهجرى . أدب النساء . ولادة بنت المستكفى . حمدة بنت زياد . مريم بنت يعقوب الانصارى . نساء غرناطة . دراسة الأدب فى الأسر الأندلسية . بعد القرن الخامس . الترف . الوهن . انسياق أهل الاندلس فى مساق الأفرنج . أدب هذا العصر . أثارة من أدب الاندلسيات

المرأة المغربية ١٥٠ — ١٥٩

المغرب الاقصى . أهله . نساؤه . الاسرة المتبذئة . الحالة الاجتماعية للمرأة المغربية . حالتها الفكرية حالتها العلمية . التعليم الدينى والتعليم الحديث للمرأة المغربية . السيدة فاطمة الزهراء . السيدة عائشة الشنقيطية . السيدة زينب الفرنيطية . السيدة خديجة المرينية . كلمة المؤلف فى التربيتين

معجم الكتاب ١٦٠

مراجع الكتاب ١٦٨



جاريتان بغداديتان ترقصان

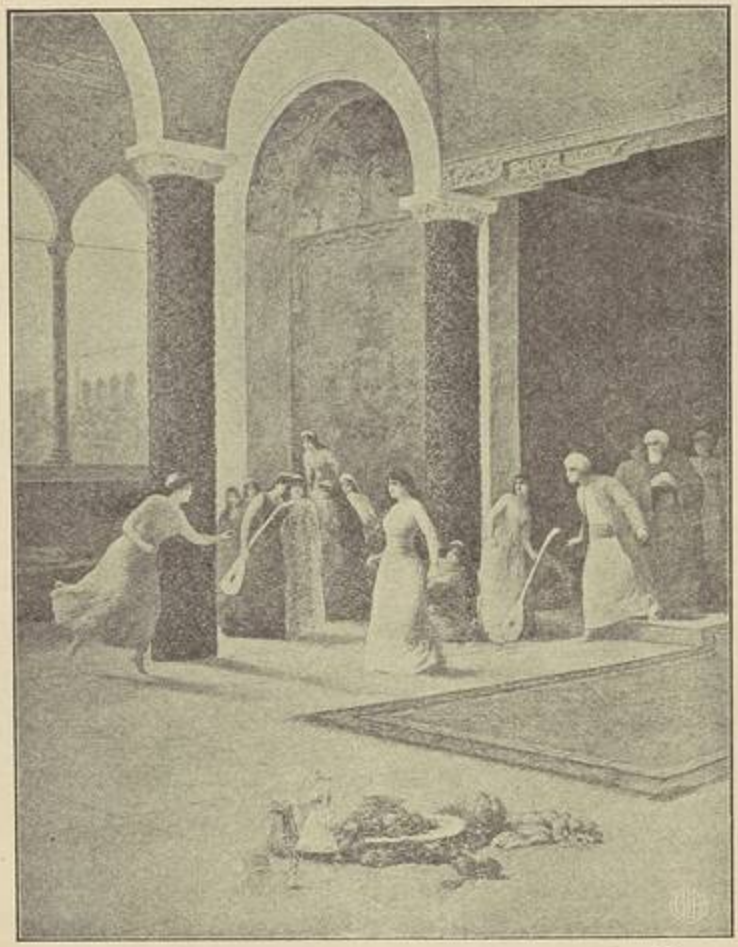

فى قصر من قصور بغداد



فتيات أندلسيات بالزى المراكشى

ص ١٢٧

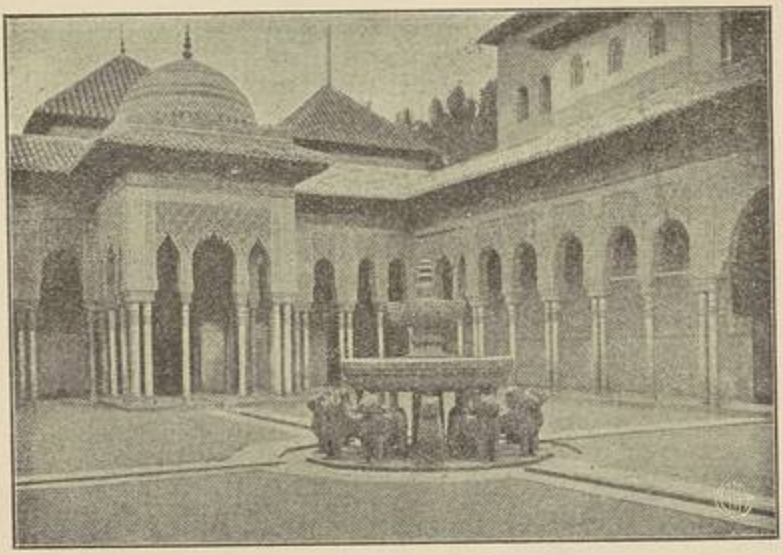

ساحة الأسود بقصر الحمراء بغرناطة



مخدع الملكة فى قصر أشبيله

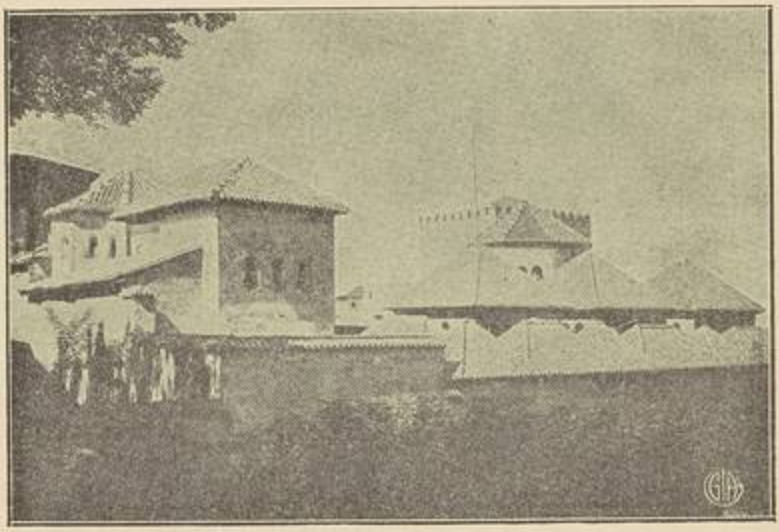

الجانب الشرقى من قصر الحمراء بغرناطة



فتاة مغربية أعرابية من سكان جنوب المغرب الأقصى



سيدة مغربية من المنطقة الاسبانية وهى مرتدية الزى المنزلى المراكشى



طائفة من السيدات المغربيات يشاهدن موكب (سلطان الطلبة) وهو موسم من مواسم المغرب يجتمع فيه الطلبة المغربيون وعلى رأسهم سلطانهم الذى اختاروه لهذا اليوم ويتولى ملك الطلبة ثلاثين يوماً تقدم له فيها كل مراسيم الملك وسمات السلطان وتكون ولايته هذه من قبل سلطان المغرب بمرسوم سلطانى وهنالك يتقبل (سلطان الطلبة) الهدايا والهبات من كل ذى شأن بهذه البلاد وكل ما يجمع ينفق على ترفيه الطلبة وتنزيههم وما يبقى من ذلك يوزع عليهم على سواء



ميدان (الصويرة) من ثغور المغرب على المحيط الاطلنطى
وتمتاز على ثغور المغرب بجودة هوائها وحسن منظر المحيط المنعطف عليها

ص ١٥٧

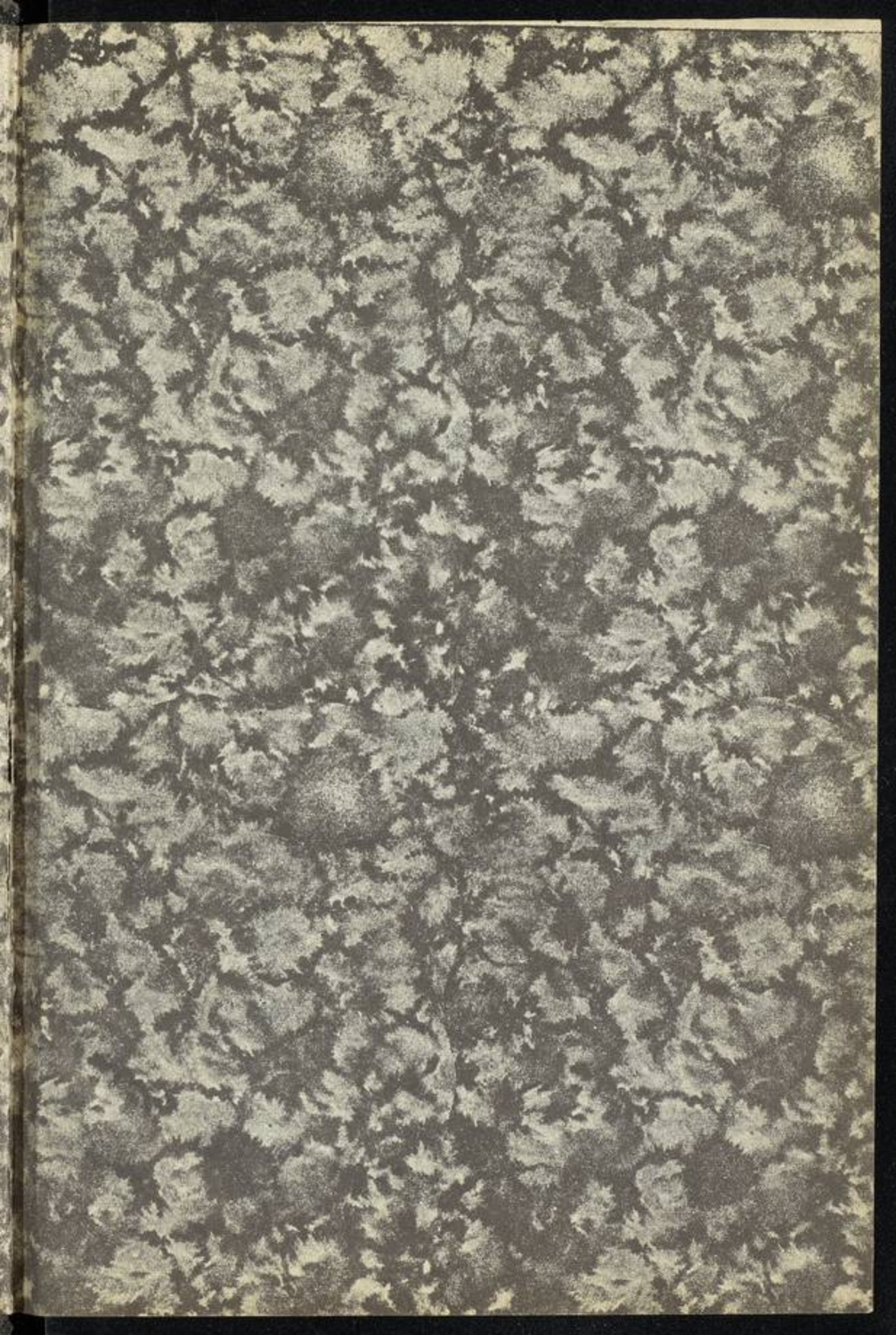

893.791
Af42
v. 1-2

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58873198
893.791 Af42
Marah al-Arabiyah li